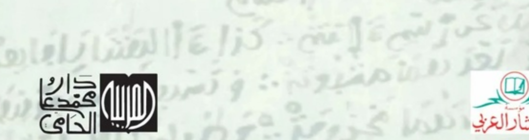
وحيد السعفي

إسلام النشأة المفقود



السّقيفة





إسلام النشأة المفقود

❋

السّقيفة

وحيد السعفي

إسلام النشأة المفقود

❋

السّقيفة





العنـــوان: **تاريخ النشأة المفقود * السّقيفـــة**
المؤلّـف: وحيـــد السعـفي

الطبعة الأولى: 2022

الناشر: **دار محمد علي للنشر©**
نهج محمد الشعبوني – عمارة زرقاء اليمامة
3027 صفاقس الجديدة – الجمهورية التونسية
هاتف: 74407440 216+/
فاكس: 74407441 216+/
البريد الالكتروني: edition.medali@tunet.tn
الموقع: www.editionmedali.tn
Edition med ali
medaliedition

عدد الناشر: 22/780-720
الترقيم الدولي: 978-9973-33-620-0
المطبعة : Focus graphics-Tunis

الانتشار العربي:
ص.ب: 113/5752
البريد الالكتروني: arabdiffusion@hotmail.com
الموقع: www.alintishar.com
بيروت – لبنان
هاتف: 9611-659148 - فاكس: 9611-659150
الترقيم الدولي:978-9953-93-532-4

الكلمات المفاتيح: وحيد السعفي – إسلام النشأة المفقود – سقيفة بني ساعدة – يثرب المدينة – الصحابة – حظيرة النساء – الخلافة.

فاتحة الكتاب

إسلام النشأة المفقود
السّقيفة أنموذجاً

نحن لا نكتب التاريخ. نحن لا نكتب التاريخَ إذا كان التاريخُ ماضياً بعيداً، اختلطت فيه أمور الدنيا بأمور الدين، وصار تاريخاً مَجيداً. نحن لا نكتب التاريخَ إذا كان التاريخُ أحداثاً لا عدّ لها ولا حصر، تمّت في ظلّ الصراع والعنف والأسر والسبي والقتل، واختلطت بالبطولات الكُثر، وامتدّت إليها يد السماء بالعون والسند، وأبلى فيها المسلمون الأوّلون البلاء الحسن، وكانوا فيها هم الغالبون. نحن لا نكتب التاريخ، نحن مُتفرّجون، نقرأ في التاريخ قراءتَنا، وقراءتُنا في التاريخ قراءةٌ ليس غيرُ، تُضاهيها ألف قراءة وقراءة.

ولا تَغرنّك الكتب تصدر كلّ عام بالمِئينَ، تُعالج ذلك التاريخ المجيد. ولا يَغرنّك جدال العلماء وأشباه العلماء، يُزوّرون المقالات ويُؤثّثون البرامج في الإذاعات وقنوات البثّ المشبوهة. ولا تَغرنّك دروس الأساتذة في الجامعات، وقد انتصبوا عُلماءَ في ذلك التاريخ لا تُضاهيهم العلماء. ولا تغرنّك التسميات، الإسلام المحمّدي، والإسلام الصفاء، والإسلام الأوّل، والإسلام المبكّر، وإسلام الخلفاء، وهلمّ جرّا. كلّه إسلام النشأة المفقود، إسلام قد غبر، إسلام سبق الإسلام الذي قام على أنقاضه واستقلّ عنه وساد، إسلام كان كالعصر الحجري في العصور، قامتْ عليه العصور اللاحقة، وكان لازماً لقيامها، لكنّها اختلفت عنه واستقلّت[1]، إسلام لا نعرفه إلاّ من خلال الصورة التي رسمها له الإسلام الذي جاء بعده واستطاع أنْ يسود، وهو الإسلام الاجتماعي الذي تشكّل في ظلّ الأمويين وترسّخ في ظلّ العباسيين،

إسلام السلطة والفقه والمؤسسات، إسلام القرآن المختوم والثقافة المختومة، ونحن لا نعرف غير هذا الإسلام إسلاماً.

إنّ هذا الإسلام الذي نعرفه لا يجمع بينه وبين إسلام النشأة المفقود غير الإسلام اسماً والله ربّاً ومحمّد نبيّاً ورسولاً، وما عدا ذلك فاختلاف صارخ بين إسلامَيْن، إسلام أوّل، افتقر إلى تدوين ساعة كان، وضاع من غير رجعة، وإسلام السلاطين والفقهاء، ركّبوه ليسودوا، ودوّنوه فخلُد إلى أبد الآبدين. وترانا نبش في ما دوّنوا من كتب نبحث عن بعض العناصر المكوّنة لتلك الحلقة المفقودة، وكلّما عثرنا على عنصر، تاريخاً كان، أو قصّةً جميلةً، أو أنشودةً تشكّلت أسطورةً من أساطير الأوّلين، انتشيْنا ورسمنا فينا لإسلام النشأة المفقود صورة فسيفساء بشتّى عناصر الزينة، واستمسكنا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها. فإسلام النشأة المفقود كالعقد الفريد الذي نظنّه قد زيّن جيداً فريداً وضَيّعته ذاتُ الجيد، وتفرّقتْ حبّات العقد في كلّ سكّة وطريق. وكلّما عثرنا على حبّة تساءلنا عن موقعها من الحبّات، وعن مكانها من الجيد. ونظّرنا لذلك، دون أنْ يغيب عنّا الجيد الذي هو في الواقع غايتُنا وهدفُنا. نريد أنْ نعرف الجيدَ وصاحبةَ الجيد. ولكن، أوُجدتْ فعلاً صاحبةُ ذاك الجيد؟ نريد أنْ نعرف الأصول. أكانت فعلاً هناك أصول، أم تُراه حلمنا الذي راودنا مدى الدهر حتى صار هوساً فينا لا يزول، فرسمنا للإسلام قصّةً جَميلة في النشأة والميلاد لمّا صار الإسلام إسلامَ عنف وإرهاب، إسلامَ مليارين من العباد، يعيشون العبوديّة والذلّ، يعيشون الجهل والفقر وأمراض العصور الغابرة، يعيشون على هامش العصر، لا تَجذّرَ لهم في العصر، يأتمرون بأمر شرذمة من الأعراب، يؤجّجون فيهم الحقد والصراع والفتنة والقتال؟

نحن لا نكتب التاريخ، نحن نروي قصّة في إسلام النشأة المفقود، رواها قدماء القرنيْن الثاني والثالث الهجريَيْن فرسموا بها لنا معالم الطريق. وقد جعلوها أنشودة ذكرى وفخر بأجدادهم الذين صنعوا ذلك التاريخ المفقود، فجاءت أسطورة من أساطير الأوّلين، نردّدها لتجاوز العجز فينا وقد افتقرنا إلى السبل التي تُنير الطريق. وقد انبرى إلى تلك القصّة المُحدثون، ونقلوها عن أولئك القدماء، وكتبوها كأنّها التاريخ، وظنّوا أنّهم يكتبون التاريخ، فضلّ

الناس بهم الطريق وظنّوهم يكتبون التاريخ، ولا تاريخ، إذ كان ذلك قصّة تُروى، والقصّة ما كان يُمكن أنْ يكون، لا ما كان فعلاً، وما كان فعلاً هو وحدَه التاريخ[2].

وقد رُكّب إسلام النشأة المفقود تركيباً بديعاً، فقامت الوثنيّة العربية الجاهليّة فيه تُحدّث بالأصول التي عنها لا يحيد، وقامت اليهودية والنصرانيّة فيه تُحدّثان بتجذّره في المحضن السامي، والحبشة حيث كان النصارى، ويثرب وخيبر حيث كان اليهود، وقام فيه محمّدٌ رسولاً ونبيّاً، والخلفاءُ الراشدون سلاطين، والصحابةُ الذين انتشروا في الأصقاع فاعلين. فإذا كان ذلك كذلك، كان إسلام النشأة المفقود، بوصفه قصّةً تُروى تتغنّى بالتاريخ المجيد، مُتغيّراً تغيّر الأهواء والملل والنحل والمذاهب الكثيرة، واتّخذ المنحى الذي أراده له الرواة، والرواةُ كانت تُسيّرهم الأهواء والملل والنحل والمذاهب الكثيرة، ولا تستقيم قصصهم إلاّ من وجهة نظر هذا المذهب أو ذاك.

ويمكن أنْ نقول اختصاراً، بشيء من الاختزال الذي لا يضرّ، إنّ إسلام النشأة المفقود قامت على أمره قصتان متقابلتان متضادّتان، قصّةٌ سُنّيةٌ انتشرت منذ القديم وسادت فعرفناها وكرّسناها، وقصّةٌ شيعيّةٌ عاشت التقيّة، ولم تفز بالتبجيل والتكريم إلاّ في عصرنا الحديث، وانتشرت تُزاحم الأولى في الانتشار، فاكتشفناها وقدّمناها على الأولى، وقد ظننّا أنّها الأوْلى بالتصديق، وهي في الحقيقة مثل الأولى، كُتبت ذكرى للصراع على السلطة، ولكنّها تمتاز عن الأولى بميزة الخلود لأنّها بنتُ الاضطهاد، ونحن نحبُّ إحياء صُور الاضطهاد في عصر الانتشاء بالديمقراطية وحقوق الإنسان وحرّية التعبير، كأنّنا نُحاول بذلك التكفيرَ عن ذنب الآباء والأجداد.

ويُمكن أنْ نقولَ ولا حَرَج إنّ الصراع الدائر اليوم في الإسلام، هو صراع في إسلام النشأة المفقود. كلّما قامت ألف حجّة على وجوده قامت ألف حجّة على عدم وجوده. كلّما اخترنا له نهجاً قام عند الخصوم نهجٌ يُضاهيه. كلّما تشكّلت له صورةٌ عناصرها المكوّنة الاعتدال والتسامح والعدل تشكّلت له صورة مضادّة عناصرها المكوّنة العنف والاضطهاد والإقصاء. ويتيه العلماء الأجلاّء، مهما تكنْ مراتبهم في العلم والجلال، في إسلام النشأة المفقود،

وهم لا يعرفونه إلا من خلال القصص المروية التي تتشكّل تاريخاً وهي ليست من التاريخ في شيء، مُجرّد قصّة تُروى هنا خلّدتها كتبُ السنّة وتناقلها عنها عُلماؤهم الأبرار، أو قصّة تُروى هناك خلّدتها كتبُ الشيعة وتناقلها عنها عُلماؤهم الأبرار أيضاً. وقد قام العلماء الذين على عرش العلم اليوم استووْا، يروون هذه القصّة أو تلك يظنّون أنّهم يُؤرّخُون للإسلام وهم لا يفعلون إلاّ إعادة ما أراده السلف الصالح من أهل السنّة أو الشيعة، إعادةً جميلةً قد تتشكّل روايةً أو سرداً، وقد تتشكّل بحثاً علميّاً صارخاً، فتُثير الجدل وينتهي الصراع بين أصحابها إلى التراشق بالتهم والقذف والتشويه والتحقير والاتهام بالتحريف والتحيّل والتزوير[3]، وتتعرّى الحقائق، فإذا البحث العلمي شعارٌ يُرفعُ ليس غيرُ، وإذا التحرّي شيءٌ من ذلك القبيل، وإذا النقل عن أمّهات الكتب أخبار لا تستقيم إلاّ في ظلّ القصّ الجميل الذي كلّما كان أكذب كان أعذب، وكلّما كان أغرب وأعجب كان أمتع، فجاء إسلام النشأة المفقود إسلاماً خالداً لا يزول.

انظر العلماءَ يتصارعون في إسلام النشأة المفقود، كلّ فريق منهم يُريد أنْ يُبيّنَ أنّه الأعلمُ بإسلام النشأة المفقود والأجدرُ بتمثيله خير تمثيل. انظرهم عُلماءَ في أمر غير موجود، يتصارعون في أمر غير موجود. كلّه إسلامٌ مفقود!

فَلِمَ الصراعُ في إسلام النشأة المفقود؟

ومن بين القصص المروية في إسلام النشأة المفقود تقوم قصّة خلافة أبي بكر محمّداً ساعةَ قُبض نسيجَ وَحدِها، لأنّها قصّة خلافة الأب المؤسّس، وخلافة الأب المؤسّس تقوم في الثقافة قصّة ميثية وخرافة، وتتشكّل أسطورة من أساطير التأسيس في علم أنتروبولوجيا الأديان، وتُصاغ أحداثها وفق الانتماء. فكان تَعيين أبي بكر حقّاً لا يشوبه باطل عند السنّة، وكان سطواً على الحقّ واغتصاباً لسلطان آل البيت واضطهادهم عند الشيعة. وكانت السقيفة في القصّة مسرحاً لتلك الخلافة، تشكّلت فيها أمام الناس تراجيديا المصير إثر قبض النبيّ، فاخترناها لهذا الكتاب متناً رئيساً، ووفّرنا لها المدد الذي أغناها من الفضاءات الأخرى مثل بيت النبيّ والمسجد وما حفظت لنا الذاكرة من أماكن.

هنا تمّت أحداث القصّة في ثلاثة أيّام لا تزيد، رويناها باعتماد ما جاء في الكتب وأمّهات الكتب. ولم نقتصر في ما روينا من أحداث على الخلافة وحدَها، بل تجاوزناها إلى ما كان، أو ما كان يُمكن أنْ يكون كان، في بيت النبيّ، والنبيّ مُسجّى فيه ثلاثة أيّام. فالميّت المُسجّى في البيت حوله خلق، نساء على وجه التحديد، وموال وإماء وعبيد، كانوا أحياء لا أمواتاً، ولا كانوا صمّاً ولا بُكماً، فتحدّثوا بما تأتّى، وعبّروا عن صلتهم بالحياة، تماماً كما يُعبّر أهل الميت في كلّ زمان ومكان عن صلتهم بالحياة، في حضرة الميّت المُسجّى بينهم. تلك هي سُنّة الحياة، لا قطع الله سُنّة الحياة!

وقد وثّقنا للقصّة توثيقاً علميّاً جعلناه هوامش في آخر الكتاب، لغاية فنّية أردناها. فمن طلب القصّة اكتفى بالمتن واستغنى عن الهامش، ومَن طلب التحرّي والعلم جمع بين المتن والهامش، فمدّه الهامش بالعلم الذي أراد وسمّى له الكتب المعتمدة في نقل الأخبار واحتوتها قائمة المصادر والمراجع بالتفصيل، ألا فليتوسّع المتوسّعون[4]!



السقيفة

«هذه قصّةُ استخلاف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأبي بكر، وشأن السقيفة، وما جرى فيها من القول، والتنازع بين المهاجرين والأنصار، وبَعضهم يَزيدُ على بَعض في الكلام، فجمعتُ ذلك، وألّفتُه على معنى حَديثهم، ومَجاز لُغتهم»

ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص19

«وما يُشاهدهُ الناظرُ في كتابي هذا مِنْ خَطإ ووَهْم فَلْيَعْلَمْ أنّي لم أقلهُ مِنْ نَفسي، وإنّما نَقلْتُه من كلام العُلماء وأهل الحِفظ والإتقان»

ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م1، ص14



وكان صباحٌ وكان مساءٌ يوماً واحداً

«إنّ في فنّ التاريخ خطأً كثيراً، وكم يُخطئ التاريخ وكم يكون ضلالاً كبيراً!»

علي عبد الرازق، **الإسلام وأصول الحكم**، ص95



1

صعّد في السماء، صوتُ عائشة الشجيّ: مات محمد، مات.

ارتجّ العرش في السماء، تحفّ به الملائكة. سَجدَ جبريل، حامل الوحي الأمين، إكباراً للروح الصاعدة على الطيورِ الخُضْرِ، يسوقها عزرائيل وجنده الكُثر. سجد إسرافيل، الصديق القديم. سجدت الملائكة. هبّ الأنبياء من سُباتهم العميق. هذا آدم في السماء الدنيا، كهيئته يوم خلقه الله على صورته، تامّ الخلق لم ينقص منه شيء، طوله ستون ذراعاً أو تزيد. وهذا عيسى في السماء الثانية، مربوع الخلق، بسط الرأس، أحمر كأنّما خرج من دَيْماس. وهذا يوسف في السماء الثالثة، الجمال تشكّل بشراً، فَضُل على الناس في الحسن كما فَضُل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وهذا إدريس الصدوق في السماء الرابعة. وهذا هارون في السماء الخامسة، تكاد لحيته تُصيبُ سرّتَه من طولها، بيضاء نصفها وسوداء نصفها، جالسٌ يقصّ على القوم القصص. وهذا موسى في السماء السادسة، رجل طويلٌ سبطٌ، شعره مع أذنيْه أو فوقهما، جعد كأنّه من رجال شَنوءة. وهذا إبراهيم في السماء السابعة، وجه سمح كوجه محمد. هبّوا جميعاً بالصلاة والسلام على الروح الصاعدة، خرّوا لها سُجّداً[5].

صعّد في السماء، صوتُ عائشة الشجيّ: مات محمد، مات.

شَلَّ الصوتُ الحركة. تسمّرت الشياطينُ في أماكنها. بُهتَ الجنّ، بُهتت الغيلان. الْتَوَتْ الأشجارُ على أعناقها. توقّفت الشمس في مدارها. توقّف القمر. سجدت الكواكبُ والشمس والقمر. وقفت الأنعام رافعة أعناقها إلى السماء. والطير في الفضاء لا طيرَ لها ولا تحليق. تجمّد الماء النازل من السماء خيوطاً من اللؤلؤ بيضاء. انحبس الماء النابع من الأرض، زمزم

صارت خلاء. تكلّست البحار ملحاً، تحجّر الحوت فلا فتح فماً ولا ابتلع للهشم نبيّاً. أظلمت المدينة المنوّرة[6]. ارتجّت مكّة المكرّمة[7].

صعّد في السماء، صوتُ عائشة الشجيّ: مات محمد، مات.

هبّت الزوجات من حُجرات حظيرة النساء. هذه حفصة وهذه أمّ سلمة. هذه سودة وهذه أمّ حبيبة. هذه زينب وهذه ميمونة. هذه جُوَيْرية وهذه صفية. هرولن إلى بيت عائشة. صِحنَ وصاحت. خرج الصوت واحداً: أَمُتَّ يا محمّدُ ونحن نُحدّث أنّ النبيَّ لا يموت[8]؟ خاننا فيك الردى، تركتنا أراملَ، فلِمَنْ تركتنا؟

كان النبيّ بينهنّ ممدوداً بلا غطاء. قبّلنه حيث تقبّل الزوجةُ زوجَها. مدّت عائشة يدها إلى بُردٍ حِبَرَة كان مشدوداً إلى الرتْج. قرّبت البُردَ إلى النساء. مَسَكْنَه جميعاً بأطرافه مع عائشة. وضعنه برشاقة على الجسد الموات. عُدن إلى العويل والبكاء، يبكين زوجهنّ ككلّ النساء. صِحنَ صوتاً واحداً: أَمُتَّ يا محمّدُ ونحن نُحدّث أنّ النبيَّ لا يموت؟ خاننا فيك الردى، تركتنا أراملَ، فلِمَنْ تركتنا؟

وصل الصوتُ النساءَ في سكك المدينة المنوّرة التي صارت ظلاماً دامساً. جئن بيت الرسول الذي صار مناحةً. وقفن على هول الفاجعة: رأيْن «أزواج النبي قد وضعن الجلاليب عن رؤوسهنّ يلتدمن في صدورهنّ، يَضربن الوجوه، قد ذُبحتْ حُلوقُهنّ من الصياح[9].» اصطفّت النساء حول أزواج الرسول. ارتفعت أصواتهنّ بالصلاة والدعاء. سَرتْ فيهن عدوى أزواج الرسول، التدمن، ضربنا الوجوه، صِحن، ذُبحت حلوقهنّ، بُحّت منهنّ الحناجر[10].

صعّد في السماء، صوتُ عائشة الشجيّ: مات محمد، مات.

بلغ الصوتُ بلالاً. أجهش بالبكاء. سمع صوتاً هاتفاً: ﴿أَذِّنْ فِي النَّاسِ [...] يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[11]﴾. سمع الصوت يقول: «أذّن وعَليّ البلاغ[12].» تسلّقَ النخلةَ السحوق في فناء المسجد. أذّن مِنْ على رأسها بالخبر: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. مات محمد، مات محمد، مات محمد.

رجّع الكونُ الصدى. تواضعت الجبال. بلغ الصوتُ أرجاءَ الأرض. أسمعَ مَنْ في الأرحام والأصلاب. أسمع الحجر والمدر والشجر[13]. أسمع الإنس والجنّ والتراب والماء. قال كلّ شيء: لبّيك اللهمّ لبّيك[14]. حلّقت الطير في السماء تنشر الخبر. نَعَبَت الغربان السانحة تنعى النبيّ إلى الأمم[15]. قصد الناسُ المدينةَ يملؤون السكك. غصّت بهم الساحة. ماجوا واضطربوا أمام بيت الرسول[16]. غصّ بهم المسجد.

ارتجّت الصُّفّة في المسجد بأهلها. كانت ظُلّةً عند مُؤخّر المسجد، وكان أهلُها فقراء، لا أهل لهم ولا مأوى. أنسوا الصُّفّةَ وانتسبوا إليها وجعلوها مأوى، يؤمّونها ولا يغادرونها إلاّ لحاجة[17]. كانوا مرابطين في المسجد على عادتهم لمّا وصلهم الصوت ينعى النبيّ. ظنّوا الساعة آتية لا ريب فيها. قالوا: إنّ مَوتَ النبيّ إيذانٌ بقيام الساعة. قاموا إلى الآيات التي تُنذر بالنهاية يقرؤونها ويتلمّحون فيها المصير. قاموا إلى الأحاديث التي تشكّلت في قيام الساعة ونزول الدجّال ومجيء عيسى ابن مريم، يُفسّرونها ويتشوّفون فيها النهاية. ارتفعت أصواتهم بالترتيل والتجويد. ارتفعت بالتفسير. اجتمع إليهم الناسُ الذين كانوا يقولون: إنّ مَوتَ الرسول لَمِنْ علامات الساعة.

رجّع الكونُ الصدى. بلغ عليّاً النداء. هرول إلى بيت الرسول. أخرج النساء من بيت عائشة حيثُ سُجّيَ الرسول. اختلى بمحمّد وبكى كما تبكي على الأموات النساء. همس همساً لطيفاً كالحفيف: لِمَنْ تركتني يا محمدُ، لِمَنْ تركتني يا ابنَ عمّي وصهري؟

رجّع الكونُ الصدى. بلغ الزبيرَ النداء. هرول إلى بيت الرسول. انظمّ إلى عليّ. سلّم على الرسول وأجهش بالبكاء. جاءهما العبّاس يفعل فعلهما. ثمّ جاء طلحة يبكي ويقول: ها الرسول مات، أنتَ خير مَنْ ترك فينا يا عليّ. «قام عليّ فأرْتَجَ البابَ، وجاء العبّاس معه بنو عبد المطّلب فقاموا على الباب. قال العبّاس: أقبلوا على صاحبكم[18].» ظنّوا النبيّ مِلكاً خاصّاً بهم. خاب ظنّهم.

رجّع الكونُ الصدى. بلغ عُمرَ النداء. كان غير بعيد من هنا، يدور على نفسه منذ اشتدّ على النبيّ وجعُه، كأنّه ينتظر أمراً ما. هرول إلى بيت الرسول يصحبه المُغيرة بنُ شُعْبة. شقّ عُمر الطريق إلى باب البيت الذي كان يحرسه

بنو العبّاس وداخله عَليّ. دقّ الباب بعنف. فتح عَليّ. دخل يتبعه المُغيرة صاحبُه. «كشفا الثوب عن وجهه، فقال عمر: وا غَشْيَا! ما أشدّ غَشْيَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم! ثمّ قاما فلمّا انتهيا إلى الباب قال المُغيرة: يا عُمر مات والله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم! فقال عُمر: كذبتَ، ما مات والله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولن يموت حتى يُفني المنافقين[19].» خرج إلى الحشود أمام بيت الرسول، صاح فيهم قال: «إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله مات، إنّ رسول الله ما مات، ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى، غاب من قومه أربعين ليلة، ثمّ رجع إليهم بعد أنْ قيل قد مات. ووالله ليرجعنَّ رسولُ الله كما رجع موسى، فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسولَ الله مات[20].» استلّ سيفه البرّاق، راح يديره في الفضاء فيلمع في شمس الضحى. كان عُمر يهدّد الناس، فيخاف الناسُ عُمر، ويرتعشون من صولة السيف الذي استلّ.

واصل عُمرُ الحديث في حشود الناس المجتمعين، ينفي موتَ الرسول، حتّى ظنّ الناسُ به الظنون وقالوا: «خُبلَ عُمر وجعل يصيح ويَحلف: ما مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[21]» وقالوا: «دخل عُمرَ أمرٌ جَليلٌ، فأقبل والِهاً مُدَلَّهاً يقول: ما مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا يموت، إنّما هذه غشية[22].» ظنّوا به الظنون. ظنّوه يفعلُ ذلك ليؤجّلَ شيوعَ أمر وفاة الرسول، ولو إلى حين، ويُلهي الناسَ عن التفكير في الانعتاق من الإسلام، أو الانقلاب على السلطة واغتصابها من غير حقّ، أو الأخذ بثأر مَن قُتل. وقد ذهب هذا المذهب بعضُ العلماء، وبرّر فعل عُمر قائلاً: «اقتضت المصلحة عند عُمر تسكين الناس بأنْ أظهر ما أظهر من كون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يمت، وأوقع تلك الشبهة في قلوبهم، فكسر بها شِرّةَ كثير منهم، وظنّوها حقّاً، فثناهم بذلك عن حادث يُحدثونه. ألا ترى أنّ الملك إذا مات في مدينة وقع فيها في أكثر الأمر نهب وفساد وتحريق، وكلّ مَن في نفسه حقد على آخر بلغ منه غرضه، إمّا بقتل أو جرح أو نهب مال، إلى أنْ تتمهّد قاعدة المَلِك الذي يلي بعده، فإذا كان في المدينة وزير حازم الرأي كتم موت المَلِك وسجن قوماً ممّن أرجف نداءً بموته، وأقام فيها السياسة، وأشاع أنّ المَلِك حيّ، وأنّ أوامره وكتبه نافذة، ولا يزال يلزم ذلك الناموس إلى أنْ يُمهّد قاعدة الملك

الوالي بعده. وكذلك عُمر أظهر ما أظهر حراسةً للدين والدولة إلى أنْ جاء أبو بكر[23].»

وقد نجحت خطّة عُمر وسرى شيءٌ كالشكّ في الناس، فدخلوا على النبيّ البيتَ يُنكرون الموتَ ويَصدّون عليّاً وبني العبّاس عن التجهيز والدفن: «اقتحم الناسُ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بيت عائشة ينظرون إليه، فقالوا: كيف يموت وهو شهيد علينا ونحن شهداء على الناس، فيموت ولم يظهر على الناس؟ لا والله ما مات ولكن رُفع كما رُفع عيسى ابن مريم صلّى الله عليه وسلّم ولَيَرْجَعنَّ. وتوعّدوا مَن قال إنّه مات، ونادوا في حجرة عائشة وعلى الباب: لا تدفنوه فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يَمتْ[24].»

اضطُرَّ بنو العبّاس وعليّ إلى الخروج من البيت الذي اقتحمه الناس. غصّ البيت بالناس. وخارج البيت كان الناس. اختلط البكاء بالعويل والصياح. صارت المدينة ساحة وغى حتى «كان مَن قَدم المدينة يومئذ من الناس إذا أشرفوا عليها سمعوا لأهلها ضجيجاً، وللبكاء في جميع أرجائها عجيجاً، حتى صَحِلت الحلوق، ونُزفت الدموع[25].»

تجلّد العبّاس بالصبر وخاطب جماهير الناس بشيء من الأدب: هذا لا يليق بنا يا سادة ونحن في حضرة الرسول الميّت. لا تقلقوا راحة الرسول. هيّا، فَلْنخرجْ وراء زريبة البيت وحُجرات أزواج الرسول. خرج الناسُ لمّا رأوا بني العباس وعليّاً قد شرعوا في الخروج. خرجوا جميعاً إلاّ هؤلاء النفر من المتجاسرين ظلّوا يتطلّعون إلى وجوه النساء وقد كشفن الوجوه من هول الفاجعة. كانوا يغتنمون مثل هذه الفرص البائسة لإرواء رغباتهم الشاذّة، ويُحلمون الأنفس بإتيان الفاحشة، ولا فاحشة، ثمّ ينقلبون إلى نواديهم يُحدّثون الناسَ كذباً عن المحظور الذي تجاوزوه والشيء الحرام الذي أتوه. نَهرَهم العبّاس بشدّة وبأس. غادروا المكان يتظاهرون بالأسف على رحيل النبيّ، يتظاهرون بالبكاء، ولا أسفَ بهم ولا بُكاء.

جلس بنو العبّاس وعليّ هناك بعيداً عن الجموع يتذاكرون على حِدَة أخبارهم ويُعدّون العدّة لتجهيز الرسول ودفنه متى سُمح لهم بالتجهيز والدفن. أيقنوا أنّ شيئاً تغيّر.

انضمّ الناسُ إلى عُمر الذي كان قد شكّ في موت الرسول. قال قائل منهم: نسأل عبد الله بن سلام فهو عارف بقصص اليهود وغياب موسى عنهم أربعين يوماً وليلة ثمّ رجوعه إليهم. وقال قائل منهم: بل نسأل سلمان الفارسي فهو عارف بقصص النصارى وغياب عيسى ثلاثة أيام وثلاث ليال ورجوعه إليهم. نهض عُثمان من سُباته العميق، قال: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يَمتْ، ولكنّه رُفِع كما رُفع عيسى ابن مريم[26].» تعجّب الناس من أمر عُثمان. كان عُثمانُ «قد أخرسَ لمّا قُبضَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى جُعل يُذهَبُ به ويُجاءُ ولا يستطيع كلاماً[27].» صدّق الناس عُثمان. رأوا في كلامه حكمة عَجَباً. قالوا: ما تكلّم عُثمان بعد إخراس إلاّ عن رؤيا. قالوا: ننتظر ثلاثة أيّام لا أربعين. ننتظر كما انتظر النصارى لا كما انتظر اليهود.

كان الانتظار ثلاثة أيّام أمراً معقولا. كانوا في حضرة ميّت لا غائب ففضّلوا أنْ يتربّصوا به أقصر الزمنيْن لا أطولهما، فإذا لم يُبعث كان دفنه عليهم واجباً، حتى لا يأسَن. ولكنّ العبّاس بن عبد المطّلب لم يُرضه هذا الاقتراح على قِصر مُدّته، وغضب وصاح في الناس: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأسَن كما يأسَن البشر، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد مات فادفنوا صاحبكم، أيُميتُ أحدَكم إماتةً ويُميتُه إماتَتيْن؟ هو أكرم على الله من ذلك، فإنْ كان كما تقولون، فليس على الله بعزيز أنْ يبحث عنه التراب فيُخرجه إن شاء الله[28].» ثمّ توجّه بالكلام إلى عُمر، مُكرّرا ما قال ومُؤكّداً: «فإنْ يَكُ ما تقول يا بنَ الخطّاب حقّاً، فإنّه لن يُعجزَ اللهَ أنْ يَحثُوَ عنه تراب القبر، فيُخرجه إلينا، خَلِّ بيننا وبين صاحبنا فإنّه يأسَن كما يأسَن الناس[29].»

لم يردّ عُمر على العبّاس، ولم يُخلِّ يومها بين النبيّ وأهله ليدفنوه على عَجل كما جرت العادة عند العرب في الجزيرة. امتلأت الساحة بالناس وامتلأ بهم المسجد، يُعارضون دفْن النبيّ ويمنعون أهله من تجهيزه ودفنه، عملاً بتعليمات أصحابه الذين قرّروا ذلك، كما جاء في الكتب: «لمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ائتمر أصحابُه فقالوا: تربّصوا بنبيّكم صلّى الله عليه وسلّم لعلّه عُرج به. فتربّصوا به[30]» ثلاثة أيام، ينتظرون البعث والعَود، ينتظرون ترتيب الأمر.

خرج عبدُ اللهِ بنُ مسعود على الناس من حيث لا يعلم الناسُ. كان يجري ويصيح. كان يومها يرعى غنماً خارج المدينة. انحدر مُخلّفاً وراءه الغنم، فلتأكل الذئابُ الغنم. شمّر على ثوبه البالي القديم، تخلّص ممّا كان قد انتعل، أطلق رجليه للريح، وفي لمحة بصر كان عند باب الرسول. انطلق صوته بالنواح قبل وصول نوائح الرسول. دخل ينشر الدمعَ مدراراً، يسيل منه جداولَ وأنهاراً. دخل صائحاً صياحاً يفتّت القلوب، أمّاً ثكلى أضناها فراق البِكر العزيز. دخل يخور خواراً يفتّق الأرجاء، ثوراً لا يعرف الحياء، لا يعرف غير الألم. تسمّر أمام فراش الرسول. يا لَهَوْلَ ما رأى! الرسول على الفراش مُسجّى! الرسول لا يأتي حركة! تجمّد دمعه في عينَيْه. انحبس صوته في حنجرته. لا شيء غير الصمت. لا شيء غير الموت. ظلّ صامتاً لا يدخل عليه داخلٌ. ظلّ صامتاً لا يُشوّش عليه صمتَه مشوّشٌ. مدّ يده إلى البُرد الحِبَرَة. أزاح البُرد الحِبَرَة. قبّل الجبين. قبّل الخدّين. قبّل اليدَيْن. قبّل الرجلَيْن. ضمّ إليه الرسول. خرج منه صوت يقول: لِمَنْ تركتَ عبيدَك يا رسول؟ لِمَنْ تركتَ خادمَك الأمين؟ أعاد البُرد الحِبَرَة إلى مكانه القديم. قرأ شيئاً كالقرآن لم يعرفه فيه قبل ذلك الحين. دار على نفسه كما يدور درويش. استقبل الباب بالنواح. خرج إلى حيث الناس، والناس في ضوضاء وتشويش. جاءه شيء كالوحي. صاح في الناس: النظام النظام. لا ضوضاء ولا تشويش. لا تقلقوا راحة الرسول. لا تقلقوا راحة مَنْ ينوح. سكت الناس. قام عند باب الرسول ينظّم الصفوف ويستقبل الزوّار كأنّه الرئيس.

ثمّ جاء عبدُ الله بنُ عبّاس. كان يومَها ابن ثلاثةَ عشرَ، أمردَ، يُحاور تحت نخلة أطفالاً وفتياناً كبيرهم ما زال أمردَ. هرول إلى بيت الرسول يتبعه أطفاله والفتيان. بلغ باب بيت الرسول، أمر أطفاله والفتيان بالوقوف عند الباب لا يتقدّمون. دخل على الرسول. حاول صدّه بعض الشيوخ من خدم وحشم وحضور لا يصلحون إلاّ لمثل هذه الأمور. شعر بالإهانة. سرت فيه نعرة بني العباس. صاح: أتعرفون مَنْ أنا؟ ابن الرسول؟ قال له شيخ جليل لم تعرفه الديار: على رِسْلِكَ يا ولدي، على رِسْلِكَ. إنّ الصبيان لا يدخلون فُرادى على أموات المؤمنين، أُدخل مع أبيكَ أو جدّكَ أو ابن عمّ لكَ قريب. صاح عبد الله في الحاضرين: أوَيُحرم من الدخول على الرسول مَنْ تربّى في حجر

الرسول؟ أنا ابن عبّاس أيّها الشيخ الجليل. أنا من حفظ أقوال الرسول صبيّاً. أنا مَنْ صحب الرسول في حلّه والترحال، في حجّه والعمرة، في غزوه والفتح المبين، في سرّه والعلن. أنا ابنُ عبّاس، يا رجلُ يا جليل. خُلّي بينه وبين الرسول. دخل على الرسول. رفع عنه البُرْد الحِبَرة. كشف عن وجهه المنير، قبّله على الجبين، أعاد البُرْد الحِبَرة على الوجه المنير. كشف عن اليدين. قبّل اليدين. كشف عن الرجلين. تمسّح بالرجلين. أجهش بالبكاء كما يُجهشُ الصبيّ. صاح قائلاً: لمن تركتني يا أبتاه؟ لا شيء منك معي غير الحديث، سأروي عنك الحديث، ألف حديث وحديث، ألف ألف حديث.

كانت الساعات الأولى من الإعلان عن الوفاة ساعات حرجة على الأزواج والأصحاب، والخدم والحشم، والمسلمات والمسلمين، والناس أجمعين. لم يفهموا حُكم السماء. كانوا حديثي عهد بالإسلام، حديثي عهد بالدين. كانوا أمّيين لا يعرفون الكتاب، لا يعرفون الأنبياء[31]، لا يعرفون الغيبة ولا البعث ولا الارتفاع إلى السماء. كانوا يظنّون النبيّ خالداً فيهم لا يموت، فإذا مات انتهت الحياة. كانوا يظنّون النبوّة حادثاً عظيماً، تُغيّر الأمور، تُغيّر الموت والحياة.

علّمهم النبيّ أنّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ الساعة قائمة من حيث لا يشعرون، فصدّقوا النبيّ وانتظروا الساعة الآتية ولا ريب فيها. علّمهم أنّه شهيد عليهم، فصدّقوا أنّه الشهيد الذي لا يموت حتى يموتوا. كان يعتقد أنّ الساعة آتية لا ريب فيها، سيحضرها لا محالةَ ويكون فيها الحاشر[32]، ويشهد بالمناسبة بَعثَ عيسى المسيح الذي يعود لينشر الإسلام ويقتل المسيح الدجّال[33].

كانت الساعات الأولى من الإعلان عن الوفاة زمناً للشكّ والسؤال والاختلاف. كانت ضباباً حجب عنهم الرؤية فلم يتبيّنوا المصير. اختلفوا في المصير. بكوا، ناحوا. التدمت النساء ونفشْن الشعور. فعلوا وفعلن كما يفعل الناسُ إذا هلك فيهم هالكٌ. ثمّ عادوا إلى أنفسهم، قالوا: كان محمّدٌ نبيّاً رسولاً، أوَيهلك النبيُّ الرسول كما يهلك الناس؟ عادوا إلى أنفسهم، قالوا: غاب كما غاب موسى. عادوا إلى أنفسهم قالوا: رُفع كما رُفع عيسى. ثمّ عادوا إلى أنفسهم، قالوا: إنّ في هلاك النبيّ هلاكَهم. ارتفعت أصواتهم بالدعاء.

بيناً كان المهاجرون في شكّ من أمر الموت ينتظرون العودة أو البعث، كان الأنصار قد شقّوا الطريق إلى الخروج عن الصفّ والاستقلال بالرأي. جلس سَعْد بنُ عُبادة في سقيفة بني ساعدة وقد زمّل رأسَه مريضاً أو ادّعى الوجعَ. التفّ حوله حيُّ الأنصار وكتيبةُ الإسلام. انحاز إليه كلّ الأنصار إلاّ مَنْ كان غائباً لسبب لم تذكره الأخبار. تشهّد خطيبُهم. أثنى على الله بما هو له أهل، ثمّ قال: يا معشرَ الأنصار، مات رسولُ الله، مَنْ فينا يقوم مقامَ رسول الله؟ مات رسولُ الله ترك فينا خيرَ عباد الله، ترك فينا مَنْ نصر رسولَ الله، ترك فينا سَعْدَ بنَ عُبادةَ.

كذلك تغيّرت الأحوال، وظهرت النعرة القديمة، وانقسم المسلمون أنصاراً ومهاجرين، وغالبت مكّة المدينة، وشمتت اليهود، وشمتت النصارى بالمسلمين، وظهر المنافقون يعلنون النفاق الذي كانوا يُخفون[34]، وضحكوا على المؤمنين، واستهزؤوا منهم، وقالوا لهم ساخرين: لقد هدّدنا نبيُّكم بالعقاب وقُرب قيام الساعة، فلا كان العقابُ ولا قامت الساعة. ها هو رحل وبانت نبوءتُه الكاذبة. ارتدّوا عن الإسلام[35] وشمتوا بالمؤمنين الذين اعتقدوا في العقاب وفي قيام الساعة.

كانوا جَحدةً ومُعارضين. كانوا كما سمّاهم القرآنُ مُنافقين. حار في أمرهم النبيّ زمناً طويلاً. جادلوه في كلّ تنزيل. كذّبوه أيّمَ تكذيب. كلّما ظنّ أنّه أفحمهم ولانت قلوبُهم عادوا أصلبَ ممّا كانوا، عادوا إلى مقولاتهم السابقة. خوّفهم بعذاب الدنيا تارة، وتارة بعذاب الآخرة، فلمّا لم يشاهدوا شيئاً من ذلك كذّبوه وطلبوا منه الإتيان بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة إنْ كان صادقاً. قال لهم: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فانتظروا ما هو كائن، فما أزفت الساعةُ ولا انشقّ القمر، فعادوا يكذّبونه ويقولون: ما نرى شيئاً ممّا تُخوّفنا به. قال لهم: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ فأشفقوا يومئذ، ولمّا امتدّت بهم الأيام قالوا: ما نرى شيئاً ممّا تُخوّفنا به. قال لهم أخيراً: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ وذُعرَ هو نفسه، فرفعوا رؤوسهم ينظرون أمرَ الله الآتيَ، ولم يأت أمرُ الله، فقد أخّره اللهُ وأنزل: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ظنّوا الأمرَ تهديداً ليس غيرُ، ومحمّداً كذّاباً[36].

2

كان أبو بكر الصدّيق غائباً لمّا قُبض الرسولُ[37]. كان في السُّنْح[38] عند بنت خارجة وكان اليوم يومها. أتاها وقد سرّحه النبيُّ إليها وظنّ أنّ النبيّ تعافى وبَرِئَ فلا يموت[39]. أرسلوا إليه سالمَ بنَ عُبيْد الأَجْشَعي بالخبر يستحثّونه القدوم وقد اختلف الناس في أمر موت الرسول. أقبل عليه سالمٌ وأجهش يبكي. كان سالم من أهل الصُّفّة، وكان ضعيفاً مُرهف الحسّ بكّاء. فَهِم عنه أبو بكر الخبر قبل أنْ يُصرّح بالخبر[40] وأقبل على فرسه من مسكنه بالسُّنْح حتى نزل على باب المسجد فدخل المسجد، والناس في هرج ومرج، داخل المسجد وخارج المسجد، وعُمر يُكلّم الناسَ ويحلف: إنّه لقاتلٌ بسيفه مَن تجرّأ وقال: مات رسول الله.

لم يُكلّم أبو بكر الناس، ولم يُكلّم عُمر. دخل من توّه على عائشة وقصد الرسولَ المُسجّى. اقترب منه يستجلي الخبر، «فكشف عن وجهه ووضع فمه بين عينيْه ووضع يده على صدغيْه ثمّ قال: وانبيّاه! واخليلاه! واصفيّاه![41]» أيقن أنّ النبيّ مات. رفع رأسه يُحرّكه بالإيجاب كمن يقول إنّ النبيّ مات. ثمّ أكبّ عليه وبكى[42]. دام على ذلك زمناً، ثمّ رفع رأسه وقال: «بأبي أنتَ وأمّي، أمّا الموتةُ التي كتبَ الله عليك فقد ذُقتها، ثمّ لن تُصيبك بعدها موتةٌ أبداً. ردّ البُرْد على رسول الله، ثمّ خرج وعُمر يُكلّم الناس[43]» فناداه من بعيد، قال له: «أيّها الحالفُ على رِسْلك. اجلس يا عُمر. فأبى عُمر أنْ يجلس. فكلّمه أبو بكر مرّتين أو ثلاثاً[44].»

لم يعبأ عُمر بقول الصدّيق. أبى أن يجلس. «فلمّا أبى عُمر أنْ يجلسَ قام أبو بكر فتشهّد، فأقبل الناسُ إليه وتركوا عُمر، فلمّا قضى أبو بكر تَشهُّدَه قال: أمّا بعدُ، فمَن كان يعبد محمّداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فلمّا تلاها أبو بكر تلقّاها الناسُ من أبي بكر حين تلاها، أو كثيرٌ منهم، حتى قال قائل من الناس: والله لكأنّ الناسَ لم يعلموا أنّ هذه الآية أُنزلت حتى تلاها أبو بكر، وتلقّاها منه الناسُ كلّهم فما تسمع بشراً إلاّ يتلوها[45]» وقال قائل آخر: «حلف رجال من أصحاب محمّد صلّى الله عليه وسلّم ما علمنا أنّ هاته الآية نزلت[46].»

بدأت الآيةُ تفعل فعلها في الناس فكأنّهم أيقنوا بموت النبيّ. أخذوا الآية عن أبي بكر ودارت بها ألسنتهم في أفواههم يلوكونها، لا يعلمون إنْ كانت نزلت سابقاً، وظلّت في أفواههم لا تغادرها[47]. سأل عُمر مُستغرباً: «أهذا في كتاب الله؟ فقال له أبو بكر: نعم[48]» ثمّ أعاد سؤاله: «أفي كتاب الله هذا، يا أبا بكر؟ قال: نعم[49]» «فقال عُمر: والله ما علمتُ أنّ هذه الآية أنزلت قبل اليوم[50]» فأسرع أبو بكر وقال مُستنكراً: «أشككتَ في دينك يا عُمر؟ أما سَمعتَ الله يقول لنبيّه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فَسُرِيَ عن عُمر[51].»

رأى أبو بكر شيئاً من اللين في وجه عُمر. رأى الناس يتبادلون النظر، وفي أعينهم شيءٌ من التصديق. لاح له بصيصٌ من الأمل. واصل خطبته بجدّ وحزم، لا يقف على ساكن أبداً. جاءته الآيات تباعاً، جاءته من حيث لا يدري، بعضها كان قد قاله وبعضها لم يقله بعدُ. عاد «فتشهّد بما عُلّمه من التشهّد، وقال: إنّ الله عزّ وجلّ نعى نبيّه إلى نفسه وهو حيّ بين أظهركم، ونعاكم إلى أنفسكم، وهو الموت حتى لا يبقى منكم أحد إلاّ الله عزّ وجلّ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وقال لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أيّها النّاس، إنّ الله عمّر محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وأبقاه حتى أقام دين الله، وأظهر أمر الله، وبلّغ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، ثمّ توفّاه الله على ذلك، وقد تركّكم على الطريقة، فلن يهلك هالك إلاّ من بعد البيّنة والشفاء. فمن كان الله ربّه فإنّ الله حيّ لا يموت، ومَن كان يعبد محمّداً وينزله إلهاً فقد هلك إلهه. فاتقوا الله أيّها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكّلوا

على ربّكم، فإنّ دين الله قائم، وإنّ كلمة الله تامّة، وإنّ كتاب الله بين أظهرنا وهو النور والشفاء، وبه هَدى الله محمّداً صلّى الله عليه وسلّم، وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نُبالي مَن أجلب علينا من خلق الله، إنّ سيوف الله لمسلولة ما وضعناها، ولَنُجاهدنَّ مَن خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلا يبغينَّ أحدٌ إلاّ على نفسه[52].»

قال الناس من حيث لا يشعرون: آمين. أيقنوا، إلاّ مَن جُبل منهم على شكٍّ دفين، أنّ محمّداً مات وأنّهم ميّتون في الحين، وقد أزفت الساعة. مادت الأرضُ من تحت قدميْ عُمر، وقع إلى الأرض لا يكاد يفقه شيئاً، لم تقدر رجلاه على حمله. عرف أنّ رسول الله قد مات[53]. ثمّ نهض وجرى إلى بيت عائشة. خلّوا بينه وبين الرسول المسجّى. «أكبّ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُقبّل جَبينه ويبكي» ثمّ عاد إلى الصفّ[54].

رجّع الكون صدى الآيات التي صدح بها أبو بكر في الفضاء، يفعل فعله في الناس ويفتح أمامهم من جديد باب السماء. ظنّوا أنّهم لم يسمعوا الآيات من قبلُ، لعلّهم لم يسمعوا الآيات من قَبلُ. ظنّوا الوحيَ حيّاً فيهم متواصلاً. بدا لهم القرآن سَيلاً لا يَنضب. بدا لهم القرآن مع أبي بكر، يُكسبُ الشرعيّةَ أبا بكر، ويرفعها عن غيره من المسلمين وإنْ كانوا من المقرّبين أو حتى من آل البيت.

أوجس عليٌّ خيفة. نظر في وجوه بني هاشم وبني العبّاس، وجدها زرقاء كالموت من هول خُطبة أبي بكر. لم يَخفَ عليهم، ولا على غيرهم من الناس، ما كان في الخطبة من تهديد. ساءهم ذلك ولكنّهم لم يردّوا، احتراماً لطقوس الظرف. فهم أهل الميّت، وللميّت على أهله واجب الاحترام والتحفّظ والصمت والسكوت، وإنْ على الإهانة والإساءة.

طأطأ عمرُ الرأسَ. مَدّ يده إلى ذراع أبي بكر. شدّ على الذراع التي أعياها الزمنُ، أنهكها التعبُ، قال: مات محمد يا أبا بكر. وأجهش بالبكاء. أخذ أبو بكر بيد عُمر كأنّه يحنو عليه ويُعزّيه في النبيّ. سرى فيه شيءٌ من قوّة عُمر. استقام خطيباً من جديد، قال بتُؤدة كأنّه يدعو الناس إلى شيء: «أيّها الناس، إنّ

محمّداً قد مضى لسبيله، ولا بدّ لهذا الأمر من قائم يقوم به، فدبّروا، وانظروا، وهاتوا ما عندكم، رحمكم الله[55].»

احتار العبّاس وبنو العبّاس في أمر أبي بكر، واحتار في أمره بنو هاشم. احتار في الأمر عليّ. نظر بعضهم إلى بعضهم نظرة غريبة. قال العبّاس كأنّه يُخاطب عليّاً، وهو يُسمع الناسَ صوتَه: أَسَمعتَ يا عليّ ما يقول؟ مَن نصّبه على الخلق فيخطب في الخلق ويهدّد ويخوّف؟ هكذا، تَجاوزَنا دون سابق إنذار؟ ما الذي حدث يا تُرى؟ لماذا يستعجل الأمر؟ أليست العَجَلةُ أمّ الندامة؟ حرّك عليٌّ رأسه حائراً موافقاً. سرت الحيرة في الناس، استنكروا العَجَلة، كلّم بعضهم بعضاً، هاجوا وماجوا.

كان الناسُ في ذلك الزمان حديثي عهد بالإسلام، ما زالت الجاهلية تَنخرُ فيهم وتُملي عليهم القيمَ وقواعدَ الأخلاق. وكانت القيمُ وقواعدُ الأخلاق تُعطي الميّتَ، إذا كان الميّتُ شيخاً في القبيلة أو رئيساً في العشيرة، حقّه كاملاً، فيُجهّزونه بالغسل والتحنيط والكسوة، ويؤبّنونه نثراً وشعراً، مدحاً وفخراً، ويُسرعون إلى دفنه إنْ نهاراً وإنْ ليلاً، ثمّ يُعالجون بعد ذلك مسألة المصير، ويُعيّنون مَن سيقوم فيهم بالأمر خلفاً له. فكانوا لكلّ تلكم الأمور قد استغربوا كلامَ أبي بكر لمّا دعاهم إلى التعجيل باقتراح البديل. استغربوا قوله: «دبّروا، وانظروا، وهاتوا ما عندكم» وتساءلوا إنْ لم يكن أبو بكر قد فصل في الأمر فدبّر ونظر وعنده البديل. استغربوا كيف خوّلت له نفسه أنْ يدعو إلى ذلك والرسول في البيت مُسجّى، لم يُجهّز ولم يُؤبّن ولم يُدفن. أوجسوا خيفة مثلما كان عليّ وبنو العبّاس وبنو هاشم قد أوجسوا خيفة. تقدّموا إلى أبي بكر يُحيطون به.

كان أبو بكر ما زال واقفاً ينتظر ردّ الناس عليه، «فناداه الناس من كلّ جانب: نُصبح وننظرُ في ذلك إنْ شاء الله، وانصرف الناس يومهم ذلك[56].» قال أبو بكر وهو يرى الناس ينفضّون عنه: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. ثمّ أضاف، كمَنْ أراد أنْ يُحوّل الهزيمة انتصاراً: عسى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، إنّ غداً لناظره قريبٌ.

كان أبو بكر رجلاً رشيداً[57] يحسب لكلّ شيء حساباً وله في المستقبل ثقةٌ عجيبة. تفتّحت أساريرُه عن تَبَسُّمَة خانته ولم يَقدرْ على كتمها. ثمّ تخطّى الزريبة واندسّ بوقار داخل الحوْش الكبير وتوجّه إلى بيت ابنته عائشة حيث كان الرسول مُسجّى، تاركاً وراءه عليّاً وصحبه في جانب من الزريبة وعُمر الذي عاد يدور على نفسه كأنّه ينتظر شيئاً.

خرجت النساء من بيت عائشة، يُفسحن المجال لأبي بكر ليخلوَ إلى صاحبه كما كان يفعل في الغار. ولكنّ عائشة ابنة أبي بكر لم تخرج. ظلّت حيث كانت، واقفة لا تتحرّك. ما إنْ جمعها وأباها المكان، وحدَهما لا ثالثَ معهما غير النبيّ المسجّى، حتى ارتمت في أحضانه وعانقته وشدّته إليها وأدارت على عنقه ذراعيْها. بكت الطفلة في حضن أبيها. واساها، قال لها: لا تخافي يا عائشة، أنا هنا أحميك وأرعاك، تجلّدي بالصبر. قالت له بصوت فيه شيء من البَحّ: أمات محمّد حقّاً، يا أبتاه، أم هو قد غُشي عليه[58] ورُفعت روحه وسيعود بإذن الله، كما قال الرجال؟ فاجأته بالسؤال، قال لها مُستنكرا: حتى أنت يا ابنتي تظنّين مثل هذه الظنون، والله لقد مات محمّد.

تخلّص من قبضها بلطف وذهب يتربّع على جلد الماعز الذي كان جنب السرير وشرع يقرأ ما تيسّر من الذكر. قرأ سورة الفاتحة التي تعرفها عائشة، ثمّ قرأ آيات أخرى لا تعرفها. قالت في نفسها لعلّها من الصحيفة التي كانت تحت السرير ودخلت الداجن فأكلتها[59]، ولعلّ أبا بكر كان حفظها عن النبيّ قبل أنْ تأكلها الداجن. لم تقطع عليه القراءة. تركته في ما هو فيه وانتظرت لتسأله عن أمور تُقلق راحتها، كالدفن السريع أو الانتظار ثلاثة أيام قبل الشروع فيه، كما طالب بذلك الجمهور. ثمّ سرحت في عالمها الواسع الشاسع وغابت عن الوجود.

في الخارج كان عُمر ما زال يدور على نفسه، لا يفوته أنْ ينظر إلى عليّ وصحبه من حين إلى آخر. جاءه عَيْنٌ من عيونه الذين كانوا في المدينة، وأسرّ إليه في أذنه بشيء. صاح في المُخبر: ماذا تقول؟ أعاد عليه المُخبر الخبر بالتفصيل، في أذنه دائماً، كأنّه لا يُريد أنْ يفضح سرّاً، وختم قائلاً: «إنّ هذا

الحيّ من الأنصار مع سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة، قد انحازوا إليه، فإنْ كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أنْ يتفاقم أمرهم[60].»

أرعد عُمر وأزبد من هول الخبر. ضرب يداً بيد. قال: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العظيم. تمتم: سندرك الأنصار قبل أنْ يتفاقم أمرهم، سنوقف أمرهم، إنّا لنا بأمر الناس حاجة. نادى شُقران الذي كان عند الباب قبالته. جاءه. أنفذه برسالة إلى أبي بكر داخل البيت.

وقد توقّف المؤرخون عند هذا الخبر، وحَظيَ عندهم بالتبجيل، وتفنّنوا في سرده ووصفه، واعتبروه لحظة تاريخيّة مؤسّسة شقّ فيها المسلمون طريقهم إلى الوجود. وتعميماً للفائدة نقتبس لكم بعضَ ما قال فيه رأسُ المؤرّخين وكبيرُهم الذي علّمهم السحر وسنّ لهم الطريق، العالم العلاّمة ابن جرير الطبري الذي تعرفونه دون شكّ. قال الطبري: «فأرسل عُمرُ إلى أبي بكر أن اخرج إليّ، فأرسل إليه إنّي مُشتغل، فأرسل إليه إنّه قد حدث أمرٌ لا بدّ لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أما علمتَ أنّ الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أنْ يولوا هذا الأمر سعدَ بنَ عُبادة، وأحسنهم مقالةً مَن يقول: منّا أمير ومن قُريش أمير، فمضيا مُسرعين نحوهم، يتقاودان حتى أتَوَاهم[61].»

تتالت الأحداث بسرعة غريبة. جمعت القصّة بين أبي بكر وعُمر بعد أنْ فرّقت بينهما منذ حين. التقيا على أمر واحد. تغيّرت الأحوال في تلك اللحظة العصيبة. نَسي أبو بكر الناس الذين طالبوا بالتأجيل وانتظار الغداة وانصرفوا وقد أيقنوا بتبليغ المراد واستجابة أبي بكر للمراد. ونَسي عُمر رفضه أنْ يكون النبيّ قد مات وما أوهم به الناس من أمر العودة المرتقبة. توقّف كلّ شيء. شدّ أبو بكر على يد عُمر وجرّه إليه فانقاد له عُمر. غَادرا المكان ومَضيَا يَتقاوَدان[62]، على لغة القصّة، حتى اختفيا عن الأنظار. هرول الناس من المهاجرين وراءهما يريدون اللحاق بهما.

أثار هذا المشهدُ الغريبُ عليّاً. أثار الزبير والعبّاس وطلحة. توقّفوا عمّا كانوا فيه من أمر. توقّفوا عمّا كانوا فيه من أمر الحديث في التجهيز والغسل والتحنيط والتكفين والدفن، ضرحاً أو لحداً. أوجسوا خيفةً من مُغادرة أبي بكر وعُمر المكان. جَروْا إلى بيت فاطمة.

خلت الساحة عند باب بيت الرسول من كبار المسلمين. غصّت بالعبيد والرعاة والرعاع الذين كانوا لا يصدّقون موت الرسول ولا يُشاركون في أمور الإسلام الذي افترقت له الفرق ساعة مات الرسول. غصّت بالزائرين والمتطفّلين الذين جاؤوا لمّا بلغهم موت الرسول. خلا المسجد إلاّ مِن أهل الصُّفّة المرابطين.

انتصبت المعسكرات في كلّ مكان، من دون سابق إنذار، من دون سابق إضمار، يتجاهل بعضها بعضاً. هذا عليّ وصحبه من بني هاشم في بيت فاطمة. وهذا سَعْد بن عُبادة والأنصار، أوساً وخزرجاً، في سقيفة بني ساعدة. وهذا أبو بكر وعُمر وأبو عبيدة بن الجرّاح الذي التحق بهما ووجوه المهاجرين اختفوا عن الأنظار. وهذا عبد الله بن عبّاس مع الأطفال والفتيان عند باب الرسول. وهذا عبد الله بن مسعود الخادم الأمين يستقبل عند باب بيت الرسول جموع الزائرين الذين هبّوا من كلّ فجّ عميق، ورابطوا عند ساحة المسجد الكبير. ها الموالي والعبيد والإماء يرهفون السمع عند العتبات لا يدرون ما يفعلون. ها الزوجات في بهو البيت الكبير يندبن، يبكين، يمزّقن الشعر. ها الرسول على السرير مسجًّى، نورٌ على نور.

في ذلك اليوم المشهود، انتصبت المعسكرات ساعة مات الرسول، انتصبت في رمشة عين، بعضها يقابل بعضاً، جاهزة تتأهّب للانطلاق، تنتظر إشارة الانطلاق، مثل عدّائين تأهّبوا للانطلاق، ينتظرون إشارة الانطلاق. ولم تقف الأخبارُ عند هذه المعسكرات التي ذكرنا، بل ذكرت معسكرات غيرها، تأهّبت بدورها لاكتساب شرعية خلافة الرسول، فقد «اجتمعت بنو أميّة إلى عثمان، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمان بن عوف[63].» ولعلّ آخرين لم تذكرهم الأخبار كانوا قد اغتنموا الفرصة وتأهبوا للصراع.

في ذلك اليوم المشهود، انتصبت بيادق المسلمين تحت إمرة بعض الشيوخ، تنتظر ما يفعل بها الشيوخ، تنتظر الهجوم على إخوانها من بيادق المسلمين. متى سيكون الهجوم يا تُرى؟ لقد طالب الناس بالتوقّف عن كلّ شيء وتأجيل الأمور إلى الغَد[64]، كما أعلمناكم بذلك منذ حين. وقد استجاب الشيوخ لطلب التأجيل تحت ضغط الشارع كما نقول بلغة اليوم. ولكن ما جدّ

من أمر قد يَحملُ الشيوخ على التراجع في القرار ولا نراهم إلاّ سائرين نحو انتهاك حرمة الاتفاق.

ها الجموع جاهزة، كلّ شيء بحساب. انتصبت البيادقُ على الرقعة عساكر تنتظر أمر أسيادها. حلّ الأسيادُ على الرقعة المنتشرة في المدينة الغرّاء، حلّوا أمام بيادقهم المنتصبة منذ حين. ها الرخّ يترصّد الرخَّ، ها الفيلُ يترصّد الفيلَ. ها الفارس بالمرصاد للفارس. ها المَلِكُ جَهّز نفسه لينقضّ على المَلِك. ها المَلِكة منتصبة للفتك بالمَلِكة، للفتك بالمَلِك.

اللعبةُ الشطرنجُ لعبةُ ملوك، لعبةُ حياة، أُنظُرهم انتصبوا للُعبةِ الحياة. ها اللعبةُ ابتدأت فانظر لعبةَ الحياة تشكّلت إسلاماً تتنازعه الأطراف تبحث في ظلّه الوارف الظليل عن الحياة.

3

خلا البيتُ إلاّ من أهله، أزواج الرسول، والنساء اللائي جئن للمواساة والعزاء. غادره الرجالُ أجمعين، على عادة المسلمين، إذا مات فيهم ميّت خرج الرجال عنه وتركوه للنساء يُحطن به ويندبنه ويتذاكرن القصص بشأنه، ويروين صولاته وجولاته إنْ في الخدمة والإخلاص وإنْ في الفراش، ولا يعود الرجال إليه إلاّ ليأخذوه إلى حُفرته.

خرجت الزوجات من الحجرات وقد اختفيْن فيها عن الأنظار لما اقتحم الناسُ بيت الرسول. عُدنَ إلى بيت عائشة، أحَطنَ بالفراش حيث كان الرسول. كنّ وعائشة تسعَ نساء، مات عنهنّ الرسول، تركهنّ أرامل، بلا أبناء، بلا دراهم، بلا سند. كنّ وعائشة تسعَ نساء، امّحت بينهنّ الفروق، امّحى العدد. كنّ وعائشة تسعَ نساء يبكين زوجهنّ بكاء الزوجة الواحدة. صِحنَ صوتاً واحداً كالحشرجة: مات محمد، مات، لِمَنْ تركتنا يا محمد، لِمَنْ تركتنا يا؟

أجهشت عائشة بالبكاء، الْتَدَمَتْ، ضربت وجهها، ندبت، قطّعت شعرها. هبّت إليها الزوجاتُ هبّةَ امرأة واحدة، مَسَكْنَ يدها التي كانت تَلْتَدِمُ بها وتضرب رأسها وتندب، واسيْنها، قُلنَ لها: هذا لا يليق بكِ يا عائشة، هذا لا يليق بنا. أثقلهنّ الحزن، أثخنهنّ الأسى، أجهشنَ بالبكاء، الْتَدَمْنَ، ضَربنَ وجوههنّ، ندبْنَ، قطّعن شعورهنّ، صِحنَ، ملأ عويلهنّ الفضاء، علا النواح، بلغ الأرجاء وأعالي المدينة والظواهر، بلغ النساء هنالك، جئن للمواساة والعزاء، مثلما جاءت قبلهنّ نساء الحيّ وجيران الرسول قرب المسجد. امتلأ بيتُ عائشة بالنساء، غصّ الحَوْشُ الكبيرُ بالنساء، امتلأت بيوتُ الزوجاتِ بالنساء، بَكيْن، ندبن، ضربن صدورهنّ والرؤوس، أقمن مناحةً للرسول. لا شيءَ هنا غيرُ النساء النُوَّحِ. لا شيءَ هنا غيرُ النُوَاح.

ثمّ كان الصمت. دام بُرهةً من الزمن مقدارها عند الله لم تحدّده الأخبار إذ كانت يومها خارجَ الزمن. قطعَ الصمتَ صوتُ سَوْدَةَ تقول: يا عائشة المصون، يا أزواج الرسول، هل سَمعتنَّ رجال المسلمين منذ حين يحلفون ويقولون: ما مات الرسول؟ هل سَمعتنَّهم يقولون: سيعود واللهِ الرسول؟ يا عائشة المصون، يا أزواج الرسول، ليس عزيزاً على الله أنْ يُعيد إلينا الرسول. ألم يغب موسى ثمّ عاد؟ ألم يُقبَر عيسى ثمّ بُعث من جديد؟ واللهِ، ليس عزيزاً على الله أنْ يُعيد إلينا الرسول.

سَرى كلام سودة في الزوجات مَسرّى لطيفاً. تبادلن النظر. انفرجت منهنّ الأسارير. تَبسّمنَ. قُمنَ بعضهنّ إلى بعض. اقتربن بعضهنّ من بعض. اشتبكت أياديهنّ والأذرع. تعانقن لأوّل مرّة منذ ضمّهنّ بيت الرسول. انطلقن في الدعاء، صوتاً واحداً: يا ربُّ، يا كريم، هلاّ أعدتَ إلينا زوجنا الحبيب!

مَنّين النفس بالعودة والبعث. نَسينَ الموت والميّت. انطلقن في قصّ القصص، ككلّ النساء إذا مات عنهنّ أزواجهنّ، يغتنمنَ الفرصة ويُحدّثن الملأ من النساء عن أزواجهنّ الكرماء حتى وإنْ لم يكن أزواجهنّ يوماً كُرماء. سُبحانَ الذي قصّ أحْسنَ القصص، وجعل في القصّ السلوى والنَشْيَ.

عادت سودة إلى الكلام، قالت: أخبرينا يا عائشة المصون، كيف كان آخرُ عهد الرسول؟ تنفّست عائشة تَنَفُّسَةً طويلة، قالت: أنتنّ تذْكُرْنَ يا نساءَ الرسول، أنّ الرسول كان يدور علينا، وينتقل بيننا لا يُخلف يوم واحدة منّا. وقد فعل ذلك وهو مريض. ولمّا اشتدّ به المرض وأصبح عاجزاً عن الوقوف، حمله مواليه وأداروه بيننا. ضعف فيه كلّ شيء كما تَعلمنَ يا نساءَ الرسول، إلاّ حبّه للجماع. كان يقول لي ضاحكاً: «كنتُ من أقلّ الناس في الجماع فلقيني جبريل بقِدر فأكلتُ منها حتى تضلّعتُ وأُعطيتُ قوة أربعين رجلاً في الجماع، فما أريد أنْ آتي النساء ساعة إلاّ فعلتُ[65].»

انفرجت شفاه النساء عن ابتسامات بحساب حتى لا يَفقدنَ الخشوع. تبادلت بعض أزواج الرسول النظر وتغامزن بحذر. كانت عائشة فيهنّ شابّة صغيرة تتكلّم كما تأتّى ولا تخاف ولا تعرف الحياء. حسدنَها على جُرأتها وكدنَ يَلمْنَها على كلامها في المحظور والسرّ. ولكنْ فضّلنَ السكوت وقد

رأيْن أنّ ما قالت عائشة يرفع من شأنهنّ جميعاً أمام النساء، ويُظهرهنّ في نعيم بفضل هذا الزواج السعيد إلى النبيّ، وإنْ كُنّ في هذا العمر الذي كثيراً ما تتوقّف فيه الأشياء.

شجّع السكوت عائشة على مواصلة الكلام. استمدّت من القصّة التي روتها قوّة لم تكن لها. لم تعد أزواج الرسول تَهمُّها. استأنفت الكلام تُخاطب كلّ النساء، كأنّها تريد أنْ يُسجّل لها التاريخ نَقلَها الحديث. استأنفت الكلام لا تُبالي بضرّاتها ولا تذكرهنّ إلاّ ذكراً بالغياب. قالت: «كان يُدار برسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيوت أزواجه وهو مريض. وكان إذا دير به على نسائه يُحمل في ثوب يأخذ بأطرافه الأربعة: أبو مُويهبة وشُقران وثوبان وأبو رافع مواليه. فلمّا كان ذات يوم قال: أين أنا غداً؟ فجُعلَ يُخبرنَه. فقال بعضهنّ: إنّما يسأل عن يوم ابنة أبي بكر. فأذنَّ له وقُلنَ له: أنت في حِلّ يا رسول الله، إنّما نحن أخوات. فقال: في حِلّ؟ قُلنَ: نعم. [...] فقال انقلوني إلى بيت عائشة. فلمّا سمعتُ ذلك قُمتُ، ولم تكن لي خادم، فكنستُ بيتي، وفرشتُ له فراشاً، ووسّدتُه وسادة كان حشوها إذْخِر[66].» لم يعد قادراً على الطواف بين نسائه فاختارني مَأواه ومثواه.

تناقلت ضَرّاتها النظر. تعجّبنَ في صمت من قولها إنّها لم تكن لها خادم تخدمها، والحال أنّ الرسول وضع في خدمتها عبيده والإماء والموالي. تعجّبنَ من كيفية روايتها الخبر بالتأكيد فيه على أهمّيتها لدى الرسول. تَكَهْرَبَ الجوّ.

استأنفت عائشة الحديث: «فكنتُ أمرّضه ولم أمرّض أحداً قبله، فبينما رأسه اليوم على منكبي إذ مال رأسه نحو رأسي فظننتُ أنّه يريد من رأسي حاجة، فخرجتْ من فيه نقطةٌ باردة فوقعت على نقرة نحري فاقشعرّ لها جلدي[67]» ثمّ زادت تُؤكّد: «رأيته اليوم يَحمرّ وجهه ويعرق جبينه، ولم أكن رأيتُ قطُّ ميْتاً قبله. ثمّ قال: أقعديني. فأسندته إليّ ووضعتُ يدي عليه، فقلب رأسه، فوقعت يدي عنه، ووقعت من فيه نطفة باردة على صدري، فسقط على الفراش[68].»

ثمّ قالت، تخاطب الزوجات قصداً، كأنّها تثير فيهنّ الغيرة والحسد: يا نساءَ الرسول، مات زوجكنّ الرسول «بين سَحْري ونَحْري، وأنّ الله جمع

بين ريقي وريقه عند الموت. دخل عليَّ أخي بسواك معه، وأنا مسندة رسول الله إلى صدري فرأيته ينظر إليه، وقد عرفتُ أنّه يحبّ السواك ويألفه، فقلتُ: آخذه لك؟ فأشار برأسه، أي نعم، فليّنته له فأمرَّه على فيه. كانت بين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يُدخل يده في الماء، فيمسح بها وجهه، ثمّ يقول: لا إله إلاّ الله. إنّ للموت لسكرات[69].» يا نساءَ الرسول، «مات رسول الله بين سَحْري ونَحْري ودَوْلَتي، لم أظلم فيه أحداً، فمن سفهي وحداثة سنّي أنّ رسول الله قُبِضَ وهو في حجري، ثمّ وضعتُ رأسه على وسادة، وقمتُ ألْتَدِمُ وأضربُ وجهي[70].» يا نساءَ الرسول، «وجدتُ رسول الله يَثْقُلُ في حجري، فذهبتُ أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شَخَصَ، وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنّة، فقلتُ: خيّرتَ فاخترتَ والذي بعثكَ بالحقّ. وقُبض رسول الله[71].» يا نساءَ الرسول، خُيّر الرسول، مثل كلّ نبيّ ورسول، فاختار الآخرة على الدنيا، اختار الرفيق الأعلى وترككنَّ أرامل، بلا زوج، بلا رسول. يا نساءَ الرسول، مات الرسول، ترككنَّ لربّ الرسول.

أجهشنَ بالبكاء صوتاً واحداً صعَد في السماء: مات محمد، مات، لِمَنْ تركتنا يا محمد؟ ندبنَ كما تندب النساء، صرخنَ في الفضاء، قطّعنَ شعورهنّ، التدمْنَ، ضربنَ الصدور والرؤوس، انضمّت إليهنّ النساءُ الزائراتُ المواسياتُ المعزّيات، نُحْنَ جميعاً على محمد الذي فارق الحياة. علا الصياح. ردّد الكونُ النواح. لا شيءَ هنا غيرُ النساء النُّوَّح. لا شيءَ هنا غيرُ النُّوَاح.

ثمّ كان الصمتُ. دام بُرهةً من الزمن مقدارها عند الله لم تحدّده الأخبار إذ كانت يومها خارجَ الزمن. قامت سَوْدَةُ إلى عائشة، تُقبّل عائشة، تضمّها إلى صدرها، تحنو عليها بحبّ كبير. كان بين سَوْدَةَ وعائشة ودّ قديم وشَبَهٌ ليس له مثيل. جمعت بينهما الأقدار في الخطبة والزواج. جمعت بينهما في بيت الرسول، لمّا كان الرسول بمكّة حزيناً لفراق خديجة، زوجه المثال وأمّ العيال. جاءته خولة بنتُ حكيم امرأةُ عثمان بن مظعون وقالت: «أي رسول الله، ألا تزوّج؟ فقال: ومَنْ؟ فقالت: إنْ شئتَ بكراً وإنْ شئتَ ثيّباً. قال: فمَن البكر؟ قالت: ابنة أحبّ خلق الله إليك، عائشة بنت أبي بكر. قال: ومَن الثيّب؟ قالت: سَوْدَة بنتُ زَمْعَة بن قيس، قد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه. قال: فاذهبي فاذكريهما عليّ[72].» جاءت تُخيّره بينَ الثيّب والبِكر، فاختار

الثيّبَ والبكر. خطبتهما له في الحين. قبلت الثيّب وبارك أهلُها الزواج. زوّج أهلُ البكرِ البكرَ للرسول. دخل بالثيّب في الحين. أرجأ الدخول ببنت الستّ سنين. ولَمّا ضمّهما بيتُ الرسول بعد بضعة سنين، قام بينهما ودّ كبير وحبّ غارت منه الزوجات في بيت الرسول.

استأنفت عائشة الكلام. شكرت الله وحمدته بما هو له أهل. طلبت الغفران. قالت: سامحْنا يا الله، اشفعْ لنا يا رسول. خاطبت النساء قالت: يا نساء، «ما رأيتُ امرأةً أحبّ إليّ أنْ أكون في مِسْلاخِها مِن سَودة بنتِ زَمعة [...]. لَمّا كبرتْ قالت: يا رسول الله قد جعلتُ يومي منك لعائشة[73]» فكان رسول الله يقسم لي يومين، يومي ويوم سودة، فتمتّعتُ منذ ذاك الحين بنوبتين. وإنّي لأذكرُ سَوْدَة بكلّ خير.

احمرّ وجه سَوْدَة خجلاً من الشيخوخة اللعين. اغرورقت عيناها بالدموع. شدّت على يمين عائشة. ذكرت في ذاتها ما كان من أمرها. قالت: كنتِ يا عائشة الطفلة التي أردتُ أنْ أكون، في حجر رسول فَكِهٍ مسرور، ولكنّي كنتُ في ذلك العمر في حجر بائس شرّير، من أعراب هذا الزمان، لا يعرف المرح، لا يعرف السرور. لم أعرف السرور إلاّ مع الرسول ساعةَ تقدّم بي العمر، فلم أعرفه إلاّ لزمن قصير، ثمّ كان الكبر، وتوقّفت فيّ الأمور، فأهديتك يومي لأنّك به أهل، وفيك كان الرسول يجد الشباب والحبور، فلا حاجةَ له بمثلي، عَجوزاً توقّف فيها ذاك الشعور.

كانت عائشة تحبّ سَوْدَة. كانت سَوْدَة لعائشة أمّاً حنوناً. وكانت النساء من غير سَوْدَة وعائشة يحذرن من العلاقة السمحة بينهما، يحسدنَ عائشة على ما تجد عند سَوْدَة من عطف، يحسدنها على يومها الذي كان يُمكن أنْ يكون قسمة بين النساء.

مرّ شريطُ الأحداث بكلّ ذهن يحملُ ما تستّرت عليه سودة وعائشة. تذكّرت سودة ما كان من أمرها. نعم، لقد تزوّجها الرسول، ولكنّه طلّقها تَطليقةً وهي لا تعلم. فاحتالت له لمّا بلغها ذلك. جَمعت ثيابها وجلست على طريقه الذي يَخرجُ منه إلى الصلاة. فلمّا دنا منها بَكتْ. ثمّ حاجّتْه في الدين والدنيا. سألْته إنْ كان في إسلامها ما يبعث على الريبة. قال: اللهمّ لا. أعلمته

ألاّ حاجةَ بها إلى ما تَصبو إليه النساء. أعلمته أنّ غايتَها أنْ تنظرَ في وجهه ليس غيرُ. أعلمتْه أنّها اختارت الآخرة، فتُبعَث في نساء النبيّ. ثمّ خَتمتْ مقالتَها بما كان يُحبُّ أنْ يسمع، قالت: يا رسول الله يومي لعائشة[74]. فكان الختامُ مِسكاً. راجعها الرسول. عادت إلى حظيرة النساء، تحنو على عائشة. تُسقط عليها مشاعرَها والإحساس.

تذكّرتْ سَودة كلَّ ذلك. حَنَتْ على عائشة حُنوّاً أكبر، داعبت جسدَها بكفّ يمينها، واستها في زوجها الذي هو زوجها. أجهشت زينب بالبكاء. علا الصراخ، علا العويل. بكت النِساء. ملأ الكونَ النواح. لم تكن زينب لعائشة أمّاً حنوناً. لم يجمع الودّ قطّ بين عائشة وزينب. كانتا حديث النساء لَمّا كان الرسول. لم تَجرُؤ زينب على الكلام. انتابها شعور لم يكن لها به عهد. واصلت البكاء والعويل.

عادت سَودة إلى الكلام قالت: أَوَتَذْكُرينَ يا عائشة المصون كيف كان الرسول يُدلّلك، يُلاعبك، يُمازحُك، يكاد يرفع عنه الوقار، فنحتار في أمر الرسول؟ عادت عائشة إلى الكلام، قالت: أَوَتَذْكُرينَ يا سَوْدَة الحنون ساعةَ التحقتُ بحظيرة نساء الرسول؟ كان عمري يومَها تسعاً من السنين، «أتتني أمّي، أمّ رومان، وإنّي لفي أرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت بي فأتيتها، ما أدري ما تُريد منّي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإنّي لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثمّ أخذتْ شيئاً مِن ماء فمسّتْ به وجهي ورأسي، ثمّ أدخلتني الدار. فإذا نسوة مِن الأنصار في البيت فقلن على الخير والبركة، وعلى خير طائر. فأسلمتني إليهنّ فأصلحن مِن شأني، فلم يرعني إلاّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضُحًى، فأسلمنني إليه[75].»

دَخلتُ الحظيرة غرّاً صغيرة، لا أحمل في جهازي غير لعبي، فلاعبني بلُعبي. كانت الحياة أنشودة للطفولة الخالدة، كان زوجي ينشر الفرح، ينشر السرور، فيعمّ الكونَ الضياء. كنتُ أقفز على ظهره، أعلو كتفيْه، أرتاح في حجره، تماماً كالطفلة الصغيرة. كان يبتسمُ، كان يضحك، كان فَكِهاً يمزح. ظننتُ اللعبة يا سودة لا تنتهي، ظننتُ الرسول زوجي خالداً، ظننتُني في حِجره خالدة لا أنتهي. اليومَ أصابني، يا سودة، الفشل، شعرتُ بالإعياء، مات محمد، مات.

أجهشت بالبكاء، لطمت رأسها وخدّيْها والجبين، قطّعت شعرها المرسل الجميل، صاحت في الرسول: لِمَنْ تركتني يا زوجي، يا رسول؟ أصاب الزوجات الفشل، شعرنَ بالإعياء، لطمنَ رؤوسهنّ وخدودهنّ والجباه، قطّعنَ شعورهنّ، صِحنَ في الرسول: لِمَنْ تركتنا يا زوجنا، يا رسول؟ ثمّ كان الصمت. يا الله، ما ضرّ لو عاد الرسول!

4

كان عبد الله بنُ مسعود في الساحة حيثُ احتشدت جموع المسلمين، من غير الأنصار، من غير المهاجرين، عبيداً ورعاةً ورعاعاً ووفودَ قبائل بلغها الخبر فشدّت الرحال إلى المدينة. كان يسير بحزم، ذهاباً وإياباً، بين الباب الذي يُفضي إلى فناء بيت الرسول والنخلة التي توسطت الساحة وعليها بلال لم يفارقها منذ أذّن بالخبر. كان يتوقّف لحظة بلا سبب ثم يواصل السير ذهاباً وإيّاباً بين الباب الذي ذكرنا ونخلة بلال مؤذّن الرسول. كان يتوقّف من حين إلى آخر، يجيب عن سؤال أو يروي قصّة أو يُحدّث بخبر، ثمّ يواصل السير ذهاباً وإيّاباً بين النخلة والباب. وكان يتوقّف أحياناً ينظر في السماء كمَنْ يسأل السماء، ثمّ يواصل السير ذهاباً وإيّاباً بين النخلة والباب الذي يُفضي إلى فناء بيت الرسول.

لم يشكّ عبد الله بنُ مسعود في موت الرسول مثل غيره من المسلمين. وأنّى له أنْ يشكّ وقد حدّثه بعض الثقات من أهل البيت، بعد خروجه من عند النبيّ منذ حين، بحديث الملائكة التي نزلت تقطف روح النبيّ. وقد امتلأت نفسه بذلك الحديث منذ اللحظة الأولى ودار به لسانه مرّات، يُعيده ويقول: «لمّا بقي من أجل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثلاثٌ نزل عليه جبريل فقال: يا أحمدُ، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً لك، وخاصّةً لك، يسألك عمّا هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدُك؟ قال: أجدني يا جبريلُ مغموماً، وأجدني يا جبريلُ مكروباً. فلمّا كان اليوم الثاني هبط إليه جبريلُ فقال: يا أحمدُ، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً لك، وخاصّةً لك، يسألك عمّا هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدُك؟ فقال: أجدني يا جبريلُ مغموما، وأجدني يا جبريلُ مكروباً. فلمّا كان اليوم الثالث نزل عليه جبريلُ وهبط معه مَلَكُ الموت، ونزل معه مَلَكٌ يقال له إسماعيل يسكن الهواء، لم

يصعد إلى السماء قطّ، ولم يهبط إلى الأرض منذ يوم كانت الأرضُ على سبعين ألف مَلَك ليس منهم مَلَكٌ إلاّ على سبعين ألف مَلَك، فسبقهم جبريل فقال: يا أحمدُ، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً لك، وخاصّةً لك، يسألك عمّا هو أعلم به منك، ويقول لك: كيف تجدك؟ قال: أجدني يا جبريلُ مغموماً، وأجدني يا جبريلُ مكروباً. ثم استأذن مَلَكُ الموت، فقال جبريل: يا أحمدُ، هذا مَلَكُ الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدميّ كان قبلك، ولا يستأذن على آدميّ بعدك. قال: إئْذنْ له. فدخل مَلَكُ الموت فوقف بين يديْ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسولَ الله، يا أحمد، إنّ الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها. قال: وتفعل يا مَلَكَ الموت؟ قال: بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني. فقال جبريلُ: يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك. قال: فامض يا مَلَكَ الموت لِما أمرت به. قال جبريلُ: السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر مُواطَئِي الأرض، إنما كنتَ حاجتي من الدنيا. فتوفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وجاءت التعزية يسمعون الصوت والحسّ ولا يرون الشخص: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إنّ في الله عزاءً عن كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل ما فات، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، إنما المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[76].»

كم أعجبه هذا الحديث! أعجبته الملائكة وقد نزلت إلى الأرض احتفاءً بأخذ روح النبيّ إلى السماء حيث اشتاق إليه الله الكبير. أعجبه جبريل. أعجبه مَلكُ الموت عزرائيل. أعجبه إسماعيل ساكن الهواء الذي لا يعرفه. ولمّا سأل عنه قيل له: هذا الخِضْر[77]، ألا تعرفه؟ فعرفه. سُرّ بوجود الخِضْر بين الملائكة. فالخِضْر حكيم زاهد، ولا بدّ أنْ يكون وجوده قد خضع لحكمة ربّانية عالية لا يفهمها إلاّ الحكماء والزهّاد. لم يكن عبدُ الله بن مسعود حكيماً زاهداً. استعصى عليه الأمر، تساءل: لعلّ الخضر جاء يشدّ من أزر النبيّ ويُخفّف عنه سكرات الموت التي تُضاعف للأنبياء ضعفيْن! وكانت سكرات الموت على النبيّ عسيرة عُسراً شديداً. فهو بالإضافة إلى ما كرّره أمام جبريل من أنّه مغموم ومكروب كما ورد في الحديث أعلاه، سُمع يتضرّع لله ويقول:

«اللهمّ أعنّي على كرب الموت! اللهمّ أعنّي على سكرات الموت! وجعل يقول: ادنُ منّي يا جبريل، ادنُ منّي يا جبريل، ثلاثاً[78].» كان النبيّ ساعة حلّ به البلاء الذي لا مردّ له مثل أخيه عيسى الذي كثيراً ما تشبّه به. كان عيسى، وهو يُساق إلى حتفه صَلباً، قد خرّ على وجهه يُصلّي ويتضرّع لله: ﴿يا أبتاه إنْ أمكنَ فَلْتَعْبرْ عنّي هَذه الكَأسَ ولكنْ لَيسَ كما أريدُ أنا بل كما تريد أنتَ [...] يا أبتاه إنْ لَمْ يُمكن أنْ تَعبرَ عَنّي هذه الكأس إلّا أنْ أشْرَبَها فلْتَكُنْ مَشيْئَتكَ[79]﴾ ثمّ صرخ المسكين في الربّ أبيه بلغته العبريّة: ﴿إيلي إيلي، لما شبقتني؟ أي: إلهي إلهي، لماذا تركتني؟[80]﴾ فعبّر بذلك عن أنّ الأنبياء مثل غيرهم من الناس يخافون الموت ولا يرغبون فيه ويفزعون منه فزعاً شديداً، وقد ذهب بعضهم إلى ردّ ملك الموت لمّا جاء يقبض روحه وضربه ضرباً شديداً وأرجعه إلى ربّه مكسوفاً[81].

كان عبد الله بنُ مسعود مشغولاً بأمر الموت والسكرات والخِضْر والمشقّة التي يلقاها الأنبياء عند القبض لمّا استوقفه شيخ من الزائرين، وقال له: أتَركَ رسول الله في الناس وصيّة، يا ابن أمّ عبد؟ لمع فيه شيء كالحنين، تذكّر، قال: «نعى إلينا نَبيُّنا وحَبيبُنا نفسه قبل موته بشهر، فلمّا دنا الفراق جمعنا في بيت أمّنا عائشة فنظر إلينا وشدّد فدمعت عينه وقال: مرحباً بكم رحمكم الله، أواكم الله، حَفظكم الله، رَفعكم الله، نَفعكم الله، وفّقكم الله، نَصركم الله، سلّمكم الله، رحمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، وأؤدّيكم إليه، إنّي لكم نَذيرٌ وبَشير، لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنّه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فقلنا: متى أجلك؟ قال: قد دنا الفراقُ والمُنقلبُ إلى الله وإلى سدرة المنتهى. قلنا: فَمَنْ يغسلك يا نبيّ الله؟ قال: أهلي الأدنى فالأدنى. قلنا: فَفِيمَ نُكفّنُكَ يا نبيّ الله؟ قال: في ثيابي هذه إنْ شئتم أو في بياض مصر أو حلّة يمانية. قلنا: فَمَنْ يُصلّي عليك يا نبيّ الله؟ قال: مهلا، غفر الله لكم وجزاكم عن نبيّكم خيراً. فبكينا وبكى النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال: إذا غسلتموني وكفّنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، ثمّ اخرجوا عنّي ساعة فإنّ أوّل مَنْ يُصلّي عليّ جليسي وخليلي جبريل ثمّ ميكائيل ثمّ

إسرافيل ثمّ ملك الموت مع جنود كثيرة من الملائكة بأجمعها، ثمّ ادخلوا عليّ فَوْجاً فَوْجاً، فصلّوا عليّ وسلّموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكية ولا برنّة ولا صيحة، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثمّ نساؤهم ثمّ أنتم بعد، اقرؤوا أنفسكم منّي السلام فإنّي أشهدكم أنّي قد سلّمت على مَنْ بايعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة. قلنا: فَمَنْ يُدْخِلكَ في قبرك يا نبيّ الله؟ قال: أهلي مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم[82].»

سَكتَ عبد الله بنُ مسعود سَكتةً فنّية، ثمّ قال كالمخاطب نفسه والناس من حوله يسمعون: كلّ شيء أوصى به إلى أهله المقرّبين، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العظيم، فلننتظر عودة أهله المقرّبين. اقترب أحد العبيد، شجّعه ما قال عبد الله، سأل السؤال الذي كان على كلّ لسان، في كلّ بال، قال: وأين أهله المقرّبون؟ نظر إليه عبد الله حيرةً وارتباكاً، كبّر ثمّ قال: الله أعلم، الله أعلم.

تشجّع حُنين، تقدّم من عبد الله الواقف الآن عند الباب مشبوكَ اليديْن على بطنه الشاحب، يُدير الإبهام على الإبهام كمن يفكّر في المصير. كان بين حُنين وعبد الله ودٌّ قديم، جمعت بينهما خدمة الرسول. كان حُنين مولى الرسول على وضوء الرسول، وكان عبد الله على سواده والسواك ونعله والثياب. وضع حُنين يده على عبد الله وقال: يا ابن أمّ عبد، طال بنا الانتظار، خفّف عنّا طول الانتظار بقصصك التي كثيراً ما رفعت عنّا الملل وطول الانتظار، حدّثنا عن بدء أمركَ مع الرسول. انبسط الوجه الأخضر الذي كان منذ حين يعلوه الغيظ الدفين، قال في رفق كبير: أهذا وقت قصة يا حُنين؟

ارتفعت الأصوات تقول قول حُنين: حدّثنا يا ابن أمّ عبد عن بدء أمركَ مع الرسول. كان ينتظر مثل هذا الإجماع ليُحدّث ويقول: «كنتُ غلاماً يافعاً في غنم لعقبة بن أبي معيط أرعاها، فأتى النبي صلّى الله عليه وسلّم ومعه أبو بكر فقال: يا غلام هل معك من لبن؟ فقلتُ: نعم، ولكنّي مؤتمن. فقال: ائتني بشاة لم يَنزُ عنها الفحل. فأتيته بجدعة فاعتقلها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت فأتاه أبو بكر بصحوة فاحتلب فيها ثمّ قال لأبي بكر: اشرب، فشرب أبو بكر ثمّ شرب النبي صلّى الله عليه وسلّم بعده ثمّ قال للضرع: اقلص، فقلص فعاد كما كان. ثمّ أتيتُ فقلتُ يا رسول الله علّمني من هذا الكلام. فمسح رأسي وقال: إنّك غلام معلّم[83].»

ارتفعت الأصوات بالتسبيح: سبحانك اللهمّ، سبحانك، سبحانك ما أعظم شأنك! تجرّأ حُنين وسأل: وهل تعلّمتَ يا ابن أمّ عبد شيئاً من ذلك الكلام ورتّلت بعض الدعاء الذي سحر؟ هل مسحت ضرع شاة لم يَنْزُ عنها الفحل فدرّ باللبن؟ قال عبد الله: أنت لا تستحي قطّ يا حُنين. تمزح في مثل هذا الحين. لعنة الله عليك يا لعين. ابتسم حُنين، قال: كان رسولنا الكريم يحبّ الهزل والمزاح. أتذكر يا عبد الله قصّته مع تلك العجوز التي جاءت تسأل عن مكانها في الجنّة؟ أسرع عبد الله يُلجم حُنيناً ويقول: اسكت لعنك الله، أهذا وقت مزاح؟ ارتفعت الأصوات تطالب حُنيناً بالقصّة. تَشجّع حُنين وقد نجا بفضل جمهور المحتشدين من تهديد عبد الله وقال: «أتت عجوز النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالت: يا رسول الله ادع لي أنْ يُدخلني الله الجنّة. قال: يا أمّ فلان إنّ الجنّة لا يدخلها عجوز. فولّت العجوز تبكي. فقال: أخبروها أنّها لا تدخلها وهي عجوز فإنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾[84]» وأضاف حُنين مُفسّراً: كذلك تعود العجوز بكراً صبيّة، بإذن الله، وتدخل الجنّة، آمين!

ضحك الناسُ وقد سرّهم ما قال حُنين. كان ما قاله حُنين نقلاً عن الرسول يُعبّر عمّا يختلج فيهم من رغبةٍ في التخلّي عن عجائزهم اللائي بَلغنَ من العمر عتيّاً وتوقّف فيهنّ الشيء العجيب. كان قول حُنين يحمل البشرى بعذارى الوعد حتى وإنْ مات الرسول.

أبدى عبد الله شيئاً كأنّه الغضبُ وليس بالغضب، قال: والله أنت يا حُنين أكبر لعين، لولا حبّ الرسول لك وعطفه عليك لجلدتك أمام خلق الله الميامين. ثمّ أظهر الجدّ وقال: كنتَ والله، دائماً لعيناً. ألم تعرض لأصحاب الرسول بالأذى وتحرمهم ماء الوضوء وتتفرّد بالماء؟ علت الأصوات تُطالب عبد الله بقصة حُنين مع ماء الوضوء. نظر عبد الله نظرة انتصار إلى حُنين الذي كان يمزح منذ حين. قال له: سأفضح أمرك يا لعين. اسمعوا يا سادتي الكرام قصّة حُنين مع ماء الوضوء: «كان حُنين يخدم النبي صلّى الله عليه وسلّم ويوضئه، فإذا فرغ النبي صلّى الله عليه وسلّم خرج بفضلة الوضوء إلى أصحابه، فمنهم مَنْ يشرب منه ومنهم مَنْ يتمسّح به، فاحتبسه حُنين فخبّأه عنده في جرّة حتى شكوه إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال له: ما تصنع

به؟ فقال: أدّخره عندي أشربه يا رسول الله، فقال عليه السلام: هل رأيتم غلاماً أحصى ما أحصى هذا الغلام[85]؟»

قهقه الحاضرون. عاد عبد الله بنُ مسعود وواصل يقول: أتعرفون يا سادتي الكرام ماذا كان يفعل بماء الرسول؟ كان يبيعه في غفلة من الرسول. كان يبيعه لزوّار مسجد الرسول وحتى لأصحاب الرسول. تغيّر لون وجه حُنين. صاح بعبد الله: أتكذب على خادم الرسول والرسول مازال في البيت مُسجّى؟ ماذا سيكون المصير بعد دفن الرسول؟ ستقولون، والله، الأقاويل. سكت برهة لم تطل ثمّ أجهش بالبكاء. صاح. ارتفع العويل. التفّ حوله العبيد وموالي الرسول. صرخ فيهم قال: لمن تركتنا يا رسول؟ كنت حامي العبيد والموالي. ها العبيد والموالي عرضة للأقاويل. بكى العبيد والموالي. صاحوا صوتاً واحداً: لمن تركتنا أيّها الرسول؟ تأثّر عبد الله بالموقف الجليل. بكى مثل ما يبكي العبيد وإنْ أعتقهم الرسول. تقدّم من حُنين يمسح دمعه ويقول: كنتُ أمزح يا حُنين، ألم تقل إنّ الرسول كان يمزح في كلّ حين؟ قبّل منه الجبين. ضمّه إليه وقال: نحن جميعاً يتامى يا حُنين. ثمّ أطلق العنان للعويل.

بلغ العويل النساء، أجهشن بالبكاء. علا العويل، علا الصراخ. ناحت النساءُ الرسول، نائحة من وراء نائحة:

راح عنّا البدرُ، راح إلى ثنيات الوداعْ
راح عنّا البدرُ، راح لمّا دعا لله داعْ
وخبا النورُ، نورُ المبعوث المُطاعْ

ردّد الكون الصدى. ردّدت النساء وراء النائحة صوتاً واحداً:

راح عنّا البدرُ، راح إلى ثنيات الوداعْ
راح عنّا البدرُ، راح لمّا دعا لله داعْ
وخبا النورُ، نورُ المبعوث المُطاعْ

وتتالت الأصوات النائحة يُعارض بعضُها بعضاً: «كانت أسارير وجهه تبرق. كان كالقمر ليلة البدر لم أر قبله ولا بعده مثله»؛ «كان مثل القمر والشمس مستديراً، لو رأيته لقلت الشمس طالعة، خاتمه عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده»؛ «كان ربعة من القوم ليس بالطويل، ليس بالقصير، أزهر

اللون ليس بأبيض أمهق ولا بآدم، ليس بجَعْدٍ قَطَطٍ ولا سَبِطٍ رَجِلٍ، توفّاه الله وليس في رأسه عشرون شعرة بيضاء»؛ «ما رأيتُ شيئاً أحسن من رسول الله، كان كأنّ الشمس تجري في جبهته، وما رأيتُ أحداً أسرع في مشيته من رسول الله، كأنّما الأرض تُطوى له»؛ «كان رسول الله أزهر اللون مشرباً وجهه حمرة، فيه حمرة ما ضحا للشمس والرياح، وما تحت الثياب فهو الأبيض الأزهر.»

ارتفعت الأصوات تنوح محمّداً الرسول، تذكر الشمائل، تُعدّد الخصال، تصف البدر الذي كان، تصف الشمس التي سطعت في فضاء الجزيرة مدّة طويلة. عدّدت ألفاً من الشمائل، عدّدت ألفاً من الخصال، تناقلتها الأخبار، دوّنتها الكتب في السيرة والتاريخ، انظرها هناك إنْ شئت الإلمام بالمعرفة التمام[86].

تواصل النواح يملأ الكون ساعة من الزمن. تواصل العويل. أصاب الإعياءُ النساءَ النُّوَح. كلّت الزوجاتُ العويل. بحّت الحناجر. صارت الأصوات مثل الحشرجة. توقّف النواح. توقّف العويل.

أذّن بلالٌ لصلاة الظهر. لم تقم النساء لصلاة الظهر، كان الرسول مسجّى على السرير، ولا تكون للنساء صلاة في حضرة المسجّى على السرير. هبّ بعض الرجال الذين كانوا خارج البيت إلى فناء المسجد يؤدّون الظهر لمّا أذّن بلال لصلاة الظهر. كانوا مواليَ وعبيداً ورعاةً وزُوّاراً علا الغُبارُ وجوهَهم والثياب، وأنهكم التعب.

نادت عائشة بريرةَ الخادمة. همست في أذنها التي كانت تتشوّق للهمس: انظري إنْ كان أبو بكر أبي قد جاء للصلاة أو جاءها عُمر. تسلّلت بريرة من الباب الذي كان يفصل البيت عن المسجد. رأت مابور غلام النبي. نادته. أسرع إلى بريرة التي كان بينه وبينها ودّ قديم. كان إذا التقاها مثّل أمامها دوراً ومثّلت أمامه دوراً، كأنّهما على ركح المسرح. لبس قناعه للتمثيل قال: ماذا تريد مولاتي بعد أنْ سباني حبّها وأضناني؟ صاحت فيه برقّة وعطف: ألا تستحِ يا عبد النحس! أتمزح والرسول في البيت مسجّى؟ أَخْبِرْني إنْ كان أبو بكر قد عاد وانضمّ إلى جمهور المصلّين، أَخْبِرْني إنْ كان عُمر قد عاد.

قهقه مابور غلام النبيّ، قال: أَوَتَمْزَحينَ يا بريرة العزيزة! ليس في الرجال رجلٌ من المهاجرين، ليس في الرجال رجلٌ من الأنصار. لا أحد في صفوف المصلّين غير العبيد والموالي والرعاة والزوّار الذين جاؤوا لحضور موكب الدفن، ولا موكب للدفن، فقد غاب أهل الرسول الذين سيتولّون الدفن.

شدّ على يدها بلطف، قرّبها من صدره العريض، قال: ألا أحسستِ يا بريرة العزيزة بفيض الحبّ؟ ألا أحسستِ في قلبي بالعشق؟ أنساها حزنَها والرسولَ المسجّى على السرير. أنساها سيّدتَها التي أرسلتها في مهمّة سرّية عاجلة. ردّت الودّ بالودّ. قالت تلعب دورها الذي لعبته كلّما جمعها بمابور اللقاء: مولاي، ها الجارية بين يديك، افعل بجاريتك ما رأيت. أجابها في الحين: أنا عبدُ مولاتي، فلتأمر مولاتي وأنا أطيع. أجابت بدَلّ كبير: كيف كان أمر عبدي مع مارية زوج الرسول؟ اقشعرّ بدن مابور، قال بحزن وألم: وَلِمَ إثارة الأمر الدفين يا بريرة العزيزة؟ ضحكت بدَلّ، قالت: قصّتك يا مابور على كلّ لسان، أريد أنْ أسمعها منك مرّة، فلا تبخل بها عليّ هذي المرّة.

تنهّد مابور، شدّ على يدها شدّاً قويّاً، قال: كنتُ يا بريرة العزيزة غلاماً من غلمان جريج بن مينا صاحب إسكندرية. وكانت مارية بنت شمعون القبطية وأختها شيرين جاريتيْن من جواريه الحسان. وكانت الدلدل بغلة من بغاله الكُثر فازت على البغال بذكاء لا يكون في البغال. لمّا عزم صاحب إسكندرية الأكبر على كسب ودّ الرسول الأكرم، أهداه خير هدية كانت على ملكه، أهداه مابور الذي هو أنا ومارية الجارية وأختها شيرين والدلدل المقدام، فوجد فينا خيرُ البريّة خيرَ هدية: أنا للخدمة ومارية للحرث والدلدل للركوب والحرب وشيرين للهدية. أخلصنا له الودّ، أخلصنا له الخدمة، لم نفارقه حتى فارقنا[87]. «كانت مارية جميلة أعجب بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأحبّها وحظيت عنده [...] كانت بيضاء جعدة جميلة، أنزلها وأختها على أمّ سليم بنت ملحان، فدخل عليهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأسلمتا هناك، فوطئ مارية بالملك، وحوّلها إلى مالٍ له بالعالية كان من أموال بني النضير، فكانت فيه في الصيف، وفي خرافة النخل. فكان يأتيها هناك، وكانت حسنة الدين، ووهب أختها شيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن، وولدت مارية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم غلاماً سمّاه إبراهيم، وعقّ عنه

بشاة يوم سابعه، وحلق رأسه وتصدّق بزنة شعره فضّة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض[88].» تلك هي قصّتي ومارية والدلدل والرسول، يا بريرة العزيزة، قصّة بسيطة، ككلّ القصص البسيطة!

قهقهت بريرة من على عتبة الباب حتى كادت تسقط. قالت له مداعبة مازحة: تقول الأخبار يا عبد النحس «إنّ مابور كان يدخل على مارية وشيرين بلا إذن كما جرت به عادته في مصر، فتكلّم بعض الناس فيها بسبب ذلك[89]» فما كان أمر الرسول معك؟ رماها بلحظ جارح قاتل، قال: ألا سكتّ عنّي يا أَمَة؟ همّ بالانصراف. أخذتْ بكُمّ ثوبه، وقالت: لا تهرب منّي يا عبدي، إنّي أحبّك، فلنهنأ بالحبّ. بادلها الودّ بالودّ، مثّل الدور الذي كان يُمثّل، قال: إليّ يا حُبّي، ننعم بالعشق، نُطفئ لظى الهوى المشتعل. قالت: لا إلاّ أنْ ترويَ لي القصّة. قال: لا ثمّ ألف لا. قالت: اسمع أرويها لك أنا، فإنْ ورد فيها التحريف قوّمتَه. قال: وأنتِ مَنْ أدراكِ بها؟ قالت: سمعتُ عليّ بن أبي طالب يرويها لبعض صحبه، وأنا وراء الباب أتلصّص. قال: كذبتِ. قالت: اسمعْ تَرَ: «حدّث عليّ بن أبي طالب قال: أكثروا على مارية أمّ إبراهيم في قبطي ابن عمّ لها، يُدعى مابور، يزورها ويختلف إليها، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: خذ هذا السيف فانطلق فإنْ وجدته عندها فاقتله. قال: قلتُ يا رسول الله أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكّة المحماة لا يثنيني شيء حتى أمضي لِما أمرتني به، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فأقبلتُ متوشّحاً السيف فوجدته عندها، فاخترطتُ السيف، فلمّا رآني عرف أنّي أريده، فأتى نخلة فرقي فيها ثمّ رمى بنفسه على قفاه، ثمّ شال رجليه فإذا به أجبّ أمسح ما له ممّا للرجال لا قليل ولا كثير. فأتيتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبرتُه فقال: الحمد لله الذي صرف عنّا أهل البيت[90].» انكشف أمرك يا مابور. أنتَ إذن خصيّ كبقية العبيد.

توقّف اللعب. توقّفت الأدوار، توقّفت مسرحية بريرة ومابور. تمخّضت كوميديا الحياة على تراجيديا الوجود. شعر بالحقد على جريج، على مصر، على واهب العبيد لصاحب مصر والرسول. طأطأ الرأس حزيناً كئيباً. انتهى الناس من صلاتهم في المسجد. خرجوا إلى الفناء. دخلت بريرة حزينة كئيبة.

شعرت بالجرح العميق في نفس مابور. شعرت بالحياة تفتكّ منها مابور. كان يُمكن أنْ يكون خير زوج لبريرة وقد فرّت من زوجها بعد عتقها. جرت إلى سيّدتها التي أرسلتها في مهمّة منذ زمن غير قصير. همست في أذنها: لا أحد في المسجد غير الموالي والعبيد والغرباء.

رمقت الزوجاتُ عائشة. قرأت عائشة في عيونهنّ السؤال. فَهِمَت الكلام الذي لا يَجرُؤنَ على النطق به. قالت تجيب عن النظرة السؤالِ، وتُعيد قول بريرة: لا أحد في المسجد غير الموالي والعبيد والغرباء. ثمّ أضافت: غاب أصحاب الرسول وأهله.

غادرت العيونُ وجهَ عائشة الذي احمرّ من دمع سال مدراراً منذ الضحى حتى تلك الساعة التي جاوزت العصر. عيون حمراء سال منها الدمع مدراراً منذ الضحى حتى تلك الساعة التي جاوزت العصر. سرى في عائشة شيء مثل الحنين. أحسّتْ بالفراغ. أحسّتْ بالألم. صاحتْ صَيحةً دوّى لها المكان: أَوَيُعْقَلُ يا رسول أنْ يغيب عنك الأهل من الرجال والصحب وتبقى مسجّى بلا كفن، بلا دفن؟

تناقلت الزوجاتُ إليها النظر. بدتْ لهنّ وكأنّها تلعبُ دوراً. بدا لهنّ أنّ استدعاء بريرة وإرسالها وعودتها بغير خبر وإظهار عائشة التعجّب من غياب الأهل والصحب من الرجال كان مجرّد لعبة من لُعبها الكُثر. تناقلن بينهنّ النظر. أحسسنَ بالفراغ. أحسسن بالألم. صِحْنَ في ذات الوقت صيحةً دوّى لها المكان: أَوَيُعْقَلُ يا رسول أنْ يغيب عنك الأهل من الرجال والصحب وتبقى مسجّى بلا كفن، بلا دفن؟

في تلك اللحظة بالذات خامرهنّ من جديد الشعور بأنّ الرسول لم يمتْ. تعاودنَ ما قال الرجال: ما مات محمّدٌ ولكنّه غاب كما غاب موسى أو رُفع كما رُفع عيسى، وسيعود بإذن الله. سرى فيهنّ هذا الكلامُ برداً وسلاماً. تفتّحت أساريرهنّ سروراً. منّينَ النفوس بعودة البعل القريبة.

5

جاء عبد الله بنُ مسعود بعد أنْ صلّى الظهر مع الرعاع والعبيد وصغار المؤمنين. جاء يستغفر الله ويُكبّر ويقول: سبحانك اللهمّ سبحانك، سبحانك ما أعظم شأنك. نادى عبد الله بنَ عبّاس. جاءه في الحين. كان طفلاً ذا وقار يحترمه الصبيان والشبّان وحتى الكهول. كان سريع الإجابة والفهم. كان كثير السرعة والجري يضيق به المكان إذا حلّ بالمكان. وتروي الأخبار أنّه كان سريع الحفظ يؤوّل القرآن لأنّ الرسول دعا له وقال: «اللهمّ علّمه الحكمة، اللهمّ علّمه الكتاب؛ اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل[91].» نظر عبد الله بنُ مسعود إلى عبد الله بنِ عبّاس، قال: يا بُنيّ اجرِ إلى بيت فاطمة انظر ما الخبر، لِمَ غاب عنّا العبّاس وعلي والزبير وطلحة؟ أو اجرِ إنْ شئتَ إلى بيت أبي بكر أو عُمر تأتِنا بالغيب الذي عنّا احتجب.

شمّر عبد الله بنُ عبّاس عن ساعديه كمَنْ يستعدّ للّكم. شمّر عن ساقيه كمَنْ يستعدّ لخوض البحر. نظر إلى ابن مسعود وقال: أنا آتيك بالخبر قبل أنْ يرتدّ إليك طرفك. أنا آتيك بعليّ وأبي بكر وعُمر. أنا آتيك بالعبّاس وطلحة والزبير. هذا وعدي لك يا ابن أمّ عبد. كلّ شيء سيكون جاهزاً قبل المغرب أو العشاء، الغسل والكفن والدفن. لن يُقال فينا مات فيهم ميّت عند الضحى وبات فيهم وأصبح، والعرب تدفن موتاها على سنّة رسولها والإسلام في يوم الموت ذاته.

نظر عبد الله بنُ مسعود إلى عبد الله بنِ عبّاس نظرةً طويلة. قال له بصوت خافت كالهمس: قل إنْ شاء الله يا ولديَ. أدار عبد الله بنُ عباس ظهره لعبد الله بنِ مسعود. كان دم الطفولة يفور فيه فوراناً. صفّر كما يصفّر الأطفال أو رعاةُ الأبقار. التفّ حوله أصحابه من الصبيان والفتيان. قال لهم بصوت حازم جريء: هيّا يا شباب. صاحوا صوتاً واحداً: لبّيك، لبّيك. سار أمامهم يَحثّ

الخَطو. ساروا وراءه يحثّون مثله الخَطو. اختفوا عن الأبصار تُغطّيهم ضبابة الرمل التي أثارها حثيث الخَطو.

كان بيت فاطمة أقرب البيوت إلى بيت الرسول، فقصده عبد الله والفتيان. كان بيتاً صغيراً متواضعاً ككلّ البيوت في تلكم الأيام. كان عند منحنى الطريق على يمين المُصعّد إلى خيبر، وكانت الطريق إلى خيبر لا تخلو يومها من رمال تذروها الرياح أو تدوسها الأقدام فيرتفع منها شيء كالغبار يسدّ المنخريْن. وقد كان البيت في أصله على ملك حارثة بن النعمان، تخلّى عنه لفاطمة لمّا تزوّجت فاطمة عَليّاً وأصاب عليٌّ منزلاً مُستأخراً عن النبيّ فأزعج ذلك النبيَّ وأراد أنْ يُحوّلها إليه. فلمّا سمع بذلك حارثة بن النعمان تخلّى عن البيت لفاطمة، فتحوّلت إليه فاطمة مع عليّ[92]، وسُرّ النبيّ بسَكَن ابنته قُرب سَكَنه.

جرى عبد الله وجنده الفتيان إلى دار فاطمة لكشف صحّة الأخبار. وصلوا أمام البيت. أمرهم القائد بالوقوف. تسلّل وحده إلى داخل الفناء. كان الزبير يمشي فيه ويجيء وصحبه جلوساً. كان يخطب على ما يبدو في صحبه الجلوس. صاح فيهم عبد الله بنُ عباس: ويحكم يا رجال. رسول الله ميّت تحيط به النساء، يغمره النواح من الصباح حتى المساء، وأنتم هنا تتجاذبون أطراف الحديث. ألستم أهله الذين عليهم غسله وتجهيزه ودفنه؟ إلى متى الانتظار؟ ألا تعلمون يا رجال أنّ راحة الميّت في قبره كما كان يقول رسولنا الذي وافاه الأجل المحتوم؟

قام إليه العبّاس يهزّ في وجهه عصاه: اخرس يا لئيم. متى كنتَ تُكلّم الرجال وترفع فيهم الصوت الشنيع. جرى نحوه يريد سَحقه بعصاه. ارتمى في حضن الزبير كالطفل يلوذ بحضن جدّته تردّ عنه بطش أبيه. سأل خائفاً والرعشة في لسانه، في أعضائه، تشلّ الحركة فيه: ربّاه ماذا جرى حتى ينقلب عليّ الرجال؟

لم يتكلّم عليّ. تنهّد تنهُّدة لو سمعتها الجبال الرواسي لخرّت لها ساجدة صاغرة. لم يتكلّم طلحة. بدا على وجهه الإعياء كأنّه كان يحمل وحده عبء السنين. لم يتكلّم العبّاس. مازالت العصا تهتزّ في يده وترتعش كأنْ تبحث

لها عن موقع، عن جسد. قال الزبير: أنت يا ولدي حديث السنّ لا تهمُّك هذه الأمور. أعاد بإلحاح سؤاله البسيط: ربّاه ماذا جرى؟

كان الزبير يُحبّ عبد الله حُبّاً كبيراً، ويحنو عليه إذا ما رفع العصا في وجهه أبوه. قَبِلَ إلحاحَه والسؤال، أجابه بلطف: نحن يا بُني نتذاكرُ أخبارَ جاهليتنا وما كان لنا فيها من شأن. نحن يا بُني نتذاكر أخبار إسلامنا وأقوال النبي فينا. نحن يا بُني نبحثُ لنا عن شرعية تكون رايةً نرفعها في وجه منْ جَرؤ ونازعنا خلافة الرسول. نحن يا بُني نبحث لنا عن السبيل إلى الفوز في معركة المصير والانتصار على المتآمرين إنْ جَدَّ في المدينة المتآمرون.

نظر عبد الله بنُ عباس إلى القوم المجتمعين نظرة غريبة. لم يفهم ما قاله الزبير. لم يفهم التآمر الذي كانت تفوح به المدينة. لم يفهم خلافة الرسول وهو الذي تعلّم من الرسول ألاّ رسول بعد الرسول. قبّل الزبير قبلة طويلة كأنّه يشكره على ودّه والحماية التي وجدها منه. خرج إلى أصحابه من الفتيان عند الباب ينتظرون حيث طلب منهم الانتظار. لم يصح فيهم آمراً ولا ناهياً. كان لا يدري إلى أين يسير. كان جاهلاً بالمصير. وقف ينظر في الفضاء. وقف صامتاً ذاهلا بارد الأوصال. خاف أصحابه أنْ يكون به مسّ من شيطان فصاحوا في الشيطان يلعنون الشيطان ويقرؤون سورة يس، على عادة الصبيان حين تلمّ بهم الملمّات ويشعرون بوجود الشيطان. هزّه القرآن الذي كانوا يقرؤون. شرح الله صدره في الحين. رجع إليه رشده والسلطان. صاح في صحبه وقال: إلى بيت الرسول.

شمّر عبد الله بنُ عبّاس عن ساعديه كمَنْ يستعدّ للّكم. شمّر عن ساقيه كمَنْ يستعدّ لخوض البحر. شمّر أصحابه عن السواعد الفتيّة. شمّروا عن السيقان التي تعوّدت الجري وتسلّق النخيل. جرى أمامهم. جروا وراءه. غابوا عن الأنظار في لحظة قصيرة كأنّها رمشة عين تاركين في بيت فاطمة عليّاً والزبير وطلحة والعبّاس وبعض بني هاشم الذين لم تسمّهم الأخبار.

في بيت فاطمة كان الحديث يدور، قبل أنْ يدخل عليهم عبد الله بنُ عبّاس ويُعكّر صفوهم، حول خلافة الرسول واتفاق الملإ المجتمعين على ضرورة نهوض آل البيت بالأمر الجليل.

«قال العبّاس لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: ابسط يدك أُبايعك، فيُقال: عمُّ رسول الله بايعَ ابنَ عمِّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ويبايعك أهل بيتك، فإنّ هذا الأمر إذا كان لم يقل، فقال له علي كرّم الله وجهه: ومَنْ يطلب هذا الأمر غيرنا؟ وقد كان العبّاسُ رضي الله عنه لقي أبا بكر فقال له: هل أوصاك رسول الله بشيء؟ قال: لا. ولقي العبّاسُ أيضاً عُمر فقال له مثل ذلك. فقال عُمر: لا. فقال العبّاس لعليّ رضي الله عنه: ابسط يدك أُبايعك ويبايعك أهل بيتك[93].»

كذلك هو عليّ في القصص، مطمئنٌّ دائماً وإنْ في أحلك الأمور. كان يظنّ أنّ خلافتَه الرسولَ أمرٌ طبيعيّ لا اختلاف فيه. كان يظنُّ أنْ لا أحدَ غيره يطلب هذا الأمر. وكان الملأ المجتمعون حوله لا يشكّون في أنّهم أولو الأمر بعد الرسول. وكانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً في أنّ المهاجرين قادمون لا محالة لمبايعة عليّ في بيته، بيتِ فاطمة بنت الرسول. وكانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً في أنّ الأنصار آتون لا محالة بعد المهاجرين، يفعلون ما فعل المهاجرون، يُبايعون عليّاً لينهضَ بالأمر بعد الرسول.

طال الانتظار ولم يأتِ المهاجرون. طال الانتظار ولم يأتِ الأنصار. طال الانتظار بعليّ. كان ينتظر قدوم الملإ للبيعة حتّى يتفرّغ لتجهيز الرسول ودفنه.

بدأ الشكّ ينخر في نفوسهم نخراً. لِمَ تأخّر أبو بكر؟ لِمَ تأخّر عُمَر؟ أين المهاجرون؟ أين الأنصار؟ بدأ الشكّ ينخر فيهم نخراً. طال الانتظار. طال من الضحى إلى العشاء. ولا شيءَ في الأفق.

6

في سقيفة بني ساعدة اجتمعت الأنصارُ إلى سَعد بن عُبادة[94]. وسَعد ابنُ عُبادة هذا كان يومها رجلاً لا مثيل له في الرجال. كان النسبَ والحسبَ والجودَ والكرمَ والعلمَ الوافرَ والمُحاربَ الكُفْءَ وهلمَّ جرّا. انظرْ ترجمته في الكتب تَرَ الأشرافَ كُلَّهُمْ في مدينة الخزرج قاموا له نَسباً. انظرْ ترجمته في الكتب تَرَ الخصال تشكّلت بشراً، تَرَ الخصال تشكّلت سَعداً. فسَعدُ بنُ عُبادة هو «ابنُ دُليم بنُ حارثة [...] بنُ ساعدة بنُ كعب بنُ الخزرج الأنصاري. وسَعدُ بنُ عُبادة هو سيّدُ الخزرج. وكان سعدٌ مشهوراً بالجود هو وأبوه وجدّه وولده. وكان لهم أُطْمٌ يُنادى عليه كلّ يوم: من أحبَّ الشحمَ واللحمَ فَلْيأتِ دُليمَ بنَ حارثة. وكان مُنادي سَعدٍ يُنادي على أطمة: من كان يُريد شحماً أو لحماً فلْيأْتِ سَعداً [...] وكان سعدُ ينطلق بثمانين من أهل الصُّفة إذا أمسوا يُعشّيهم لمّا كان غيره لا ينطلق إلاّ بالواحد أو بالاثنين منهم. وكان يكتب بالعربية، ويُحسنُ العومَ والرميَ، فكان يُقالُ له الكامل[95].»

أمّا من حيثُ المَشاهدُ فقد «شهد سَعدٌ العقبة مع السبعين من الأنصار وكان أحد النقباء الاثني عشر فكان سيّداً جوّاداً[96].» ويُقال إنّه شهد بدراً[97]، فإن قال قائلٌ إنّه لم يشْهدْها، وَجَدَ له العُذرَ، ووجد له التعلّةَ، وقال: «كان سَعدٌ يتهيّأ للخروج إلى بدر ويأتي دُورَ الأنصار يحضُّهم على الخروج فنُهِشَ قبل أنْ يخرج فأقام، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لئن كان سَعدٌ لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً[98].» ألا ترى حِرصَه الشديدَ على الخروج إليها يفوح من ثنايا القصّة؟ ألا ترى حَضّه الأنصارَ على الخروج إليها يفوح بدوره من ثنايا القصّة؟ ألا تراهما معاً، حِرصاً وحَضّاً، يشفعان له عند كلِّ ناكر خروجَه إليها، ويزيدانه فَضلاً على فَضلِه، فَضلِه الذي قد كَمُلَ إذ «شَهد أُحُداً والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[99].»

وقد توطّدت العلاقةُ بين سَعد والنبي وجمع بينهما الودّ الكبير. كان سَعد يُرسل إلى النبيّ كلّ يوم جَفنة، فيأكل منها وتأكل منها زوجاته جميعاً[100]. وكان النبيُّ يزور سَعداً في داره ويقول فيه وفي آله أقوالاً مأثورة سجّلتها له مجاميع الحديث وكتب المناقب والسّيَر والتاريخ. وكان يدعو له بأحسن الدعاء ويُبجّله على غيره من المسلمين[101]، ويُلبّي طلباتِه كلّها، حتى إنّه صلّى على أمّه عمرة بنتِ مسعود، وكانت امرأةً من المبايعات لها صُحبة[102]، بعد شهر من موتها ولم يفعل ذلك إلاّ مَرّتَها[103].

كان سَعد بن عُبادة صرحاً شامخاً لا يعرف الخضوع، دانت له الأنصار، وحظي بودّ المهاجرين، ونال الاحترامَ من لدن الجميع. ورغم أنّه بدا في القصّةَ التي تروي أخبار السقيفة عليلاً لا ينعم بالصحّة ولا ينعم بالعافية، عاجزاً عن إبلاغ صوتِه أصحابَه مباشرة، فإنّه تجلّد بالصبر، وتجاوز ضعفه الراهن، واتخذ من ابنه صوتاً يبلّغ به أصحابَه صوتَه: جاءته الأنصار قالت: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد قُبضَ. فقال سَعد لابنه قيس رضي الله عنهما: إنّي لا أستطيعُ أنْ أُسمعَ الناسَ كلاماً لمرضِي، ولكنْ تَلقَّ منّي قولي فأسمعهم، فكان سعد يتكلّم، ويحفظُ ابنُهُ رضي الله عنهما قوله، فيرفع صوتَه لكيْ يُسمعَ قومَه[104].» وتَفهمُ من القصّة مَرامِيَها الكُثْر، وإنْ تَقابلتْ، وإنْ تَضاربتْ. تَفهمُ أنّ صوتاً مسكوتاً عنه أراد أنْ يطعن في سَعد ويُظهرَ العجزَ فيه حتى يُقالَ مريضٌ لا يصلح للخلافة، فمنْ لا صوتَ له لا يستطيع أنْ يُسمعَ الناسَ صوتَه. وتَفهمُ أنّ صوتاً مسكوتاً عنه آخر، استعمل الحيلة والتورية، فجعل سَعداً يدّعي المرضَ وهو بذلك يُمثّل دوراً، دورَ الذي لا يُكلّمُ الناسَ إلاّ عن طريق رسول أو من وراء حجاب، فلا يختلط بالعامّة ولا يختلط بالناس. فترفع القصّة بذلك من شأن سَعد الذي رأيناه تَميّز عن الناس وسَما حتى بلغ الكمال. وتَفهم أنّ صوتاً مسكوتاً عنه ثالثاً، يستعملُ الزينةَ والبَهرجَ فيُكثر من العناصر حتّى يَنقلبَ الخبرُ البسيطُ قصّةً تُروى لا غاية لها غير شَحْذ الخيال بعناصر الزينة وفنّيات الرواية.

تَشهّد سَعد بنُ عُبادة. حَمد الله وأثنى عليه. تَفحّصَ الوجوه وجهاً وجهاً في صَمتٍ مُخيّم بَهيم. تشهّد من جديد، حمد الله وأثنى عليه. قال: «يا مَعشرَ الأنصار، إنّ لكمْ سابقةً في الدين وفضيلةً في الإسلام ليست لقبيلة من العرب:

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمان، وخلع الأوثان، فما آمن به من قومه إلاّ قليل. والله ما كانوا يقدرون أنْ يمنعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا يعرفوا دينه، ولا يدفعوا عن أنفسهم، حتّى أراد الله لكم الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز لدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدّ الناس على من تخلّف عنه منكم، وأثقلهم على عدوّكم من غيركم، حتّى استقاموا لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيدُ المقادةَ صاغراً داحراً حتّى أثخن الله تعالى لنبيّه بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفّاه الله تعالى وهو راض عنكم قريرُ العَين، فشدّوا أيديكم بهذا الأمر، فإنّكم أحقُّ الناس وأولاهم به[105].»

كانت مقالتُه غايةً في الإيجاز، غايةً في البلاغة. قال فيها باختصار شديد ما حبّر المحبّرون الذين لا يعرفون البلاغة، لا يعرفون الإيجاز، من نصوص وخُطب خلال دهرٍ من الزمن. فَهِمَ الناس مقالتَه. فَهِمُوا فضلهم على الإسلام. لو لم يكونوا لما كان الإسلام. لو لم ينصروا الإسلام في المهد صبيّاً لمات الإسلام في المهد صبيّاً وانتفى ذكره. فَهِمُوا فضلهم على النبيّ، آووه ساعةَ تنكّر له أهله وأخرجوه من ديارهم التي هي دياره، وساعةَ أدارت له العربُ من غيرهم ظهورها. نصروه على أعدائه فجاءه أعداؤه صاغرين، طوعاً وكُرهاً، وقد أشهروا في وجوههم أسيافهم. دانت له العرب. وقد ردّ لهم جميلهم بالجميل وحباهم بودّه، ومات راضياً عنهم قريرَ العيْن. فَهِمُوا فضلهم على المهاجرين، أولئك القلّة من أهل الرسول الذين آمنوا به ولكنّهم لم يستطيعوا حمايته وصوْنَ دينه. فآووا المهاجرين مع الرسول وضمنوا لهم أسباب العيش الكريم وحسن المقام. فَهِمُوا فضلهم على العرب، أخرجوهم من الظلمات إلى النور، من جاهليتم الجهلاء إلى الإسلام المنير.

فَهِمُوا أنّهم أصحابُ الأمر مِنْ بعد الرسول، وأنّ سيّدهم سَعد بنَ عُبادة خليفةُ المسلمين. قاموا صوتاً واحداً يُردّدون ويقولون لسعد بن عبادة: «أنْ قد وُفّقتَ في الرأي، وأصبتَ في القول، ولن نعدو ما رأيتَ، نوليك هذا الأمر، فإنك فينا مُقنع ولصالح المؤمنين رضى[106].» اكتسب بشرعيتهم شرعيةً. شَعُرَ، على الوهن الذي ادّعاه أو ادّعته له القصّة، بالقوّة والفخر. لا شيءَ يُفسد

عليه أمره الآن حتى وإنْ خاف صحبُه في ذلك الاجتماع ردّة فعل المهاجرين وحسبوا لهذه الحالة حسابها، واقترحوا لها الحلّ البديل: «ترادّوا الكلام بينهم فقالوا فإنْ أبتْ مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلامَ تنازعون هذا الأمر بعده، فقالت طائفة منهم فإنّا نقول منّا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا الأمر، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أوّل الوهن[107]» ورفض الاقتراح. كان يشعر بالقوّة والعزّة والفخر. كان يشعر بالزهوّ. عَلتْ وجهَه تَبسُّمةُ الفوز. ولكنّ شيئاً كان يُفسد عليه شعوره بالفخر والعزّة والنصر. شكّ في التفاف جميع الأنصار حوله. شكّ في الأوس. كانوا لا يقبلون بسلطان الخزرج. كانوا يُنافقون. ولكنّه رأى الناسَ حوله فاستمدّ منهم قوّةً وزيّن لنفسه ما هو مُقبلٌ عليه من أيّام. اطمأنّ. استقام. أسند ظهره إلى الجدار. وانتظر. انتظر البيعة في السقيفة من غير الأهل تماماً كما كان عليّ ينتظرها في بيت فاطمة.

7

حتى لا نَفوتكم ببعض أطراف الحديث الذي روته الأخبار في الكتب، نعود بكم إلى أبي بكر فتكونوا على بيّنة من الأمر. قلنا في ما تقدّم من قصّة إنّ عُمر، بعد الذي كان بينه وبين أبي بكر، قد طأطأ الرأسَ ومدّ يده إلى ذراع أبي بكر يشدّ على الذراع التي أعياها الزمن وأنهكها التعب، فشدّ أبو بكر على يده، وغادرا المكان، ومَضيَا يَتقاوَدان، يُريدان الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ويُهرولان أحياناً مُسرعيْن سُرعةَ الشيخ إذا هَرولَ، وقد تبعهم جمعٌ من المهاجرين، يُهرولون بهرولتهم.

كلّ شيء بدا في القصّة، كما ترى، قد تمّ في ظلّ الصُّدفة. جمع الاختلاف صُدفةً، بين أبي بكر وعُمر، هذا ينفي أنْ يكون النبيُّ قد مات وذاك يُقرّ. وجمع بينهما خبر السقيفة صُدفةً فأسرعا يتقاودان إلى السقيفة صُدفةً. وفي الطريق إلى السقيفة تواصل القصّة سرد أخبارها في ظلّ الصُّدفة، فإذا أبو بكر وعُمر يلتقيان وهما في الطريق إلى الأنصار أبا عُبيدة بن الجرّاح صُدفةً، فانضمّ إليهما ولم يسأل عن الوجهة ولا عن الإسراع والهرولة. وتماشى ثلاثتهم إلى السقيفة[108].

كلّ شيء تمّ صُدفة! رُبّ صُدفة خير من ألف موعد! أفكان الأمر كذلك؟ تلك زينة القصّة. كلّ شيء كان فيها بحساب حتّى تُبعد عن الثالوث التهمة، تهمة التنظيم سرّاً والسير إلى اغتصاب السلطة. كلّ شيء كان بحساب وإنْ تستّرت عن ذلك القصّة أو كادت تتستّر. جمعت الثالوث، ثلاثة نفر في المدينة. بلغ العددُ حدَّه في الرمز[109]. انغلقت الحلقةُ على ذاتها. انتهت إلى غايتها. كلّ شيء صار يُنبئُ بأنّ أمراً سَيحدث.

سار ثلاثتهم يَتبعهم الصَّحب مِنَ المهاجرين إلاّ مَنْ كان مِنْ بني هاشم فاجتمع إلى عليّ في ذلك الحين، أو كان مِنْ بني أُميّة فاجتمع إلى عُثمان،

أو كان مِنْ بني زُهرة فاجتمع إلى سعد وعبد الرحمان بن عوف[110]. اختفوا عن أنظار المحتشدين الذين ظلّوا عند باب بيت الرسول. اختفوا عن الأنظار يتبعهم المهاجرون من المتطفّلين الذين كانوا يجهلون إلى حيثُ يسيرون، يجرّهم حبّ الاطّلاع إلى حيث كان يسير الثالوث من المرموقين.

كان هؤلاء النفر من الصحابة الأجلاّء يسيرون إلى الأنصار، يريدون التثبّت من الأمر، إنْ كان الأنصار قد انشقّوا حقّاً، فإنْ كانوا قد انشقّوا أعادوهم إلى الصفّ وإنْ بحدّ السيف. كانوا يخافون، ولا شكّ، أنْ يدّعيَ كلّ عرش من المهاجرين الأولوية والشرعيّة ويُنادي الخلافة ولم يَدُرْ بخلد أيّ كان منهم أنّ الأنصار سيُنازعون المهاجرين الخلافة. ومَنْ هُمُ الأنصار حتّى يُنازعوا قريشاً الخلافة؟

كان عُمر يُهرول أمام أبي بكر. وكان أبو بكر وراءَه يحثّ الخطو، تَخونُه السنونُ فلا يُهرول مثل عُمر. وكان أبو عُبيدة بن الجرّاح وراء أبي بكر لا يتجاوزه، يستحي من أنْ يتجاوزه. وكان الصحبُ من المهاجرين وراء أبي عبيدة، يستحون من تجاوز الثالوث الأعظم، يُظهرون حَثَّ الخَطو، ولا خَطوَ يَحُثّون. ويستحي عُمر. يتوقّف كأنّه يُريدُ أنْ يُخاطبَ أبا بكر. يُخفّف من طول الخطو حتّى يسبقَه أبو بكر، فتستقيم الأمور. هذا أبو بكر يفتحُ الركبَ. وهذا عُمر وراءَه. وهذا أبو عُبيدة من بعده. وهؤلاء الصحبُ من المهاجرين، ولعلّهم كانوا من شيعة الشيخ الجليل، يختمون الركب.

ما إن اختفوا عن الأنظار، حتى لقيهم عُوَيْم بنُ ساعدة ومَعْن بنُ عَدِيّ. سلّما على عجل على أبي بكر وعلى عُمر. ردّ أبو بكر السلامَ على عَجل وكذلك ردّ عُمر السلامَ على عَجل. وأبو عُبيدة صامت لا ينبس بكلام ولا يُتَوَجَّهُ له بكلام. كان عُوَيْمٌ ومَعْنٌ يرتعدان خوفاً أو يرتعشان من أمر مجهول جَلَل. كانا، على ما يبدو، فارّيْن بخبر ينقلانه قبل فوات الأوان. وجدا ضالّتهما في أبي بكر وفي عُمر، ولعلّهما كانا مُتّجهيْن إليهما خصّيصاً. صاحا صيحةً واحدة: إلى أيْنَ يا أبا بكر؟ ثمّ قصّ عُويْمٌ خبر اجتماع الأنصار في السقيفة واختيار سعد بن عُبادة خليفة. تأكّد أبو بكر من صحّة الخبر الذي أخبر به

المُخبرُ عُمر. وتأكّد من صحّته عُمر وأبو عُبيدة. وعلم الناس بالأمر. وختم عُوَيْمٌ كلامه قائلاً: «يا أبا بكر بابُ فتنةٍ إنْ لم يُغلقْه اللهُ بكَ فلنْ يُغلقَ أبداً[111].»

كان أبو بكر ثقيلَ السمع كَكُلِّ شَيخ مُسنّ ولكنّه انتبه في الحين إلى ما في كلام عُوَيْم من بلاغ يرفعُ من شأنه وينصّبه سيّدَ الموقف ساعةَ الخطر. انبسطت أساريرُ وجهه المُجعّد تجاعيدَ تجاعيدَ. انطلق محيّاه جديداً. شعُر بالزهوّ والفخر. رأى نفسه دافعاً عن الإسلام الخطرَ المُحدقَ به. ازداد وقاراً. أعجبه الكلام. انطلق في شكر عُويم وصاحبه قال: إنّ عُوَيْم بنَ ساعدة كان ذا شأن عند الرسول، وهو من الناس الذين يُحبّون أنْ يتطهّروا ونزل فيهم القرآن[112]، وهو وصاحبه مَعْن بن عَديّ من النفر الثمانية الأول الذين خرجوا من يثرب ولاقوا الرسول بمكّة وآمنوا به وأسلموا وأنّهما حضرا العقبتيْن وبهما ازدان الإسلام[113].

شَعُرَ عُويم بالانتصار. كان دوماً محلّ اهتمام من الرسول. كان محلّ اهتمام المهاجرين، يُخلص لهم الودَّ ولم يكن قطّ خالص الودّ مع أهله الأنصار. كان من الأوس[114]. كان يكره الخزرج مثل كلّ الأوس. وكان مَعْن بنُ عَديّ مثلَه، أوسيّاً يكره الخزرج. شَعُرا في حضرة أبي بكر وعُمر أنّهما محلّ اهتمام كبير. شَعُرا بأنّ مصيرَهما مع المهاجرين لا مع الأنصار. خانا قضيّة الأنصار.

ما أنْ اتفقت الأنصارُ على مبايعة سَعد بن عُبادة حتّى اغتنما فرصة التفاف الناس حوله وتسلّلا خارج السقيفة من ظُلّةَ بني ساعدة وهرولا إلى أبي بكر وعُمر. تنكّرا للأهل. تنكّرا للأصل. تنكّرا ليثرب. لاذا بقريش. كانت تربطهما بقريش علاقة قديمة. آمنا بالرسول القُرشيّ قبل كلّ يثربيّ، وحضرا العقبتيْن الأولى والثانية كما تمّ ذكرُ ذلك منذ حين، ولمّا آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، آخى بين عُمر بن الخطّاب وبين عُويم بن ساعدة[115]، وآخى بين زيد بن الخطّاب وبين مَعْن بن عَديّ[116]. وقد رأى عُويمٌ في ذلك عزّةً وفخراً. ألم يكن عُمر خير صحابة الرسول؟ ألم ينزل القرآن على لسان عُمر؟ فاعتبر ذلك حُظوةً ومنزلةً له من لدُن صاحب الرسالة. وكذلك كان يشعر مَعْن بنُ عَديّ. كان يرى في مؤاخاته بشقيق عُمر حُظوةً ومنزلةً له من لدُن صاحب الرسالة.

لكلّ تلكم الأسباب كان عُوَيْم بنُ ساعدة ومَعْن بنُ عَدِيّ، وفقَ ما روت الأخبار، يشعران بالانتماء إلى المهاجرين لا إلى الأنصار. وقد كانا في هذه القصّة لَعَلَى قدر كبير من الحنكة وحذق السياسة إذ اختارا من بين المهاجرين صفّ أبي بكر وعُمر، الصفّ المنتصر.

كان في كلام أبي بكر اعترافٌ ضمنيّ للرجلين بالمكانة والحظوة. وقد سرّهما ذلك أيّمَ سرور وانطلقا يرويان قصّة الخيانة في سقيفة بني ساعدة. كان عُوَيْمٌ يروي ومَعنٌ من ورائه يومئ بالرأس مُوافقاً مُؤكّداً، ثمّ يعيد كلام عُويم ويُكرّر. تمطّط الخبر. وعُمر صابر عليهما في حضرة أبي بكر لا يستطيع أنْ يفعل غير ذلك. وأبو عُبيدة بن الجرّاح صامتٌ صمتاً مُذهلاً.

أعادا قصّة السقيفة في حضرة أبي بكر، في حضرة عُمر، في حضرة أبي عُبيدة الذي كان كأنّه يعرف الخبر. أعاداها بتصرّف وتشويق وفنّ. تحدّثا عن الاجتماع الذي تمّ سرّاً بين الأنصار وقد أرادوا به أنْ يسبقوا الأحداث ويُنصّبوا الخليفة منهم. قالا: إنّ الأنصار كانت تظنّ أنّ أبا بكر وعُمر كانا في سريّة أسامة بن زيد خارج المدينة في طريقهما إلى الشام. وكانت تظنّ أنّ عليّاً منهمك وآل البيت في تجهيز الرسول للدفن واستقبال الوافدين على البيت. وكانت تظنّ أنّ الجوّ مُناسب للقفز على السلطة في غياب مَنْ هم أهلٌ لها. وذكرا ما كانا من أمر سَعد بنِ عُبادة وتحريضِه الأنصارَ على الالتفاف حوله لشعوره بأنّ الأنصار أولى من غيرهم بالخلافة لِما لهم من فضل على الرسول والمهاجرين والإسلام. وذكرا كلاماً كثيراً استنقصت فيه الأنصار من شأن المهاجرين وافتخرت فيه بالأنصار لِما لها من سابقة في الدين بنُصرة النبي حيث فشل المهاجرون. وأعادا مقولة سَعد بن عُبادة مرّات تحريضاً لأبي بكر وعُمر للقفز على سَعد بن عُبادة الخزرجي. أعاداها كما قد تكون تمّت، وأعاداها بالزيادة والتصرّف، حتى ملّها أبو بكر وملّها عُمر وأبو عبيدة صامتٌ صمتاً مُذهلاً.

دوّت مقولةُ سعد بن عبادة في المكان تملأ الفضاء: «يا مَعشرَ الأنصار، إنّ لكم سابقةً في الدين وفضيلةً في الإسلام ليست لقبيلة من العرب: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمان، وخلع الأوثان، فما آمن به من قومه إلاّ قليل. والله ما كانوا يقدرون

أنْ يمنعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا يعرفوا دينه، ولا يدفعوا عن أنفسهم، حتّى أراد الله لكم الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز لدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدّ الناس على من تخلّف عنه منكم، وأثقلهم على عدوّكم من غيركم، حتّى استقاموا لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيدُ المقادةَ صاغراً داحراً حتّى أثخن الله تعالى لنبيّه بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفّاه الله تعالى وهو راض عنكم قريرُ العَين، فشدّوا أيديكم بهذا الأمر، فإنّكم أحقُّ الناس وأولاهم به[117].»

فَعلتْ المقولةُ فِعلَها في أبي بكر وعُمر وحتى في أبي عُبيدة الذي كان لا يُظهر شيئًا. وفَعلتْ فِعلَها في أولئك المهاجرين الذين كانوا يتبعون الثالوث على جهلهم بما كان يَحدث. ولكنّهم شعروا بالإهانة لمّا سمعوا ما قالته فيهم الأنصار حسب رواية عُويم ومَعن. ورأى أبو بكر في مرآة ذاته انعكاسَ صورته، شيخاً هرماً يصبو إلى السلطة، ظنّه سعد بنَ عُبادة، فهرول يُريد سعد ابنَ عُبادة. استلّ عُمر السيفَ وصاح: سأضرب أعناقهم على بكرة أبيهم، وهرول وراء أبي بكر يُحاول أنْ لا يتجاوزه.

قصدوا سقيفة بني ساعدة.

8

كانت سقيفة بني ساعدة صرحاً شامخاً يقوم أمام الخارج من المسجد إذا توجّه إلى الشمال ولفّ قليلاً نحو الغرب. كانت بين مساكن قبيلة بني ساعدة الخزرجية، داخل مزرعة تتخللها بيوت متفرقة، تزيّنها البساتين المتجاورة، وبقُربها بئرٌ لبني ساعدة. كانت بناءً مَسقوفاً، به صُفّةٌ تُستعملُ ظُلّةً يجلسون تحتها[118]. وكانوا إذا كَثُرَ عددُهم وضاقت عنهم السقيفة اتّخذوا الرَّحَبة الواسعة أمامها مَجلساً أيضاً، وكانت تتسع لجُمهور غفير.

كانت السقيفة في يثرب مثل دار الندوة في مكّة. كانت محلّ اجتماع الملإ من الأوس والخزرج مثلما كانت دار الندوة محلّ اجتماع الملإ من عشائر قريش. ومثلما كانت دار الندوة «ينتدون فيها فيتحدّثون ويتشاورون في حروبهم وأمورهم، ويعقدون الألوية، ويزوّجون من أراد التزويج[119]» كانت السقيفة يتّخذون فيها القرارات الحاسمة، كالخروج إلى الحرب أو القعود عنها، وإبرام العُقودِ لإقام العهود أو الصلح، واختيار الشيخ الذي يقوم من بين الشيوخ بالأمر، والاحتفالات في المناسبات الكبرى كالأعراس والعُذْر ومَنحِ الراية واللواء.

كانت السقيفة في يثرب مثل دار الندوة في مكّة، تحظى بمكانة مرموقة وتلفّها هالةٌ من القداسة. وكانت القرارات في هذه الدار أو تلك السقيفة «ديناً يعملون به ولا يُخالفونه[120].»

كان ذلك لمّا كانت الجاهلية. في تلكم الأيام، كانت السقيفة مثلما كانت دار الندوة مَحلَّ كلّ اهتمام. في تلكم الأيام، كانت السقيفة تماماً كما كانت دار الندوة، فضاء للسلطة والقرار. ولمّا جاء الإسلام فقدت السقيفة دورَها في السلطة والقرار مثلما فقدت دار الندوة دورَها في السلطة والقرار. قام مسجد النبي، وإنْ كان في البدء مجرّد زريبة للصلاة، فضاءً للسلطة والقرار تلفُّه هالةٌ

من المجد والقداسة، وقضى على كلّ فضاء غيره اتُّخذَ للسلطة والقرار ولفّته هالةٌ من المجد والقداسة.

فقدت السقيفة، لمّا قبلت الأوسُ والخزرج بالإسلام، الدورَ الذي كان لها في مجال فرض السلطان وإقام العدل بين الناس والتحكّم في مصائر البشر. فقدت الدورَ الذي كان لها يوم كانت الأوس والخزرج تملأ الديار، وكانت شيوخها تحكم وحدَها وإنْ في ظلّ الصراع والانقسام والتنافس وحتى الشقاق والعداء بين الأحياء، كما كان ذلك يتمّ بين كلّ العشائر في قبائل العرب.

أصبحت السقيفة في الإسلام مجرّدَ ظُلّة لبني ساعدة يَحْتَمُونَ بها زمن الحرّ للقيلولة والراحة. أصبحت مجرّدَ فضاءٍ لاستقبال أهل الحيّ والأقارب وجموع المهنّئين زمن الأفراح، أو المعزّين زمنَ الأتراح. وكذلك أصبحت دار الندوة الشهيرة بعد أنْ جاء نصرُ الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

فَقدت السقيفة دَورَها لمّا دخل الإسلام يَثرب وسمّاها النبيّ المدينة. ظنّ بنو ساعدة، وظنّ الناس أجمعين، أنّ السقيفةَ اندثرت وخبا ذكرُها إلى الأبد مثلما خبا اسمُ يثرب.

ولكنّ السقيفة لم تندثر.

انتظرت في صمت. انتظرت دهراً من الزمن. عَشرَة أعوام على وجه التحديد. خضعت للأمر العليّ. خضعت لحكم الرسول. قبلت بأنْ يقوم المسجد، مسجد الرسول، فضاءً للحكم والسلطان والأمر والنهي واتخاذ القرار. قبلت بذلك في صمت. وظنّ الناسُ أنّ الأوس والخزرج ويثرب أسماء جاهلية اندثرت لمّا جاء الإسلام ينشرُ حُكمَه. ظنّ الناس أنّ السقيفة عادت مجرّد ظُلّة ليس غيرُ.

ثمّ كانت الفاجعة. مات النبيّ.

لمّا صعّد في السماء، صوتُ عائشة الشجيّ: مات محمد، مات، رجّع الكونُ الصدى، بلغ سَعْد بنَ عُبادةَ النداء. استوى في سقيفة بني ساعدة وقد زمّل رأسَه مريضاً أو ادّعى الوجعَ. التفّ حوله حيُّ الأنصار وكتيبةُ الإسلام.

انحاز إليه كلّ الأنصار إلاّ مَنْ كان غائباً لسبب لم تذكره الأخبار. تَشهّد خطيبُهم. أثنى على الله بما هو له أهل، ثمّ قال: يا معشرَ الأنصار، مات رسولُ الله، مَنْ فينا يقوم مقامَ رسول الله؟ مات رسولُ الله ترك فينا خيرَ عباد الله، ترك فينا مَنْ نصر رسولَ الله، ترك فينا سَعد بنَ عُبادةَ المقدام.

في لحظة توقّف الزمن. كأنّ الأعوام العشرة من الإسلام في المدينة لم تكن. كأنّ المدينةَ لم تكن. عادت يثرب من حيثُ لا نعلم. عادت السقيفة كما كانت السقيفة فضاءً للسلطان والحكم واتّخاذ القرار ورسم المصير.

لا شيءَ تغيّر.

كأنّ المسجدَ لم يكن. كأنّ محمّداً لم يكن. كأنّ الإسلامَ لم يكن. ماذا جرى، يا تُرى؟

لا شيءَ هنا غيرُ النُّعرة الجاهلية. لا شيءَ هنا غيرُ العصبيّة. لا شيءَ هنا غيرُ صِلَةِ الرَّحِم التي كانت مذْ كان الزمنُ أمراً طبيعيّاً في البشر. كانوا عصبيةً وأهلَ نَسَبٍ واحدَ. كانوا يعلمون أنّ باجتماعهم تَشتدُّ شوكتُهم ويُخشى جانبُهم. كانوا يعلمون أنّ نُعرةَ كلّ أحد على نسَبِه وعَصَبِيَّتِهِ أهمُّ ما جعل الله في قلوب عباده[121]. فالتفّوا حول سَعد بنِ عُبادة.

وقد ذكرت الأخبار أنّ الأنصارَ يومَها، أَوْساً وخَزْرَجاً، قاموا حول سعد ابنِ عُبادةَ طُوَّفاً. كانوا «يدورون حوله ويقولون: أنت المرجّى، ونجلك المرجّى[122].» كانوا قد «جعلوا يُبايعون سعداً وهم يرتجزون ارتجاز الجاهلية: يا سعدُ أنتَ المرجّى، وشعركَ المرجّل، وفحلك المرجّم[123].»

عادت الجاهليةُ الجهلاء. عاد المدحُ، عاد الغناء. وكأنّ الإسلامَ لم يكن يوماً فيهم ولا كان فيهم محمدٌ رسولاً للقضاء على الجاهلية الجهلاء.

فعل الدعاءُ فِعلَه في سعد بنِ عبادة. رأى الناسَ حوله طُوَّفاً. استمدّ منهم قوّةً. زيّنت له نفسُه أيّامَه القادمة. اطمأنّ. استقام. أسند ظهره إلى الجدار. وانتظر. انتظر البيعة في السقيفة تماماً كما كان عليّ ينتظرها في بيت فاطمة.

9

ما الذي كان يُحرّكُ أبا بكر وعُمر وأبا عُبيدة بنَ الجرّاح، وهم يتّجهون إلى السقيفة، يا تُرى؟ أهي النُّعرة والعصبية، والجاهلية مازالت تنخرُ فيهم نخراً؟ أهو التوقُ إلى الذود عن الإسلام، والإسلامُ ما زال حديثَ عَهدٍ فيهم، فأرادوه أنْ يتواصل ويَدحض إلى الأبد الجاهليةَ الجهلاء، وقد عادت إلى الظهور ساعةَ مات الرسول؟ اختلطت، واللهِ، على القارئ الأمور!

أنظرهم يهرولون إلى السقيفة حيثُ اجتمع «إخوانُهم الأنصار.» أنظرهم يهرولون لا يوقفهم سنٌّ، لا توقفهم شيخوخةٌ، لا يوقفهم وقار. أنظرهم يهرولون لا غايةَ لهم غيرُ الانقضاض على «إخوانهم الأنصار.» أُسْدٌ تأهّبت للبطش بالأُسدِ. أُسْدٌ عكس الماءُ صُورَها فتشكّلت أُسْداً. أُسْدٌ تنقضّ على الأُسد.

ما الذي كان يجمع بين أبي بكر وعُمرَ وأبي عُبيدة بن الجرّاح؟ ما الذي كان وراء اجتماعهم على الأمر الذي كانوا يسيرون إلى النهوض به؟ اسمعْ تَرَ:

كانوا ثلاثةَ نفر من قريش. هذا أبو بكر من بني تَيم بن مُرّة بن كعب[124]. وهذا عُمر من بني عديّ بن كعب بن لُؤي[125]. وهذا أبو عُبيدة من بني فِهْر بن مالك بن النضر بن كنانة[126]. ثلاثة نفر من قريش الدنيا، لا ينتمون فيها إلى الأشراف والعِلية[127]. فبنو تَيم كانت «من أذلّ قبيلة في قريش[128]،» وبنو عديّ كانت منازلهم خارج مكّة، في أصل الجبل العاقر، بعيداً عن البطحاء[129]، وبنو فِهْر كانت «آخر بطون قريش[130]» «وهم قريش الظواهر، لأنّهم نزلوا حول مكّة وليست لهم[131].»

كانت بنو تيْم وبنو عديّ وبنو فِهْر إذنْ، ثلاث بطون من قريش يجمع بينها الانتماء إلى غير الأشراف والعِلية في قريش. كانت بطوناً متواضعة الأصل[132]،

فجاء أبو بكر وعُمر وأبو عُبيدة من عامّة الناس ليس غيرُ. فكانوا لذلك من الأوائل الذين أسلموا. لو كانوا أشرافاً، لو كانوا من عِليةِ القوم، لَما سارعوا إلى الإسلام. لو كانوا أشرافاً، لو كانوا من عِليةِ القوم، لحاربوا محمّداً من أجل الحفاظ على مصالح الأشراف، ومصالح عِلية القوم. لو كانوا أشرافاً، لو كانوا من عِليةِ القوم، لانتظروا، مثل الأشراف وعِلية القوم غَلَبَةَ مُحمّدٍ وقَهرَه ليلتحقوا بالصفّ وقد رأوا ألاّ مفرّ من ذلك. لو كانوا أشرافاً، لو كانوا من عِليةِ القوم، لدخلوا الإسلامَ مع الأشراف وعِلية القوم ساعةَ جاءَ الفتحُ ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً اضطراراً، وكان ذلك يومَ فتح مكّة في سنة ثمانية من سِنيّ الهجرة.

لم يكن أبو بكر وعُمر وأبو عُبيدةَ إذنْ من الملإ. كانوا من عامّة الخلق ليس غيرُ.

كان أبو بكر، والعُهدةُ في ذلك على الأخبار، تاجراً. كان من صغار التجّار لا من كبارهم. كان يملك أربعين ألف درهم يومَ بُعثَ النبيّ، صرفها في عتق العبيد الذين دخلوا الإسلام وأنفقها على المسلمين، ولم يكن معه يوم دخل يثرب مع النبي غير خمسة آلاف درهم[133]. ولم تكن الخمسةُ آلاف درهم، ولا الأربعون ألفاً، تُعدُّ يومها من المال الوافر الغزير. كان المال، زيادةً على الاتجار، إبلاً لا حَصرَ لها[134]، ودنانيرَ بلا عدّ، وبضاعةً أشكالاً وأنواعاً مختلفة. وهذا لم يكن مع أبي بكر أبداً. كان ذلك مع أبي سفيانَ الذي كان تاجراً ذا مال. وشتّان ما بين أبي بكر وأبي سفيان في هذا المجال.

وكان أبو بكر، والعُهدةُ في ذلك على الأخبار أيضاً، كالغريب في أهله، فلا اهتمّت لأمر إسلامه عشيرتُه، ولا ردّتهُ عنه، ولا ذادت عنه يوم تعرّض للعدوان بسبب إسلامه[135].

وكان عُمر يرعى إبل أبيه الخطّاب في شعاب ضَجْنان، يحتطب عليها مرّة ويختبط عليها أخرى[136]. وكان، والعُهدةُ في ذلك على الأخبار أيْضاً، لا ينهض بغير ذلك من المهن. وقد وَسمتْه خشونة الطبيعة في الشعاب وكذلك خشونة الإبل بخشونة لم تُفارقه قطّ، فكان فظّاً غليظاً، تماماً كما كان الخطّابُ أبوه، فظّاً غليظاً، لمّا كان يرعى له الإبل[137].

وكان أبو عُبيدة حفّارَ قبور في مكة، ولمّا انتقل إلى يثرب لم يُفارق المهنة قطّ، بل ظلّ يحفر قبور المهاجرين وفق شعائر مكّة[138]. ولم تذكر الأخبارُ ذاتُ العُهدة أنّ أبا عُبيدة كان ينهض بمهنة غير مهنة حفر القبور، إذا ما زمرنا حفر القبور في سُلّم المهن التي كان ينهض بها البشر.

كذلك ترى أنّ أبا بكر وعُمرَ وأبا عُبيدة كانوا في الجاهلية ثلاثةَ نفرٍ من عامّة الناس لا من الأشراف وعِلية القوم والملإ الذين كانوا يقومون على أمر القبيلة. ثمّ جمع الإسلامُ بين النفر الثلاثة مبكّراً. رأوْا في الإسلام الخيْرَ والبركةَ والمستقبلَ الزاهر. لم يُخيّب الإسلامُ ظنّهم ولا خيّب مطامحهم. كان الخيرَ والبركةَ والمستقبلَ الزاهر. كذلك كان الإسلام! تغيّرت به الأحوال. رفع ناساً وأسقط ناساً، فارتقت عائلاتٌ إلى سدّة أعلى الدرجات وكانت من قبلُ في أسفل الدرجات، وانحدرت عائلات إلى أسفل سافلين وكانت من قبلُ عليّة[139].

تغيّرت حالُهم في الإسلام. مكّنهم الإسلامُ من شرف الانتساب إلى عِلية القوم وجعلهم من الملإ قوّامين على الأمّة الناشئة، فذادوا عن الأمّة الناشئة بما كان معهم من مال وإنْ قليلاً، ومن حيلة وذكاء ودهاء، ومن شجاعة في الضرب وغِلظة وفظاظة يفزع منها كلٌّ من نَصَبَ العداءَ للإسلام. قَوِيَ بهم الإسلام.

كلٌّ شيء كان بحساب. راهنوا على محمّد، ربحوا الرهان.

لم يكن محمّد من عامّة الناس. كان ابنَ عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ[140]. «وكان الشرف والرياسة من قريش في الجاهلية في بني قُصيّ لا يُنازَعونه ولا يَفخرُ عليهم فاخرٌ، فلم يزالوا يُنقادُ لهم ويرأسون. وكانت لقريش ستّ مآثر كلّها لبني قُصيّ دون سائر قريش، وهي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والرياسة [...] ثمّ تفرّقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف[141]» حتى نازعهم فيها بنو عبد الدار بن قُصيّ فاصطلحوا على أنّ لبني عبد مناف السقاية والرفادة ولبني عبد الدار بن قُصيّ اللواء والحجابة.

وكان عبد المطّلب[142]، جَدّه الذي ربّاه، يقوم على أمر السقاية والرفادة. والسقاية والرفادة لا يقوم عليهما إلاّ سادة الأشراف. وكان له على الحرم وقريش الفضل الكبير: جدّد حفر زمزم المطمومة فارتوت مكّة وسقت حُجّاجها والزوّار. وهو أوّلُ مَنْ طلى أبواب الكعبة بالذهب، فازدانت الكعبة في الجاهلية، وازدانت في الإسلام.

وكان هاشم[143] من الأشراف، قام على أمر السقاية والرفادة، والسقاية والرفادة لا يقوم عليهما إلاّ سادة الأشراف. وكان كريماً مع القوم حتى في السنوات العجاف. وكان قد استنّ ما لم تعرفه العرب من قبلُ، استنّ لهم الرحلتيْن، رحلتيْ الشتاء والصيف.

وكان عبد مناف[144] من الأشراف، ذهب به الشرف كلّ مذهب، فساد عشيرته أمردَ ورأس في زمن والده، وقام دهراً على أمر السقاية والرفادة، والسقاية والرفادة لا يقوم عليهما إلاّ سادة الأشراف.

كان قُصيّ، جدّهم الأوّل الذي ينتمون إليه، أوّل مَنْ جمع القبائل في مكّة وأخضعها لحكمه فسمّته العربُ المجمّعَ «لِما جمّع من أمرها وتيمّنت بأمره، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلاّ في دار قُصيّ، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلاّ في داره، ولا يعقدون لواءً لِحربِ قوم من غيرهم إلاّ في داره يعقدها لهم بعض وِلْدِهِ، وما تُدرَّعُ جاريةٌ إذا بلغت أنْ تُدرَّعَ من قريش إلاّ في داره، يُشقّ عليها فيها درعها ثمّ تدرعه ثمّ يُنطلقُ بها إلى أهلها، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتّبع لا يُعمَل بغيره تيمّناً بأمره ومعرفةً بفضله وشرفه. واتخذ قُصيّ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورَها[145].»

ومثلما كان قُصيّ ديناً مُتّبعاً لا يُعمَل بغيره، كان مُحمّد ديناً مُتّبعاً لا يُعمَل بغيره. حاز كلّ منهما في عصره الجاه والسلطان وحَظيَ بالتقدير والتبجيل وفرض في مكّة نظاماً جديداً تشكّل فيها ديناً لم تَعرفه من قبلُ.

كان محمّد، رغم ما أتى من بدعةٍ في أهله، مَحلَّ رعاية في أهله، يحمونهَ ويذودون عنه بأنفسهم، فهابه كلّ مَنْ حدّثته نفسه أنْ يعرضَ له أو يبطش به، وفشل في النيل مِنهُ كلُّ مَنْ أرادَ النيلَ مِنهُ[146]. ولمّا أُخرجَ من مكّة استقبلته

يَثرب بوصفه شريفاً من أشراف مكّة وواصل الدعوة فيها يحميه أهلها، فكانوا له أهلاً[147].

10

كان محمّدٌ شريفاً من أشراف مكّة. وكانت صُحبتُه تُرجى لا في الإسلام وحده، بل في الجاهلية أيضاً. وقد سعى إليها أبو بكر ونالها[148]. «فكان صاحبَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل البعثة، وكان يعلم من صدقه وأمانته وحسن سجيّته وكرم أخلاقه ما يمنعه من الكذب على الخلق. فكيف يكذب على الله؟ ولذلك بمجرّد أنْ ذكر له إنّ الله أرسله بادر إلى تصديقه ولم يتلعثم ولا عكم [...] وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: إنّ الله بعثني إليكم فقلتم كذبتَ، وقال أبو بكر صَدَقَ، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟[149]» فتركوا له صاحبه ولم يُفارقه قطّ.

وقد جاء في الأخبار، إلاّ ما شذّ منها عند السنّة أو ما روّجتْ له الشيعة[150]، أنّ أبا بكر الصدّيق كان أوّلَ مَنْ أسلم من الرجال، وكان أوّلَ مَنْ صلّى مع النبي من الرجال[151]. وقد شكّلت هذه الأولويّةُ حُجّتَه التي أفحم بها الناس يومَ سعى إلى الخلافة وأكسبته شرعيّة للاضطلاع بها. ولم ينازعه في تلك الأولويّة أحدٌ[152].

كان أبو بكر الصّاحبَ في الجاهلية، وكان الصَّحَابيَّ في الإسلام. ويمكن أنْ نقول ولا حَرَجَ إنّ أبا بكر كان رمزَ الصُّحبة في الجاهلية والإسلام حتّى «قال بعض العلماء: لو قال قائلٌ: إنّ جميع الصحابة ما عدا أبا بكر ليست لهم صحبةٌ لم يكفر، ولو قال: إنّ أبا بكر لم يكن صاحبَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كفر، فإنّ القرآن العزيز نطق أنّه صاحبه[153]» وقال: كان ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا[154]﴾

لا شيءَ قام في الجاهلية أو في الإسلام يُفسدُ هذه الصُّحبة. لا شيءَ قام في الجاهلية أو في الإسلام يَطعنُ فيها أو يُشكّك. كانت راسخةً في الأذهان، كرّستها الأخبار على مرّ الزمان حتّى إنّ ما روّجته بعضُ الشيعة من أخبار لم

ينجح في النيل منها أو فرض غيرها على آل الإسلام[155]. كانت صُحبةً قديمة. كانت صُحبةً طبيعيّة. كانت فطرةً كالإسلام. كانت صُحبةً مقدّسةً قام القرآنُ، كما ذكرنا سابقاً، شاهداً عليها، وقام الله يصونها ويرعاها فأنزل سكينته على الصاحب حتى يطمئنّ قلبُه وأيّده بجنود لا نراها[156].

ومثلما شهد القرآنُ على تلك الصّحبة، شهدت عليها الكتبُ قبلَ القرآن واستشرفت لها الأيام وحدّث بها القائمون عليها الناس[157]. من ذلك أنّ شَيخ الأزْدِ، وهو عالم قرأ الكتب وعَلِمَ من علم الناس الكثير، قد بشّر أبا بكر بصحبة ستكون له مع النبيّ، والنبيّ لم يُبعث بعدُ. وأعلمه أنّ الكتب القديمة. كتب اليهود والنصارى، قد تحدّثت عن تلك الصحبة التي سيكون لها في مُقبلِ الأيّام شأن. ثمّ كشف عن أبي بكر ليتعرّف الشامة التي في بطنه وكانت علامَة على الصُّحبة. فالصّحبةُ كانت مُذْ كان الزمان. جاءت في الكتب، قصّةً عجباً، تروي على الملإ أمرَ النبوّة القادمة، أمرَ الخلافة التي تليها، أمرَ الصُّحبة التي ليس كمثلها صُحبة[158].

وقد جمعت القصص بين مُحمّد وأبي بكر منذ الطفولة، فحضرا جنباً إلى جنب في قصّة من قصص بحيرى الراهب، رمز النصرانية واليهودية على حدّ السواء. كان بحيرى قد قرأ الكتب وتفقّهَ في الدين، فبشّر قافلةَ قريش إلى الشام بنبيّها القادم ونبّهها إلى ما يترصّده من خطر. كان محمّد يومئذ طفلاً في تلك القافلة وكان فيها أبو بكر أيضاً، فسارع إلى بلال وأمره أنْ يعود بمحمّد إلى قريش خوف أنْ يعرضَ له اليهود أو الروم فتتحقّق كهانة بحيرى الراهب. كان أبو بكر ندّا لمحمّد أو أصغر منه سنّاً، وكان يومئذ طفلاً مثله، ولكنّ القصّة، كما هو الشأن في كلّ قصّة عجيبة وغريبة، لا تهتمُّ بالواقع ولا بالزمن الفعلي. كان همُّها أنْ تجمعَ بين محمد وأبي بكر، وأنْ تمنحَ أبا بكر شرعيّةً في ظلّ تلك الصُّحبة. كان همُّها أنْ ترى محمّداً وأبا بكر معاً، جنباً إلى جنب، هنالك في الخلاء، تحت ظُلّةٍ نصبتها لهما السماء من سحاب السماء، قرب دَيْر قام عليه بحيرى يستشرف أخبار النبوّة القادمة ويكشف ما ستشهده الأديانُ من تغيّر بفضل النبوّة القادمة. كان همُّها أنْ يفوزَ محمّدٌ بالحياة بعد أنْ أخبر بحيرى بالسرّ الكبير، فلا تقتله اليهودُ فتنتفي النبوّة والدين الجديد وتنتفي بذلك الخلافةُ القادمة التي كان هذا الصاحبُ مؤهّلاً لها[159].

ثمّ جمعت القصص بين محمّد وأبي بكر وبحيرى الراهب مرّة أخرى. كان ذلك عند الشباب وقد بلغ مُحمّد عشرين سنة وأبو بكر ثماني عشرة سنة، وخرجا في تجارة إلى الشام، فصادفهما بحيرى هناك، وأسرّ إلى أبي بكر بخبر النبوّة القادمة، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق[160].

كان أبو بكر مؤهّلاً، بفضل تلك الصُحبة القديمة، للإيمان. ما إنْ عَرض عليه مُحمّدٌ الإسلامَ حتى قَبِلَ بالإسلام وآمنَ بالنبيّ. ولعلّه آمنَ به قبل أنْ يدعوَه إلى الإسلام، بفضل ما عرض له من أحداث مع الشيخ الأزديّ في اليمن، أو بحيرى في بُصرى من أرض الشام أو ورقة بن نوفل في مكّة[161].

وكان مُحمّد يقول وهو مسرور بإسلام أبي بكرَ أيّمَ سُرور: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت له عنه كَبْوَةٌ وتَرَدّدٌ ونَظرٌ، إلاّ أبا بكر ما عَتّم حين ذكرتُه له، ما تردّد فيه[162].»

وقد قام في هذه الصُحبة التي جمعت بين أبي بكر والنبيّ، أمرٌ هامٌّ آخر، هو أمر النساء. فتوثّقت بذلك العلاقة بين أبي بكر والنبيّ، واكتسبت سرّها الذي لم يُدركْ أحدٌ كُنهَه. والنساءُ زينةُ القصّة. والنساء زينةُ الحياة الدنيا والآخرة.

كانت المرأةُ حاضرةً في تلك الصُحبة زمن الجاهلية. وكانت حاضرةً فيها زمن الإسلام. فقد سعى أبو بكر، بفضل ما زوّدته به الأخبار من سلطان في الجاهلية، بين صاحبه الشابّ المحتاج وامرأة كهلة مات عنها زوجها الأوّل، ومات عنها زوجها الثاني، وقد تكون ترمّلت مرّةً ثالثة، وكانت موسرةً ولها تجارةٌ رابحة. وقد تمّ بين ذاك الشاب وتلك المرأة الزواج بفضل ذلك السعي الجميل. فصار محمّد وخديجة زوجيْن في بيتها السعيد. وصار أبو بكر يتردّد على ذلك البيت السعيد[163]، ويجلس إلى خديجة حتّى في غياب زوجها الجديد. ولمّا بُعثَ إليه أعلمته بما كان بين مُحمّد زوجِها ومَلَك السماء، وطلبت إليه أنْ يأخُذَ مُحمّداً إلى ورقة، فأسرع وإيّاه إلى ورقة يستجلي الخبر ويتحقّق من أمر نبوّة صديقه القديم[164]. آمن به في حضرة زوجته التي سعى سَعيه الكريم ليُنكحها إياه.

ولمّا تُوفّيت خديجة وترمّل النبيّ كان أبو بكر جاهزًا ليُنكحَه خيرَ النساء، ابنتَه عائشة، وهي ابنةُ ستّ من السنين. تربّت على الإسلام في بيت أوّل

المسلمين. أنكحَه ابنتَه رغم أنّه كان بالنسبة إليه أخاً شقيقاً[165]. أنكحه ابنته رغم أنّ ابنته كانت مُسمّاة على غيره، وقد وعد بها أبو بكر مُطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف لابنه جُبير، فسلّها منهم أبو بكر سلّاً[166]. ولمّا دخل بها النبيّ وهي ابنةُ تسع من السنين، عاد أبو بكر يدخل على النبيّ في بيته، كما كان يفعل لمّا كانت خديجة في البيت، ويُتابع عن كثب، من جديد، أخبارَ النبوّة والنبيّ، التي أصبحت في المدينة ذات قيمة كبيرة، وأصبحت على علاقة بالحُكم، على علاقة بالحرب، على علاقة بالغنائم الكثيرة.

افتتح أبو بكر إذنْ صَفحةً جَديدة مع النبوّة والنبيّ. وكانت عائشة جاهزةً على الدوام لِمدّ أبي بكر أبيها بأخبار النبوّة والنبيّ. وكانت جاهزةً ساعةَ مات النبيّ لتلعب دورَها ويتولّى الخلافةَ أبوها أبو بكر صاحب النبيّ، كما سيأتي في ذلك البيان، إذا اقتضتْ الحاجةُ ذلك وتطوّرت القصّة إلى مثله.

11

كان إسلامُ عُمرَ سبيلاً إلى صُحبة النبيّ. وكان النبيّ ينتظرُ إسلامَ عُمر. كان يدعو الله ويقول: «اللهمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبِّ الرجلين إليك، بعُمر بن الخطّاب أو بأبي جهل بن هشام[167].» وكان أحبَّ الرجلين إلى الله عُمر. فاختار الله عُمر: وأعلم نبيّه بالخبر: «أُوحيَ إلى النبي أنّ أبا جهل لنْ يُسلمَ، فخصَّ النبيُّ عُمر بنَ الخطّاب بالدعاء: اللهمَّ أيّد الإسلام بعُمر. اللهمَّ أسْعد الدينَ بعُمر. اللهمَّ أعزَّ الدينَ بعُمر. اللهمّ أعزَّ عُمر[168].»

أسلمَ عُمر. «أسْلمَ بَعدَ تسعة وثلاثين رَجلاً فكَمُلَ الرجالُ به أربعين رَجلاً[169].» سُرَّ محمّدٌ بإسلام عُمر. استبشر أهلُ السماء[170]. «نزل جبريل فقال: قد استبشرنا بإسلام عُمر[171].» ثمّ نزل نزلةً أخرى يحملُ الآيةَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[172]﴾

حَسْبُ الإسلام عُمر. اكتمل الإسلام. صار أهلُه أربعين رجلاً. اكتمل العددُ بإسلام عُمر. بلغ غايته والمُنتهى. ظهر الإسلام بمكّة[173]. انتهى زَمنُ السرّية وولّى. ها الإسلامُ يشقّ طريقَه، ولا خوفَ. ها الإسلامُ يُسمعُ الملأَ صَوتَه[174].

ظهر الإسلامُ لمّا أسلمَ عُمر. دُعيَ إليه جهراً وعَلانية. جَلسَ المُؤمنون حول البيت حِلقاً. طافوا بالبيت. انتصَفوا مِمَّنْ غَلُظَ عليهم وردُّوا عليه بعضَ ما يأتي. صاروا أعزّةً في مكّة. صلّوا في البيت[175].

كان إسلامُ عُمر فَتْحاً[176]. تغيّرَ وجهُ الإسلام، أضحى آخر. جعل اللهُ الحقَّ على لسان عُمر وقَلبه، فَرقَ اللهُ به بين الحقّ والباطل[177]. سُمّيَ الفاروق لذلك. صار رُكناً في الإسلام لا يُضاهيه رُكن.

كان الإسلامُ مَديناً لعُمر. لَوْلا عُمر لَما غادرَ الإسلامُ دَار الأرقم[178]، ولَما اشتهر الأرقم ولا داره التي أصبحت ذات قصّة تُروى في الكتب[179].

كان المُسلمون يومَها قلّةً قليلة، لاذوا بدار الأرقم سرّاً، خوفَ بطش قُريش المُشركة[180]. وكانت الدار بسيطة، لا أهمّيةَ لها، لا تجلب الانتباه. وكان الأرقم مثلَها، نكرة لا يجلبُ الانتباه.

كانوا في دار الأرقم مُجرّدَ فرقة هامشيّة تُمارسُ شَعائرَها في الخفاء[181]. كان يُطلبُ مِمّن أسلم أنْ يَكتُمَ إسلامَه ولا يُظهرَ منه شيئاً. وقد طَلبَ مِنْ عُمر أنْ يَكتُمَ السرَّ ويَمتثلَ لتقاليد الفرقة الهامشية التي تعملُ في الخفاء. ولكنّ عُمر أبى. قال له النبيّ وقد أسلم: السرّ السرّ يا عُمر. فأجاب: لا سرّ بعد اليوم يا نبيّ[182]. قصد أكثر الناس في قريش نقلاً للخبر وإفشاءً للسرّ وزفّ إليه خَبرَ إسلامه[183]. فعَلمتْ قُريش كلّها بإسلامه. قصد أشدَّ الناس عداوةً لله ورسوله وزفّ إليه خَبرَ إسلامه حتّى يقهره ولم يرهبه رغم شدّة بطشه[184].

تروي القصص الطويلة حِكاياتٍ عَجيبة في إسلام عُمر. كان شديداً على النبيّ، شديداً على المسلمين، شديداً على الإسلام. انتدبته قريش، عن تَطوُّع، في مهمّة عويصة تقتضي قَتل النبيّ. استعدّ للمهمّة. تهيّأ. قصد النبيّ. جاء والنبيّ يقرأ الحاقّة. جَعلَ يَعْجَبُ من تأليف القرآن، قال مثلما قالت قريش: هذا شاعر. فقرأ النبيّ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ[185]﴾ فقال: بل هو كاهن. فقرأ النبيّ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ[186]﴾

فعل القرآنُ فِعلَه في عُمر. تعجّب. وقع الإسلام في قلبه كلّ موقع. آمن بالله ورسوله. شَهّد الشهادتيْن. اعترف بالجنّة والنار. صبأ[187] على لغة ذلك الزمان. بايع. صبّوا عليه الماء حتّى اغتسل. تعشّى ليلتئذ مع النبيّ وبات يُصلّي معه. ولمّا أصبح اشتمل على سيفه، وخرج يتبعه النبيّ والمهاجرون حتى وقف على قريش وقد اجتمعوا. قال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وحدَه وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه. مَنْ شاء فلْيُؤمن، ومَنْ شاء فليَكفرْ. أرعب صوتُه قريشاً. تفرّقت عن مجالسها[188].

كانت لحظة اللقاء الأولى بين القرآن وعُمر لحظةً عجيبة. تشكّل القرآنُ يومَها حواراً مع عُمر. تشكّل إجابةً عن تَساؤلات عُمر بشأن النبيّ، أشاعراً كان أمْ كاهناً؟ فَهمَ عُمر أنّ القرآنَ آخرُ. فَهمَ أنّ مُحمّداً ليس شاعراً، ولا كاهناً، بل هو نَبيٌّ مُرسل.

توطّدت العلاقة منذ ذلك التاريخ بين القرآن وعُمر، فنزل القرآنُ على لسانه وأيّدته الآياتُ في كلّ ما ذهب إليه[189]، وصار عُمر أقرأَ الناس لكتاب الله وأفقههم في الدين وأقومَهم بحدود الله[190]. وتوطّدت العلاقة منذ ذلك التاريخ بين النبيّ وعُمر، فاتخذه صاحباً وجليساً، واتّخذه وزيراً يأمر بالشدّة[191]، وسيفاً يهتزّ في وجه العدوّ، مَثله كمَثل جبريل في الملائكة ينزل بالبأس والشدّة والنقمة على أعداء الله[192]. ذلك هو عُمر الذي بشّرت به الأديان القديمة وجاء اسمُه في الكُتب وعَرفه القساوسة والرهبان وأخبروه بما سيكون له من شأن في الإسلام، وهو يومئذ تاجرٌ في الجاهلية ولمّا يَظهر الإسلام[193].

كان عُمر قصّةً تُروى في الكُتب القَديمة. والكُتبُ القديمة كانت مأمورة، لا تَنطقُ عن هَوَى، بل تَستشرفُ المُستقبل وتَرسمُ المصير. فصار عُمر في الإسلام رجلاً عظيماً وسَنَداً للنبيّ والإسلام. ثمّ زوّج النبيَّ حفصة ابنتَهُ فدخل على النبي في بيته، وتردّد عليه في أهله، وحَكمَ مكانه في نسائه، وصدّهنّ عن الإساءة إليه، وأضحكه بنوادره الفَكِهة إذا أغضبنه، وضرب حفصة ابنته في حضرته إذا ما حفصة تواطأت مع النساء عليه[194].

افتتح عُمر صَفحة جَديدة مع النبوّة والنبيّ. صار مثل أبي بكر يتردّد على بيت النبي. وكانت حَفصة جاهزة على الدوام لِمدّ عُمر أبيها بأخبار النبوّة والنبيّ. وكانت جاهزة ساعةَ مات النبيّ لتلعب دورَها جَنبَ عائشة فلا تخرج الخلافة عن أبي بكر حتى يُوصي بها من بعده إلى أبيها عُمر، وكان أبو بكر، والحمد لله، في أرذل العمر، على شفا موت آت لا ريب فيه.

12

ثالثُ الثلاثة أبو عُبيدة بنُ الجَرّاح. لم تَهتمّ به الكتب اهتمامَها بأبي بكر وعُمر. فقد وُضِعت التراجم والفضائل والقَصص العَجيبة بَعدَ أنْ صار أبو بَكْر خليفة راشداً، وصار عُمر خليفة راشداً أيضاً. أمّا أبو عُبيدة بنُ الجَرّاح فقد ضربه الطاعون وفاجأته المنيّة[195] ولم تَنتهِ به القصص إلى الغاية المرجوّة: أنْ يتولّى الخلافة بعد أبي بَكر وعُمر، فيكون ثالثَ الثلاثة حقّاً[196].

وكان أبو عُبيدة بنُ الجَرّاح أبتَرَ، انقرض وِلْدُه ووِلدُ أخويه جميعاً، ولم يَتركْ عَقباً[197] يُشيدون بذكره، ويروون عنه صولاتِه وجولاتِه، وما نَقلَه عن النبيّ. ولعلّ أصلَه المتواضع صَدَّ عنه الكُتب، فالرجل لم يكن شريفاً من أشراف مكّة بل كان من الظواهر وآخر بُطون قريش[198]. ولعلّ هذا الأصل الوضيع كان وراء اختيار أبي عُبيدة بن الجرّاح ليكون ثالث الثلاثة، فجعله أبو بكر جنبه وجنب عُمر ليكون ممثّلا للعامّة حتى لا يقال: إنّ الأمر كان وقفاً على الخاصّة، والعامّة غائبة بالتمام والكمال[199].

قَلّت الأخبار في أبي عُبيدة بن الجَرّاح. ومع ذلك فإنّه يبدو أنّ الرجل كان فاعلاً في الإسلام زمن النبيّ، وحَظِيَ لديْه بمكانة رفيعة، «وكان مِنْ عِليةِ أصحابه[200]»، وأمّره على بعض سراياه التي قاد فيها كِبار الصحابة وأبا بَكر وعُمر[201]، وكان يُحبّه[202]، ويُبجّلُه ويُسمّيه أمينَ الأمّة، ويُرسله إلى الأمصار يُعلّمُ الناس السّنّةَ والإسلام[203].

ولم يكن أبو عُبيدة أنيقاً، ولا كان رشيقاً. ولم تُمكّنه الطبيعة من خِلقةٍ جميلة. كان نحيفاً، معروق الوجه، أجنأً، أحدب الظهر، أثْرمَ الثنيّتيْن أهْتمَ[204]. وقد جَعلت الأخبارُ مِنْ قُبحه جمالا، ورأتْ في ثُرمه حُسناً، وربطت ذلك بالإسلام وذوده عن النبي، وجَعلته أثرمَ أهتمَ لِما أتى من فعل نَبيل جَرّاء انتزاعه بأسْنانِه وأضراسه الحَلقتيْن اللتيْن أصابتا وَجه النبيّ في غَزوة أُحُد، يومَ انفكّ

من حوله المسلمون وظلّ أبو عُبيدة صامداً إلى جَنبه[205]. ولعلّ ذلك رسّخ إلى الأبد ما كان يشعر به النبيّ من ودّ نحو أبي عُبيدة، وما يُحيطه به من عطف وتبجيل. وتشعر أنّ ذلك الودّ شبيهٌ بما يكون بين الأصحاب والأصدقاء، فيه الدّعابةُ، وفيه الفَكَهُ، وفيه مسّ الجسد[206]. وتَشعرُ أنّ ذلك التبجيلَ جُعلَ ليُثيرَ حفيظةَ الآخرين، نكايةً في الآخرين. فتراه يُقدّمه على أصحابه جميعاً، وعلى أبي بكر وعُمر، وهُما يتشوّفان إلى الفوز بما يحظى به أبو عُبيدة من مكانة لدى النبيّ[207].

كان أبو عُبيدة من السبّاقين إلى الإسلام، أسلم والنبيُّ لمّا يَدخلْ دارَ الأرقم[208]. وقد روت الأخبارُ أنّ أبا بكر كان وراءَ إسلامه، جاء به النبيَّ فأسلمَ، مثلما جاء بغيره من الناس فأسلموا جميعاً[209]. ولمّا أسلمَ لم يفارق النبيّ إلاّ ساعةَ الهجرة إلى الحبشة أو يثرب، ثمّ شهد معه المشاهدَ كلّها[210]. وكان سَيفاً مُسلَّطاً على العدوّ، حتى على أبيه الذي كان كافراً ولم يُسلم، فقتلَه يَومَ بدر، فنزلَ فيه قُرآنٌ يُخلّدُه ويُخلّدُ تلك الحادثة[211].

ورغم ما كان لأبي عُبيدة من حُظوةٍ زَمَنَ النبيّ، فإنّ شُهرتَه الواسعة نالَها لمّا مات النبيّ وانضمّ إلى أبي بكر وعُمر، وقد يكون لَعبَ دوراً هامّاً في تولّي أبي بَكر الخلافة، نظراً إلى دهائه الذي نوّهت به الكتب وجمعت بينه وبين دهاء أبي بكر: «كان يُقالُ: داهيَا قُريش أبو بكر وأبو عُبيدة بنُ الجرّاح[212].» وإذ كان الدهاء يُستَعملُ في الأمور الجسام ويرتبط بالذكاء والحيلة، كانت السقيفة التي جَمعت بين أبي بكر وأبي عُبيدة فضاء لذلك الأمر فوضعا دهاءَهما والذكاءَ والحيلة لإعلاء صوت أبي بكر وإكسابه الشرعية وتوليته الخلافة، فذهب ذلك في الناس مثلاً.

ها أبو عُبيدة يُهرول إلى السقيفة، جَنبَ أبي بكر وعُمر. ثلاثةُ نَفر جَمع بينهم الإسلامُ الأوّل وجمعتْ بينهم صُحبةُ النبيّ، وكانوا مُقدَّمين عند النبيّ. هكذا جاء في الأخبار. هكذا جاء في التاريخ. فلنواصل البحثَ والتدقيق في الأخبار والتاريخ لتقفوا على الأمور.

13

تجمّد الصوتُ في بلال فلا أذّنَ للعصر، ولا أذّنَ للمغرب، وها قد حانت العشاء، ولا صوتَ خَرجَ يملأ الأفقَ أذاناً. لا شيْءَ غيرُ الصمت.

جاء عبد الله بنُ مسعود يسأل بلالاً أنْ يُؤذّنَ في الناس وقد حان وقتُ الصلاة. امتنع بلال. قال: أينَ المصلّون يا ابنَ أمّ عبد؟ أين المهاجرون؟ أين الأنصار؟ أترى مُصلّين هنا، يا ابنَ أمّ عبد، يملؤون الأرجاء؟ أترى غير الموالي والعبيد والغرباء؟ توقّف عن الكلام بُرهةً، ثمّ استأنف الكلام: كنتُ يا ابنَ أمّ عبد أؤذّنُ للرسول، فيُهرول الناسُ إلى الصلاة، أنصاراً ومهاجرين، أحراراً ومواليَ وعبيداً وما مَلكَتِ اليمين. واليوم أذّنتُ وقد مات الرسول، ولم يُهرول إلى الصلاة الأنصارُ، ولم يُهرول إليها المهاجرون. أين هم الآنَ يا ابنَ أمّ عَبد؟ جاء إلى الصلاة بعضُ الموالي، وجاء بعضُ العبيد يجرّون أذيالهم كالعبيد، حُفاةً كما كانوا زمن العبيد. وجاء بعضُ المسافرين، عليهم أغبرة السفر، على جنابة، لا يصلحون للصلاة. عَشرةُ نفر، على وجه التحديد. أترى يا ابنَ أمّ عبد أنْ أؤذّن لهذه الشرمة، وقد كنتُ من قَبلُ أؤذّن للرسول. لن أؤذّنَ اليومَ واللهِ من جديد. توقّف مَرّةً أخرى عن الكلام. ثمّ استأنف وقال: تَغيّرت اليومَ الأمورُ، فلا أنصارَ ولا مهاجرين، ولا صلاةَ يُهرولُ إليها المصلّون.

ثمّ قال كمن يُخاطبُ نفسَه: مات النبيُّ مات، أُعلنُ الحِدادَ على النبيّ. خاننا فيك الردى، لمن تركتنا يا نبيّ؟ خاننا فيك الردى، تغيّرت حياتُنا. خاننا فيك الردى، لا صَلاةَ لنا ولا أذان. توقّفَ كلُّ شيء، توقّفتْ أخبارُ السماء.

نَظرَ إلى عبد الله بن مسعود نظرةً طويلة ثمّ قال: كنتُ يا ابنَ أمّ عبد مُؤذّنَ الرسول، وكان الرسولُ لا يُصلّي إلاّ إذا ارتفعَ صَوتي بالأذان. كان صوتي إعلاناً عن فتح باب الصلاة، فيُسرع الإنسُ والجانُّ إلى الصلاة، وتُسرع الملائكةُ في السماء خَطوَها في الطواف. كان صَوتي، يا ابنَ أمّ عبد، من

السماء، واليوم انغلق عنّي باب السماء وقد مات الرسول. ثمّ أجهشَ بالبكاء، وهو الذي لم يبكِ أبداً. لم يَبك يومَ كان عبداً لبني السَّراة وأمُّه أَمَة في بني جُمَح. لم يبكِ لمّا أسلمَ وعَذّبته قريش ليرجعَ عن دينه. تحدّى أُميّة بنَ خَلف الذي كان يُعذّبه. كان يُكرّرُ له ويقول: ربّكَ اللاتُ والعزّى، فقلْ ربّي اللاتُ والعزّى. فيُجيبُه قائلاً: أحَدٌ أحَدٌ. فيشدّد له العذاب. كانوا يضربونه ويَضعون على صدره الصخر، ولا يبكي، بل يقول: أحَدٌ أحَدٌ. وكانوا يَضعون في عُنقِه حبلاً ويُعطونَه صبيانَهم يَسعَوْن به بَينَ أخشَبيْ مكّة يلعبون به ويُمثّلون، ولا يبكي، بل يقول: أحَدٌ أحَدٌ.

كان بلال قد اعتنق الإسلام، وكان يُريدُ أنْ يَموتَ على الإسلام. جرّب معه مُلاّكُه كلّ عذاب ليعود إلى حظيرتهم حيث اللاتُ والعزّى ومناةُ الثالثة الأخرى، حَيثُ هُبلُ ووَدٌّ، حَيثُ إسافٌ ونائلة. ولم يَنفعْ معه شيءٌ. بيناً همْ يُعذّبونه ذاتَ يوم، ويقولون له: قُلْ كما نَقول، وهو يصيح ويقول: إنّ لساني لا يُحسنُ ما تقولون، ثمّ يقول: أحَدٌ أحَدٌ، مرّ بهم أبو بكر فقال لهم: عَلامَ تُعذّبون هذا الإنسان؟ واشتراه منهم بأبخس الأثمان، بسَبع أواقٍ، أو خمس فقط. وأعتقه. أعجبت قصّته النبيَّ فطلب من أبي بكر أنْ تكون له فيه شركةٌ، فدخل في خدمة النبيّ[213].

تذكّر بلال تاريخَه المجيد. بكى. انهمر دمعُه مدراراً. أخذت الشفقة عبد الله بنَ مسعود، مَسحَ على كتفه وبكى مثله.

كان شُقران غيرَ بعيد يَسترقُ السمعَ، كعادة شُقران في الظروف الحَرجَة. تَقدّم منهما، يختلطُ بهما. سارع عبد الله بنُ مسعود إلى باب بيت الرسول، وكأنّ حاجةً تدعوه إلى باب بيت الرسول، ولا حاجةَ له غير الفرار من شُقران. كان يَعرفُ شُقران، فهرب من شُقران.

كان شُقران عَبداً حَبشيّاً مثل بلال. كان مملوكاً لعبد الرحمان بن عوف، فأعجب النبيّ فأخذه منه بالثمن، ودخل في خدمته، غلاماً له، وظلّ مملوكاً، وشهد معه بدراً وهو مملوك[214]. وأعتقه بعد بدر حسبَ بعض الكتب[215]. وقد جمعت الأُلفة بين بلال وشُقران. وكان بينهما شيءٌ من الغيرة أحياناً، وهما في خدمة النبيّ.

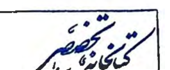
كان شُقران فَكِهاً يُحبّ المزاح. وهو ما كان يُخيفُ عبد الله بنَ مسعود، فيلوذ بالفرار إذا ما سمحت الظروف. كان عبد الله بنُ مسعود رجلاً جادّاً كامل الوقت، يَكرهُ المزاحَ والفَكَهَ، ويخافُ من ذلك العواقبَ. وكان بلال مثله لا يُحبُّ المزاحَ ولا يُحبُّ الفَكَهَ، ولكنّه يحبّ شُقران، وإنْ على مَضَض، فشُقران عبد عتيق مثله، ينتميان إلى طبقة الخدم، ويخدمان النبيّ بتفان وحبّ.

تَقدّمَ شُقران من بلال قال: ما يُبكيك يا بلال؟ ألا تعلم أنّ الرسول حَرّم على الخَدم البكاء؟ صاح فيه بلال قال: متى حرّم ذلك يا كذّاب؟ أتكذب على النبيّ، والنبيُّ في بيته مُسجّى؟ ماذا ستقول غداً وقد دُفن؟ سمع الخدم والعبيد والموالي صياحَ بلال فالتفّوا حوله وحول شُقران. هذه فرصتُهم للتمتّع بهزل شُقران والمزاحِ. كانوا يَعرفون أنّ شُقرانَ فَكِهٌ، وأنّ بلالاً لا يقبلُ المزاح. كانوا يعرفون أنّ بلالاً يُقابلُ شُقران بالعويل والصياح. وكانوا يُحبّون ذلك، يُفرّجون به ساعةً عن أنفسهم المُتعَبة، ويجدون فيه سَعةً لحياتهم التعسة. انضمّ إليهم بَعضُ زُوّار المدينة في موت الرسول. تكوّن حَشدٌ كبير. كان الناس في ذلك الزمن يجتمعون لكلّ صياح وعويل.

واصل بلال كَلامَه والصياح، قال: إنّي لستُ من الخَدم مثلك يا وجهَ النحس. أنا مؤذّنُ الرسول. ولا مؤذّنَ له غيري. عندما أصوّت بالأذان يَصلُ الأذانُ النبيَّ نَغماً خالداً كالحياة، فيُسرّ النبيّ، ويَطلب منّي في كلّ صلاة أنْ أصوّت بالأذان. كان يُحبُّ صَوتي، ولا صوتَ مثل صَوتي عنده.

ضَحكَ شُقران حتى بانت نَواجذُه، كما تقول العرب، قال: خفّف الوطْءَ يا بلال. لِمَ تَكذب علينا، أصحابَك، وتَكذب على مَنْ جالسنا من المسلمين؟ مَتى كُنتَ وَحدَكَ مُؤذّنَ الرسول؟ وابن أمّ مَكتوم مَنْ يكون؟ أليس هو أيضاً مُؤذّن الرسول؟

صَمتَ بلال. لَعنَ في سرّه شُقران. هذا العبدُ لا يَستحي أبداً. كان بلال لا يُحبُّ ابنَ أمّ مَكتوم. ومرّ بذهنه شريطُ الأحداث يرسمُ المراتب، يرسمُ ما كان لابن مَكتوم من مرتبة لدى الرسول، وما كان لبلال لديه من مرتبة. شتّانَ ما بينهما. فاز ابنُ أمّ مَكتوم بمرتبة عَليّة لدى الرسول، أعلى من مرتبة بلال بكثير. كان بلال مؤذّناً ليس غيرُ. أمّا ابنُ أمّ مَكتوم فكان مؤذّناً وخليفة للرسول. كان



يُؤذّن للرسول إذا ما كان الرسولُ حاضراً في المدينة. وكان الرسولُ يَستَخلفُهُ على المدينة إذا ما غادر المدينة. كلّما ذكر بلال ذلك حَزَّ في نفسه وأثخَنَ في قَلبه الجرحَ. فكان يتفادى الحديثَ في هذا الأمر. وكان لا يجلسُ في مَجلس قد يتطرّقُ إلى هذا الأمر. فإنْ صادف وجلس في مجلس حصل فيه ذلك غادر ذلك المَجلس. والآنَ، كيف الخلاصُ من هذا العبد شُقران؟ كيف يُمكنه أنْ يُغادرَ المجلس والناسُ حوله، طوّقوه تطويقاً، ولا مَخرج؟

لم يترك له شُقران مجالاً للفرار. باغتَه، قال: كنتَ يا بلال مؤذّناً، نعم، أمّا ابنُ أمّ مَكتوم فكان مؤذّناً وخليفة للرسول. «وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يَستَخلفُهُ على المدينة يُصلّي بالناس في عامّة غزوات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. غزا رَسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ثلاثَ عَشرةَ غزوةً ما منها غزوةٌ إلاّ يَستخلفُ ابنَ أمّ مَكتوم على المدينة[216].»

لم يقل بلال شيئاً. طأطأ الرأسَ ينظر مدارَ قدميه. شَعُر بالذلّ في حضرة شُقران. شَعُر بالذلّ في حضرة هؤلاء العبيد والموالي وهؤلاء المسافرين الذين عليهم الغبار. لا شيءَ غير الغُبار في حياة بلال. لماذا لم يستخلفه الرسول على المدينة كما استخلف ابنَ أمّ مكتوم؟ ألأنّه كان عبداً حبشيّاً، وظلّ عبداً حبشيّاً حتّى إنْ أعتقوه؟ تساءل في صمت عن المصير. إذا كان النبيُّ لم يُبوّئه مَنزلة رفيعة، ولم يجعلْه إلاّ على نخلة يُصوّتُ بالأذان، فَمَنْ ذا الذي يَرفع من شأنه بعد النبيّ، ويُقلّده المناصب والإمارةَ؟ تجلّد بالصبر في صمته الطويل. لم يقل شيئاً. قرّر في الحين ألاّ يُؤذّن بعد الرسول[217]. قرّر حجب صوته عن المؤمنين. لن يُؤذّن بعد الآن. كان يُؤذّن للرسول واليوم مات الرسول.

تكلّم رجلٌ غريبٌ على وَجههِ غُبارٌ، تَعجُّ منه رائحةُ السفر، قال: ومَن هو ابنُ أمّ مكتوم، يا عبدُ. أجابه شُقران: لستُ عبداً يا غريب. لقد أعتقني الرسول. قال الغريب: ومَن هو ابن مكتوم، يا عبدُ، يا مَعتوق؟ شَعر شُقران بالذلّ. ندم على ما كان منه مع بلال. أراد أنْ يَصمت. ولكنّ أصْواتاً ارتفعت تقول: مَن هو ابنُ أمّ مكتوم؟ فكان لا بدَّ من الجواب. وأمّا السّائلَ فَلا تَنهرْ. تجلّد بالصبر قال: حَدّثْهم يا بلال عن ابنِ أمّ مكتوم، فأنتَ أدرى الناس به وقد كنت سبّاقاً إلى الإسلام وتَعرف المسلمين وكيف كان إسلامُهم. حَدّثْهم فقد جاء في الآيات أنْ لا ننهر سائلاً سأل. واعذرني إنْ كنتُ قد هزّني المزاح واستعملتُ

معك الإثارَة لننسى ما نحن فيه من مُصاب جَلل. حَدِّثْهم يا بلال عن ابنِ أمّ مكتوم ولا تَغضبْ عليّ، فإنّي امرؤ تعوّد الفَكَه مع الرسول.

شعُر بلال بصدق شُقران. كان بلال إذا غضب انتفخت شفتاه وظننتَ الكارثة حالّة بالناس. ولكنّ بلالاً سُرعانَ ما كان يهدأ. كان كإطار المطّاط، إذا نفختَ فيه الهواء انتفخ، وإذا أحْدثْتَ فيه ثقباً تسرّب منه الهواء وسقط هامداً. تَبسّم في وجه شُقران. سمّى باسم الله كعادة بلال إذا تكلّم في الناس، وكان قليلَ الكلام في الناس. قال: ابنُ أمّ مكتوم هو ذاك الضّريرُ الأعمَى الذي نزلت فيه الآيات. كان النبيُّ يوماً في حضرة ضيوف أشراف من عُظماء المشركين يدعوهم إلى الإسلام، يرجو إسلامَهم فيعزَّ بهم الإسلام. وبيناً هو كذلك إذ جاءه الأعمى يسعى وسأله أنْ يُقرئه القرآن. كان النبيُّ مشغولاً بضيوفه، فأعرضَ عنه. وسأل النبيَّ من جديد. وأعرضَ عنه النبيّ من جديد. وظلّ يسأل والنبيّ يُعرض حتى نزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[218]

سَكت بلال يسترجعُ أنفاسَه ويَجلب إليه الانتباه. قال وكأنّه يرافع في قضيّة: كان تَصرُّف النبيّ تصرّفاً حكيماً، فالرجل تَطفّل على مَجلس لم يُعْقَدْ له. ومع ذلك فإنّ اللهَ لم يَسندْ نبيّه. لم يَرَ ما قد رأينا ورأى الرسول. لم يُعجبه هَذا التصرّف. فلام نبيّه وأنّبه في هذه السورة. ما الحكمة مِنْ وراء ذلك؟ حِكمةٌ لا نُدركها. لقد تعوّدنا تبجيل الأشراف وكبار القوم. وتعوّنا عَقد المجالس لمُستحقّيها. وتَعوّدنا انتظارَ السائل دورَه قبل أنْ يسأل، حتى ولو كان ضريراً أعمى. إنّها، والله، لحِكمةٌ لا نُدركها.

تَنحنحَ شُقران. خافَ إنْ واصلَ بلال الكلامَ والدفاعَ عن النبيّ، أن يَكفرَ بالآيات من حَيثُ لا يَشعر، ويُكيلَ لابنِ أمّ مكتوم الكيلَ من حيث لا يدري المُستمعون. تَنحنحَ شقران حتى يتوقّفَ بلال عن مثل هذا الهَذر. تنحنحَ لعلّ بلالاً يَفهمُ عليه فيتحدّث دون نقد وإنْ تلميحاً. وفَهمَ عليه بلال. قال، بعد أنْ عاذ بالله من الشيطان الرجيم واستغفر الله العظيم: منذ نزلت تلكم الآياتُ قرّبَ النبيُّ إليه ابنَ أمّ مكتوم، وجعله مؤذّناً مثلي، وجعلنا نتتابع في الأذان ونتتالى. وقَسمَ بيننا الصلوات قسمةً عادلة. فكانت لي العصرُ والمغربُ والعشاءُ، وكانت الفجرُ والصبحُ لمَنْ صَلّى الصبحَ والظّهرَ لابنِ أمّ مكتوم.

وكان أحياناً يقسمُ بيننا الأذان وإقامَ الصلاة. فكنتُ أؤذّنُ ويُقيمُ ابنُ مكتوم، أو يؤذّنُ ابنُ أمّ مكتوم وأقيمُ[219]. وتوقّف عن الكلام، كأنّه أنهى الكلام.

عاد شُقران إلى الهزل والمزاح. كان لا يتّعظُ أبداً ولا تستقيم له حياةٌ إلاّ في ظلّ الهَزل والمُزاح. كان فَكِهاً كما كان الرسول. قال: هل كان الرّسولُ يَستخلفُك يا بلال على المدينة كما كان يَستخلفُ ابنَ أمّ مَكتوم؟

عاد الغضبُ إلى بلال وأخذ منه مأخذاً كبيراً. تَهدّجَ وَجْهُهُ وانتفخَت شفتاه. تَنفّسَ تَنفُّسَةً طَويلة. ثمّ انفشّ وهَدأ. قال: لا يا شُقران. لم يَفعلْ معي ذلك أبداً. لقد خصّ بهذا الأمر ابنَ أمّ مكتوم كما تَعلم. تَوقّفَ بُرهةً من الزمن ثمّ قال، كمن تذكّر شيئاً، كمن يُخاطبُ نفسه، كمن يَستنبطُ السلوى في ما سيذكرُ من تِعلّة: كُنتُ أنا قادراً على الغزوات وكان ابنُ أمّ مكتوم غيرَ قادر عليها. فخرجتُ مع النبي وظلّ هو في المدينة. كان ضَريراً أعمى فاستوجب الأمرُ بقاءَه في المدينة. كان عاجزاً عن فعل ما أفعل، فظلّ في المدينة يؤذّنُ للعُجّز مثلَه ويُصلّي بهم. وإنْ لم يكونوا عُجّزاً مثله، كانوا صبياناً قُصّراً لا يَنهضون بعبْء أو كانوا نساءً جهادهنّ في خدورهنّ. وسكت مَزهوّاً.

وَاصلَ شُقران الكلام، قال: كان ابنُ أمّ مكتوم يا بلال جريئًا على الله والرسول. كان لا يَلين. كان لا يَسكتُ حتّى تنزلَ الآياتُ تُشرّع له حَقّه. فبعدَ أنْ نزلت فيه ﴿عبس وتولّى﴾ كما تفضّلتَ بالتذكير، نزلت فيه آياتٌ أخرى، سعى إليها سعياً وأجبرها على النزول. وأنتَ تَذكرُ مثلي ما كان من أمره بخصوص الجهاد، وسأبيّنُه للسادة المُجتمعين إلينا، ومنهم كثيرون من الغرباء عنّا لا يَعرفونَ قَصصَ النزول. ثمّ توجّه إلى الحضور وقال: لمّا نزلت بعضُ الآيات المفضّلة للجهاد على القعود عنه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قام ابنُ أمّ مكتوم إلى الرسول وقال له: فكيف بمن لا يستطيع الجهاد؟ اسأل ربّك أنْ يُنزلَ قرآناً في شأن ابن أمّ مكتوم المعذور. ثمّ توجّه مُباشرةً إلى الله وقال: اللهمّ أنزل عُذري، اللهمّ أنزل عُذري، اللهمّ أنزل عُذري. فما هي إلاّ لحظة حتى نزل ما أراد: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾، فصارت الآية: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ[220]﴾، وفاز ابنُ أمّ مكتوم بما يُريد. شرّعَ له الله القُعود، فأمّره الرسولُ على المدينة. أمّا أنتَ يا بلال فلا نزلت فيك الآيات ولا حَظيتَ بالتبجيل.

شَعُرَ بلال بالاحتقار. أراد أنْ يردّ ودَّ شُقران القاتل بودّ شبيه. قال كمن يأخذُ ثأراً: لِمَ لا تروي يا شُقران، ما كان من أمرك في سَبي بدر لمّا وَضعَك الرسولُ على السَّبي؟ تَجمّد الدم في عروق شقران. تلك حادثةٌ لا يرتاح لها، ولا يرغب في الحديث عنها. سكت ولم يُجب.

قال بلال وقد شَعُرَ بالفوز: كنتَ على السبي، وكان النبيُّ يَقسِمُ السبيَ ويُوزّع على المستحقّين[221]، وكنت ترى نفسك من المستحقّين. فماذا حدث يا شُقران؟ قُلْ لنا بربّك ما حدث؟ تمنّى شُقران الأرضَ تَنفتح عن دهليز يضمُّه إلى الأبد، فلا ينظر إليه ناظرٌ استمع إلى قصّته في السبي الذي قام عليه. ولكنّ الأرض لم تَنفتحْ له عن دهليز يَضمّه ويُخفي فيه عن العيان وَجهَه. واصلَ بلال الكلام قال: جعل النبيُّ، يا سادتي الكرام، شُقران على الأسرى في غزوة بدر، وكان شُقران يُحلم النفسَ بنصيبه من الغنيمة. فلمّا أسهم رسول الله لمَنْ حضروا بدراً ولم يُسهم لشُقران سهماً، غَضبَ شُقران. وما كان له أنْ يغضب. نَسيَ حالتَه ووَضعَه. نَسيَ أنّه كان عبداً حَبشيّاً أسود، والعَبدُ الحبشيُّ الأسود لا يُسهَمُ له أبداً.

شَعُرَ بلال بالسعادة وهو يقولُ هذا. وشَعُرَ كذلك بالشجاعة. استقام في وقفته بعد أنْ كان مُنحنيّاً انحناءً. قال في هدوء تامّ: وأنا يا سادتي عبدٌ حبشيٌّ أسود، مثل شُقران أخي، لم يحظَ بسَهْم من السبي ولم أحظ بالإمارة في المدينة. تلك هي الحياة. والنبيُّ مأمورٌ بما جاء في الآيات. والآياتُ تُكرّسُ فضائل العرب الأشراف، ولم نكن من العرب الأشراف. نحن خدمٌ. دخلنا في خدمة الرسول ورَضينا بالمصير تحت إمرة الرسول، رحم الله الرسول.

سارعَ بلال إلى شُقران يَضمّه إلى صدره ويُعانقه. وفعل شُقران ما فعل بلال. واستمرّا في ذلك دهراً، في عناق حارّ وبكاء على المصير، وقد مات الرسول.

بكى الناسُ من حول بلال وشُقران، عَبيداً وموالي، شَعرُوا في نفس اللحظة أنّ المُسلمينَ طَبقات، وهم في الطبقة الدّنيا من الطبقات.

14

ضاق بيتُ عائشة بالنساء. كانت فيه الزوجاتُ حَظيرةً واحدة، يَندُبْنَ حَظّهنّ وقد تَرمّلْنَ، وبَعضُهنّ يَذكُرنَ ما كان مِنْ أمْرِ الرّسول وأمْرهنّ. وكانت فيه المُهاجراتُ ونساءٌ من الأنصار والأعرابيّات، جِئنَ جميعاً للتعزيّة، يَشدُدنَ من أزر الزوجات، ويَسْعيْن إلى الاستماع إلى أعجب الحكايات. وكانت فيه فاطمة الزهراء، تَبكي أباها لوعةً وحَسرة، وتذكرُ أيّامَها الخوالي. كانت تَجلس عند قَدميْه لا تُفارقُهما. كانت غَريبةً على البيت، أو كالغريبة. كانت تَبكي في صَمتٍ، لا كما تَبكي النساء في صَخبٍ وعَويلٍ ونُدْبَة. كانت وَجهاً وَديعاً صَابراً.

ضاق بيتُ عائشة بالنساء. اشتدّت فيه الحرارة. سال العرقُ من الوجوه الصفراء الشاحبة. دَخلتْ عليهنّ صفيّة بنتُ عبد المُطّلب، عَمّة الرسول، قالت: اخْرُجْنَ يا نساء، لا يَليق بكنّ البقاء في حَضرة الرسول، وقد اشتدّ الحَرّ وكَثُرَ فيكنّ الصّياحُ والعويل. اخْرُجْنَ إلى الحَوْش أو لُذنَ ببيوت أزواج الرسول غير التي فيها الرسول.

لم تَتحرّك النساء. كأنّهنّ لم يَسمعنَ ما قالت صَفيّة بنتُ عبد المُطّلب.

تشجّعتْ أسماء بنتُ عُميس، وكانت عند الباب، فدخلت وقالت للنساء ما قالت لهنّ صَفيّة بنتُ عبد المطّلب. وقالت لهنّ أن اخْرجْنَ، فقد حان الخروج والرجال يَستعدّون للدخول لتجهيز الرسول. وأعادت القول مرّات، تُسمعُ صَوتَها مَنْ لمْ تَسمعه من النساء. تَثاقلت النساء في الوقوف، وتَثاقلنَ في الخروج، ثمّ خرجن وقد سمعن من أسماء بنت عُميس أنّ الرجال داخلون لتجهيز الرسول. خَرجْنَ إلى الحَوْش الذي تدور عليه الزريبة وتُطلّ عليه بُيوتُ الأزواج، إلاّ عائشة، ظلّت جنبَ الرسول. كأنّها تَعلمُ أنْ لا رجالَ وأنْ لا تَجهيز. كان عليها أنْ تَحميَ الرسول وتُراقب كُلَّ داخل عليه أو خارج. ثمّ

خَطتْ نحوَ الباب خطوةً أو خطوتين ووَقفت حيثُ يُمكنها أنْ تُشاهدَ النساء وقد تَحلّقت النساء حَلقات، وأنْ تَسمعَ ما يَقلْنَ وإنْ بأصوات خافتة.

تَعثّرتْ فاطمة وهي تَخرج. أسرعت إليها صَفيّة بنتُ عبد المُطّلب تَسندُها. تقدّمت منهما أمّ سَلَمة، زوج النبيّ. احتضنتْ فاطمة كما تَحتضنُ أمٌّ ابنتَها. قَبّلت جَبينَها بحنوّ. قالت: تَعاليْ يا فاطمة. لا يَنفعُ البكاءُ ولا الحَسرةُ ولا العَويل. أخذتها إلى قُدّام بيتها الذي شهد حَياتها والنبيّ. دَخلت البيتَ وتَركت صَفيّة تَسندُ فاطمة، ثمّ عادت تحمل شيئاً كالغطاء فَرشتْه أمام البيت برفق وأجْلستْهما بودّ كبير وجَلستْ إليهما. شَكرتْ لها صَفيّة حُنوّها على فاطمة بنت مُحمّد، ابن أخيها. جاءتْ أمُّ حبيبة زَوجُ النبيّ وانْضمّت إليهنّ. وجاءتْ ميمونة زَوجُ النبيّ الأخرى وانْضمّت إليهنّ. وجاءت أسماء بنتُ عُميس، أخت ميمونة، وجلست إليهنّ. وجاءت إليهنّ نساءٌ مُهاجرات ونساءٌ من الأنصار. تشكّلتْ حَلقة أمام بيت أمّ سَلَمة.

نَظرتْ عائشة إلى الفريق الذي تَشكّلَ دون سابق إضْمار. شَعُرت بأنّ شيئاً يَحدثُ خارجاً عن نطاقها. لِمَ تَجلس ضَرّاتها إلى فاطمة؟ كانت لا تُحبُّ فاطمة. وماذا تفعل صَفيّة بنتُ عبد المُطّلب، عمّةُ الرسول؟ أوجستْ خيفةً من هذا الفريق. نظرت في بَيت حَفصة الذي كان قُبالةَ بيتها. صادفتْ حَفصة واقفة عند الباب. كانت كأنّها تَنتظرُ أمرَها وقد أوجست خيفةً مثلها. أومأت إليها خفية. فَهِمَتْ عنها حَفصة ما أومأت به. كانتا في حظيرة الزوجات حِلفاً ضدّ الزوجات. تواطأتا على كلّ شيء، وكان أمرُهما واحداً[222].

دَخلتْ حَفصة بَيتَها وخَرجتْ منه بسرعة تَحملُ شيئاً كالغطاء وقَصدتْ إلى حيثُ كانت عائشة واقفة أمام باب بيتها. فَرشت الغطاء من دون رفق على قاعة الأرض. جَلستْ على الغطاء تُديرُ ظَهرَها إلى عتَبة الباب. جَلستْ عائشة جَنبهَا تُديرُ ظَهرَها مِثلَها إلى عَتَبة الباب. سدّتا بابَ البيت حيث كان الرسول مُسجّى. أسْرعتْ إليهما سَودة وجلست. التفّت حَولهنّ النساء، من المهاجرات والأنصار، نساء كان لهنّ في المدينة شأن، قريبات من ذوي السلطان. تَشكّلتْ حَلقة بعدد أمام بَيت عائشة.

وأمام بَيت زَينب تَشكّلتْ حَلقة ثالثة. تَشكّلتْ بصورة طَبيعيّة من الزوجات اللائي كنّ يشعرن بالضّيم ويُعانين من كُره عائشة الأمرّيْن. هذه زَينب صاحبةُ البيت، وهذه جُويريّة، وهذه صَفيّة. ثمّ انْضَمّتْ إليهنّ مارية القِبطيّة بعد أنْ أوْمَأتْ إليها زَينب أن تَلتحقَ بهنّ فتَكبر بها الحلقة. وكانت مارية منذ أنْ جاء بها مابور إلى هنا جالسةً وَحدَها في رُكن مِنَ الحَوْش، لا تُكلّمُ أحداً ولا يُكلّمها أحدٌ، كأنّها لم تَكن يوماً زوجةً من أزواج الرسول وأُمَّ ابنِه إبراهيم وإنْ لَمْ يُعمّر طويلاً. كانت أمَةً ليسَ غيرُ، أو ما مَلكت اليمين، رغم ما قيل فيها من أمر العتق والتحرير. وانْضمّتْ إلى هذه الحَلَقة نساءٌ كثيراتٌ من المُهاجرات والأنصار، وكأنّهنّ شَعُرن بما سيكون لهذه الحَلَقة من شأن وقد جَمعت المُعارضات لحُكم عائشة في حَظيرة الزوجات.

كانت الزوجاتُ في الحظيرة في عهد النبيّ يَخْضَعْنَ لنظام مُحكَم وَضعهُ لَهنّ، وامتثَلْنَ له لا يَخرُجْنَ عنه. كان قد جَعلهنّ قِسْميْن حَسبَ كيفيّة تَردّده عَليهنّ، قِسماً للإيواء، فيه عائشة وحَفصة وزينب وأمّ سَلَمة، قَسَمَ لَهنّ فيه وسَوّى بينهنّ، وقسماً للإرجاء فيه سودة، قبلَ أنْ يَهجرَها، وفيه صفيّة وجُويريّة وأمُّ حَبيبة ومَيمونة، يأتي فيه مَنْ يشاء مِنهنّ متى شاء وينزلُها إذا شاء[223]. أمّا الآنَ وقد مات النبيّ فتَفرّقنَ فرقاً واجْتَمعْنَ حَلَقاتٍ وِفقَ ما اقْتَضتْهُ الحال، أو ما قَرّبَ بَينهنَّ من إلْفٍ ووِدّ ومَصالح، أو ما فرّق بينهنّ من صراع وشقاق وغيرة قاتلة.

كلّ شَيء صار الآن جاهزاً لتنطلقَ الحكاياتُ والقصص في حَلقات الذكر. ها النساءُ جميعاً في الحَوْش، خارجَ البيت حيثُ كان النبيُّ مُسجّى يَنتظرُ التجهيزَ، يَنتظرُ الدفن. ولا تَجهيزَ ولا دَفنَ. وكأنّ الناس اتّفقوا على أنّ النبيّ لا يموت كما يموت الناس وهو سيعود، بإذن الله.

انْتصبت هنا مُعسكراتُ النساء، مثلما انتصبت هناك مُعسكراتُ الرجال. صار كُلُّ شَيءٍ يُنبئُ باندلاع الحرب.

انْطلقت النساء في الحَديث، والحَديث ذو شجون. تَداخلت الشجون. تَذاكرْنَ الأخبارَ في هُدوء. ورُبَّ هُدوء هَيّأ للعاصفة الظهور.

15

أشعلتْ زَينب بنتُ جَحش شَرارةَ الحرب. كانت على أحرّ من الجمر مُنذ سَمعتْ عائشة وسَودة تَتذاكران أخبارَ القصّة بينهما في حَضرة النبيّ المُسجّى. وقد فَهِمتْ أنّ عائشة كانتْ، من خلال سَودة، تَروي قصّتها لكلّ النساء في البيت، وتُريد أنْ تُعيّرَها بها وتَعْلُوَ عليها وتَزْهُوَ أمام النساء. أرادت زَينب ساعتَها أن تَردّ على عائشة، وتَروي مثلها قصّتَها، ولكنّ الحياءَ والخوفَ مَنعاها. كانتْ في حَضرة النبيّ المُسجّى، فلم تَسمحْ لنفسها أنْ تَردّ على عائشة. وكانت في بَيت عائشة، فخافتْ عائشة. فقد تَطردُها من بَيتها، وهي المُتسلّطةُ الجَبّارة التي كانت تَحملُ النبيَّ حَملاً على أنْ يُظهرَ تَفضيلَه لها عليها. أمّا الآن فقد استوى أمرُ النساء في هذا الفضاء، والنبيّ مُسجّى هنالك داخل البيت، بَعيداً عن ضَوضاءِ أزواجه التسع والنساء، لا يَسمعُ ولا يَرى.

نَظرتْ زَينب إلى صَفيّة قالت: بالله يا أُخَيّة حَدّثينا لِمَ كان النبيُّ يَدعوك بنتَ هارون؟ لِمَ كان يُناديك الجَميلة؟ تَبسّمتْ صَفيّة تَبسّمةً طويلة. شَعُرت بالفخر. هذه أوّلُ مَرّة تُدْعى فيها لرواية قصّتها. أسعدَها ذلك. كانت تَعلمُ أنّ زينب تَطلبُ منها ذلك لغاية في نَفسها لا حُبّاً فيها. ومع ذلك شَعُرت بالسعادة والفخر. سَتسمع كلّ النساء قصّتَها، قصّةَ اليهوديّة التي تَزوّجها نَبيُّ الإسلام، ودخلت حظيرة الأزواج حُرّةً لا سَبياً. تباطأت في الكلام. قالت: رحمكَ اللهُ يا رسول الله، يا زوجي، يا نَبيّ. أجهشت بالبكاء كما تَجهشُ نساء اليَهود بالبكاء، في خفّة وشَيء كالحبور. استأنفت الكلام قالت: السلام عليك يا أبي هارون، السلام عليك يا عَمّي موسى. كذلك كان النبيّ يقول. أتذكرين يا زَينب يوم سَبّتْني عائشة وفَخرتْ عَليّ بما مَنحتْها قُريش من حَسب ونَسب؟ أتذكرين ماذا قال النبيّ يومَها؟ قال لي يُخفّفُ عنّي: «ألا قُلتِ أبي هارون وعمّي موسى[224].» شَعُرتُ يومَها بالعزّ وقد ذَكرَ رسولُ الله اليهودَ أهلي،

وذَكرَ هارون وأخاه موسى كَبيريْ النَّبِيِّينَ عند اليهود. كان النبيُّ زوجي يَعلمُ مثلي، أنّي من عائلة النبوّة الأولى التي خطّت طَريقَ التوحيد أمام النصرانية والإسلام.

خافتْ زينب أنْ تَحيدَ صَفيّة عن الطريق السويّة وتتكلّم في أهلها اليهود بما لا يُناسبُ المقام، وكُنَّ في بيت رسول الإسلام. خافت أنْ تُرمى بكونها شَريكةَ صَفيّة في التغنّي باليهود، فتُظَنَّ بها الظنون، وتُتّهم بالتطبيع. عَجّلت تَستوقفُ صَفيّة وتُغيّر وجهةَ الحديث، قالت: كُنّ قد غرنا منك يا صفيّة يوم عَرّسَ بك الرسول. ضَحكتْ صَفيّة ضحكةً قَويّة وكأنّها تَذكّرتْ شيئاً لم تتذكّره منذ مُدّة طويلة. قالت: لمّا عَرّسَ بي النبيّ وسمع بذلك نساءُ المهاجرين والأنصار دخلنَ عليّ متنكّرات، ودخل فيهنّ عَليَّ، حسب ما علمتُ من بعد، أربع من أزواج الرسول مُتنقّبات[225].

خافتْ زينب من جديد أنْ تَحيدَ صَفيّة عن الطريق السويّة وتتكلّمَ بما لا يليق فتفضحَ أمرها لدى النساء الحاضرات هنا، وقد كانت من بين الأزواج المنقّبات اللائي دخلنَ خفيةً على صفيّة يوم عَرّس بها النبيّ. استوقفت صَفيّة. غَيّرتْ وجهةَ الحديث. قالت لها: ماذا أمهركِ النبي يا صَفيّة؟ أجابت صَفيّة في الحال: أعْتَقني وجعل عتقي صداقي[226].

ثمّ استأنفتْ صَفيّة حديثَها وقد علا السرورُ وَجْهها. أصاب زينب الندم. لَيْتَها لم تطلب من صَفيّة أنْ تتكلّم. كانت صَفيّة من قبلُ لا حديثَ لها مع النساء، قليلةَ الحديث مع الأزواج. كانت تتكلّم مثلما يتكلّم اليهود، تقلب السين شيناً والشين سيناً، ولها لهجة هجينة لا فصاحةَ فيها. فكانت تخاف الحديث في النساء، والنساء من المهاجرات والأنصار كُنّ يَهْزَأْنَ من اليهود والموالي والعبيد عندما يتكلّمُ اليهودُ والموالي والعبيد. كانت زَينب تُريدُ أنْ تَستعملَ صَفيّة تِعلّةً للحديث عن نفسها. كانت تظنُّ أنّ صَفيّة ستسألها عن أمرها فتنطلق بالحديث بما يُثيرُ ثائرةَ عائشة التي كانت تتظاهر بالاهتمام بحلقتها وتُراقب كلّ حلقة وتُرهف السمع وتسترق الأخبار. ولكنّ صَفيّة خيّبت ظنّها واستغلّت الفرصة لتُفرغ جرابها مِمّا كان في جرابها من حديث مكبوت. كأنّ صَفيّة أصابها الآن عِتقٌ وتحرّرت فيها المَقالة. استأنفتْ حديثَها قالت: سأذكرُ لك يا زينب، يا أُختيّة، ما كان من أمري وأمر الرسول. كنتُ

بنتَ سبعة عشرَ من السنين لمّا غزا رسول الله خَيبر، وغَنّمَه اللهُ أموالَنا، وسَبى نساءنا. وكنتُ في السبي، فاصطفاني، وعَرضَ عَليَّ أنْ يَعتقني إنْ اخترتُ الله ورسولَه. فاخترتُ اللهَ واخترتُ رسولَه. وتزوّجني. كُنتُ وقعتُ في عينيْه يا زينب، يا أختيّة. كُنتُ جميلةً كما تعلمين. كنتُ آيةً في الجمال يا زينب، يا أُخيّة.

لم تَعدْ زَينب تتحمّل أكثرَ مِمّا تَحمّلت. أشارتْ إلى صَفيّة بيدها أنْ تَسكتَ. ولكنّ نساءً من المهاجرات والأنصار طَلبنَ منها بإلحاح أنْ تُواصل الكلام. فواصلت الكلام. شعُرت بالفوز العظيم. كانت يَهوديّة في الحظيرة، لم تَعرفْ التبجيل ولم تَحظَ بالاحترام. كانت عند أزواج النبي مُجرّد سَبي ليس غيرُ. عَرفت الإهانةَ مَرّات فدخلتْ في صَمتٍ رهيب.

شَعُرتْ صَفيّة الآن بالفوز. تَحرّرتْ فيها المَقالة. لم تَعدْ تَخاف. استأنفتْ كلامَها، قالت: كُنتُ أعلمُ بفضل ما رأيتُ مِنْ رُؤيا أنّي سأتزوّج نَبيَّ الإسلام رغم أنّي يَهوديّة. كان لا مَفرَّ له من حُكم الله المُسطّر، ولا مَفرَّ لي مِنهُ. لمّا كنتُ عند أهلي في خيبر، تحت كنانة بَعلي، رأيتُ فيما يرى النائم، يا زينبُ، يا أختاه، «رَأيتُ في المنام قَمراً أقبل عَليَّ من يَثرب حتى وَقعَ في حِجري، فذكرتُ ذلك لزوجي كنانة، فقال: تُحبّينَ أنْ تكوني تَحتَ هذا الملك الذي يأتي من المدينة؟ فضَربَ وَجْهي[227].» وقد رَويتُ للنبيّ القصّة لمّا رأى بوجْهي أثَرَ خُضرة، قَريباً من عيْني، وسألني أمْري[228]. كان النبيُّ لا يَفوتُه شيءٌ، وأنتِ لأدرى بذلك وأعلم، يا زينب.

اغتنمتْ زَينب الفُرصة. قَطعت الحَبلَ على صَفيّة التي كانت تشربُ ريقَها لتستأنفَ كلامَها. قالتْ: نعم يا صَفيّة، كان زوجُنا النبيّ لا يَفوتُه شيءٌ. وأجْهشتْ بالبكاء. وبَكتْ من حولها النساء. صاحت وصِحنَ: لِمَنْ تَركتَنا يا مُحمّد، يا زَوجَنا، يا نبيّ؟ ثمّ خَيّم الصّمت. لَمْ تَجرُؤ صَفيّة وتستأنف الكلام. كانت زينب تعلمُ ذلك عِلمَ اليقين، وقد تهَيّأتْ للأمر واستعدّتْ لتَرويَ قصّتَها الجميلة.

حَمَدَت اللهَ وأثنتْ عليه بما هو أهله واستغفرتْ الله لها ولأمّة محمّد، كعادة زَينب إذا أرادت أنْ تَتكلّمَ. كانت امرأةً صالحةً صَوّامةً قَوّامة[229]. استأنفت

الكلام، وأعادت ما قالتْ مُنذُ حين، بصوت أرفع وأوْضح حتّى تسمعَها النساء مِنْ غير اللائي انضممنَ إلى حلقتها: نعم يا صَفيّة، كان زوجُنا النبيّ لا يَفوتُه شيء. لَمْ يَفُتْهُ منّي شيءٌ لمّا جاء بَيْتَنا يَطلبُ زيدَ بنَ حارثة، وكنتُ يومَها تحت زَيد. سَمعتُه يَسأل: أينَ زيد؟ قُمتُ إلى الباب أجري. نسيتُ أمري. خَرجتُ إليه فُضُلاً، لا شيءَ عليّ غير ثوب خَفيف كان لي وشاحاً. «وثبتُ عجلى فأعجبتُ رسول الله، فولّى وهو يُهمهمُ بشيء لا يَكادُ يُفهَمُ منه إلاّ سُبحانَ الله العظيم! سُبحانَ مُصرف القلوب![230]»

وَقعتُ في نَفسه يا صَفيّة. لم يَفُتْهُ منّي شيء. كُنتُ خَرجتُ إليه، كما قلتُ، وعَليّ وشاحٌ خَفيفٌ لا يكاد يَسترُ. ولمّا جاء زيد أخبرتُه «أنّ رسول الله جاءَ منزلَه. فقال زيد: ألا قُلتِ له أنْ يَدخل؟ قُلتُ: قد عرضتُ عليه ذلك فأبى. قال: فسَمعتِ شيئاً؟ قلتُ: سَمعتُه حين وَلّى تكلّم بكلام ولا أفهمه، وسَمعتُه يقول: سُبحانَ الله العظيم! سُبحانَ مُصرف القلوب! فجاء زيد حتّى أتى رسول الله فقال: يا رسول الله بلغني أنّك جئتَ منزلي فهلاّ دَخلتَ؟ بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله لَعلّ زَينبَ أعجبتك فأفارقُها[231].»

كان زَيد بنُ حارثة، كما تعلمين يا صَفيّة، مَولى النبيّ وحِبّه كما كان يحلو له أن يسمّيه[232]. وكان يُنسبُ إلى النبيّ نسبة البُنوّة ويقولون فيه زَيد بنَ مُحمّد إذا سمّوه[233]. كان أعلمَ الناس بالنبيّ. وكان يَفْهمُ عَن النبيّ ما يُريدُ النبيّ، صَرّحَ بذلك أو لمْ يُصرّح. وقد فَهمَ زيدٌ عَنّي قولي بسُرعة عَجيبة لمّا أخبرتُه بما وَقَعَ بَيني وبَينَ النبيّ. فَهمَ أنّي أعجبتُ النبيَّ ووَقعتُ في عَينه، فَراحَ يَعرضُني عليه. كان يَأتيه ويَقول: «يا رسول الله لعلّ زَينبَ أعجبتك فأفارقها. فيقول رَسولُ الله: أمْسِكْ عَليكَ زوجَكَ. فيقول: يا رَسولَ الله أفارقُها. فيقول رَسولُ الله: احْبسْ عَليكَ زَوجَكَ[234].» وكان الفُتورُ قد أصابَ زيداً مُنذ ذلك اليوم ولم يَعرف إليّ سَبيلاً فهَجرني في الفراش واعتزلني اعتزالاً. ثمّ وَقعت المُعجزة يا صَفيّة. نَزل فيَّ القرآنُ الكريمُ يا صَفيّة، وأرسل إليّ رَسولُ الله يُبشّرني بأنّ الله زوّجنيه[235]. سَجدتُ يومئذ لله إجلالاً، وصُمتُ له شَهرين، وطَلّقني زيد بنُ حارثة. يا فرحتاه! يا فرحتاه!

بلعت زينب ريقها، وأدارت لسانها في فمها ومسحت به على شفتيْها لذّةً ونشوة، وشربت الهواء حتى امتلأ صدرها ثمّ نفثت الهواء نفساً مسموعاً راحةً

وذكرى، واستأنفت الكلام: لمّا انقضتْ عدّتي أرسلَ إليّ رسولُ الله يَخطبني على نَفسي. أوَتَعرفين يا صفيّة يا أُخيّة، مَنْ أرسلَ إليّ يَخطبني؟ أرسل إليّ زَيد ابنَ حارثة، زوجي السابق. نَعم، أرسلَ إليّ زيداً، لأنّ زَيداً كان آمَنَ الناس عندَه وأوثقَهم في نفسه. وكان زَيدٌ كذلك، ثِقةً وأمانة. لم يستطع أنْ يَنظرَ إليّ لمّا جاء يَخطبني للنبيّ. عَظمتُ في صَدره وقد ذَكرني النبيّ. وَلاّني ظهره ونكصَ على عَقبيْه، وقال كالمُبتهل: يا زينب، ابشري، إنّ رسولَ الله يَذكرك[236]. كانَ زيدٌ، يا نِساء، نَسيجَ وحده في الرجال. يا لكَ من رجلٍ يا زَيد!

ودَخلَ بي النبيُّ. ودخلتُ في حَظيرة الزوجات. كُنتُ في الحَظيرة مُدلّلَةً مُبجّلة. وكان بَيني وبَينَ النبيّ فَكَهٌ جَميل. كنتُ أقول له: «يا رَسولَ الله، إنّي والله ما أنا كأحدٍ من نسائكَ، ليست امرأةٌ من نسائكَ إلاّ زوّجَها أبوها أو أخوها وأهلُها غيري، زَوّجَنيكَ اللهُ من السماء [...] إنّهنّ زُوّجْنَ بالمُهور، وزَوّجَهنّ الأولياء، وزَوّجَني اللهُ رَسولَه، وأنزلَ فيّ الكتابَ يَقرأُ به المسلمون لا يُبدَّلُ ولا يُغيَّرُ[237].» كان ذلك فَخراً لي ولأهلي. كان ذلك فَخراً لبني أسد كلّها[238]. ولَمّا تَقوّلَ في هذا الزواج المُتقوّلون، وطَعنَ فيه المُنافقون بما لا يَعرفون، وتذاكروا سرّاً وعَلناً أنّ مُحمّداً تزوّج امرأة ابنه الذي ربّاه وتبنّاه، قام القرآنُ لي وله سنداً، وبيّن للملإ أنّ مُحمّداً ما كان أباً لأحد[239].

استقامت زَينب في جَلستها. مَدّتْ يَدها إلى غطاء أبيضَ كان إلى جَنبها. وضَعتْه على رأسها سترةً وحجاباً. رَفعتْ صوتَها بالتلاوة، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[240]﴾ صدق الله العظيم.

توقّف صَوتُها الجَميلُ بالترتيل. قالت النساءُ من حَولها: آمين. ارتفعت أصواتُ النساء تُردّدُ: آمين. آمين. آمين. كان صَوتُ زَينب قد سَرى فيهنّ نَغماً ساحراً. كانت زَينب جَمالاً ساطعاً. شَعُرنَ، إلاّ مَنْ كانت غَيوراً حاسدة، أنّ مُحمّداً كان عَاشقاً، وكانت زَينب عاشقة، فروى القرآنُ قصّةَ العشق يَملأُ الأرضَ حُبّاً، وشَرّعَ اللهُ للأمر. شَعُرنَ أنّ القرآنَ تَكلّم في النساء بشَغف. شَعُرنَ بالفَخر. طَلبنَ من زَينب أنْ لا تتوقّف وتَتلو عليهنّ أحسنَ القصص. خَيّمَ الصمتُ من جديد. ارتفع صَوتُ زَينب في النساء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۞ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ[241]﴾

انطلقتْ أصواتُ النساء اللائي كان مَعهنّ شَيءٌ من القرآن في ترديد ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وامتزج فيهنّ الخُشوعُ بالغِبطةِ والسُّرورِ بفَضلِ القرآنِ السَّمح، وانتظرن أنْ تَبلُغَ زَينب ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ[242]﴾ وانتظرنَ أنْ تَبلغَ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا[243]﴾

لا شيءَ هنا غَيرُ صَوت زَينب الجميل. لا شيءَ غَيرُ التلاوة والترتيل وترديد آمين.

16

فَعلَ الغَضبُ في عائشة فِعلَه الشنيع. احتَدمتْ غَيظاً على زَينب وصَفيّة، ولكنّها لم تَستطع إليهما سَبيلاً وقد عَجّلت النساء بآمين وأعدنَ بعد زينب ما تيسّر من القرآن ترتيلاً. تَعطّلَ كُلُّ شَيء وهي تَسمعُ القُرآن. احْترمت القُرآن الكريم. ومَنْ لا يَحترم القرآن الكريم؟ احترمت النبيَّ المُسجّى هنالك في بَيتها. ومَنْ لا يَحترِم النبيَّ المُسجّى؟ كَظمتْ غَيظَها على مَضَض. سَكتتْ وصوتُ زَينب يَملأُ الفضاء. أسندتْ ظَهرَها إلى ظَهر حَفصة التي كانت مثلها لا تُحبُّ زَينب ولا تُحبُّ صَفيّة. ومَرّت بخاطرها الأحداث.

تَساءلتْ عائشة: لِمَ اكتفى النبيُّ بخَديجة زوجةً في حياة خَديجة ثمّ أصبحَ بَعدَها مِزواجاً؟ حتى هي، عائشة البكر المدلّلة التي تَزوّجها مُباشرةً بعدَ خديجة، لم يكتف بها وسعى إلى غيرها من أمثال هؤلاء الرهط زينب وصفيّة؟ تساءلت عائشة: ماذا فَعلتْ له خَديجة فلم يتّخذ مَعها غَيرَها؟ أكان شَعُرَ معها بالاكتفاء، فاكتفى بها، ولم يَطلبْ غَيرَها؟ تَساءلتْ، إنْ كانت هي لم تُوفّرْ له ما به يكون الاكتفاء؟ أهو صِغر سِنّها مَنعها مِنْ أنْ تَعرفَ كيف تكونُ الأمور ولم تَهتد إلى أن تُوفّرَ له ما به يكون الاكتفاء؟ كانت طفلةً تلعب بالدمى لمّا دخل بها، وكانت بكرا، وكان أبا عُذرها[244]، فلا نفعتها الطفولةُ ولا الدُّمى ولا العُذرة التي صار مُحمّدٌ أباً لها. وكانت بنتَ صَديقه الذي اتّخذه خليلاً مُفضّلاً، فلا نَفعت الصداقةُ ولا نَفعَ الخَليلُ المُفضّل. تَزوّجَ عليها النساء، وتَزوّج، وتَزوّج، وها هنّ الآنَ أمامها، أرامل مثلها، فلِمَ اتّخذَ هذا العَددَ من النساء؟

تَساءلتْ إنْ لم تَكن الجاهليّةُ تَمنعُ تَعدّدَ الزوجات فاتّخذ محمّد زوجة واحدة. تساءلت إنْ لم يكن الإسلامُ قد شقّ الطريق إلى التعدُّد حتّى يُقبلَ الناسُ على الإسلام. ضَحكتْ بينها وبين نفسها وهي تبلغ هذا الحدّ من

تَفكيرها. استدركتْ وقالتْ: حَتّى يُقبلَ الرجالُ على الإسلام. فالرجال يُحبّون الانتقالَ من حضن إلى حضنٍ، ومن فَرج إلى فَرج، كما تُحبُّ الطيرُ الانتقالَ من غُصن إلى غُصن، والنحلُ الانتقالَ من زهرة إلى زهرة.

أعجبتها هذه الفكرة. كانت بنتَ الإسلام وحدَه ولم تعرف من الجاهلية شيئاً يُذكَر. تَربّت على الإسلام في بيت أبي بكر ثمّ انتقلت إلى بيت النبيّ، وكان بيتَ الإسلام عن جدارة. كانت تجهلُ ما الجاهلية؟ كانت لا تَعرفها إلاّ من خلال ما رواه المسلمون، والمسلمون لا يُكنّون للجاهلية حُبّاً كبيراً.

أعجبتها الفكرة. أنْ تكونَ الجاهليّةُ تَمنعُ تَعدّدَ الزوجات فاتّخذ الإسلامُ التعدُّدَ نَمطاً حتى يختلف عن الجاهلية ويُقبل عليه الرجال ويتمتعوا جزاءً لهم على الدخول فيه والذود عنه.

أعجبتها الفكرة. فهذه الفكرة تَرفعُ عنها النَقصَ ولا تَجعلها تَتّهمُ نَفسَها بالتقصير في حقّ مُحمّد زوجها وبعدم قُدرتها على أنْ تُوفّرَ له ما به يكون الاكتفاء.

أعجبتها الفكرة. فهذه الفكرة لا تَرفعُ عليْها خديجة ولا تُبوّئها في النكاح طَبقةً أرفع.

تَذكّرتْ بسرور شَديد ما كان يَدورُ بينها وبين مُحمّد من حوار في بعض الأحيان. تذكّرت يَومَ قالت له: «أرأيتَ لو نَزلتَ وادياً وفيه شَجرةٌ قد أُكلَ منها، ووجدتَ شَجرةً لم يُؤكلْ منها، في أيّها كنتَ تَرتعُ بَعيرَك؟ فقال: في التي لم يُرتَعْ منها[245].» كانت تُريدُ بالمثل الذي ساقته أنّها البكرُ الوحيدةُ التي تَزوّجها. وفَهمَ عليها النبيّ ما أرادتْ بالمثل، وأجابها في الحين بما كانت تُحبُّ أنْ تَسمع. وفَهمتْ أنّه يُفضّلُ البكرَ على الثيّب. هل كان كذلك فعلاً؟ تساءلتْ إنْ لَمْ يَكنْ قال ذلك مُجاملةً ووداً ليس غيرُ.

تَذكّرتْ كيف كان زَوجُها النبيّ يَذكرُ خَديجة. كانت تَغارُ من خَديجة ولم تَعرفْ خَديجة أبداً. الآنَ وهي تَذكرُ ذلك قالتْ في نَفسها: «ما غرتُ على أحد من أزواج النبيّ ما غرتُ على خَديجة، وما بي أنْ أكونَ أدركتُها، وما ذاك إلاّ لكثرة ذكر رسول الله لها. كان لا يكادُ يَخرجُ من البيت حتّى يَذكرَ خَديجة، فيُحسن الثناءَ عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلتُ: هل

كانتْ إلاّ عَجوزاً، فقد أبدلك الله خيراً منها! فغضب حتّى اهتزَّ مُقَدّمُ شَعره من الغضب، ثمّ قال: والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنتْ إذْ كَفرَ الناس، وصَدّقتني وكذّبني الناس، وواسَتْني في مالها إذْ حَرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذْ حَرمني أولادَ النساء. فقلتُ في نَفسي: لا أذكرُها بسيّئة أبداً[246].»

ولكنّ عائشة لم تَستطعْ أنْ لا تَعرضَ إلى خَديجة بسيئة. كان النبيُّ «يُكثرُ من ذكرها، وإذا ذكرها أطنب في الثناء عليها [...] وإذا ذبح الشاة يَقطعُها أعضاء ثمّ يبعثها في صَدائق خديجة[247].» فكانت تَرمي خَديجة بشتّى التهم، تُريده أنْ ينسى خَديجة، ولكنّه لا ينساها أبداً، ويَستشيط في الدفاع عنها. تَذكّرت كيف أعادتْ عليه يوماً مَقالتها التي فيها: «كأنّه لم يكن في الدنيا امرأةٌ إلاّ خديجة، ما أكثر ما تَذكرها حمراء الشدقيْن، هلكت في الدهر الأوّل، أبدلك الله خيراً منها، فتغيّر وجه رسول الله تَغيّراً لم أره تَغيّرَ عند شيء قطّ إلاّ عند نزول الوحي، وقال: ما أبدلني الله خيراً منها، وقد آمنتْ بي إذ كفر بي الناس، وصَدّقتني إذ كذّبتني، وآستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدَها إذ حَرمني أولاد النساء[248].»

بَكتْ وهي تَستذكرُ هذا. لِمَ حَرمَها اللهُ الولد؟ أكانت عاقراً؟ بَكتْ حَظّها العاقر. ولكنّها سُرعانَ ما اهتدتْ إلى أنّ الله حَرمَ الزوجاتِ جميعاً من غير خَديجة الولد؟ أكُنَّ جميعاً عَواقرَ وكانت خَديجة وحدَها هي المُنجب؟ استدركتْ، قالتْ: لا، ما كُنَّ عَواقر. لقد أنجبنَ عند أزواجهنّ قبل مُحمّد الولد. فلِمَ حَرمهنَّ اللهُ مع مُحمّد الولد، فحَرمَ بذلك مُحمّداً الولدَ من غير خَديجة؟ تَساءلتْ عن الحكمة من وراء ذلك. فالله لا يُعالجُ الأمورَ كما تَأتي، بل بحكمة.

خَطرَ ببالها خاطرٌ أبعدته عن بالها. ثمّ عاد يُشوّشُ عليها بالَها. أغمضتْ عَينيْها تَدفُنُه فيها حتى لا يَخرج. أسرّتْ إلى نَفسها: لعلّ مُحمّداً كان هو العاقر. ولكنّها سُرعان ما استدركتْ وقالت: لو كان عاقراً لَما أنجبَ مع خَديجة الولد. ثّم اهتدتْ بينها وبيْنَ نَفسها إلى حَلّ. قالت: لعلّه صار عاقراً بَعدَ خَديجة. استغفرت الله بصوت عال فالتفتَتْ إليها حَفصة. عَضّتْ على شفتيْها حَياءً وأغمضتْ عَينيْها من جديد حتى رَجعتْ حَفصة إلى جلستها الأولى. عادت إلى التفكير والتخمين. نَفتْ أنْ يكون مُحمّدٌ عاقراً. ألم تُنجبْ

له مارية القبطية، تلك السرّية، إبراهيم، وكان ذلك بعد خَديجة؟ نَفتْ نَفياً قاطعاً أنْ يكونَ مُحمّدٌ عاقراً.

خَطرَ ببالها خاطرٌ آخر: ولكنّ إبراهيمَ مات في المهد صبيّاً، فحُرمَ مُحمّدٌ الولدَ من غير خَديجة. تَساءلت عن الحكمة من وراء ذلك. ولمْ يَبدُ لها من تلك الحكمة شيء. أوكلتْ إلى الله الأمر، فسُبحانَه بيده الحساب والعقاب! شَدّت على يد سَودة جنبَها شَدّةً قَويّةً فَزعتْ لها سَودة. كانت سَودة تُحبُّ عائشة حُبّاً جَمّاً فشَدّتْ على يَدها بحُنوّ وعَطف، وقبّلتْ رأسَها. سَرى فيها شيءٌ من هُدوء سَودة. واصلتْ التفكير.

خَطرَ ببالها خاطرٌ أضحكها. شَدّتْ سودة على يَدها شدّاً قويّاً تُنبّهها إلى الظرف الخاشع. لم تنتبه إلى سودة. نَسيت الظرف الخاشع. تذكّرت الفَكَهَ الذي كان يجمع بينها وبين محمّد زوجها في كلّ آن وحين. تذكّرت يوم قال لها، وقد أُتيَ بإبراهيم وهو في بيتها: «انظري إلى شبهه، فقالت: ما أرى شبهاً. فقال: ألا تَريْن إلى بياضه وإلى لحمه؟ فقالت: مَن قصرت عليه اللقاحُ وسُقي ألبانَ الضأن سمن وابيضّ[249].» قالت في نفسها: أظنّني قد أوجعته يومئذ. يا لي من غبيّة! ثمّ استدركت: ماذا كان لي أنْ أفعل في ظلّ الغيرة وانحباس الولد عنّي؟ لعن الله الغيرة! والله، «ما غرتُ على امرأة غيرتي على مارية، وذلك لأنّها كانت جميلة، جعدة الشعر، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معجباً بها، ورُزق منها الولد وحُرمناه[250].»

شعُرت بالندم وهي تصل إلى هذا الحدّ، ولكنّ خاطراً آخرَ خَطرَ ببالها: لِمَ مات إبراهيمُ ابنُ مُحمّد من مارية؟ ألِكونها سَريّة أو أمَة فلا يَصلُحُ ابنُها أنْ يَكونَ وريثَ مُحمّد؟ استغفرتْ اللهَ كثيراً. حاولت أنْ تَقطعَ هذا السيل العَرمَ من الأفكار التي ألمّتْ بها من حيثُ لا تَعلم. ولكنّها تَذكّرتْ أنّ ولَدَ خَديجة الذكور، القاسم وعبد الله الطاهر، والطيّب ماتوا جميعاً في المَهد[251] ولم تُخلّفْ خَديجة للنبيّ إلاّ الإناث. آمنت وهي تَصلُ إلى هذا المستوى من التفكير أنّ وَراءَ ذلك حكمة. لَمْ تَستطع أنْ تَتبيّن تلك الحكمة بوضوح، ولكنْ تَأكّدَ لها أنّ الأمورَ جَميعاً كانت تَسيرُ وكأنّها تُريدُ أنْ تَحرمَ مُحمّداً الوريث. لا ذَكرَ يَخلفُهُ. لا ذَكرَ يَرثُهُ. والآنَ وقد مات مُحمّد ولا عيالَ له، لا أحدَ يَستطيعُ أنْ يقولَ إنّي وريثُ مُحمّد الشرعيّ. فَهمت المغزى العميق في الآية ﴿إنّ

شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ[252]﴾ وقد حُدّثتْ أنّ الناس كانوا يقولون إنّ مُحمّداً لم يُخلّف الذَّكَر فكان الأبتر الذي لا عَقبَ له وسيندثرُ ذكرُه بموته. كانوا يُعيّرونه بذلك، وكان يَحزن لذلك حُزناً شديداً. فانتقمتْ له منهم الآية إذْ جَعلتْ كلّ شانئ منهم هو الأبتر، ونفتْ أنْ يكون هو كذلك.

شَكرت الله شُكراً جزيلاً على هذه الآية الكريمة التي أنزلها لتكونَ سَنداً لمُحمّد في حياته الدنيا، وأخذتْ على نَفسها عَهداً أنّ تَتجنّدَ لتُبيّن للناس، بفضل قُربها من مُحمّد وبفضل ما أوتيتْ من علم، أنّ مُحمّداً ليس الأبتر وقد مات. لقد خلّف في الناس وريثاً شرعيّاً. خَلّفَ أباها الصدّيق.

نَسيَتْ حالَها. نَسيَتْ حِقدَها على زَينب وصَفيّة. نَسيَتْ النّواحَ والعويلَ والبكاء. نَسيَتْ كُلّ شيء إلاّ أنْ تَنهضَ بالرسالة التي شَعُرتْ الآن أنّها مُكلّفةٌ بها. نَظرتْ في وجوه النساء. تَصبّبَ العرقُ منها. شَعُرتْ بقوّة خارقة تَدفعُها. كأنّ وَحياً نَزل عليها من السماء. أخذتْ عَهداً على نَفسها: سَتلعبُ الآنَ دورَها. صارت اللّعبةُ لُعبةَ مُلوك لا نساء. سَتلعبُ في اللّعبة دَورَها. لم يَعدْ يَهمُّها أمرُ النساء في الحَوْش. لمْ تَعدْ تَهمُّها حكاياتُهنّ التي كانت حكايات نساء. لم يَعدْ يَهمُّها الترتيلُ ولا العويلُ ولا البكاء. فلتتذاكر النساء أخبارَهنّ الماضية، ولتُرتّلنَ ما شئنَ من الآيات إنْ كانت مَعهنّ آياتٌ. أمّا هيَ فسَتنهضُ من هنا فصاعدا بمُهِمّة أخرى. نَهضتْ واقفةً بعد أنْ كانتْ جالسة يَسنُدُ ظَهرُ حَفصة ظَهرَها وسَودة إلى جَنبها تَشدُّ على يَدها وتُلاصقُ رجلُها رجلَها.

17

أوجَستْ فاطمة خيفةً من عائشة. رَأتْها وَقَفتْ وقفةً حازمة تَنظرُ في وجوه النساء في الحَوْش الفَسيح. ارتَعدتْ. كانتْ فاطمة مُرهفَةَ الحسّ مثل مُحمّد. كانتْ بنتَ أبيها. كانتْ تَشعُر بوقوع الشيء والشيءُ لَمّا يَقعْ. جَفَّ الدمعُ في مُقلتيْها. نَسيَتْ حُزْنَها والبُكاء. تَسمّرتْ في جلستها تنتظرُ ماذا ستَفعل عائشة، لا تُفارقُها ببصرها. استَعدّتْ للمُلاكَمة. ولكنّ فاطمة لم تكن قطّ ملاكِمة!

مَرّ بها شَريطُ الأحداث في بعض ثانية. ماتتْ خَديجة أمُّها وكانت حصناً مَنيعاً تَصدُّ على مُحمّد الأعداء. تاهَ أبوها بين النساء بعد موت خَديجة ولم يجد فيهنّ ما وجد فيها. مات إخوتُها جميعاً. مات القاسم، ومات عبد الله الطاهر، ومات الطيّب. ماتوا جميعاً في المَهد. ولا إخوةَ لها الآن للذَوْد عنها. وماتتْ أخواتُها كذلك. ماتتْ زَينب، وماتتْ رُقيّة، وماتتْ أمُّ كلثوم. لا أحدَ يَبكي مَعها اليومَ أباها. شَعُرتْ بالوحدة. قالت في نَفسها: لِمَنْ تَركتَني يا أبتاه؟ لو كانت خَديجة هُنا لكانت لها سَنداً في مُصيبتها ولعوّضتها في ما فَقدتْ: الإخوة والأخوات والأب. فخَديجة لم تكن امرأةً ككلّ النساء. كانت امرأةً كألف امرأة، ورَجُلاً بين الرجال، تَحمي مُحمّداً وتَذودُ عن الأبناء ولا يَقتربُ مُقتربُ سُوء من تجارتها. قالت في شيء كالحشرجة: رَحمَ الله خَديجة. سَمعتْها النساءُ من حولها، في حَلقة أمّ سَلمة. قالتْ أمُّ سَلمة: رَحمَ الله خَديجة، كانتْ سَيّدةَ النساء. أعادتْ نساءُ الحَلقة: رَحمَ الله خَديجة، كانتْ سَيّدةَ النساء. وانتَظرْنَ البقيّة من عند فاطمة أو حتّى من عند أمّ سَلمة، وهُنَّ لا يَدرينَ لِمَ الترحّمُ على خَديجة التي هَلكتْ في الدهر الأوّل، كما كانت تَقول عائشة[253]، والمُسجّى الآن مُحمّدٌ لا خَديجة.

تَلهّتْ فاطمة بنساء الحَلقة. تَنحّى بَصرُها عن عائشة. أفلتتْ منها عائشة. سَألتها بَعضُ النساء عنْ خَديجة كَيفَ تَزوّجتْ مُحمّداً؟ هَمْهَمَتْ فاطمة.

لمْ تَكنْ تُحسنُ القَصَّ. كانت كثيرةَ الصمت في كلّ فضاء، حتى في بيتها مع النساء، وفي بيت أبيها حيثُ حَظيرةُ النساء. هَمْهَمَتْ ثمّ صَمتتْ. لَيتَها لَمْ تَجلب اهتمام النساء وظلّت تَستعرضُ في ذاتها أخبارَها. أنْجدتْها صَفيّة بنتُ عبد المُطّلب، عَمّةُ أبيها، قالت: رَحمَ اللهُ خَديجة. كانت تُدعى في الجاهليّة الطاهرة ويُقال لها سيّدة قُريش[254]. كانت «امرأة حازمة جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريشاً نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكلّ قومها كان حريصاً على نكاحكها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال[255]» ولكنّها حَنتْ على ابن أخي وحدَه، حنت عليه حُنوّ الأمّ والزوجة. هداه اللهُ إليها فأوتْه. أخرجتْه في تجارتها وكان الفتيانُ يَتسابقون إلى خَديجة للخروج في تجارتها. خَطبتْه عَليْها وكان الرجالُ يتوافدون إليها يَرغبونَ جميعاً في الزواج منها[256]. «وقد خطبها أكابر قريش وبذلوا الأموال لذلك ومنهم عقبة بن أبي معيط والصلت بن أبي يهاب وأبو جهل وأبو سُفيان، فرفضتهم كاملاً[257].» نعم، أبو سُفيان بنُ حَرب كما تَعلمين يا أمّ سَلَمة، قد سعى إليها وأرادها على نفسها وخطبها عَليه. ولم تَرضَ به يا أمَّ سَلَمة. ولا رَضيتْ بغيره يا أمَّ سَلَمة. «لم يبق من أشراف قريش ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم إلاّ مَن خطب خديجة ورام تزويجها، فامتنعت على جميعهم من ذلك[258].» بل إنّ ملوك اليمن وأشراف الطائف خطبوها ولم يفوزوا بشيء. كانت قد اختارتْ مُحمّداً ابنَ أخي زوجاً. ولم تعبأ بشيء. «غضبت عليها نساء قريش وهجرنها، وقلن لها: خطبك أشراف قريش وأمراؤهم فلم تتزوّجي أحداً منهم، وتزوّجت محمّداً، يتيم أبي طالب، فقيراً لا مال له[259].» لم تهتمّ بذلك أبداً. كانت تَعرفُ لها ما يَصلحُ لها. كانت سَيّدةَ نَفسها.

كانت صَفيّة بنتُ عبد المُطّلب تُحبُّ خَديجة حَيّةً ومَيتة. أجْهشتْ بالبكاء وتَوقّفتْ عن الكلام في خَديجة. سَكتتْ. نَظرتْ إليْها النساء. كُنّ يَتشوّقْنَ إلى سَماع قصّة الزواج العجيبة. نَظرتْ إليها فاطمة ثُمّ أخذتْ يَدَها وقبّلتْ ظَهرَها. تكلّمتْ أمّ سَلَمة قالت: كانتْ خَديجة امرأةً فاضلة يا صَفيّة، وكان رَسولُ الله يَذكرُها بكلّ خير ويقول فيها: كانتْ سَيّدةَ نَفسها، تَحنُو على أطفالها حُنوَّ الدجاجة، وتَحنو على زَوجها. وكان يَروي لنا قُدرَتها الفائقة على الفوز بالأمر

إذا ما شاءتْ ذلك الأمر، كَلّفَها ذلك ما كَلّفها. وقد روى لنا أنّها لَمْ تَتورّعْ في أنْ تَسقيَ أباها خَمراً حتّى يُزوّجَها مُحمّداً. اشرأبّت الأعناقُ إلى أمّ سَلَمة تَنتظرُ قصّة الزواج، زَواج خَديجة بمُحمّد. أصابَ الحَياءُ وَجهَ فاطمة. قالتْ أمّ سَلَمة: حَضَرْتِ ذاكَ الزّواج يا صَفيّة؟ كُنتِ عَمّةَ الرسول، وكان الرسول يَسْتَفْتيكِ في النساء ولا يَخرجُ إلى امرأة إلاّ إذا صَحبتِه إليها وإلى أهلها. رُفعَ عن صَفيّة حُزنُها والبُكاء. شَدّتْ على يَدِ فاطمة التي كانتْ تَشدُّ على يَدها. قالت بفَخر: نعم كُنتُ حاضرة يا أمّ سَلمة.

ساد الصّمتُ الفضاء وقد تَوقّفتْ زَينب بنتُ جَحْش عن الترتيل، وتَوقّفت النساءُ من حَولها عن إعادة آمين وصَدق الله العظيم. ازداد شوقُ النساء إلى الاستماع إلى القصّة العَجَب التي كانت تَنتظرها كُلّ امرأة في حَلقة أمّ سَلَمة وحتي في حَلقة زَينب وقد توقّفَ فيها الترتيلُ والجَهرُ بآمين. كان القَصُّ يَشْحَذُ خَيالَ كلّ امرأة من النساء في كُلّ حَلقة. وكان القَصُّ في خَديجة تَرتاحُ له فاطمة. كانتْ تُحبُّ قصّةَ أمّها وما اتّخذتْ من حيلة للفوز بأبيها. كانت فاطمة تُحبُّ القَصَص. استأنفتْ أمُّ سلمة الكلام تَطلبُ من صَفيّة بنتِ عبد المُطّلب قَصَّ ما كان من أخبار ذات صلة بالموضوع. اعتذرتْ صَفيّة لأمّ سَلَمة والنساء. قالتْ: أنتِ يا أمّ سَلَمة خَيرُ راوية بالصِّدْق لِما كان، أنتِ خَيرُ ناقلة بالصِّدْق لِما روى لَكُنّ الرسول.

سَرى هذا الكلامُ في أمّ سَلمة سَرياناً جميلاً. سَرى الدفْءُ فيها وامتلأتْ حبوراً. كانت تُحبُّ النفخَ في كوزها فانطلقتْ تَروي القصّة. قالتْ: كان الرسولُ يَروي في خَديجة أجمل القصص. كان يُثني عليها أحْسنَ الثناء. وكان الناسُ في مَكّة لا يَذكرونها إلاّ بألف خَير، ويَذكرون بإعجاب حيلَتَها في الفوز بمحمّد لَمّا مانع أبوها تَزويجَها مِنْهُ. وقد روتْ لي نَفيسة بنتُ أُميّة، المعروفة بنَفيسة بنتِ مُنْيَة، أختُ يَعلى «وهي التي مَشتْ بين خَديجة والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى تَزوّجَها[260]» أنّ خَديجة «دَعتْ أباها فسَقتْه خَمراً حتى ثَمِلَ ونَحرتْ بَقرةً وخلّقتْه بخلوق وألبسَتْه حُلّةً حِبَرَة ثمّ أرسلتْ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في عُمومَته فدخلوا عليه فزوّجه، فلمّا صحا قال: ما هذا العَقيرُ وما هذا العَبيرُ وما هذا الحَبير؟ قالتْ: زَوّجتَني مُحمّد بنَ عبد الله. قال: ما فَعلتُ، إنّي أفعلُ هذا وقد خَطبَكَ أكابرُ قُريش فلم أفعل؟[261]»

ثمّ نَهضَ واقفاً ثائراً يَدورُ على نَفسه دَورانَ البعير. ثمّ تَوقّفَ في هُدوء وقد أيقنَ ألاّ مَفرّ من المَكتوب المَفروض. «قال لخَديجة: خَدَعْتِني. فقالت: هذا هو والله كُفؤُكَ، فأتْمِمْ ذلك له. ففعل[262]» وقام الحَاضرون شُهوداً على ذلك. وتَمَّ لخَديجة بإذن الله ما أرادتْ.

تَوقّفتْ أمُّ سَلَمَة عَن القَصّ. انتظرتْ مَزهوّةً ما سَيحدث. استغْفرتْ صَفيّة بنتُ عبد المطلب الله. لم تَنبسْ فاطمة ببنت شَفة. عَلّقتْ بَعضُ النساء في الحَلقة بالقول: يا لَها من امرأة حازمة! يا لَها من امرأة ذَكيّة بارعة! يا لها من حِيلةٍ جَريئة! وسَكتْنَ. اغتنمتْ أمُّ حَبيبة الفرصة. كمْ كانتْ تَودُّ أنْ تَرويَ قصّتَها وقصّةَ زواجها من مُحمّد! كانت في حظيرة النساء لا أهمّيةَ لها رغم أنّها كانت بنتَ أبي سفيان بن حَرب. وكان كثيرٌ من الناس لا يعرفون أنّ مُحمّداً تَزوّجَ بنتَ أبي سُفيان. اغتنمتْ أمُّ حَبيبة الفرصة وقد سَكتت النساء. دَخلتْ من حيثُ تَركت أمُّ سَلَمَة القصّة. دَخلتْ تَروي قصّةَ زواجها في غياب أبيها مثلما غَيّبت القصّة أبا خَديجة. قالت بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وبسم الله الرحمان الرحيم: أتعرفْنَ يا نساء، أنّه وَقعَ لي في زواجي من النبيّ ما وقعَ لخَديجة؟ غَيّبَتِ الخمرةُ خُويلد بنَ أسد، أبا خَديجة، وغَيّبَ السفرُ أبا سُفيان ابن حرب، أبي.

نَظرتْ في وجوه النساء، تَستقرئُ شَغفَ النساء بقصّتها، فيكون ذلك إذناً لها في مواصلة الحديث. لَمْ تُبد النساءُ التشجيعَ ولا الشغفَ بالقصّة المجهولة. ساءَها ذلك. لا أحدَ يَهتمُّ بأمرها. تَجاسرتْ قالت: لقد اعتنقتُ وزوجي، عُبيد الله بنُ جَحش، الإسلامَ وهاجرْنَا مَعاً الهجرةَ الأولى، وأنا حامل. وفي الحَبشة وضعتُ ابنتي حَبيبة، وتَكنّيتُ بها، وكان اسمي رَملة بنتَ أبي سُفيان. وفي الحَبشة ارتدّ عُبيد الله زوجي عن الإسلام وعاد إلى نَصرانيته. وثَبتُّ على ديني وهِجرتي. وهَجرتُه لمّا قال لي: «يا أمَّ حَبيبة إنّي نظرتُ في الدين فلم أرَ ديناً خيراً من النصرانيّة [...] وكنتُ أرى في النوم كأنّ آتياً يَقول: يا أمّ المؤمنين، ففزعتُ، فأوّلتُها أنّ رسول الله يتزوّجني. فما هو إلاّ أن انقضتْ عدّتي فما شَعرتُ إلاّ برسول النجاشي على بابي يستأذن. فإذا جارية له يُقالُ لها أبرهة، كانت تَقومُ على ثيابه ودُهنه، فدخلتْ عليّ فقالت: إنّ الملكَ يقولُ لك إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم كَتبَ إليّ أنْ أزوّجَكِه. فقلتُ: بَشّركِ اللهُ بخير.

وأعطيتُ أبْرهة سوارَيْن من فضّة وخَدَمَتَيْن كانتا في رجليّ وخواتيم فضّة في أصابع رجليَّ سروراً بما بَشّرتني[263].»

لاحظتُ أنّ عناصرَ في قصّتها قد حازت انتباه النساء. فقد نَظرنَ إليها لمّا جَمعتْ بإتقان بين انقضاء عِدّتها وإرسال النبيّ في خطبتها، وكأنّ النبيّ كان يُحصي الأيّامَ يَنتظرُ انقضاءَ عِدّتها. ونَظرنَ إليها لمّا جَمعتْ بإتقان بين النجاشي والنبيّ في هذه الخطبة، وكأنّ النصرانيّةَ والإسلام دينٌ واحد، والنجاشيَّ ومُحمّداً أخَوان. ونَظرنَ إليها لمّا ذَكرتْ ما كان من أمرها مع الجاريّة أبرهة. ورغم أنّها كانت تَجهلُ سِرَّ هذه النظرات، فقد واصلت الحديث، لَعلّها تَفوزُ بالأهمّية وتَجلبُ الانتباه. قالت: نعم يا نساء، لقد زَوّجني النجاشيّ من النبيّ لمّا انقضت عدّتي وأرسل في خطبتي. وقد تناقل الناسُ الخبر في الحبشة، مملكة النصارى، وفي المدينة، دار الهجرة، وحتّى في مكّة حيثُ كان المُشركون تحت راية أبي سُفيان الذي أهملتُ حَقَّهُ فيَّ.

شَعُرتُ بشيء كالزهو وهو تروي قصّة خروجها عن أمر أبي سفيان، أبيها. قالت: «لمّا كان العَشيُّ أمرَ النجاشيّ جَعفر بنَ أبي طالب ومَنْ هناك من المسلمين فحضروا فخطبَ النجاشيّ فقال: الحمدُ لله الملكُ القُدّوسُ السلامُ المُؤمنُ المُهيمنُ العزُّ الجبّارُ، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وأنّ مُحمّداً عَبدُه ورسولُه وأنّهُ الذي بشّرَ به عيسى ابنُ مريمَ، أمّا بَعدُ فإنّ رسولَ الله كَتبَ إليَّ أنْ أزوّجَه أمَّ حبيبة بنتَ أبي سُفيان فأجبتُ إلى ما دعا إليه رسولُ الله وقد أصدقتُها أربع مائة دينار. ثمّ سَكبَ الدنانيرَ بينَ يَديْ القوم [...] فلمّا وصلَ إليّ المالُ أرسلتُ إلى أبرهة التي بشّرتني فقلتُ لها: إنّي كنتُ أعطيتُك ما أعطيتُك يومئذ ولا مالَ بيدي فهذه خمسون مثقالاً فخُذيها فاستعيني بها. فأبتْ. فأخرجتْ حُقّاً فيه كلّ ما كنتُ أعطيتُها فردّتْه عَليّ وقالت: عزم عليّ المَلكُ أنْ لا أرزأكِ شيئًا وأنا التي أقومُ على ثيابه ودُهنه، وقد اتّبعتُ دينَ مُحمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأسلمتُ لله، وقد أمرَ الملكُ نساءَه أنْ يَبعثْنَ إليك بكلّ ما عندهنّ من العطر. فلمّا كان الغدُ جاءتني بعودٍ ووَرْس وعَنبرٍ وزُبّادٍ كَثير، فقدمتُ بذلك على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فكان يَراهُ عَليّ وعندي ولا يُنكرُه، ثمّ قالت أبرهة: فحاجتي إليك أنْ تُقرئي رسولَ الله مِنّي السلام، وتُعلميه أنّي قد اتّبعتُ دينَه. ثمّ لطفت بي وكانت التي جَهّزتني فكانت كلّما دخلت عَليّ تقول: لا

تَنسيْ حاجَتي إليكِ. فلمّا قدمتُ على رسول الله أخبرتُه كيف كانت الخطبة وما فَعلتْ بي أبرهة، فتبسّمَ رسولُ الله، وأقرأتُه منها السلامَ فقال: وعليها السلام ورحمة الله وبركاته[264].» توقفتْ لحظةً ثمّ قالت: كلُّ ذلك تَمّ يا نساء في غَفلة من أبي سُفيان بن حرب، أبي الذي كانت تَخافُه قريش وقبائلُ العرب قاطبة.

كانت هذه الخاتمة تأكيداً من أمّ حَبيبة على تَشابُه قصّتها مع قصّة خَديجة التي رَوتْها أمُّ سَلَمَة. كانت تَسعى بهذه القصّة إلى أنْ تَنالَ إعجابَ المُستمعات وتَكتسبَ أهمّية، تماماً مثل خَديجة. ولكنّ هذا الأمرَ لم تَهتمَّ لَهُ النساء، واهتَمَمْنَ بعُنصرٍ آخرَ لم تُركّزْ عليه أمُّ حَبيبة، وهو ما تَعلّقَ بقدومها على النبيّ تَحملُ في جهازِها عُطورَ النصارى والعُودَ والوَرْسَ والعَنبرَ والزُّبّاد، وكانت تتزيّنُ له بكلّ ذلك ويَراه عليها وعندها ولا يُنكرُه. أعجبَ هذا الأمرُ النساء. سألنَ تِباعاً أمّ حَبيبة: أكان النبيُّ يُحبُّ الزينةَ والعطرَ، ويُحبُّ ما كانت النصارى تستعملُ للتبرّج؟ سارعتْ أمُّ سَلَمَة تُنجدُ أمَّ حَبيبة، قالت: كان يُحبُّ كلّ ذلك يا نساء. كان يُحبُّ الزينةَ والتبرّج، ويَحلو له العطرُ على النساء. وكان يقول بلا حَرج: «ما أحببتُ من عيش الدنيا إلاّ الطيبَ والنساء[265].»

واصلنَ الحديثَ في هذا الأمر. نهضت فاطمة واقفةً واستأذنتْ. هبّتْ إليها فضّة النوبية جاريتها التي أهداها لها أبوها وكانت تشاركها الخدمة[266] ولا تفارقها، وكانت هناك عند الباب مع الجواري والإماء. أسندتْها في الخروج. تَبعتهما صَفيّة عمّةُ أبيها. خَرجنَ من الحَوْش.

18

في غَفلةٍ من النساء، أشارت عائشة إلى بَريرة إشارةً خَفيّة، ودَخلتْ بَيْتَها حيثُ كان النبيُّ قد سُجّيَ. تَبعتها بَريرة إلى هنالك. كانتْ بَريرة الخادمُ أمينةَ سِرِّ عائشة، تَحنو عليها وتَذودُ عنها وتَحميها مِنْ كلّ طاعن طعن فيها أو حَدّثته نَفسُه بالطعن فيها. في حضرة النبيّ، أسرّتْ عائشة إلى بَريرة كلاماً لم تَسمعْ بَريرة مثلَه من قبلُ، وقالت لها: اجري به إلى أبي بَكر أبي.

لم تَفهمْ بَريرة رسالةَ عائشة إلى أبيها. فَتحتْ فَاها شارعاً تُريدُ أنْ تستفسر. نَهرتْها عائشة إذ لكزتها ووضعت السبّابة على شَفتيْها فلم تَنطق. قالت لها: سَيفهمُ عنك أبو بكر مقالتي. ثمّ أضافت: قولي له أيضاً: تقولُ لَكَ عائشة لا تَهتمَّ بأمر النبيّ وتَجهيزه والدفن. لا تُسرعْ في الأمر. سأتولّى وحَفصة ما يلزمه الأمر. لنْ يُدفنَ النبيّ حتّى يُرشدَكَ الله إلى ما فيه خيرُ الأمّة. لن يُدفنَ إلاّ إذا استتبَّ لك الأمر. اجْري يا بَريرة إلى أبي بكر بالخبر.

بدا لبَريرة أنّها صارت تَفهم عن عائشة. جَرتْ بالخبر إلى أبي بَكر. ما إنْ وضعتْ ساقيْها النحيفَتيْن خارجَ البيت حتّى أطلقتهما للريح تَجري وكأنّها صَبيّةٌ تَلهو مع صبيان الحيّ. جَرتْ بسفارة سيّدتها إلى أبيها وقد شَعُرتْ بأهمّية السفارة التي تَجري بها. ولكنّها جَرتْ أيضاً لأنّها كانت تَخافُ الظلمة، والظلمةُ كانتْ ساعتَئذ وَشيكةَ النزول على المدينة. كانتْ بَريرة عَشْواءَ أو كالعَشْواء، سَيّئةَ الإبصار إذا ما جنَّ الليل. كانتْ تَخافُ الليلَ. جَرتْ عَساها تَبلغُ أبا بكر وتَعودُ قبل أنْ يَدْلَهِمَّ الظلام وتَسودَّ السماء.

بَيْناً كانت تَجري شَعُرتْ بشيء وَراءَها يجَري. خافتْ. لعلّه إنسيّ مِن شرّ الإنس أو جنّيّ أو عفريت. استجمعتْ قُواها. وَقفتْ. نَظرتْ إلى الوراء. عرفت الهيئة والخطو وتبيّنت الوجه. صاحتْ: يا عَبدَ النحس، يا مَملوكُ يا أسود، لَعنكَ اللهُ والنبيُّ والملائكةُ أجمعون، أعوذُ بالله منكَ يا شَيطان يا رجيم.

تَقدّمَ مُغيث من بَريرة يَتودَّد. قال: اسمحي مَولاتي أنْ أسيرَ في رَكبكِ الجليل، أحْميكِ وأرْعاك، وأرشدُكِ في الظلام القادم إذا ما خانتْكِ عَيناك. صاحتْ فيه: اغربْ عنْ وجهي يا نَذل. لا حاجةَ بي إلى صُحبتك. اغربْ عَنّي أو صحتُ بأعلى صَوتي يَجتمع عليك الخلقُ يَردّوك عنّي جَلْداً أو شَنقاً. قال مُغيث يُغالبُ يَأسَه: أيُجلدُ الزوجُ أو يُشنقُ يا بَريرة؟ ألستُ زَوجَك شرعاً يا بَريرة؟ كم اشتقتُ إليك! لِمَ الصدُّ، لِمَ الهجرُ، يا بَريرة؟

لَمْ يَنفعْ مع بَريرة تَوسّلُ مُغيث إليها. دارتْ إلى حيثُ كانت تَقصد. أسرعتِ الخطو. واصل مُغيث السعيَ على عادة مُغيث وراء بَريرة. كانت المدينة كلّها تَعرفُ ما جَرى لمُغيث مع بَريرة، وكانت تَذكرُ أنّ بَريرة لَمّا اشترتْها عائشة وأعتقتْها، كان لها زوجٌ، عبدٌ مَملوكٌ أسود، فَخيّرها فيه النبيّ، فاختارتْ نَفسَها وتَخلّتْ عنه، وقالت: لا حاجةَ بي إليه، فظلّ المسكينُ يَجري وراءَها في طرق المدينة، يَتعصّرُ دُموعَه عليها يَترضّاها، ولم تَلنْ له قَطّ[267].

سارتْ بَريرة إلى غايتها. وسار مُغيث وراءها. لَم تَنهرْهُ بَعدَ الذي كان منها منذ حين. ذَهب عنها خَوفُها. كانتْ تَعرفُ أنّ مُغيثاً سيَمشي خَلفها في ذهابها وإيابها، ولا خوفَ عَليها. ستقضي به هذه المرّةَ حاجتَها بعد أن كان وجوده يُزعجُها. ستَسكتُ عنه هذه المرّة وتَخدم به غَرضَها. لا خَوفَ عَليها ومُغيث وراءَها، وهو سيَتقدّمُها دون شكّ ويُرشدُها حُسن السبيل عند الظّلمة. شعُرتْ بحاجةٍ إليه. اطمأنّت. سالت من مُقلتيْها دَمعتان. شعُرتْ بالوحدة. لانَ قلبُها كما يَلينُ كلُّ قَلب عندما يَموتُ قَريبٌ من الأهل أو مَولى أو حتّى جار من جيران الحيّ. شَعرتْ بالوحدة. مَرَّ بخاطرها النبيُّ المُسجّى في بيت عائشة. لانَ قَلبُها. شَعُرتْ بالوحدة. شَعُرتْ في أوصالها بالبرد. لم تَعرف الدفءَ وحرارةَ الجسد مُنذُ تَخلّتْ عن مُغيث. حتّى مابور الذي كانت تُشاطرُه المُزاحَ والفَكه، كما تَقدّمَ في هذه القصّة، لا يَصلحُ للخدمة، كان خَصيّاً لا شيءَ معه. رجع إليها رُشدُها. عاذتْ بالله من الشيطان الرجيم وسمّت باسم الله الرحمان الرحيم.

أسرعت الخطوَ بُرهة، ثمّ تراخت من حيثُ لا تَشعر. قالتْ في نَفسها: أصابني الإعياء. سَمعتْ صوتاً عَذباً لَيّناً يقول لها: بل هو نداءُ الجسد. نَظرتْ يَميناً ولم تَرَ أحداً. نَظرتْ شمالاً ولم تَرَ أحداً. وكان مُغيث بعيداً هنالك لا

يتجاسر على الاقتراب ولا يُسمع له صَوت. ثمّ إنّ صوتَه ليس عَذباً وليس ليّناً. لم تَعد تَسمع غَيرَ ذلك الصوت ولا ترى أحداً. أهو الشيطانُ تَشكّل لها صوتاً أم تُراه جَسدها يَدعوها إلى الجسد؟ واصلتْ تَمشي، تُخفّفُ الوطء، صارتْ تمشي الهُوَيْنا كأنّها تَحبو. وَصل مُغيث إلى مستوى جَنبها وكان من قبلُ يَسعى من بعيد وراءَها. بَدأت الظلمةُ تَغشى المكان. شَعُرتْ بنفسها ومُغيث في سكّة واحدة. لَعنت الشيطان بصوتٍ عالٍ يَسمعُه مُغيث. قال: أنا شَيطانُكِ يا بَريرة، ها أنا بين يَديك، مُري أفعلْ؟ وخَرَّ لها ساجداً. أعْجبَها قَولُه الفَكِهُ وخَرُّه لها ساجداً. هَمّتْ به وهمّ بها. لا شيءَ غيرُ بُرهان الجسد. قبّلتْه، قبّلها. غَشيَت الظلمةُ المكان. كانت هناك وَهْدَة. دخلاها في اطمئنان. كان بينهما الذي كان. وكأنّ شيئاً لم يتوقّف أبداً. عادا زَوجيْن كما كانا في أوّل الزمان، وراحا يتذاكران أخبار جاهليّتهما في ذلك المكان.

كانت عائشة في البيت على أحرّ من الجَمر، تَنتظرُ عَودة بَريرة من عند أبيها تَحملُ إليها ما كان من أمر أبيها مع سفارتها وما أمرَ به في ذلك الشأن. تَذكّرتْ أنّ بَريرة عَشواء، يُعوزها السعيُ في الظلام، وقد أظلمت الدنيا مُنذُ حين. نَدمتْ على فعلتها. ليتها لم تُرسل بريرة بالرسالة. شعُرت بالعجز. إنّها لا تَستطيع أنْ تُرسلَ في طلب بَريرة خَوفَ أنْ يَفتضحَ أمرُها. سَكتت عن الأمر. كانت تَعرفُ أنّ بَريرة إذا داهمها الليلُ تَختبأتْ في مكان آمن حتى يَطلعَ عليها الصبح. ستعود بريرة مع الصبح. ولكنّها خافت على بَريرة الليل. امتلأتْ نَفسُها خوفاً على بَريرة ونَسيت الرسالة وأباها والأمر. تَوقّفَ فيها كلّ شيء، ولمْ تَعدْ تَرى غير وجه بَريرة. خافتْ على بَريرة. كانتْ بَريرة تتفانى في خدمتها منذ أن اشترتْها وحَصّلت ولاءها رغم أنّ أهلَها الأُوَل كانوا يُريدون دوام الولاء لهم. وكانتْ بَريرة حُجّتَها على براءتها لمّا رماها الناسُ بالإفك، كما سيأتي في ذلك البيان، وتَحمّلت في سبيلها غَضبَ عَليّ بن أبي طالب وبطشَه بها والإهانة.

كانت بَريرة في تلك اللحظة خارجَ الزمن، بَعيدة عن عائشة. كانت تَحتَ مُغيث، زوجها الذي هجرته. وَجدتْ فيه من جديد، رغم طول الجفاء الذي اضطرّتْه إليه، اللذّة التي لا تُضاهيها لذّة. كان مُغيث العبد قوّةً هائلة. جامعها على تُراب الوَهدة ثَلاثَ مرّات مُتتالية. كانت تَحته تَتلوّى لذّة، تَفتحُ فاها

لتَصرخَ باللذّة، ومُغيث يُغلقُ فاها بشفتيْه الغليظتيْنِ حتى لا يَخرجَ الصوتُ ويَسمعه مارٌّ من هناك. كانتْ تَغتنمُ الفرصة وتَعضّ على شَفتيْه الغليظتيْن. كانتْ تُحبُّ شَفتيْه رغم أنّه لمْ يَكنْ مُقبّلاً ماهراً. عَضّتْ على شفتيْه عَضّةً شَديدة لمّا بلغ أقصى الشيء فيها. صاح وصاحت مُتعةً ولذّة. نَبحَ كَلبٌ. خاف مُغيث وخافتْ من تَحته بَريرة. لو فَطُنَ إليهما فاطن لأشاع في الناس أمرهما، ورُمِيا بإتيان الفاحشة على الطريق العامّ، وجُلدا جَلداً مُبرّحاً على مَرأى الخلق، وتناقلَ الناسُ الخَبر كلَّ مَنقَل.

تَذكّرتْ بَريرة ساعتئذ عائشة. تَذكّرتْ السفارة التي خَرجتْ بها إلى أبي بكر. تَذكّرتْ النبيَّ المُسجّى يَنتظرُ الدفن. شَعُرتْ بالندم والحَسرة. تَململَتْ تَحتَ مُغيث تُريدُ أنْ تَفتكَّ نَفسَها من مُغيث الجاثي فَوقَها. ولكنّ مُغيثاً كان ضَخماً كالدبّ. وكانتْ تَحتَه ضَعيفةً هَزيلة كأنثى غزال الصحراء. كانت تَظنُّ نَفسَها تَتحرّك وهي لا تَتحرّك. كانت تَهتزُّ باهتزاز مُغيث فيها ليسَ غيرُ. كانتْ لا قُدرةَ لها على رَدِّ ذلك. أسلمتْ أمْرَها لربّها. ما أحلى أنْ تُسلمَ أمْرَها لمُغيثٍ بَعلِها! امتلأتْ برائحة الجَسد الضخم والعَرق يَسيلُ منها ومنه. امتلأتْ برائحة السائل اللزج. امتلأت بالحبّ. شَعرتْ بالسكينة، وعاودها الأمنُ، وعاودتها الطمأنينة. نامتْ تَحتَ مُغيث. تَنحّى عنها قليلاً حَتّى لا يَقْطعَ عنها النفَس ويَقتلَها دَهْساً. جَعلَ جَنبَه إلى الأرض ووضع رداءه شِقّاً تَحتَ جَنبها وشِقّاً عَليها واحتضنها بذراعيه العريضتيْن. نامتْ نومةً عَميقة في دفء مُغيث. لمْ يَنمْ مُغيث. ظلّ يَحرسُها.

19

أَلْهَتْنا أخبارُ النساء عَن السقيفة حتّى زُرنا خُدورَهنّ وتَلونا عَليكُم ما تَلَوْنا. أَلْهَتْنا أخبارُ النساء، والنساءُ زينةُ الحياة الدنيا، وزينةُ الآخرة، حسب تعاليم الشريعة السمحة. ولَمْ يَفُتْنا في السقيفة شيءٌ يُذكر. كانت السقيفة تَنتظرُ أحداثَها المُقبلة. وكانت الأحداثُ في ذلك الزمان لا تَتسارع، والناسُ لا شيءَ مَعهم غَيرُ الحديث والنقاش والحوار، يَملؤون بذلك أيّامَهم الخاوية. لمْ تَتسارع الأحداثُ في السقيفة يَومَها. كُلُّ شيء تمّ على مَهل. اسمع تَرَ.

قلنا في ما مضى من قصّة إنّ أبا بكر وعُمر سارا إلى السقيفة، فلقيا أبا عُبيدة ابن الجرّاح صُدفةً في الطريق، فعزّزا به صفّ المهاجرين الذين كانوا يسيرون وراءهم، ثمّ لقيا عُوَيْم بنَ ساعدة ومَعْن بنَ عَدِيّ، صُدفةً أيضاً، فتعزّز صفّ المهاجرين ببعض الأنصار، واكتسب أبو بكر شرعيّة على شرعيّته، وأصاب قوّةً على قوّته، وازداد ثقةً في نفسه. وسار الموكب إلى سقيفة بني ساعدة.

ما إنْ وصل الموكبُ السقيفة حتّى سَلّمَ أبو بكر على الأنصار المجتمعين في الدار. وردَّ عليه الأنصارُ السلام، وسَلّموا على صاحبيْه بما يقتضيه السلام، ودعوهم إلى الجلوس وإصابة شَيء من الراحة. جَلسَ أبو بكر الشيخ، ووقف عُمر جَنبَه، ورصد أبو عُبيدة الأنصار، وظلّ يُحَملقُ فيهم كأنّه يَخافُ أنْ يَنقضّ مُنقضّ منهم على صاحبيْه.

تَقدّمَ خادمٌ إلى أبي بكر بإناء الشرابِ على عادة الأعراب إذا ما سَعى إليهم ساع. سَمّى أبو بكر وشَرِبَ وحَمَدَ الله على نِعَمِه الكُثْر ودعا لأهل السقيفة بالدعاء الحسن. ثمّ شربَ أبو عُبيدة ودعا لأهل السقيفة بالدعاء الحسن. لَمْ تَمتدَّ يدُ عُمر إلى الشراب، ولَمْ يَشرب. أخلّ بعادة من عادات العرب، ولا مَفرَّ من حُدوث الفاجعة. شَعُرت الأنصارُ بالإهانة. قال سعد بنُ عُبادة وكأنّه تَعافى من وجعه السابق: لا حَولَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله. أعاد الناسُ سرّاً أو عَلناً،

كلٌّ حسب مزاجه: لا حَولَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله. إلاّ عُمر ظلّ ساكتاً لا دارَ لسانُه بالعبارة ولا دارتْ له في خُلده. كان يتأهّبُ للبطش بالعدوّ. كان يُزوّرُ في داخله المَقالات يُفحِمُ بها خَلقَ السقيفة، وكانت يَدهُ على مَقبض سَيفه يَستعدُّ لكلّ طارئ قد يَطرأ.

شَدّ عُمر على إزاره القطريّ المَرقوع اثنتا عَشرةَ رُقعة بَعضُها من أدم. تَنحْنحَ. تَردّدَ صَوتُه في جَوفه. مَسحَ العَرقَ مِنْ عَلى جَبينه الأصْلع. كان رجلاً جَسيماً ضَخماً، يَتصبّبُ جسمُه عَرقاً كُلّما مَشى أو أتى عَملاً أو أخذَ منه الغَضبُ مَأخذاً. جَعلَ يَنفخُ ويَفتِلُ شاربَه[268]. هَمّ بالكلام وقد زوّرَ في نَفسه مَقالةً أعجبته[269]. نَهرَه أبو بكر بشدّة، قال: على رِسلكَ يا عُمر. فَلْنَسْمَعْ من القوم أوّلاً، نَرَ ما الخبر؟ نَحنُ في بيتهم يا عُمر.

اعتذرَ أبو بَكر للأنصار اعتذارَ الأعراب للأعراب مع تَضمين الكلام شيئاً من المجاملة والإيحاء بالتهديد والترهيب وما شاكل ذلك من أساليب الكلام في مثل هذه المَحافل. قال: يا مَعشرَ الأنصار، يا إخوان، بَلغنا أمرٌ نَرجو ألاّ يَكونَ كان، فَسّروا لنا الأمرَ يا إخوان.

شاع في المكان صدى الجملة القصيرة تطرح على الأنصار السؤال. أعجبت الجُملة أصحابَ أبي بكر برُمّتهم. ورأى الأنصار فيها استفهامَ إنكار لا تُحمد عُقباه. تكلّمَ سَعد بنُ عُبادة وقد تَعافى الآن تماماً، أو بدا كذلك، والله أعلم. قام يَروي ما حَدثَ للأنصار مع النبيّ المُعتلّ إذ ذاك اعتلالاً. قال، ولا سَمّى باسم الله ولا أثنى عليه أحسن الثناء: «إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم خَرجَ يُصلّي في مَرضه الذي قُبض فيه، مُتوكّئاً على الفضل بن العَبّاس وغُلام يُقالُ له ثوبان، ثمّ رجعَ فدخَلَ منزلَه، وقال: لغُلامه: اجلس على الباب، ولا تَحجبْ أحداً من الأنصار. أحدقَ الأنصارُ بالباب وقالوا للغلام: ائذن لنا على رسول الله، فقال: عنده نساؤه. فَسَمعَ رسول الله بُكاءَهم، فقال: مَن هؤلاء؟ فقيل له: الأنصارُ يَبكون. فخرجَ متوكّئاً على عَليّ والعَبّاس، فدَخلَ المَسجد، واجتمعَ الناسُ إليه، فقال: إنّه لم يَمتْ نبيٌّ قَطّ إلاّ خَلّفَ وراءه تَركة، وإنّ تَركتي فيكم الأنصار، وهم كرشي التي آوي إليها، أوصيكم بتقوى الله تَعالى والإحسان إليهم، فقد عَلمتُم أنّهم شاطروكم وواسوكم في العُسر واليُسر، واقْبَلوا من مُحسنهم، وتَجاوَزوا عن مُسيئهم[270].» توقّف عن الكلام بُرهةً أثار

طولُها عُمر بنَ الخَطّاب الذي كان على أحرّ من الجَمر. ثمّ واصل كلامَه لا يَلوي على شيء. قال: ألا تَقومُ هذه القصّة شاهداً على أحقّيتنا بالأمر؟ ألا تَكفيكم هذه القصّة؟ ثمّ سَكتَ. ظَنَّ أنّه أسمعَ وأوعى وأفْحم. ظنّ أنّه حَصّلَ ما شاء.

جَمعَ عُمر أصابعَه إلى كَفّه كمن يَستعدُّ لِلّكْم. أحكمَ شَدَّه على مَقْبض السيف. هَمّ مَرّةً أخرى بالكلام. كان يَخشى أنْ يُقصّرَ أبو بكر عن بعض الكلام. نَهرَه أبو بَكر مَرّةً أخرى. قال له مثلما قال له من قبلُ: على رِسلكَ يا عُمر. وأضافَ: ستُكفى الكلامَ يا عُمر[271].

فارق أبو بَكر جلستَه الأولى. نَهضَ واقفاً، استقام. فارق الشيخَ الهَرمَ فيه. تَجهّزَ للكلام. تَشهّدَ وأثنى على الله بأحْسن الثناء. بدأ خُطبتَه بثبات قال: يا سعد، يا مَعشرَ الأنصار، إذا كان رسول الله قد أوصى بكم خيراً فقد أوصى بكم المهاجرين لا الأنصار. وإذا كان رسول الله قد أوصى بالإحسان إليكم ومُجازاة مَنْ أحسن منكم والعفو عن مَنْ أساء، فقد أوصى بذلك المهاجرين لا الأنصار. وإذا كان قد أوصى المهاجرين فهذا يعني أنّه قد عيّن المهاجرين حُكّاماً وعيّن الأنصار لهم محكومين. تلك هي وصيّة رسول الله يا سعد، ويا مَعشرَ الأنصار، فامتثلوا لوصيّة رسول الله.

صاح عُمر من حيث لا يشعر: لا فُضّ فوك يا أبا بكر، لا فُضّ فوك! حرّك أبو عُبيدة رأسه موافقاً بالإيماء، ثمّ قال بتؤدة: لا فُضّ فوك يا أبا بكر، لا فُضّ فوك! سرى شيء كالسحر في المهاجرين، صاحوا جميعاً: لا فُضّ فوك يا أبا بكر، لا فُضّ فوك! بُهتَ الأنصارُ على بَكرة أبيهم.

يا له من أبي بكر! التوى على الحديث الذي استعمله سعد بن عُبادة حُجّة على أحقّية الأنصار بالخلافة وفسّره تفسيراً لا يترك مجالاً للشك على أنّ الخلافة في المهاجرين. استنتج من خلال ألفاظ الحديث ومعانيها في المعاجم، ومن خلال علامات النصّ وعلم الدلالة، أنّ النبيّ وضع قانون الخلافة من خلال حديث عابر. اكتسب أبو بكر شرعية لخلافة الرسول. بدأ الشكّ ينخر في الأنصار.

واصل أبو بكر الخطبة، قال: «إنّ اللهَ، جَلَّ ثَناؤه، بَعثَ مُحمّداً بالهُدى ودين الحقّ، فدعا إلى الإسلام، فأخذ الله تعالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه، فكُنّا مَعشرَ المهاجرين أوّلَ الناسِ إسلاماً، والناسُ لنا فيه تَبَعٌ، ونحن عَشيرةُ رسول الله، ونحن مع ذلك أوسطُ العرب أنساباً، ليستْ قبيلةٌ من قبائل العرب إلاّ ولقُريش فيها ولادة. وأنتم أيضاً والله الذين آووا ونصروا، وأنتم وُزراؤنا في الدين، ووزراء رسول الله، وأنتم إخوانُنا في كتاب الله، وشركاؤنا في دين الله عزَّ وجلّ، وفيما كُنّا فيه من سَرّاء وضَرّاء، والله ما كُنّا في خير قَطُّ إلاّ كُنتم مَعنا فيه، فأنتُم أحبُّ الناس إلينا، وأكرمُهم علينا، وأحقُّ الناس بالرضا بقضاء الله تعالى، والتسليم لأمر الله عزَّ وجلّ، ولِما ساقَ لكم ولإخوانكم المهاجرين رضي الله عنهم، فلا تَحسدوهم، وأنتُم المُؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة، والله ما زلتم مُؤثرين إخوانكم من المهاجرين، وأنتُم أحقُّ الناس ألاّ يَكونَ هذا الأمرُ واختلافُه على أيديكم، وأبعدُ أنْ لا تَحسدوا إخوانكم على خَير ساقَه الله إليهم[272].»

ضَربَ في الأرض برِجْلِه. انتصبَ له الناسُ انتباهاً وكأنَّ الأرضَ اهتزّتْ لَمّا ضَربَ فيها برِجْلِه. ضَربَ عُمر كَفّاً بكَفٍّ كأنّه يُصفّق. كان مَزهوّاً بما قال صاحبُه. ابتسم ابتِسامةَ الفائز. قال في نَفسه: يا لَكَ من خَطيب يا أبا بَكر! كان زَوّرَ مقالةً يُريدُ أنْ يَجهرَ بها فتأتي على كلّ ادّعاءات الأنصار، وتُفحم. كان يَخشى أنْ يُقصّرَ أبو بَكر عن بعض الكلام وأنْ لا يُفحمَ[273]. ولكنّ أبا بَكر لم يَتركْ صُراخاً لصارخ. أتى على كلّ شيء بدقّة. أعادَ في نَفسه: يا لَكَ من خَطيب يا أبا بَكر!

صَفّقَ المهاجرونَ للخُطبة باندفاع وحَماس وفَخر. صَفّقَ لها بَعضُ الأنصار بشَيء من الحَذر والخوف من إخوانهم الأنصارِ المُتشدّدين. فاجأهم أبو بَكر. لم يَعرفوه خَطيباً ولَمْ يَرَوْهُ على هذه الحال قَطّ. ماذا جرى يا تُرى؟ ما الذي حَدثَ؟ صَفّقوا له طَواعيّةً، عن طيب خاطر. كان ذلك التصفيق، والعهدةُ في ذلك على الأخبار، أوّلَ تَصفيق عَرفتْه السياسة، وقد صار مُنذُ ذلك التاريخ تَقليداً، يُضطَرُّ إليه الناسُ اضطراراً.

تَعجّب الناس من أبي بكر، وتعجّب منه أصحابه المُقرّبون. ما الذي غَيّر أبا بَكر. ها هو واقفٌ فيهم يَخطُب بفصاحة وكأنّه لمْ يَكنْ يوماً شَيخاً هَرِماً

وعَيِيّاً بلا فَصاحة. بدا للناس رجلاً آخر، وكان من قبلُ عندهم رقيقاً، ضعيفَ الصوت، كثيرَ البكاء[274]. وكان عندهم أسيفاً، إذا قام يُصلّي بالناس لا يُسمعُ الناسَ صوتَه[275].

بدا الاحتفاءُ بأبي بكر في صُفوف المُهاجرين واضحاً. خاف شُيوخُ الأوس والخزرج أنْ تَسريَ منهم العَدوى إلى الأنصار. خافوا من أبي بكر وصحبه. كانوا يَخافون بني هاشم من المهاجرين، وظنّوا منذ الضحى أنّهم آتون يُنازعونهم الخلافة إذا ما أعلنوها، فاجتمعوا واتّفقوا على ما يَجبُ أنْ يَردّوا به على بني هاشم، وزَوّروا المقالات في ذلك استعداداً للأمر. فاجأهم أبو بكر من حيثُ لا يَعلمون. لم يَستعدّوا للردّ على أبي بَكر وصَحبه. ها هم الآن وَجهاً لوَجه أمام أبي بَكر، فكيف يردّون على أبي بكر؟

خَطر على بعض شيوخهم خاطر. لَمْ تُحدّد الأخبار ذلك الشيخ. تَقدّمَ من سَعد بن عُبادة وأسرَّ إليه بشيء في أذنه لم يَسمعه غَيرُه. حَرّكَ سَعد بنُ عُبادة رأسَه مُوافقاً. وَقف ذلك الشيخُ في الناس. سَمّى باسم الله وحَمَدَ الله وأثنى عليه، ثمّ قال: يا مَعشرَ المُهاجرين، يا مَعشرَ الأنصار، نَحنُ إخوانٌ في هذا الدين، وهذا الدينُ رحمةٌ وإحسان، لا يَليقُ بنا فيه الخصام. ها الليلُ بَدأ يُسدلُ على المدينة سُدوله، وفي سُدول الليل وَجَبت الراحة، والدعوة إلى الضيافة، وسَعد بنُ عُبادة يَدعونا الليلة إلى مائدته، فهَلُمّوا جَميعاً إلى العشاء. سنَعودُ غداً، بإذن الله، إلى أمر الخلافة. لا شَيءَ يَدعو إلى العَجلة، والعَجَلة أمُّ الندامة.

تَهامسَ الناسُ وتَهامَشُوا. عَمّت الحَركةُ والجَلبةُ والضَّوضاء. رَأى بَعضُهم في الدعوة والضيافة فُرصةً للتقارب والألفة، ورَأى بَعضُهم في ذلك حيلةً من حِيَل المُخاتلة وربح الوقت، ورأى فيها المُتشدّدون والمُتحمّسون، من هذا الشقّ أو من ذاك الشقّ، تَمييعاً للقضيّة، وهم يعرفون أنّ التفاوض في دار الضيافة لا يؤول إلاّ إلى فساد المفاوضات. استعدّوا جميعاً للحوار والنقاش في تلك اللحظة دون تأجيل. ولكن جرت الأمور بما لا يشتهون، ورُفعت الجلسة تَعسّفاً، إذْ تَقدّم بنو سَعد بن عُبادة وخَدمه ورفعوا به الفراش وأدخلوه البيْت. اعتذر ابنُه قيس لجمهور الحاضرين قال: لقد تَعب الوالد، ولا بُدَّ له منْ أنْ يُصيبَ شيئاً من الراحة. أنتم ضُيوفُنا على العشاء يا أهلُ ويا أحبّاء، ستُنصبُ الموائدُ في الحين. ودخل وراء أبيه البيت.

شَعُرَ عُمر بالإهانة. دَمدمَ دَمدمةً لا تُفهم. شَدَّ أبو بكر بيمينه على يَده يَدعوه إلى الهدوء والسكوت. هَدأَ روعُه. سَكتَ على مَضض. اقترب منهما أبو عُبيدة بنُ الجرّاح. شَدَّ أبو بكر بيده اليُسرى على يَد أبي عُبيدة. غادروا السقيفة في هُدوء تامّ.

وهُمْ في الطريق، قال عُمر: والله لو تَركتَني يا أبا كر لشوّشتُ عليهم لَيلتَهم ونَصبتُ لَهم الحربَ حتّى يَنساقوا إلى أمرنا. أجابه أبو بكر: إنّ غداً لناظره قريب. وأضاف جاعلاً من الهزيمة نصراً: عسى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم. لقد طالبنا الناسُ أمام بيت النبيّ بانتظار الغد للنظر والقرار، وها الأنصار يُطالبون بانتظار الغد للنظر والقرار، فلننتظر يا عُمر. هذا خير لنا أيضاً. سنُصيبُ شيئاً من الراحة، وننظر في الأمر بهدوء. قال أبو عُبيدة كأنّه يرسم خطّة: أيُّ غَد يا أبا بكر، وأيُّ نظر، وأيّةُ راحة؟ هذه فُرصتُنا. سنُجهّزُ الليلة أمرَنا ونَحسبُ لكلّ شيء حساباً. لم يَفهم عُمر مَقولتَه، ظَنَّ أنّه يَقولُ ما تَأتّى. قال أبو بكر وكأنّه على علم بالخطّة: نَعم يا أبا عُبيدة، هذه ليلتُنا. ثمّ نظر إلى عُمر وقال له: السياسة السياسة، يا عُمر. لم يَفهم عُمر مَقولتَه، ظَنَّ أنّه يَقولُ ما تَأتّى.

لم ينم هذا الثالوث ليلتها، كما سيأتي من بعدُ البيان.

20

عادتْ فاطمة الزهراء إلى بيتها تَصحبُها صَفيّة بنتُ عبد المطّلب وفضّة جاريتها النوبية. غادرت أغلب النساء من غير أزواج النبيّ بيت الرسول. عُدنَ إلى بُيوتهنّ والخُدور حيث بُعولتُهنّ والعيال. كانت المدينة في تلكم الأيّام قريةً صَغيرة تَعيشُ على وَقع تَعاقب الليل والنهار. كان أهلُها يَخرجون نَهاراً للعمل والاتّجار والصلاة مع الجماعة والتسكّع في هذه السكّة أو تلك، ويَلوذون بالبيوت والخدور ليلاً حيثُ تَتوفّرُ أسبابُ المُتعة، ولا مُتعةَ في المدينة في تلكم الأيّام إلاّ في البيوت والخدور. وكانت البيوتُ والخدور في الليل كذلك فضاءً للقَصّ الجميل والأسمار وحكايات البدْء وما سيكون في آخر الزمان. وكانت فَضاءً للفَكَهِ الذي تفوح به قصصُ العبيد والإماء والغلمان، وأخبار الجاهلية واليهود والنصارى. وكانت فَضاءً للذّة العارمة وقد التقت الأجسادُ الأجساد، وسَكَنَ بَعضُها بَعضاً ساعةَ تعرّتْ وتجرّدت من بَراثين النهار التي يَعجُّ بها عالمُ الدنيا وعالمُ الدين.

أظلمَ بيتُ الرسول على أهله من الزوجات الأرامل والعبيد والإماء والغلمان والجواري من موالي الرسول. ساده الصمتُ الرهيب. كأنّ الفرقاءَ من المهاجرين والأنصار والغرباءَ اتفقوا على عدم إزعاج الرسول المسجّى يَنتظرُ التجهيزَ والدفن. عاد المهاجرون والأنصار إلى بيوتهم والخدور. ولاذ الغرباءُ بمسجد الرسول يُعزّزون صُفوفَ أهل الصُّفّة الميامين.

ساد الصمتُ بيت الرسول. لم يكن المسلمون في تلكم الأيّام قد اتّخذوا القرآن وسيلة إلى فكّ الصمت في بيت الميّت، فيقرؤونه ويُرتّلونه أو يضعون لذلك التساجيل بأصوات المقرئين التي تَقْشَعِرُّ مِنها جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ والذين لا يَخْشَوْنَ. لم يكن ذلك قد حدث في تلكم الأيام، بل حدث

بعد قرون من وفاة الرسول، وأصبح سُنّةً مفروضة، رغم أنّه لم يُؤسّس له الرسول ولا الصحابة ولا التابعون.

ساد الصمتُ الرهيب. لا شيءَ هنا غير بعض الحشرجة والأصوات الخافتة تخرج إلى الظلمة من أفواه البيوت التي فيها مصابيح أو أشياء كالمصابيح، نورها باهت لا يقهر الظلام. ثلاثةُ بيوت على وجه التحديد. بيتُ عائشة الذي ضمّها وسودة وحفصة، وفيه النبيّ مُسجّى. كانت عائشة صغيرةً تخاف الميّتَ فتلتصق بسودة من هنا وبحفصة من هنا، كأنّها تدخل فيهما تَختفي من الموت، تختفي من الميت. وبيتُ أمّ سَلَمَة الذي ضمّها وأمَّ حبيبة وميمونة. كُنّ يَجمعُ بينهنّ الودُّ ويقرّب بينهنّ النسب والحسب، ولعلّ عامل السنّ، وقد كنّ أنداداً، هو الجامعُ الفاعلُ فعلَه بينهنّ. وبيتُ زينب الذي ضمّها وأمثالها من وجوه المعارضة الشرسة لعائشة المدلّلة، صفيّة وجويريّة، ومارية القبطية التي أكرمتها زينب ليلتها ولم يُكرمها غيرها.

وكانت تتردّد على هذه البيوت للخدمة الإماء. فتدخل على عائشة عنقودة خادمتُها وليلى مولاتُها وبريرة التي خرجت في السفارة وأمّ أيمن خادمة النبيّ. وتدخل على حَفصة سُديسة الأنصارية خادمتُها وخُليسة مولاتها. ولم يكن لسودة خادمٌ تَدخلُ عليها هناك. وتدخل على زينب خادمتُها التي لم تُسمّها الأخبار، وعلى صفيّة خادمتُها رُزينة. ولم يكن لجويرية خادمٌ تَدخلُ عليها هناك. ولم يتجاسر مابور ويدخل على مارية التي كان يقوم على خدمتها. وتدخل على أمّ سلمة خادمتُها التي لم تُسمّها الأخبار، وعلى أمّ حبيبة خادمتُها بَركة الحبشيّة التي حملتها معها من الحبشة لمّا تزوّجها النبيّ، ولعلّها أهداها إياها النجاشيّ. ولم يكن لميمونة خادمٌ تَدخلُ عليها هناك.

تقدّم الليلُ بالبيت الظلام وزاده الصمتُ الرهيبُ جلالاً. انعزل العبيدُ والإماءُ والموالي بعد الخدمة وتلبيّة طلبات الزوجات الأرامل في بهو عند باب الخروج العامّ. كانت أمُّ أيمن قد رَبَضَتْ منذ الضحى، في رُكن من أركان ذلك المكان، تبكي وتشهق وتنوح أحياناً، لا تتوقّف عن ذلك إلاّ إذا نادتها عائشة للخدمة. وكان لا يُفسد أحدٌ على أمّ أيمن بكاءها ولا شهيقَها ولا النّواح. كانت تحظى من بين العبيد والإماء والموالي بمرتبة لا يحظى بها العبيد والإماء والموالي. وقد خصّتها كتب السير والتاريخ والتراجم

والطبقات بأخبار طوال يضيق عن ذكرها هذا الكتاب الذي نكتفي فيه منها بشيء مُقتَضَب، فإنْ شئتَ الإلمام بها انظرها في تلك الكتب[276]. كانت أمُّ أيمن حاضنة الرسول مع أمّه آمنة لمّا تُوفّي عنها أبوه. وكان الرسول يُناديها: يا أمّه، ويقول فيها على الملإ: أمّ أيمن أمّي بعد أمّي، وهذه بقيّة أهل بيتي. وسنعود إليها بالحديث عندما تدعونا الحاجة إلى ذلك. أمّا الآن فقد نهضت وافترشت شيئاً كان معها وتغطّت بلحاف، وتفرّق من حولها العبيد والإماء والموالي، واحتلّوا الزوايا والأركان وبعض مواطن الزريبة، ولاذوا بالنوم. كان فعلُ أمّ أيمن إشارة تسريحهم من الخدمة. كان دليلاً على أنّ أهل البيت قد أسلموا إلى الراحة أو ناموا، ولم تعد بهم حاجة إلى الخدمة. فأمّ أيمن كانت رأس الخدم، تأذن وتسيّر وتنهى. وكانوا يحترمونها ويمتثلون لأوامرها وهي أسنّهم وأقدمهم في خدمة النبيّ وأهله.

أسلم البيتُ أهله للراحة، أظلم، نام.

وكان صَباحٌ وكان مَساءٌ يوماً ثانياً

« وإنّما حكينا هذا الخلاف ليعلم من نظر في كتابنا هذا أنّا لم نُغفل شيئًا ممّا قالوه، ولا تركنا شيئًا ذكروه، إلّا ذكرنا منه ما تأتّى لنا ذكره وأشرنا إليه، ميلاً إلى الاختصار وطلباً للإيجاز»

المسعودي، مروج الذهب، م1، ج2، ص284



1

هل أسلم الناسُ ليلتها للراحة والنوم في بيت النبيّ؟ تضاربت الأخبار في الغرض. كان العبيد والإماء والموالي يُقسمون بالرحمان، ويقولون: إنّهم ما اكتحلوا غِمَضاً، حُزناً على النبيّ. وكانت أزواج النبيّ الغضبى على العبيد والإماء والموالي، يقلن: لقد سكنوا للنوم كالموتى ولم ينهضوا للخدمة لمّا دعونهم للخدمة الطارئة في الليل. وأكّدت أزواج النبيّ، من ناحية أخرى، أنّ النعاس فارقهنّ بالكلّية ليلتها، حُزناً على النبيّ، وأنّهنّ لم ينمن أبداً. وقد تغامز العبيد والإماء والموالي بشأن ما أكّدت أزواج النبيّ، وضحك بعضهم من ذلك ضحكاً مسموعاً. كما تغامزت كذلك النساء اللائي اعتكفن ليلتها في بيت الرسول ولم يعدن إلى خدورهنّ مثل غيرهنّ من نساء المهاجرين والأنصار، وصرّحن بالحرف الواحد: إنّهنّ لم يألفنَ المكان فلم يُكحّل النومُ عيونهنّ، حُزناً على النبيّ على كلّ حال. وقد ظلّت عيونهنّ تُراقب الزوجات، ورأين منهنّ ما رأين. رأينهنّ يَغططن في النوم العميق.

كان النوم في البيت إذا مات فيه ميّت محلّ شكّ دائماً! كانت فيه شُبهة في كلّ زمن وعند كلّ حضارة. هل ينام الناس إذا مات فيهم ميّت يا تُرى؟ هل يسهر الناسُ الميّتَ ولا ينامون أبداً؟ هل ينام الناس ويظنّون أنّهم لم يناموا؟ اختلفت الآراء. أمّا في هذه الحال التي نحن بصددها فقد ذكرت الأخبار أنّ سِنةً من النوم أخذت أهل البيت ليخلو الجوّ للملائكة فتسهر النبيّ وترعاه دون إزعاج في انتظار التجهيز والدفن. وليس عزيزاً على الله، كما تعلمون، أنْ يُنزل على الناس سنةً من النوم لتنفرد الملائكة بالنبيّ[277]، فينام مَنْ ظنّ أنّه لم ينم، وينام مَن ظنّ أنّه نادى الخدم للخدمة وهو لم يُناد، وينام مَن ظنّ أنّه رأى ما رأى وهو لم ير شيئاً، ويسمع الناس الصوت والحسّ ولا يرون شخصاً[278]، وهم لم يسمعوا صوتاً ولا حسًّا، وهلمّ جرّا. في ذلك الزمن البعيد، لمّا قُبض

النبيّ، أصاب الناس ما أصاب، «وأخذتهم نعسةٌ فوقع لحْيُ كلّ إنسان على صدره[279]» وتمّت الأمور من حيث لا يشعرون.

بيناً كنّا نياماً أو شبهَ نيام، وقعت في المدينة أحداث. وحتّى لا تَفوتّنا تلك الأحداث، أو تُفاجئَنا من حيث لا ندري، سنسعى، في ما يلي من قصّة، إلى الإلمام بها من خلال ترصّد أصحابها والتجسّس عليهم والتنصّت، إذا لزم الأمر. وإذا لم نُفلح في ذلك استعنّا بكتب الأخبار الطوال في سقيفة بني ساعدة وبما رواه الرواة على مرّ الزمان، لا نستثني منهم أحداً. فلا نُهمل ابن إسحاق الذي شاع عنه حبّه النساء حتى كان لا يجلس إلاّ قريباً منهنّ في مؤخّر المسجد[280]، ولا البلاذري الذي قيل إنّه وسوس في آخر أيامه فشدّ بالمارستان ومات فيه[281]. ولا نُهمل الزهريّ ولا الواقدي ولا حمّاد الراوية وإنْ كان كذّاباً[282]. ولا نُهمل سُليم بن قيس الهلالي ولا الطبرسي ولا المجلسي وإن كانوا من الشيعة وعُدّوا روافض. ولا نُهمل ابن جعيّط[283] العالم بأحوال التاريخ، ولا ابنة الورديّ[284] التي شنّت عليه الحرب وكان لها من دون النساء في هذا المجال صيت، تروي الأخبار بحذق وفنّ تظنّ أنّها تكتب التاريخ.

وقد جمعنا لكم، بعد الاطلاع والدرس والتحرّي، هذا الذي سيأتي:

نُصبت في بيت سعد بن عُبادة موائد الإفطار للعشاء، كما صرّح بذلك ابنه قيس الذي تقدّم حديثه في هذا الكتاب. كانت مأدبة على عادة بني ساعدة في مآدب الطعام. كان غيرهم من الأشراف الأثرياء لا يقيمون المآدب إلاّ في الدعوات النادرة، وكانوا يُقيمونها كلّ ليلة لضيوفهم الذين لا ينقطعون. برك الضيوف حول الموائد، أنصاراً من الأوس والخزرج، ومهاجرين لبّوا الدعوة واهتمّوا بشأن الطعام ولم يُقفلوا راجعين مع أبي بكر وعُمر وأبي عُبيدة بن الجرّاح. نَسُوا القضيّة كما ترى. فمآدب بني ساعدة كان يسيل لها اللعاب إذا ذُكرت، وكانت قبلة المدعوّين إذا ما دُعُوا إليها، وكان يأتيها الضُّيوفُ والضَّيافِنُ المُتطفّلون الذين يصحبون الضيوف ولم يُدعَوْا إليها.

أكل الناس ليلتها من جِفان الثريد الذي أهالوا عليه الأدم من زيت وشحم ودهن وتوّجوه بالقديد واللحم. وأكلوا من جِفان الثريد الذي سكبوا عليه اللبن أو الخلّ. وأكلوا من أرطال الفاكهة وما كان يُدّخر في بني ساعدة وحدهم من

حلوى اليمن. وشربوا ما لذّ وطاب من نبيذ ولبن وسوائل أخرى لم تُحدّدها الكتب. امتلأت بطونهم التي كانت خاوية. امتلأت بالثريد. امتلأت بالشحم. امتلأت باللحم وكانوا قَرِمين إلى اللحم. تمتّعوا بالفاكهة والحلوى. تمتّعوا بالأشربة التي سالت من غير حساب.

هاجت السقيفة وماجت ليلتها. لا شيء هنا غير الأكل والأكَلَة والجفان والقصاع يدور بها على الضيوف الخدم. لا شيء هنا غير أصوات الأكَلَة في نَهَم وشَرَه وجَشَع. لا شيء هنا غير حسيس الأيدي في الجفان والقصاع. ثمّ ترتفع الأصوات بالدعاء لأهل السقيفة حتى يُديم الله فضلها.

لمّا تقدّم بالسقيفة الليل، وأُفرغت جفانُ بني ساعدة والقصاع بالتمام والكمال، انفضّ من حولها الخلق وغادروا السقيفة في حضرة قيس بن سعد الذي ظلّ كامل الوقت في السقيفة لا يُغادر الضيوف. وكانوا، وهم يخرجون، يشكرون فضل بني ساعدة، ويرجون الشفاء لسعد بن عُبادة، ويُمنّون الأنفس بالعودة إلى الموائد في الليلة القادمة. وكان قيس يُودّعهم نيابة عن العائلة الكريمة ويُظهر لهم سعادته بإضافتهم ويقول بينه وبين نفسه: هؤلاء الخلق لا يُعوَّل عليهم في المفاوضات ولا تُصاب بهم الخلافة. كان همّهم في أكراشهم، والأكراش لا تدخل في حساب السياسة عند بني ساعدة، وهم لا يستعملون الكرم لنيل فائدة. لم يكن بنو ساعدة كأشباه الأثرياء الذين يُعطون بهذه اليد ويأخذون باليد الأخرى، فيرسلون قفاف رمضان للعائلات المعوزة لتسندهم في المفاوضات، ويدعون إلى صناديق الزكاة ويستعملونها في شراء الأصوات.

وكان على مائدة سعد بن عُبادة، داخل البيت الذي يأويه، وجوه الأوس والخزرج يُقاسمونه الطعام. كانوا قد اختلَوْا هناك بعيداً عن الأنظار يتشاورون في أمر الخلافة عسى أنْ يوحّدوا رؤاهم ويتفقوا على المقالات التي سيُسمعونها الناس. وقد سمعوا ليلتها من سعد بن عُبادة ما استقرّ عليه رأيه بشأن الخلافة بعد أنْ كان الذي كان مع أبي بكر وصحبه. وقد أكّد لهم رغبته الجامحة في أنْ يتولّى الأمر حتى لا يُهان الأنصار ويُصبحوا أجانب في عقر دارهم. وقد كان هذا السبب وحده كافيا لحملهم جميعاً على الانضمام

إليه ومساندته مساندة تامّة. كانوا يخافون من المهاجرين. وكان المهاجرون، بالنسبة إليهم، أعراباً وأجلافاً هذّب شوكتهم الرسول باستعمال الدين، ولا يُمكن التكهّن بما سيؤول إليه أمرهم بعد الرسول. كانوا يخافون أنْ يعود المهاجرون أعراباً وأجلافاً كما كانوا، فيأتُوا على الأخضر واليابس في يثرب المدينة ويُجلُوا عنها أهلها، لا قدّر الله.

ونظراً إلى الاتفاق الحاصل بينهم في هذا الشأن، ونظراً إلى حالة سعد بن عُبادة الصحّية التي لا تسمح بإطالة الحديث والنقاش في الأمور الثانويّة، فقد اتّخذوا ليلتها بسرعة ستّة قرارات وأوصوا بأنْ تكون مُلزمة للجميع، وأوصوا الجميع بوضعها حيّز التطبيق في اجتماع السقيفة الثاني المُزمع عقده غداة تلك الليلة. وفي ما يلي عَرضُ تلك القرارات الملزمة للجميع:

1 – دخولُ الأنصار الاجتماعَ في اتّحاد تامّ بين الأوس والخزرج لا يُفرّق بين الفريقيْن شيءٌ أبداً. وخلال الاجتماع يتولّى وجوه الأنصار أخذ الكلمة على التالي: سعد بن عبادة، ثمّ خُزيمة بن ثابت، ثمّ ثابت بن قيس بن شمّاس خطيب الأنصار.

2 – افتتاح سعد بن عبادة الجلسة للترحيب وتهيئة الجوّ لما سيأتي من بعد.

3 – يتولّى خُزيمة بن ثابت تبليغ المهاجرين ما استقرّ عليه رأي الأنصار القاضي بتعيين سعد بن عبادة لتولي الخلافة.

4 – في حالة رفض المهاجرة أنْ يتولّى سعد بن عُبادة الخلافة يتمّ توخّي سياسة جديدة تقتضي المرور إلى الخطّة الثانية التي يتمّ بمقتضاها رفع شعار: منّا أمير ومنكم أمير. ويتولّى إذ ذاك الحباب بن المنذر قراءة البيان الثاني، ويليه على ذلك ثابت بن قيس بن شمّاس للتأكيد والتوضيح.

5 – في حالة رفض المهاجرة المُقترحَ يتمّ تهديدهم بإخراجهم من المدينة وإجلائهم عنها. ويضطلع بذلك التهديد الحباب بن المنذر لجُرأته التي لا تعرف الحدود.

6 – لا قبول إلاّ بهذه المقترحات.

ثمّ رُفعت الجلسة في حدود ما يقارب الساعة العاشرة من تلك الليلة المباركة التي شهدت وحدة الصفّ بين الأوس والخزرج.

سنعود بإذن الله إلى هذه البنود بالتفصيل والبيان عندما يلتئم اجتماعُ السقيفة الثاني المُزمع عقده غداة تلك الليلة. فانتظرونا.

2

أغلسَ البيتُ على أهله وأغبشَ. دخل في ظُلمة آخر ليله. جاء بُريدة بنُ الحُصيب[285] يغرز اللواء أمام بيت الرسول. جاء وراءه أسامة بنُ زيد ووقف على الباب صامداً لا يتحرّك. لا أحدَ رأى ولا أحدَ سمع. كلّ شيء تمّ في كنف السرّية، في الغَلَس.

لمّا بدأت تباشيرُ الفجر تُعلن انطلاقة اليوم الثاني، كان كلّ شيء جاهزاً، كما أراد ذلك وجوه المهاجرين هنا، ووجوه الأنصار هنالك. استعدّت المعسكرات لخوض المعركة تحت إمرة الشيوخ والرؤساء، أولئك الوجوه.

أمّا في غير ذلك، فقد استعدّ العبيد والإماء والموالي لاستقبال يوم جديد والنهوض بأمر الخدمة كالعادة. وأمّا في غير ذلك، فقد بدأت النساء يُغادرن خدورهنّ والبيوت وينصرفن إلى الحاجات التي يجب إليها الانصراف.

لمّا بدأت تباشيرُ الفجر تُعلن انطلاقة اليوم الثاني، ترك الناس الراحة والنوم وهبّوا للعمل وقضاء الحاجات أو الانزواء للحديث أو البكاء. غادر شُقران أهل الصُّفّة وخرج من المسجد. رأى أسامة على الباب. انتابه أمرٌ. أسعدته رؤية أسامة ولكنّه ارتاب. ماذا يفعل أسامة في مثل هذه الساعة عند باب الرسول؟ ولمّا رأى جنبه بُريدة واللواء ظنّ الحرب آتية لا ريب فيها. تقدّم منهما. سلّم بتحيّة الصباح قال: يا فتّاح، يا رزّاق، عمتما صباحاً، يا جُنديْ رسول الله! ثمّ أضاف وقد اقترب منهما اقتراباً شديداً: عمتما صباحاً، يا جُنديْ الله!

كانت هذه التحيّة كافية لبعث الحماس فجراً في أسامة وبُريدة. فهما يعتزّان بانتمائهما إلى الجُند، ككلّ الجند في كلّ مكان. وهما يعتزّان بانتمائهما إلى جند رسول الله، وهذا لا يناله إلاّ مَن انتُدب في جُند رسول الله. وهما يعتزّان

بانتمائهما إلى جند الله، وهذا لا يكون إلاّ بالاصطفاء. ردّا على شُقران التحيّة بأحسن منها وبكلّ حرارة. قال بُريدة: أنعم الله صباحك يا شُقران، يا باهي! وقال أسامة: أنعم الله صباحك يا شُقران، يا خيرَ موالي رسول الله.

فَهِمَ شُقران أنّه بلغ مرماه أو كاد. قال كأنّه لا يُبالي: يا له من يوم جديد! كأنّه يُنبئ بحرارة شديدة! أجاب أسامة بسرعة: هو ككلّ أيام المدينة، يا شُقران، حارّة لا تطاق. ثمّ استدرك: أستغفر الله العظيم، أستغفر الله. قال شُقران: أستغفر الله العظيم، أستغفر الله. عسى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. ثمّ غيّر مجرى الحديث نحو المُراد، قال: هل حدث الليلة حادثٌ استوجب أهبة الجيش يا أسامة؟ كأنكما تنتظران الجيش للخروج؟ طمأنه أسامة: لا، أبداً يا شُقران. مُجرّد احتياط ليس غيرُ. مُجرّد احتياط أراده أبو بكر الصدّيق الليلة. ثمّ أضاف كأنّه يُريد أنْ يُنهي الحديث: كلّ شيء على ما يُرام، يا شُقران. أمرنا أبو بكر أنْ نقف على باب الرسول حتى يأتي أمره بالدفن. لا تخف، ولا تُزعج الناس بالأمر.

كان أسامة يعلم أنّ شُقران سيفشي الأمر في سكك المدينة، وحتى خارج المدينة. فشُقران ثرثارٌ ونقّالةُ أخبار. لم يكن يتحرّى في الأخبار أو يتثبّت في صحّتها. كان همّه أنْ يكون أوّل ناقل لها. كان يبحث عن البوز بلغة الإعلام اليوم.

خطا شُقران إلى الوراء خطوتين أو ثلاثاً وهو يتعجّب بينه وبين نفسه. خامرته الأسئلة. تساءل عن الدفن الذي كان قد نَسيَه، متى سيكون؟ تساءل عن دور أبي بكر في الدفن، لِمَ أبو بكر، والنبيّ أوصى أنْ يتولّى تجهيزه ودفنه أهله، عليّ والعبّاس والفضل؟ تساءل عن انتظار الأمر بالدفن من أبي بكر، ما حُجّته؟ تساءل عن قيام أسامة وبُريدة على الباب، ما السرّ في ذلك؟ سيجري إلى بعض أمناء سرّه ليُجيبوا عن أسئلته ويفسّروا له الأمر، فهم يفقهون في السياسة وهو لا يفقه. وأنّى له أن يفقه في السياسة وهو العبد ثم المولى، ولا العبد يفقه فيها ولا المولى.

بيناً هو على تلك الحال من طرح الأسئلة على نفسه وعزمه على الإسراع إلى مَن يُجيبه عنها، دعاه أسامة إليه. قطع عنه تأمّلاته. تقدّم من أسامة ووقف

له سمعاً وطاعة. قال له أسامة بصوت خافت كأنّه لا يُريد أنْ يُسمعَ صوتَه: ادخل إلى أم أيمن تأتيني يا شُقران.

دخل شُقران إلى حيث كانت أمّ أيمن. كان يعرف مربضها في بهو العبيد والإماء والموالي. كان العبيد والإماء والموالي قد نهضوا منذ ساعة تقريباً ودخلوا في خدمة البيت وأهله من الزوجات والنساء اللائي بقين معهنّ تلك الليلة. كان الناس في ذلك الزمان يُفيقون باكراً، ويفوزون بالخلاء يقضون حاجاتهم الطبيعيّة تحت جنح الظلمة الأخيرة عند الغلس، ولم تكن بالبيوت في ذلك الزمان الكُنف. ثمّ تأخذ الحياة مجراها. عاد الدبيب إلى البيت، وعادت إليه الحركة. وقريباً تنطلق من جديد القصص والروايات.

تقدّم شُقران من أمّ أيمن، أسرّ إليها في أذنها كلاماً. نهضت من رَبَضها الذي لازمته منذ أمس. جرت إلى الباب وخرجت. ذهل العبيدُ والإماءُ والموالي. احتاروا في أمر أمّ أيمن. ما الذي أزعجها فهبّت من رَبَضها وتوقّف فيه البكاء والنحيب والعويل الذي عاد إليها مع الفجر؟ احتاروا في أمر شُقران. كيف اندسّ بينهم ودخل وكان غائباً منذ أمس؟ من أين دخل؟

أغلقت أمّ أيمن الباب وراءها. أمسكت بجريدة من جريده وشدّتها إليها حتى لا يفتحه من الداخل فاتح. وخارج البيت عانقها في ذلك الفجر أسامة ابنُ زيد بن حارثة، ابنُها. كان واقفاً بالباب ينتظرها كما أعلمها بذلك شُقران، لمّا دنا منها وقال: أسامة بالباب يطلبك.

حدّثها أسامة على عجل، قال: أمرتُ يا أمّاه أنْ أحرس باب البيت لأحمي الرسول. قولي لعائشة وحفصة إنّ أبا بكر وعُمر يأمرانهما بأن تمنعا الناس عن باب الرسول، حتى يأتيهما منهما الإذن بدفن الرسول.

قبّلت أمُّ أيمن ابنَها من جديد. قالت له همساً: حَذار الأعداء يا بُني. ثمّ دارت على عقبيْها تفتح الباب الذي كانت تُحكم شدّه إليها، ودخلتْ. سرى فيها شيءٌ غريبٌ لم تعرفه من قبلُ، سرى فيها خوفٌ من المجهول.

دخلت على الرسول المسجّى في البيت بدون إذن كعادة أمّ أيمن في الدخول. سلّمت على النبيّ المسجّى وتمتمتْ بكلام لم تذكره الأخبار. كانت عائشة وحفصة وسودة عند الباب. فلمّا دخلت على النبيّ الحجرة

تبعتها إليها عائشة، وتبعتها إليها حفصة، وتبعتها إليها كذلك سودة. سَرّها ذلك. ستبلّغُ عائشة وحفصة معاً أمرَ أبي بكر وعُمر. لن تحتاج للتبليغ مرّتين. لن تحتاج لرواية القصّة التي جاءها بها أسامة مرّتين. رغم أنّها كانت لا تملّ من قصّ أخبار أسامة ابنها. كان قرّةَ عينها. جاء شُجاعاً مثل زيد أبيه. كان حِبّ حِبّ النبيّ. وكان هذا يَسرّها. ولكنّ الخوف من المجهول نغّص عليها في تلك اللحظة سرورها، فتساءلت: لماذا يتدخّل أبو بكر وعُمر في أمر التجهيز والدفن والنبيّ أوصى أنْ يتولّى ذلك أهلُ بيته؟

قطعت عليها عائشة شريط أفكارها إذ قالت لها: ما وراءك يا أمّ أيمن؟ أزعجها وجود سودة في البيت. تساءلت إنْ كانت سودة من حلف عائشة وحفصة. تساءلت إنْ كان بوسعها أنْ تُخبرَهما الخبر في حضرة سودة. همّت بأنْ تدعوَ عائشة خارج البيت تُخبرها الخبر. تراجعت عمّا همّت به. سيكلّفها هذا دعوة حفصة خارج البيت أيضا، لتخبرها الخبر. وسيكلّفها أنْ تفعل الفعل نفسه مرّتين. رغم أنّها كانت لا تملّ من رواية قصّة فيها أسامة طرفاً. ولكنّ الوقتَ الآن وقت حزن وبكاء واقتصاد في كلّ ما من شأنه أنْ يُوفّر على الجسد الضعيف التعب. ولو فعلت ذلك مرّتيْن لأثارت فضول الزوجات، ولسألنها ما الخبر؟ ألسنَ أزواج النبي، مثل عائشة وحفصة؟ ألسنَ أرامل مثلهما؟ وسيثيرُ هذا حفيظة سودة دون شكّ، فتغضب على أمّ أيمن وتُحمّل حقداً عليها، وقد أخرجتها من حسابها.

أسلمتْ نفسها للصدفة. انتظرت. نقلت اللحظَ بين سودة وعائشة. فهمتْ عائشة حيرتها. أومأت برأسها تأذنها بالكلام، ولا حَرَجَ. أخبرتهما بالأمر. أخبرتهما بما نقل إليها أسامة ابنها من قول أبي بكر وعُمر إلى عائشة وحفصة معاً. وأكّدت على أهمّية أسامة في الخبر. أضافت: إنّ أسامة، ابني، وبعض جنده بالباب، يا عائشة، فلا تخافي يا عائشة. وأعادت الجملة مع توخّي التغيير اللازم: إنّ أسامة، ابني، وبعض جنده بالباب، يا حفصة، فلا تخافي يا حفصة.

لم تَرَ أمُّ أيمن مع أسامة ابنها جُنداً على الباب. توقّعت ذلك، ليس غيرُ. فابنها سمّاه النبيّ قائداً للجيش، وأمّره على أشراف الصحابة من المهاجرين والأنصار. والقائد الجدير بهذا الاسم لا يتنقّل إلاّ مع الجند، حتى يُصدرَ أوامره للجند. تلك سُنّة الحياة في الجند. وأمّ أيمن تَعرفُ هذه السُّنّة. ألم

يكن زيد بن حارثة، زوجها، قائداً للجيش؟ ألم يمت شهيداً في الغزوة؟ ألم يكن يُصدر الأوامر للجند في الغزوة التي مات فيها؟ قطعت عليها سودة التفكير، قالت، وكانت على شيء من الحكمة: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. عسى أنْ تكرهوا أمراً وهو خيرٌ لكم.

خرجت أمُّ أيمن. عادت إلى حيث كان الموالي والإماء والعبيد. ربَضتْ حيث كانت رابضة. عادت إلى البكاء والنحيب والنواح، كأنّ شيئاً لم يكن. ولكنّ الآذان الصاغية إليها انتبهت دون مشقّة إلى تغيّر النغم في بكاء أمّ أيمن ونحيبها والنواح. صار كلّ شيء فيها حشرجةً أو كالحشرجة. مُجرّد أصوات توهم بالبكاء والنحيب والنواح، ولا بُكاءَ ولا نَحيبَ ولا نُواح. فَهمَ العبيد والإماء والموالي في ذلك البهو عند باب الخروج العامّ أنّ شيئاً تغيّر في أمّ أيمن. فهموا أنّ أمّ أيمن تُوهم بالبكاء والنحيب والنواح حتى لا يسألوها ما الخبر؟ وعقدوا العزم جميعاً، دونما اتفاق مُسبق، على اكتشاف الخبر. وسَعَوْا، بينهم وبين أنفسهم، إلى البحث عن خير السبل للوصول إلى هتك سرّ أمّ أيمن.

كان سَفينة[286] أشدّهم حرصاً على هتك السرّ. استغفر الله العظيم واستعاذ من الشيطان الرجيم، كعادة سفينة إذا ما أراد الكلام. ثمّ قال موجّهاً الكلام إلى أمّ أيمن: نحن يا أمَّ أيمن يتامى مثلك وقد مات الرسول. ألسنا جميعاً مواليه وعبيده وإماءه؟ ألسنا جميعاً قد أعتقنا ثمّ خيّرَنا بين الحرّية المطلقة والرحيل عنه أو البقاء في بيته وخدمته مدى الدهر؟ ألم نختر جميعاً البقاء عنده، وفضّلنا خدمته؟ إنّ ما يُؤلمك، يا أمَّ أيمن، يُؤلمنا. وإنّا مثلك، يا أمَّ أيمن، لا حولَ لنا ولا قوّة. فكُفّي، نرجوك ثمّ نرجوك مُجدَّداً، عن البكاء، رأفةً بك، ورأفةً بنا، فقد فَتّتِ قلوبنا يا أمَّ أيمن، يا أمَّنا.

أصلحتْ أمُّ أيمن من حالِها. استقامت في جلستها. وجّهت لهم جميعاً خطابها. قالت: «أي والله، لقد علمتُ أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم سيموت، ولكنّي إنّما أبكي على الوحي إذ انقطع عنّا من السماء، أبكي على خبر السماء إذ انقطع[287].» فاجأتهم بجوابها الحكيم. بكوا جميعاً على انقطاع خبر السماء. أصبحوا في لحظة حُكماء. كانوا لقربهم من الرسول شُهداءَ على خبر السماء. كانوا لقربهم من الرسول يشعرون بالحماية من السماء.

كانوا لقربهم من الرسول يشعرون بأنّ السماء تظلّهم وربَّ السماء يرعاهم من هنالك. شعروا في نفس اللحظة بالوحدة. شعروا بأنّ العبودية ما زالت قائمة. صاحوا صيحةً واحدةً اهتزّ لها البيت، قالوا، نساءً ورجالاً من العبيد والإماء والموالي: لمن تركتنا يا رسولَ الله؟ لمن تركتنا يا الله؟

بكوا جميعاً بكاءً صادقاً طويلا. انتحبوا في ذلك الفضاء. ثمّ ساد الصمتُ. توقّفت أمُّ أيمن مثلهم عن البكاء. استغفروا الله العظيم. ساد الصمتُ الرهيبُ الفضاء.

كان سَفينة لا يُحبُّ الصمتَ الرهيب. اقترب من أمّ أيمن. استغفر الله العظيم من جديد وعاذ به من الشيطان الرجيم، كعادة سفينة إذا ما أراد الكلام. اقترب العبيد والإماء والموالي من فضاء أمّ أيمن وسفينة. فهم سفينة أنّ سُمَّه فعل فيها فعله. كان سفينة عالماً بأمر النساء من الموالي والإماء. بل كان عالماً بأمر النساء من الحرائر وأزواج النبي أيضاً، فقد خدم أمّ سلمة زوجِ النبي قبل أنْ تتزوّج النبي، وهي التي جعلته في خدمة النبيّ. كان سفينة يَعزفُ على كلّ وتر حسّاس في الإنسان، فيستجيب كلّ وتر حسّاس في الإنسان لما يُريد سفينة. فجرّب وتراً حسّاساً آخر مع أمّ أيمن، قال لها: يا بَرَكَة العزيزة، كأنّي لمحتُ أسامة بالباب، يا أمَّ أسامة.

ارتجّت أمُّ أيمن، استقام ظهرُها باستقامة الحائط الذي كان يسندها. فاجأها كلام سفينة. تساءلتْ: متى رأى سفينة أسامة بالباب وهو لم يخرج من هذا البهو منذ ضحى أمس، وقد لازم النساءَ من الموالي والإماء منذ جاءه الخبر بموت النبيّ، كعادة سفينة إذا ما اجتمعت النساء؟ ولكنّ كلام سفينة أعجبها، لأنّها لم تسمع مُنادياً يُناديها باسمها بركة منذ زمن بعيد. تذكّرت شبابها. تذكّرت آمنة أمَّ النبيّ وكانت خادمتها. تذكّرت كيف قاسمتها تربية محمّد مذ كان في المهد صبيّاً. رأت بعينيْها الضيّقتيْن اللتيْن فعل فيهما الزمن فعله محمّداً يلعبُ أمامها ويصعد ركبتيها ويُمسك رقبتَها. تذكّرت كيف كانت تلاعبه، ويُسرّ بلعبها. استرجعت الماضي القديم وابتسمت. سرّها ذلك أيّمَ سرور. وأعجبها كلام سفينة لأنّ هذه هي المرّة الأولى التي سمعت فيها مَن يُناديها يا أمّ أسامة. لقد غلبت عليها كنيتها الرسميّة أمّ أيمن[288]، ولم تُكنَّ قطّ بأسامة. كانت تحبّ لا محالةَ ابنها أيمن من زوجها الأوّل وتكنّت

به لمّا أنجبته، والكنية تكون بالمولود الأوّل. وهي لا تَطعن في هذا العُرف ولا تتهرب منه. ولكن لأسامة، ابنها من زوجها الثاني، زيد بن حارثة، مكانة خاصّة. فما ضرّ لو تكنّتْ به، أو حتى تكنّت بهما معاً؟

أعجبها كلامُ سفينة. ذكّرها بزمن الشباب لمّا كانت فتاةً يافعة جميلة. ذكّرها بأنها أمّ القائد الذي أمّره النبيّ على جيش المسلمين ووضع تحت إمرته أشراف الأنصار والمهاجرين. أعجبها كلامُ سفينة. نسيت البكاء والنحيب والنواح. نسيت السماء وخبرَها الذي انقطع. قالت: نعم يا سفينة، أسامة ابني بالباب، جاء يحرس النبيَّ، جاء يحرس أزواجَه، جاء يحرسنا. ثمّ انطلقت في خطبة طويلة، قالت: يا سفينة، نحن عائلة النبيّ في خدمة الإسلام والنبيّ. كذلك كان زيد زوجي، وكذلك هو أسامة ابني. يا سفينة، إنّ أسامة ابني في خدمة الإسلام الذي أراده الله أنْ يكون فكان. يا سفينة، إنّ أسامة ابني في خدمة الإسلام الذي أراده محمّد أنْ يكون فكان. يا سفينة، إنّ أسامة ابني في خدمة الإسلام الذي سيكون. لقد أرسله أبو بكر وعُمر إلينا ليقف عند الباب لا يُغادره.

توقّفت أمّ أيمن عن الكلام. أوجست خيفة من الجملة الأخيرة التي نطقت بها. انتصبت قائمة. كان ذلك إيذاناً منها بإنهاء الحديث في هذا الغرض. توقّف سفينة عن السؤال. لم يعد يصبو إلى معرفة المزيد. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى زملائه من العبيد والإماء والموالي. عرفوا أنّ أسامة بالباب، وعرفوا مَن أرسله. وهذا كاف في حدّ ذاته. أمّا خطبة أمّ أيمن في زيد وأسامة وانتسابها صراحة إلى العائلة، فقد أزعجتهم وتمنّوا أنْ ليتها ما كانت. فأمّ أيمن مثلهم تماماً وهم لا يُريدون أنْ تفخر عليهم أو تزهو. ومع كلّ هذا الذي كان، كانوا يُقرّون بدور زيد وأسامة في خدمة الإسلام، ويعرفون فضل الإسلام في الرفع من شأن العبيد والإماء والموالي، ويروون باعتزاز وفخر الحديث التالي: «يرفع الله بهذا العلم أقواماً فيجعلهم قادة يُقتدى بهم في الخير، وتُقتصّ آثارهم، وتُرمق أعمالهم، وتَرغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم[289].»

3

لا شَيءَ مثلُ الدين في عالم العبيد والإماء والموالي. لا شَيءَ مثلُ الدين يُغيِّرُ العبيدَ والإماءَ والموالي فتراهم أشرافاً، وتراهم أسياداً. وللتمثيل على هذا الكلام النافذ في الصميم، نروي لكم قصّة أسامة وأبيه زيد بن حارثة، وقد كان أسامة فيها بطلاً، وكان أبوه فيها بطلاً، وخير بطل.

جاء في الأخبار أنّ مُحمّد بنَ عبد الله، ساعةَ التقى خَديجة بنتَ خويلد، كان شابّاً يتيماً، ولم يكن نبيّاً، وكانت هي قد تربّعتْ على سدّة الشرف العالي والمال الغزير الوافر. أكرمته ووضعته على تجارتها وضعّفت له الأجر، وأنتم تعلمون ذلك علم اليقين. ولمّا تزوّجته أكثرت له الهدايا والعطاء، وحَبتْه بخير ما عندها. وكان زيد بنُ حارثة[290] من خير ما عندها، غلاما يَفَعَةً قد أوْصَفَ[291] وصلُح للخدمة. كان ليّناً جميلاً، ابنَ ثمان من السنين، أصابه سباء في الجاهلية وكان من أحرار الكلبيين، ووافى به مُختطفوه «سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حِزام بن خُويلد لعمّته خديجة بنت خُويلد بأربع مائة درهم[292]» فاستعملته للخدمة ثمّ وهبته لمحمّد بن عبد الله زوجها الجديد، فأعتقه وجعله مولاه. ولمّا اهتدى أبوه وعمّه إلى مكانه في مكّة وجاءا مكّة يطلبانه خَيّرَه محمّد بينه وبين أهله، فاختار محمّداً وفضّله على أهله، فصاح فيه أبوه وعمّه: «ويحك يا زيد، أتختار العبوديّة على الحرّية وعلى أبيك وعمّك وأهل بيتك؟ قال: نعم، إنّي قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً[293]» «فلمّا رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذلك من زيد أخرجه إلى الحجر، فقال لمن حضر: اشهدوا أنّ زيداً ابني أرثه ويرثني. فكان زيدٌ يُدعى ابنَ محمّد حتى جاء الإسلام[294]» وقال القرآن قولته الشهيرة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ[295]﴾ فعاد زيدٌ مولى كما كان، وتسمّى من جديد باسم أبيه، فكان يُدعى زيد بنَ حارثة.

كانت العلاقة بين محمّد وزيد عجباً عُجاباً، لم يأت مثلها في الكتب. كانت علاقةَ حُبّ شَديد عَذب، ربط بينهما ولم يُفرّق. وكان مُحمّدٌ يُسمّي زيداً الحِبّ[296]. ولمّا بُعثَ إليه وصار نبيّاً وغزا وفتح، استخلف زيداً حِبّه على المدينة أحياناً، وأرسله في الجيش ليغزو تسع مرّات، كان في كلّ مرّة يُؤمّره على الجيش[297]، ويجعله على رأس الوجوه والأشراف من المهاجرين والأنصار، رغم طعنهم الشنيع، مهاجرين وأنصاراً، في هذه الإمارة. وكان يشتاق إليه شوقاً كبيراً إذا غاب عنه، وإنْ لغزوة. وكان يجري إليه مُلاقياً، إذا ما سمع صوته عائداً، لا يُبالي إنْ كان عليه ثوبٌ أو كان عارياً[298]. كان لا يَخاف في زيد لومةَ لائم. ولمّا وافت المنيّةُ زيداً شهيداً في مؤتة[299] بكى الرسول وقال: «هذا شوقُ الحبيب لحِبّه[300].»

وكان خير وجه لهذه العلاقة الرابطة بينهما ما كان من أمرهما في قضيّة زينب بنت جحش. فقد زوّجها النبيُّ زيداً، ولمّا قضى منها زيدٌ وَطراً أعجبت النبيّ لمّا تعرّت له صُدفة من وراء السِتْر، فتنحّى عنها زيدٌ وتخلّى عنها للنبيّ، فتزوّجها[301]، رغم طعن الحسّاد والقائمين على أمور العُرف وحقوق التبنّي. وقد حسم القرآنُ، كما تعلمون، الأمرَ بتلكم الآيات الحكيمة التي زوّج فيها اللهُ النبيَّ زينب[302]، وأسقط التبنّي وقطع سبل التقوّل أمام كلّ متقوّل[303]. وقد شاءت الأخبار التي روّج لها فقهاءُ أهل الحجاز ولم يَعترها شيءٌ من الحياء ولم يُخمدها صوتُ السنّة الثقافية الصارخة، أنْ يُلازم النبيُّ زينب ملازمةً دائمة وكأنّ النساء غيرها لم يكنّ، حتى قيل إنّ وجعَه الذي أصابه وقُبضَ فيه أصابه وهو في بيتها[304].

أعرف أنّكم تُحبّون مثلي قصّة زيد بن حارثة وما كان من أمره مع النبيّ. وأعرف أنّكم تُحبّون مثلي زينب بنتَ جحش وتفضّلونها مثلي على النساء، وتودّون أنْ نواصل فيها القصّة. ولكن لا مفرّ من الاستغناء عن ذلك في هذا الكتاب الذي يروي قصّةً تمّت أحداثُها وزيد قد تُوفّي وصار ذكرى، وزينب ترمّلت بموت الرسول. فاسمحوا أنْ ننتقل إلى قصّة أسامة[305]، وهي لا تقلّ عجباً عن قصّة أبيه زيد. فهذا الشبل من ذاك الأسد، والله.

كان أسامة ابناً لزيد بن حارثة الذي مرّ بنا منذ حين. وكان ابناً لبَرَكة، أمّ أيمن، التي مرّت بنا في الفصل السابق من هذا الكتاب. وقد نشأ أسامة في

حجر النبيّ مثل أبيه زيد. وكان مولى النبيّ مثلما كان أبوه زيد مولى النبيّ، ومثلما كانت أمّه بَركة، أو أمّ أيمن حسب كنيتها التي اشتهرت بها، مولاة النبيّ[306]. فأبناء العبيد والإماء والموالي يولدون عبيداً وإماءً ومواليَ، ويظلّون كذلك، مثل آبائهم والأمّهات. تلك سنّة من سنن الله في الإسلام، وعُرفٌ من أعراف العرب في الجاهلية. شيءٌ ثابتٌ لا يقبل التغيير، يُنظّمُ حياةَ العرب في الجاهلية والإسلام. ولكن تلك قصّة أخرى. المهمّ عندنا هنا أنْ نَهتمَّ بأسامة صاحبنا.

كان النبيّ يُحبُّ أسامة مثلما كان يُحبُّ أباه زيداً. وكان يُسمّيه الحِبَّ مثلما كان يُسمّي أباه، أو يُسمّيه الحِبَّ بن الحِبّ[307]. كلّ شيء كان يجمع بين زيد الأب وأسامة الابن، إلاّ شيء واحد فرّق بينهما وكان نُدرة المُتندّر. فقد كان زيدٌ أبيضَ أحمرَ أشقر، وكان أسامة أسودَ فحمة، مثل الليل تماماً[308]. ولو لم يشهد بعض أهل الفراسة والعلم بالأنساب والأشباه أنّ هذا الابن من ذاك الأب لوقع ما لا تُحمَدُ عُقباه، ولظلّ النبيّ مغتمّاً. ولكنّ أهل الفراسة والعلم بالأنساب والأشباه أنجدوا النبيّ بالخبر اليقين فصار إلى أهله يزفّ بشرى انتساب أسامة إلى زيد[309]. وهذا هامّ عند العرب.

كان أسامةُ عند النبيّ مثل حفيده الحسن، يُجلسه على ركبته وعلى الركبة الأخرى يُجلس الحسن. كان يُحبّهما معاً ويدعو الله أنْ يُحبّهما مثله[310]. كان أسامة واحداً من أهل البيت، وأحبَّ أهل البيت إلى النبيّ، فكان يدعو الناس إلى أنْ يُحبّوه مثلما كان يُحبّه[311]. كان يقوم على تربيته، ويمسح دمعه إذا بكى، ولا يَقْذَرُ به مثلما كانت عائشة تَقْذَرُ، وينهر فاطمة إذا ما فاطمة تأذّتْ به. كان إذا ما أصابه الوَسخُ غسل وجهه، وإذا ما أصابه عطبٌ أو جرحٌ واختلط دمه بالقذر وسال امتصّ ذلك بفمه وكرّر الامتصاص[312].

وكان النبيُّ إذا ما خرج إلى حجّ أو فتح اتّخذ أسامة رديفاً على دابّته[313]، حتى سمّاه القومُ الرّديف[314]. وكان إذا ما تأخّر أسامة لقضاء حاجة أخّر النبيُّ الشعائرَ والمناسكَ من أجله، وويلٌ لمَنْ تَقوّل في ذلك أو طَعنَ، ستنزل به اللعنةُ من حيثُ لا يدري، وإنْ بعد مدّة من السنين[315].

وكان النبيُّ يقول في أسامة، بشيء من التمنّي أو لعلّه الحسرة: لو كان أسامة جاريةً لكساها وحلاّها وزيّنها وأعطاها مالاً وإبلاً وأنفقها للرجال حتى يُرغبَ فيها[316].

وقد أمّر النبيُّ أسامة واستعمله على جيش المسلمين وهو ابن ثماني عشرة سنة[317]، وسَيّرَه إلى غزو الروم حيث مات أبوه شهيداً، ومات جَعفر ابن عمّ النبيّ شهيداً، ومات عددٌ من أصحابه المقرّبين شُهداء. وقد قام كلّ شيء في هذه الغزوة الشهيرة شاهداً على أنّها كانت ثأراً للغزوة التي قُتل فيها زيد بنُ حارثة، حِبُّ النبي، وجَعفر بنُ أبي طالب، ابن عمّ النبيّ، وأصحابٌ له مقرّبون[318]. ومَنْ ذا يقوم خيراً من الابن ليأخذ بدم أبيه وآل البيت والمقرّبين؟

وقد وضع النبيُّ تحت إمرة أسامة أوائل المسلمين والأشراف، «فلم يبقَ أحدٌ من وجوه المهاجرين الأوّلين والأنصار إلاّ انتُدبَ في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصدّيق وعُمر بنُ الخطّاب وأبو عُبيدة بنُ الجرّاح وسعد بنُ أبي وقّاص وسعيد بنُ زيد وقَتادة بنُ النعمان وسلمة بنُ أسلم بنُ حَريش[319].»

وقد طعن هؤلاء الوجوه والأشراف في هذا الشابّ اللطيف الذي جعله النبيّ يسود الجيش أمردَ. «أكثر المنافقون في تأمير أسامة[320]» وقال الناس في إمرته: «أمّر غلاماً حَدَثاً على جِلّة المهاجرين والأنصار[321].» ورغم تقوّلهم جميعاً فيه بشتّى الأقاويل بسبب سنّه وأصله والنسب، فإنّ النبيّ أصرّ على تأميره وبعثه، ووجد له التعلاّت الكثيرة والحجج، وقام يخطب في الناس، رغم وجعه وهو يومها على فراش المرض الذي مات فيه، ويردّ على المتقوّلين أقاويلهم الباطلة[322].

جاءت غزوة أسامة تطرح الإشكال في عالم الغزوات وتبعث في النفوس الحيرةَ والتساؤل وشتّى أنواع المُزايدات. وهي الغزوة الوحيدة التي شاءها النبيّ وجهّز لها الناس تجهيزاً مُحكماً وصار فيها وراء الجيش يُودّع أسامة والجيش، ولكنّها ظلّت مشروعاً في عهد النبيّ ولم تُنجز إلاّ في عهد غيره. فما الذي جرى يا تُرى؟

4

تروي الأخبارُ الطوال أنّ النبيّ عَيّنَ الناسَ أجمعين للخروج في جيش أسامة، ولم يستثنِ إلاّ عليّ بنَ أبي طالب. نعم، هكذا ذكرت الأخبار. استثنى النبيّ عليّاً ولم يجعله في جيش أسامة الخارج إلى حرب الروم وأبقاه جنبه في هذا المرض الذي كان يُؤذن برحيله. وقد زاد هذا الطين بلّة، كما تقول العرب، فكثُرت في الجيش الطعون، وتقاعس الناس في الالتحاق به حيث عَسْكَرَ وامتنعوا عن الخروج. ولم يخرج ذلك الجيش إلى حرب الروم في عهد النبيّ المُحتضر أبداً.

وقد برزت في ذلك الجيش التناقضات وكثرت بشأنه التساؤلات، نذكر لكم منها هنا ثلاثة كرّستها الأخبار في الكتب. أوّلها على علاقة بالقائد المُعيّن على إمرة الجيش، أسامة بن زيد: كان ينتمي إلى دائرة العبيد والموالي، من أصل وضيع، حَدَث، غليظ الشفتين أسود فحمة، مثل عُطيل القصّة، كلّ شيء فيه صارخٌ بالانهيار. فلِمَ هذا الاختيار؟ وثانيها على علاقة بالناس الذين جُعلوا تحت إمرته: جَنّد النبيّ الناس أجمعين، مهاجرين وأنصاراً وملتحقين بالصفّ بعد المهاجرين والأنصار، أسياداً وأشرافاً وأحراراً ينتسبون أباً عن جدٍّ، وجدّاً عن جدٍّ جدٍّ وهلمّ جرّا، إلى خير قبائل العرب. فلِمَ جنّد الناس أجمعين؟ وثالثها على علاقة بتخلّف عليّ وبقائه إلى جنب النبيّ، وهو قريبه، ابن عمّه وصهره ورأس أهل البيت. فلِمَ هذا الاستثناء؟

رأى الناسُ، والعُهدةُ في ذلك على الأخبار، أنّ النبيّ ما أخرج الناسَ أجمعين وترك عليّاً جنبَه إلاّ ليُنصّبَه في غيابهم خليفةً من بعده وقد شعُر بقرب الرحيل[323]، وكان النبيّون يشعرون بقرب الرحيل. وقد نَعت الآياتُ في القرآن، بناء على ما فهم الناس منها وما فسّر المفسّرون، النبيَّ إلى نفسه والمسلمين[324]، فانتظروا رحيله[325]، وانتظروا وصيته في خليفته. كانوا

يعتقدون أنّ الأنبياء يُعيّنون في الناس الخلفاء، إذا ما شعروا بقرب الرحيل. ألم يترك موسى في الناس هارون؟ ألم يترك إبراهيم في الناس إسحاق ثمّ يعقوب؟

ولم تَستثن الأخبار محمّداً من الأنبياء. جعلته مثلهم يوصي بخليفته في الناس، وإنْ بدا الناس يومها لا يفهمون عليه وصيته. انظرهم يتجادلون في حديث الثَّقَليْن[326] الجدلَ المقيت، ويرمي فيه بعضُهم بعضاً بالجهل وعدم الفهم، ويتّهم فيه بعضُهم بعضاً بالتقوّل على النبيّ، ويُخوّن فيه بعضهم بعضاً.

كان حديث الثَّقَليْن، والعهدة في ذلك على عليّ وآل عليّ من بعده والشيعة أتباعه الذين ساندوه وأورثوا آله السند، حديث الوصيّة عن جدارة. وقد صرّح فيه النبيُّ على الملإ أنّه تارك في الناس الثقليْن، كتاب الله وآل بيته، عترته، إذا ما أخذ بهما الناس اهتدوا وما ضلّوا. ولكنّ الناس وقد تشكّلوا من بعدُ أهلَ سُنّة وجماعة اختلفوا في آل البيت. اختلفوا في العترة والأهل. رأت قلّةٌ في ذلك وصيّة صريحة لعليّ بن أبي طالب، ورأت الأغلبية أنْ لا علاقة لذلك بالوصية لعليّ، وقاموا إلى عليّ وأهل البيت والعترة يُقصونهم ويحاربونهم ويُقتّلونهم. وذلك أمرٌ تعلمونه علم اليقين من خلال الأخبار والمرويات وأمّهات الكتب التي كفتنا التكرار، فلا نحن نُثقل الكتاب، ولا نحن نُحمّلكم غير وسعكم، بل نكتفي بالإشارة إشارةً خفيفة إلى هذه الوصية التي اختلف الناس بشأنها وظلّت إلى الأبد مشروعاً لا مُنجَز له.

روت الأخبار أنّ النبيّ بيناً كان عائداً من حجّة الوداع «أتاه جبريل عليه السلام عن الله عزّ وجلّ فقال: يا محمّد، إنّ الله عزّ وجلّ يُقرئُك السلام ويقول لك: إنّه قد دنا أجلك ومدّتك وأنا مُستقدمك على ما لا بدّ منه ولا عنه محيص، فاعهد عهدك وقدّم وصيّتك واعمد إلى ما عندك من العلم وميراث علوم الأنبياء من قبلك والسلاح والتابوت وجميع ما عندك من آيات الأنبياء، فسلّمه إلى وصيّك وخليفتك من بعدك حجّتي البالغة على خلقي عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فإنّي لم أقبض نبيّاً من الأنبياء إلاّ من بعد إكمال ديني وإتمام نعمتي بولاية أوليائي ومعاداة أعدائي، وذلك كمال توحيدي وديني وإتمام نعمتي على خلقي باتباع وليي وطاعته وذلك أنّي لم أترك أرضي

بغير وليّ ولا قيّم ليكون حجّة على خلقي، فإنّي ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[327]»

خاف محمّد على عليّ بن أبي طالب من هذه الوصيّة التي تُنذر بالخطر. احتار في الأمر واكتأب ولم يُعلن الوصيّة على الملإ. كان يعرف أنّ الناس أهل نفاق وشقاق انطوت أنفسهم على العداوة والبغضاء لعليّ، ابن عمّه المفضّل وزوج فاطمة الزهراء ابنته المدلّلة. خاف إنْ هو صرّح بالخبر أنْ يتفرّق الناس من حوله ويرجعوا إلى جاهليتهم الجهلاء فأراد أنْ يتحصّن بعهد من الله يؤمّن له المسيرة القادمة ويضمن لعليّ الولاية والخلافة من بعده، وسأل جبريل أنْ يسأل الله العصمة من الناس ويأتي بالدليل على أنّ الله سيحفظه ويحفظ عليّاً إنْ هو صرّح بالخبر. أخذ جبريل عن محمّد ما سأل، وقصد السماء يحمل ذلك إلى مَنْ يهمّه الأمر. وانتظر محمّد الردّ، ولكنّ الردّ لم يأت، فواصل طريقه إلى المدينة ولم يُبلّغ الرسالة ولم يُعلن الوصيّة على الملإ. ولمّا التحق به جبريل كان قد قطع أميالاً من المسير، وسُرّ أيّمَ سرور لمّا رأى جبريل، رغم تأخّره عنه بلا مبرّر، وظنّ أنّ جبريل أتاه من ربّه بالعصمة التي كان ينتظر وبالعهد الذي يُسهّل عليه الأمور. ولكنّ جبريل كان فارغ اليدين، لا عصمةَ معه ولا عهد. جاء فقط يُذكّره بأنّ عليه تنفيذ أمر ربّه وإعلان وصيته على الملإ بتعيين عليّ خليفته[328]. ولمّا رأى من الأمر ما رأى قال مُخاطباً جبريل، بحزم وجدّ، وفي نبرته شيءٌ كالغضب: «يا جبرئيل، إنّي أخشى قومي أنْ يُكذّبوني ولا يقبلوا قولي في عليّ عليه السلام[329].»

لم يَخْفَ عن جبريل ما كان في نبرة محمّد من حزم وجدّ. لم يَخْفَ عنه ما كان في نبرته من شيء كالغضب. أيقن أنّ محمّداً لن يَجهرَ بالوصيّة إذا لم يأته من عند الله عهدٌ وعصمة، فسارع إلى العمل. اختفى عن نظر محمّد قبل أنْ يرتدّ لمحمّد طَرفُه. طار بأجنحته الستمائة عائداً من حيث جاء، يُبلّغ الله الذي كان على العرش استوى مقالةَ محمّد النبيّ، فحُمّل في الحين رسالةً نزل بها نزلةً أخرى يريد محمّداً الذي كان قد حثّ السير مُغضباً عائداً إلى مدينته المنوّرة. وقد خلّدت الكتب هذه النزلة الأخيرة في قصّة شهيرة سُمّيتْ حديث الغدير، غدير خُمّ، منها هذا الكلام: «فلمّا بلغ غدير خُمّ قبل الجُحفة بثلاثة أميال أتاه جبرئيل عليه السلام على خمس ساعات مضت من النهار

بالزجر والانتهار والعصمة من الناس فقال: يا محمّد إنّ الله عزّ وجلّ يقرئك السلام ويقول لك: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ – في عليّ – وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[330]»

سُرّ مُحمّدٌ بالعصمة التي منحته الآية وقام إلى الناس يُبلّغهم الوصيّة في تولية عليّ من بعده جاعلاً من الزجر والانتهار اللذيْن احتوتهما الآية حُجّةً وتبريراً فقال: «أوحى الله إليّ إنْ لم تُبلّغ رسالاتي عذّبتُك وضمن لي العصمة فقويتُ[331].» وقد «أكثر المفسّرون في الآية الأقاويل، فقيل: المعنى إنْ تركتَ تبليغَ ما أُنزلَ إليك وكتمتَه كنتَ كأنّك لم تُبلّغ شيئًا من رسالات ربّك في استحقاق العقوبة [...] وقيل: اشتهرت الروايات [...] أنّ الله أوحى إلى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أنْ يستخلف عليّاً عليه السلام فكان يخاف أنْ يشقّ ذلك على جماعة من أصحابه فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه[332].» وقيل: «هذا تأديبٌ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتأديب لحملة العلم من أمّته ألاّ يكتموا شيئًا من شريعته[333].»

وقد أقرّ المفسّرون والمحدّثون والعارفون بأسباب النزول، سنّةً وشيعةً على السواء، أنّ «هذه الآية نزلت يوم غدير خُمّ في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه[334].» وأضاف بعضُهم أنْ قد «نزلت الآية في فضل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولمّا نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: مَنْ كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ والِ مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه، فلقيه عُمر رضي الله عنه فقال: هنيئاً لك يا ابنَ أبي طالب أصبحتَ مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة[335].»

اشتهر غدير خُمّ عند الناس، واختلفت فيه الأحاديث والروايات والأقاويل، وخصّه العلماء بالمقالات والفصول، وخصّوه بالكتب[336]. واتفقوا جميعاً، سنّةً وشيعةً ومذاهبَ أخرى أنّ حديث الغدير جاء في عليّ ولكنّهم اختلفوا، وفق المذاهب والأهواء، في كونه وصيةً بالخلافة لعليّ، أم مجرّد قول بالولاء. وقد عيّنوا لهذا اليوم الثامنَ عشر من ذي الحجّة تاريخاً، وقامت الشيعة في مصر والعراق، منذ القرن الرابع الهجري، تحتفي به عيداً من أهمّ الأعياد، وهو ما زال حتى هذا التاريخ محلّ احتفاء وتقديس في بلاد فارس القديمة وإيران الحديثة[337].

ولم تكتف بعض الكتب بذكر الحديث مختصراً كما مضى بل جعلته في إطار خطبة غرّاء، صدع بها النبيّ أمام جمهور المسلمين الذين جمعهم للصلاة وأخذ عليهم البيعة لعليّ، وقد بلغ عددهم سبعين ألف نفر، بعدد أصحاب موسى الذين أخذ عليهم البيعة لهارون[338]. وقد جعلت الشيعة هذه البيعة أمراً مقضيًّا، وقامت تقصّ على الناس نبأها بالحقّ، واستعملتها حجّة على الناس تُبرّر بها رفضهم الخروج إلى الحرب في جيش أسامة وقد ظنّوا أنّ النبيّ عيّنهم جميعا للخروج واستبقى عليّاً ليخلو له الجوّ وينصّبه خليفة من بعده وهم غائبون.

5

كان أسامة بن زيد واقفاً على باب الرسول وعلى يمينه اللواء الذي عقده له ليخرج إلى حرب الروم. وكان بُرَيْدة بنُ الحُصيْب واقفاً على يمين اللواء، مثله لا يُحرّك ساكناً. لقد مات الرسول ولمّا يخرجْ أسامة إلى حرب الروم. ظلّ مُعسكراً بالجُرف ينتظر وجوه المسلمين، ينتظر المصير. ولمّا مات الرسول دخل المدينة مع المسلمين الذين عسكروا معه بالجُرف، وهو يبكي بكاء الثكلى على الرسول. تجمّعوا عند بيت الرسول، وهو يبكي بكاء الثكلى على الرسول. كان الرسول أباه ومولاه وربّه بدون منازع.

دخل من توّه على النبيّ المسجّى وقبّله وطلب منه أنْ يغفر له ذنبه إنْ كان أذنب. كان يعرف أنّ الله وحدَه يغفر الذنوب، ولكنّه في تلك اللحظة شعُر بالفراغ والوحدة والعزلة. شعُر باليُتم. خاف أنْ يكون قد أذنب في حقّ النبيّ ربّه ومولاه. ولمّا خرج من عند حضرة النبيّ المسجّى قادته قدماه، من غير أنْ يشعر، إلى المسجد الذي خلا ساعتئذ إلاّ من أهل الصُّفّة الذين كانوا يقرؤون آيات من القرآن تُنذر بقرب النهاية وتؤكّد أنّ الساعة آتية لا ريب فيها. برك عند زاوية بعيداً عن أهل الصُّفّة. أجهش بالبكاء ساعة من الزمن. أسند ظهره إلى الحائط. أخذته سنة من النوم، أو هكذا خُيّل إليه.

نام ساعة أو ساعتيْن، لا يدري بالضبط. رأى حُلماً مُزعجاً. أرعبَه الحُلمُ المُزعجُ. رأى فيما يرى النائم أنّ أقواماً جاءت تفتكّ جُثّة النبيّ. رأى فيما يرى النائم أنّ أصحاب النبيّ، وفيهم أبو بكر وعُمر وعليّ وأبو عبيدة بن الجرّاح وسعد بن عبادة وآخرون، قد سلّوا سيوفهم وأخذ بعضُهم يُهدّد بعضاً. رأى فيما يرى النائم أنّ جسد النبيّ المسجّى في بيت عائشة لم يُوارَ التراب وقد مضى عليه ثلاثة أيام. رأى الجسد كأنّه يتعفّن وتخرج منه رائحة. رأى نفسه تحت قدميْ إبليس يرفسه رفساً، ويجلده جلداً، ولا أحد يفتكّه منه. هبّ من

نومه مذعوراً وقد آلمه ضربُ إبليس ورأى شيئاً كالشبح قد انكبّ عليه يخضّه خضّاً ويقول له كلاماً لا يفهمه. لم يتبيّن الشبح. كان الظلام مُخيّماً على المكان. لم يكن يدري إنْ كان في يقظة أو منام. قال بصوت رفيع: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وشرع يقرأ شيئاً من سورة يس. توقّف لمّا سمع صوتاً يقول: أتعوذ بالله مني يا أسامة؟ أفاق من نومه بالكلّية. عرف الصوت. هذا صوت بلال بن رباح، مؤذّن الرسول. كان بينه وبين بلال ودّ كبير ورثه عن أبيه زيد الذي كان الودُّ قد جمع بينه وبين بلال بعد أنْ نزل بلالٌ بيتَ الرسول وقد اشتراه أبو بكر الصدّيق من أسياده الذين كانوا يسومونه العذاب، وكان ذلك قبل أنْ يولد أسامة. اعتذر لبلال اعتذاراً صادقاً وقال له بودّ كبير: إنّه لحلم مُزعج يا بلال أصابني وظننته حقيقة لا شكّ فيها، والآن وقد رأيتك عرفتُ أنّه حُلمٌ مُزعجٌ ليس غيرُ. الحمد لله، الشكر لله، وأعادها ثلاثاً لا يتوقّف.

لم يسأل بلالا عن الحُلم المُزعج ولم يُخبره أسامة به، رغم أنّه اشتهى لو سأله بلال عنه وقاسمه العبءَ الذي كان يجد منه. كان بلال قد جاء في مهمّة، وعليه أنْ يُنفّذ المهمّة، كعادة بلال إذا ما كُلّف بمهمّة. يُصبح جدّاً خالصاً ولا يهتمّ بشيء غير تلك المهمّة. كذلك كان بلال دائماً في عهد النبيّ، وها هو يفعل نفس الشيء وقد كلّفه بالمهمّة غير النبيّ.

أخذ بلال بذراع أسامة وقاده في الظلام المخيّم على المدينة، وسار به إلى حيث لا يدري. عثر أسامة في الطريق مرّات، سبعاً على وجه التحديد، ولولا بلال الذي كان يسنده لسقط في كلّ مرّة. كان كالغائب عن الوجود، أثقل كاهلَه الحزنُ والبكاءُ والتحسّرُ على وفاة الرسول. سار لا يلوي على شيء. سار في ذراع بلال لا يسأل بلالاً عن المصير. كان يرتاح كثيراً لبلال. أخذه بلال إلى حيث كان يُريد.

قطع به بلال ميلاً كاملاً من الطريق وهو كالغائب عن الوجود. ولمّا نَبحتْ كلاب الحيّ حَملقَ يتبيّنُ المنازل التي أضاءتها في الظلام بعض الأنوار الخافتة المتسرّبة من المواقد. عرفها في الحين. هذه منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة. هذه السُّنحُ[339] حيث يسكن أبو بكر. ذُعرَ. توقّف. نزع ذراعه من ذراع بلال. صاح فيه: إلى أين تأخذني يا بلال؟ ماذا جرى؟ خاف خوفاً شديداً. ارتعد كالمصروع. أجابه بلال بهدوء: أبو بكر يطلبك يا

أسامة، وقد بعثني إليك بالرسالة. هذه فاتحة خير يا أسامة. لا شيءَ غير الخير يا أسامة، فصلّ على النبيّ وسلّم. صلّى على النبيّ وسلّم تسليماً كثيراً، وأسلم القياد لبلال، فدخل به منزل أبي بكر.

كان منزل أبي بكر كبيت الموسرين، يتكوّن من جناحيْن، جناح فيه بيوت النساء هنالك على يسار الداخل، وجناح على اليمين يُكوّنه فضاء واسع رحب كمربض الخيل، وكان نظيفاً وفيه حجارة منصوبة عليها أغطية من وبر أو شعر أو صوف، جلس على بعضها ناسٌ، وظلّت الأخرى شاغرة. تبيّن أسامة، بفضل ضوء يتسرّب من موقد غير بعيد، وجوه الجالسين. هذا أبو بكر يتوسّط المجلس، وهذا عُمر على يمينه، وهذا أبو عبيدة بن الجرّاح على يساره، وهذا خالد بن الوليد مباشرة بعد عُمر، ثمّ وجهان من وجوه الأنصار سيأتي الحديث فيهما من بعد إنْ شاء الله. وكان جنب أبي عُبيدة بن الجرّاح بُريْدة بن الحُصيْب وبين يديه اللواء الذي عقده الرسول لأسامة ليخرج إلى حرب الروم. أثاره مشهد بُريْدة واللواء بين يديه. لم يُثِرْه أيّ مشهد غيره. تساءل: ماذا يفعل بُريْدة، حامل اللواء، مع هؤلاء الخلق من الأشراف، في هذا المجلس العظيم؟ ماذا يفعل اللواء الذي عقده له الرسول؟ وبيناً هو كذلك قام إليه أبو بكر يُسلّم عليه ويقبّل كتفه، على عادة الأشراف إذا التقوا الأشراف. رجع إلى نفسه. أصابه الحياء. قال: السلام عليكم يا أصحاب رسول الله. ردّوا عليه السلام بكلّ احترام وودّ. أجلسه أبو بكر قُبالته، على حجر فاضٍ عليه جلد ماعز بألوان، وجلس بلال جنبه على حجر آخر.

عزّوه جميعاً في النبيّ. لا يذكر بالضبط ما قاله كلّ واحد منهم. ولكنّه يذكر الودّ الذي حبوه به، ويذكر عبارات المواساة وما ذكروه من تقدير لأبيه الذي كان حِبّ النبيّ ومات في الغزو شهيداً مثل جعفر ابن عمّ النبيّ. كان كلّ واحد يذكر كلاماً فيقوم غيره ويبني عليه مقالته، «واحد يتحّي وواحد يزكّي» كما نقول في استعمالنا السمح. لا علينا. المهمّ أنّه تشبّع ليلتها بجميل الكلام، وشعر بالفخر والزهو لمّا أوكل إليه أبو بكر هذه المهمّة: اخرج باللواء الذي عقده لك النبيّ يغرزه بُريْدة مع الفجر عند باب النبيّ. ولمّا وقف للخروج قال له أبو بكر: مهلاً يا أسامة، مهلاً. لا بدّ أنْ تُصيب شيئاً من الأكل والراحة،

فأنت لم تقتت من شيء منذ يومين أو ثلاثة ولم تنل شيئاً من الراحة، كما أعلمني بذلك بلال.

شعُر بنفسه محلّ تكريم وتبجيل. شعُر بالرعاية الشاملة تحوطه. ما إن دعاه أبو بكر إلى الأكل حتى أخذه بلال إلى حجرة قريبة وجد بها مائدة منصوبة عليها حساء وثريد بأدم، فأكل وأكل بلال معه. كان جائعاً، فأكل ملء بطنه. وكان بلال لا يتوقّف عن دعوته إلى المزيد من الأكل، معيداً عليه في كلّ مرّة: كُلْ يا أسامة، كُلْ، فأنت لم تأكل منذ يومين أو ثلاثة. فكان يأكل ويبتسم لبلال ويبتسم له بلال.

نعم، لقد ألهاه العسكر واحتضار النبيّ ثمّ وفاته، منذ يومين أو ثلاثة، عن الجلوس إلى مائدة للأكل. ولكنّه أصاب عَرضاً ما تأتّى، وأكل على كلّ حال. وكان بلال يعرف هذا مثله. ولكنّه كان يسكت عن بلال ويبتسم له. كان لا يُعارض بلالاً في شيء. ثمّ شربا ما قُدّم لهما من شراب وحمدا الله وتوجّها له بالدعاء ليبارك أهل البيت.

حدّثه بلال كأنّه يُريد أنْ يستبقيه معه أطول وقت ممكن. حدّثه عن أبيه وذكر له خصاله وركّز على شجاعته وثقة النبيّ فيه. حدّثه عن أمّه وما تحمّلته في سبيله وحبّها له. حدّثه تقريباً عن كلّ ما كان يعرف، وأعاد فيه الحديث، وكأنّه يستعمل الحديث وسيلة لاستبقائه معه. وكانت تصله من حين إلى آخر الأصوات إذا ارتفعت في الفضاء المجاور الذي كان فيه قبل أنْ يُدعى إلى الطعام. ولكنّه لم يتبيّن الأصوات ولا فحوى الكلام، فقد كان بلال لا يسكت أبداً كأنّه يمنع عليه الاستماع إلى أقوال الناس في الفضاء المجاور.

تقدّم بهما الليل وبلال يلوك له من ذلك الحديث أرطالا وأرطالا. وفي ساعة متأخّرة من الليل سمع أبا بكر يدعوه فانتبه وأسرع إليه سمعاً وطاعة. رأى بُريْدة يجري باللواء خارج البيت. قام إليه أبو بكر وأخذ بذراعه وأوصله إلى الباب المتواضع الذي تكوّنه أغصان الجريد المقوّسة. قال له على انفراد وهو يودّعه: بلّغ عائشة وحفصة أنّي آمرهما بملازمة النبيّ وبعدم السماح بالدخول عليه لغير نسائه حتى يأتيهما الإذن منّي بتجهيز النبيّ ودفنه. ثمّ أضاف: أفهمتَ عنّي يا أسامة؟ لقد أوصاني النبيّ بك خيراً، فبلّغ عنّي. أسرع

أسامة قال: سمعاً وطاعة يا أبا بكر، سأنفّذ ما أذنتَ به وأبلّغ عنك رسالتك إلى النساء. شدّ أبو بكر على يده بحرارة كأنه يشكره ويودّعه، وخرج وراء بلال وبُرَيْدة يتبعه.

تذكّر في الطريق حُلمَه المُزعج واطمأنّ. فقد كلّفه أبو بكر بحراسة بيت الرسول، وسيحرسه على خير وجه حتى لا يقترب منه مقترب ويسرق جسد النبيّ. ظنّ بكلّ بساطة، كما يظنّ الموالي والإماء والعبيد، أنّ أبا بكر كان يخاف على الرسول من أعداء الرسول أنْ يعرضوا له بعد موته ويمثّلوا بجسده الكريم. سرّه ذلك من أبي بكر. وسرّه أنْ يقول له أبو بكر: لقد أوصاني النبيّ بك خيراً. سرّه ذلك أيّمَ سرور وشعر بالطمأنينة والأمن. وجاء عند باب الرسول وأمر بُرَيْدة أنْ يغرز اللواء عند الباب، ونادى أمّه، أمّ أيمن، وبلّغها ما يجب أنْ تبلّغ عائشة وحفصة عن أبي بكر وعُمر، وقد ذكرنا لكم كلّ ذلك في فصل سابق ففهمتم وأوعيتم، ولله الحمد.

لمّا أنهى أسامة كلامه مع أمّه ورفع رأسه كان بلال أمامه يقول: لقد حظيتَ الليلة يا أسامة بثقة الصدّيق، وإنّك لأهل لها، وهو سيرعاك كما كان يرعاك الرسول، وإنّ ثقتي فيك واسعة لتكون عند حسن ظنّه. ثمّ أضاف: رحم الله زيداً أباك، لو حضر هذا اليوم لرضي عنك ابناً بارّاً ولَسُرّ أنْ يراك في خدمة أبي بكر بعد أنْ كنت في خدمة الرسول. أنت تعرف يا أسامة علاقتي بأبي بكر واحترامي وتقديري له «لأنّه وليّ نعمتي[340]» وتعرف حبّي لك وقد اعتبرتك دائماً الابن الذي لم أرزقه. فاصمد ولا تخف، إنّي هنا، قريب منك في كلّ لحظة. وأدار له ظهره واختفى عن ناظريْه في المسجد.

ظلّ بُرَيْدة بنُ الحُصيْب واقفاً كالصنم جنب اللواء المعقود كأنّه يخاف عليه من شرّ. وظلّ أسامة على الباب يحرس الباب. مرّ بخاطره شريط الأحداث. تذكّر كلّ شيء بدقّة وتفصيل. تذكّر كلّ شيء باليوم والساعة: يوم الإثنين، سبعة أيّام قبل وفاة النبيّ، أمرَ النبيّ الناسَ بالتهيّؤ لغزو الروم. يوم الثلاثاء، من الغد، أمّره النبيّ على الجيش الخارج إلى غزو الروم. يوم الأربعاء، بُدئ بالرسول فحُمّ وصُدّع. يوم الخميس، عقد له النبيُّ اللواءَ بيده، فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بُريدة وعسكر بالجُرف ينتظر وجوه المهاجرين الأوّلين والأنصار الذين انتدبوا في تلك الغزوة. يوم الجمعة، لم يلتحق به وجوه

المهاجرين الأوّلين والأنصار، وطعنوا في إمارته طعناً شديداً. يوم السبت، وصل الخبر إلى النبيّ بقعودهم عن الخروج وطعنهم في إمارته، فخرج النبيّ إليهم يبرّر اختياره أسامة لقيادة الجيش ويؤكّد ويقول: «أنفذوا بعث أسامة»، فدخل إليه المسلمون يُودّعونه كأنّهم خارجون إلى الغزو، ولم يخرجوا. يوم الأحد، اشتدّ بالنبيّ وجعُه، وجاء أسامة من معسكره الذي ما زال ينتظر فيه الناس، فطأطأ له الرأس وقبّله والنبيّ لا يتكلّم بل يرفع يديْه إلى السماء ثمّ يضعهما عليه، فظنّ أنّ النبيّ يدعو له. يوم الاثنين الموالي، دخل على النبيّ من جديد، وجده مُفيقاً فقال له النبيّ بكلّ حزم: «اغدُ على بركة الله»، فرجع إلى الجرف، ولم يخرج[341]. وقد بلغه أنّ رسول الله علم بعدم خروج وجوه المهاجرين والأنصار في جيشه فغضب «واستدعى أبا بكر وعُمر وجماعة ممّن حضر المسجد من المسلمين، ثمّ قال: ألم آمر أنْ تُنفذوا جيش أسامة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فلِم تأخّرتم عن أمري؟ فقال أبو بكر: إني كنت خرجتُ ثمّ عدتُ لأجدّد بك عهداً. وقال عُمر: يا رسول الله، لم أخرج لأنني لم أحبّ أنْ أسأل عنك الركب. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: فأنفذوا جيش أسامة، يكرّرها ثلاث مرّات. ثمّ أغمي عليه من التعب الذي لحقه والأسف. فمكث هنيهة مُغمّى عليه، وبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وولده والنساء المسلمات ومن حضر من المسلمين[342].»

أصابه الندم. تحسّر. قال بينه وبين نفسه: ليتني خرجتُ إلى حرب الروم ولم أنتظر وجوه المهاجرين والأنصار الذين عيّنهم الرسول للخروج تحت إمرتي ولم يُعجّلوا بالخروج! ليتني خرجتُ بمَنْ كان معي مِن عسكر وإنْ من الصفّ الثاني والرعاع والعوامّ! كيف خَوّلتْ لي نفسي أن لا أُنفّذ آخر ما أمر به الرسول؟

تذكّر كلّ شيء بدقّة وتفصيل. تذكّر كيف «خرج فضرب بالجُرف وأنشأ الناسَ في العسكر وتمهّل الناسُ وثقل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم يستتمّ الأمر ينظرون أوّلهم آخرهم حتى توفّى الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وقد غلب مُسيلمة على اليمامة وغلب الأسود على اليمن فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى ادّعى طُليحة النبوّة وعسكر بسَميراء واتبعه العوامّ واستكثف أمره[343].»

تذكّر كلّ شيء بدقّة وتفصيل. تذكّر أنّه لمّا جاءه الخبرُ الأليم، ينعى إليه حِبَّه ومَولاهُ وربَّه، محمّد بن عبد الله النبيّ الرسول، أسرع إلى البيت الذي تربّى فيه، وتربّى فيه أبوه، وتربّت فيه أمُّه كذلك، ودخل على النبيّ. وجده مُسجّى وعليه البرد الحِبَرة. قبّله في البرد ولم يكشف عن وجهه، احتراماً له وتقديراً. ولمّا خرج وجد نفسه في مسجد النبيّ يبكي ويشهق.

تذكّر كلّ شيء بدقّة وتفصيل. أصابه الندم. بكى. شهق كالناقة. ذُعرَ بُريدة بنُ الحُصيب. جرى إليه. ضمّه وقال: لا تبك يا أسامة، الموت لا مفرّ منه. أعرف أنّك مولى من موالي الرسول، وإذ مات عنك أصبحتَ يتيماً. لكن لا تخف، نحن هنا نسهر عليك كما كان يسهر على أمرك الرسول.

انتبه إلى بُريْدة يضمّه إليه ويواسيه. انتبه إلى ما قاله له. غضب بينه وبين نفسه. مَنْ يكون بُريْدة بن الحُصيْب حتى يواسيه ويضمّه إلى صدره؟ لم يفهم قوله نحن هنا نسهر عليك كما كان يسهر على أمرك الرسول. منْ يكون بُريدة ابن الحُصيب حتى يتشبّه بالرسول؟ ثمّ مع مَنْ يحشر نفسه في لفظ نحن؟ وكمَنْ أفاق من غفلة بدا له أنّ شيئاً ما يحدث. ولأوّل مرّة شكّ في بُريْدة ابن الحُصيْب. ظنّه يعرف أكثر ممّا يُظهر. رأى أنّه قد تآمر مع القوم ونصّبوه جاسوساً عليه. ولكن مَن القوم يا تُرى؟ لم ينبس ببنت شفة. خاف بُريدة. سكت. وخاف بلال بنَ رباح الأسود مثله. خاف كلّ مَنْ عزّاه ليلتها في النبيّ وواساه. خافهم جميعاً. لم يتعوّد الكلام إليهم. لم يتعوّد أنْ يَحبُوهُ بما حَبوْه به ليلتها من كلام. شَعُر باليُتم. صمت صمتاً رهيباً.

6

انضمّ بلال إلى أهل الصُّفّة وقد ازدادوا مع الفجر نشاطاً. كانوا في المسجد، عند الصُّفّة التي اشتهروا بها، وهي ظُلّةٌ عند مُؤخّر المسجد بالمدينة النبويّة، كانوا يؤمّونها ولا يغادرونها إلاّ لحاجة[344]. «كان أهل الصُّفّة ناساً من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا منازل لهم، فكانوا ينامون على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المسجد ويظلّون فيه، ما لهم مأوى غيره، فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم إليه بالليل إذا تعشّى فيفرّقهم على أصحابه وتتعشّى طائفة منهم مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حتى جاء الله تعالى بالغنى[345].»

وقد تفنّنت الكتب في أوصاف أهل الصّفّة[346]، وجعلت لهم حسن العاقبة، وكتبت لهم الجنان والحور العين، فقد أعرضوا عن الدنيا، واهتمّوا بالفروض لا يُلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال، ففازوا بالآخرة. وكان عدد أهل الصُّفّة ينقص ويزيد، فيختلف على حسب اختلاف الأوقات والأحوال، وكثيراً ما يستقرّ عند سبعين رجلاً، لا نساء بينهم إلاّ «السوداء مُستوطنة المساجد، المبرّأة عن الظنون في الأندية والمشاهد، كان لها في المسجد خباء أو حِفْش[347].»

وكان «الظاهر من أحوال أهل الصُّفّة والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم وإيثارهم القلّة واختيارهم لها، فلم يجتمع لهم ثوبان ولا حضرهم من الأطعمة لونان [...] وكانوا يصلّون في ثوب، فمنهم مَن يبلغ ركبتيْه ومنهم مَن هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أنْ تبدو عورته[348].»

كانوا فقراء، لا أهل لهم ولا مأوى. كانت الصدقة مأكلهم والصُّفّة مأواهم. وكان بعضُهم لبعض أهلاً. خبروا الفقرَ واتخذوه نمطاً في الحياة الدنيا. أنسوا الصُّفّةَ وانتسبوا إليها وجعلوها فضاءً للعلم والمعرفة. هنا كانوا يتذاكرون القرآن ويتدارسونه ويفسّرونه نقلاً عن النبيّ، كما كان يحلو لهم أنْ يقولوا.

هنا كانوا يتراوون الأحاديث النبويّة ويروونها لغيرهم من الصحابة وللزائرين الذين جاؤوا المدينة وقصدوا المسجد النبويّ. كانوا قد زهدوا في الحياة الدنيا، واتّخذوا القرآن والحديث غذاء، والقصص الديني عبرة. كانوا حُنفاء ذلك الزمان. كانوا مُتصوّفة على طريقتهم لمّا كان التصوّف غائباً أو كالغائب من إسلام النشأة الذي كان له شأن. وقد وجدوا في النبيّ الحنيفيّة السمحاء والعلم الذي كانوا يبحثون عنه، فقام يُقرئهم القرآن ويعلّمهم الدين. وقد وجد فيهم النبيّ مكارم الأخلاق والقيم التي لم تكن في الناس، ووقف على الرحمة التي كانت تنزل عليهم، فجالسهم يُقاسمهم تلك المكارم والقيم ويفوز بتلك الرحمة[349].

كان أهل الصُّفّة مرابطين في المسجد، لمّا وصلهم الصوت ينعى النبيّ. ظنّوا الساعة آتية لا ريب فيها. انكبّوا على الآيات التي تُنذر بالنهاية يقرؤونها ويتلمّحون فيها المصير. تذاكروا الأحاديث التي قالوا إنّهم نقلوها عن النبي وتبادلوا فيها النظر ووظّفوها في الساعة التي رأوها آتية لا ريب فيها.

لم يكن بلال بنُ رباح من أهل الصُّفّة الذين لازموا المسجد واحترفوا الزهد وتجنّدوا للتذكير بالآخرة وجهنّم وبئس المصير. كان ينتسب إلى أهل الصُّفّة عرضاً، وينضمّ إليهم في ساعات فراغه، إذا لم يكن على النخلة يؤذّن للرسول أو في بعض السكك يُؤدّي له مهمّةً لدى بعض الصحابة الموقّرين، وإذا لم يكن في خدمة أبي بكر الصدّيق، وليّ نعمته، كما يحلو له أنْ يقول[350]، وإذا لم يكن في صحبة أبي عبيدة بن الجرّاح الذي آخاه به النبيّ[351]. وكان بلال ينهض بكلّ أمر بشغف كبير. إذا صعد النخلة وصوّت بالأذان سَمعتَ في صوته نَغماً خاصّاً يدلّ على ذلك الشغف الكبير. وإذا رأيته في خدمة النبيّ أو أبي بكر الصدّيق رأيتَ التفاني في الخدمة، ورأيتَ الشغف الكبير. وإذا أُرسل في مهمّة أدّاها على خير وجه. وإذا جلس إلى أبي عبيدة بن الجرّاح استمع إليه في صمت يكاد يكون تقديساً، رغم أنّ أبا عبيدة لم يُعرف بحسن حديثه ولا كان من أهل العلم والرواة المشاهير، حتى قال بعض الناس لعلّ أبا عبيدة كان يروي لبلال قصص القبور، وكان حفّارَ قبور الناس في مكّة ثمّ في المدينة لمّا هاجروا[352].

لم يُعرف على بلال زُهدُه أو علمُه أو تقواه. ولكنّه كان يُحبّ أنْ يُجالسَ أهل الصُّفّة حتّى عدّه المؤرّخون منهم[353]. كان لا يجمع بينه وبينهم إلاّ الفقر. وحتى هذا الباب لا يُمكن أنْ نعدّه مدخلاً له إلى الصُّفّة، فبلال لم يكن فقيراً فقراً مُدقعاً، بل كان، لتردّده على النبيّ وأبي بكر الصدّيق، يأكل ملء جوفه، كما كان يأكل العبيد والإماء والموالي في بيت النبيّ أو في بيت أبي بكر الصدّيق، وقد عُرِفَ عنهما حُسن معاملتهما العبيد والإماء والموالي، قبل البعثة وبعدها. ثمّ إنّ بلالاً لم يكن لا أهل له ولا مأوى، كما كان أهل الصُّفّة، بل كان متزوّجاً من امرأة عربيّة من بني زُهرة[354]، وكان له بيت يأويها ويأويه. وهو وإنْ لم يُرزق الذرّية ولم يُخلّف، كان قنوعاً شكوراً لا يُنكر نِعَم الله عليه ولا يغضب ولا يثور.

وقد جمع الودُّ بين بلال وأهل الصُّفّة. كان يُحبّ التردّد إليهم، وكانوا لا يرون في ذلك بأساً، رغم أنّهم كانوا يكرهون المتطفّلين والمتردّدين على الصُّفّة من حين إلى آخر، ويخافون أنْ يكونوا عيوناً عليهم. وقد يكون تاريخ بلال المجيد وراء قبول أهل الصُّفّة به. كانوا يعرفون قصّته الشهيرة مع العذاب[355] الذي وجده من أسياده في مكّة لمّا آمن وأسلم. كانوا يعرفون صبره الذي صار عند المسلمين مثلا يُضرب. كانوا يعرفون تحمّله عبْءَ الصخرة العظيمة التي شُدّت إلى صدره، ودرعَ الحديد الذي أُلبسَ، ورمضاءَ مكّة التي إذا حميتْ أُلقيَ إليها لِيُصهَرَ، والحبلَ الذي جُعلَ في عنقه يجرّه به الصبيان بين أخشبيْ مكّة. كانوا يعرفون أقواله التي صارت في الناس أمثالاً: «أحَدٌ أحَدٌ؛ أنا كافر باللات والعزّى وهُبل وإساف ونائلة وبُوانَة؛ إنّ لساني لا ينطق بما تنطقون ولا يُحسنه[356].»

نعم، لعلّ هذا كان وراء قبول أهل الصُّفّة ببلال. فهم صابرون على الفقر والجوع والعراء صَبْرَ بلال على التعذيب. وهم صابرون على تقوّل الناسِ فيهم بالإشاعات حول استزوائهم وقعودهم عن الجهاد لأنّهم وهبوا الله حياتَهم مثلما كان بلال قد وهب الله حياتَه. ثمّ إنّ بلالاً كان عبداً خفيف الظلّ لا يُقلق ولا يُزعج، لا يتكلّم كثيراً ولم يكن ثرثاراً. وهذه خاصّية يُحبّذها المُسْتَزْوُون مثل أهل الصُّفّة، الذين لا يريدون أنْ يقطع عليهم ثرثار أذكارهم وأورادهم وتناظرهم وهلمّ جرّا.

كان بلال إذا ما انضمّ إلى أهل الصُّفّة يركن إلى زاوية مظلمة لا يُغادرها حتى لتظنّه، لشدّة أدمته ونحافته، قد صار منها، لو لا شَمَطٌ به كان يدلُّ عليه[357]. وقد ركن هذه المرّة إلى تلك الزاوية كعادته في كلّ مرّة، فلم يقطع على أهل الصُّفّة مناسكهم التي كانوا فيها، ولم ينظر إليه أحدٌ منهم. وأرهف السمعَ، رغم ثقل السمع عنده، وبكى بمجرّد أنْ وصله الصوت، صوت أبي هُريرة، وكان يفضّله على غيره من الأصوات إذا ما قام في الصُّفّة يُفسّر آيةً أو يروي حديثاً أو يَتلو القرآن ويُجوّد.

كان أبو هريرة يُفسّر لأصحابه من أهل الصُّفّة آياتٍ من الذكر الحكيم وأحاديثَ تُنذر بقرب الساعة وحلول زمن الرحيل. وكان له في التفسير أسلوبٌ مُؤثّرٌ جَميل كثيراً ما كان يَبكي له بلال. وقد بكى بلالٌ ليلتها وهو يسمع أبا هُريرة يُفسّر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا[358]﴾

قال أبو هُريرة بصوته الذي يُحبّه بلال: «لمّا نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نُعيت إليّ نفسي، كأنّي مقبوض في تلك السنة[359].» وأضاف: «هذه السورة نعى فيها الله إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم روحه الكريمة وأعلم: أنّك إذا فتحتَ مكّة وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجاً فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا فتهيّأ للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يُعطيك ربّك فترضى [...] فلمّا نُعيت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم نفسُه حين أنزلت السورة أخذ في أشدّ ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة[360].» واسترسل أبو هُريرة في الكلام الذي يُحبّه بلال وأمثالُ بلال، قال: يا أهل الصُّفّة، يا مَنْ أخلصتم الودَّ لرسول الله، يا مَنْ أحبّكم رسول الله، إذا كانت السورةُ قد نعت لرسول الله نفسَه فقد نعت لنا أنفسنا أيضاً، وكذلك نعت للناس أجمعين أنفسهم، فموت رسول الله إيذان بالنهاية، وموته من أشراط الساعة، كما صرّح بذلك وقاله مراراً[361]. وها هو قد مات الآن، فماذا بقي يا سادة؟ الرحيل، الرحيل، لا شيء غير الرحيل. وهذا يُخيف الكفرة والجحدة ويسعدنا نحن أهلَ الصُّفّة، لقرب التحاقنا بالرسول والحلول بالدار الآخرة. هيّا هيّا يا أهل الصُّفّة، لقد أذنت الساعة، فيا لها من سعادة!

بكى بلال فرحاً بقرب الرحيل ولقاء الرسول. وبكى من أهل الصُّفّة من كان من الرعيل الأوّل. وواصل أبو هُريرة الخطبة، يقطع صوتُه سكونَ الفجر، ويصل مع تباشيره إلى المارّين من هنا والمتطفّلين الذين بدأوا يصلون أمام المسجد وقد طردهم أسامة من أمام بيت الرسول الذي كان يحرسه بجدّ وحزم. فعل الصوتُ في كثير من المارّين والمتطفّلين فعلَه العجيب. اقتربوا. غصّت بهم الصُّفّة. سرّ ذلك أبا هُريرة. كان يُحبُّ الكلام في الناس أجمعين وإنْ كان يُظهر تفضيلَه أهلَ الصُّفّة مُستمعين. رفع صوته حتى يَبلغَ به الصفوف التي انتصبت أمامه ارتجالاً. ولّد فيه الوضعُ الجديدُ حماسةً لم يعرفها فيه من قبل. نَسيَ أهل الصُّفّة. توجّه بالخطاب إلى المجتمعين كافّةً. قال: يا أيها المؤمنون، اذكروا قول الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا[362]﴾ وما الرسول الشهيد في الأمّة الوسط يا أيها المؤمنون؟ إنّ ذلك يعني «أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها[363]» فإنْ هو رَحلَ رَحلتْ أمّتُه. إنّا غداً لراحلون، يا أيّها المؤمنون. إنّا لراحلون برحيله، يا أيّها المؤمنون. فكيف يُمكن أنْ نكونَ أمّةً وسطاً ونكونَ شُهداءَ على الناس ولا يكون الرسول علينا شهيداً؟ لقد اختلّت المعادلة فاختلّ التوازن وأصبحت الساعة حقّاً لا ريبَ فيها. كذلك نحن يا أيّها المؤمنون، لا عيشَ لنا من غير الرسول، لا عيشَ لنا من غير الشهيد. لقد حان، يا أيّها المؤمنون، الرحيل.

تعالت الأصوات في الصُّفّة تردّد: الرحيل، الرحيل. بكى الضّعفاءُ خوفاً من قرب الرحيل. أسلم الناس أمرَهم للقضاء والقدر. لاحظ أبو هُريرة منهم ذلك. ازداد حماساً. واصل الخطبة حتى أزبد شدقاه. قال: إنّ بَعث رسول الله كان في حدّ ذاته إيذاناً بالنهاية. وقد عبّر رسول الله الكريم عن ذلك تعبيراً صريحاً واضحاً إذ شدّ على سبّابته والوسطى وقال: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتيْن، يعني إصبعيْن[364].» إنّ الله، يا سادتي الكرام، قد أرسل محمّداً نذيراً يُوقف الفساد ويقطع مع الشرك والكفر ويخلع الأوثان ويُسقط الأصنام. وقد نهض رسول الله بالمهمّة نهوضاً تامّاً، فأوقف الفساد، وخَلع الأوثان، وأسقط الأصنام، وجعل الجزيرة خالصة لله، ومكّن للإسلام في الأرض تمكيناً، ولمّا انتهت مهمّته جاءت الآيات على لسانه تُؤكّد وتقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[365]﴾ والإسلامُ ما هو، يا سادة؟ هو الخُضوع لله عزّ وجلّ والاستجابة لنداء العودة إلى حضرة الجناب المقدّس. لا بقاءَ في ظلّ اكتمال الدين وإتمام النعمة وانتشار الإسلام في كلّ بُقعة. سطع الحقّ وزهق الباطل، فإلى وجه الله. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

صاح الناس صوتاً واحداً: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

اقترب شُقران من بلال الذي كان في الركن انزوى. كان شُقران حادَّ البصر. تبيّن بلالاً في ظلام الصُفّة. شقّ إليه بخفّة عجيبة صُفوفَ المحتشدين قعوداً ووقوفاً في الصُفّة. جلس جنبه وقال بحشرجة كحشرجة الميّت: إنّي خائف يا بلال. ذُعر بلال. لم يَرَ القادم إليه. سمّى باسم الله وعاذ به من الشيطان. عرف شُقران. لم يقل شيئاً. واصل شُقران الكلام: إنّي أخاف الموتَ يا بلال. وأجهش بالبكاء. همى دمعه مدراراً. نَحَبَ. نَشَجَ. أعْول. ملأ صوتُه الصُفّة. انحبس الصوتُ في أبي هُريرة. توقّف عن الكلام في الساعة الآتية لا ريبَ فيها. توقّف عن الذكر والحديث. ضمّ بلال شُقران إلى صدره. سرى في بلال من شُقران شيءٌ كالعدوى. بكى بلال وانتحب. سرت العدوى في الصُفّة. بكى الناس فَجرَ ذلك اليوم.

7

تنحّى الفجر شيئاً فشيئاً عن مدينة الرسول. جاءت تَباشيرُ الصبح تنشر الضياء. صار كلّ شيء جليّاً واضحاً. جاء عبد الله بنُ مسعود من بيته الذي خطّه له النبيّ في ناحية مؤخّر المسجد[366]. جاء يُسرع الخطى ليأخذ مكانه على باب بيت الرسول وينظّم الناس كما كان يفعل أمسِ. فوجئ بالمشهد. تسمّر في مكانه، قاب قوسين أو أدنى من أسامة وبُريدةَ. ذُعِرَ. بادره أسامة بالتحيّة: أسعد الله صباحك وأدام عزّك يا ابن أمّ عبد. ردّ التحيّة بأحسن منها، كعادته إذا وصلته التحيّة، وظلّ في مكانه لا يقول شيئاً. سأله أسامة: إلى أين يا ابن أمّ عبد؟ أخافه السؤال وأربكه. لم يتعوّد أنْ يُسأل مثل هذا السؤال. رأى في السؤال تُهمة. بدا له وكأنّه على ذمّة العسكر للبحث، يسألونه عن اجتياز الحدود خلسة.

فهم أسامة عن ابن مسعود ذعره وخوفه وارتباكه وأكثر. كان أسامة يُحبّ ابن مسعود ويعتبره مثالاً يُحتذى في مجال الأخلاق والعلم ومحبّة الرسول. وكان ابن مسعود فعلا ذلك المثال. كان صورة ناطقة بما سمح به الإسلام من تحوّل. فالإسلام غيّر الموازين، وارتفع به مَن كان أسفل سافلين. وقد كان ابن مسعود أسفل سافلين. كان غلاماً يافعاً يرعى غنماً لبعض الوجوه فالتقى النبيّ والتقى الإسلام، فبهره ما كان من أمر النبيّ وأمر الإسلام، وآمن في الحين. ومثلما تحوّل ضرع الشاة التي لم تعرف الفحل والوضع واللبن، فحفّل ودرّ باللبن، تحوّل ابن مسعود من جاهل أمّي إلى غلام معلّم، يعرف القرآن عن ظهر قلب، ويفشيه بمكّة قبل غيره. ودخل في خدمة النبيّ فقام على سرّه وفراشه وسِواكه ونعليْه وطَهوره. وكان يستر النبيّ إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويمشي معه في الأرض وحْشاً. وكان يُلبسه نعليْه ويمشي أمامه بالعصا، فإذا أتى مجلسه نزع عليه نعليْه وأدخلهما في ذراعيْه وأعطاه العصا، وإذا أراد

أنْ يقوم ألبسه نعليْه ومشى أمامه بالعصا، وإذا أراد أنْ يدخل حُجرة دخلها قبله[367].

مرّ كلّ هذا بذهن أسامة في طرفة عين. تذكّر منزلة عبد الله بن مسعود لدى النبيّ. ندم على سؤاله. قال له كالمعتذر: لم أقصد إزعاجك يا صاحبَ رسول الله. أردتُ والله سؤالك عن أحوالك. فكيف أنت يا سيّدي عبد الله. قال ابن مسعود: لا عليك يا أسامة، أنا بخير والله. ثمّ قفل راجعاً إلى بيته.

انتاب أسامة الندم الشديد. لم يترك له ابن مسعود الفرصة للاعتذار وتجلية الحال. قفل راجعاً من حيث أتى. لا بدّ أنْ يكون غاضباً. أراد أسامة أنْ يجري وراءه ويشدّ رداءه ويجذبه إليه ويقبّل جبينه تقديراً وإكباراً واعتذاراً. ولكنّه تذكّر أنّه في مهمّة، والمهمّة تقتضي أنْ يحرس باب بيت النبيّ، لا يُغادره أبداً، حتى يأتيه في ذلك الأمر من أبي بكر أو من عُمر. فهم الدرس ولا مجال أنْ يسقط في متاهات الندم والاعتذار. تجلّد بالقوّة التي تمنحها قيادة العسكر، وقال بصوت مسموع: سأذهب إلى بيته من بعد. سأذهب إلى بيته من بعد. وأُقفلَ البابُ على الصلح.

وصل عبد الله بنُ مسعود إلى بيته وتربّع على الحصير التي كان يتربّع عليها النبيّ إذا زاره. مرّ شريط الأحداث بخاطره. رأى نفسه أسفل سافلين، غلاماً يافعاً يخدم بعض وجوه مكّة. رأى نفسه يرتقي السلّم دَرجة دَرجة. رأى نفسه على رأس السلّم في حضرة النبيّ، يخدم النبيّ. رأى نفسه يسقط من أعلى السلّم. رأى نفسه من جديد أسفل سافلين، يتيماً وقد مات عنه الرسول. شعر بالحزن العميق. بكى. قرّر الاعتزال وأنْ لا يُكلّم الناس ثلاثة أيام كاملة. قرّر أنْ يُلازم بيته ولا يُغادره. لم تعد الأمور تهمّه.

8

بدأ الناس يفدون على الساحة مع الصباح المنير، ويتجمّعون حلقاً حلقاً يجمع بين أفراد الحلقة الواحدة السنّ أو الطبقة أو الإقام أو السفر أو حتى التطفّل. كانوا لا يتجاسرون على الاقتراب من باب بيت الرسول، وعلى الباب العسكر. فهموا أنّ شيئاً يحدث. وانتشرت الأنباء في المدينة، وانتشرت الإشاعات الكثيرة. وتناقل الناس الأنباء، وتناقلوا الإشاعات. قالوا: إنّ المهاجرين والأنصار افترقوا دون رجعة. قالوا: إنّ الأنصار عيّنوا سعد بنَ عُبادة خليفة. قالوا: إنّ سعداً اعتلى الكرسيّ وقام يحكم من السقيفة. قالوا: إنّ المهاجرين افترقوا فرقاً. قالوا: إنّ آل البيت لمستضعفون. قالوا: إنّ أبا بكر الصدّيق وعُمر بنَ الخطّاب وأبا عبيدة بنَ الجرّاح على رأس فرقة يسندها الأعراب والعسكر. قالوا: إنّ الأعراب سيهجمون على المدينة. قالوا: إنّ العسكر نزل المدينة، وقام على باب الرسول يمنع آل البيت من الدخول على الرسول. قالوا: إنّ العسكر دخل البيت حيث الرسول مُسجّى وقام يحرس الجثّة. قالوا: إنّ النبيّ لم يمت وسيعود في اليوم الثالث. قالوا: إنّ الساعة آتية لا ريب فيها. وقالوا، وقالوا، وقالوا.

اختلفت الأقوال وتضاربت. طغى الضجيج في الساحة والمسجد والسكك المجاورة. وأسامة واقف لا يأتي حركة. وبُريدة واقف جنبه، كأنّه يُراقبه. بدأت الأصوات تعلو شيئاً فشيئاً في الحلقات، فتكلّم الناس في أسامة بكلّ صراحة. قالوا: غلام يافع لا يصلح للخدمة. قالوا: لماذا أمّره الرسول؟ قالوا: لماذا استعمله أبو بكر؟ وراحوا يبحثون عن العلّة وبنت العلّة. وكانوا أحياناً يرفعون أصواتهم بالكلام، إنْ قصداً أم عن غير قصد، فتنتشر في الفضاء كَلماتٌ مُتقطّعاتٌ تحمل تحقيراً أو طعناً أو سبّاً وشتماً، وتبلغ أذنيْ أسامة. وأسامة صامت لا ينبس ببنت شفة.

كان صُهيْب بنُ سنان[368] هناك، في حلقة من الحلقات، يتكلّم وعيناه على بُريدة بن الحُصيْب لا تُفارقانه. وكان بُريدة كما قلنا، عند باب الرسول باللواء وجنبه أسامة. كان صُهيبٌ يرفع صوته بالكلام أحياناً، ويخفضه بالكلام أحياناً أخرى، وكأنّه يترصّد عدوّاً مُستتراً يخافه. كان يروي للناس حوله بعض تاريخه الذي يعرفونه ولكنّهم يعودون للسؤال عنه كلّما فازوا بالاجتماع إليه، لندرة الاجتماع إليه. فصُهيْب كان صاحب سفارات، كثير التنقّل بين الأكابر، يختلف بين الجهات الرسمية في المدينة وخارج المدينة. وكان الناس إذا ما جمعهم به مجلس ضحكوا من حوله وتغامزوا، لا لِفَكَهٍ فيه ولكن لعجمة شديدة كانت في لسانه ورثها عن الروم التي أغارت على منازلهم فسبتْه صبيّاً فنشأ بالروم فصار ألكن حتى قيل له الرومي[369]. وكان الناس لا يفهمون عنه كلامه أحياناً، فيُنادي غلاماً له اسمه يُحنّس ويدعوه قائلا: ينّاس، ينّاس[370]. فيضحك الناس أكثر لعجمته وإسقاطه حاء الاسم المضمومة، ويأتيه يُحنّس يُترجم للناس كلامه، وكان يفهم عليه.

كان صُهيب بنُ سنان شخصيّة فريدة من نوعها، ورث عن الروم، إضافة إلى عُجمته، حمرة شديدة كانت فيه، وشعراً طويلاً، وقدّاً مربوعاً، وقامةً بين الطول والقصر. وكان الناس، رغم ضحكهم منه وتندّرهم بعجمته وحمرته الرومية وشعره الطويل، يُحبّونه ويقدّرون ماضيه الذي لا يختلف عن ماضي بلال بن رباح المجيد في شيء. فقد كان صُهيْب من السابقين إلى الإسلام، أسلم والنبيّ في دار الأرقم، بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان من المستضعفين الذين عُذّبوا في مكّة، ومن السبعة الأُوَل الذين أظهروا الإسلام فيها، وهم «النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر وبلال وصُهيْب وخبّاب وعمّار بن ياسر وسُميّة أمّ عمّار، رضي الله عنهم أجمعين. أمّا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فمنعه الله، وأمّا أبو بكر فمنعه قومه، وأمّا الآخرون فأُخذوا وأُلبسوا أدراع الحديد ثمّ أُصهروا في الشمس[371].»

كانت هذه الأمور في ذلك الزمان تُعدّ خصالاً وفضائل، إذا ما اجتمعت في شخص حاز منزلة رفيعة، وحظي بالتقدير والتبجيل والاحترام من لدن النبيّ وأهله والناس أجمعين، وخصّه القرآن بلفتة كريمة فنزلت فيه الآيات البيّنات. وقد سعى صُهيْب في هذه الحلقة التي تزعّمها أنْ يُبرز أمام الناس

ما حظي به من مكانة، وما ناله من احترام وتبجيل وتكريم، وما نزل فيه من آيات، فقصر حديثه على ذلك، فأسمع وأوعى وإنْ في ظلّ اللكن والعجمة وملل الناس سماعَ مثل هذه القصص التي تختلط فيها عليهم الأمور، ويتشابه فيها لديهم الصحابة الأجلاّء، دون فارق يُذكر، وكأنّ القصص في الصحابة أجمعين نُسجت على منوال مثال أنموذج واحد، فجاءت ألفاً وواحدة، توهم بالاختلاف ولا اختلاف، مجرّد روايات تعدّدت، وأسماء غُيّرت، وأحداث أصابها التحريف. ولكن تلك قصّة أخرى. المفيد هنا أنْ نصحب صُهيباً يروي لنا قصّته مع الأحداث.

كان صُهيب، مثل كلّ الصحابة آنذاك، يصبو إلى أنْ تتوجّه إليه الأنظار، وتُروى فيه القصص، ويُقال فيه كان وكان، فانطلق لسانه بالكلام في ظل لَكَنه والعُجمة. وكان الناس يُحبّون فيه ذلك اللَّكَن وتلك العُجمة، ويجتمعون إليه ليسمعوا كلامه ويتندّروا بكلّ ذلك. وكانوا كثيراً ما يدفعونه دفعاً إلى نطق الكلمات التي تُضطرّه عُجمته إلى تحريفها تحريفاً صارخاً ولا تُفهم إلاّ بتدخّل يُحنّس الغلام الترجمان. وكانت طيبته التي ورثها عن الروم وفيها نصيب من السذاجة التي يرى فيها الناس البَلَه، تجعله يستجيب لطلب المستمعين وتغيير مجرى الكلام وفق مشيئتهم فيسقط في حبال الكلمات الصعبة النطق. وهو ما سترى الآن في هذه الحلقة التي اجتمع فيها بعض الناس حوله.

بدأ صُهيبٌ حديثه، مثل كلّ الصحابة آنذاك، بالتبرّؤ من الكذب على الرسول والتصريح بالامتناع عن ذكر الأحاديث حتى لا يتبوّأ مقعده في النار، فقال: «تعالوا أحدّثكم عن مغازي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ما شهدتُ وما رأيتُ، أمّا أنْ أقول قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلا [...] لم يشهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قطّ مشهداً إلاّ كنتُ حاضره، ولم يسر سرية قطّ إلاّ كنتُ حاضرها، ولا غزا غزاة قطّ أوّل الزمان وآخره إلاّ كنت فيها عن يمينه أو شماله، وما خافوا أمامهم قطّ إلاّ كنت أمامهم، ولا ما وراءهم إلاّ كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيني وبين العدوّ قطّ، حتى توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[372]» وأجهش بالبكاء صادقاً، وانطلقت الأصوات في الحلقة تواسي صُهيباً وتُعزّيه في مُصابه الجلل.

كان ذلك عند صُهيب بمثابة الخلاص من الوعد الذي كان قطعه على نفسه منذ حين بأن لا يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال، كأنّه نسي ما كان قال: «سأحدّثكم بحديث حفظه قلبي ووعاه سمعي، سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُحبّ صُهيباً حبّ الوالد ولده [...] وسمعتُه يقول: «أحبّوا صُهيباً حبّ الوالدة لولدها[373].» تعالت الأصوات بالضحك البريء وردّدت مرّات: لا فُضّ فوكَ يا صُهيب! لا فُضّ فوك! إننا والله نُحبّك يا صُهيب، نحبّك كثيراً.

رأى صُهيب في ما قالوا التشجيع، وأصابه حماس لم يعرفه الناسُ فيه من قبل، فاستمرّ في الكلام وقد عادت إليه عُجمته بالكلّية من غير أنْ ينتبه فتكلّم عن نفسه بالغياب كما يفعل الأعاجم إذا ما تكلّموا العربية، قال: «إنّ صُهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له أهل مكّة: أتيتنا ها هنا صُعلوكاً حقيراً فتغيّر حالك عندنا وبلغتَ ما بلغتَ، تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. قال: أرأيتم إنْ تركتُ مالي أمُخَلّون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم. فخلع لهم ماله أجمع. فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: ربح صُهيبٌ، ربح صُهيبٌ، ونزلت فيه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[374].»

ضحك الناس ضحكاً لم يضحكوه منذ نُعي إليهم الرسول. نسوا الرسول والموت والعزاء، واهتمّوا بصُهيب الذي متّعهم بنطقه الحروف نُطقاً عجيباً وتداخل الضمائر في كلامه تداخلا مشطّاً. أرادوا أنْ لا يتوقّف صُهيب عن إمتاعهم، صاح فيه بعضهم: وما هي الآيات الأخرى التي نزلت فيك يا صُهيب؟ فانطلق يقصّ عليهم القصص التي كان هو محورها وزيّنها بسذاجته البديعة بالآيات التي نزلت فيه. وقد ذكر يومها فيما ذكر هذه القصّة التي اخترناها لكم ممّا ذكر: «جاء الملأ من قريش إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده صُهيب الذي هو أنا وخبّاب وبلال وعمّار بن ياسر فقالوا: أرضيتَ بهؤلاء؟ إنّا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف به لنا العرب فضلنا، فإنّ وفود العرب تأتيك فنستحي أنْ ترانا قُعوداً مع هؤلاء عندك، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئتَ. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً. فدعا بالصحيفة ليكتب لهم. ودعا عَليّاً ليكتب. فلمّا

أراد ذلك إذ نزل جبريلُ فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فرمى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالصحيفة ودعا فأتيناه وهو يقول: سلام عليكم، فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يجلس معنا[375].»

كبّر الناس تكبيراً كثيراً، وقالوا: صدق الله العظيم، وسعوا إلى صُهيب يستدرجونه ليعرفوا ما تستّر عليه منذ مدّة ولم يُخبرهم به. عرفوا أنّ ما أظهروه له من حبّ وتبجيل وتكريم وتصديق قد فعل فعله فيه ومدّه بالحماس الشديد وهو سيقصّ عليهم بإذن الله ما كانوا يُريدون أنْ يعرفوه. سأله حُذيْفة بن اليمان[376]، قال: كان رسول الله، يا صُهيب، يُحبّك ويرعاك ويثق فيك، وقد أكّدت لنا هذا الأمر منذ حين. وقد سمعنا أنّ سفارة كانت بين عائشة وأبيها في مرض الرسول الذي تُوفّي فيه، وقد انتدبتك لتلك السفارة فكنت لها خير سفير، وهذا إنْ دلّ على شيء فهو يدلّ على ثقتها فيك وحبّها لك، وقد تردّدتَ على معسكر أسامة بتلك السفارة في جنح الليل، فهلاّ حدّثتنا عن تلك الثقة التي حبتك بها عائشة وذلك الحبّ الكبير، ليبقى حديثك ذكرى للتاريخ؟

أعجب هذا الكلام صُهيباً، فقد كان يُحبّ عائشة حبّاً كبيراً، ويُسعد حين تناديه باسمه وترسله في بعض حوائجها. وكان لا يسمّيها باسمها قطّ، حاضرة كانت أم غائبة، بل يقول فيها: السيدة أو سيّدتي أو حتى مولاتي. وقد يكون ورث ذلك عن ثقافته الرومية التي يبدو أنّها كانت منذ القديم تُعطي المرأة حقّها في التقدير والتبجيل، في حين كان الأعراب لا يعرفون مثل هذه الثقافة التي تكنّ للمرأة الاحترام والتقدير وتعتبرها إنساناً كامل الحقوق، وكانوا لا يُفرّقون بين المرأة والشاة حتى لتسمع الواحد منهم يدعو امرأته النعجة بكلّ عفوية وتلقائية. وقد أشاعوا، نظراً إلى جهلهم بأصول ثقافة صُهيب الرومية، أنّ صُهيباً يقول السيدة أو سيّدتي أو مولاتي، إذا خاطب عائشة أو تكلّم عنها، حتى يتفادى ذكر اسم عائشة لاحتوائه العين التي كان لا ينطقها. وقد كان صُهيب فعلا لا يستطيع أنْ ينطق عائشة كما ينطقها الناس بل ينطق شيئاً مثل:

آيشة، على عادة الفرنجة والعجم. وإذا أضفت إلى ذلك بُحّة في صوته وغُنّة سمعت صوتاً كصوت الشاب الذي اشتهر بالراي لدى الفرنجة وغنّى لهم: آيشة ملكة سبإ.

ولكنّ صُهيباً الذي عُرف عنه إغراقه في التلقائية حتى السذاجة لم يُفكّر في ما ذكرنا، ولا دار بخلده أنّ القوم يستدرجونه للوصول إلى غاية. فقط، أعجبه كلامهم وسُرّ به أيّم سرور، وراح يشكرهم على طيبتهم وحسن أخلاقهم، وسكت عن الإجابة عن سؤالهم، وكأنّه لم يفهم عنهم سؤالهم. خاب أملهم فيه، ونظر بعضهم إلى بعض، فتبسّم لهم صُهيْب تبسّمة طويلة كأنّه يشكرهم على ما كان منهم نحوه، وانسلّ خارج الحلقة، وتوجّه نحو باب المسجد، يُوهم بالدخول إلى المسجد، ولكنّه لم يدخل المسجد.

لم تنفضّ الحلقة إذ غادرها صُهيْب ولم يتوقّف فيها الحديث. قام فيها فتى من أبناء العجم وولاة الأنصار وتوجّه بالخطاب إلى حُذيفة بن اليمان[377]، فقال: ما هذه السفارة التي تحدّثت عنها أيّها الصحابيّ الجليل؟ «عرّفنا ذلك رحمك الله ولا تكتمنا فإنّك ممّن شهد وعاين[378].» فوجئ حُذيفة بن اليمان بالسؤال. تمنّى لو أنّه لم يسأل صُهيْباً عن السفارة بين عائشة وأبي بكر أبيها. تعجّب من كلام هذا الفتى إذ قال له: «فإنّك ممّن شهد وعاين» وتساءل بينه وبين نفسه كيف عرف هذا الفتى أنّه شهد وعاين؟ أراد أنْ يتنصّل من الجواب، قال: والله، كان ذلك مُجرّد سؤال لصُهيْب، لا أقصد به شيئاً. ولكنّ الناس في الحلقة ضمّوا أصواتهم إلى صوت الفتى وقام كلّ واحد منهم يدعو حُذيْفة إلى أنْ يروي خبر السفارة المزعومة، فلم يجد بدّاً من الرضوخ لنداء المجموعة وتلبية الطلب.

استغفر حُذيفة بنُ اليمان الله واستسمحه، ثمّ قال: «اشتدّت علّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدعت عائشة صُهيباً فقالت: امض إلى أبي بكر وأعلمه أنّ محمّداً في حال لا يُرجى، فهلمّ إلينا أنت وعُمر وأبو عُبيدة ومَن رأيتم أنْ يدخل معكم، وليكن دخولكم في الليل سرّاً، فأتاهم الخبر فأخذوا بيد صُهيْب فأدخلوه إلى أسامة فأخبروه الخبر وقالوا له: كيف ينبغي لنا أن نتخلّف عن مشاهدة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستأذنوه في الدخول فأذن لهم وأمرهم أنْ لا يعلم بدخولهم أحد، وإنْ عوفي رسول الله رجعتم إلى

عسكركم، وإنْ حدث حادث الموت عرّفونا ذلك لنكون في جماعة الناس. فدخل أبو بكر وعُمر وأبو عُبيدة ليلاً المدينة ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد ثقل، فأفاق بعض الإفاقة فقال: لقد طرق ليلتنا هذه المدينة شرّ عظيم. فقيل له: وما هو يا رسول الله؟ فقال: إنّ الذين كانوا في جيش أسامة قد رجع منهم نفر يخالفون عن أمري، ألا إنّي إلى الله منهم بريء، نفّذوا جيش أسامة. فلم يزل يقول ذلك حتى قالها مرّات كثيرة[379].»

أصابت الدهشةُ الناس ونظر بعضهم إلى بعض استغراباً وقد اكتشفوا ما في كلام حُذيفة من ألغاز. فلِمَ صُهيْب؟ ولِمَ أبو بكر وعُمر وأبو عبيدة؟ ولِمَ الدخول في الليل سرّاً؟ ولماذا رضي أسامة بكلّ ذلك ولم يقل شيئاً؟ وكيف عرف حُذيفة كلّ هذا؟ ولمّا انجلت عنهم الدهشة وأرادوا سؤال حُذيفة عن كلّ ذلك، كان حُذيفة قد انسلّ إلى خارج الحلقة خائفاً من أنْ يُتّهم بالتآمر على أمن الخلافة القادمة لا ريب فيه. فرّ بنفسه يبحث عن مخبإ.

9

رأينا في ما مضى من قصّة أنّ صُهيْب بنَ سنان الرومي قد انسلّ خارج الحلقة التي كان يروي فيها القصص، وتوجّه نحو باب المسجد، يُوهم بالدخول إلى المسجد ولم يدخل المسجد. دار حول المسجد دورة كاملة وعاد إلى حيث كان بُريدة بنُ الحُصيْب واقفاً عند باب الرسول باللواء وأسامة ابنُ زيد إلى جنبه. اقترب من الباب وحيّى أسامة بتحيّة أمير الجيش التي كان أسامة يُحبّها، فقال، غير عابئ بما في كلمات التحية من حروف تؤكّد لَكَنَه وعُجمته: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، كيف حالك أيّها الأمير؟

سُرّ أسامة بهذه التحيّة أيّمَ سرور ولم ينتبه إلى ما كان فيها من لَكَن وعُجمة. وحتى نُنصف الناس في هذا الكتاب، ونُعطي كلّ ذي حقّ حقّه، نؤكّد لكم أنّ أسامة لم يَضحك قطّ من لَكَن صُهيب وعُجمته، وكان يُسرُّ لرؤيته دائماً، ويُحبّه حبّاً جمّاً، عملاً بما أوصى به النبي في الحديث الذي ذكرناه في الفصل الماضي، والقاضي بأنّ حُبّ صُهيب من الإيمان. ردّ أسامة التحيّة على صُهيْب بمقتضى ما تتطلّبه آداب التحيّة من سلام كثير، وسؤال عن الأحوال، ودعاء بالصحّة والعافية، وطلب للرحمة والغفران، وهلمّ جرّا. وبيناً كان أسامة يردّ التحيّة ويُطيل فيها ويزيد وفق تلك الآداب الكريمة، كان صُهيب قد اقترب من بُريْدة، والتصق به وأسرّ إليه حديثاً وسلّمه رقعةً ومرّ، فدسّ بُريدة الرقعة تحت عمامته وعاد منتصباً كما كان. كلّ ذلك تمّ بسرعة وأسامة غافل لا يرى ولا يسمع شيئاً.

كان بين صُهيْب بن سنان الرومي وبُريْدة بن الحُصيْب علاقة مجهولة في تلك الأيام لدى العامّ والخاصّ، فتناستها الكتب من بَعدُ. فصُهيْب الذي كان الناس ينسبونه إلى الروم ويتّهمونه بالانتماء إلى العرب كذباً، والاكتناء بأبي

يحيى كذباً كذلك، إذ لا ولَدَ له ولا كان من طينة يحيى النبيّ[380]، يعود نسبه في الأصل إلى أسلم بن أفصى، تماماً مثل بُرَيْدة الذي يعود نسبه إلى أسلم بن أفصى. فهما وفق هذا المسار ينتميان جميعاً إلى قبيلة أسلم، وأسلم كان فيمن انخزع من بطون خُزاعة[381]. وقد فرّقت الجاهلية بين بُريدة وصُهيْب فُرقة كبيرة، واختلفت أمامهما السبل، فنشأ بُرَيْدة في أسلم عزيزاً مكرّماً، وصار فيها سيداً ورئيساً، في حين تشرّد صُهيْب منذ طفولته الأولى فكان سبياً للروم، ثمّ ابتاعته كلب منهم وقدمت به مكّة، فاشتراه عبد الله بن جُدعان التيْمي منهم، فأعتقه فأصبح مولى لعبد الله بن جُدعان وحليفاً لبني تَيْم[382]. ثمّ جاء الإسلام فجمع بين بُريدة وصُهيْب جمعاً وثيقاً، فأسلم صُهيْب حين التقى محمّداً في مكّة ولمّا يُغادر دار الأرقم، وأسلم بُرَيْدة حين التقى محمّداً في الطريق مهاجراً ولمّا يبلغ يثرب. وقد وجدا في حضرة النبيّ التكريم والتبجيل، ومنحهما ثقته، وحباهما بخالص الودّ، وقال فيهما خير الكلام، وتنبّأ لهما بلعب الأدوار المهمّة في مُقبل الأيام، فكانا من خير الصحابة. وإنّ الناظر في ترجمتيْهما[383] ليقف دون عناء على الدور الذي لعباه إلى جنب النبيّ جرّاء ما منحهما من ثقة وما أوكل إليهما من مهمّات. فصُهيب صاحب النبيّ وردّ عليه العدوّ في بدر وأُحد والخندق، وفي كل المشاهد التي حضرها النبيّ. وبُرَيْدة أبلى البلاء في خيبر، وحمل لواء أسلم في فتح مكّة، ولواء أسامة الخارج إلى أرض البلقاء في طلب قتلة أبيه بمؤتة، واستعمله النبيّ على صدقات قومه أسلم وصدقات غفار، وبعثه إلى أسلم يستنفرهم إلى عدوّهم حين أراد غزوة تَبوك، واستعمله على أساري المُريْسيع لمّا أمر بهم فكُتّفوا وجُعلوا ناحيةً[384].

ومثلما كانت لصُهيْب مع النبيّ صُحبة متميّزة، فَصّلنا فيها الكلام أعلاه، كانت لبُريدة مع النبيّ صُحبةٌ متميّزة صارت قصّةً عَجباً، نُفصّل فيها الكلام أسفله. وقد ذكر أكثر من واحد أنّ قُريشاً لمّا ضيّقت على النبيّ الخناق وخطّطت لقتله في فراشه، اضطُرّ للخروج من مكّة فاحتال لقريش ونوّب عليّاً في فراشه وذرى التراب في عيون الحرّاس فناموا، وهاجر خلسة قاصداً يثرب. ولمّا أصبحت قريش وزالت عنها الغشية التي أصابتها من غير أنْ تشعر وعلمت بخروج النبيّ، استحثّت فرسانها وراءه، وأقامت له عسسها في كلّ

سكّة، ونشرت عيونها في كلّ مكان، ورصدت مئة من الإبل لمن يأخذه فيردّه عليها.

سار المخبرون بالخبر في كلّ أنحاء الجزيرة. طار به الحمام الزاجل في كلّ اتجاه. انتشر الخبر بين قبائل العرب: قريشٌ رصدت مكافأة بمئة من الإبل لمن يأخذ محمّداً ويردّه عليها. بلغ الخبر أَسلَم. كانت يومها قبيلة من الأعراب عند قرية وَبْرَة من أعراض يثرب، وكانت وَبْرَة ذات نخيل على عين ماء تخرّ من جبل آرة[385]. بلغ الخبر بُرَيْدة بن الحُصيْب وكان رئيساً في أسلم. أحلم النفس بالجائزة. خرج في سبعين راكباً من أهلِ بيته من بني سهم يترصّد المهاجر الفارّ من مكّة. التقى رجليْن لا رجلاً واحداً، عليهما غُبار السفر ليس غيرُ. بدا له الأمر عادياً لا يتطلّب حذراً، فالطريق إلى يثرب تعجّ بالمسافرين القاصدين الواحة الغنّاء يبحثون فيها عن رغد العيش وحسن الإقامة، وقد اشتهرت يثرب بكلّ ذلك. وبيناً هو يُعدّ نفسه للتحيّة وسؤال الغريبيْن عن هويتهما وحاجتهما، ابتدره أحد الرجليْن بالسؤال: مَنْ أنتَ؟ فقال طواعية ولم يتردّد: أنا بُرَيْدة. فقال الغريب لصاحبه: بَرُد أمرنا وصَلُح. وبيناً هو يتفكّر في هذا الكلام ويتعجّب، سأله الرجل: ثمّ مِمّن؟ فقال طواعية ولم يتردّد: من أسلم. فقال الغريب لصاحبه: سَلمنا. ثمّ قال له: ثمّ مِمّن؟ فقال مرّة أخرى، طواعية ولم يتردّد: من بني سهم. فقال له الغريب: خَرج سَهمُك.

أصابته الدهشة من هذا الكلام الذي لم يسمع مثله قطّ. أعجبه الكلام. تلذّذ بالكلام العذب. ثمّ قال، كمَنْ أفاق من غيبوبة مُمتعة: فمَنْ أنتَ؟ قال له الغريب: أنا محمّد بن عبد الله، رسول الله ونبيّه، وهذا خليلي أبو بكر. بُهت. قال: أشهد أن لا إلاه إلاّ الله وأشهد أنّك عبده ورسوله. ثمّ صاح في أهله: أشهد أن لا إلاه إلاّ الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله. فصاح كلّ فرد من أهله: أشهد أنْ لا إلاه إلاّ الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله.

نَسيَ بُرَيْدة قريشاً والمكافأة بمئة من الإبل. أسلم في الحين وأسلم معه قومه، وصلّوا وراء النبيّ العشاء، وبات النبيّ عندهم تلك الليلة، وبات بُرَيْدة بين يديه يخدمه. تفانى في خدمة النبيّ. أعجب ذلك منه النبيّ، فأحبّه. أعجبه منه انقياده إلى الإسلام بعفوية وفطرة لم يشاهدهما في غيره. أعجبه منه دخوله في خدمته طواعيةً وحبّاً، فانطلق يُقرئه القرآن ويُفسّر. لم يُقرئه ما

تأتّى من القرآن. أقرأه صدراً من سورة مريم[386]. يا له من اختيار! سورة مريم! نعم، سورة مريم. سورة من أحسن السور وصدرها صدر من خير الصدور: ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً[387]﴾

تمتّع بُريْدة بلذّة الحروف فاتحات السورة، ﴿كهيعص﴾. تمتّع بما دلّت عليه من أسماء الله الحسنى: الكريم الكافي، الهادي، اليمين، العزيز العالم، الصادق. وقف على ما فيها من قسم[388]. رأى زكريا يتوجّع ويألم، وقد تقدّم به السنّ، وبلغ من الكبر عِتيا، ووهن العظم منه، واشتعل الرأس شيباً، وهو أبتر لا ولد معه. يا لها من صور ترسم بإبداع وحذق وفنّ معالم الشيخوخة وانعدام الخلف وانتفاء الذكر! رأى زكريا يتضرّع إلى الله، خُفيةً وسرّاً، يطلب من لدنه الولد الذي لم يُرزقه قطّ. وتساءل، بينه وبين نفسه، ماذا سيفعل الله يا تُرى أمام هذا الشيخ الذي انقطعت به السبل فوجّه لله وجهه؟ أجابه محمّد: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً[389]﴾ صدق الله العظيم. بُهت بُريْدة. تعجّب من أمر محمّد كيف سمع سؤاله وقد أسرّ به إلى نفسه؟ صاح في محمّد: إنّك والله لرسول ونبيّ. ثمّ أعاد ما قال محمّد في ختام كلامه، أعاد: صدق الله العظيم. أعادها ثلاث مرّات، وبكى فرحاً، يا لَها من مُعجزة! شيخ مُسنّ وعجوز عاقر يُرزقان الغلام في آخر العمر! يا لَها من مُعجزة! وانتشى بالكلام الجميل في السورة الجميلة. زاده محمّد من الكلام الجميل الذي انتشى به، قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيّاً * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيّاً * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيّاً * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ

أَمْرًا مَقْضِيّاً ✽ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيّاً ✽ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيّاً ✽ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ✽ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيّاً ✽ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً[390]﴾

يا لَلنّشوة العارمة! لم يعد بُريْدة يستطيع صبراً. صاح في محمّد النبيّ: لا فضّ فوك يا نَبيَّ الله، يا رسول! من أين يأتيك هذا الكلام الجميل؟ من أين لك هذه الصور الناصعة البديعة في امرأة عذراء تُنجب ولداً يتكلّم في المهد صبيّاً؟ يا لَها من مُعجزة! يا لَها من مُعجزة! يا لك من نبيّ! يا لك من رسول!

ضحك محمّد من كلام بُريْدة حتى بدت نواجذه. قال له: إنّه الوحي يا بُريْدة، يأتيني به جبريل من السماء السابعة، حيث السدرة المنتهى، حيث الله على العرش استوى. امتلأ بُريْدة بالكلام الجميل الموحى. أحبّ جبريل والسماء السابعة والسدرة المنتهى. أحبّ الله الذي على العرش استوى. أحبّ محمّداً. وكاد يطلب من محمّد أنْ يزيده من تلك السورة شيئاً، ولكنّ شيئاً من الحياء أصابه، وخَجِلَ من نفسه. فللضيف على المُضيف واجب الاحترام وقلّة السؤال والتمكين له في الراحة. ثمّ إنّ ضيفه قد أتعبه السفر ولا شكّ، تماماً مثل صاحبه الذي نام إلى جنبه منذ مدّة. فصمت. تثاءب محمّد وأغمض عينيه وتمتم بكلام لم يتبيّنه بُريْدة. قام بُريْدة على الباب يحرس الرسول وصاحبه في بيته وبين أهله. خاف أيدي قريش أنْ تمتدّ إليه. خاف عيون قريش أنْ تدلّ عليه. بات يحرس ضيفه يقظاً لا ينام بعد أنْ أقام بعض أهله في الطرق المؤدّية إلى بيته وأوصاهم باليقظة وعدم النوم.

وظلّ بُريْدة ليلتها يحرس النبيّ وفي نفسه ألف صورة وصورة من سورة مريم. بدت له حياته واحة غنّاء ترتع فيها الأنبياء، زكريا ويحيى ومريم العذراء والروح القدس والابن في المهد صبيّاً والنخلة والرطب. واشتاق إلى معرفة بقيّة السورة. وقد ظل ذلك الشوق فيه قائماً حتى التحق بالنبيّ بعد سنتين أو ثلاث من ذلك التاريخ فأكمل له النبيّ سورة مريم[391]، وامتلأ بها جميعاً أيّمَ امتلاء.

مع تباشير الفجر كان بُريْدة وراء النبيّ يُصلّي الفجر، ويصلّي وراءه أهله وجميع أفراد قومه من قبيلة أسلم. شَعُر أنّ شيئاً فيه تغيّر. انبلج الفجر عن عهد جديد في حياته. دخل في الإسلام بالكلّية. اقتدى بالنبيّ في كلّ حركاته، واقفاً وراكعاً وساجداً ومُسلّماً. امتلأ بالصلاة ولم يتوقّف عنها من بعدُ أبداً. ولمّا واصل النبيّ طريقه إلى يثرب مشى بُريْدة بين يديْه باللواء الذي ابتكره من وحي الساعة، فأخذ عمامته وشدّها برمح ورفعها لواءً، وقد أصرّ على ألاّ يدخل النبيّ يثرب إلاّ ومعه لواء[392]. ومنذ ذلك التاريخ استعمل النبيّ اللواء راية له في التنقّل والغزو، واضطلع لديه بُريْدة باللواء كلّما كان حاضراً في ذلك التنقّل أو ذلك الغزو.

والآن وقد مات النبيّ المكرّم، دخل بُريْدة في خدمة أبي بكر، طَواعيةً وحبّاً، تماماً مثلما كان قد دخل أمس في خدمة النبيّ، طَواعيةً وحبّاً. وقد أعجب أبو بكر بُريدة منذ التقاه مع محمّد في تلك الليلة، وهما مهاجران إلى يثرب. وأعجبه منه صمته. كان لا يتكلّم بل النبيّ وحده كان يتكلّم. وكان يسمع عن النبيّ ويومئ برأسه موافقاً. وأعجبه لمّا قال له النبيّ، وهو يقدّمه له: هذا خليلي أبو بكر. فلاذ بُريْدة، في غياب النبيّ، بالخليل.

وقد وقع حبّ بُريْدة في قلب أبي بكر أيضاً، منذ تلك الليلة، لِمَا وجد منه من حسن الضيافة والاهتمام بأمر النبيّ والدخول في الإسلام بصفة تلقائية وإدخال قومه في الإسلام بالكلّية. ولم يَنسَ له أبو بكر ذلك أبداً. ولم يَنسَ له النبيّ ذلك أيضاً. فتراهما يتذاكرانه بمناسبة وبغير مناسبة، ويتذاكران فضله وفضل قومه، من ذلك هذا الحوار بينهما: «قال أبو بكر الصدّيق: يا رسول الله، نعمَ الرجل بُريْدة لقومه، عظيم البركة عليهم، مررنا به ليلة مررنا ونحن مهاجرون إلى المدينة، فأسلم معه من قومه مَنْ أسلم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: نعمَ الرجل بُريْدة لقومه، وعزّ قومه. إنّ خير القوم مَنْ كان مُدافعاً عن قومه ما لم يأثم، فإنّ الآثم لا خير فيه[393].»

والآن وقد مات النبيّ المكرّم، وحان وقت الخلافة، ونشبت بشأنها الصراعات في المعسكرات، انتصب خيال بُريْدة في ذهن أبي بكر وهو خارج من السقيفة بعد أن انشقّ الاجتماع الأوّل. وانتصب خيال قومه أسلم في ذهنه أيضاً. فأبو بكر لم ير في حياته قطّ قوماً يأتمرون بإمرة رئيسهم مثل أسلم.

ولم ير قوماً دخلوا في الإسلام بالكلّية بدخول رئيسهم فيه غير أسلم. أيقن أنّ بُريْدة إذا ما انحاز إلى صفّه انحازت أسلم عن بكرة أبيها إلى صفّه. وأسلم هي مَنْ هي. أعراب أشدّاء اشتهروا من بين العرب بالشجاعة والشدّة والبأس، لا يهابون أحداً، يُقتّلون ويُحرّقون إذا لزم الأمر، ويتفانون في الدفاع عن الصفّ إذا ما دخلوا في الصفّ، فلا يغلبهم عليه غالب. وقد وقف أبو بكر على ذلك خلال فتح مكّة، لمّا جعلهم النبيّ تحت إمرة خالد بن الوليد، وجعل بُريْدة على رأسهم باللواء[394]، فانساقوا وراء خالد وبُريْدة يملؤون الأباطح في مكّة والظواهر، والبأس والشدّة على مُحيّا كلّ واحد منهم، فخافتهم مكّة. تذكّر أبو بكر ذلك وبدا له ليلتها، وهو خارج من اجتماع السقيفة الأوّل، أنّ بُريْدة هو الحلّ، فأرسل إلى بُريدة.

10

ازدادت الحلقات روّاداً، وازدادت بالروّاد صَخباً. انتشرت الإشاعات، وتفاقمت عدداً. سرت واحدة من بين الإشاعات في الحلقات وخارج الحلقات. ويبدو، والعهدة في ذلك على الأخبار الواردة علينا من هناك، أنّ شرذمة من العملاء استُعملوا في نشر تلك الإشاعة والانتقال بها بين الحلقات والاختلاف بها إلى الناس في كلّ مكان دون استثناء، فساروا بها إلى المسجد وفضاءات الجلوس أو الاجتماع ومحلّات البيع والشراء، وحتى المنازل التي انزوى فيها أهلها دقّوا أبوابها على أهلها وأخبروهم الخبر. وقد جاء في تلك الإشاعة ما يلي: إنّ أبا بكر الصدّيق خارج على الناس ومعه ألف حجّة على وجوب الخلافة له، وإنّ جيشاً من الأعراب الأشدّاء قد وقف إلى جنب أبي بكر الصدّيق، وهو سينتشر في المدينة بعد حين.

فعلت الإشاعة في الناس فعلها. تشوّقوا إلى الألف حجّة في الخلافة المباركة. خافوا الجيش من الأعراب الأشدّاء. تمنّوْا حسن العاقبة. انتظروا.

جاء خالد بن الوليد[395] يشقّ بفرسه الحلقات. كذلك هو خالد أبداً، لا يخاف أحداً، ويخافه الناس حيث حلّ. وقف بفرسه عند بُريْدة بن الحُصيْب، وأسامة ينظر باهتاً، وسكت الناس في الحلقات بَهَتاً. لم يسلّم. فخالد لا يعرف آداب التحيّات، ولا يعرف الأحاديث الواردة فيها، ولم يحفظ القرآن كما حفظه الناس. ألهاه عن ذلك الجيش والحرب والضرب بالسيف، كما كان يحلو له أنْ يقول[396]. وقد تناقل الناس أخباره التي جعلت منه عسكريّاً خارج الصفّ، يفضّل ليلة شاتية ذات جليد يخرج فيها غازياً على ليلة تُزفّ إليه فيها عروس يُحبّها أو يُبشّر فيها بغلام بهيّ الطلعة[397]. وكان في الغزوة ينتهك الحرمات، ولا يخضع لقيم الجزيرة والأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة، فيقتل مَن أسلم وتشهّد أو كان مسلماً ويقع في الحين على زوجته[398]. وقد

تعوّد الناس كلّ ذلك من خالد، وخافوا شدّته وبأسه وأظهروا له الودّ، إنْ صدقاً وإنْ كذباً، وسلّموا عليه وإنْ لم يسلّم، وحمدوا الله، ردّ عليهم السلام أم لم يردّ.

سارع أسامة إلى خالد وسلّم عليه، وهو على فرسه قدّام بُريْدة. قال له بودّ: أنعم الله صباحك يا سيف الإسلام. كان أسامة يعتبر خالداً قدوة، لا في أخلاقه طبعاً، بل في قيادة العسكر وشجاعته واستعمال السيف في القتال. كان يُحلم النفس أنْ يُصبح يوماً قائداً للعسكر بمنزلة خالد. ولمّا عيّنه النبيّ على رأس الجيش الخارج إلى مؤتة ولم يخرج، وكان خالد في ذلك الجيش، خجل أنْ يكون أميراً على خالد. فاعتذر لخالد عن ذلك وكأنّه أخطأ في حقّه. كان مُحرجاً أنْ يكون أميراً على الجيش وفي الجيش خالد جُنديّاً. ولكنّ خالداً شدّ على يده وقال له بحرارة: هذه فرصتك يا أسامة، فاغتنم فرصتك. وقد أحسّ بما كان في نبرة خالد من صدق وحنوّ عليه. ولم يُغادر خالد المُعسكرَ كما فعل غيره، بل التزم مكانه كما يلتزم الجنديّ مكانه. أعجبه ذلك من خالد.

فاجأه خالد. مدّ إليه يده مصافحاً وقال: كيف أنتَ يا أسامة؟ شدّ على يده شدّاً قويّاً وقال: اثبت في مكانك يا أسامة. سأصحب بُريْدة إلى حاجة عاجلة، ثمّ يعود إليك بإذن الله. أمّا أنتَ فعينك على البيت، تحرسه، كما كان يحرسك رسول الله. أجاب أسامة، ولم يُفكّر: سمعاً وطاعة أيها القائد. كان أسامة يُحبّ خالداً من حيث لا يعلم.

شقّ خالد الحلقات على فرسه راجعاً من حيث جاء، وبُريْدة وراءه راجلاً. ولمّا بلغ السكّة ترجّل واقفاً جنب بُريْدة، فقال له بُريْدة: كلّ شيء جاهز يا خالد. لقد أرسلت البارحة صُهيباً بالرسالة إلى قومي أسلم أدعوهم إلى دخول المدينة عند العصر، كما اتفقنا على ذلك البارحة مع أبي بكر. وقد بات عندهم صُهيب وعاد صباحاً وانضمّ إلى حلقة من هذه الحلقات، وتكلّم مع الناس كما تعوّد وكأنّ شيئاً لم يكن، ولم يُشتبه في أمره، ثمّ مرّ بي وأعلمني أنّ كلّ شيء جاهز. ثمّ أخرج من تحت عمامته رقعة وسلّمها إلى خالد وقال: هذه وثيقة بالعهد الذي قطعناه على أنفسنا في أسلم، سلّمنيها صُهيْب، لمّا مرّ من أمامي. شكره خالد وربت على كتفه وقال: سننتصر بإذن الله يا بُريْدة. إنّ ثقتي فيك وفي قومك كبيرة، وسيكون لك ولقومك بيننا شأن عظيم.

كان خالد يعرف معرفة جيّدة أسلم. فقد سبق له أنْ قادهم في بعض المعارك وفي فتح مكّة[399]، ووقف على شدّتهم في الحرب. وهو يذكر إخلاصهم للإسلام وتفانيهم في الذود عنه ونشره. وهو يعرف أنّ أسلم تُحبّ الحظوة والتبجيل وتأتمر بأمر رئيسها بُريْدة، فشكر بُريْدة من جديد ووعده بالفوز بخير المراتب، وأمره بالعَوْد إلى مكانه حتى يدخل العسكر، فإذا دخل وقف على رأسه عند الميسرة، وتولّى خالد أمر الميمنة. ثمّ ودّعه وركب فرسه.

عاد بُريْدة إلى حيث كان. أحلم النفس بالمستقبل الزاهر. غداً يُصبح أميراً على أرض من أراضي الإسلام الآتية، ويرتع في الأرض قومه. أخرجه أسامة من أحلامه. قال له سائلاً: كلّ شيء على ما يُرام يا بُريْدة؟ فأجاب بسرعة: نعم يا أسامة. نحن هنا ولا خوفَ. ولم يترك له الفرصة ليواصل الأسئلة، وانطلق يروي له قصّة التقائه النبيّ، في تلك الليلة، والنبيّ مهاجر إلى يثرب، وما كان من أمره وأمر قومه مع النبيّ، وهلمّ جرّا. كان أسامة قد سمع القصّة من قبلُ، مرّات ومرّات، حتى ملّ القصّة. ولكنْ ما العمل؟ لا حول له ولا قوّة وبُريْدة لا يتوقّف عن الكلام ولا يترك صراخاً لصارخ كما يقال. تجلّد بالصبر وصمت. ذهب به التفكير كلّ المذاهب.

فهم أسامة أنّ شيئاً كان يحدث وهو غافل. خاف من المجهول. احتدّ غضباً. اشتعل في عروقه الدم الحارّ. اخضرّ وجهه الأسود. جرى نحو المسجد لا يلوي على شيء. فليذهب بُريْدة إلى الجحيم، ولتذهب إلى الجحيم قصّته التي سمعها للمرّة الألف، وليذهب إلى الجحيم أيضاً هؤلاء الناس الذين ذعروا وقد رأوه يجري. جرى نحو الصُّفّة. شقّ مسرباً بين أجساد الباركين في الصُّفّة، وتوجّه إلى الركن حيث كان بلال باركاً. أخذ بتلابيب ثوبه وجرّه خارج الصُّفّة، كأنّه يُحمّله المسؤولية في ما حلّ به وما يجري في الساحة. بدا له أنّ بلالاً كان رأس المشكل. ألم يصحبه إلى السُّنح ليقابل أبا بكر؟ ألم يجعل على رأسه بُريْدة؟ لا بدّ أنْ يكون على علم بما يحدث.

كبّر الناس تكبيراً كثيراً. استغفروا الله وخافوا سوء العاقبة. كرهوا أنْ تُصيبهم الكارثة وأسامة يجرّ بلالاً ويُضيّق عليه الخناق. حسبوا ذلك من علامات الساعة. ظنّوا الساعة آتية لا ريبَ فيها. صاحوا صوتاً واحداً: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وأعادوا ذلك مرّات عديدة.

استوى بلال واقفاً عند باب البيت وأسامة أمامه آخذ بتلابيب ثوبه وبُرَيْدة باهت. لم يرفع بلالٌ رأسه إلى أسامة ولم يكلّمه. كأنّه احتقره. أو لعلّه شفق عليه. انتبه أسامة. رأى أنّه أتى فعلا شنيعاً فاحشاً. أطلق بلالاً من قبضته، وسَيّب تلابيب ثوبه، ثمّ ارتمى في حضنه يبكي. ضمّه بلال وحنا عليه. وتجمّعت من حولهم الناس. يا للمشهد! أحلموا النفس بأحداث عجيبة وتصرّفات غريبة يجعلونها قصصاً ويروونها للأهل والأصحاب والمسافرين الذين عجّت بهم سكك المدينة.

ولكنّ الزمن داهمهم جميعاً. سمعوا صخباً شديدا ورأوا ركباً يتقدّم. انفضّوا من حول بلال وأسامة وبُرَيْدة. هرولوا نحو الركب. قال بلال لأسامة مُناجياً: ها الأمر قد اتّضح لك يا بنيّ الآن. هذا أبو بكر خارج على الناس للخلافة، ونحن جميعاً في الخدمة، وأنت أمير الجند وراعي النبيّ المسجّى وسيف الإسلام الآتي، وهذا بُرَيْدة يسندك في خدمة القضيّة، فلا تفزع. كان لا بدّ أنْ تجري الأمور في كنف السرية. وربت على كتفه وأدار له ظهره والتحق بالركب.

كان الركب يتقدّم. خَلقٌ من الرعاع والعبيد والموالي في الصفّ الأوّل، يفتحون الطريق أمام الراكب على الفرس الأشقر. وكان الفرس يدبّ دبيباً فلا يتجاوز الراجلين جنبه. وكان الراجلون جنبه ثلاثة نفر، هذا عُمر بن الخطّاب وهذا أبو عُبيدة بنُ الجرّاح وهذا خالد بنُ الوليد. وكان المهاجرون من صفّ أبي بكر وصحبه يختمون الركب. مرّوا أمام المسجد ثمّ لفّوا يميناً. اختفوا عن أنظار أهل الصفّة الواقفين أمام المسجد بعد أنْ شوّش عليهم اعتكافهم أسامة وهو يجرّ بلالاً، ثمّ الصخب الذي أحدثه الركب.

كان الركب يسير نحو سقيفة بني ساعدة وهو يكبر ويضخم. كلّما مرّ بسكّة انضمّ إليه أهل تلك السكّة وقد جرى إليهم المخبرون مُسبقاً يستحثّونهم على الانضمام إلى الركب. وكانت هناك عجوز تستلطف الله وتعجب من هذا الركب الضخم ولا تفهم. اغتنمت الفرصة لمّا اقترب منها راجلٌ تعطّل عن الركب وكان أعرج ففاته الركب، وقالت له: ماذا جرى يا تُرى؟ لماذا هذا؟ فقال لها بكلّ حزم وجدّ: أوَلا تعلمين يا عجوز أنّ أبا بكر الصدّيق خارج على الناس ومعه ألف حجّة على وجوب الخلافة له؟ فقالت العجوز: إذا كان مع

أبي بكر الصدّيق ألف حجّة على وجوب الخلافة له، فإنّ مع غيره ألف حجّة على وجوب الخلافة لغيره. تخلّى الأعرج نهائيّاً عن السير وراء الركب وهو يعجب من حكمة العجوز.

ترجّل أبو بكر وقد اقترب الركب قاب قوسيْن أو أدنى من سقيفة بني ساعدة. تنحّى الخَلق من الرعاع والعبيد والموالي عن الصفّ الأوّل، وتصدّر أبو بكر الركب وسار عُمر بنُ الخطّاب على يمينه وأبو عُبيدة بنُ الجرّاح على يساره. وخرج خالد بنُ الوليد عن الركب في مهمّة سرّية، كما سنرى من بعدُ. ومشى المهاجرون من هذا الصفّ وراء الثالوث للمساندة وإكسابه الشرعيّة اللازمة. ومشى وراءهم المتطفّلون للفرجة. كلّ شيء كان مدروساً منظّماً مُحكماً، فالخلافة سياسة الناس وتتطلّب الحنكة والتبصّر وحذق العمل والمهارة والاستباق. وهي ليست إمامة وعصمة ووراثة كما ظنّ بنو هاشم، ولا هي جزاء على الضيافة كما ظنّ الأنصار وبنو ساعدة. السياسة من عمل الساسة.

وحتى لا نُثقل عليكم بالتفصيل، ولا نحمّلكم ما لا طاقة لكم به، ولا نصرف عنايتكم الفاضلة عنّا، نترك الركب يتقدّم إلى سقيفة بني ساعدة ولا نُكثر فيه الوصف، فالطريق هي الطريق والناس هم الناس. وسنعود إلى ذلك عند بلوغهم الغاية. أمّا الآن فنعود إلى حظيرة النساء، وقد أهملنا أخبارهنّ منذ البارحة، وهذا لا يليق بنا. فالنساء هنّ مَنْ هنّ في الشريعة والمجتمع والسياسة، وعلينا واجب الإخبار عنهنّ، ولهنّ علينا حقّ الناس في النفاذ إلى المعلومة التي تهمّهنّ. ثمّ إنّ النساء زينة الحياة الدنيا والآخرة، في قصّ أخبارهنّ مُتعة، وأنتم تشعرون ولا شكّ بتلك المتعة!

11

عادت النساء مع تقدّم الصباح إلى بيت النبيّ يشددن أزر أزواجه الأرامل. وعاد البكاء والنواح وحتى العويل. وعادت الحلقات سيرتها الأولى، كما كانت أمس. ثلاث حلقات على وجه التحديد. حلقة أولى بعائشة وحفصة وسودة ونساء من المهاجرات والأنصار، قريبات من ذوي السلطان، ولهنّ في المدينة شأن. وحلقة ثانية بزينب وجُويريّة وصَفيّة ومارية القِبطيّة التي باتت عند زينب وقد أنزلتها ضيفة عليها، ونساء من المهاجرات والأنصار، يهزّهنّ الشوق إلى سماع القصص من أفواه وجوه المعارضة في حظائر النساء. وحلقة ثالثة بأمّ سلمة وأمّ حبيبة وميمونة ونساء من المهاجرات والأنصار، تقدّم بهنّ السنّ مثلهنّ، ويغلب عليهنّ جميعاً السكوت والتأمّل، ولهنّ من الحكمة نصيبٌ. وكانت أسماء بنتُ عُميس تختلف بين الحلقات وتنتقل بالأخبار من حلقة إلى حلقة. وكانت تدخل وحدها على الرسول المسجّى في البيت، وتنظر في جسده، علم الله كيف، ثمّ ترفع تقريراً في التغيّر الحاصل.

كانت أسماء بنت عُميس[400] امرأة من طينة خاصّة، لها قرابة بكلّ فرد، وقصّة مع كلّ عرش، ودور تلعبه في كلّ أمر. كانت أخت ميمونة زوج النبيّ، وأخت لبابة امرأة العبّاس. وكانت مِنْ أكرم الناس أصهاراً، فمن أصهارها النبيّ وحمزة والعبّاس. وكانت خالة عبد الله بن العباس الشهير وخالة أخيه الفضل. وقد تزوّجت خير الرجال، جعفر بن أبي طالب، ابن عمّ النبيّ وشقيق عليّ بن أبي طالب. ولمّا مات عنها جعفر شهيداً في حرب الروم بمؤتة، تزوّجت أبا بكر الصدّيق، الخليفة الذي نحن بصدد الحديث فيه. ولمّا مات عنها أبو بكر الصدّيق تزوّجت عليّ بن أبي طالب، الخليفة الرابع في عدّ الخلفاء. ولكنّ هذا الزواج لا يهمّنا هنا فقد تمّ بعد السقيفة بعاميْن أو ثلاثة.

كانت أسماء بنتُ عُميس في الأخبار على علاقة خاصّة بآل البيت ومحمّد ابن عبد الله. كانت سبّاقة إلى الإسلام لمّا كان الإسلام في شرذمة قليلة لا مال لها ولا سلطان، ولم يدخل بعدُ دارَ الأرقم. وهاجرت الهجرتيْن، إلى أرض الحبشة أوّلاً، حيث كانت من البُعداء الطُّرداء[401]، ثمّ إلى المدينة من بعدُ، حيث التحقت بالرسول. وكثيراً ما كنّا نراها في بيته، تتدخّل في شؤونه وشؤون أهله، وقد حضرت احتضاره، ولمّا خافوا عليه ذات الجَنْب، لدّته بطبّ أصابته بأرض الحبشة[402]، ولمّا اختلفوا في موته، وقالوا بغيبته المؤقّتة ووجوب انتظار عودته، فاجأتهم بالحقيقة المُرّة وقالت: قد رُفع عنه الخاتم الذي كان في الحياة الدنيا أمارة نبوّته، فهو قد مات وانتهى أمره. فكان هذا الذي عُرف به موته[403].

كانت أسماء بنتُ عُميس في حلقة جماعة الحكمة والسكوت والتأمّل، حيث أمّ سلمة وأمّ حبيبة وميمونة أختها والنساء اللائي تقدّم بهنّ الزمن، لمّا وصلتها أصواتٌ بلغة كالتي كانت تسمعها في الحبشة، وتجهلها النساء في الحظيرة. استقامت واقفة لا تُصدّق ما تسمع. وسرعان ما تبيّنت أنّ مصدر ذلك كان حلقة جماعة المعارضة. ورأت زينب تنهر مارية القِبطية وتُشير إليها بالسكوت. فجرت إلى تلك الحلقة.

ويبدو أنّ ما تمّ في الأثناء كان شيئاً مُبتكراً لم تشهده الحظيرة قطّ، وإنْ شكّ بعض العلماء في ذلك واعتبروه أمراً عادياً ما دامت صفيّة كانت يهودية ومارية قِبطية. وستفهمون عنّي كلامي في ما سيأتي.

بيناً كانت الحلقة تتشكّل ذلك الصباح، إذ تمتمت صفيّة بكلام لم تفهمه زينب والنساء أمام بيتها. ولكنّ النساء لم يسألن صفيّة عن ذلك الكلام، ولعلّ الحظيرة قد سبق لها أنْ سمعتها تُتمتم بذلك، ولم تر فيه ما يُثير الانتباه. فصفيّة يهوديّة، ولا شكّ أنّها حافظت على بعض ثقافتها التي كانت معها قبل إسلامها. فالثقافة الأصليّة لا تزول بمجرّد اعتناق الدين الجديد، والجزيرة لمّا تُهجّرْ نَصاراها واليهود ولم تعرض لهم بسوء حتى ذلك التاريخ. وكانوا، حسب علمنا المتواضع بأمور اليهود والنصارى، يقيمون في الجزيرة صلاتهم باللسان العبري. وكان الناس إذا سمعوا لساناً لا يفهمونه عدّوه من باب التمتمة، وهو ما شاع عن صفيّة في حظيرة النساء. ثمّ إنّ الإسلام الأوّل الذي

لا نعرفه، وسمّيناه في هذا الكتاب إسلام النشأة المفقود، كان، والله أعلم، إسلاماً متسامحاً اتّخذ شعاراً: لكم دينكم ولي ديني، ولا علاقة له بالإسلام الذي رفع من بعدُ شعاراً: مَن اتّخذ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه. وكان ذلك الإسلام الأوّل في حاجة إلى مال لا إلى مسلمين بأعداد غفيرة. فكان، والعهدة في ذلك على المؤرّخين، يحثّ على دفع الجزية لا على الدخول في الإسلام. ولكن تلك قصّة أخرى، قد أفاض فيها غيري الكلام. ثمّ إنّي لا أفهم في السياسة.

ولكنّ ما حدث يومها فاجأ الجميع، ولولا ألطاف الله لوقعت الكارثة. فما إنْ تمتمت صفيّة بذلك الكلام حتى ردّت عليها مارية القِبطية بكلام مثله، وتواصل بينهما الكلام في ذلك اللسان. فبُهتت النساء في الحلقة من أمر مارية الجارية، التي تحذق لساناً غير لسان الناس. ولمّا تمادى بهما الشيء وانتقلتا من الهمس والتمتمة إلى الجهر بالكلام وحتى الضحك أحياناً، دون حرج، قامت زينب إلى مارية تُسكتها ورفعت فيها صوتها تنهرها عن مواصلة الكلام. ولم يكن هذا التصرّف من زينب خشيةً على الإسلام أو دفاعاً على اللغة العربيّة. فزينب كانت مُتشبّعة بالإسلام، مُتفقّهة في العربيّة، تعرف، مثل كلّ مطمئنّ عالم، ألاّ خوف على الدين ولا على اللسان، مثلما يُروّج لذلك الضعفاء وذوو النوايا الفاسدة وأصحاب الأغراض الخاصّة. ولكنّها خافت أنْ تُتّهم بأنّها فتحت حلقتها أمام الأقلّيات في الجزيرة، ومكّنتها من منبر للتعبير جهراً عن خوالجها. وقد ساءها الضحك في المأتم، وخافت أنْ تهجرها النساء إلى حلقة أخرى فتبقى بلا حلقة.

لمّا وصلت أسماء بنتُ عُميس حلقة زينب كانت الأصوات التي سمعتها تجهر بلسان شبيه بما عرفت في الحبشة، قد انقطعت، وساد الصمت. ولكنّ هذا لم يَفُتَّ في ساعدها ولم يقتل فيها تطلّعها بفضول إلى كشف السرّ، فعاجلت زينبَ بالسؤال التالي: ما هذا الذي سمعتُ يا زينب؟ فردّت عليها زينب ببرودة كعادتها: لا شيءَ يا أسماء، يا غالية، مجرّد حديث دار بين صفيّة ومارية.

لم يَخفَ على أسماء ما في هذا الجواب البسيط من تهكّم. فزينب قد مدّت صوتَها مدّاً طويلاً إذ نادتها: يا غالية، ثمّ ارتسمت على وجهها تَبسُّمة

ساخرة صفراء. ولكنّها تظاهرت باللامبالاة وتوجّهت بالسؤال إلى صفيّة متودّدة: ماذا جرى يا صفيّة، يا أخيّة؟ فردّت صفيّة الودّ بالودّ، وقالت: لا شيءَ يا أسماء. مجرّد حديث تمّ بيني وبين مارية لمّا عرفتُ أنّها تعرف مثلي اللغة العبرية، فتحدّثنا في هذا اللسان. ما المُثير في ذلك، يا أسماء، يا أخيّة؟ قالت أسماء وقد رفعت صوتها: وماذا قُلتما يا ترى؟ وكيف عرفت مارية العبرية؟ وأضافت رافعةً صوتها مقدار درجة أو درجتيْن في سلّم قياس الأصوات: هكذا، أصبح الكلام يتمّ بالعبرية في بيت الرسول، والرسول لمّا يُغادر البيت. ويحَ أذني ساء ما سمعتْ!

هزّ الصوت الذي ارتفع بالكلام بيت الرسول. ذُعرت النساء في الحِلق، وذُعر العبيد والموالي والإماء. ظنّوا أنّ أمراً جليلاً قد حدث. جروْا إلى مصدر الصوت من حيث خرج. تداخلت الحِلق، أصبحت واحدة. سرى في زينب الفخرُ وشعرت بالفوز على ضرّاتها. ها الخلق تجمّعوا حولها، أحاطت بها النساء ومن وراء النساء العبيد والموالي والإماء. يا لها من فرصة! اغتنمت الفرصة قامت تخطب: يا حضرات الزوجات الضرائر، يا نساء المهاجرين والأنصار، يا أيّها العبيد والموالي والإماء الأعزّاء، مرحباً بكم جميعاً أمام حجرتي المتواضعة الصغيرة التي تضيق عن إيوائكم، ولكنّ قلبي كبير كما تعلمون، وهو قادر على احتوائكم، فسلاماً وأهلاً وسهلاً. تناقلت النساء النظر، وهممن بالرجوع إلى حيث كنّ. ولكنّ أسماء قالت معتذرة: ويحي، لقد أزعجتكم جميعاً، فالمعذرة، المعذرة. لقد سمعتُ كلاماً عجباً، سمعتُ لغة التحريف في بيت الرسول، سمعتُ ما سمعتم جميعاً، وباسمكم جميعاً أطلب التوضيح.

نظرت عائشة في اتجاه العبيد والموالي والإماء وأشارت إليهم بيدها بمغادرة الحلقة، وضمّت القول إلى الإشارة: إلى حاجاتكم. ما هذا الفضول؟ فانسحبوا يجرّون أذيال الخيبة وقد ظنّوا أنّ الأنظار لن تنالهم فيفوزوا بالأخبار. ولكن عائشة كانت لهم بالمرصاد. وكانت شديدة عليهم وكانوا ينفّذون أوامرها بحذافيرها. وتواصل في غيابهم الكلام في الحلقة، بين النساء.

تكلّمت زينب، قالت: يا أسماء، إلامَ الخُلفُ بيننا، إلامَ، وهذي الضجّة الكبرى علامَ؟ أخبريها يا صفيّة بالأمر الذي كان، حتّى تهنأ.

أسرعت صفيّة وأجابت: لقد قرأتُ بيني وبين نفسي، جهراً كما اقتضت الحال، شيئاً من التوراة بلغة أهلي، وبالتحديد قرأت الآيتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين من الأصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج، وقد جاء فيهما: ﴿وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ الرَّبِّ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، لَمْ يَأْكُلْ خُبْزًا وَلَمْ يَشْرَبْ مَاءً. فَكَتَبَ عَلَى اللَّوْحَيْنِ كَلِمَاتِ الْعَهْدِ، الْكَلِمَاتِ الْعَشَرَ * وَكَانَ لَمَّا نَزَلَ مُوسَى مِنْ جَبَلِ سِينَاءَ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِ مُوسَى، عِنْدَ نُزُولِهِ مِنَ الْجَبَلِ، أَنَّ مُوسَى لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ جِلْدَ وَجْهِهِ صَارَ يَلْمَعُ فِي كَلاَمِهِ مَعَه[404]﴾ وهي قصّة تروي غياب موسى عند ربّه أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثمّ عاد إلى بني إسرائيل الذين هم أهلي، يحمل الوصايا العشر والتعاليم. وقد قرأتها إيماناً منّي بأنّ النبيّ زوجي الذي هو زوجكنّ يا نساء، سيعود إلينا بعد أربعين يوماً وأربعين ليلة، إسوة بأخيه موسى. وقد فهمت عليّ مارية القِبطيّة كلامي وأجابتني بكلام مثله. قولي لهنّ يا ماريّة ماذا قُلت بالضبط فإنّي لا أحفظ من العهد الجديد شيئاً.

أصاب الحياء مارية القِبطية التي لم تتعوّد الكلام في النساء وقد غُلّقت عليها الأبواب منذ جاءت من مصر في مرج بعيد لا يراها فيه غير محمّد النبيّ ومابور الخادم. لم تقدر على رفع عينيْها في النساء. لم تتكلّم. فاجأت عائشة النساءَ لمّا قالت: قولي يا جارية ما كان. لم تكن عائشة تحمل الودّ لمارية وقد عاملتها وحفصة معاملة سيّئة من قبل. لم يَخفَ عن النساء ما في كلام عائشة من تحقير لمارية وتشهير بها وقد سمّتها جارية ولم تذكر اسمها، رغم أنّ النبي أعتقها لمّا أنجبت له إبراهيم. ولم يخف عنهنّ اهتمام عائشة بالخبر. وهذا من شأنه أنْ يرفع عنهنّ التحفّظ الذي كنّ يُبدينه لسماع قصّة صفيّة ومارية وهما من غير الأصول العربيّة الأصيلة. فهتفن بمارية وأردن سماع الحكاية. فاستجابت مارية.

قالت مارية تروي: لمّا سمعتُ أختي صفيّة تقول آيات في موسى ورحلته العجيبة إلى الله ورجوعه حيّاً، عارضتُها بآيات بيّنات في يسوع المسيح، تروي صَلبه ودفنه وبعثه، فذكرتُ الآية العشرين من الأصحاح الثاني عشر من إنجيل متّى: ﴿لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّام وَثَلاَثَ لَيَالٍ هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ[405]﴾ والآية الأولى من

الأصحاح الأربعين من رسالة بطرس الرسول الأولى: ﴿أَنْتُمُ الَّذِينَ بِهِ تُؤْمِنُونَ باللهِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَأَعْطَاهُ مَجْدًا، حَتَّى إِنَّ إِيمَانَكُمْ وَرَجَاءَكُمْ هُمَا فِي اللهِ[406]﴾ ثمّ أضافت على عجل: مثلما عاد عيسى إلى أهله بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال، سيعود إليّ زوجي النبيّ بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال.

بُهتت النساء من علم مارية بالأديان. ونَسينَ في لحظة حقدهنّ عليها والسّخرية التي كنّ يُقابلن بها كلامها الذي كان فيه نغم حائر وعلّة في نطق الحروف. ولم تترك زينب الفرصة للمتربّصات بمارية الدوائر، فقالت مبتسمة وفي صوتها حنوّ كبير: ومن أين لك كلّ هذا يا مارية؟ فأجابت برصانة ووُثوق لم تعرفهما فيها من قبلُ: كنت قبل إسلامي وزواجي السعيد من النبيّ في مصر. ومصر، سمّاها العرب مصر، أمّا اسمها الأصلي في لغة أهلها فهو أقِبْطُوس أي بلاد القِبط. وأنا منهم. وكنت في قصر مولاي سيروس، حاكم مصر الذي تسمّونه المُقَوقِس، وكان يحكم بأمر الإمبراطور هيراكليوس، ويَدين بدينه الذي هو النصرانية، وكنّا جميعاً نَدين بذلك الدين، ونتعلّم بأمر مولاي الحاكم اللغات التي جاء فيها الدين، من ذلك العبرية واليونانية، فتعلّمت ذلك والحمد لله، وفهمت على أختي صفيّة ما قالت بالعبرية. ثمّ علّمني زوجي النبيّ العربيّة والإسلام، وكان خير معلّم، يتفانى في تعليمي ويسهر عليّ، وقد أعجبه منّي علمي، وحُسني أيضاً، فأقام عندي طويلاً كما تَعلمنَ.

لم تعد عائشة تتحمّل أكثر ممّا تحمّلت، وكذلك حفصة. أخذت عائشة بيد سودة وجرّتها إلى بيتها، وسودة تأسف بينها وبين نفسها لحرمانها من سماع قصص مصر العجيبة التي ستواصل الحلقة الحديث فيها ولا شكّ. ومشت وراءهما حفصة. وتواصل الحديث في الحلقة، وقد صفا الجوّ في ظلّ غياب عائشة وحفصة. وأحبّت النساء يومها صفيّة ومارية اللتيْن شرحتا لهنّ معالم التوحيد في الدينيْن الآخريْن، اليهودية والنصرانية، وبيّنتا ارتباطهما في المقولات، وكيفية القيام بالشعائر فيهما، وهلمّ جرّا. ولم تكن النساء في المدينة ولا بيت الرسول قد تعوّدن مثل هذا الكلام، فسرت فيهنّ المعرفة سرياناً جميلاً وانطلقت أساريرهنّ، وضحكن سرّاً أحياناً. وقد صار الحديث أمتع وأحلى لمّا قصّت مارية بإيعاز من زينب، قصّتها مع النبيّ، وزيّنت زينب

القصّة بما كان من أمر عائشة وحفصة مع مارية والنبيّ. وفي القصّة شيءٌ من الغيرة والبغض والكراهية من أجل الحبّ والنكاح ومآرب أخرى. وهذا أهمّ وأبقى للقصّة. وقد سرقنا شيئاً من ذلك الحديث الذي تستّرت عليه النساء حياءً وتقيّةً وخوفاً من عائشة وحفصة، وهو خاصّ بالنساء، كما قُلنَ، والله أعلم.

قالت مارية: أنزلني رسول الله أوّل ما قُدم بي في بيت لحارثة بن النعمان، فكنتُ جارة أزواجه وكان لا يُفارقني عامّة النهار والليل، فغارت النساء وفرغن لي وأتين فيّ ما أتين فجزعتُ، فحوّلني إلى العالية، في المال الذي تسمّى باسمي ويُقال له مشربة أمّ إبراهيم. وكان يختلف إليّ هناك، وضرب عليّ الحجاب، وكان يطؤني بملك اليمين، فلمّا وضعتُ إبراهيم ابني أعتقني، وتنافست الأنصار في إبراهيم، وأحبّوا أنْ يُفرّغوني للنبيّ، لِما يعلمون من هواه فيّ. كان يُحبّني، مُعجباً بي. كان عاشقاً وكنت بيضاءه الجميلة جعدة الشعر[407].

أعجب هذا الكلام النساء، وقد قالته مارية بتلقائيّة وعفويّة وعن فطرة، ولم تقصد به زهوّاً ولا فخراً. ثمّ هو الصدق الصارخ والحقيقة التي كان يعرفها الداني والقاصي، ولم يكن النبيّ يتستّر على أمره مع مارية، بل كان يعتزل أزواجه من الحرائر ويقيم عندها الأسبوع الكامل أو الأسبوعين، وحتى الشهر بأسره، لا يُفارقها ولا يدخل على غيرها من النساء، وإنْ كانت عائشة.

وحتى تكتمل الصورة في هذه الجارية، نسوق ما أضافته زينب في هذا الصدد، متعمّدة رفع صوتها به حتى تَسمعَها عائشة وحفصة، فقالت: أنا أؤكّد لكنّ يا نساء كلّ ما قالته مارية، وأضيف ما سيأتي: إنّ عائشة كانت تقول، وها هي هناك تسمعني فلا أكذب عليها: «ما غرتُ على امرأة إلاّ دون ما غرت على مارية، وذلك أنّها كانت جميلة من النساء جعدة، وأعجب بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[408].» وأمّا سبب خروج النبيّ بها من هنا إلى العالية فيعود، زيادة على ما قالته مارية، إلى ما كان من أمر حفصة مع النبيّ، وها هي هناك تسمعني فلا أكذب عليها ولا أزيد. وحاصل الأمر أنّ «رسول الله خلا بجاريته مارية في بيت حفصة، فخرج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهي قاعدة على بابه، فقالت: يا رسول الله أفي بيتي وفي يومي؟ فقال النبيّ صلّى الله

عليه وسلّم: هي عليّ حرام فأمسكي عنّي. قالت لا أقبل دون أن تحلف لي. فقال: والله لا أمسّها أبداً، هي حرام عليّ [...] فأبى الله ذلك فردّها عليه وكفّر يمينه ونزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[409]﴾ فالحلال حرامٌ في الإماء[410].»

ابتسمت النساء وضحكن بحياء ولولا المقام لقهقهن قهقهةً عالية. وسرى في مارية شيءٌ كالفخر وأعجبها كلام زينب ونزول الآيات فيها، وهذا لم تسمعه أبداً، فسُرّت سروراً عظيماً، وقامت تُقبّل زينب من حيث لا تدري وتضمّها إليها ضمّا قويّاً. أمّا أسماء بنت عُميس التي كانت وراء هذه القصّة فقد اقتربت من مارية وربتت على كتفها وقالت لها بحنوّ: إنّنا نعرف يا مارية أنّه كان يُحبّك، رحمه الله وصبّرك فيه، وهو لن يعود، مع احترامي الشديد لعلمك الغزير الوافر في البعث من القبر بعد ثلاثة أيّام وثلاث ليال. إنّ الرسول مات وقد ذكرتُ أمس أنّ خاتم النبوّة قد رُفع عنه، وأنا سأعود إليه الآن لأنظر إنْ كانت هناك مظاهر أخرى لهذا التغيّر الحاصل فيه بإذن الله. وغادرت الحلقة في اتجاه بيت عائشة حيث كان الرسول مُسجّى.

12

وصل الركب إلى سقيفة بني ساعدة والحمد لله. كانت الشمسُ في كبد السماء أو تكاد. لم يكن هذا الوقتُ في عادات العرب التليدة وقتاً للاجتماع والحوار والأحاديث في السياسة، بل للغداء والأكل وإصابة شيء من الراحة. فطقس الجزيرة حارٌّ لا يرحم. ولكنّ اليوم لم يكن يوماً عادياً في الجزيرة. كان يوماً للخلافة، والخلافة طارئة حادثة. ثمّ إنّ أبا بكر وصحبه والمستشارين عنده قد اعتمدوا سياسة ابتدعوها تقتضي الوصول المتأخر عمداً. وذلك لسببيْن اثنيْن، أحدهما يدخل في باب المراوغات والحيل والآخر على علاقة بربح الوقت لانتظار المدد، بإذن الله. وقد نجحت هذه السياسة نجاحاً باهراً وآتتْ أُكُلَها ضعفيْن، كما سنبيّن ذلك الآن بخصوص السبب الأوّل، ومن بعدُ، إنْ شاء الله، بخصوص السبب الثاني.

أمّا بخصوص السبب الأوّل فقد أشار المستشارون على أبي بكر ألاّ يُغادر السُّنْح إلاّ عند تقدّم النهار، وأنْ يسير راكباً فرسه الهُوينا الهُوينا كأنّه يمشي على رمش، وأنْ يسير الناس من حوله راجلين، وأنْ يُسرّح المُخبرين في السكك لاستحثاث الناس على السير في الركب، فيكبر الركب شيئاً فشيئاً وهو يتقدّم. وقد طبّق أبو بكر هذه الوصايا بحذافيرها، فركب الوَرد وهو فرس كان مع النبيّ أهداه له تميم الداري فأهداه النبيّ لعُمر[411]، فوضعه عُمر على ذمّة أبي بكر في هذه الرحلة المجهولة المصير، تبرّكاً به وقد ركبه النبيّ من قبلُ وما زال فيه شيء من رائحته. ولم يخرج من السُّنْح إلاّ عند ارتفاع الشمس في السماء بحيث يكون الوصول إلى سقيفة بني ساعدة، بعد قطع الميل أو الميلين، تماماً عندما تكون الشمس في كبد السماء تنخر في رؤوس الناس نخراً. واصطفّ الناس وراء الورد. ولمّا أُعطيت إشارة الانطلاق مشوا بمشيته الهُوينا الهُوينا، كما ذكرنا آنفاً. وقد مشى الركب يتقدّمه من بعيد المخبرون

يحثّون الناس على الالتحاق بالركب وراءهم، فكان يكبر حتى صار ألفاً أو ألفيْن بحساب ذلك الزمن، والله أعلم. وكانت العيون التي نشرتها الأنصار لترصّد حركات الركب، تجري إلى السقيفة بأخبار الركب وتَضَخُّمه، وتزيد أحياناً عليها ما تأتّى، فيوجس أهل السقيفة خيفة من المجهول القادم عليهم.

كان الأنصار منذ الصباح الباكر ينتظرون قدوم المهاجرين، وقد ظنّوا أنّ المهاجرين، كسائر العرب، يحترمون المواعيد ويأتون في الوقت المحدّد. ولكنّ المهاجرين تأخّروا عنهم، ثمّ تأخّروا، ثمّ تأخّروا. وكلّما ازداد المهاجرون تأخّراً ازداد الأنصار ضَجراً من طول الانتظار. وكلّما تنامت الأخبار بارتفاع عدد السائرين إليهم تنامى نَخرُ الشكّ فيهم. كانت لواعج نار الحقد تتّقد في سرائرهم، وكانوا يَرتَمِضون من الهمّ. نفد صبرهم ذات ساعة. فتك الغيظ بسعد بن عُبادة فقام في السقيفة يُزبد ويُرعد رغم ما كان معه من وجع يومئذ. وسرى إلى الناس من غيظه غيظ. أرهقهم الانتظار. أرهقتهم الحرارة. جاء وقت الغداء ولم يتغدّوا. عيل صَبرُهم. ولمّا وصل الركب كانوا قد ضعفوا بالتمام والكمال ونجحت فيهم حيلة أبي بكر وصحبه التي كانت تقتضي تدويخهم قبل الإجهاض عليهم بالضربة القاضية، وهي آتية لا ريب فيها.

كان باب السقيفة مفتوحاً على مصراعيْه، يتّسع لدخول ثلاثة نفر في نفس الوقت، دون مشقّة. ولكنّ أبا بكر دخل وحده مُبسملاً. ودخل وراءه عُمر ولم يُبسمل. ثمّ دخل أبو عُبيدة بن الجرّاح مُبسملاً ومُتمتماً بكلام بينه وبين شفتيْه. ثمّ ازدحم الناس على الباب، فدخل منهم مَنْ دخل وظلّ الباقون في الظلّة يمدّون إلى السقيفة أعناقهم ليتبيّنوا فيها الأشباح، ويُرهفون السمع حتى تصلهم الأصوات إذا ما الحناجر ارتفعت بالأصوات. كذلك «اجتمع المسلمون من جميع جنبات المدينة يسمعون ما يكون من كلام المهاجرين والأنصار[412].»

لم يَخفَ عن أبي بكر أنْ لا أحد من أهل السقيفة كان على الباب للترحيب بهم وإدخالهم، فدخلوا تلقاء أنفسهم. وهذا في نظام الجزيرة يعني ما يعني. يعني أنّهم دخلوا فضاءً لم يسمعوا من أهله العبارة السحرية ذات الألفاظ الثلاثة: أهلا وسهلا ومرحباً. وكانت هذه العبارة في ذلك الزمان صكّاً على

بياض للأمان، إذا ما سمعها الضيف دخل الفضاء آمناً وخرج منه آمناً حتى وإنْ كان قتل من أهل البيت فرداً، وهم يبحثون عنه للثأر. وكان الأمان يدوم ثلاثة أيام كاملة فلا يخاف القاتل على نفسه من الثأر منه بعدل أم بغير عدل. وأنتم تعرفون ذلك، ولا شكّ.

كان أبو بكر يعرف أنّ سَعد بنَ عُبادة، صاحب البيت، به وجع فلا يقوم لاستقبال الضيف، وله في ذلك عذره أمام الله ورسوله، وإنْ في غياب الرسول. ولكنّ سعداً وضع أمسِ ابنه قيساً لاستقبالهم والترحيب بهم وحتى توديعهم على أمل اللقاء بهم من غد، فأدّى واجب الضيافة حسب ما يقتضيه العرف وقيم الأعراب الخالدة. أمّا اليوم فقد استبقى قيساً جنبه ولم يجعله على الباب، ولم يجعل على الباب غيره من أبنائه أو مَنْ يَصلحُ من قرابته لأداء ما يقتضيه العرف والواجب والتصريح بالعبارة العجيبة ذات الألفاظ السحرية. لم يسمع أهلا وسهلا ومرحباً، فدخل السقيفة من تلقاء نفسه، ودخل صحبه مثله، فلا أمان إذن ولا سلامة، وقد لا يخرجون من السقيفة أبداً. وهذا أمرٌ ما زال العمل به جارياً لدى الأعراب حتى اليوم، فقد يدخل المرءُ عليهم بيوتهم أو يقصد سفاراتهم في حاجة ويغيب الغيبة الكبرى ولا يخرج إلاّ إرباً. فلا تدخلوا عليهم بيوتهم ولا مقرّات سفاراتهم، أرجوكم.

فَهِمَ أبو بكر أنّ الظرف حَرِجٌ وأنّ المكروه سيحلّ به وصحبه إذا ما فشلت الخطّة. ولكنّه تقدّم بثبات لا يلوي على شيء كالواثق من شرعية القضيّة، ولمّا استوى في وسط السقيفة سلّم بصوت جهوريّ حمّله كلّ ثقته بنفسه، وقال: السلام عليكم يا أيّها الإخوان في الدين، يا أنصار الله الميامين، يا أيّها المؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر. لم يجدوا بُدّاً من الردّ على هذا السلام الذي اختار له أبو بكر خير التسميّات لخصومه في الخلافة. ردّوا صوتاً واحداً، إلاّ مَنْ تمتم منهم بآيات السبّ والشتم للمتكلّم وصَحْبه: السلام عليكم ورحمة الله. ولم يترك لهم أبو بكر الفرصة ليتكلّموا بعد ردّ التحيّة، فسارع مُضيفاً وكأنّه خاف أنْ تفلت منه الأمور: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[413]﴾ وأضاف من كلامه: إنّ هذا الأمر جعلهَ الله بيننا شورى وأوصانا

بذلك إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ[414]﴾ ثمّ قال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۞ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[415]﴾

كانت هذه المقدّمة الشافية الكافية المُفعمة بالآيات البيّنات التي يعرفون بعضها ويجهلون بعضها الآخر بمثابة الإذن بفتح الجلسة. وقد ساء الأنصار أنْ يتولّى أبو بكر فتح الجلسة وهو في بيت سَعد بن عُبادة وفي جمع الأنصار، وكانت آداب الاجتماعات وحسن تسيير الجلسات تقتضي أنْ يكون ذلك موكولاً إلى المُضيف لا الضيف. واعتبروا ما أتى أبو بكر خرقاً صارخاً للعادات وفضيحة شنيعة لا يجب السكوت عنها. وقد أجهض هذا الخرق على ما عقدوا عليه العزم البارحة بشأن التداول في اجتماع السقيفة الثاني، وخاصّة البندين الثاني والثالث من محضر الجلسة الذي أثبتناه لكم في فصل سابق، حيث ينصّ البند الثاني على أنّ سعد بنَ عُبادة يفتتح الاجتماع للترحيب وتهدئة الجوّ، وينصّ البند الثالث على إعلان الأنصار رسمياً عن اتّفاقهم أنْ يتولّى سعد بنُ عُبادة الخلافة.

ألمّ بهم الغيظ وقد أضرم أبو بكر نار الحقد في أحشائهم. ولم يَخفَ عنهم ما في هذه المقدّمة من سطو على الآيات لإكساب الخطاب الشرعية، وما فيها من دعوة إلى طاعة أولي الأمر، وكأنّ أولي الأمر هم أبو بكر ومَنْ معه. ساءهم ذلك ووجدوا في كلام أبي بكر تطاولاً عليهم، واعتبروه، بينهم وبين أنفسهم، من باب الإثارة وحملهم على الغضب ودفعهم إلى الانسحاب من الاجتماع فيخلو لأبي بكر الجوّ. وكادوا أنْ يسكتوا على مضض ويتركوا أبا بكر يواصل الكلام، ولكنّ الحُباب بن المنذر لم يستطع مع أبي بكر صبراً. رأى أنّ الكلام صار حكراً على المهاجرين والاجتماع إذلالاً للأنصار.

استقام الحُباب بن المنذر[416] في جلسته ثمّ هبّ واقفاً. رفع يده إلى السماء ووضع عليها يده الأخرى، كما يفعل الناس اليوم في اجتماعات النقابة والسياسة والطلبة، إذا ما استشاطوا غيظاً وغضبوا وطالبوا الرئيس بنقطة نظام. وقد تكلّم الحُباب من غير أنْ يتنازل له أبو بكر عن الكلمة، فقال: لقد

احتكرتَ يا أبا بكر الكلمة، وجانبتَ الآداب والعُرف والقيم، وأتيْتَ على الأخلاق من غير ذنب، إنّما الأمم الأخلاق، إذا ذهبت أخلاقهم ذهبوا. اترك لنا الكلمة الآن. ألا تريد أنْ تسمع منّا، أم ماذا؟

اعتذر أبو بكر بكلّ أدب وحيلة وعبّر عن أنّه لم يقصد الإزعاج ولا الإثارة، وأنّه ذهب في ظنّه أنْ لا فرق بين المهاجرين والأنصار، وأنّه ما كان يظنّ أنّ الأولويّة في الكلام للأنصار لا للمهاجرين، وأنّ الناس إخوة في الدين، وهاتِ من ذلك الكلام الجميل. كاد يستأنف الخطبة ويطيل الكلام لولا أنْ انتصب خطباء الأنصار وقوفاً يُريدون الكلام.

كانت هذه كلّها مقدّماتٍ لجسّ النبض ومناورات مُبيّتة، يُريد كلّ فريق من خلالها اختبار الفريق الآخر واكتشاف مدى قدرته على الصمود أو ردّ الهجمة. كان ذلك من ألاعيب السياسة، وهي شبيهة بألاعيب الحرب إذا ما انتصب العسكر أمام العسكر بالسلاح والعتاد، يُخيف بعضهما بعضاً. وهي شبيهة أيضاً بألاعيب الملاكمة إذا ما قابل الملاكمُ الملاكمَ وأبرز بعضهما لبعض عضلاته وكلّمه كلاماً جارحاً وصوّب إليه نظراته الشزرة. وأنتم تعرفون ذلك ولا فائدة في الإطالة ووصف الحالة بما يضيق عنه الكتاب.

13

عاد الهدوء إلى السقيفة بعد هذا الأخذ والردّ والجدال، «فقعد المهاجرون وسكتوا ساعة لا يتكلّمون[417]» وتَشمّر الأنصار للكلام، وأعادوا الأمور إلى مجاريها، سعياً إلى تطبيق ما جاء في محضر جلسة ليلة أمس التي أصبحتم الآن على علم بها بما فيه الكفاية. «فكان أوّل مَنْ تكلّم من الأنصار يومئذ خُزيمة بن ثابت[418]، ذو الشهادتين، فقال: يا معشر الأنصار، إنكم قد قدّمتم قريشاً على أنفسكم، يتقدّمونكم إلى يوم القيامة، وأنتم الأنصار في كتاب الله عزّ وجلّ، إليكم كانت الهجرة، فاجمعوا أمركم على رجل تهابه قريش وتأمنه الأنصار. فقالت الأنصار: صدقت يا خُزيْمة، إنّ القول لعلى ما تقول، قد رضينا بصاحبنا سَعد بن عُبادة. فقطّب المهاجرون ونظر بعضهم إلى بعض[419]» ولكنّ الأنصار لم يتركوا لهم المجال للردّ، وأشاروا إلى ثابت أنْ يتكلّم احتراما للترتيب الوارد في القائمة المعلن عنها سابقاً.

«فتكلّم ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاري[420]، وكان خطيب الأنصار، لم يزل في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا معشر المهاجرين، لقد علمتم وعلمنا أنّ الله تبارك وتعالى بعث نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وسلّم، وكان في بدء أمره مُقيماً بمكّة على الأذى والتكذيب، لا يأمره الله عزّ وجلّ إلاّ بالكفّ والصفح الجميل، ثمّ أمره بعد ذلك بالهجرة، وكتب عليه القتال، ونقله من داره، فكنّا أنصاره، وكانت أرضنا مهاجره وقراره، ثمّ إنّكم قدمتم علينا فقاسمناكم الأموال وكفيناكم الأعمال، وأنزلناكم الديار، وآثرناكم بالمرافق، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، ونحن الذين أنزل الله تعالى فينا: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[421]﴾ وغيرها في كتاب الله عزّ وجلّ ما لا يُنكره لنا مُنكر، وأخرى،

فإنّكم قد علمتم ما ذكره النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فينا من الفضائل الشريفة، وقد خرج من الدنيا ولم يستخلف رجلاً بعينه، وأن ما وكل الناس، إنّما وكل الله عزّ وجلّ من الكتاب والسنّة الجامعة، والله تبارك وتعالى لا يجمع هذه الأمّة على الضلال، فنحن أنصار الله، ولنا الإمامة في الناس، فهاتوا ما عندكم يا معشر المهاجرين، والسلام[422].»

كان ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاري خطيب الأنصار فاتخذه النبيّ خطيباً مثلما اتّخذ حسّان بن ثابت شاعراً[423]. كان يحظى بمكانة مرموقة لدى الأنصار والمهاجرين على حدّ السواء. وقد استمعوا جميعاً إلى خطبته الفصيحة باهتمام بالغ، فأعجبت الأنصار ورأوا فيها حُجّة دامغة على الشرعيّة لهم، وأثارت ثائرة المهاجرين ورأوا في النداء الذي انتهت به: «هاتوا ما عندكم»، دعوةً إلى الحرب. وكان عُمر على أحرّ من الجمر، يتأهّب للكلام ولا يتكلّم خشيةَ أنْ يقمعه أبو بكر أمام الناس كما فعل معه أمس. ولكنّه لم يستطع أنْ يصبر هذه المرّة. فكلام ثابت الأنصاري كان بمثابة الدعوة إلى النطاح والمبارزة، وهو أهل لذلك، وإنْ لم يفعل اتُّهم بالجبن وحلّت بالمهاجرين الهزيمة. فنهض قائماً وتفادى النظر إلى أبي بكر، وأسرع يقول: «يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أمر أبا بكر أنْ يؤمّ الناس، فأيّكم تطيب نفسه أنْ يتقدّم أبا بكر؟[424]» وجلس بسرعة مخافة أنْ يكون قد أتى ذنباً فلا يغفره له أبو بكر. ولكنّ كلامه نزل برداً وسلاماً على أبي بكر، فهذه شهادة في الشرعيّة ليس كمثلها شهادة. وبيناً كان أبو بكر يُحرّك لهاته ويمرّره على شفتيْه لذّةً ومُتعة ويبلع ريقه حتى لا يسيل لُعابه، «وثب مَعن بنُ عديّ الأنصاري، فقال: يا معشر الأنصار [...] فوالله ما مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى صلّى بنا أبو بكر رضي الله عنه، فعلمنا أنّه قد رضيه لنا، فالصلاة عماد الدين[425].»

كان هذا الكلام شهادة أخرى للشرعيّة المطلوبة في ذلك الوقت. وهي شهادة أهمّ وأبقى من شهادة عُمر، لأنّ مَعْناً من الأنصار لا من المهاجرين، وها هو يشهد ضدّ الأنصار ولصالح المهاجرين. وهو ما أثار الأنصار، وعزم بعضهم على تأديبه، لولا أنْ «وثب عُويم بنُ ساعدة الأنصاري، فقال: يا معشر الأنصار، إنّكم أوّل من قاتل عن الدين، فلا تكونوا أوّل مَن قاتل أهله

عليه، فإنّ الخلافة لا تكون إلاّ لأهل النبوّة، فاجعلوها حيث جعلها الله عزّ وجلّ[426]» فصاح الأنصار: يا لَلْخياتة العُظمى! لم يكفهم أن انشقّ عنهم مَعن حتى لحق به عُويم وانشقّ عنهم أيضاً. وقاموا إليهما «فعيّروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين، وأكبروا فعلهما في ذلك[427]» وأبو بكر ساكت لا يتكلّم.

كان مَعن بنُ عَديّ وعُويم بنُ ساعدة من الأنصار، ولكنّهما كانا متواطئيْن مع المهاجرين. وقد ذكرنا لكم سابقاً أنّهما كانا وراء إعلام أبي بكر وعُمر باجتماع السقيفة ولمّا يُخامر الشكّ المهاجرين في أنّ هناك مَنْ يُنازعهم الخلافة. وأظنّكم تذكرون أنّنا أشرنا في فصل سابق إلى رجليْن كانا جنب خالد بن الوليد في بيت أبي بكر في السُّنح، حيث اجتمع أولئك النفر البارحة. فذانك الرجلان هما مَعن بنُ عَديّ وعُويم بنُ ساعدة الأنصاريان. وقد جاءا السُّنح بأخبار ما استقرّ عليه رأي الأنصار بعد أن انفضّ اجتماع السقيفة الأوّل، ثمّ عادا إلى قواعدهما مع الأنصار وكأنّ شيئاً لم يكن. كانا عين أبي بكر على الأنصار، وكان أبو بكر يُعوّل عليهما كثيراً. وها هو ساكت الآن وكأنّه لا علم له بهذه الخيانة في صفوف الأنصار. تلك هي السياسة في تلك الأيام. ولعلّها هي كذلك اليوم، والله أعلم.

وتمادى الأنصار يؤنّبون العَميليْن الخائنيْن، حسب تعبيرهم، وأهملوا الخطبة وجدال المهاجرين، وأمر الخلافة. وتركهم أبو بكر زمناً في ما كانوا عليه من أمر، لا يهتمّ بهم ولا يكلّمهم، وهو يعلم أن الخصام في ما لا يؤدّي إلى فائدة يفلّ من شوكتهم، فإذا عادوا إلى الجدال عادوا أضعف ممّا كانوا. وهذا أيضاً من ألاعيب السياسة. وكان من حين إلى آخر يرمق سَعد بنَ عُبادة ويرى على وجهه علامات الضعف وقد أفلت منه زمام الأمور. ثمّ تحيّن الوقت المناسب وتكلّم متوجّهاً إلى ثابت بن قيس الأنصاري، وكأنّه لم يسمع ما قاله غيره، «فقال: يا ثابت، أنتَ لعمري كما وصفتَ به قومك، لا يدفعهم عن ذلك دافع، ونحن الذين أنزل الله عزّ وجلّ فينا ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ[428]﴾ وقد أكرمكم الله أَنْ تكونوا الصادقين، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ[429]﴾، وأخرى، فإنّكم تعلمون أنّ العرب لا تقرّ بهذا الأمر إلاّ لقريش، لأنّهم أوسط

العرب داراً، ولهم دعوة إبراهيم عليه السلام، وقد رضيتُ لكم أحد هذيْن الرجليْن، عُمر بن الخطّاب وأبو عُبيدة بن الجرّاح، فبايعوا أيّهما شئتم[430].»

ضحك ثابت بن قيس، واستلقى على ظهره من شدّة الضحك. ثمّ قَهقه ثمّ قَرقر وكَركر ثمّ طَخْطَخَ، ولم يترك من مراتب الضحك مرتبة. فبُهت القوم. ظنّوا أنّ به مسّاً. تجمّد فيهم الصوت ونظر بعضُهم إلى بعض استغراباً. أومأ سعد بنُ عُبادة إلى بعض أهله وطلب إليه أنْ يأتي ببعض الأشدّاء لإخراج ثابت وعلاجه. وعَجب أبو بكر من أمره. ولكنّ ثابت بنَ قيس فاجأهم، فاستقام واقفاً وقال: «ذكرتم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اختار أبا بكر ورضي به لكم في حياته، فقدّمه للصلاة، ولم يفعل ذلك إلاّ وقد استخلفه عليكم، فقد عصى أبو بكر رسول الله، بإخراج نفسه من الخلافة، وقوله: قد رضيتُ لكم أحد هذيْن الرجليْن، عُمر بن الخطّاب وأبو عبيدة بن الجرّاح، فكيف لكم قدوة هذيْن، وقد اختاره رسول الله وفضّله عليهما؟ ولعلّكم يا معشر المهاجرين أنتم الذين عصيتم الله في شهادتكم على نبيّكم أنّه استخلف أبا بكر[431].»

نسي الناس أنّهم ظنّوا بثابت الظنون منذ حين، وقد وقفوا على ما في كلامه من منطق حين بيّن أنّ هناك تناقضاً بين القول إنّ أبا بكر أمّ الناس في الصلاة فكُتبت له الخلافة، وقول أبي بكر بتنازله عن الخلافة لعُمر أو أبي عُبيدة. وقد ضحك بعض الأنصار من ذلك، وكانوا في حاجة إلى بعض الضحك للتسلية والترويح عن النفس، ولكنهم نُهروا ورُدّوا عن ذلك «فوثب الحُباب ابن المنذر بن الجموح الأنصاري، وصاح في بني عمّه صيحة، ثمّ قال: يا معشر الأنصار، انظروا، لا تُخدعوا عن حقّكم، فوالله ما عُبد الله علانيّةً إلاّ في بلادكم، ولا اجتمعت الصلاة إلاّ في مساجدكم، ولا دانت العرب بالإيمان إلاّ بأسيافكم، فأنتم اليوم أعظم نصيباً في الدين، وفضيلةً في الإسلام، وأنتم أحقّ الناس بهذا الأمر، فإنْ أبى هؤلاء القوم ما نقول، فمنّا أمير ومنكم أمير[432]» وأضاف مؤكّداً ومُخيفاً: «منّا أمير ومنكم أمير، يا معشر قُريش، وإلاّ أجلبنا الحرب فيما بيننا وبينكم جذعاً[433].»

غيّر الحُباب مجرى الاجتماع بأنْ أخرج الخطّة الثانية، كما اتّفقت على ذلك الأنصار. وظنّ أنّه أخذ المهاجرين على غرّة وهم لم يتأهّبوا لهذا الأمر

ولا حجّة معهم للردّ عليه. وذهب في ظنّه أنّهم سيقبلون بالقسمة التي رأى فيها العدل الصارخ، فيُفضّ بها النزاع بإنصاف المجموعتيْن، وتحدث الفُرقة بينهما إلى أبد الآبدين. ولكنّ المهاجرين رأوا في ما اقترح الحُباب قِسمةً ضِيزَى، وكانوا على أهبة للتصدّي لها، وقد حسبوا، بفضل الجواسيس والعيون، لكلّ أمر حسابا. «فلمّا فرغ الحُباب بنُ المنذر أقبل عليه عُمر ابنُ الخطّاب رضي الله عنه، فقال: إنّه يا حُباب، لا يجتمع في غمد سيفان، والعرب لا ترضى أنْ يُؤمّروكم ونبيّها من غيركم، ولكن يُؤمّرون مَنْ كانت النبوّة فيهم، وفي الذي قلتَ يا حُباب، فسادٌ في الدين والدنيا جميعاً، والله واحدٌ، والإسلام واحدٌ، لأنّه إنْ جرى اليوم إمامان، جرى غداً إمامان، ولا يجوز أنْ يكون الإسلام إلاّ واحداً، فاتّق الله، وسلّموا هذا الأمر لمن تجتمع عليه المهاجرون والأنصار من قريش[434].»

أعجب هذا الكلام أبا بكر الصدّيق والمهاجرين أجمعين، وظهر لهم عُمر في وجه جديد لا يعرفونه، راجح الفكر ومعه حذق في الجدال وعلم بالإسلام، واحداً لا مُتعدّداً، كما يُروّج لذلك الناس اليوم. حرّك أبو بكر رأسه موافقاً، وإنْ في حركة خفيفة حتى لا يفتضح أمره، وارتفعت من حوله أصوات المهاجرين تؤكّد ما قال عُمر وتُكرّر، إي نعم، إي نعم. وشعُر الحُباب ابنُ المنذر بالهزيمة من حيث لا يدري، وكأنّ الاجتماع قد انفضّ. أصابه الفتور. نظر في وجه سَعد بن عُبادة جنبه. ساءه ما رأى. رأى وجهاً، لا أراك الله مكروهاً، قد ازرقّ من هول الفاجعة، رأى الموت على الوجه الأزرق. رأى الأنصار يذلّون في عقر دارهم. رأى المهاجرين يدوسون قيم الأخلاق والضيافة ويتجاوزون حدود اللياقة. وفي سَورة من الغضب قام يرمي آخر نباله: «قام الحُباب بن المنذر فقال: يا معشر الأنصار، املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإنْ أبَوْا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولّوْا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحقّ بهذا الأمر منهم فإنّه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممّن لم يكن يدين. أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ وعُذَيْقُها المُرجّب، أما والله لئن شئتم لَنُعيدنّها جذعَةً[435].»

هاج الشعب وماج وقامت في السقيفة حرب أُجاج. لم يكن أحدٌ ينتظر أنْ تُهدّد الأنصار بإجلاء المهاجرين عن المدينة. أين المؤاخاة التي ابتدعها النبيّ

عند الهجرة؟ أين الكرم الحاتميّ الذي كان مع الأنصار وتغنّت به الكتب في إسلام النشأة المفقود؟ أين المنازل التي تقاسموها مع المهاجرين؟ أين الكلام المعسول؟ رجعت العرب إلى حيث كانت، أعراباً وأجلافاً ومنافقين. أفلتت الجلسة من بين يديْ أبي بكر وظنّ أنّه ضيّع زمام الأمور، وأنّ الأشياء لم تعد الأشياء، حتى اللغة لم تعد اللغة. فقد سعى الحُباب بنُ المنذر، وكان شاعراً، إلى استعمال عبارات لا يفهمها غير الشعراء. فتساءل الناس عن معنى: الجُذيْل المُحكّك، والعُذيْق المرجّب، ولنُعيدنّها جذعةً. ولم يجدوا مع أحد من الناس الجواب.

أزبد عُمر وأرعد وسار إلى الحُباب بن المنذر مُحكماً على السيف قبضته، وتوجّه إليه بأشنع الكلام، فأزبد الحُباب وأرعد هو أيضاً، واستلّ سيفه، وقال: «والله لا يردّ عليّ أحدٌ بعد هذا إلاّ خطمتُ أنفه بالسيف. فقال عُمر: إذاً يقتلك الله، يا حُباب. فقال الحُباب: بل إيّاك يقتل، يا عُمر. فقال عُمر: [...] لا يجب عليكم أنْ يكون اختلاف هذه الأمّة وانتقاضها على أيديكم، وأخرى فإنّه ليس ينبغي لكم أنْ تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله عزّ وجلّ إليهم. ثمّ قال عُمر رضي الله عنه: إنّ سَعداً لا يصلح لها. فوثب إليه ثابت وقال: بلى يا عُمر، سَعدٌ لها أصلح من غيره وأولى بها، لأنّ الدار داره، وأنتم نازلون عليه. ثمّ وثب حسّان بن ثابت فقال شعراً:

لا تنكرنّ قريش فضلَ صاحبنا
سَعدٍ فما في مقالي اليوم من أَوَدِ

وضجّ المهاجرون، وضجّت الأنصار، حتّى همّ بعضهم ببعض[436].»

حَميَ الوطيسُ، وأبو بكر قاعد لا يتحرّك. داخله الشكّ لأوّل مرّة، وقد رأى أنّ المعركة تُنذرُ بأنْ تزداد بأساً. عسى أنْ لا يخسر الحرب! لا شيء معه لوقف الصراع بين عُمر والحُباب، وهما جذعان من الصُّلب، تغلب عليهما الغلظة والشدّة، وينخر فيهما التعنّت نخراً، فلا يعرفان اللين في الكلام ولا احترام الخصم. ولم يكفه هذان الاثنان حتى انضاف إليهما ثابت بن قيس وحسان بن ثابت. نعم حسّان بن ثابت، شاعر الرسول، دخل معمعان الحرب

وعزّز صفوف الأنصار، وله إذ ذاك مكانة خاصّة عندهم وعند المسلمين جميعاً، وقد يُحرّضهم تحريضاً يقلب عليه الأمور، لا قدّر الله.

احتار أبو بكر في الأمر وكاد يغيب عن الوعي لولا أنْ أنجده أبو عُبيدة بن الجرّاح. كان أبو عُبيدة على شيء من الحكمة، يُفضّل السكوت على الكلام، تعلّم ذلك من خبرته في القبور التي كان يحفرها للناس فتبثّ فيه الصمت والخشوع. ولكنّه هذه المرّة تنازل عن حكمته وخرق صمته وتكلّم يُؤازر أبا بكر صاحبَه. «فقال أبو عُبيدة: يا معشر الأنصار، إنكم أوّل مَنْ نصر وآزَرَ فلا تكونوا أوّل مَنْ بدّل وغيّر[437].»

اختلطت على الأنصار الأمور. لم يعرفوا إنْ كان أبو عُبيدة جَعل كلامه نصيحةً لوجه الله أم تهديداً للأنصار وتواطؤاً مع أبي بكر وعُمر. كانوا لا يعرفون بالضبط مَنْ هو أبو عُبيدة، ولا يعرفه غيرهم. ولمّا رأوه إلى جنب أبي بكر وعُمر بمناسبة اجتماعات السقيفة التي تُنذر بالطول، ازدادوا بشأنه تساؤلاً. وكان أبو عُبيدة متكتّماً على أصله وفصله وما حُمّل من أسرار، وقد كان حافظ أسرار الناس جميعاً. وكان كلامه، إذا ما صادف وخرج عن صمته وتكلّم، مثلما فعل منذ حين، غايةً في الإيجاز المُحكم. وقد ظهر ذلك واضحاً في ما تفوّه به وأدرجناه أعلاه، ولم يتجاوز الجملة الواحدة. وقد جاءت الجملة في عنصريْن متلازميْن، فجاء العنصر الأوّل مؤكّداً بحرف التوكيد إنّ والعنصر الثاني نهياً مؤكّداً بحرف النهي لا، وهو تلازم يدلّ على الفصاحة والبلاغة، وقد اختصّ بمثل هذا جهابذة اللغة في كلية الآداب بمنوبة، وبيّنوا فيه العجب وكتبوا فيه الأطاريح، ولهم في هذا الباب المقام الأوّل. ولكن تلك قصّة أخرى، مجرّد قوس فتحناها للإعلام، ونُغلق عليها الآن بقوس أخرى، حتى لا نضيع في متاهات شجون الحديث. المُهمّ عندنا الآن أنْ نواصل الحديث في السقيفة.

فعلت جملة أبي عُبيدة بن الجرّاح فعلَها العجيب في الناس، وأحدثت شرخاً في النظام العام وغيّرت مجرى الأحداث في سقيفة بني ساعدة. ما إنْ أنهى كلامه، وتساءل الناس سرّاً بشأنه، حتّى قام من الأنصار مَنْ لفّ لفّه، ونسج على منواله، واقتدى بما قاله اقتداءً واضحاً. «فقام بشير بنُ سعد أبو النعمان بن بشير[438]، فقال: يا معشر الأنصار، إنّا والله، لئن كنّا أولي فضيلة

في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلاّ رضى ربّنا وطاعة نبيّنا والكَدْحَ لأنفسنا، فما ينبغي أنْ نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرَضاً. فإنّ الله وليّ المنّة علينا بذلك. ألا إنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم من قريش، وقومه أحقّ به وأولى، وايْم الله لا يراني أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتّقوا الله ولا تُخالفوهم ولا تُنازعوهم[439].»

نظر الأنصار بعضهم إلى بعض وصاحوا صوتاً واحداً: يا لَلْأوس، يا لَلْخزرج! هذا تطبيع مع العدوّ، وهو والله، لَلْخيانة العظمى. وعلا ضجيجهم وأرادوه للفتك به لولا أنْ «وثب أُسيْد بن حُضيْر الأنصاري الأوسي[440]، وكان مقبولِ القول عند الأنصار وأهل الطاعة فيهم، فقال: يا معشر الأنصار، إنّه قد عظُمت نعمة الله عليكم إذ سمّاكم الأنصار وجعل إليكم الهجرة، وفيكم قبض محمد عليه السلام، فاجعلوا ذلك لله، وإنّ هذا الأمر في قريش دونكم، فمن قدّموه فقدّموه، ومنْ أخّروه فأخّروه. فوثب إليه نفر من الأنصار فأغلظوا له القول وسكّتوه فسكت[441].»

ادلهمّت السماء أمام أنظار الأنصار وضاع منهم اليقين. خذلهم من قبلُ مَعن بنُ عديّ وعُويم بنُ ساعدة، فأثّر فيهم ذلك، ولكنّهم تجلّدوا بالصبر وواصلوا الاجتماع، إذ هم يعلمون أنّ مَعن بنَ عديّ وعُويم بنَ ساعدة مشكوك فيهما ويُنسبان إلى أصحاب الولاء للمهاجرين. أمّا أنْ يخذلهم « أُسيْد بن حُضيْر الأنصاري، وكان مقبول القول عند الأنصار وأهل الطاعة فيهم، وبشير ابن سعد الأنصاري، الأعور، وكان أيضاً من أفاضل الأنصار[442]» فهذا ما لا يُطاق. ثمّ إنّ بشيراً من الأوس وأُسيداً من الخزرج فاستوى بهما العرشان في الخذلان والغدر والخيانة. يا لَلفضيحة الشنعاء! ستضحك عليهم العرب وتهزأ بهم. تبدّلت الحال، وضاعت القيم، وطُعِنوا في شرفهم على مرأى ومسمع القاصي والداني. بُهتوا. أُصمتوا. ظلّوا ساعة لا يتكلّمون.

14

اغتنم أبو بكر فرصة سكوت الأنصار ودهشتهم. اغتنم ضعفهم في تلك اللحظة الحرجة. رجع إليه وقاره وثباته وعاد كما كان عند افتتاح الجلسة، على أُهبة تامّة وقد أعدّ العُدّة وقرأ لكلّ شيء حساباً. حمد الله وأثنى عليه من جديد، ثمّ أثنى على الأنصار وقال فيهم ما يحبّون سماعه، وكأنّه يُنجدهم ويرفع من معنوياتهم، «ولم يترك شيئًا أُنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من شأنهم إلاّ وذكره. وقال: لقد علمتم أنّ رسول الله قال: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصارُ وادياً سلكتُ وادي الأنصار. ولقد علمتَ يا سعدُ أنّ رسول الله قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر فبَرّ الناس تبعٌ لبرّهم وفاجرهم تبعٌ لفاجرهم[443].»

كان هذا الحديث الأخير كالضربة القاضية، فأثار في الناس ضجّة. بدا لهم أنّهم لم يسمعوه من قبلُ، ولكنّهم لم يتجرّؤوا ويُكذّبوا أبا بكر جهراً. فأبو بكر سمّاه الرسولُ الصدّيق، وهم، بناءً على ذلك، لا يستطيعون تكذيبه جهاراً، حتّى وإنْ تعلّق الأمر بالخلافة القادمة. ولكن صدرت عنهم إشارات دالّة على الطعن والتكذيب، فحرّكوا رؤوسهم مراراً يرسمون بها في الفضاء إشارة النفي بإمالتها ذات اليمين وذات الشمال، كما تفعل العرب في مثل هذه الحال. وسرعان ما قابلت هذه الإشاراتِ إشاراتٌ مُضادّة دالّة على التصديق، أينعت بها رؤوس المهاجرين فحرّكوها مراراً إلى أعلى وإلى أسفل، يرسمون بها في الفضاء إشارة الموافقة، تماماً كما تفعل العرب في مثل هذه الحال.

وقد وقف الأنصار على ما في كلام أبي بكر من تلاعب ومراوغة، فجاء ظاهره إرضاءً للأنصار وباطنه ضرباً على أيديهم، وغلب باطنُه ظاهرَه. فأبو بكر يقول إنّ النبيّ يسلك وادي الأنصار لو كان له أنْ يسلك وادياً، ثمّ يعود ويقول إنّ الإمامة في قريش وحدها، فينفي حقّ الأنصار في الخلافة، ولا يستحي في

أنْ يؤكّد ذلك بالحديث الذي لم يسمعوه. فأبو بكر يستعمل سياسة الجزرة والعصا، أو بتعبير آخر، يُعطي الحلوى بيده اليسرى ويجلد بيده اليمنى جلداً مبرّحاً. ثمّ إنّه توجّه بالخطاب مباشرة إلى سَعد بن عُبادة وسمّاه، وطلب منه أنْ يكون شاهداً على ما قال، فوضع بذلك سعداً أمام خيارَيْن كلاهما من نار. فهو إمّا أن يشهد بأنّه سمع الحديث فيثبت حقّ الخلافة للمهاجرين وحدهم، وإمّا أنْ يُكذّب أبا بكر وينفي الحديث فيُغضب المهاجرين والأنصار وقد يُتّهم بجهله بالحديث وعدم مصاحبته الرسول. ففضّل السكوت على الكلام.

أمّا المهاجرون والمتواطئون معهم من الأنصار فقد أعجبهم كلام أبي بكر، وأعجب خاصّة عُمر بنَ الخطّاب فأراد أنْ يغتنم الفرصة ويتكلّم ليشكر أبا بكر على ما قال أوّلاً ويُخيفَ الأنصار بالتوعّد والترهيب ثانياً، وقد أحلم النفس بالانتصاب في الناس خطيباً من جديد، لعلّ ذلك يرفع لدى الناس ما شاع عنه من الغلظة والشدّة والغضب والتوحّش والضرب بالسيف. أراد أنْ يغتنم هذه الفرصة السانحة من جديد فيثأر لنفسه من أمسه الذي نهاه فيه أبو بكر عن الكلام. ولكنّ أبا بكر كان ماسكاً بزمام الأمور بحذق هذه المرّة، وخاف أنْ يُفسد عليه عُمر الأمر، فأعاد عليه ما قاله له أمسِ: «على رسلك، يا عُمر، فستُكفى الكلام[444].» ثمّ أضاف بشيء من اللين وقد لا حظ أنّ عُمر قطب الجبين غاضباً: «يا عُمر، رويداً حتى أتكلّم ثمّ انطق بعدُ بما أحببتَ[445].» شعُر عُمر بالذلّ أمام الخلق، مع كلّ ما اتّخذ أبو بكر من حذر في الكلام. ولكنّه سكت. فالأمر لأبي بكر الآن، وسينتظر فرصته من بعدُ.

وقد فعل أبو بكر ذلك مع عُمر لغاية نبيلة، فأسكته ليسمح للأنصار المتواطئين بالكلام فيتشكّل حوله حزام قويّ، وحتى لا يظنّ الناس أنّ الأمر منظّم بينه وبين عُمر، فيضعف شأنه. وقد نجحت خطّته في استدراج أولئك فتكلّموا. فقد «وثب مَعن بنُ عَديّ الأنصاري فسكّن الناس، ثمّ قال: يا معشر المهاجرين، والله ما أحد من خلق الله أعزّ علينا منكم [...] في أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهو يقول: الأئمّة من قُريش، لا يكون هذا إلاّ فيهم. فقال بشير بن سعد الأنصاري: بلى والله قد سمعنا ذلك منه عليه السلام، وقد علمتُ أنّ قومه أُولُو الإمارة من بعده، فاتّقوا الله يا معشر الأنصار، ولا تُخالفوهم، فقال

أبو بكر رضي الله عنه: أحسنتَ رحمك الله وجزاك عن الإسلام خيراً[446].» ثمّ انبرى إلى مَعن بن عَديّ فشكره وأثنى عليه، وجلس حيث كان، يلتقط أنفاسه ويُصيب شيئاً من الراحة.

15

وقف أبو بكر مرّة أخرى واستأنف الكلام بثبات، فقال بتؤدة وصوت جهوريّ وكأنّه يختم الاجتماع: «أنتم يا معشر الأنصار مَنْ لا يُنكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته وفيكم جِلّةُ أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور[447].» وتوقّف بُرهةً ثمّ قال: «إنّي لستُ أريد هذا الأمر، هذا عُمر بن الخطّاب وأبو عُبيدة بن الجرّاح، رضي الله عنهما، أيّهما شئتم فبايعوا[448].» وتوسّط عُمر بن الخطّاب وأبا عُبيدة بن الجرّاح وأمسك هذا بيُمناه والآخر بيُسراه[449]، ينتظر تعيين الفائز ليرفع يده إلى السماء، كما يفعل حَكم الملاكمة عند انتهاء المقابلة.

لم تتوقّف الكتب عند هذا الأمر ولم تُعيّن لماذا خيّر أبو بكر الناسَ بين عُمر بن الخطّاب وأبي عُبيدة بن الجراح لتولّي الخلافة، وأخرج نفسه منها، في المرّة الأولى وفي المرّة الثانية. هل كان ذلك مَحضَ صدفة أم خضع لنظام مُحكم وسياسة رشيدة وخطّة مدروسة سابقة؟ كلّ شيء في الكتب كان تأكيداً على زهد الرجل في الدنيا وحبّه الآخرة وهو على شفا حفرة أو يكاد، لا تهمّه السياسة ولا يجري وراء الخلافة. ولعلّه كان كذلك. ولكنّ أبا بكر كان يعرف ولا شكّ، أنّ الناس سيرفضون اقتراحه القاضي بتولية عُمر بن الخطّاب الخلافة نظراً إلى غلظة الرجل وشدّته وغضبه الذي كان يذهب به شتى المذاهب، فكان إذا غضب على بعض أهله مثلاً صوّت وضرب وجلد ولم يسكن حتى يعضّ يده عضّاً شديداً، فأضمر الناس في عهده الأمور ولم يُصرّحوا بها في حضرته وأبطلوا القول فيها[450]. وكان أبو بكر يعرف، ولا شكّ أيضاً، أنّ الناس سيرفضون اقتراحه القاضي بتولية أبي عُبيدة بن الجراح

الخلافة، نظراً إلى أصله الوضيع وحرفته الوضيعة أيضاً، ولم يُعرف عنه أنّه كان عالماً أو إماماً أو سياسيّاً بارعاً. ولو كان أبو بكر يُريد الخلافة لغيره لاقترح لها مَنْ هو أهل لها مثل علي بن أبي طالب أو العبّاس أو حتى خالد بن الوليد الذي سيدخل الآن ليلعب دوره في القصّة.

كان خالد بن الوليد قد وقف عند باب السقيفة، لمّا خيّر أبو بكر الناس بين عُمر بن الخطّاب وأبي عُبيدة بن الجراح، وأمسك يديْهما للبَيعة. ظهر فجأة على الباب من حيث لا يعلم الناس، فارتعش الناس ونظروا إلى الباب وقد أوجسوا خيفة. التفت أبو بكر إلى الباب وكان يُدير له ظهره، ويداه على يديْ عُمر وأبي عُبيدة. ابتسم بينه وبين نفسه. فهم أنّ المدد قد وصل ولا خوف على الخلافة. شدّ على يديْ عُمر وأبي عُبيدة شدّاً قويّاً، فالتفتا إلى الباب مثله، وشعرا بالراحة وقد حلّ الخلاص، والحمد لله. ثمّ سحبا يديْهما من قبضة أبي بكر في نفس الوقت، وردّا عليه بنفس الحماس بهذا الكلام الآتي:

«فقال عُمر وأبو عُبيدة: لا يتولّى هذا الأمر أحد سواك، أنتَ أفضل المهاجرين، وثاني اثنين في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، فمَنْ ذا الذي يتقدّمك ويتولّى هذا الأمر عليك. ابسط يدك حتى نُبايعك. فقال بشير ابنُ سعد الأنصاري: والله ما يُبايعه أحد قبلي، ثمّ تقدّم بشير فصفق على يديْ أبي بكر بالبيعة. فقال له الحُباب بنُ المنذر: يا بشير ما الذي أحوجك إلى ما صنعتَ، أنفستَ على ابن عمّك سَعد بن عُبادة أنْ يكون أميراً؟ فقال بشير: لا والله، ولكنّي كرهتُ أنْ أنازع قوماً حقّاً جعله الله لهم دوني. فضرب الحُباب بن المنذر يده إلى سيفه فاستلّه من غمده وهمّ أنْ يفعل شيئًا، فبادرت إليه الأنصار فأخذوا بيده وسكّنوه[451].» ولكنّ ذلك لم يدم طويلاً إذ توالت الأحداث في السقيفة على غير ما يُريد الحُباب ويشتهي، من ذلك أنّه «لمّا رأت الأوس ما صنع بشير بنُ سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سَعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض، وفيهم أُسيْد بن حُضير، وكان أحد النقباء: والله لئن وليَتْها الخزرج عليكم مرّة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر. فبايعوه فانكسر على سعد بن عُبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم[452].»

فعاد الحُباب إلى حالته السابقة، وغضب وثار واستلّ سيفه من غمده، وأحاط به الناس من جديد ليُسكنوه.

بيناً كان الحُباب بنُ المنذر يتهدّد ويُرعد ويُزبد والناس من حوله بين ماسك بيده وشادّ على مقبض سيفه ولافّ ذراعيْه حوله وهو يتملّص ويُحاول التخلّص من قبضة أهله، إذ دخل بعض أهل سَعد بن عبادة السقيفة ومعهم الخدم يصيحون: العسكر العسكر. وتقدّم المخبرون إلى سَعد بن عُبادة وابنه قيس وأعلموهما أنّ بني أسلم وأشدّاء الأعراب انتشروا في المدينة وهم ليس بعيداً عن السقيفة. وأشار سَعد بن عُبادة إلى المخبرين بالانتقال بين وجوه الأنصار لإعلامهم بالأمر.

بُهت الناس واشرأبّت الأعناق إلى خارج السقيفة، وأبو بكر صامد صامت، وخالد بن الوليد يبتسم، وعُمر بن الخطّاب يكاد يطير فرحاً، وأبو عُبيدة بن الجرّاح كعادته لا يُبدي شيئاً. أمّا سَعد بن عُبادة والحُباب بن المنذر وخُزيمة بن ثابت وثابت بن قيس وغيرهم من وجوه الأنصار فكانت نار الغيظ تشتعل فيهم وقد وقفوا على خُدعة المهاجرين وتواطؤ بني أسلم والأعراب معهم، وهم في غفلة من أمرهم، لا يعرفون شيئاً. وهمّوا بالوقوف صفّاً واحداً لضرب المهاجرين لولا «أنّ أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك، فبايعوا أبا بكر، وعُمر يقول: ما هو إلاّ أنْ رأيت أسلم فأيقنتُ بالنصر[453].»

«جاءت أسلم فبايعت فقَوِيَ بهم جانب أبي بكر وبايعه الناس[454].» تغيّر ميزان القوى بدخولهم ساحةَ الوغى. لم ينفع الأنصار أنْ «قام الحُباب بنُ المنذر وانتضى سيفه وقال: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ وعُذَيْقُها المُرجّب، أنا أبو شبل في عرينة الأسد يُعزى إلى الأسد. حامله عُمر، فضرب يده، فندر السيف وأخذه، ثمّ وثب على سَعد، ووثبوا على سَعد. قال قائل حين أوطئ سَعد: قتلتم سَعداً، فقال عُمر: قتله الله، إنّه مُنافق[455].»

«أقبل الناس من كلّ جانب يُبايعون أبا بكر، وكادوا يطؤون سَعد بنَ عُبادة فقال ناسٌ من أصحاب سَعد: اتقوا سَعداً، لا تطؤوه. فقال عُمر: اقتلوه، قتله الله. ثمّ قام على رأسه فقال: لقد هممتُ أنْ أطأك حتى تندر عضوك. فأخذ سَعد بلحية عُمر، وقال: أما والله لو أنّ بي قوّة ما أقوى على النهوض لسمعت

منّي في أقطارها وسككها زئيراً يُجحرك وأصحابك، أما والله إذاً لألحقنّك بقوم كنتَ فيهم تابعاً غير متبوع[456].» وتواصل بينهما الخصام والسبّ والشتم، ولم ينفع معهما تدخّل أبي بكر بالتهدئة والحُسنى، بل تنامى النزاع وتدخّلت فيه أطراف أخرى، ومنها أبناء سَعد، «فوثب قيس بنُ سَعد فأخذ بلحية عُمر وقال: والله يا ابنَ صَهّاك، الجبان في الحرب والفرّار، الليث في الملإ والأمن، لو حرّكتَ منه شعرة، ما رجعتَ وفي وجهك واضحة. فقال أبو بكر: مهلاً يا عُمر مهلاً، فإنّ الرفق أبلغ وأفضل. فقال سَعد: يا ابن صَهّاك الحبشيّة – وكانت جدّة عُمر – أما والله لو أنّ لي قوّة على النهوض لسمعتها منّي في سككها زئيراً أزعجك وأصحابك منها، ولألحقتُكما بقوم كنتما فيهم أذناباً غير متبوعين لقد اجترأتما. ثمّ قال للخزرج: احملوني من مكان الفتنة، فحملوه وأدخلوه منزله[457].» واختلط الحابل بالنابل في السقيفة. وشعر الأنصار بالإهانة للتطاول الحاصل على رئيسهم سَعد. وشعر عُمر بأنّه أُهين في شرفه وعرضه إذ شهّروا به فذكروا صَهّاك الحبشيّة، ونسبوه إليها وعدّوها جدّته، فثارت ثائرته، وضحك منه الناس سُخريّةً واستهزاء.

وحتّى لا نُخفي عليكم شيئاً ممّا نعلم، نُفيدكم أنّه قد أشاع في الناس إذ ذاك «أنّ صَهّاك كانت أمةً حبشيّة لعبد المطّلب وكانت ترعى له الإبل، فوقع عليها نفيل فجاءت بالخطّاب. ثمّ إنّ الخطّاب لمّا بلغ الحِلم رغب في صَهّاك فوقع عليها فجاءت بابنة، فلفّتها في خرقة من صوف ورمَتْها خوفاً من مولاها في الطريق. فرآها هاشم بن المغيرة مرميّةً فأخذها وربّاها وسمّاها حَنتمة. فلمّا بلغت رآها الخطّاب يوماً فرغب فيها وخطبها من هاشم فأنكحها إياه فجاءت بعُمر بن الخطّاب. فكان الخطّاب أباً وجدّاً وخالاً لعُمر، وكانت حنتمة أمّاً وأختاً وعمّة لعُمر[458].» وقد أعلمناكم بذلك أسوة بمن سبقنا في ذكر الأخبار سنّة وشيعة على حدّ السواء. والله علاّم الأمور.

وبيناً هم كذلك إذ توسّط خالد بن الوليد الباب بقامته الطويلة الفارعة، كأنّه يمنع على الناس الخروج، وأجهض على الأنصار بالضربة القاضية. «فقام خطيباً، وقال: أيّها الناس، إنّا رُمينا في بدء هذا الدين بأمر، ثقُل علينا، والله، محملُه، وصعُب علينا مُرتقاه، وكنّا كأنّا فيه على أوتار، ثمّ، والله، ما لبث أنْ خفّ علينا ثقلُه، وذلّ لنا صعبُه، وعجبنا ممّن شكّ فيه بعد عُجبنا ممّن آمن

به حتى أمرنا بما كنّا ننهى عنه، ونهينا عمّا كنّا نأمر به، ولا والله ما سبقنا إليه بالعقول ولكنّه التوفيق. ألا وإنّ الوحي لم ينقطع حتى أُحكم، ولم يذهب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فنستبدل بعده نبيّاً، ولا بعد الوحي وحياً، ونحن اليوم أكثر منّا أمسِ، ونحن أمسِ خيرٌ منّا اليوم، مَنْ دخل في هذا الدين كان ثوابه على حسَب عمله، ومَنْ تركه رددناه إليه، وإنّه، والله، ما صاحب الأمر - يعني أبا بكر - بالمسؤول عنه ولا ليختلف فيه، ولا الخفيّ الشخص ولا المغموز القناة. فعجب الناس من كلامه[459]» وأيقنوا أنّ الأمر قد حُسم.

كان الناس يعرفون أنّ «خالد بن الوليد شيعة لأبي بكر[460]» وكان الأنصار منهم يعرفون ذلك أيضاً، ولكنّهم لم يخطر ببالهم أبداً أنْ يَروْا مثل هذا الذي رأوه في هذه اللحظة، فيدخل عليهم خالد شاهراً سيفه، ويُهدّدهم في عقر دارهم، وينتصب حامياً للدين، وناطقاً رسميّاً باسم أبي بكر، ويُسمّيه، وهو لا يستحي، صاحب الأمر. فهموا أنّ كلّ شيء قد انتهى، وأنّ الخلافة غادرتهم إلى الأبد، وأنّ الاجتماع قد انفضّ. تناقلوا النظر يُواسي بَعضُهم بعضاً. شعروا بالضيم والغيظ والانكسار. كانت تلك نهاية الأنصار. وصدق فيهم قول القائل: مَنْ طَلَبَ الرئاسةَ هَلَكَ.

أخذ خالد بنُ الوليد بذراع أبي بكر وقاده إلى خارج السقيفة. حاول أبو بكر أنْ يتملّص برفق ويُسلّم على مُضيفيه. ولكنّ خالداً كان مُحكماً قبضته على ذراعه، فتبعه، ولم يُودّع ولم يُسلّم. وتبعهما عُمر بنُ الخطّاب وأبو عُبيدة ابنُ الجرّاح. ثمّ غادر المهاجرون والمتواطئون معهم من الأنصار السقيفة وفناء الظلّة. وفي الخارج فوجئوا بعدد العسكر والأعراب الوافر، فصاحوا صوتاً واحداً: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. بلغ التكبير الناس الذين تخلّفوا عن السقيفة لأسباب مختلفة فتساءلوا عن سبب التكبير، والزمن ليس للأذان والصلاة.

شعُر أبو بكر بالفخر. وشعُر عُمر بالسرور والسعادة العظمى. ولم يظهر على أبي عُبيدة شيء. أومأ خالد بن الوليد إلى شخص عند الركن فأسرع إليه يقود فرس أبي بكر، فأخذ بذراعه حتى امتطى الفرس. ثمّ التفت إلى أبي عُبيدة وعُمر وقال لهما كالآمر: إلى السُنح. لا تُغادروه. سألتحق بكم إذا ما استتبّ الأمن. مع السلامة. ثمّ التفت إلى الناس البُهَّتِ الذين ما زالوا وراء أبي بكر

وعُمر وأبي عُبيدة منذ خروجهم من السقيفة والفناء، وصاح فيهم: عودوا إلى منازلكم. فهرول الناس إلى منازلهم، وقصد الثالوث وبعض الخاصّة السُّنح. والتحق خالد بكوكبة من الجيش كانت عند رأس السكّة.

وحتّى تكونوا على بيّنة ممّا جرى، ولا يفوتكم ما فات الأنصار فهلكوا، نقصّ عليكم بعض ما تستّرت عليه الأخبار ولم تذكره الكتب وبدا لنا الكشف عنه واجباً تعميماً للفائدة وسعياً إلى تمكينكم من حقّكم في النفاذ إلى المعلومة.

أنتم تذكرون، ولا شكّ، ما قصصنا عليكم سابقاً من أمر بُريدة بن الحُصيْب وإرساله صُهيْباً إلى قومه بني أسلم ليحلّوا بالمدينة عند العصر، عملاً بتعليمات أبي بكر، وتفانياً في خدمة الخلافة القادمة، وطاعة لأوامر خالـد بن الوليد. وقد وصل بنو أسلم عند العصر، كما تمّ على ذلك الاتفاق، ومرّوا ببيت الرسول حيث كان بُريدة زعيمهم ينتظرهم، كما تمّ على ذلك الاتّفاق أيضا. فاستقبلهم بُريدة واقتطع منهم فريقا ووضعهم أمام بيت الرسول وأمرهم بطاعة أسامة والرجوع له في كلّ أمر. وأسامة باهتٌ لا يفهم شيئاً. ثمّ التفت إلى أسامة، وحيّاه تحيّة إكبار وسمّاه القائد وقال له بالحرف الواحد: هؤلاء أهلي يا أسامة، أضعهم تحت إمرتك، وعليهم لك واجب الطاعة، وللرسول الحماية المباشرة. وأسامة باهتٌ لا يفهم شيئاً، كالعادة. ثمّ اقتطع فريقاً آخر، وأمّر عليهم صُهيْب بن سنان الرومي الذي أطلّ بطلعته البهيّة في تلك اللحظة من حيث لا ندري، وأمرهم بالوقوف عند باب المسجد ومنع الناس من الدخول إليه، ومنع أهل الصُّفّة من الخروج منه. ثمّ غادر المكان مع بقيّة قومه إلى حيث كان خالد بن الوليد ينتظره، غير بعيد، في أرض لحارثة بن النعمان، كما تمّ على ذلك الاتّفاق أيضا. وقد اختار خالد هذا المكان لسببيْن اثنيْن. أمّا السبب الأوّل فلأنّ حارثة من أصدقاء خالد، وهو يتكتّم على الأسرار. أمّا السبب الثاني فلأنّ حارثة بن النعمان كان يضع على ذمّة رسول الله بيوته للاستعمال والدخول فيها على زوجاته وإيمائه ومآربه الأخرى[461]، فشرّفه خالد بأنْ مكّنه من فرصة ليضع على ذمّة خليفة رسول الله القادم خدماته كما كان يفعل مع الرسول.

وقد انقسم العسكر قسميْن عند لقاء خالد، فتولّى بُريدة أمر الميسرة، وتولّى خالد أمر الميمنة، تماماً كما اتفقا على ذلك في اللقاء الأوّل، صباح ذلك اليوم. وسارت أسلم تحت إمرة القائديْن حتى بلغت السقيفة، وكان من أمرها ما كان. وقد حضرتم دخول وجوهها إلى السقيفة وإفساد الأمر على الأنصار ومبايعتهم أبا بكر الصدّيق خليفة. وها هو خالد الآن واقفٌ بعد أنْ أرسل أبا بكر وعُمر وأبا عُبيدة إلى السُّنح. وها أسلم وسيّدها بُريدة أمامه. نظر إليهم كأنّه يشكرهم، ثمّ اقتطع منهم كوكبةً عظيمة وجعلها عند السقيفة، وأمرمهم ألاّ يدخلوها وألاّ يُكلّموا الناس فيها وأنْ يكتفوا بمراقبة التحرّكات ورفع التقارير في ذلك، خشيةَ أنْ يتّهمهم الأنصار بالتعدّي عليهم في عقر دارهم ويحرّضوا الناس عليهم ويتظاهروا بأنّهم ضحيّة الاضطهاد ويُصبحوا شهداء في الدين. وهو ما لا يُريده لهم. ثمّ سرّح كوكبة أخرى في سكك المدينة للحراسة. ثمّ سار مع بُريدة وخمسة من أشدّاء أسلم يطوفون على جميع المراكز. فمرّوا على المسجد وتأكّدوا من خلوّه من الناس باستثناء أهل الصُّفّة الذين ليس لهم غيره مأوى. ثمّ مرّوا على باب النبيّ فأدّى لهم أسامة واجب التحيّة، فأخذه خالد بن الوليد إلى الركن وقال له، وقد شدّ على كتفه: لقد تمّت البيعة لأبي بكر بإذن الله ورغبة الخلق. ثمّ انتهوْا عند آخر الليل إلى السُّنحِ، وقد تأكّدوا أنّ كلّ شيء على ما يُرام، وأنّ الناس امتثلوا للأوامر، ولا خوفَ. فقد تناقل الناس الخائفون خبراً يُفيدُ أنّ حظر الجولان مفروضٌ عليهم من ذلك الزمان حتى أجل غير مُسمّى، فلاذوا ببيوتهم.

غلّقت المدينة أبوابها وانطوت على ذاتها، ولم يخرج أهلها لقضاء حاجاتهم، وانقطعت صلاة الجماعة، وخاف الناس سوء العاقبة.

16

كان أسامة بنُ زيد واقفاً أمام بيت الرسول على أهبة واستعداد لا يستريح أبداً، وكأنّ هاتفاً يهتف فيه: اسْتَعِدْ، اسْتَعِدْ. وبالرغم من أنّه لم يكن يعرف بالضبط لماذا يفعل ذلك، فإنّه كان يشعر بالفخر والاعتزاز وبأنّه يؤدّي واجباً ويخدم غرضاً نبيلاً. ورغم جهله بالأمور، فإنّه كان مسروراً بتخلّصه من بُريْدة بن الحُصيْب وبقائه أمام بيت الرسول وحده. ولكنّه تذكّر أنّ بُريْدة ترك معه كوكبة من العسكر، فنغّص عليه ذلك سروره. فلعلّ هؤلاء النفر جعلهم بُريْدة لمراقبته. ولكنّه تفاءل وفضّل الاهتمام بما يسرّ لا بما يُنغّص، فإنّ بعض الظنّ إثم. المهمّ أنّه على إمرة العسكر، وإنْ كوكبة صغيرة، وهذا يكفيه فخراً، ولله الحمد. وكان هؤلاء النفر يُبدون له الاحترام والودّ ويسألونه عن حاله من وقت إلى آخر، ويُنادونه، وهذا أهمّ عنده وأبقى، حضرة القائد الكريم. وشيئاً فشيئاً تعوّد حضورهم إلى جنبه، واطمأنّ قلبه، ووثق بهم، حتى إنّه لمّا فتحت أمّ أيمن الباب وقالت له: تعالَ يا ابني لتُصيب شيئاً من الأكل، دخل وراءها ولم يتردّد، وأوكل لهم أمر الحراسة.

أخذته أمّ أيمن إلى حيث كان العبيد والإماء والموالي، وأجلسته حيث كانت تربض، ووضعت أمامه جفنة من الجِفان التي جاءت بها النساء من المهاجرين والأنصار. وكانت العادة تقتضي في ذلك الزمان، أنْ تأتي النساء يَحملنَ القصاع والجفان وجميع أنواع الخبز إلى دار الميّت، لانشغال أهله بالحزن عليه وبكائه والعويل والالتدام أحياناً. وهي من العادات التي ما زالت سارية حتى اليوم في القرى والأرياف. أمّا في غير ذلك، فقد تغيّرت العادات، وأصبح أهل الميّت يُقيمون المآدب ويوزّعون المشروب والحلوى، وأصبحت النساء اللائي يأتين للمواساة والعزاء يلبسن فساتين السهرة ويتعطّرن عِطرَ باريس المساء، احتفاءً بهلاك الهالك.

كان أسامة يأكل، وكانت أمّ أيمن واقفة أمامه وقد فتحت ذراعيها بلحافها تستره، حتى لا تتسرّب إليه الأنظار المتطفّلة فيتوقّف عن الأكل، وكان به حياء يمنعه من الأكل وعيون الناس عليه. وكانت تفعل ذلك أيضاً حتى لا يسأله غيرها عمّا يحدث. ولمّا استتبّ لها الأمن وغادر جميع الخدم المربض، وقد فهموا عنها، سألته: طمّني يا بُني، ماذا يحدث؟ فقال: لا شيءَ يا أمّاه. مُجرّد احتياط حتى لا يرتدّ المنافقون عن الإسلام. فلا تخافي. لقد جاء إخواننا من أسلم ليُعاضدونا في هذا الظرف، وأنا قائد عليهم. فلا تخافي يا أمّاه. فقالت: هل صحيح أنّ البيعة تمّت لأبي بكر؟ فقال: نعم، هذا ما أعلمني به خالد بن الوليد لمّا مرّ يتفقّد. فقالت: عسى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

كان أسامة ساعتئذ قد التهم ثريد الجفنة وحمد الله ومسح فمه في كمّه، فودّع أمّه بحرارة، وهو لا يفهم مقالتها الأخيرة، وأسرع إلى الباب وخرج ليلتزم مكانه على باب بيت الرسول. أمّا أمّ أيمن فعادت إلى مكانها حيث كان يجلس أسامة ابنها، وعادت إلى شيء من البكاء، من حين إلى آخر، تقطع به سكون البيت الذي خلا إلاّ من أهله، منذ العصر، لمّا سرى فيه الخبر بانتشار العسكر والبيعة وحظر التجوّل. فقد غادرته نساء المهاجرين والأنصار اللائي كنّ في الزيارة، وأسرعن إلى العودة إلى بيوتهنّ والتزام خدورهن مع بعولتهنّ. وفي بيت الرسول بدت الزوجات على جهل تامّ بما يحدث خارج البيت، إلاّ عائشة وحفصة، ظهر عليهما شيءٌ من السرور والغبطة فسرى في الضرّات شعور بأنّهما كانتا على علم بالمؤامرة والمشاركة فيها. ولكنّ الضرّات لم يتفوّهنَ بشيء في ذلك الحين، وانتظرن فرصة التأكّد من ذلك لتوجيه التهمة. وسنُخبركم بالأمر متى خرج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، إنْ شاء الله، فانتظرونا.

أمّا العبيد والإماء والموالي، إذا ما استثنينا منهم أولئك الذين بلغوا مرتبة عالية ونالوا حظوة لدى أولي الأمر إنْ بالسفارة ونقل التعليمات أو بالعسكر، فكانوا خلاة البال تماماً ممّا يحدث. كانوا يعلمون علم اليقين أنّهم سيظلّون عبيداً وإماءً وموالي سواء تولّى الخلافة هذا الرجل أو ذاك من المؤهّلين الكرام. كانوا يعرفون أنّ كلّ شيء يَخضعُ لعقلية سارية وذهنيّة ثابتة وعرف راسخ وقيم عربية أصيلة. وكانوا يعرفون أنّ هذه الأشياء لا تتغيّر بتغيّر

الحُكّام، وقد نسج الإسلام على منوال الجاهلية وظلّوا عبيداً وإماءً وموالي، وسينسج الخليفة القادم على منوال الرسول الذي كان حاكماً، ويظلّون عبيداً وإماءً وموالي. تلك سنّة الله في خلقه، ولا تغيير في سنّة الله. ثمّ إنّهم طرف في تلك الأشياء الثابتة، يعملون بأحكامها ويُروّجون لها، أسوةً بالسادة والأحرار. وهم عموماً لا يعرفون غير تلك الحياة، ولا يعرفون ماذا عساهم يفعلون لو اضطرّوا إلى الحرّية اضطراراً.

كانت حياتهم في الأيام العاديّة قسمة بين خدمة السيّدات والسادة والسهر على راحة الجميع، وبين التسليّة عند التقائهم مساءً والركون إلى الراحة ليلاً. وكانت الخدمة هي الأصل والتسلية والنوم هما الفرع، فتأخذ عليهم الأولى كلّ الوقت تقريباً ولا يفوزون بالتسلية إلاّ نادراً ولا ينامون إلاّ عند انعدام الحركة في البيوت انعداماً تامّاً. أمّا في الأيّام الاستثنائية، مثل أيام المآتم كما هي الحال الآن، فتقلّ الخدمة ويقصر زمنها وتكثر فرص التسلية ويطول زمن النوم. فأهل الميّت ينشغلون في هذا الظرف الخاصّ بالميّت فيبكونه ويسهرونه ويُجهّزونه ويقبّلونه ويعتذرون له عمّا أتوا في حقّه من إثم ويطلبون منه المعذرة والعفو والحلم. كما ينشغلون باستقبال المعزّين والمواسين وأهل القرابات. وتنشغل زوجاته، زيادة على ذلك، بتفحيج جثمانه لإثبات أبوّته للأجنّة فيهنّ. فتقلّ بهذه المناسبة الطلبات الخاصّة بالأكل والشرب والتنظيف والاستحمام والوضوء ومشط الشعور والزينة وغير ذلك من أمور الرجال أو النساء، فيشتغل أهل الميت بالحزن والعزاء ويركن العبيد والإماء والموالي إلى الراحة والنوم زمناً أطول، ولا يُفوّتون عليهم فرصة للتسلّية ويتسارّون الأمور في كنف السرور. وقد اغتنموا فرصة خروج أسامة عن أمّه فأسرعوا إليها والتفّوا حولها، يسألونها ما الأمر؟ فتوقّفت عمّا كانت فيه من ذلك الشيء من البكاء وقصّت عليهم ما قال أسامة، وأضافت في الختام: إنّ أسامة ابني بالباب على رأس العسكر، فلا تخافوا، وهو يحمي النبيّ ويحمينا بإذن الله. فقالوا صوتاً واحداً: نشكرك يا أمّ أيمن وبلّغي أسامة الشكر عنّا. فردّت الودّ بالودّ وشكرتهم وظنّت أنّ الجلسة رُفعت، ورجعت إلى ما كانت فيه من ذلك الشيء من البُكاء. ولكن انبرى إليها بعض أهل الفَكَه والنُّكتة، فقال لها سفينة[462]: لقد جاء الخبر ببيعة أبي بكر في السقيفة، فهل أخبرك

أسامة عن البيعة في المسجد، متى ستكون؟ ثمّ أضاف: هل أخبرك يا أمّ أسامة إنْ كان لنا الحقّ في البيعة، أم نحن لا بيعة لنا؟

ضحك العبيد والإماء والموالي من هذه الأسئلة التي طرحها سفينة على أمّ أيمن، أمّا هي فقد استمعت إليها بكلّ عناية واهتمام، وندمت إذ لم تسأل عنها أسامة، وهو لا شكّ يعرف الإجابة. وتمتمت كأنّها تبحث في ذاتها عن الأجوبة. أخرجها سفينة ممّا كانت فيه من تمتمة غير مفهومة، وعاجلها بهذا القول: لا علينا يا أمّ أسامة، فالسياسة ليست من اختصاصنا، خفّفي عنّا ببعض القصص العجيبة، حدّثينا يا بَرَكَة عن أمرك مع بول النبيّ. لقد سمعتُ واللهِ النبيّ يذكرك بكلّ خير، ويضحك حتى بانت نواجذه، ويتندّر بقصّتك العجيبة وشأنك مع بوله.

ارتفعت الأصواتُ في البهو تحثُّ أمّ أيمن على رواية القصّة. كانت أمّ أيمن تحبّ هذه القصّة بصورة خاصّة، وتثور ثائرتها إذا ما نسبها القصّاص إلى بَرَكَة الأخرى[463] التي كانت في خدمة أمّ حبيبة زوج النبيّ. اغتنمت أمُّ أيمن هذه الفرصة لتقصّ على الملإ القصّة وتفوز وحدَها ببول النبيّ. فبَرَكَة الأخرى لا تدخل وتخرج مثلها على النبيّ. لم تكن مثلها قد ربّت النبيّ مثلما ربّته أمّه، وعرفتْ فراشَه وعاداتِه وتبوّلَه وأشياء أخرى تستحي من ذكرها. فمحمّد بمثابة ابنها وكان يُناديها يا أمّه[464].

اغتنمت الفرصة وأرادتْ أنْ تُسكتَ إلى الأبد القصّاص الذين ينسبون القصّة إلى بَرَكة الأخرى، وتُسكتَ إلى الأبد بَرَكَة الأخرى التي كانت موجودة في الحضور أمامها، وكان يُعجبها أنْ تُنسَبَ القصّة إليها، بل كانت أحياناً تتعمّد وتروي القصّة بنفسها وعلى لسانها. ستضع أمُّ أيمن حدّاً لهذا وتفوز وحدَها ببول النبيّ الذي شربته.

أصْلَحتْ أمُّ أيمن من جديد من شأنها، ومسحتْ عَينيها وخَدّيْها، فقد تكون عليها بقايا الدمع أو آثار البكاء. وقالت كلاماً همهمةً لم يُفهم عنها، قد يكون استغفاراً أو حمداً أو شيئاً ورثته من لغتها الحبشيّة[465]، ثمّ قالت: «كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخارة يبول فيها، فكان إذا أصبح يقول: يا أمّ أيمن صبّي ما في الفخارة. فقمتُ ليلةً وأنا عطشى فشربتُ ما فيها، فقال رسول الله:

يا أمّ أيمن صبّي ما في الفخارة. فقلتُ: قمتُ وأنا عطشى فشربتُ ما فيها، فقال: إنّك لن تشتكي بطنك بعد يومك هذا أبداً[466].» فوالله ما اشتكيتُ بطني بعد ذلك أبداً.

ضحك الحاضرون والحاضرات ضحكاً طويلاً وإنْ بهدوء. ولولا الحياء، وهم في بيت الميّت، لقهقهوا قهقهةً عالية إرضاءً لأمّ أيمن التي كانوا يُحبّونها جميعاً. وشاء سفينة أنْ لا ينقطع هذا السيل من الفرح، فقال مخاطباً أمّ أيمن من جديد: يا لك من امرأة يا أمّ أسامة! أنت والله لك مع قصص الشراب حكايات عجيبة وقصص غريبة. هلاّ حدّثتنا عن الدلو التي تدلّت لك من السماء؟

أسعد أمَّ أيمن اهتمامُ سفينة والجمع بأمرها. تنحنحت تسرّحُ حنجرتها ممّا علق بها جرّاء البكاء، ولمّا همّتْ بالحديث سمعتْ صوتَ عائشة: يا أمَّ أيمن، إليَّ يا أمَّ أيمن. انطلقت كالسهم إلى بيت عائشة. نسيت سفينة والقصّة ومستمعيها الأفاضل من العبيد والإماء والموالي. فأمّ أيمن لم تنسَ قطّ، رغم أنّ النبيّ أعتقها، وتزوّجتْ زوجها الأوّل، وتزوّجتْ زوجَها الثاني، وأنجبتْ منهما الذرّية الصالحة، أنّها خادمُ النبيّ وأزواج النبيّ وخاصّة عائشة المُدلّلة.

نظرتْ خُليسةُ[467] إلى سفينةَ قالت: قُصَّ علينا قصّةَ أمّ أيمن يا سفينة. ألستَ أعلمَ بقصص الناس من الناس أنفسهم؟ نظر إليها سفينة نظرةً طويلة. كان يعرف كلّ أمر إلاّ أمر خُليسة. كانت خُليسة، مولاة حفصة زوج النبيّ، يكتنفها السرّ، وقد عجز سفينة أنْ يفكّ ذلك السرّ. لقد اهتمّ بها من قبلُ أيّمَ اهتمام، ولم يلقَ منها إلاّ الصدّ والحقد والكره. ضربته الآن في الصميم. هذه المرّة الأولى التي تخاطبه فيها وتطلب منه شيئاً صريحاً. سُرَّ بذلك أيّمَ سرور، ولكنّه خاف أنْ يكونَ في طلبها تهكّمٌ وإساءة. وكان سفينة يخشى أنْ يُصبحَ مَضحكةَ مَن هبّ ودبّ. احتار في أمره. كان فيه شيءٌ يدعوه إلى تلبية ما تطلب خُليسة، ولكنّه خاف من خُليسة.

أخرجته بَرَكَة الأخرى، وصيفة أمّ حبيبة، من حيرته والدهشة. قالت له بلهجتها الحبشيّة اللطيفة: كصّ علينا كصّة أمّ أيمن يا شفينة. كذلك كانت بَرَكَةُ، وصيفة أمّ حبيبة، تتكلّم. كانت لا تنطق القاف قافاً بل كافاً، وتستوي

عندها السين والشين. كان كلامها لطيفاً كوجهها اللطيف ورشيقاً كجسدها الرشيق. وكانت عينُ أمّ حبيبة، زوج النبي، عليها في كلّ حال. كانت تخاف أنْ يُفتَن بها الرجال، حتى زوجها النبيّ، فكانت لا تسمح لها بأنْ تخدم أحداً. وهذا من شأنه أنْ يُؤكّد انفراد بركة أمّ أيمن بالبول، لأنّ بركة مولاة أمّ حبيبة، قد أبعدتها أمّ حبيبة كما ذكرنا عن كلّ ذَكر، وكانت لطافتها ورشاقتها لا تسمحان بأنْ تُقصّ فيها هذه القصص.

أخرجتْ بَرَكَة سفينة من حيرته والدهشة، فقام يروي قصّةَ أمّ أيمن وهو ينظر إلى الأرض بين رجليه، لا يَجرُؤ على رفع عينيه، خوف أن تلاقيا عينيْ خُليسة السابية، قال: «لمّا هاجرتْ أمُّ أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء فعطشتْ وليس معها ماء، وهي صائمة، فجهدها العطش، فدلّيَ عليها من السماء دلوٌ من ماء برشاء أبيض، فأخذته، فشربتْ منه حتى رويتْ، فكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطش، ولقد تعرّضتُ للعطش بالصوم في الهواجر، فما عطشتُ بعد تلك الشربة وإنّي كنتُ لأصوم في اليوم الحارّ فما أعطش[468].»

تَنفّس تَنفُّسةً طويلة وهو يوقف القصّة بسرعة، ولم يفهم الحضور ما وجه الطرافة فيها ولم يضحكوا مثلما يفعل الناس عندما تُروى لهم القصص الشيّقة التي تكون فيها السماء طرفاً. انتظر سفينة ولم يُعلّق على القصّة أحد. قال بسرعة وهو ينهي الحديث إيذاناً برفع المجلس: كذلك كانت أمّ أيمن. وأدار ظهره إلى الباب يُريد النجاة بنفسه والخلاص من عذاب خُليسة. ولكنّ خُليسة لم تترك له الفرصة. قالت، وفي نبرتها هذه المرة الهُزءُ والتهكّمُ الصارخ: ما لك يا سفينة؟ لماذا تُسرع بالكلام وتلوذ بالفرار؟ أوَراءَك الأُسْدُ تَجري؟ متى كنتَ تَخافُ الأُسْدَ، يا سفينة؟ ألستَ حَليفَ الأُسْد، تفهم لغة الأُسْد وتفهم عنك الأُسْدُ لغتَك. حدّثنا بما كان من أمرك مع الأسَد الذي حاورتَه وحاورك.

تمنّى لو انشقّت له الأرض وابتلعته. تمنّى ليته لم يدخل الحلقة ويُمازح أمّ أيمن. تمنّى لو... ولكنّ خُليسة لم تُمهله فيواصل ويتمنّى. قالت له بأمر وحزم لا يخلوان من سُخرية: أيْهْ، تفضّل واحك. انصاع للأمر يروي: «ركبتُ سفينة فانكسرتْ، فركبتُ لوحاً منها فطرحني إلى الساحل، فلقيني أسَدٌ، فقلتُ: يا أبا الحارث، أنا سفينة مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فطأطأ

رأسه وجعل يدفعني بجنبه وكتفه حتى وقّفني على الطريق، فلمّا وقّفني على الطريق هَمهَمَ، فظننتُ أنّه يُودّعني[469].»

ضحك المجتمعون في البهو. صَفّقتْ خُليسة تصفيقاً طويلا. شعُر سفينة بالذلّ. شعُر أنّ خُليسة لا تُصدّق قصّته العجيبة. همّ بالباب. استوقفته خُليسة بالقول: يا ليثُ، حدّثنا عن اسمك سفينة، كيف التصق بك والتصقتَ به حتى نسيتَ اسمك الأصليّ.

تحمّل كلامها المعبّر بمشقّة وعبء أثقل كاهله. استعاذ من الشيطان الرجيم. استغفر الله العظيم. تنهّد. سلّم أمره لله ولخُليسة الجارية. قال كمن يُنهي قصّة: «كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فمررنا بواد، فكنتُ أعبر الناس، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما كنتَ منذ اليوم إلاّ سفينة[470].» أنهى قصّته وتوقّف عن الكلام وظنّ أنّ فيها الخلاص من قبضة خُليسة. ولكنّ خُليسة عادت إليه تسأله: أظنّك أشعتَ سبباً آخر لهذه التسميّة، فما الخبر؟ لم يجد بدّاً من مواصلة القصّ والتبرير. قال: «كنتُ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سفر، فكلّما أعيا بعض القوم ألقى عليّ سيفه وترسه ورمحه حتى حملتُ شيئاً كثيراً، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أنت سفينة[471].» وأضاف: «سمّاني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سفينة فلا أريد غيره.» وقد وقع ذلك مرّتين. وسمّاني سفينة مرّتين. ما الغريب في ذلك؟ وخرج يجري. لم تستطع خُليسة معه شيئًا هذه المرّة.

17

تركنا عليّ بنَ أبي طالب أمسِ في دار فاطمة زوجه ومعه بنو هشام ينتظر البَيعة. ولم يَفتكم من أمرهم شيءٌ إلى حدّ هذه الساعة، فهم ما زالوا هناك، ولم يُغادروا البيت منذ صباح هذا اليوم الثاني، فلا هم خرجوا ولا هم شاركوا في ما كان الناس فيه من أمور الخلافة، وكأنّ الخلافة لا تعنيهم، حتى ذهب في الناس ألاّ رغبة لهم فيها ولا حاجة[472]. ويُمكن أنْ نقول ولا حَرجَ إنّ الخلافة لم تكن تعنيهم كما تعني غيرهم، أو لا تعني، على وجه التحديد، عليّ بن أبي طالب الذي زعَموه وبوّؤوه المنزلة العليّة وظنّوه قائماً بالأمر بعد النبيّ. فهم اختاروا الإمامة، وجعلوها الأولى بالمسلمين، واعتقدوا اعتقاداً راسخاً في أنّ «الإمامة ليست من المصالح العامّة التي تُفوَّض إلى نظر الأمّة، ويتعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبيّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمّة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وإنّ علياً رضي الله عنه هو الذي عيّنه صلوات الله وسلامه عليه[473].» وبناء على ذلك اختلفت الإمامة عن الخلافة، وبيّن ابن خلدون ذلك بما فيه الكفاية، فجعل الخلافة سياسة عقليّة مفروضة من الوجوه وأكابر الناس، غايتها الدنيا، والدنيا عبث وباطل لا تؤدّي إلاّ إلى الموت والفناء. وجعل الإمامة قوانين مفروضة من الله بشارع، وهي سياسة دينيّة المقصود بها الدين المُفضي إلى السعادة في الآخرة[474]. فرحمه الله رحمة واسعة، فقد أرشدنا إلى هذه المقولات التي فيها اختلاف وتضارب، وكفانا بسط الحديث فيها بما يُثقل هذا الكتاب.

أمّا بعد، فنعود إلى ما كنّا فيه من أمر بني هاشم.

بدأت الشكوك تنخر في بني هاشم عند احتضار النبيّ ثمّ موته، وخافوا انقلاب الناس على عليّ واغتصاب الخلافة منه، أو الإمامة حسب تعبيره الذي

صار تعبيرهم. وقد أفصحوا عن شكوكهم لدى المعنيّ بالأمر، وعبّروا له عن خوفهم من خروج الأمر عنهم، ولكنّه ردّ كلامهم ولم يعمل بمشورتهم، وظنّ ألاّ أحد يُنازعهم الأمر، وكانت ثقته واسعة في أنّ الناس سيُهرولون إليه بالبَيعة وهو في بيته، فانتظرهم في بيته. ولمّا طال الانتظار ولم يأتوا ظنّ أنّهم آتون دون شكّ حال الانتهاء من تجهيز النبيّ ودفنه.

وقد بدا عليّ بن أبي طالب خلال هذه الأيّام العصيبة خالي الذهن أو كالخالي من أمور الموت والخلافة، فلا هو ظنّ كما ظنّ غيره أنّ النبيّ ميّت لا محالة، فسأله بعض شيء، ولا هو تآمر مع قرابته لمّا تُوفّي النبيّ للفوز بالخلافة، ولا هو رضي بالبَيعة التي كان يدعوه إليها ذوو الجاه منهم. وقد بدا جاهلاً حتى بأمر النبيّ نفسه، ولم يعرف الموت على وجهه، ولم يسأله ما كان يجب أنْ يسأله، رغم أنّه كان المقرّب إليه وابن عمّه وصهره ووصيّه حسب ادّعائه. وقد روت الكتب أنّ هذا الجهل أدّى به إلى أنْ لم يحسب لكلّ شيء حساباً فضيّع على نفسه الأمر وعلى بني هاشم وعبد مناف أيضاً، رغم مُحاولاتهم التدخّل لديه حتى يُغيّر من موقفه ويسعى إلى الخلافة سعي غيره. وقد فعل معه ذلك عمّه العبّاس بن عبد المطّلب مثلا، في ثلاث مرّات متتالية، فلم يسمع منه ولم يتعظ. وقد رصدت لنا الكتب هذه المحاولات ولم تبخل علينا بتفصيل الحديث فيها، فذكرت لنا: «أنّ عليّ بن أبي طالب خرج من عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في وجعه الذي تُوفّي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده العبّاس بن عبد المطّلب، فقال: ألا ترى، أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، إنّي والله لأرى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سيُتوفّى في وجعه هذا. إنّي أعرف وجوه بني عبد المطّلب عند الموت. فاذهب بنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلنسأله فيمن هذا الأمر من بعد، فإنْ كان فينا علمنا ذلك، وإنْ كان في غيرنا كلّمناه فأوصى بنا. فقال علي: والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يُعطيناها الناس أبداً، فوالله لا نسأله أبداً[475].»

ولمّا رأى العبّاس مُخالفة عليّ أمره في هذه المرّة «أرسل إلى بني عبد المطّلب فجمعهم عنده، وكان عليّ عنده بمنزلة لم يكن أحدٌ بها، فقال العباس: يا ابنَ أخي، إنّي قد رأيتُ رأياً لم أحبّ أنْ أقطع فيه شيئاً حتى أستشيرك، فقال

علي: وما هو؟ قال: ندخل على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فنسأله إلى مَن هذا الأمر من بعده، فإنْ كان فينا لم نسلّمه والله ما بقي منّا في الأرض طارف، وإنْ كان في غيرنا لم نطلبها بعده أبداً، فقال عليّ: يا عمّ، وهل هذا الأمر إلاّ إليك، وهل من أحد يُنازعكم في هذا الأمر. فتفرّقوا ولم يدخلوا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[476].» فخاب العبّاس في هذه المرّة الثانية، ولكنّه لم ييأس من رحمة ربّه، فسعى إلى عليّ في مرّة ثالثة، وأقسم أنّها الأخيرة، «قال العبّاس لعليّ: أريد أنْ أسأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يستخلف منّا خليفة. فقال عليّ: لا تفعل. قال: ولِمَ؟ قال: أخشى أنْ يقول: لا، فإذا ابتغينا ذلك من الناس، قالوا: أليس قد أبى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[477].»

مات الرسول ولم يسأله عليٌّ السؤال المُحرج، ولم يسمح للعبّاس فيسأله، وغاب إلى الأبد رأي الرسول في الخلافة والإمامة وما كان ينتظره من الناس في حال غيابه. ولعلّه لم يكن ينتظر أنْ يغيب عن الناس أبداً، أو لعلّه كان يظنّ أنّ الناس سيرحلون برحيله فلا يُبقي الله منهم ولا يَذر. أمّا الثابت في هذه الأخبار فتهرّب عليّ من سؤال النبيّ في أمر الخلافة مخافةَ أنْ يكون جوابه نفي الخلافة عنه وآله، فيحتجّ خصومه بذلك ويحرمونه الخلافة، ويصبح ما شاع من أمر الوصيّة لعليّ والشرعيّة لآل البيت تقوّلاً وادّعاء. ثمّ إنّ عليّاً يبدو في هذه الأخبار خاضعاً للعرف وتقاليد الجزيرة التي تقتضي أنْ لا يُنازع الفتى الشيخَ في العشيرة فنراه يُقدّم عمّه العبّاس، ويجزم بأنّ الأمر له من غير مُنازع[478].

أمّا الآن وقد مات الرسول فقد ازدادت مخاوف بني هاشم وعبد مناف وأرادوا الإسراع بالبيعة لعليّ حتى لا يتجاوزه الخصوم. ولكنّ عليّاً طلب التريّث والانتظار، واعتبر أنّ هذا الأمر فيهم بصفة طبيعيّة ولا أحد يجرؤ وينازعهم ذلك. فقد جاءه العبّاس بن عبد المطّلب يدعوه إلى بسط يده للبَيعة فأبى واحتجّ بأنْ لا أحد من القوم يطمع في هذا الأمر. ثمّ جاءه أبو سفيان بن حرب يدعوه إلى نفس الشيء، فرفض ولم يستجب لكبير القوم هذا. ولم يُصدّق طمع القوم في الأمر الذي ظنّه حكراً عليه إلاّ ساعة وصلهم التكبير من سقيفة بني ساعدة ورجّعت سكك المدينة صداه، وقام يسأل عن هذا الذي يسمع وأُخبر بفوات الأوان وفقدان الخلافة إلى أبد الآبدين. وقد

عاتبه العبّاس على ذلك، وذكّره بشريط الأحداث، فقال: «لمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أتانا أبو سفيان بنُ حرب تلك الساعة، فدعوناك إلى أنْ نُبايعك، وقلتُ لك: ابسط يدك أبايعك ويُبايعك هذا الشيخ، فإنّا إذا بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك أحد من قريش، وإذا بايعتك قريش لم يختلفْ عليك أحد من العرب. فقلتَ: لنا بجهاز الرسول صلّى الله عليه وسلّم شُغل، وهذا الأمر ليس نخشى عليه. فلم نلبث أنْ سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة، فقلتَ: ما هذا؟ قلتُ: ما دعوناك إليه فأبيتَ. قلتَ: سبحان الله! أوَيكون هذا؟ قلتُ: نعم. قلتَ: أفلا يُردّ؟ قلتُ لك: وهل يُردّ مثل هذا قطّ؟[479]»

وقد غضب عليه عمّه غضباً شديداً، وقاطعه زمناً طويلا، ولم يأذن له ويرض عنه إلاّ عند اقتراب ساعته، وقد كبر عبد الله ابنه وسعى بينهما بالصلح. ولم ينس العبّاس، في هذا الظرف الخاصّ، ما كان من أمر ابن أخيه، فبادر إلى تذكيره بالأخطاء التي اقترفها جرّاء امتناعه عن سماع مشوراته. وهذا يدلّ على أنّه قد ارتكب إثماً عظيماً في حقّه وحقّ أهله جميعاً[480].

كلّ شيء في عليّ إبّان موت الرسول وانتصاب أبي بكر للخلافة يُحدّث بأنّ الرجل كان زاهداً في الخلافة التي تتمّ في الناس بالتعيين والشورى والاغتصاب. كان يظنّ أنّ الله عيّنه وصيّاً وإماماً ينوب محمّداً على الأمر إذا ما اختفى محمّد، مثلما عيّن هارون وصيّاً وإماماً وجعله ينوب موسى. وكان كثيراً ما يقرن بين حالته وحالة هارون، ويعتبر نفسه أخاً لمحمّد مثلما كان هارون أخاً لموسى. وقد أمر الله محمّداً بأنْ يُبلّغ إلى الناس وصيّته ويُقدّم إليهم وصيّه، ففعل وبلّغ، فنادوه، بناء على ذلك، بأمير المؤمنين في حياة النبيّ، فكيف لهم أنْ يتغيّروا اليوم ويتنكّروا له. ولكنّهم تغيّروا وتنكّروا، من حيث لا يعلم، وتنازعوا وبايعوا وهو غافل عنهم لاشتغاله بجهاز النبيّ وجمع القرآن، كما كان يحلو له أنْ يقول. وقد تداولت الكتب من بعدُ حجّته هذه وأكسبته بفضلها شرعيّة قويّة، رغم أنّ جهاز النبيّ، لو أراد جهازه، لاستغرق ساعة أو ساعتين ليس غيرُ، وأنّ جمع القرآن، لو أراد جمعه، لجنّد له الفرق وأمضى في ذلك الدهر الطويل.

ولكنّ التكبير الذي دوّى من السقيفة عصف بعليّ عصفاً شديداً. علم أنّ أمراً جليلا قد حدث. ولمّا أخبروه بالبَيْعة لغيره خرج من غفلته التي دامت طويلا. نسي جهاز النبيّ والقرآن الذي عقد العزم على جمعه، وعاودته العصبيّة وأصابته نعرة عبد المطّلب وبني هاشم، فنظر إليهم يُريد تغيير مجرى الأمور ولكنّهم أجابوه بأنّ البَيعة قد تمّت لأبي بكر، والبَيعة إذا ما تمّت فلا مردّ لها أبداً.

بُهتَ المسكين. أيقن أنّ الأهل قد خذلوه، ولا يُمكنه التعويل عليهم، ولن ينصروه. أيقن أنّه ضعيف فيهم، وأنّهم مثله ضُعفاء. تذكّر بني هاشم لمّا كانت بنو هاشم سادةً ووجوهاً في قريش، أهل الرأي والتدبير في الجاهلية ثمّ الحلّ والعقد في الإسلام. تذكّرهم وبكى. بكى النبيّ الذي رحل وتركه يتيماً بلا إمامة، بلا خلافة. بكى جدّه عبد المطّلب، لو كان هنا لزوّر مقالة بليغة أفحم بها المنافقين الذين أذلّوا حفيده مثلما أفحم النجاشي وأبرهة في ما مضى، ولحماه مثلما حمى النبيّ صغيراً ورعاه. بكى أباه أبا طالب، لو كان هنا لجهّز جيشاً وحارب مُغتصبي الخلافة منه مثلما حارب المشركين لمّا عرضوا لابن أخيه محمّد. بكى حمزة وجعفراً، لو كانا هنا لما وصل إلى ما وصل إليه، ولأخرجاه من الذلّ إلى العزّ، ولنصّباه على الناس إماماً وإنْ بعد أن اختار الناس خليفة. رحلوا جميعاً ولم يبق من بني هاشم غير العبّاس وعقيل، وهما «رجلان ضعيفان ذليلان حديثا عهد بالإسلام، وكانا من الطلقاء، أما والله، لو أنّ حمزة وجعفراً كانا بحضرتهما ما وصلا إلى ما وصلا إليه، ولو كانا شاهديهما لأتلفا نفسيهما[481].»

أيقن عليّ ألاّ خيرَ يُرجى من الأهل الذين خذلوا، فقال لهم ما قال الشاعر لأهله: إنّي إلى قوم سواكم لأميل، وإنّي لمتّخذٌ دونكم أهلونَ، وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى. لقد حُمّت الحاجات والليل مظلمٌ، فتجاوز حظر الجولان المضروب على المدينة وخرج يمشي في سككها، يطوف على المهاجرين والأنصار، وعلى مَنْ شهد بدراً وأُحُداً والمشاهد كلّها. طاف بالناس ومعه حمار مثل الأنبياء، جعل عليه امرأته فاطمة الزهراء بنت محمّد ابن عبد الله، وجعل ابنيْه الحسن والحسين في الرحلة الطويلة الشاقة، وخرج يستجدي حقّه في الأمر.

قضى عليّ ليلته يطوف على الناس وامرأته تتبعه على حمارها وابناه إلى جنبيْه. كلّم الناس في الأمر. وكلّمتهم فاطمة أيضاً. ولكنّ الناس جميعاً خذلوه كما خذله أهله. فمنهم مَن كان من شيعة أبي بكر فردّه ردّاً شنيعاً ولم يستجب لدعوته. ومنهم مَن قدّر الظروف وأكبر حضور فاطمة بنت الرسول إليه، فاعتذر لفاطمة الزهراء اعتذار الذي قطع على نفسه عهداً ولا يحقّ له أنْ يرجع فيه إلى وراء. ومنهم من سانده ليلتئذ وودّعه على أمل اللقاء به صباحاً لإتمام البَيعة أمام الملإ، فانتظر. إنّ غداً لناظره قريب!

وعاد أدراجه إلى البيت ويداه في يديْ ابنيْه وفاطمة على حمارها وهو يعتقد في أنّ الذين ساندوه ليلتئذ ووعدوه بالبيعة من غد سيجمعون إليهم أفواجاً من المسلمين ويأتونه لإتمام البَيعة أمام الملإ، فانتظر.

كان ذلك عند تباشير الفجر.

18

كان أهل الصُّفّة في صُفّتهم لمّا تمّت البيعة لأبي بكر في السقيفة وأمر خالدٌ بمنع الناس من دخول المسجد من غير أهل الصفّة. وقد وصلتهم أخبار السقيفة مثلما وصلت غيرهم من الناس رغم انتشار العسكر في المدينة واختفاء سكّانها خوفاً ممّا ظنّوه حظراً على الخروج. وقد كانت لأهل الصُّفّة عيونٌ على القوم يحملون إليهم الأخبار، وكانت الحياة العامّة تهمّهم تماماً كما تهمّ غيرهم من الناس، وإنْ أظهروا عكس ذلك، وأنكروا الدنيا واحتفوْا بالآخرة. ولكنّ الآخرة لا توفّر لُقمة العيش، فكان لا بدّ من استجداء الدنيا، وإنْ سرّاً، والاهتمام بأمر الخلافة، وإنْ في الخفاء. لقد كان النبيّ يُطعمهم ويأمر الصحابة أنْ يُطعموهم، فكانوا يطمحون إلى خليفة يفعل فعله فيطعمهم ويأمر بإطعامهم. وقد سرى فيهم شيءٌ من السرور والغبطة، وإنْ لم يُظهروه، لمّا وصلتهم الأخبار باتفاق الأنصار على سَعد بن عُبادة خليفة. فسعد كان يُطعم منهم ثمانين نفراً، ويمكنه أنْ يُطعم أكثر، لو طُلب إليه. وكان خدمه والعبيد يطوفون بجفانه والقصاع على منازل المهاجرين والنبيّ منهم. وكانت موائده منصوبة للزوّار والضيوف آناء الليل والنهار. ولو سُمح لهم بأن يُشاركوا الناس في اختيار خليفة للرسول لاختاروا سَعداً دون تردّد، ولفضّلوه على الصحابة، خاصّة المهاجرين منهم، فهم ضيوف على الأنصار، ولا مال عندهم غير ما قاسموهم. ولكنّ أهل الصُّفة كانوا من ضعاف الحال والمُهمّشين والعجّز وذوي الإعاقات الكثيرة. وهؤلاء لا حقّ لهم في اختيار الخليفة، يرضون بما شاء لهم وجوه المسلمين. بل هم لا يُبايعون أصلاً، لأنّ البَيعة لوجوه المسلمين أيضاً. أمّا هم فطبقة في أدنى الترتيب. وأنتم تعرفون هذا الأمر ولا فائدة في التأكيد عليه، فاسمحوا بالعودة إلى ما كنّا فيه.

بلغ أهلَ الصُّفة أنّ البَيعة تمّت لأبي بكر الصدّيق، فتظاهروا بالغبطة والسرور، وقاموا يُهنّئون بلالاً الذي نقل إليهم الخبر. فبلال تبعٌ لأبِي بكر بالتمام والكمال، وعينه على البشر، فوجب الحذر. وقد شكر بلال الله وأثنى عليه لمّا بشّرهم بالخليفة الجديد، وأخبرهم أنّ اختيار أبي بكر نعمة من نعم الله عليهم، ثمّ ختم كلامه بالتأكيد على أنّ أبا بكر سيسير فيهم سيرة الرسول، فيُطعمهم ويوصي بإطعامهم. فشكروا بلالاً على عناية أبي بكر الموصولة بهم ورجوه تبليغ شكرهم إليه سلفاً. وانعكفوا على أنفسهم بشيء من الحسرة. فهم يعلمون أنّ أبا بكر ليس سَعداً، وأنّ تجارته التي كان يتعاطاها لا تسدّ رمق عيشه وأهله، فكيف سيدرّ عليهم من نعم الله التي أنعم بها عليه وعليهم؟ وكادوا، لشدّة غضبهم، يُعبّرون عن استيائهم جهراً ويتّهمون بلالاً بالخيانة ويطردونه من الصُّفّة، لولا أنْ أصمتَ فيهم أبو هريرة غضبهم فسكتوا عن الجهر فأمنوا سوء العاقبة. أنقذ أبو هريرة الموقف بسؤاله بلالا: وماذا كانت حُجّة المهاجرين على الأنصار في الفوز بالخلافة، يا بلال؟

استعاد بلال أنفاسه والسيطرة على الموقف، وقال: كانت حُجّة دامغة، والله، يا أبا هريرة. لقد أفحم أبو بكر الناس بحَديثيْن اثنيْن، ولم يزد على ذلك شيئاً. أمّا الحديث الأوّل فاستوصوا بالأنصار خيراً. وأمّا الحديث الثاني فالأئمّة من قريش. وقد بُهتَ الناس، يا أبا هُريرة. فهم يجهلون الحديث كما تعلم. قال بلال ذلك واستزوى عند الركن حيث يمكث كلّما انضمّ إلى أهل الصُّفّة، وهو يعلم أنّ أبا هريرة سينطلق في الكلام بفضل ما وفّره له من مادّة، وأنّه سيتمتّع بذلك الكلام.

كان بلال يفضّل أبا هُريرة على أهل الصُّفّة جميعاً. ولا غرابة في ذلك فقد كان أبو هُريرة زعيم أهل الصُّفّة، فخوراً بالانتماء إليهم، وفخوراً بفقره أيضاً. وكان رأس التلاوة والتجويد والتفسير والرواية فيهم. وهذا ما قرّبه إلى بلال، بلا شكّ. وكان أبو هُريرة على علاقة متينة بالنبيّ الذي كان يحبّ أهل الصُّفّة والفقر، وقد جعله عريف مَن سكن الصُّفّة من القاطنين ومَن نزلها من الطارقين، واختاره سفيره إليهم كلّما اقتضت الحاجة[482]. وكان يتردّد على بيوت أزواج النبيّ لنيل ما تيسّر من قوت، فتراه يُكرّر: «كنتُ من أهل الصُّفّة في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإنْ كان ليُغشى عليّ فيما بين بيت

عائشة وأمّ سلمة من الجوع[483].» وكان لا يتوقّف عن الرواية عن النبي، وإنْ في ظلّ طعن الناس في رواياته، ورميه بالإكثار فيها، والشكّ في صدقه، كما سنرى من بعدُ. وكان، إذا ما روى أحدٌ حديثاً أتى بمثله أو بخير منه، ثمّ انطلق في تفسيره وذكر المناسبة التي قيل فيها ومَن المقصود به وإنْ كان عن وحي أم عن غير وحي.

انطلق أبو هريرة في الكلام فتوسّع في ما جاء في كلام بلال اختصاراً، فذكر الحَديثيْن المشار إليهما أعلاه وفسّرهما تفسيراً ضافياً وزيادة. قال: «قال صلّى الله عليه وسلّم إنّه لم يمت نبيّ قطّ إلاّ خلّف وراءه تركة، وإنّ تركتي فيكم الأنصار رضي الله عنهم، وهم كرشي التي آوي إليها. أوصيكم بتقوى الله تعالى، والإحسان إليهم، فقد علمتم أنّهم شاطروكم وواسوكم في العسر واليسر، نصروكم في النشط والكسل، فاعرفوا لهم حقّهم، واقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم[484].» واسترسل أبو هريرة في التفسير والتأويل، فقال: للأنصار على المهاجرين، أيّها السادة، فضل الضيافة فأووهم لمّا أُخرجوا من ديارهم، وقاسموهم أموالهم لمّا صادرت قريش أموالهم، ونصروهم لمّا خذلهم أهلوهم. وقد ردّ لهم نبيّنا السمحُ الودّ بالودّ، وأكرمهم، وجعل لهم نصيبهم من الغنيمة والسبي. ولم ينسَ، وهو يحتضر، أنْ يُوصيَ بهم المهاجرين خيراً، لأنّ المهاجرين هم الأهل ولهم الأولويّة في الإسلام، لذلك جاء الحديث الثاني، وأذكره لكم في صيغ متعدّدة[485]، سمعتُها جميعاً من رسول الله، وهي إنْ دلّت على شيء دلّت على أهمّية هذا الأمر عنده. منها هذه الصيغة: «كنّا في بيت من الأنصار، فجاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى وقف فأخذ بعاضدتيْ الباب، فقال: الأئمّة من قريش، إنّ لهم عليكم حقّاً، ولكم عليهم حقّاً مثل ذلك، ما إنْ استرحموا فرحموا، وإنْ عاهدوا وفوا، وإنْ حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.» ومنها هذه الصيغ المختصرة: «إنّ هذا الأمر في قريش، لا يُعاديهم أحدٌ إلاّ أكبّه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين» ثمّ: «لا يزال الإسلام عزيزاً بخلفاء كلّهم من قريش» ثمّ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان» ثمّ: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم.» واسترسل في الكلام لا يلوي على شيء، فقال: بناء على ما تقدّم

فإنّ الخلافة لا تكون إلاّ في قريش، ومَنْ في قريش خير من أبي بكر الصدّيق، صاحب رسول الله وثاني اثنين في الغار؟ وأضاف أبو هريرة مزهوّاً: «والله الذي لا إله إلاّ هو، لو لا أنّ أبا بكر استُخلف ما عُبد الله، ثمّ قال الثانية، ثمّ قال الثالثة[486].» توقّف برهة ثمّ قال مؤكّداً: «لولا أبو بكر لهلكت أمّة محمّد عليه السلام بعد نبيّها[487].»

فاجأ أبو هريرة مستمعيه. كان منذ يومَيْن يُشنّف آذانهم بكلامه العجيب في الزهد في الحياة الدنيا والرغبة في الآخرة والساعة الآتية لا ريبَ فيها والرحلة التي لا بدّ منها. فصدّقوه، وظنّوا أنّهم راحلون برحيل نبيّهم. وها هو قد انقلب مُتيّماً بحبّ الدنيا، متحمّساً لأمر الخلافة، يكيل المدح كيلا لقريش وهو ليس منها، ويُنشد خصال أبي بكر. ماذا جرى يا تُرى؟ تململ الناس في أماكنهم من الصُّفّة. همّوا بالكلام. أرادوه أنْ يتوقّف وقد شكّوا في بعض مقولاته. أنقذه بلال هذه المرّة، قال له: شكراً على هذه الخطبة يا أبا هريرة، وتصديقاً لكلامك الكافي الشافي أذكر الآتي: لقد «احتجّت قريشٌ على الأنصار، لمّا همّوا ببَيعة سعد بن عُبادة وقالوا: منّا أمير ومنكم أمير، بقوله صلى الله عليه وسلّم: الأئمّة من قريش، وبأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أوصانا بأن نُحسن إلى مُحسنكم ونتجاوز عن مُسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصيّة بكم، فحجّوا الأنصار ورجعوا عن قولهم منّا أمير ومنكم أمير، وعدلوا عمّا كانوا همّوا به من بَيعة سَعد لذلك[488].» وأضاف: وقد اكتسبت قريش بفضل هذا الحديث شرعيّة قويّة، وهي أهل لذلك وإنّها عندي ستكرّس هذا المبدأ حتى يُصبح في الناس دستوراً.

لم ينفع بلالٌ أبا هريرة وقد قام له سنداً، فهاجت الصُّفّة وماجت، وتكلّم الناس فيها يندّدون بعدم قرار أبي هُريرة على رأي، ويعيبون عليه التناقض الواضح في الكلام وتضارب المصالح، وذهبوا إلى تكذيبه والطعن في أحاديثه واتهموه بالإكثار في الرواية، واستشهد بعضهم في هذا الشأن بكلام لعائشة زوج النبيّ تلوم فيه أبا هُريرة عن الإكثار في الحديث[489]. استغلّ أبو هريرة هذه الفرصة السانحة وأراد أنْ يُسكت إلى الأبد هذه الأصوات التي قامت أمامه الآن تطعن فيه، ويُسكت إلى الأبد أيضاً من خلالها الأصوات الأخرى التي طعنت فيه سابقاً. فأجابهم بكلّ جُرأة: «إنّكم لتقولون أكثر أبو

هُريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولله الموعد، وتقولون ما للمهاجرين ولا الأنصار لا يُحدّثون عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذه الأحاديث، وإنّ أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم بالسوق، وإنّ أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم أرَضوهم والقيام عليها، وإنّي كنتُ امرأً مسكيناً وكنتُ أكثرُ مُجالسةَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أحضر إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا، وإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حدّثنا يوماً فقال: مَنْ يبسط ثوبه حتى أفرغَ فيه من حديثي ثمّ يقبضه إليه فلا ينسى شيئاً سَمِعَه منّي أبداً؟ فبسطتُ ثوبي، فحدّثني ثمّ قبضتُه إليّ، فوالله ما كنتُ قد نسيتُ شيئاً سمعتُه منه[490].»
واغتنم هذه الفرصة وردّ على الذين استندوا إلى كلام عائشة للطعن فيه[491] بكلام توجّه به مباشرة إليها، وهو يعلم أنّ مُتّهميه سينقلونه إليها، فتجرّأ وقال: «يا أمّاه إنّه كان يشغلك عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المرآة والمكحلة والتصنّع لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإنّي والله ما كان يشغلني عنه شيء[492].»

استرسل أبو هريرة يردّ طعون الطاعنين فيه ولا يتوقّف عن الكلام، لولا أنْ قام أبو ذرّ الغفاري وقال: «يولدون للموت، ويعمّرون للخراب، ويحرصون على ما يفنى، ويتركون ما يبقى. ألا حبّذا المكروهان: الموت والفقر[493].» فوجئ الناس بكلام أبي ذرّ الغفاري، وكان رجلاً مُقتصداً في كلّ شيء حتى في الكلام، عكس أبي هريرة تماماً. وكان أعلم الصحابة بالرسول وأحاديثه ولكنّه احتفظ بذلك لذاته ولم يُخرجه للناس حتى قيل فيه: «وعى أبو ذرّ علماً عجز الناس عنه ثمّ أوكأ عليه فلم يُخرج منه شيئاً[494].» كان زاهداً زُهد الرهبان، بل زُهد عيسى ابن مريم رأس الرهبان[495]. كان يقضي وقته في التعبّد والتفكّر لا يُلهيه عن ذلك شيءٌ إلاّ خدمة النبيّ. فإذا فرغ من خدمته أوى إلى المسجد، فاضطجع فيه، فكان هو بيته، وأهل الصُّفّة أهله[496].

«وكان أبو ذرّ رضي الله تعالى عنه للرسول صلّى الله عليه وسلّم ملازماً وجليساً، وعلى مساءلته والاقتباس منه حريصاً، والقيام على ما استفاد منه أنيساً، سأله عن الأصول والفروع، وسأله عن الإيمان والإحسان، وسأله عن رؤية ربّه تعالى، وسأله عن أحبّ الكلام إلى الله تعالى، وسأله عن ليلة القدر أترفع مع الأنبياء أم تبقى، وسأله عن كلّ شيء حتى عن مسّ الحصا في

الصلاة[497].» وكان الناس يُحبّونه ويُكبرون فيه علمه الوافر الغزير الذي كان لا يتبجّح به ولا يُعطيه إلاّ إذا شعُر بمغالطة العلماء الناس. وهو ما أحسّ به الآن لمّا قام أبو هريرة يُعلّق على الخلافة، والخلافة من أمر الدنيا لا الآخرة. فتكلّم لعلّه يُعيد الأمور إلى مجراها، فتغلب الآخرة الدنيا عند الناس. وقد أقبل عليه الناس وتركوا أبا هُريرة، فقام يخطب: «يا أيّها الناس، هلمّوا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس، فقال: أرأيتم لو أنّ أحدكم أراد سفراً، أليس يتّخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟ قالوا: بلى. قال: فسفر طريق القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم. قالوا: وما يصلحنا؟ قال: حجّوا حجّة لعظام الأمور، صوموا يوماً شديداً حرّه لطول النشور، صلّوا ركعتيْن في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها، أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدّق بمالك لعلّك تنجو من عسرها، اجعل الدنيا مجلسيْن، مجلساً في طلب الآخرة، ومجلساً في طلب الحلال، والثالث يضرّك ولا ينفعك لا تريده، اجعل المال درهميْن، درهماً تُنفقه على عيالك من حلّه، ودرهماً تقدّمه لآخرتك، والثالث يضرّك ولا ينفعك لا تريده. ثمّ نادى بأعلى صوته: يا أيّها الناس، قتلكم حرصٌ لا تدركونه أبداً[498].»

صاح الناس جميعا، باستثناء أبي هريرة المعنيّ بالخطبة وبلال الذي كان يُحبّه: آمين، آمين، صدقتَ يا عليم، زدنا من علمك الوافر الغزير. فانبرى إلى الآيات يتلوها ويفسّرها حتى بلغ إحداها فتوقّف عندها طويلا وقال: «قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يا أبا ذرّ لأعلّمك آيةً لو أخذ بها الناس لكفتهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ[499]﴾ فما زال يقولها ويُعيدها عليّ[500]؛ «وجعل يتلوها ويُردّدها حتى نعستُ[501].» سكت لحظة ثمّ قال: وقد أوتيتُ معناها إذ ذاك وها أنا أفسّرها لكم كما كانت: «مَن يخف الله فيعمل بما أمره به، ويجتنب ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مَخرجاً بأنْ يُعرّفه بأنّ ما قضى فلا بدّ من أنْ يكون، ويُسبّب له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[502].» فقام الناس جميعاً وقوفاً إكباراً للآية الكريمة واحتفاء بالتفسير الذي أتى على كلّ شيء فيها من غير إعادة أو تكرار لا ينفع. ولمّا رأى منهم ذلك ازداد سروراً لاهتمامهم بأمره، فواصل الكلام الجميل، قال: وهناك من الآيات ما هو أعظم

من الآية التي ذكرت، وإليكم ذلك: «قلتُ يا رسول الله، فأيّ آية ممّا أنزل الله عزّ وجلّ عليك أعظم؟ قال: آية الكرسي. ثمّ قال: يا أبا ذرّ، ما السموات السبع مع الكرسي إلاّ كحلقة مُلقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحلقة[503].» واستمرّ في المقارنات الطوال بين الكرسيّ والعرش وبيّن استواءَ الله على العرش واستواءه على الكرسي، وأجاد في وسع كرسيّه السماوات والأرض. والناس يردّدون بعد كلّ مقطع: الله، الله، الله. ولمّا رأى أنّه بلّغ ما بلّغ، قال لهم خاتماً كلامه بما كان من أمره مع النبيّ وقد التقاه في المسجد وحده: «دخلتُ المسجد وإذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالس وحده، فجلستُ إليه، فقال: يا أبا ذرّ، إنّ للمسجد تحيّةً، وإنّ تحيّته ركعتان، فقم فاركعهما. فقمتُ فركعتهما[504].» وإنّي يا أهل الصُّفّة ويا مَن اختلط بنا من ضيوف جاؤوا يؤدّون واجب العزاء في الرسول المسجّى حتى الآن، أدعوكم إلى أداء تحيّة المسجد، فقوموا فصلّوا ركعتيْن.

استجاب الناس للدعوة الكريمة وصلّى كلّ واحد منهم ركعتيْن تحيّةً للمسجد، من غير إمام أو خليفة، وأبو هريرة باهتٌ، وبلال باهتٌ مثله، ثمّ قاما وصلّيا ركعتيْن للمسجد حتى لا يُقال قد خالفا الجماعة.

19

انتبهت النساء في الحظيرة الغنّاء وانتبه العبيد والموالي والإماء إلى أنّ عائشة وحفصة وسودة انتقلنَ من بيت عائشة إلى بيت حفصة خلسة. وقد تمّ ذلك على مراحل حيث انتقلت حفصة إلى بيتها، وهذا عاديّ فالبيت بيتها. ثمّ لحقت بها سودة وكأنّها تطلب منها حاجة، ولكنّها أبطأت ولم تعد بالحاجة التي تطلبها عادة النساء من النساء. ثمّ لحقت بهما عائشة تحمل صرّة شدّتها بوكاء وكأنّها ستقيم عند حفصة ليلتها. وظلّ النبيّ وحده، مُسجّى في بيت عائشة، حيث يسهل، إذا شاء الله ذلك، بعثه وقيامته في غفلة من الناس.

حَسِبَ الناس الذين ما زالوا يؤمنون بالبعث، أنّ النبيّ سيُبعث من غد، فقد مضى عليه يومان وهو سيُبعث بلا شكّ في اليوم الثالث، مثل أخيه عيسى. وقد بدأ، والحقّ يُقال، هذا الاعتقاد يضعف بعد أنْ جاءت الأخبار بانتصاب أبي بكر خليفة، وأصبح مجرّد التفكير فيه يُسبّب حَرجاً للمعتقد فيه. فلو بُعث النبيّ لكان ذلك سابقة في الجزيرة التي لم تعرف، لا في جاهليتها ولا في إسلامها، بعثاً بعد موت وتنصيب شيخ على القبيلة رئيساً أو بَيعة لخليفة. ثمّ ماذا يفعل أبو بكر في هذا الوضع بالذات؟ أيتخلّى للنبيّ عن مكانه ويعود النبيّ حاكما وإماماً كما كان، أم يحتجّ بأنّ الناس اختاروه وبايعوه بالإجماع ولا يُمكن أنْ يَخيب ظنّهم فيه؟ تجمّدت أذهان الناس، وتفادت التفكير في مثل هذا الأمر. مارية وحدها كانت تنتظر ذلك بفارغ الصبر. تنتظر أنْ يرجع إليها زوجها حتى لا تعود أمَة كما كانت، والناس لا يعرفون في ذلك الوقت ما هي أحكام الأمَة التي أعتقها ابنها[505] ثمّ مات عنها ابنها، ثمّ مات عنها زوجها، أتبقى حرّة أم ترجع سيرتها الأولى، أمَة كما كانت؟

أحكمت حفصة إغلاق باب بيتها عليها وعلى ضيفتيْها وكأنّها تخاف أنْ تتسرّب أصواتهنّ إلى الخارج وتصل حيث لا يجب أنْ تصل، وخاصّة

بيت زينب حيث ما زالت في صُحبتها جُويرية وصفيّة ومارية القبطية، وقد غادرتهنّ أم سلمة وميمونة وأم حبيبة إلى بيت أمّ سلمة. أمّا أسماء بنت عُميس فعادت إلى بيتها بمجرّد أنْ جاءت الأخبار بالبَيعة لأبي بكر، فهي إحدى زوجاته، وعليها واجب العودة إلى بيتها وقد اعتلى زوجها سدّة الحكم، رغم أنّها كانت تعرف أنّه لن يقصد بيتها بل بيت بنت خارجة زوجته في السُّنح، وهي من آل الحارث بن الخزرج من الأنصار بعوالي المدينة. ثمّ هي خافت في هذا الظرف بالذات أنْ تُظنّ به الظنون إذا ظلّت في بيت الرسول مع ميمونة أختها وأمّ سلمة وهما يُفضّلان علياً على أبي بكر. ثمّ، هي نفسها لم تكن تُخفي هواها لآل البيت، وقد كانت تحت جعفر بن أبي طالب قبل أنْ تُصبح تحت أبي بكر، وقد ظلّ جعفر حاضراً فيها باستمرار، فكانت لذكراه تتردّد على بيت الرسول عمّه، وتزور عليّ بن أبي طالب أخيه، ولمّا تُوفّي عنها أبو بكر سارعت إلى الزواج من عليّ ولم تتردّد في ذلك أبداً.

كانت مارية القِبطية سعيدة جدّاً بوجودها في بيت من بيوت أزواج الرسول حيث كان الرسول. كم تمنّت أنْ يكون لها بيت هنا وتعيش في حظيرة أزواج الرسول مع ضرّاتها، تماماً كما يكون الأمر في بيوت المزواجين. ولكنّ عائشة شاءت ما لم تشته مارية، فحوّلها الرسول إلى بعيد. أرادت أنْ تستغلّ هذه الفرصة وتتعرّف إلى ضرّاتها وتُصبح لبعضهنّ صديقة أو صفيّة إنْ أمكن. فهي لا تعرف جُويرية مثلاً، ولم ترها إلاّ في هذه المناسبة، وتجهل اسمها، ولم تسمعها تتكلّم منذ انضمّت إلى الحلقة. لاحظت أنّ كلّ شيء فيها يدلّ على الأخلاق الحميدة والآداب الراقية والرقّة في السلوك. وكانت جويرية فعلا «امرأة حُلوة مُلاّحة، لا يراها أحدٌ إلاّ أخذت بنفسه[506]» وقد أخذت بنفس مارية مثلما أخذت بنفس النبيّ من قبلُ. ورغم تفضيل مارية الصمت على الكلام فإنّها رأت في هذه المرّة أنْ عليها ألاّ تُفوّت هذه الفرصة فتتعرّف إلى هذه الزوجة، وإنْ قليلاً.

توجّهت مارية بالكلام المباشر إلى جُويرية، وقالت لها ببساطة شديدة: أنت جميلة، فما اسمك؟ ضحكت زينب وصفية. وابتسمت جُويرية بحياء وودّ أيضاً. ثمّ قالت: كان اسمي بَرّة فسمّاني الرسول جُويرية. فقالت مارية على الفطرة: يا خسارة، بَرّة اسم جميل، فلماذا غيّره؟ أجابتها جُويرية: كان

يخاف أنْ أقول: أنا بَرّة، فيشعر أنّي أزكّي، وهو يكره الإنسان إذا ما ازكّى، وكثيراً ما يذكر أنّ الله قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى[507]﴾ وكان يكره أنْ يُقال: خرج من عند بَرّة[508].

أعجب هذا الكلام مارية، وكانت، على حداثة عهدها بالإسلام واللغة العربية التي تتكلّمها الزوجات والنبيّ، شغوفاً باللغات والأديان. كان ذلك فيها منذ كانت عند المقوقس الذي كان يفرض على أهل القصر، أحراراً وعبيداً، تعلّم اللغات والأديان، كما ذكرنا لكم ذلك سابقاً. ولمّا التحقت بالنبيّ علّمها العربية وأقرأها ما شاء الله من القرآن. ورغم أنّها ما زالت تجهل بعض الكلام ولا تفهم كلّ الآيات فإنّها فهمت عن جُويرية ما قالته، وأعجبها لفظ بَرّة الذي استنتجت بحكم معرفتها بالاشتقاق أنّه من جنس بَرّاً بالوالديْن والبرّ والإحسان. وأسفتْ لكون النبيّ بدّل بَرّة بجُويرية، ولم تفهم الحكمة من وراء ذلك، واكتفت بالقول: أنت جميلة واسمك جميل. فضحكت زينب وصفيّة. وضحكت هذه المرّة جُويرية وشكرت مارية وشدّت على يدها شدّاً قويّاً. وضحكت مارية أيضاً.

خافت زينب أنْ يعلو الضحك ويتجاوز باب بيتها إلى حيث لا يجب أنْ يصل، فأسرعت إلى القول: الله يقدّر الخير! وأعادت النساء: الله يقدّر الخير! ولكنّ هذا لم يمنع مارية من مواصلة البحث والتقصّي لمعرفة جُويرية معرفة جيّدة، فقالت لها: أنت عربية؟ لم تستطع النساء مع الضحك صبراً، فضحكن بلا هوادة وقد فاجأتهنّ مارية بسؤالها الحكيم. سارعت مارية إلى الاعتذار بلسانها العربي الذي ما زال يحمل آثار قِبطيّتها الجميلة، وقد ظنّت أنّها أخطأت التعبير أو أتت شيئاً محظوراً فأدّى ذلك إلى الهزل والضحك والكوميديا. ولكنّ زينب طمأنتها، وقالت لها: لا عليك يا مارية، مجرّد ضحكة لم نستطع كتمها. فاجأنا سؤالك. لم نتعوّد أنْ نُسأل مثل هذا السؤال، وقد سرى فينا الاعتقاد أنْ لا وجود لجنس آخر غير العرب في البلاد. هو الجهل ينخر فينا ليس غيرُ. ودليل جهلنا وجودك بيننا ووجود صفيّة إلى جنبك. وأنهت الكلام وقفلت فاصل الضحك.

أخذت جُويرية الكلمة بعد أن اقتربت من مارية بحيث مسّتْ ركبتُها ركبتَها، وقالت: سأروي لك مَن أنا يا مارية، وإنّي لسعيدة بذلك، وسعيدة بك بيننا.

احمرّ وجه مارية، وسالت من عينيها دمعتان فرحاً لم تعرفه فيها أبداً. ابتسمت لها جُويرية، وقالت: أنا جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن المصطلق من خزاعة، وكان الحارث أبي سيّد قومه. ثمّ حارب رسول الله قومي في يوم المُريسيع، وقتّلوا رجالنا وسبوا نساءنا، وكنتُ في السبي.

صاحت مارية القِبطيّة: مسكينة، والله، مسكينة! ارتجف صوت جُويرية بالكلام وأصابتها غصّة واغرورقت عيناها بالدموع. وضعت مارية ذراعها على كتفيها بحركة عفوية، ثم سحبتها، فمن يدري؟ ولكنّ جُويرية ضمّتها إليها، فأعادت ذراعها حيث وضعتها. وشعرت بالسعادة. لم يعد يهمّها الجواب عن سؤالها ولا مَنْ هي جُويرية. شعرت بأنّ الودّ جمع بينهما في تلك اللحظة، وبكت مثلها، وتمنّت لو قبّلتها. تدخّلت زينب تُخرج الموقف من تراجيديا المصير وتعود بالأشياء إلى بيت الرسول، قالت: سأروي لك يا مارية قصّتها، وما كان من أمرها مع النبيّ، لمّا خاطبته فأخذت بنفسه فتزوّجها، وكلّ ذلك عن عائشة التي روت لنا القصّة، لا أزيد ولا أنقص شيئاً، وكانت عائشة غيوراً منها، كما هي غيور منّا جميعاً. ابتسمت جُويرية قليلا، وابتسمت مارية مثلها، واسترسلت زينب تروي قصّة جُويرية والنبي، قالت: «عن عائشة قالت: أصاب رسول الله نساء بني المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهما فوقعت جُويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري وكانت تحت ابن عم لها يقال له صفوان بن مالك بن جذيمة ذو الشفر فقتل عنها فكاتبها ثابت ابن قيس على نفسها على تسع أواق وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه فبينا النبي صلّى الله عليه وسلّم عندي إذ دخلت عليه جُويرية تسأله في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها على النبي صلى الله عليه وسلم وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جُويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت، فوقعتُ في سهم ثابت بن قيس، فكاتبني على تسع أواق، فأعنّي في فكاكي. فقال: أو خير من ذلك؟ فقالت: ما هو؟ فقال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك. قالت: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله: قد فعلت. وخرج الخبر إلى الناس فقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسترقّون؟ فأعتقوا ما كان في

أيديهم من سبي بني المصطلق فبلغ عتقهم مائة أهل بيت بتزويجه إياها فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها[509].» وأضافت زينب، من عندها هذه المرّة لا نقلاً عن عائشة: وقد تزوّج النبيّ جُويرية التي سباها بعد أنْ تزوّج زينب[510] التي هي أنا، مباشرة بعدي، لا تفصل بيننا ضرّة، ولعلّ ذلك وطّد الودّ بيننا. ابتسمت جُويرية لإقحام زينب نفسها في القصّة وإضفاء شيء من الفَكَه عليها. وابتسمت مارية، وأمالت رأسها استحساناً، وقالت: يا لها من قصّة! وقد سرّتها جُويرية وأصلها العربيّ الأصيل، رغم أنّها لم تفهم بعض العبارات المستعملة في القصّة وكأنّها لم تصدر عن زوجات النبيّ بل عن قاصٍّ بارعٍ حَذِقٍ، مثل عبارة: «فأعطى الفرس سهمين والرجل سهما» وعبارة: «فكاتبها على نفسها على تسع أواق» وعبارة: «دخلت عليه تسأله في كتابتها» وعبارة: «أؤدي عنك كتابتك» ولكنّ هذا لم يُفسد على مارية سرورها، فواصلت البحث والاستقصاء سائلة: كم عمرك يا بَرّة؟ وأضافت قبل أنْ يضحكن منها: أعرف أنّه لا يليق سؤال المرأة عن سنّها، ولكنّا نساء فيما بيننا، ولا حَرَجَ. أجابتها جُويرية بعد أنْ ضحكت نصيباً مع زينب وصفيّة والتحقت بهنّ مارية وضحكت أيضا، فقالت: كان عمري لمّا تزوجني عشرين سنة لا تزيد[511]، وكان ذلك حسب حفّاظ التواريخ والمغازي سنة ستّ من قدومه المدينة، فيكون عمري اليوم يا أُخيّة، أربع وعشرين سنة ليس غيرُ. فصاحت مارية: يا الله! لنا نفس السنّ. فأنا جئت من مصر المحروسة لا يتجاوز عمري ثماني عشرة سنة، بعد الحُديبية بمدّة[512]، فسنّي مثل سنّك تقريباً إلاّ بضع سنين، كما تعلمين. وقد اتخذني النبيّ بالملك يوم قدومي، ولم يعتقني غير ابني لمّا أنجبته وما مضت عليّ إلاّ أشهر الحمل عند النبيّ. رحم الله إبراهيم ابني[513]، كان روحاً من روحي. وأجهشت بالبكاء وأصابتها غصّة فلم تزد على ذلك شيئاً. رقّت النساء لحالها فواسينها وعزّينها في إبراهيم الذي لم يسبق لهنّ أنْ عزّينها فيه لوجودها في مال للنبيّ بالعالية كان من أموال بني نضير، لا يدخل عليها فيه غير النبيّ ومابور وأمّ رافع. فاغتنمنَ هذه الفرصة وأدّينَ واجب العزاء، وبكيْنَ لبكائها، ثمّ تذكّرنَ زوجهنّ النبيّ المسجّى قريباً منهنّ، فبكيْنَ جميعاً. ولمّا أُسري عنهنّ بتن يتذاكرن أخبار البيت النبوي التي لا تعرفها

مارية، وأظهرنَ لها من الودّ الصادق ما سرّها، فشعرت، لأوّل مرّة منذ وطئها النبيّ، بالانتماء إلى حظيرة الزوجات الغنّاء.

وفي البيت المجاور كان الجوّ للسياسة لا لتبادل الودّ والرواية والقصّ. ما إنْ أحكمت حفصة إغلاق باب بيتها حتى أجلست ضيفتيْها على فراش على أرض البيت عليه أرائك من وبر، وأخرجت من جراب كان عند الزاوية حفنة أو حفنتيْن من التمر ودسّته في صحفة من فخار ووضعتها أمام ضيفتيْها ثمّ أتت بإناء فيه شراب وجلست إليهما، وقالت: منذ يوميْن لم نُصبْ شيئاً، رحم الله النبيّ، لا بدّ من سدّ الرمق. وأمرّت الصحفة بين سودة وعائشة وشخصها المفدّى، وأخذن منها ما كتب. وأكلن وشربن لسدّ الرمق. وتحدّثن في السياسة.

افتتحت عائشة الجلسة، قالت: إنّي خائفة يا حفصة، لا أدري ما سبب ذلك، ولكنّي خائفة. أشعر بضيق في صدري واضطراب في ذهني وسرعة في دقّات قلبي وتكلّس في عضلاتي. أشعر بالكآبة والإجهاد. أشعر كأنّ خطراً يُداهمني. أجابت حفصة في الحين: كلّ هذا يا عائشة؟ خفّفي الوطْء أرجوك. وممَّ تخافين الآن وقد اعتلى أبوك سدّة الحكم مكان زوجك، وأبي واقف إلى جنبه؟ فقالت عائشة: وهذا ما يُخيفني يا حفصة. أنت تعرفين أبي، رجل رقيق الحسّ، صافي النيّة، صدّيق في كلّ شيء، وتعرفين الناس من حوله، والأعداء في كلّ مكان، فقد يكيدون له ويوقعون به فأخسر أبي مثلما خسرتُ زوجي. فأجابتها حفصة: لا خوف بعد اليوم يا عائشة. أنا كنتُ مثلك أمس، خائفة من المجهول، خائفة من المصير، خائفة من الأنصار أنْ يغلبونا ويُنصّبوا علينا خليفة منهم، وننحدر إلى أسفل سافلين ونفقد العزّ الذي كان معنا لمّا كان الرسول، بفضل ما أوتي من سلطة في الدنيا والدين. أمّا الآن وقد أفحم القومُ الأنصارَ وبايع الناس فلا خوف ولا هم يحزنون. أجابت عائشة: لا يُخيفني الأنصار يا حفصة، فالأنصار أوس وخزرج، شقّان لا يلتقيان، والأمر محسوم منذ البداية. والأنصار أهل أصول يقدّمون الضيف على أنفسهم كما تعلمين، وأهل دراية بالأمور، يعرفون أنّ أهل النبيّ أولى بخلافته، ويُعطون كلّ ذي حقّ حقّه، وإنْ أظهروا العكس. ثمّ لا تنسيْ يا حفصة أنّ أبي صهرهم وهم لا يُضيّعون الصهر. فبنت خارجة زوجه منهم، وهي من الخزرج مثل سعد بن

عبادة، وأبي يسكن منازلهم في السُّنح. والأنصار جميعاً يكنّون لأبي بكر الودّ، ويُكبرونه، لأنّه الوحيد من بين المهاجرين الذي تزوّج منهم، وهو ما لم يفعله النبيّ نفسه إذ تعلّل بغيرة نساء الأنصار ولم يتزوّج من الأنصار[514]، في حين تزوّج من غيرهم من القبائل ومن السبي والجواري. فأبو بكر يعرفهم جيّداً، وهم أهله. وهم يعرفون أنّه فضّل بنت خارجة على زوجاته جميعاً وأقام عندها لا يلوي على شيء. فإذا كان فضّلها على غيرها من زوجاته وسكن إليها من دونهنّ ولم يخن لها عهداً فإنّه لن يخون أهلها الأنصار أبداً. ولا تغرّنّك بعض الأصوات التي نادت بسعد بن عبادة خليفة فذلك من باب المناورة والمخاتلة ليفوزوا بأكثر المناصب من بعدُ وقد تولّى أبو بكر الخلافة. وتلك ألاعيب السياسة.

بُهتت حفصة. وبُهتت سودة. فما قالته عائشة من كلام يُعدّ خطاباً في السياسة وحذقاً لها وتحليلا يدخل في باب دراسة الواقع واستشراف المستقبل. كانت حفصة وسودة تعرفان براعة عائشة في الغيرة والكيد للنساء والفوز بالقسط الأوفر من النبيّ، ولكنّهما لم تعرفا فيها هذه القدرة على التحليل والتمييز بين العناصر الداخلة في أمر السياسة. تكلّمت سودة وقالت: والله، يا عائشة معك ألف حقّ وحقّ. فالأنصار يبحثون عن سند قويّ ليقووا به مثلما مكّنهم من ذلك النبيّ، وأعتقد، رغم قصوري في هذا المجال، أنّهم راهنوا على أبي بكر، وهو مَنْ هو لدى النبيّ ولديْهم جميعاً، فقد أصبتِ، والله. وأضافت حفصة بإتقان: نعم، مبرّراتك مقبولة، والله. ولكنّك نَسيتِ أمراً ذا بال، نَسيتِ أنّ أبي، عُمر بن الخطّاب، تزوّج هو أيضاً من الأنصار. ولا أحد غيرهما من المهاجرين تزوّج من الأنصار[515]. وإذا كان أبوك تزوّج بنت خارجة من الخزرج فإنّ أبي تزوّج بنت ثابت من الأوس، فجمع أبوك حوله الخزرج الذين تزوّج منهم، أمّا الأوس فقد جمعهم حوله زواج أبي منهم. فانظري يا عائشة كيف جمع الله بين أبي بكر وعُمر ولم يُفرّق. ثمّ أضافت: فما الذي يُخيفك، يا أختاه؟ فردّدت عائشة بسرعة: الآخر، يا حفصة، الآخر. فقالت حفصة: أي آخر؟ تدخّلت سودة وأجابت مكانها: عليّ بن أبي طالب طبعاً. ألا تعرفين أنّ عائشة لا تذكر اسمه أبداً[516]؟ ضحكت حفصة وقالت: وماذا يُخيفك من الآخر؟ أجابت: سيرفع شعار آل البيت ويقول إنّه أولى

بها من أبي بكر. وقد أخبرتُ أنّه حمل فاطمة على حمار واصطحب ابنيْه وخرج يطوف على الأحياء. قالت حفصة: والله لن يكون ذلك وأبي إلى جنب أبيك. ألا تعرفان شدّة عُمر؟ والله، سيقيمها حرباً شعواء عليه. تدخّلت سودة، وقالت: لقد تمّت البَيعة ولن يتراجع الناس في الأمر، فإذ بايعوا أبا بكر أعطوه عهدهم، والعهد عندهم من الحرمات التي لا تُنتهك. لا تخافي يا عائشة، أصيبي نصيباً من الراحة الآن، وغداً يكون الخلاص، بإذن الله.

20

التحقت أمّ رافع عند المساء بحظيرة العبيد والإماء والموالي التي غادرتها منذ طلوع الفجر إلى بيتها القريب من هنا، لقضاء بعض شؤونها وشؤون أبي رافع زوجها ورافع ابنها الذي تكنّت به وتكنّى به بعلها، وقد فضّلا البقاء في منزلهم المتواضع على الاختلاط بأهل طبقتهم في بيت الرسول. وأمّ رافع هي سلمى مولاة النبيّ[517]، أو هي مولاة صفيّة بنت عبد المطّلب عمّة النبيّ، وضعتها في خدمة ابن أخيها فصارت مولاته.

وكانت أمّ رافع شخصيّة فذّة نادرة الوجود، عجوز لا عُمر لها بالتحديد، ولكنّ الناس يعرفون أنّها عجوز من الدهر الأوّل واكبت أحداثاً قديمة لا يعرفها أغلب العبيد والإماء والموالي في بيت الرسول. وهم جميعاً يُحبّون أمّ رافع ويعتبرون أنّ المثل السائر الذي ارتقى به الناس إلى مرتبة الحديث: العقل السليم في الجسم السليم، جُعل خصّيصاً لها. فهي لم يؤثّر فيها الزمن ولا أثّرت فيها الحياة القاسية التي عاشتها، فحافظت على استوائها رغم قامتها الطويلة، وخلا وجهها من التجاعيد الكثيرة. وكانت تنهض بجميع الشؤون خارج البيوت وداخلها، من غير كلل أو ملل أو تعب، وتجري إذا دعتها الحاجة إلى الجري، وتقفز قفزاً كالغزال، وتحمل على ظهرها الحمل الثقيل، ولا تتوجّع ولا تئنّ. وكانت سليمة المدارك العقلية، حصيفة الرأي، يستشيرها الناس، عبيداً وإماء وموالي ووجوهاً وحرائر، في شؤونهم، إنْ سرّاً وإنْ علناً. وكانت لا تبخل على أحد باستشارة خاصة إذا تعلّق الأمر بخطبة أو قبالة مولود أو طهارة أو جماع. وكانت تسعى بالسفارة بين الناس، وتعدّ جثامين النساء إلى مثاويهنّ الأخيرة بالغسل والتحنيط والتجهيز[518]. ونظراً إلى أنّ هذه المهامّ التي تنهض بها أمّ رافع كثيراً ما تتحوّل إلى قصص تشحذ خيال الناس فإنّ أمّ رافع كانت مطلوبة في النوادي الخاصّة والاجتماعات

المرتجلة لتقصّ أسرار الآخرين في الميلاد والموت والخطبة والخيانة وغير ذلك من أشياء الناس الخاصّة التي تطّلع عليها بحكم إسدائها هذه الخدمات.

وكانت تعتبر نفسها من آل البيت وتفخر على الناس بكونها القابلة الرسميّة لدى العائلة النبوية الشريفة. فهي التي قبلت خديجة بنت خويلد في ولادتها إذا ولدت من رسول الله، وكانت تعدّ لها قبل ذلك ما تحتاج إليه، وقبلت مارية أمّ إبراهيم بإبراهيم ابن رسول الله، وقبلت فاطمة بنت رسول الله ببنيها جميعاً[519]. ولكنّ فخرها الذي لا يُضاهيه في الناس فخر تستمدّه من السفارة التي جرت بها بين النبيّ وزينب بنت جحش. ما إنْ نزل إذن السماء بتزويج النبيّ زينب حتى قال: «من يذهب إلى زينب يبشّرها أنّ الله زوّجنيها من السماء، فخرجت سلمى خادم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تشتدّ، فحدّثتها بذلك، فأعطتها أوضاحاً عليها[520]» وجعلت تلك الأوضاح عليها ولم تفارقها أبداً.

لمّا حلّت أمّ رافع بالمكان حيّاها الحاضرون بأجمل تحيّة كانت متداولة في ذلك الزمان وهم يمنّون النفس أنْ تكون على أحسن ما يرام فتقصّ عليهم بعض القصص الجميلة. فأمّ رافع تقصّ إذا لفّتها السعادة، وتصمت إذا كانت غضبى أو ضربها أبو رافع زوجها الذي لا تتحمّل منه ذلك فترفعه إلى النبيّ فيصدر أحكامه لصالحها. وقد بدت أمّ رافع ليلتئذ على خير حال، فردّت التحيّة بحرارة، وسألتهم عن أحوالهم بالجملة، وخصّت أمّ أيمن بتحيّة الإكرام والتبجيل وبالسؤال المفرد عن أحوالها. فأمّ أيمن قريبة منها، وقاسمتها الماضي وتقاسمها الحاضر، وتخدمان معاً النبيّ وأزواجه وأهله أجمعين، بتفان وشغف، وتكنّان له الحبّ الكبير. وبعد أداء واجب التحيّة والسؤال مراراً عن الأحوال، جلست أمّ رافع جنب أمّ أيمن تمسّ ركبتُها ركبتَها.

كنّ في تلك الساعة نساء لا ذكرَ بينهنّ. فقد غاب سفينة منذ الصباح بعد أنْ لازمهنّ طويلاً. خرج يتصيّد الأخبار كعادته في المآتم والأعراس وفي الأيام العادية أيضاً. وغاب شقران وثوبان ورباح أيضاً، لعلّهم خرجوا في مهمات لبعض السادة أو السيدات. وغاب النكرات من العبيد الذين لا تُسمّيهم الأخبار أبداً لأنّهم لا يُشاركون في الحياة العامّة ولا ينقلون الأخبار

ويكتفون بالخدمة تلو الخدمة وأكل لقمة سدّ الرمق، وهم في الطبقة ما دون السفلى في درجات الخدم. ولمّا كنّ نساء ليس غيرُ في هذه اللمّة التي يندر أنْ تتكرّر، تحدّثن في شؤون خاصّة أو حضرنها سرّاً. شعرن بالحرّية وهنّ بينهنّ، رغم أنّ حظيرة العبيد والإماء والموالي لا تعرف الفروق بين الذكور والإناث، وذكورها من الخصيان في أغلب الأحيان، فيستوي فيها الجنسان، ويتذاكرون الأخبار في كلّ المواضيع من غير حشمة أو حياء، حتى وإنْ كانت على علاقة بالجماع والنكاح واللواط وغير ذلك من الأمور التي يُدمن عليها المستمعون. ومع ذلك فقد شعرن بالقيد انكسر فأطلقن العنان للحديث على عواهنه كما تُطلق الخيل سيقانها للريح إذا ما قطّعت الشُّكُل.

وكانت في جمع النساء من الإماء والموالي بركة أم أيمن وقد مرّت بنا من قبل، وسلمى أم رافع التي نحن بصددها، وخُليسة مولاة حفصة التي مرّ ذكرها، وسُديسة مولاتها أيضاً، وخَضِرة، ورضوى، وميمونة بنت سعد، وخولة، ورزينة خادمة صفيّة، وعنقودة أم مليح الحبشية جارية عائشة، وليلى مولاتها، وفروة ظئر النبيّ، وميمونة بنت أبي عسيب، وأمّ ضميرة زوج أبي ضميرة، وأمّ عياش، وأخريات لم تسمّهنّ الأخبار[521].

وكانت ميمونة بنت سعد[522] أجسرهن على الإطلاق، وأكثرهنّ رواية للحديث، وأكثرهنّ سؤالاً للنبيّ، لم تترك شيئاً إلاّ سألته عنه حسب ما أشاعت هي، وما شاع عنها أيضاً. فكانت لهذه الأسباب تُسأل عن كلّ شيء وتقبل السؤال برحابة صدر، وتجيب عن كلّ سؤال، فلا تتمنّع كما يفعل غيرها، ولا ترى حرجاً في الخوض في أيّ موضوع كان. فكانت الحلقات تبدأ بسؤالها هي، تمهيداً للوصول إلى غيرها ممّن يتوفّر على معرفة حقيقية أو يكتم سرّاً فيراد معرفته. وقد توخّت حلقة النساء اليوم هذه السياسة، فبدأت بسؤال ميمونة بنت سعد تمهيداً للمرور إلى أمّ رافع. فبادرت إليها عنقودة، وكان اسمها عنبة فسمّاها النبيّ عنقودة[523]، ولم تذكر الأخبار سبب ذلك، ولعلّ الأمر يعود إلى إيهام العنقود بالتشابك والتدلّي من الدالية فتكون الصورة أجمل لما تحمله من عناصر مكوّنة كجني الثمر والفوز بالكثرة، في حين تظلّ العنبة لمضغة واحدة أو مصّة ثمّ تفنى، والله أعلم. ولكن تلك قصّة أخرى. المهمّ أنْ نذكر أنّ عنقودة، أو عنبة القديمة، بادرت بسؤال ميمونة بنت سعد

فقالت لها: حدّثينا يا ميمونة العزيزة عن سؤالك رسول الله أنْ يُفتيك في كلّ شيء فأفتى وحدّثت عن الفتوى وأنا لم يسبق لي أنْ سمعت بذلك منك.

كان السؤال بمثابة إشارة الانطلاق فانطلقت ميمونة تروي لا تلوي على شيء وهي تعرف أنّ عنقودة سمعت الفتاوى من قبل، ولكن هذا لا يهمّها أبداً. قالت: جئته يوماً ففضا لي وسألني حاجتي فقلت: يا رسول الله، أفتنا عن الصلاة، فأفتى. ثمّ قلتُ: يا رسول الله، أفتنا عن الصوم، فأفتى. ثمّ قلتُ: يا رسول الله، أفتنا عن الصدقة، فأفتى. ثمّ قلتُ: يا رسول الله، أفتنا عن بيت المقدس، فأفتى. ثمّ قلتُ: يا رسول الله، أفتنا عن السرقة، فأفتى. ثمّ قلتُ: يا رسول الله، أفتنا عن عذاب القبر، فأفتى. ثمّ قلتُ: يا رسول الله، أفتنا عن الغسل من الجنابة كم يكفي الرأس من الماء، فأفتى. ثمّ قلتُ: يا رسول الله، أفتنا عن الصوم، فأفتى. ثمّ قلتُ: يا رسول الله، أفتنا في ثمن الكلب، فأفتى. وذكرت قائمة طويلة بأسئلتها وقائمة بالفتاوى الطويلة التي جاد بها عليها الرسول، وأطالتها بالتفاصيل والتفاسير[524].

ورغم ما كان لهذه الفتاوى من أهمّية في حياة الإماء والموالي من النساء، فإنّهنّ اشتقن إلى أحاديث أكثر فضحاً لمشاعر الناس وتعبيراً عن خوالج الصدور. فعادت خُليسة إلى ميمونة بنت سعد، وقالت لها: متّعتنا يا ميمونة والله، لا فُضّ فوك! لو حدّثتنا الآن عن إفطار مَنْ قبّل امرأته وحُكم الرافلة في الزينة وولد الزنا، فهي مسائل هامّة في حياة الناس أيضاً، كما تعلمين. فعادت ميمونة تروي وتقول: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَثل الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل الظلمة يوم القيامة، لا نور لها[525].» فصاحت ليلى مولاة عائشة: يا الله! قتلتنا يا ميمونة، وماذا نفعل إذا لم يكن لنا أهل نرفل في الزينة فيهم؟ فضحكت النساء من حولها بما في ذلك ميمونة التي تُعتبر رمز الجدّ ولا تمزح ولا تضحك. واستلقت سُديسة على ظهرها من الضحك وبدا شيء منها فنهرتها ميمونة أنْ قومي من رقدتك يا ابنة الكلب. فازداد الضحك وهنّ يحبسنه ما استطعن، والظرف ليس للضحك كما تعلمون. وسكتت ميمونة كأنّها قرّرت أنْ لا تتكلّم حتى لا تثير الضحك والمزح. ولكنّ خُليسة عادت إليها تقول: لا تنسيْ إفطار مَنْ قبّل امرأته يا ميمونة. فعادت تروي وتقول: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُئل عن

رجل قبّل امرأته صائماً، فقال: أفطر[526].» فسألت ليلى: وإذا قبّل امرأة غير امرأته، أأفطر أيضاً؟ فضحكن حتى بدت نواجذهنّ، وقالت سُديسة: لعنك الله يا عانس. ألا سكتّ؟ وأسرعت ميمونة إلى ولد الزنا تُنهي به مقاماتها فقالت: أمّا عن ولد الزنا فقد «سُئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن ولد الزنا، قال: لا خير فيه، نعلان أجاهد بهما أحبّ إليّ من أنْ أعتق ولد الزنا[527].» وأقفلت الباب على كلّ سؤال بأنْ قالت: لعن الله إبليس، يُدخل ذيله في كلّ شيء. صدق رسول الله، كان خير قائل، وأشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، والسلام. قالت ليلى مازحة كعادتها: يبدو أنّ الحكماء في بلاد الزنوج، القارّة السمراء، يدّعون أنّ الناس جميعاً أبناء زنا. فشتمنها جميعاً، بودّ طبعاً، وعلّقن على كلامها بالقول: كوني وحدك بنت زنا على حكمة الحكماء في إفريقيا، أمّا نحن فجئنا في إطار الشرع وحرمة الفرش، والله أعلم. وضحكن من جديد، وواتى جوّهن السمر.

ثمّ انتقلن إلى أمّ رافع. وهي أهمّ عندهنّ وأبقى. وما ميمونة إلاّ لفتح الشاهية. أمّا أمّ رافع فالطبق الأصل. سألتها خضرة، قالت: كيف يتصرّف أبو رافع معك بعد أن رفعت أمره إلى النبيّ؟ فاجأها السؤال. وبيناً هي تُحرّك شفتيها مُهمهمة تسلّلت رضوى وقالت: وماذا كان بين أمّ رافع وأبي رافع؟ أعلمونا بالأمر ولا تكتمونا السرّ. فقالت أمّ رافع: يا لك من كاذبة! كم مرّة رأيتك وأنا أقصّ القصّة. أنتنّ والله لَمِن صواحب يوسف، كما كان يقول نبيّنا المسجّى. لا تستحين أبداً، ولا تمللن الحديث في الشيء، لا همّ لكنّ إلا الضحك والقهقهة. وأصرّت رضوى على جهلها بالقصّة وأصرّت أمّ رافع على معرفتها بها، وكاد الصراع يتطوّر لولا تدخّل حكيمات الجلسة مثل أمّ أيمن التي قالت: بالله قُصّي عليها القصّة يا أمّ رافع حتى تسكت. ووافقت النساء أمّ أيمن بحماس شديد. ولكنّ أمّ رافع رفضت، فاضطرّت أمّ أيمن إلى فضّ النزاع ورواية القصّة، فقالت: «عن عائشة قالت: جاءت سلمى امرأة أبي رافع مولى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تستأذنه على أبي رافع، وقالت: إنّه يضربني. فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأبي رافع: ما لك ولها يا أبا رافع؟ فقال: تُؤذيني يا رسول الله. قال: بمَ آذيته يا سلمى؟ قالت: يا رسول الله، ما آذيتُه بشيء، ولكنّه أحدث وهو يُصلّي، فقلت له: يا أبا رافع، إنّ رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم قد أمر المسلمين إذا خرج من أحدهم ريح أنْ يتوضّأ، فقام يضربني. فجعل رسول الله يضحك ويقول: يا أبا رافع، إنّها لم تأمرك إلا بخير، وقال: لا تضربها[528].» فعادت خضرة تسألها بطريقة غير مباشرة: وهل أصلح الله حال أبي رافع فتوقّف عن الإحداث في الصلاة وتوقّف عن ضَربك؟ فقالت مبتسمة: أمّا عن الإحداث في الصلاة فوالله لم يتوقّف عن ذلك أبداً. وأمّا عن ضربي فلم يعد إلى ذلك أبداً، وقد أعلمته رسمياً أني أغادره إلى غير رجعة إذا ما عاد إليه، وأصطحب رافعاً ابني معي. فقالت سُديسة: وهل استبدل الضرب شيئاً لذيذاً مُمتعاً، يا أمّاه، كالمداعبة أو الجسّ أو التقبيل مثلا؟ نهرتها أمّ رافع، وقالت: اسكتي يا وجه النحس. ألا تستحي؟ ارتفعت الأصوات تطلب من أمّ رافع أنْ تروي بعض بطولات أبي رافع في الأمر. ولكنّ أمّ رافع اعتذرت وقالت: لا يليق بنا يا بنات أنْ نتكلّم في رجل قد أسنّ ولم يعد يصلح للخدمة، وكان من قبل والله، يا بنات، ليس له مثيل في هذا الأمر. كان يأخذني بعد ما أنتهي من خدمة النبيّ، وكانت خدمة النبيّ عندي أهمّ وأبقى من كلّ أمر، ويربض فوقي ولا يتنحّى إلاّ مع تباشير الفجر عندما أزحزحه عنّي لأصيب شيئاً من الراحة قبل أنْ أقوم إلى خدمة النبيّ. وكان يلهج مُصوّتاً باللذّة كالثور، وأنا من تحتُ أرفل في نعيم الدنيا والآخرة، يا لَلذّة العارمة! سرى الشيء من أمّ رافع إلى البنات في هذه اللمّة، وشعرن بهنّ تحت أبي رافع يرفلن في نعيم الجنّة، وصِحنَ: يا لَلذّة العارمة! وقالت ليلى: يا له من أبي رافع! لعلّه أوتي في الجماع ما أوتي نبيّنا المفضّل. سألت خضرة: وماذا أوتي النبيّ يا ليلى. فأجابتها على الفور: أم رافع أدرى يا خضرة، فاسأليها إنْ شئت معرفة الأمر.

استدرجت النساء أمّ رافع إلى الحديث في القدرة عن الجماع التي أوتيها النبيّ، وكان أمرها قد شاع في الناس، ولكن لأمّ رافع طريقتها الخاصّة في الرواية، فتثير في البنات الشهوة، وهنّ يحببن ذلك كثيراً. وبعد تمنّع كالعادة، انطلقت أمّ رافع تروي ما كان من أمر الجماع، فقالت: كان النبيّ كباقي الرجال في الجماع، وقد أكّدت ذلك أزواجه، وكنّ، إذا ما استثنينا عائشة، قد عرفن الرجال قبله، واستطعن المقارنة. وقد سأل أبو بكر وعُمر أمّ سلمة في هذا الموضوع بالذات، فلم تترك مجالاً للشكّ. ثمّ تغيّر الأمر من بعد، لمّا أخبرت

أمّ سلمة النبيّ وهزأ به الناس بسبب ذلك، فغضب غضباً شديداً وأنجدته السماء بأنْ أنزلت عليه القِدر العجيبة، فأوتي قدرة أربعين رجلاً أو أكثر.

استردّت أمّ رافع أنفاسها، ونفخت صدرها بما حصل لها من هواء، ثمّ قالت: وها التفاصيل، يا بنات السوء، يا صواحب يوسف: «إن أبا بكر وعُمر أتيا أم سلمة فقالا لها: يا أم سلمة، إنك قد كنت عند رجل قبل رسول الله، صلى الله عليه وآله، فكيف رسول الله من ذاك في الخلوة؟ فقالت: ما هو إلا كسائر الرجال. ثم خرجا عنها وأقبل النبي، صلى الله عليه وآله، فقامت إليه مبادرة فرقا أن ينزل أمر من السماء، فأخبرته الخبر، فغضب رسول الله، صلى الله عليه وآله، حتى تربد وجهه والتوى عرق الغضب بين عينيه، وخرج وهو يجر رداؤه حتى صعد المنبر وبادرت الأنصار بالسلاح وأمر بخيلهم أن تحضر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس ما بال أقوام يتبعون عيبي ويسألون عن غيبي؟ والله إني لأكرمكم حسبا وأطهركم مولدا وأنصحكم لله في الغيب ولا يسألني أحد منكم عن أبيه إلا أخبرته فقام إليه رجل فقال: من أبي؟ فقال: فلان الراعي. فقام إليه آخر فقال: من أبي؟ فقال: غلامكم الأسود. وقام إليه الثالث فقال: من أبي؟ فقال: الذي تنسب إليه. فقالت الأنصار: يا رسول الله، اعف عنا عفا الله عنك فإن الله بعثك رحمة فاعف عنا عفا الله عنك. وكان النبي، صلى الله عليه وآله، إذا كلم استحيى وعرق وغض طرفه عن الناس حياء حين كلموه، فنزل. فلما كان في السحر هبط عليه جبرئيل عليه السلام بصحفة من الجنة فيها هريسة فقال: يا محمد هذه عملها لك الحور العين فكلها أنت وعلي وذريتكما فإنه لا يصلح أن يأكلها غيركم فجلس رسول الله، صلى الله عليه وآله، وعلي وفاطمة والحسن والحسين، عليهما السلام، فأكلوا فأعطي رسول الله، صلى الله عليه وآله، في المباضعة من تلك الأكلة قوة أربعين رجلا، فكان إذا شاء غشي نساءه كلهن في ليلة واحدة.[529]»

ارتفعت أصوات النساء في الحلقة بالتسبيح والتكبير والتهليل، وتحرّكت الألسن على الشفاه تنشر البلل وتمسح، وسال منهنّ اللعاب، ونَديَت من تحتهنّ الأشياء. وأمّ رافع في أعلى درجات الغبطة وقد شدّت إليها البنات كما كانت تُسمّيهنّ. فواصلت: ولي في ذلك أخبار أخرى، أسوقها إليكنّ للمتعة،

وهي شبيهة بما ذكرت، ولكنّ التكرار ينفع في الدنيا والدين، وفي الإعادة الإفادة، كما نقول. وقد فسّر رسول الله بصيغ مختلفة ما أُعطي من السماء، أذكرها لكنّ يا بنات كما حفظتها عن الثقات: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كنت من أقلّ الناس في الجماع حتى أنزل الله علي الكفيت فما أريده من ساعة إلا وجدته، وهو قدر فيها لحم [...] قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لقيني جبريل بقدر فأكلت منها وأعطيت الكفيت قوة أربعين رجلا في الجماع [...] وعن النبي صلّى الله عليه وسلّم، قال: رأيت كأني أتيت بقدر فأكلت منها حتى تضلعت فما أريد أن آتي النساء ساعة إلا فعلت منذ أكلت منها[530].»

ثمّ أضافت أمّ رافع مزهوّة: أمّا الآن يا بنات، فأروي لكنّ شهادتي الخاصّة في الموضوع، فأنا خادمة النبيّ في كلّ حين، كما تعلمنَ، وكنت في خدمته كلّما طاف بأزواجه، ورأيت خروجه من عند هذه للدخول عند الأخرى، حتى التمام، وأذكر لكنّ شهادة العيان التالية: «طاف النبي صلّى الله عليه وسلّم ليلة على نسائه التسع اللاتي توفي وهنّ عنده، كلّما خرج من عند امرأة قال لي: صُبي لي غسلا، فيغتسل قبل أن يأتي الأخرى. قلت: يا رسول الله أما يكفيك غسل واحد؟ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: هذا أطهر وأطيب[531].»

ثمّ ختمت أمّ رافع كلامها قائلة: كان رسول الله طاهراً، يا بنات، كما تَرَيْنَ، والله. لم يكن مثلكنّ ينخر فيكنّ الوسخ نخراً. فصاحت البنات في أمّ رافع: هكذا يا أمّ رافع، تعيّريننا بالوسخ، ولولانا ما كانت النظافة. ألسنا نرفع أوساخ الناس جميعاً، يا أمّ رافع؟ ألسنا ندخل على النبيّ الطاهر وأزواجه الطاهرات مثله؟ ألسنا طاهرات مثله ومثلهنّ؟ أليست نظافتهم من نظافتنا وطهارتهم من طهارتنا. ظلمتنا يا أمّ رافع، والله.

ضحكت أمّ رافع، وقالت: إنّي أمزح يا بنات. أردتُ أنْ يفتر فيكنّ الحماس فتَسكتنَ عن طلب المزيد من القصص العجيبة. فقد أتعبتموني والله، وأتعبني الحديث الطويل إليكنّ، ومخاطبتكنّ. فأنتنّ جمع من النساء وخطابكنّ يكون بصيغة الجمع المؤنّث وما يفترضه من كنّ وهنّ وأنتنّ وهلمّ جرّا. وهذا يتعب الخطيب الفصيح، فما بالكنّ بأمّ رافع الفقيرة إلى ربّها في اللغة والخطاب.

ضحكت نساء اللمّة من كلام أمّ رافع البليغ في اللغة والخطاب، وتوقّفن عن سؤالها حتى تصيب شيئاً من الراحة بعد هذا العناء الذي أصابها بسبب الاستعمال الفصيح في الكلام.



وكان صَباحٌ وكان مَساءٌ يَوماً ثالثاً

«اختلفت الروايات في قصّة السقيفة [...] واعلم أنّ الآثار والأخبار في هذا الباب كثيرة جدّاً، ومَنْ تأمّلها وأنصف علم أنّه لم يكن هناك نصّ صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك ولا تتطرّق إليه الاحتمالات»

ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص59



1

قضت المدينة ليلتها، لأوّل مرّة منذ انبعاثها، على أحرّ من الجمر، في حيرة من أمرها، خائفة مُرتعدة، ينخر فيها الشكّ والقلق والخوف، لا تدري ما المصير، تنتظر انبلاج الصبح فقد تتوضّح الأمور.

لمّا عاد عليّ مع تباشير الفجر إلى بيت الزوجية الذي عرف فيه، حتى في أحلك الظروف، شيئاً من السعادة والهناء والحبور أيام الرسول، أسلم ابنيه إلى فضّة النوبيّة فأسرعت بهما إلى النوم وهما يكادان يسقطان من تعب اللفّ والدوران على المهاجرين والأنصار. وطلب من فاطمة أنْ تُصيب شيئاً من النوم والراحة فقد أرهقتها السفرة. وجثا على ركبتيه عند الزاوية يبتهل وكأنّه يستعدّ للصلاة التي نسيها الناس في هذا المصاب الجلل. سالت من عينيّ فاطمة دمعتان حاولت حبسهما ولم تستطع، فأدارت وجهها حتى لا يُلاحظ عليّ دَمعتيْها. ولكنّ عليّاً رأى ما أرادت أنْ تُخفيَ وقال: لا عليك يا فاطمة. إنّ غداً لناظره قريب، وسنرى ما يفعل الناس. قالت له بحنوّ كبير: يا أبا الحسن، قم إلى فراشك عسى أنْ تُصيب شيئاً من النوم، فقد أنهكك الطواف على الناس وسؤال الخلافة. قام إليها عليّ وأخذ يدها في يديْه وشدّ عليها شدّاً قويّاً وقادها إلى الحجرة وأسلمها إلى الفراش. لم يقل لها كلاماً، ولكنّها فهمت عليه في تلك اللحظة حبّه وحنوّه عليها، فانسرى عنها بَعضُ الهمّ، واستلقت على الفراش ولم تقل شيئاً.

ومرّ شريط الأحداث في الذاكرة وشماً لا يَدرسُ!

كانت فاطمة الزهراء[532] منذ نعومة أظفارها ذات حياء، ميّالة إلى العزلة والانفراد، على مُحيّاها شيء كأنّه الحزن يُضفي عليها جمالاً خاصّاً لا يُدركه غير العارف بالجمال. وقد سعت بكلّ ما أوتيت من حيلة إلى أنْ تتستّر على جمالها، ومنعت عن نفسها الزينة. ولكنّ ذلك زادها جمالاً على

جمالها ومكّنها من زينة طبيعية ليس كمثلها زينة وفضح رغبتها في التستّر على الجمال، فسعى إليها غير واحد بالخطبة والرغبة في ضمّها إلى حظيرة حريمه. فعل ذلك عبد الرحمان بن عوف وبذل لها من الصداق مائة ناقة سوداء، زُرق الأعين، مُحمّلة كلّها قباطيَ مصر، ومعها عشرة آلاف دينار. وفعل ذلك عثمان بن عفّان الذي زاحم فيها عبد الرحمان بن عوف وبذل في سبيلها مثل ما بذله وادّعى أنّ أولويته في الإسلام تُكسبه شرعيّة يفتقر إليها خصمه فيها[533]. وفعل ذلك أبو بكر وعُمر وخطبا إلى النبيّ فاطمة مرّة بعد أخرى فردّهما مرّة بعد أخرى، وقال لهما: إنّها صغيرة[534]، وقال لهما: إنّي أنتظر بها القضاء[535]. وانتظر ولم يزوّجها حتى جاءه الأمر بتزويجها عليَّ ابنَ أبي طالب من دون غيره من الصحابة، وإنْ كانوا من ذوي الجاه والمال وأصحاب المناصب المرموقة. وقد تفنّنت القصص في رواية خبر السماء في هذا الزواج العجيب، فجعلت الله يُزوّج علياً فاطمة تحت شجرة طوبى في السماء، وجعلته يُنصّب نفسه في هذا الزواج وليّاً لفاطمة ويتّخذ جبريل خاطباً لها لفائدة عليّ، ثمّ جعلته يوحي إلى محمّد أنْ يُزوّج علياً فاطمة في الأرض اقتداء بما تمّ في السماء. ولمّا غارت النساء في قريش، وحُمّلن حسداً من شأنها، وعيّرنها بأنّ أباها زوّجها من فقير القوم، عليّ هذا، دخلت على أبيها تشكوه حالها وترفع إليه شماتة الشوامت فيها، فتبسّم في وجهها وروى لها ما كان من أمره ذات رمضان في المسجد، إذ جاءه جبريل وأخبره بما قُضيَ من أمر زواجها في السماء[536].

بكت فاطمة لهذا الزواج[537]. لعلّها كانت تصبو إلى زواج خير منه. لعلّها كانت تريد أنْ تبقى في ظلّ أبيها، قريبةً منه، لا تُفارقه، تردّ عليه العدوان وتتصدّى لما يُحاك من ألاعيب النساء من حوله. لعلّها كانت تريد أنْ تكون كمريم العذراء فتبقى بتولاً مثلها وتربط علاقة بالسماء. ولكنّ القضاء الذي أراده لها أبوها كان فوق كلّ اعتبار. فسكتت فزوّجها[538].

لم ينشر هذا الزواج السعادة بالكلّية في حياة فاطمة، بل اجتمعت فيه عوامل نغّصت عليها حياتها. فقد كانت في عليّ شدّة وغلظة يؤلمانها، ولمّا شكته إلى أبيها دعاها إلى التروّي والتعقّل والنزول عند رغبة بعلها ككلّ النساء، ولم تجد فيه السند[539]. وقد اضطُرّت، لافتقارها إلى خادم في بداية

حياتها الزوجية، إلى النهوض بالأشغال المضنية المرهقة، فكانت تغسل وتكنس وتطحن حتى نَفِطَتْ يداها ومَجَلَتْ، ولمّا جاءت أباها تطلب منه أنْ يخصّها بخادم، وقد منّ الله عليه بسبي وسعة، أقسم ألاّ يُعطيها من ذلك شيئاً، وفضّل الإنفاق على أهل الصُّفّة[540]. وكان الفقر مُخيّماً على البيت منذ البناء. فعليّ لا شيء معه إذ ذاك غير درعه الحُطَميّة التي جعلها لها مهراً[541]، وإهاب شاة على دكّان ووسادة فيها ليف وقربة ومُنخُل ومنشفة وقدح[542]. وأبوها لم يُرسل في جهازها غير خملة ووسادة أدم حَشْوُها ليف ورحاءيْن وسقاء وجرّتيْن[543]. ولم يكن للعروسيْن فراش غير إهاب كبش ينامان على ناحية منه، وتعجن فاطمة على ناحية، ويتقاسمانه مع الناضح فتعلف عليه[544]. ولم يكن لهما غطاء غير قطيفة إذا غطّيا بها رأسيْهما تكشّفت أقدامُهما، وإذا غطّيا بها أقدامَهما تكشّفت رأساهما[545]. وغابت عنهما يد السماء التي زوّجتهما. ولم ينعما بالمهر الذي خصّتهما به، نصف الدنيا لؤلؤاً ومرجاناً ورطباً. وداما على تلك الحال حتى جاد عليهما حارثة بن النعمان ببيت لائق[546] وأطعمهما النبيّ بخيبر من الشعير والتمر ثلاثمائة وسق[547]، ومكّنهما من فَدَك التي تنازل له عنها اليهود[548]. فلمّا كان ذلك تحسّنت الحال في بيت الزوجية.

كانت فاطمة صبوراً قنوعاً، رضيت بما كُتب عليها من السماء وما شاء أبوها أنْ يكون، وخدمت زوجها كما تخدم الزوجة زوجها في تلكم الأيّام. فعليّ زوجها، وهو على كلّ حال ابن عمّ أبيها. وعمّ أبيها هذا، هو أبو طالب. وأبو طالب لم يكن بالنسبة إلى أبيها عمّاً كغيره من الأعمام، بل كان رعاه وحماه وردّ عليه سطوة قريش وشدّتها ومكّن له في الأرض. وقد تربّى عليّ في حجر أبيها، وكبر معها في البيت، ونشأ على نفس القيم والخصال التي نشأت عليها، قيم الإسلام وخصاله. نعم، كانت تعتبره أخاً شقيقاً ولم يدر بخلدها يوماً أنْ يكون زوجها، ولكن إذا كان أبوها قد اختاره لها زوجاً فلا بدّ أنْ يكون ذلك ما قسم لها الله وما سطّرت لها السماء.

توقّف شريط الأحداث عند هذه النقطة. فتحت عينيها وبحلقت في سماء الغرفة. تساءلت لأوّل مرّة في حياتها إنْ لم يكن الجمع بينها وبين عليّ، وهما طفلان لا يعقلان، قد تمّ لحكمة في السماء تجهلها؟ تساءلت إنْ لم يكن إفلاس أبي طالب بعد غنى قدراً محتوماً لإجبار أبي طالب على التخلّي عن

ابنه عليّ لمحمّد؟ تساءلت إنْ لم يكن كلّ شيء تمّ ليتربّى الطفلان في بيت النبوّة ويغرفا معاً من نبع النبوّة الذي لا ينضب؟ تساءلت إنْ لم يكن ذلك رعاية من السماء لينشأ عليّ نشأتها، بعيداً عن الأوثان، بعيداً عن الجاهلية الجهلاء. تساءلت إنْ لم يكن زواجها من عليّ فضاء جديداً لتواصل النبوّة السمحاء؟

سكتت. فمهما يكن الأمر، فإنّ عليّاً كان يشقى حتى يشتكي صدره من أجل لقمة العيش[549]، وهو والد أبنائها الذين هم زينة حياتها وحياة أبيها، والذرّية التي ستخلّد ذكرها وذكره. ثمّ إنّ عليّاً لم يتزوّج عليها غيرها من النساء حتى ذلك اليوم، رغم أنّه رغب في العوراء بنت أبي جهل وخطبها، وأنّ بني هاشم سعوا إلى تزويجه بعض بناتهم. لقد سمع في ذلك صوت أبيها وهو يخطب على المنبر ويقول: «ألا إنّ بني هاشم بن المغيرة استأذنوني في أنْ يُنكحوا ابنتهم عليّاً، ألا وإنّي لا آذن، ثمّ لا آذن، ثمّ لا آذن، إنّ فاطمة بَضعة منّي، يُريبني ما رابها[550]»، ويقول: «إلاّ أنْ يريد عليّ بن أبي طالب أنْ يُطلّق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنّها بَضعة منّي، يُريبني ما رابها، ويُؤذيني ما آذاها[551].» ويقول: «وقد بلغني أنّ عليّاً خطب العوراء بنت أبي جهل، وإنّي لا آذن في الجمع بين ابنة رسول الله وابنة عدوّ الله[552].»

ومرّ شريط الأحداث في الذاكرة وشماً لا يَدرسُ!

كثيراً ما عاشت فاطمة في ظلّ الموت والحزن والأسى حتى لكأنّ حياتها ارتبطت بذلك ارتباطاً شديداً. شهدت في مكّة وهي طفلة موت الذكور جميعاً من إخوتها، القاسم والطيب الطاهر وعبد الله. قصفتهم المنيّة وهم صغار. بعضهم فُطمَ ومشى، وبعضهم لم يُفطم ولم يَمش. ورأت حزن أمّها الشديد وقد أيقنت في كلّ مرّة أنّ القدر حرمها من أنْ تُخَلّف لمحمّد الذي اختارته زوجاً ذكراً يرفع شأنه ويُخلّد على مرّ الزمن ذكره. ورأت حيرتها أمام مُصابها في أبنائها وعدم فهمها الحكمة من وراء فقدانهم حتى قبل الفطام وتساؤلها عن مصيرهم. ورأت إذ ذاك محاولات أبيها إقناع أمّها بالمكتوب ومواساتها فيهم والتخفيف عنها بذكر ما كتب لهم الله في الجنّة. ومع ذلك كانت تراه، كلّما فقد ذكراً من أبنائه، حزيناً كئيباً مُلتاعاً لا يُخفي شكواه بل يُسمعها الملأ ويُسمعها الجبال. وقد رأته في جنازة القاسم يصيح في جبل من جبال مكّة

والناس يسمعون: «يا جبلُ، لو أنّ ما بي بك لهدّك[553].» كانت تبكي لبكاء أمّها وتحزن لحزن أبيها ولا تفهم الحكمة من وراء حرمان محمّد وخديجة الذكر من الذرّية الصالحة.

ثمّ ماتت خديجة. يا لَهول الفاجعة!

توقّف الزمن. هرعت فاطمة إلى أبيها تبكي وتنتحب. تعلّقت به. قالت: أين أمّي؟ أين أمّي؟ ضمّها إليه وقال: جبريل يُقرئك السلام ويقول لك: أمّك يا بُنيّة في بيتها الذي بناه لها الله في الجنة من قصب، لا تشقى فيه ولا تتعب[554]. واصلت البكاء. كانت طفلة تحتاج إلى أمّها. لم ينفع معها جبريل الذي اتّخذه والدها سنداً. ولم تنفع السماء والجنة والبيت من قصب. واصلت البكاء. أصابها الحُزن. أصابها الكمد. أصابها الكرب. أصابها الأسى. أصابها الوجوم. ولم تخرج من ذلك أبداً.

بعد ثلاثة أيام مات أبو طالب.

نعم، هكذا. في عام واحد هلكت خديجة وهلك أبو طالب «فتتابعت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المصائب بهُلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، وبهُلك عمّه أبي طالب، وكان له عَضَداً وحِرْزاً في أمره، ومَنَعَةً وناصراً على قومه، وذلك قبل مُهاجره إلى المدينة بثلاث سنين. فلمّا هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب [...] فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يُصلّي، وكان أحدهم يطرحها في بُرمته إذا نُصبت له، واعترضه سفيه من سفهاء قريش فنشر على رأسه تراباً [...] وكان يقول: ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب[555].»

كانت فاطمة يومئذ وحدها إلى جنب أبيها، فقد زُوّجت أخواتها الثلاث وغادرن البيت، هذي إلى أبي العاص، وتانك إلى ابني أبي لهب قبل التطليق. كانت تغسل عنه التراب وتزيل ما علق به من رحم الشاة وفرثها[556] وتبكي[557]. كانت ترى الحزن على أبيها والألم يُقطّع أحشاءه لِما كان يجده من أذى. كانت تسمع شكواه من شرّ جارَيْه، أبي لهب وعقبة بن أبي معيط[558]. وكانت تُخفّف عليه من ذلك بما أوتيت من بأس الأطفال ورباطة الجأش. دخلت

في خدمة أبيها راضية مرضية. ولمّا طلّق أبو لهب أختيها من ابنيه وعادتا إلى البيت ظلّت وحدها تقوم بشؤونه، لا تريد أنْ يُشاركها في ذلك أحدٌ، حتى كنيت بأمّ أبيها[559].

أمّ أبيها. كم كانت تُعجبها هذه الكنية! كانت تشعر، إذا ما دعاها أمّ أبيها، بانتفاء الحدود بينها وبين محمّد أبيها. كانت تشعر، إذا ما دعاها أمّ أبيها، بأنّ شيئاً مقدّساً يجمع بينها وبينه. كانت تشعر، إذا ما دعاها أمّ أبيها، بأنّها فازت وحدها بأنْ تكون أمّ النبيّ في بيته الذي بدأت تكثر فيه النساء. كان يُسمّيهنّ أمّهات المؤمنين ويُسمّيها أمّ أبيها، أمّه إذن، أمّ النبيّ. وشتّان ما بين أمّ النبيّ وأمّ المؤمنين[560]! كانت تشعر، إذا ما دعاها أمّ أبيها، بأنّها قريبة من مريم العذراء التي انتفت فيها حدود الابن والأب لتصبح أمّاً للربّ عند النصارى المؤمنين. وكان أبوها يجمع بينها وبين مريم العذراء، ويجعلهما أفضل النساء[561]. إنّ أباها لا ينطق عن الهوى!

شاءت الأقدار، لحكمة تجهلها، أنْ ترحل أخواتُها جميعاً إلى جوار الله، رقيّة على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجر الرسول، وزينب في أوّل سنة ثمان من الهجرة، وأمّ كلثوم في شعبان سنة تسع من الهجرة[562]. وظلّت وحدها إلى جنب أبيها، ابنةً وأمّاً على حدّ السواء. وكم كانت تتمنّى أنْ تتواصل حياتها هنالك، في بيت أبيها، جنبه، لا يُفرّق بينهما شيء!

ومرّ شريط الأحداث في الذاكرة وشماً لا يَدرسُ!

زوّج النبيُّ فاطمة من عليّ بعد أربعة أشهر ونصف بالتحديد من ابتنائه بعائشة[563]. وكانت فاطمة ترى، لتزامن الحدثيْن، أنّ يد عائشة ليست غريبة عن هذا الزواج الذي تمّ بمقتضاه إخراجها من بيت أبيها وإقصاؤها عنه، ولعلّها قد تكون ضغطت على يد القضاء، بطريقة ما، فيسّرت أنْ يأتيَ الأمر في هذا الزواج من فوقُ. وكانت عائشة حَدثةً، أصغر منها بنحو خمس سنين[564]، فكانت لها عند النبيّ حظوة خاصّة، وكانت مدلّلة عنده. ولعلّه لم يستطع التوفيق في الجمع بينهما في بيته، فالزوجة الحَدثَة كثيراً ما تغار من ابنة زوجها إذا كانت في مقتبل العمر، والبنت كثيراً ما تغار من الزوجة الحَدثَة. تلك سنّة الله في خلقه، ولا مردّ لسنّته. وقد حُمّلت عائشة وفاطمة من ذلك ضَغَناً كبيراً

سرعان ما تفشّى في آل هذه وآل تلك، فحصل عند عليّ ما هو حاصل عند فاطمة، وحصل عند أبي بكر ما هو حاصل عند عائشة. وقد فهم العلماء ذلك من قديم الزمان وعبّروا عنه بشتى التعابير وكفونا ما به يطول الكتاب[565].

ولكنّ زواج فاطمة من عليّ لم يفرّق بينها وبين محمّد. كان يمرّ على بيتها إذا خرج من بيته، ويمرّ عليها مودّعاً إذا خرج في غزو أو حجّ أو حاجة أخرى من غير ذلك، ومُسلّماً إذا عاد من غزوه أو حجّه أو حاجته الأخرى[566]. كان آخر الناس عهداً بفاطمة إذا أراد سفراً، وأوّل الناس عهداً بفاطمة إذا قدم[567]. وكان يُكثر من تقبيلها ويشتمّ رائحتها حتى أنكرت عليه بعض نسائه ذلك فأفحمها بأنّ رائحتها من رائحة الجنّة فإذا اشتاق إلى رائحة الجنّة قبّلها فاشتمّها[568]. وكانت تدخل عليه، رغم تضييق عائشة عليه الخناق وسعيها الدؤوب إلى الفصل بينهما، فيقوم من مجلسه ويُقبّل رأسها ويُجلسها مجلسه، وكانت إذا دخل عليها قامت إليه واعتنقته وقبّلت بين عينيه[569].

كانت فاطمة قريبة من أبيها رغم غيرة عائشة وحَسدها. ها هو الآن قد فارقها، فمَنْ لها يا تُرى؟ ومَنْ له؟ بكت في صمت حتى لا توقظ العيال وتُزعج عليّاً. بكت في صمت رهيب. كأنّ المصائب اتّخذتها خليلا. بكت طويلاً. تذكّرت يوم كان يحتضر إذ قال لها: إنّي مُلبٌّ دعوةَ ربّي، فبكت، فقال لها: لا تبكي يا بُنيّة، فإنّك أسرع أهلي لحوقاً بي، سنلتقي قريباً في جنّة الخلد حيث لا فاصل بيننا، وحيث أنت خير النساء[570]. فضحكت. تذكّرت ذلك وضحكت رغم الحُزن الشديد والوَجْد. شعرت براحة لم تشعر بها قطّ. نامت. أو هكذا خُيّل إليها. رأت رؤيا. انتبهت من رقدتها. صاحت بعليّ فخرج من دعائه وصلاته وأتاها وقال: ما تشكين؟ فأخبرته بالرؤيا، قالت: «بيناً أنا بين النائمة واليقظانة إذ رأيتُ كأنّ أبي أشرف عليّ، فلمّا رأيته لم أملك نفسي أنْ ناديتُ: يا أبتاه، انقطع عنّا خبر السماء. فبيناً أنا كذلك إذ أتتني الملائكة صفوفاً يتقدمها ملكان حتى أخذاني فصعدا بي إلى السماء فرفعت رأسي فإذا أنا بقصور مشيّدة وبساتين وأنهار [...] وإذا قد طلع عليّ من تلك القصور جوار كأنّهنّ اللعب، مستبشرات يضحكن إليّ ويقلن مرحباً ممّن خلقت الجنّة وخُلقنا من أجل أبيها، ولم تزل الملائكة تصعد بي حتى أدخلوني إلى دار فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وفيها من السندس والاستبرق على

الأسرّة الكثير، وعليها اللحاف من الحرير والديباج بألوان ومن أواني الذهب والفضّة، وفيها الموائد وعليها ألوان الطعام [...] فقلت لمن هذه الدار؟ وما هذه الأنهار؟ فقالوا: هذه الدار هي الفردوس الأعلى الذي ليس بعده جنّة وهي دار أبيك ومن معه من النبيين ومن أحبّ الله وهذه هي نهر الكوثر الذي وعده الله أنْ يُعطيَه إياه، قلت: فأين أبي؟ قالوا: الساعة يدخل عليك. فبيناً أنا كذلك [...] وإذا أبي جالس على تلك الفرش ومعه جماعة، فأخذني وضمّني وقبّل ما بين عينيّ وقال: مرحباً بابنتي، وأقعدني في حجره، ثمّ قال: أرأيت ما أعدّ الله لك؟ [...] وقال: وهذا مسكنك ومسكن زوجك وولديك ومن أحبّك وأحبّهما، فطيبي نفساً، فإنّك قادمة عليّ بعد أيام، فطار قلبي واشتدّ شوقي فانتبهت مرعوبة[571].»

ضمّها عليّ إليه وحاول أنْ يُهوّن عليها الأمر ويُبعد عنها شبح الموت، فقال: رحم الله أباك، يا فاطمة، لقد فاز بالفردوس الأعلى، فلينعم بالفردوس! أمّا أنت فحياتك معنا وابناك في حاجة إليك، فهوّني عليك، ولا تفكّري في أمر اللحوق بأبيك. أنت في مقتبل العمر وحياتك كنزنا الذي منه نقتات. ابتسمت لعليّ. شعرت بعطفه عليها. ولكنّ رؤياها ملكت عليها نفسها. لقد رأت بأمّ عينيها مكان أبيها، وسمعت بأمّ أذنيها صوته وهو يقول لها: «إنّك قادمة عليّ بعد أيام.» هذه رؤياها، والرؤيا ليست أضغاث أحلام. وهذا قول أبيها، وهو قول الحقّ الذي لا يصيبه الباطل. سكتت. ظنّ عليّ أنّ الأمور عادت إلى نصابها فعاد إلى دعائه وصلاته.

2

لم يخرج الناس يومئذ إلى حاجاتهم مع تباشير الفجر كعادتهم. ولم يخرجوا إلى الصلاة. أقعدهم الخوف وقد ظنّوا الحظر مضروباً عليهم. وكانت المدينة في تلك الساعة خالية من العسكر إلاّ في الأماكن الحسّاسة: أمام بيت الرسول، وعند باب المسجد، وقبالة السقيفة، هناك، عن بعد لا يُثير الريبة، وفي السُنح حول بيت أبي بكر. وفي غير ذلك لم يلاحظ عبد الله بن عباس عسكراً لمّا خرج خِلسةً من بيت العبّاس أبيه وقصد إلى بيت عليّ بن أبي طالب. خرج رغم أنّ أباه حظّر عليه الخروج. ولمّا تيقّن من خلوّ الجوّ وهو في الطريق، مرّ على بعض البيوت وصفّر أمامها تصفيرته التي تعوّدها أنداده وأترابه فخرجوا إليه حتى اجتمع إليه منهم فريق، فيهم عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمان بن الحارث بن هشام وعبد الله بن جعفر ابن عبد المطّلب والضحّاك بن قيس ويوسف بن عبد الله بن سلام. وانضمّ إليهم، بفضل دوران عبد الله بن عبّاس على البيوت وتصفيرته المدويّة، صبية آخرون، كبُر بهم الصفّ.

كانوا يومئذ صبية يجمع بينهم الودّ، ويتزعّمهم بصفة طبيعيّة عبد الله بن عبّاس الذي كان أكبرهم سنّاً، إذ بلغ يوم قُبض النبيّ ثلاثَ عَشرةَ سنة، في حين لم يتجاوزوا عشراً من السنين. فعبد الله بن الزبير وعبد الرحمان بن الحارث ابن هشام وعبد الله بن جعفر بن عبد المطّلب كان لهم عشر سنين، وسعيد بن العاص تسع، والضحّاك بن قيس ثمان، ويوسف بن عبد الله بن سلام لم تحدّد الكتب عمرَه يوم قُبض النبيّ، ولكنّها صنّفته ضمن هؤلاء، وجعلتهم جميعاً صحابة من الطبقة الخامسة، قُبض النبيّ وهم أحداث الأسنان ولم يَغزُ منهم أحد معه[572].

وكان كثير من هؤلاء الغلمان أبناء وجوه وسادة من المهاجرين والأنصار، لا يعرض لهم عارض بسوء. فعبد الله بن عباس، أبوه العبّاس بن عبد المطّلب، عمّ النبيّ، وأمّه لبابة الكبرى أخت ميمونة أمّ المؤمنين وأسماء بنت عُميس، وقد تربّى في بيت النبيّ، وكان قريباً من عليّ ابن عمّه. وعبد الله بن الزبير، جدّه أبو بكر الصدّيق، وأمّه أسماء بنته، وخالته عائشة أمّ المؤمنين. وعبد الرحمان ابن الحارث بن هشام، أبوه الحارث بن هشام بن المغيرة، وأمّه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، تزوّجها عُمر بن الخطّاب لمّا مات أبوه الحارث فصار في حجر عُمر[573]. وسعيد بن العاص من بني أميّة بن عبد شمس، لم يزل في ناحية عثمان بن عفّان للقرابة[574]. وعبد الله بن جعفر، أبوه جعفر ابن عمّ النبيّ، وعمّه عليّ بن أبي طالب، وأمّه أسماء بنت عُميس التي تزوّجها أبو بكر الصديق لمّا استُشهد أبوه جعفر في مؤتة، فكان يومها في حجره وهو القائم على أمره[575].

وقد اكتسب هؤلاء النفر بفضل النسب حظوة في المدينة، ومارسوا على أترابهم سلطاناً فمنعوا مَنْ شاؤوا وقرّبوه فنال حظوة بحظوتهم، وأهملوا مَنْ شاؤوا فصار عُرضة لكلّ تنكيل. وقد كان الضحّاك بن قيس ويوسف بن عبد الله بن سلام ممّن مَنعوا وقرّبوا، فكانا ملازمَيْن لهم، واكتسبا شرعيّة بهم حتى إنّهما لأصبحا من بعدُ من الوجوه والسادة، تُسند لهما القيادة والولاية والإمارة.

سار عبد الله بنُ عبّاس على رأس الكوكبة لفيفاً في سكك المدينة لا يلوي على شيء، غير خائف وهم غير خائفين، حتى مرّوا على بيت الرسول، فسلّموا على أسامة الذي كان لا يكبرهم إلاّ بسنوات معدودة، وكانوا يكنّون له الودّ الكبير، وكان يُحبّهم لقربهم من الرسول. ردّ عليهم أسامة السلام وقدّم لهم صحبه من العسكر قائلاً: هم إخواننا من أسلم يشاركوننا حفظ الأمن. ثمّ نظر إلى عبد الله بن عباس وقال: اشتقتُ إليك يا عبد الله! والله، لقد ألهاني الجُرف حيث عسكرتُ الأيّامَ والليالي عن أخباركم آل البيت، فكيف أنتم، يا عبد الله؟

شعُر عبد الله بنُ عبّاس بالفخر بانتمائه إلى آل البيت، وشعُر كذلك بالحزن لفقدان ربّ آل البيت، قال: آل البيت يا أسامة يتامى، مَنْ لنا يا أسامة بعد فقدان العزيز علينا؟ ألستَ منّا يا أسامة؟ ألم تتربّ مثلي في حجر الرسول، وكنتَ الحِبَّ ابن الحِبِّ؟ ألستَ يتيماً مثلي إذ مات الرسول؟

أجهش أسامة بالبكاء. انتحب. التدم كما تلتدم النساء. التفّت حوله كوكبة العسكر. كلّمه كبيرهم قال: خفّف عليك أيّها القائد، كلّ مَنْ عليها فان. وأخذ بيده وأخرجه من الحلقة وسار به إلى حيث الركن وأجلسه على جِلْدٍ جَرْدٍ كان هنالك، وعاد إلى الباب وانتصب واقفاً في مكان أسامة لا يأتي حركة.

استغفر أسامة ربّه. مسح عينيه بكمّ ردائه. ندم على ما صدر منه. ما هكذا يتصرّف القائد! أسند ظَهره إلى الحائط مُنهكَ القوى، تَعِباً، وأغلق عينيه كالنائم وهو ليس بنائم. وقف عبد الله بنُ عبّاس في جماعته قدّامه، كأنّهم يحمونه. انضمّ إليهم صبية آخرون، وشرعوا يتحدّثون بأصوات خافتة في أمور الصبية وما تعلّق بالمغامرات واستراق النظر إلى الصبايا والاغتلام والجنس، ثمّ ارتفعت أصواتهم شيئاً فشيئاً لمّا تعلّق الأمر بالموت والدين والنبيّ وأهلهم المتفرّقين في تلك الساعة، ولمّا اختلفوا في بعض المسائل علا ضجيجهم وبلغ الناس في البيوت والمسجد، فتجاسر كثيرٌ من أهل الصُفّة والغرباء الذين لاذوا بالمسجد قبل منع الدخول إليه، وغادروا المسجد، وتجاسر كثيرٌ من أهل البيوت وغادروا بيوتهم. اكتشفوا ألاّ حظرَ ولا منعَ. عجّت الساحة بالبشر.

كان عبد الله بنُ عبّاس إذ ذاك يتحدّث إلى أصحابه في أمر آل البيت مزهوّاً فخوراً وأسامة بنُ زيد وراءه، يتلذّذ بما يسمع من أخبار آل البيت، مُغمض العينين كأنّه نائم. ولمّا بلغ عبد الله قوله: «نحن، أهل البيت، شجرة النبوّة ومُختلف الملائكة، وأهل بيت الرسالة، وأهل بيت الرحمة، ومعدن العلم[576]» اقترب منه رجل غريب، ممّن غادروا المسجد الساعة، وقال: مَنْ أنت، يا غلام؟ إنّي لأراك على علم وافر غزير، فمِنْ أين لك هذا؟ بُهِتَ عبد الله بنُ عبّاس. رجع القَهقَرى. نظر في وجوه أصحابه يطلب المدد. صاحوا فيه جميعاً: تكلّم يا عبد الله. تَشجّعَ. ثبت في مكانه. استرجع هدوءه. نظر إلى الرجل المغبرّ، قال: السلام عليك أيّها الغريب، سألتني فأجيب: أنا عبد الله ابنُ عبّاس، أبُويَ العباس بن عبد المطّلب، عمّ رسول الله، من بني هاشم، وقد ربّاني رسول الله صغيراً ولازمته ولم أفارقه إلاّ ساعة الاحتضار والموت. وقد علّمني العلوم كلّها، ودعا لي بخير الدعوات. أتريد المزيد فيّ؟ إليك بعض أمري مع رسول الله: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، في بيت ميمونة

فوضعتُ له وُضوءاً من الليل، فقالت ميمونة: يا رسول الله، وضع لك هذا عبد الله بنُ عبّاس، فقال: اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل [...] ودعاني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فمسح على ناصيتي، وقال: اللهمّ علّمه الحكمة وتأويل الكتاب![577]» وقال أيضاً فيّ: «اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل واجعله من أهل الإيمان[578]!» لم يبخل عليّ يوماً بالرعاية والدعوات الصالحة. يوم وُلدتُ، أتت بي أمّي تحملني فعقّني وقال: «اللهمّ أعطه الحكمة وعلّمه التأويل! ثمّ كان إذا رآني مقبلا قال: أتاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول[579].»

عجب الرجل من أمر هذا الغلام وحذقه الأحاديث عن النبيّ. قال في نفسه: ما رأيتُ رجلاً أعلم من هذا الصبيّ[580]! ثمّ خاطبه: أيّها العالم بأمور الرسول، هلاّ حدّثتني عن ساعة قبضه؟

انطلق ابن عبّاس في الكلام بسرعة مُذهلة. انطبقت عليه قولة القائل: لا تقل للمحدّث حَدِّثْ. قال ابن عبّاس: لقد مات رسول الله في حجر ابن عمّي عليّ بن أبي طالب. «توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو لمستند إلى صدر عليّ [...] وقد أخبرنا قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مرضه ادعوا لي أخي، فدعي له فقال: ادنُ منّي، فدنوت منه، فاستند إليّ، فلم يزل مُستنداً إليّ وإنّه ليكلّمني حتى إنّ بعض ريق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليصيبني، ثمّ نزل برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وثقل في حجري، فصحتُ يا عبّاس، أدركني فإنّي هالك! فجاء العبّاس فكان جُهدنا جميعاً أنْ أضجعناه[581].»

ما زال عبد الله بنُ عبّاس يلوك آخر كلمات الحديث لمّا قفز إليه عبد الله بنُ الزبير وانتصب قُبالته في وسط الحلقة، وقال غاضباً: ألا تستح يا ابن عبّاس؟ أتكذب والنبيّ ما زال مُسجّى بيننا؟ إنّ النبيّ مات في حجر خالتي عائشة. «عن عائشة أنّها قالت: توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين سَحْري ونَحْري! فقال ابن عبّاس: أتَعقِلُ؟ والله لتوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنّه لمستند إلى صدر عليّ[582].»

كثُر الصياح وهاج الشعب وماج وأخد عبد الله بخناق عبد الله. كان ذلك أوّل صدام تمّ بين هؤلاء الأحداث. تخاصموا في النبيّ والنبيّ في البيت مُسجّى. وانضمّ الكهول إلى فريق الأحداث، وانقسموا بانقسامهم قسميْن، هؤلاء من شيعة عائشة وأولئك من شيعة عليّ، وقاموا يُردّدون على الناس أقوالاً يُناقض بعضها بعضاً ويُدشّنون لعهد جديد في الإسلام زينته الاختلاف.

برز من الفريق الأوّل «أبو عمرو ذكوان، مولى عائشة، قال: إنّ عائشة تقول: إنّ من نعمة الله عليّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تُوفّي في يومي وفي بيتي وبين سَحْري ونَحْري، وأنّ الله جمع بين ريقه وريقي عند الموت، ليَتنتُ له سواكاً فأمرّه على فيه[583].» ثمّ قام القاسم مولى أبي بكر إلى جنبه وقال قولاً مثل قوله وأكّد أمراً مثل أمره[584]. ثمّ تدخّل عبد الله بنُ مسعود وقد خرج من بيته الذي لازمه منذ صباح أمس بعد الذي كان بينه وبين أسامة. «قال عبد الله بنُ مسعود: نعى إلينا نبيّنا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر، فلمّا دنا الفراق جمعنا في بيت أمّنا عائشة، فنظر إلينا وشدّد فدمعت عينه، وقال مرحباً بكم [...] فقلنا: متى أجلك؟ قال: قد دنا الفراقُ والمنقلبُ إلى الله وسدرة المنتهى[585]» ثم كرّر، كالمناجي نفسه: قضى أجله في بيت أمّنا عائشة، قضى أجله في بيت أمّنا عائشة.

وبرز من الفريق الثاني سفينة مولى أمّ سلمة فرفع صوته قائلا: «والذي تحلف به أمّ سلمة أنْ كان آخر الناس عهداً برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّ عليه السلام [...] ولم يزل يحتضنه حتّى قُبض ويده عليه[586].» فتشجّع أبو رافع مولى الرسول[587]، وقام إلى الحلقة وقال: «عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: دخلتُ على نبيّ الله وهو مريض، فإذا رأسه في حجر رجل أحسن ما رأيتُ من الخلق، والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم نائم، فلمّا دخلتُ عليه قال الرجل: ادن إلى ابن عمّك فأنتَ أحقّ به منّي، فدنوتُ منهما، فقام الرجل وجلستُ مكانه ووضعتُ رأس النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في حجري كما كان في حجر الرجل، فمكثتُ ساعة، ثمّ إنّ النبيّ استيقظ فقال: أين الرجل الذي كان رأسي في حجره؟ فقلتُ: لمّا دخلتُ عليك دعاني إليك ثمّ قال: ادنُ إلى ابن عمّك فأنتَ أحقّ به منّي، ثمّ قام فجلستُ مكانه. فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: فهل تدري مَن الرجل؟ قلتُ: لا، بأبي وأمّي.

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: ذاك جبريل كان يُحدّثني حتى خفّ عنّي وجعي ونمتُ ورأسي في حجره[588].»

ارتجّ المكان بصيحة مُدوّية اختلطت فيها الأصوات من الفريقيْن وزال بها إلى حين الاختلاف: الله أكبر، الله أكبر! سبحان الله، سبحان الله! انسلّ الغلمانُ الأحداثُ إلى خارج الحلقة. لم يعد لهم مكان في الحلقة وقد قام على الخطبة الكبار من الوجوه والموالي. صار الحديث لا يهمّهم. أو كان الناس لا يهتمّون بأمرهم. واصلوا طريقهم التي انطلقوا فيها لمّا كان الناس في بيوتهم يملك الخوف عليهم أنفسهم. لم يتأخّر عنهم ويبقى هناك غير الضحّاك بن قيس. تخفّى عنهم. لم ينتبهوا إليه. كان يومها لا شأن له ولا وزن. كان أصغرهم سنّاً، نحيفاً، هزيلاً. تقدّم من أسامة. كان أسامة يبكي وينتحب وقد أيقن باليُتم أكثر من ذي قبل. لم ينتبه إلى أمره أحدٌ. إلاّ الضحّاك بن قيس. تقدّم منه وضمّه إلى صدره وقبّله تقبيلاً كثيراً.

كان الضحّاك بن قيس[589] يومئذ غلاماً يافعاً، لم يتجاوز عمره ثماني سنين، يُحبُّ أسامة حبّاً جمّاً، ويُحبّه أسامة كذلك حبّاً جمّاً، ويُسمّيه، مثلما كان يُسمّيه النبيّ، الحِبّ. وحتّى لا تظنّوا بهما الظنون نُعلمكم علم اليقين أنّ أسامة كان زوج فاطمة بنت قيس[590]، وفاطمة بنت قيس هي أخت الضحّاك بن قيس، كما يدلّ على ذلك الاسم الجامع بينهما. وكانت فاطمة تكبر قيساً أخاها بعشر سنين، فكان عمرها ثماني عشرة سنة. وكانت هذه السنّ في تلك الأيام تؤهّل صاحبتها أن تكون تزوّجت مرّة أولى وثانية وحتى ثالثة أحياناً، وهو بالضبط ما تمّ في حال فاطمة هذه. فقد «كانت فاطمة بنت قيس تحت أبي عمرو بن حفص بن المغيرة، فطلّقها، فخطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم بن حذيفة فذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: أمّا معاوية فصعلوك لا مال له، وأمّا أبو جهم فلا يضع عصاه عن عنقه، ولكن انكحي أسامة بن زيد، فنكحته، فقالت: لقد اغتبطت بنكاحي إيّاه[591]» وبارك الله في هذا الزواج الذي كان أسامة فيه في مثل عمر فاطمة، ابن ثماني عشرة سنة لا تزيد. وكانت هذه السنّ في تلك الأيام تؤهّل صاحبها أن يكون تزوّج مرّة أولى وثانية وحتى ثالثة أحياناً، وهو بالضبط ما تمّ في حال أسامة، فقد بدأ يتزوّج وهو غلام لم يتجاوز عمره أربع عشرة سنة[592]. ولكنّه لمّا تزوّج فاطمة

كان في عزّ الشباب، وكانت مثله في عزّ الشباب. ومثلما اغتبطت بنكاحها إيّاه اغتبط بنكاحه إيّاها. كان نظيرها وكانت نظيرته، جمع بينهما الودّ، جمع بينهما الحبّ، فكانت اللذّة والمتعة، وكأنّ النظيريْن في الشباب إذا ما اجتمعا، كانت الألفة الدائمة. كان عندها خير الرجال، وكانت عنده خير النساء. وكان يُهديها ما يُهدى إليه، حتى إنّه لكساها القِبطيّة ذات الثمن، تلك التي كساه إيّاها النبيّ، فلبستها فزانتها وازدادت بها حُسنا، وازداد أسامة بها إعجاباً، وإنْ خاف النبيّ من أنْ تفضح القِبطيّة جمالها وتَصِفَ حجم عظامها[593]، وكانت من المهاجرات الأُوَل ذات عقل وكمال[594].

كان الضحّاك بن قيس يتردّد على بيت الزوجية السعيد، بيت أسامة وفاطمة أخته، فيجد فيه الراحة والعناية والحبّ الكبير. وكان يجد فيه إضافة إلى ذلك متعة خاصّة لا يجدها في غير هذا البيت، متعة الحديث مع القائد الشابّ أسامة بن زيد في مسائل العسكر والحرب والشهادة في المعركة. كان يُعجبه ما يروي له أسامة من أخبار حول شجاعة الشجعان في الغزوات والسرايا، وحيل القوّاد في المعارك، وسياسة النبيّ في الخلق، وخبرة أبيه زيد في إدارة الأمور. وكان يُعجبه أنْ يرى هذا الحماس في أسامه وهذا السعي منه إلى أنْ يكون مثل أبيه زيد قائداً ذا حيلة وسياسة. كان يُعجبه أسامة. كم تمنّى أنْ يكون مثل أسامة، قائداً شابّا ذا هيبة وسلطان! تماهى في أسامة. كانت رغبة الاقتداء بأسامة قويّة فيه فاستجاب لها القدر.

ستروي الأخبار من بعدُ أنّ هذه الرغبة وذاك التماهي لم يكونا عبثاً صبيانيّاً، ولم يذهبا سُدىً، بل أتيا أُكلهما بما أغنى وأشبع، فصار الضحّاك بن قيس، بعد سنين من هذا التاريخ، آمراً على الشرطة وقائداً للجيش وواليا. سبحان الله الذي لا يُخيّب المشتاق إلى الرئاسة والسلطان! انظر ما قالت فيه الأخبار: «كان الضحّاك بن قيس على شرطة معاوية، وله في الحروب معه بلاء عظيم، وسيّره معاوية على جيش، فعبر على جسر مَنْبِج، وصار إلى الرقّة، ومضى منها فأغار على سواد العراق، وأقام بهِيتَ، ثمّ عاد، ثمّ استعمله معاوية على الكوفة[595].»

3

كانت الأصوات تصل إلى عليّ بن أبي طالب، وهو في بيت فاطمة، ضجيجاً لا يُطاق. وكان بيت فاطمة أقرب البيوت إلى بيت النبيّ الذي اجتمع الخلق أمامه. نظر في وجه فاطمة الزهراء. أزهرت في وجهه السماء[596]. أزهر في قلبه الأمل. أزهرت أمامه الطريق. تجلّد بالصبر. استقام واقفاً. تناول البُرد الحِبَرة من بين يديْ فضّة النوبيّة وقد أسرعت به إليه ما إنْ رأته ينهض من مكانه. فتح باب البيت وخرج.

لم ينم منذ عاد من تطوافه على المهاجرين والأنصار صحبة فاطمة الزهراء وابنيه الحَسن والحُسين. ظلّ حتى تلك الساعة مُتضرّعاً، مُبتهلاً، راكعاً، ساجداً، جالساً، تائهاً. لم يكن تعباً. كان كلّ شيء فيه يدلّ على العزم الشديد والجَلَد الصديد وركوب الخطوب.

لا شكّ أنّ الناس ينتظرونه الآن، كما وعدوه البارحة. لا شكّ أنّ الناس على أحرّ من الجمر، ينتظرونه ليُبايعوه وينطلقوا معه في حرب الأعداء لاسترداد الخلافة المغتصبة. شدّ على مقبض السيف في إزاره. سيقود الناس إماماً. سيحارب أعداء الإسلام. ستَدينُ له الرقاب. إنّ بيعة السقيفة لاغية. إنّها كذب وبهتان وهراء لا يُفيد. سيعلم الناس ممّن ضمّت المدينة والأصقاع والآفاق أنّه خير مَنْ تسعى به قدم. أليس هو وصيّ النبيّ؟ أليس هو وليّ النبيّ؟ أليس هو ابن عمّ النبيّ؟ أليس النبيّ خَتْنَه وصِهرَه؟ لا أحد مثله في النسب والحسب. لا أحد مثله يستطيع أنْ ينهض بالأمر من بعد النبيّ.

لقد حُمّت الحاجات، وقُضيَ الأمرُ، وهو لها. سيخوضها عليهم حرباً هيجاء. سيغور عليهم غارة شعواء، تأتيهم من كلّ الجهات، من كلّ حَدْب وصوْب. حتى النصر. حتى النصر.

وصل إلى المكان المتّفق عليه. كان أرضاً بَوْراً قَحْلاً قَفْراً خارج المدينة، لا شيء عليها غير نخلة سَحوق سَنهاء، تناهت في الطول مع انجراد، تحمل سنة وسنة لا[597]. كانت أرضاً هاملاً لبني النجّار، لا تطولها الأنظار، ولا يتردّد عليها المتطفّلون والمخبرون، فاختارها عليّ وضرب عليها للناس موعداً حتى ينفرد بأنصاره، ويصفو له معهم الجوّ. ثمّ إنّ بني النجّار هم أخوال النبيّ، وهم أخوال زوجته فاطمة بنت النبيّ، فإذا نزل أرضهم دخل في حمايتهم وصار تحت رعايتهم، فلا يَجرؤ عليه أحدٌ من أعدائه.

وصل إلى المكان بسرعة. قطع المسافة الفاصلة بين بيته وهذا المكان في رمشة عين. كانت ميلاً أو ميلَيْن بحساب ذلك الزمان، قطعها كأنّها مائة قدم أو مائتان، وهو يُحلم النفس بقيادة أنصاره إلى النصر الآتي لا شكّ فيه. وصل. نظر. كان المكان خالياً إلاّ من أربعة نفر، هنالك تحت النخلة السحوق السنهاء. لم يَرَ جموعاً غفيرة، ولا حتى جمعاً واحداً بأربعة وأربعين نفراً كانوا وعدوه البارحة أنْ يكونوا هنا، في انتظاره، هذا الصباح.

داخله الشكّ. لعلّه لم يتواعد معهم على هذا المكان! لعلّهم فضّلوا مكاناً آخر! لعلّ عسكر خالد من الأعرابِ وأسلم انتبه إلى وجودهم ففرّقهم وشتّتهم! لعلّ! لعلّ وعسى!

أسرع إلى النخلة يستجلي الأمر من أولئك الأربعة الذين كانوا تحت النخلة. رأى الزبير بن العوّام وسلمان الفارسي وأبا ذرّ الغفاري والمقداد بن الأسود، ولم يَرَ غيرهم أحداً.

أُلقيَ في رَوْعه، فَقدَ توازنه، ارتعشت ركبتاه، لم تقدر ساقاه على حمله، صاح في الزبير: ماذا جرى يا زُبير؟

بادره الزبير بشيء من الجرأة التي كانت فيه: ألم أقل لك، ساعة مات الرسول: ابسط يدك، يا عليّ، أبايعك؟ ألم تقل: ومَنْ يُنازعنا في هذا الأمر؟ ما كان يجب الانتظار.

ثارت ثائرة عليّ، لم يعد يعقل، هاج، ماج، قال: أجئتَ لشدّ الأزر، يا زُبير، أم جئتَ للّوم والعتاب والزجر؟ والله، لكأنّك تتشفّى بما آل إليه أمري!

سكت الزبير.

قال أبو ذرّ، كأنّه يُخفّف على عليّ الأمرَ ويُنقذ الموقف من الأزمة التي تردّى فيها بسبب الورطة التي رماهم فيها الزبير: عسى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خير لكم!

زاد أبو ذرّ الطين بلّة. احتدم عليّ غيظاً. صاح في أبي ذرّ: عسى أنْ نكره ماذا، يا أبا ذرّ؟ وأيّ خير في هذا، يا أبا ذرّ؟

ساد الصمت الرهيب. دام برهة طويلة مقدارها عند الله والكتب التي روت الأخبار. لم يتجاسر أحد من الأربعة على الكلام. تعجّبوا في دواخلهم من أمر عليّ. عرفوه زاهداً في الدنيا أو كالزاهد، لا يسعى إلى الجاه، لا يسعى إلى السلطان، لا يسعى إلى الصدارة والمكان العالي. فما الذي غيّر عليّاً، يا تُرى، وجعله يسعى إلى الجاه والسلطان والصدارة والمكان العالي؟ تساءلوا في أمره فأشكل عليهم وما أحاروا جواباً. لو كان بينهم في تلك الأيام مُختصّون في علم النفس، كما هي الحال بيننا الآن، لكفوهم مؤونة البحث في هذه الأمور التي استعصت عليهم، والله. فعلماء النفس معهم الجواب في كلّ أمر، حتى في امرئ مثل عليّ، كان غافلاً عن الرئاسة، ولمّا طلبها غيره ونالها قام إليه يُصارعه ليفتكّها منه، لا يُبالي إنْ قالوا فيه تغيّر. فلو كان معهم علماء من هذا القبيل لاعتبروا هذه الحالة مرضاً عُظالاً وقالوا فيها إنّها الرغبة في الاقتداء. ولكنْ، حذارِ، يا سادة، حذار. لا يجب أنْ يخدعكم الاسم الجميل الحسن الوقع الذي اختاره العلماء لهذا المرض. إنّ ما يوحي به من متعة ورغبة ولذّة وقُدوة وقبلة، وَهمٌ خالص وسراب خادع. فالرغبة في الاقتداء مرض نفسيّ، عافاكم الله، إذا ألمّ بالإنسان هلك. وهو حالة من الحالات النفسية التي تُنذر بسوء العاقبة، يتمّ بمقتضاها الانتقال المفاجئ في الشخص من حال الاكتفاء والاطمئنان إلى حال الرغبة في حوز ما حاز الآخر وإنْ في ظلّ القضاء على الآخر، فتكون الحيرة والاضطراب والقلق، وتصبح الحياة جحيماً لا يُطاق.

كان عليٌّ في أحسن حال. كان ابن عمّ النبيّ وصهره. كان زوج فاطمة البتول. كان أباً لابنيْن من خير البنين، الحَسن والحُسين. كان، والعُهدة في ذلك على الكتب، ينعم بنعم الله الكُثر، سعيداً بصحبة النبيّ، قائماً على أمر

العلم والفتوى، زاهداً في السلطان. ولمّا مات النبيّ لم يطلب الخلافة، بل واصل عيشه كما كان يعيش، ولا شيء تغيّر فيه غير حزنه الشديد على فقدان ابن عمّه وخَتْنه. ولكنّه لمّا رأى رجلاً آخر قد سعى إلى الرئاسة ونالها، أصابته غَيْرةٌ، لا أراك الله مكروهاً، وحُمّل حسداً، وقديماً كان في الناس الحَسد، وتمّ فيه التحوّل الفتّاك القاتل. رأى ألاّ شرعيّةَ لهذا الرجل، وهو ليس من آل البيت. ولمّا ألمّ به ما ألمّ فَعَلَ فِعْلَ أبي بكر، وسعى إلى الرئاسة. ولكنّ الرئاسة لم تكن ساعتَها شاغرة. كان عليها أبو بكر. فسعى إلى الناس في تلك الليلة، يُجيّش الناسَ على أبي بكر، ويدعوهم إلى صفّه، ويضرب لهم موعداً من غد ليأتوه على أهبة للحرب حتى ينقضّ بهم على أبي بكر:

«لمّا كان الليل حمل عليّ عليه السلام فاطمة عليها السلام على حمار وأخذ بيديْ ابنيه الحَسن والحُسيْن عليهما السلام، فلم يدع أحداً من أهل بدر من المهاجرين ولا من الأنصار إلاّ أتاه في منزله، فذكّرهم حقّه ودعاهم إلى نُصرته، فما استجاب منهم إلاّ أربعة وأربعون رجلاً. فأمرهم أنْ يُصبحوا بكرةً مُحلّقين رؤوسهم معهم سلاحهم ليبايعوا على الموت[598].»

وبات ينتظر الأربعة والأربعين نفراً. كان يعرف أنّهم قلّة قليلة، ولكنّ مهارته في الحرب وحِذقه القيادة ومعرفته بالرجال وحنكته في العسكر جَعلته يعتقد أنّه سيصنع العَجب العُجاب بهذا العدد القليل من العباد، وأنّ الناس سينضمّون إليه كلّما تقدّم بجيشه شاهراً سيفه، قاصداً عدوّه. نعم سينضمّ إليه آخرون، أربعة وأربعون هنا، وأربعة وأربعون هناك، وأربعة وأربعون من حيث لا يدري، وهلمّ جرّا. سيُصبحون، بإذن الله، آلافاً مؤلّفة بعد حين. سيعرف الناس مَنْ هو عليّ بن أبي طالب. سيقضي على أبي بكر الذي اغتصب منه الخلافة. سينال الخلافة.

ها هو الآن واقف في هذا المكان القفر، تحت النخلة السحوق السنهاء، ولا أحد معه غير هؤلاء الأربعة، الزبير بن العوّام وسلمان الفارسي وأبو ذرّ الغفاري والمقداد بن الأسود. تبخّر حلمه. انكسر خاطره. ضاعت منه الخلافة، ضاعت الإمامة، ضاعت الأمّة، ضاع الإسلام. قُضي الأمر. أسلم أمره لله. لم ينبس ببنت شفة. قفل راجعاً.

لا شيءَ يُنتظر من هؤلاء الأربعة غير المساندة بالقلب واللسان، أمّا الضرب بالسيف في سبيل عليّ فلا يُرجى منهم أبداً. فأبو ذرّ الغفاري[599] رجل زاهد على زهد عيسى ابن مريم، وعى علماً عجز الناس عنه ولكنّه بَخِلَ على الناس بعلمه، لا تُعرف له جولات ولا صولات في الحرب، عاش وحيداً مُنعزلاً، حتى قيل فيه: يمشي وحده، ويموت وحده، ويُحشر وحده[600]. وسلمان الفارسي[601] أجنبيّ على الديار، خبر الأديان وجرّبها حتى انتهى إلى الإسلام، وطلب العلم من المهد إلى اللحد، كلّ شيء فيه يُحدّث بالنسك والاستزواء، لا عُمر له بالضبط ولكنّه شاهد قديم على الأحداث، كأنّه خالد والناس يموتون، له رأي في الخدعة أثناء الحرب، ولكن لا شيء يجعل منه عسكرياً ماهراً. والمقداد بن الأسود[602]، نكرة أو كالنكرة، لا نعرف عنه إلاّ كونه الفارس الوحيد يوم بدر، وغيره من الناس كانوا مُشاة، حتى قيل فيه: كان أوّل من عدا به فرس في سبيل الله[603]، وما عدا ذلك فأمور عادية لا تخوّل لصاحبها أنْ يتميّز. أمّا الزبير بن العوّام[604] فرجل شجاع محارب، ولكنّه متغيّر متقلّب، لم يُخلص الودّ لعليّ بصفة دائمة، فكان يُبايعه طائعاً غير مُكره ثمّ يتراجع مُرتدّاً ناكثاً مُكابراً مُعانداً خاسراً[605]. وكان الزبير وحدَه، من بين هؤلاء الأربعة، وجهاً من الوجوه التي لها وزن إذ ذاك، أمّا الآخرون الثلاثة فلا أهل لهم ولا حول ولا قوّة. ومع ذلك فإنّ علياً قد أكبر فيهم يومئذ نُصرتهم له وإخلاصهم، ونوّه بهم لمّا ذكرهم من بعدُ وهو يُبرّر رجوعه عن خوض الحرب للفوز بالخلافة، فقال: «لو وجدتُ يوم بويع أخو تيم أربعين رجلاً كلّهم على مثل نصرة الأربعة الذين قد وجدتُ لَما كَففتُ يدي ولَناهضتُ القومَ، ولكن لم أجد خامساً فأمسكتُ[606].»

تحسّر وهو راجع في الطريق على ما فات. يا ليته كلّم الناس قبل فوات الأوان! يا ليته مدّ يده للبيعة لمّا قُبض الرسول، كما طلب إليه ذلك عمّه العبّاس والزبير بن العوّام وأبو سفيان! ندم على ما صدر منه منذ حين مع الزبير لمّا لامه على تأخّره في الأمر، ولكنّه لم يعتذر للزبير.

تحسّر وهو راجع في الطريق على يوم الخميس[607]، وما أدراك ما يوم الخميس! سالت دموعه على خدّيه كأنّها نظام اللؤلؤ. تذكّر لمّا قال لهم النبيّ: «ائتوني باللوح والدواة أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده، فتنازعوا، ولا ينبغي

عند نبيّ أن يُتنازع، وقالوا: إنّ رسول الله يهجر[608].» تذكّر المشهد كما حضره يومئذ، وتذكّر ما قالوه واحداً واحداً: «قال عُمر: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله! فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم مَن يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومنهم مَن يقول ما قال عُمر. فلمّا كثُر اللغط والاختلاف وغمّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: قوموا عنّي[609].» فقاموا جميعاً وخرجوا. حتى هو، عليّ بن أبي طالب، ابن عمّ النبيّ وصهره، خرج ولم يُنفّذ أمر النبيّ، ولم يُسرع إليه باللوح والدواة والقلم. ولو فعل ذلك لأملى عليه النبيّ وصيّته فيه ليُصبح من بعده في الناس إماماً. لو فعل لأجبر الناس على الخضوع للأمر المقضيّ، ولو بحدّ السيف، وكان قادراً على ذلك، والله! ندم على فعلته. يا لها من رزيّة! يا لها من رزيّة[610]!

كان يسير راجعاً إلى بيته وفي رأسه غليان كغليان القِدْر وأمواج تتلاطم. لم ينتبه إلى أنّ أفراد الرباعي كانوا وراءه. فوجئ بهم لمّا فتحت له فضّة النوبية الباب وأدار ظهره داخلاً. توقّف. لم يكن يرغب في رؤية أيٍّ كان، والحديث إلى أيّ كان، ولكنّه لم تخوّل له نفسه منعهم من الدخول وتركهم على الباب. دخل ودخلوا. فهمت فاطمة القصّة. كانت تظنّ أنّه لن يعود إلاّ بعد وقف تيّار البيعة والقضاء على الظلم والانتصاب إماماً، فإذ عاد فهمت أنّه لم يجد أنصاراً لخوض غمار المعركة. لم تتكلّم، ولم يتكلّم عليّ.

جاءت فضّة النوبية تحمل قدَح اللبن وجفنة التمر ووضعتهما أمام عليّ. سمّى وكبّر وتمتم وقال: تفضّلوا. شكروه، ولكنّ أيديهم لم تمتدّ إلى شيء. أخذ عليّ القدح بين يديه وقرّبه من شفتيْه وشرب أو كأنّه شرب، وأمرّ القدح إلى الزبير، ففعل به مثلما فعل عليّ، ثمّ أمرّه إلى سلمان فشرب وحمد الله، ثمّ أمرّه إلى أبي ذرّ، فأطال مُكوث القدح بين شفتيه وشرب وتلذّذ وحرّك به لسانه وحمد وشكر، ثمّ أمرّ القدح إلى المقداد فشرب ملء فمه مرّتيْن ومدّ يده إلى جفنة التمر.

دخل العبّاس مسلّماً ودخل وراءه طلحة. قام عليّ وأكبّ على عمّه وأجلسه حيث كان جالساً وجلس جنبه وجلس طلحة جنب الزبير. بادر

العبّاس بالسؤال: ما الأخبار يا عليّ؟ علمتُ بخروجك ليلاً صحبة العيال، فماذا كان؟

لم يكن عليّ يُريد الكلام ساعتئذ. ولكنّ واجب الاحترام والتقدير لشخص عمّه الكريم حتّم عليه الجواب. تكلّم بصعوبة لم تَخفَ عن أحد، وقال مُختصراً الطريق: نعم يا عمّي، «حملتُ فاطمة وأخذتُ بيديْ ابنيَّ الحَسن والحُسين، فلم أدع أحداً من أهل بدر وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار إلاّ ناشدتهم الله في حقّي ودعوتهم إلى نصرتي، فلم يستجب لي من جميع الناس إلاّ أربعة رهط: سلمان وأبو ذرّ والمقداد والزبير[611].»

انحبس الصوت في عليّ. أسرع سلمان يُنقذه من الحرج الذي ألمّ به ويقصّ على العبّاس ما كان من أمر عليّ، ويرصد بالتفصيل أفعاله ليلة سعيه إلى الخلافة أو الإمامة، على حدّ قوله، ويبيّن خذلان الناس له، ويرسم له صورة تجعل منه ضحيّةَ التآمر ومحلَّ الاضطهاد بجميع أنواعه. وقد ردّدت شيعة عليّ من بعد تلكم الأقوال وصارت حُجّة على الظلم والاستلاب واغتصاب الخلافة، ثمّ ردّدتها الكتب فخلدتها إلى الأبد وزادت فيها وطوّرت ومطّطت بما لا يتّسع هذا الكتاب لذكره، فنكتفي بقليل منها تمثيلاً لا حصراً، عملا بالقولة الشائعة: إنّ ما أفاد قليله تمّ الاستغناء عن كثيره، وعملاً بالقولة الشائعة الأخرى: لا يستقيم الكتاب في ظلّ التفصيل والتكرار والإطالة.

قال سلمان يعيد على العبّاس ما أخبرنا به منذ حين: «لمّا كان الليل حمل عليّ عليه السلام فاطمة عليها السلام على حمار وأخذ بيديْ ابنيه الحَسن والحُسيْن عليهما السلام، فلم يدع أحداً من أهل بدر من المهاجرين ولا من الأنصار إلاّ أتاه في منزله، فذكّرهم حقّه ودعاهم إلى نُصرته، فما استجاب منهم إلاّ أربعة وأربعون رجلاً. فأمرهم أنْ يُصبحوا بكرةً مُحلّقين رؤوسهم، معهم سلاحهم، ليبايعوا على الموت. فأصبحوا فلم يُواف منهم أحد إلاّ أربعة: أنا وأبو ذرّ والمقداد والزبير بن العوّام[612].» ثمّ روى القصّة بطريقة أخرى، مؤكّداً على أهمّية دور الرباعي فيها، فقال: «لمّا كان الليل حمل عليّ عليه السلام فاطمة عليها السلام على حمار وأخذ بيديْ ابنيه الحَسن والحُسيْن عليهما السلام، فلم يدع أحداً من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله إلاّ أتاه في منزله، فناشدهم الله حقّه ودعاهم إلى نصرته، فما استجاب منهم رجل

غيرنا الأربعة، فإنّا حَلَقنا رؤوسنا وبَذَلنا له نُصرتنا، وكان الزبير أشدّنا بصيرة في نصرته[613].» ثمّ طوّر القصّة قليلاً، وزادها من عناصر الزينة نصيباً، فقال: «خرج عليّ، كرّم الله وجهه، يحمل فاطمة بنت رسول الله، صلّى الله عليه وآله وسلّم، على دابّة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنتَ رسول الله، لقد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أنّ زوجَك وابنَ عمّك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول عليّ، كرّم الله وجهه: أفكنتُ أدعُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلاّ ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم[614].»

تدخّل العبّاس صائحاً: نعم فات الأوان. ضاعت فرصتنا. كم قلتُ لعليّ يسأل النبيّ حقّنا في هذا الأمر قبل وفاته! كم قلتُ له يمدّ يده أبايعه ويبايعه كبارنا فتخضع له قريش والعرب! وأراد أنْ يسترسل لائماً مؤنّباً لو لا أنْ تدخّل سلمان وعاد إلى الكلام قاطعاً الطريق أمام العبّاس، مخلّصاً عليّاً من أذى كلام عمّه، وهو يعلم أنّ عليّاً لا يستطع أنْ يقطع على عمّه الكلام لما يحظى به العمّ في عُرف الناس من احترام.

قال سلمان: لم يسمعوا من عليّ، يا عبّاس، ولم ينكثوا العهد وينقضوا البيعة. ولم يُغيّر حضور فاطمة بينهم شيئاً. ولم يُغيّر سؤالها الناس النصرة شيئاً. أيليق أنْ يُغلّب الناس العهد الذي قطعوه على أنفسهم على الحقّ الذي شرّعه الله وفرضه على الخلق؟ أيليق بالناس أنْ لا يستجيبوا لسؤال بنت رسول الله؟ ألم يفعل الإسلام بعدُ فعله في الناس، يا عبّاس؟ أما زالت الجاهلية الجهلاء حيّةً في الناس دارجةً سارية؟

وانطلق في خطبة شيعيّة جميلة يضيق عنها هذا الكتاب، فاطلبها في غير هذا الكتاب[615]. ولمّا انتهى ولم يُعلّق على كلامه أحدٌ، ولا قام غيرُه يخطب مثله، شعر بأنّه أثقل عليهم، فاعتذر لهم اعتذاراً شديداً، تماماً كما تعتذر الفُرس، وجلس مقهوراً وهو يُحدّث نفسه أنْ لا شيء يُرجى من هؤلاء للثأر لآل البيت. ولكنّ شيئاً حدث في تلك اللحظة أخرجه ممّا كان يُحدّث به نفسه. وقف الزبير وكأنّ النُعرة أصابته، وقال: نهجم على السقيفة والمسجد

ودار أبي بكر. نستلّ في أهل النفاق السيوف ونضرب الأعناق ونطالب بحقّك في الخلافة وحقّ آل البيت.

نظر إليه عليّ قال: أنفعل ما لم يفعل رسول الله؟ أنُطالب بشيء لم يخصّنا به ولم يوقفه علينا؟ أنقتل أصحاب رسول الله؟ نفد الصبر. غضب الزبير. صاح: أنت يا عليّ أوّاهٌ حليمٌ مُنيب. استلّ سيفه. شهر السيف في وجه عليّ. رفع رأسه إلى السماء. أقسم بالله العظيم. نظر إلى عليّ نظرة اليأس والقنوط. تطاير من عينيه شيء كالشرر. خاطب طلحة والعبّاس وأولئك النفر المجتمعين: هيّا نرَ ما صارت إليه الأمور حتى لا يقال فينا خافوا بطش المهاجرين، خافوا بطش الأنصار. وجرى إلى الباب، وتبعه طلحة والعبّاس لا ندري إن كان لردّه أم للخروج معه. جرى عليّ إلى الباب يسدّه. شهر السيف في وجوهم، قال: لن يخرج من هذا البيت إنسان. لا تُجبروني على النزال. والله لو شئتُ لسرتُ وحدي إليهم أضرب الأعناق لا أبقي في الأعناق عنقاً. والله لولا الحياء، ورسول الله لمّا يُدفن، لأقمتها حرباً شعواء على الأنصار، على المهاجرين، على المرتدّين، على المنافقين، على الأعداء. أيموت الدين لحظة مات الرسول؟ أنوجّه أنظارنا جميعاً إلى الأرض للفوز بالسلطان وننسى السماء؟ ماذا حدث يا رجال؟ لعبت بكم النفوس الأمّارة بالسوء. لعبت بهم النفوس الأمّارة بالسوء. صرتم وصاروا جند إبليس. صرتم وصاروا عاراً على الإسلام.

خذلهم عليّ بالكلام الجميل. خذلهم بالقول البليغ. كان عليّ نهجاً في البلاغة والكلام البديع. كذلك هو عليّ. سيف الإسلام الذي لا سيف مثله. يرهبه الناس إذا تكلّم، يخافون سيفه إذا هدّد. كانوا يعرفون ذلك منه. سكتوا في الحين. رجعوا إلى مواقعهم سالمين. لا هم خرجوا إلى السقيفة ولا هم لووا عصا الطاعة في يد عليّ. كذلك هم أصحاب عليّ. يفورون فورة ليس لها مثيل ثم يقعدون عن العمل الذي عقدوا عليه العزم منذ حين. كذلك هو عليّ وأصحابه الميامين، ثورة عارمة سرعان ما تهدأ في الحين. كذلك هو عليّ وأصحابه الميامين، يتحدّثون، يتكلّمون، والقافلة تسير يحدوها صوت عليّ ويحكمها غير عليّ. كذلك هم شيعة عليّ، قوم من المضطهدين.

عمّ البيتَ السكون. جلس الزبير. جلس طلحة. جلس العبّاس. وظلّ الآخرون جلوساً ولم يتحرّكوا. هدأ عليّ. سار إلى غرفته. انحنى أمام شيء كالسرير، يعلو على الأرض شبراً لا تزيد، ثمّ انبطح ومدّ يده إلى شيء تحته. أخرج قمائط قمائط. أخرج جلوداً ورقاعاً وعظاماً وأشياء أخرى. رجع حيث كان صحبه. تنهّد تَنَهُّدَةً طويلة. قال: أستغفر الله العظيم. قال: أعذروني يا أصحاب. كانت سورة للغضب. أعذروني يا أصحاب. أنتم خير الأصحاب. ليفز غيرنا بالأرض. ليفز بالإثم. نحن لا نفوز إلاّ بما ينير وجه الرسول. هل لكم في فوز بالآخرة التي لا يفوز بها إلاّ مَنْ أخلص الودّ للرسول؟ نظروا إليه نظرة طويلة. نظروا إليه في حيرة شديدة. نظر إليهم، قال: اتركوهم يفوزون بالدنيا وهيّا معي إلى الآخرة. اتركوهم فقد ضلّوا السبيل، أمّا نحن فلن نضلّ السبيل، ترك فينا رسول الله هذا الذي معي. رفع يده بالقمائط والجلود والرقاع والعظام. قالوا صوتاً واحداً: ما هذا يا عليّ؟ قال: ذاك قرآن عليّ. والله لن ألبس ردائي إلاّ لصلاة حتى أجمعه[616]. تعالت الأصوات تقول: اجمعه يا عليّ.

شعر عليّ بالفوز يلفّه. لعن الشيطانَ ولعن الناس أجمعين، يزيدون في كتاب الله ويُحرّفون. سمّى باسم الله. ثمّ سمّى باسم الله. حلّ العقد وخلع الخيوط التي تربط لفائفه الثمينة. صفّف القمائط والجلود والرقاع والعظام وفق مبدإ لا يعرفه غيره. بدأ يصفّف القرآن وفق ما ارتأى في تلك اللحظة التي فاز فيها بالآخرة. غابت الدنيا عن ناظريه. دخل في الآخرة. نسي السقيفة. نسي الرسول الذي كان ينتظر الغسل والكفن والدفن.

انفضّ الناس من حوله. تركوه إلى قرآنه، وخرجوا واحداً تلو الآخر، واتجهوا نحو المسجد. وفي المسجد وجدوا حلقات قد استزوت، هذا عُثمان ابنُ عفّان جالس إلى أهله من بني أميّة، وهذا عبد الرحمان بنُ عوف جالس إلى أهله من بني زُهر، وهذه حلقات بعروش أخرى. جلسوا عند الركن الذي اعتادوا الجلوس فيه. كان شاغراً كأنّه ينتظرهم. ولم يلتحق بهم عليّ إلاّ بعد ساعة من ذلك الزمن.

4

لم يؤذّن بلال للصلاة منذ يومئن أو ثلاثة. لا يدري بالضبط. ألهاه عن العدّ والحساب تسارع الأحداث وما حظي به من تكليف أبي بكر له بالسفارة لدى جهات عديدة. ثمّ إنّه لمّا قُبض النبيّ وأذّن للصلاة فوجئ بغياب الوجوه والأعيان والصحابة من المهاجرين والأنصار، ولم يحضر له إلاّ العبيد والموالي والغرباء. وهذا أمر لا يروق لبلال، ولا طاقةَ له به. وقد أقسم يومئذ بالله ثلاثاً، وبالنبيّ ثلاثاً، وبالبيت ثلاثاً، وبرحمة والدته حَمامة ثلاثاً، وبطلاق زوجته ابنة أبي البُكير ثلاثاً، ألاّ يُؤذّن لأحد بعد رسول الله[617]، وأنّ صوته الذي صدح بالأذان منذ عشر سنين ونيّف في عهد النبيّ توقّف بموته. ولمّا كان بلال صاحب مبادئ لا يحيد عنها، أخذ على نفسه عهداً صارماً يقتضي بتفضيل العودة إلى العبودية على العودة إلى الأذان، إذا ما حملته الظروف وأُجبر على التصويت من جديد قبل الصلاة.

كان بلال عند أبي بكر في السُّنح صباح هذا اليوم، بعد أنْ قضى ليلته في الصُّفّة يستمع إلى بعض أهلها يخطبون في الحياة الدنيا والآخرة، ويفسّرون ما تأتّى من القرآن في الثواب والعقاب. وقد أفطر هنا، حال وصوله، إفطاراً وفيراً دسماً بفضل العناية الموصولة التي تحيطه بها عُلاية خادم بنت خارجة. وكانت عُلاية هذه في خدمة خارجة بن زيد بن الحارث بن الخزرج، وهو من كبار الصحابة وأعيانهم، آخى النبيّ بينه وبين أبي بكر الصدّيق لمّا قدم المدينة مُهاجراً، ونزل أبو بكر عليه، فأكرمه وزوّجه ابنته وأقطعه في السُّنح، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة[618]. ولمّا تزوّجت بنت خارجة من أبي بكر حملت معها عُلاية الخادم، فصادفت عُلاية بلالاً مولى أبي بكر في بيته، فمالت إليه نفسها. ورغم أنّ بلالاً كان كثير التستّر على أموره الشخصيّة الخاصّة، فإنّ ميله إليها لم يكن يخفى على أحد، لِما كان يصدر

عنه من كلام عذب مهذّب في حضرتها، ولإطالته الحديث إليها. وكانت تحبّ ذلك منه فتُطيل البقاء معه حتى إنّها لتنسى النهوض بخدمة سيّدتها في حضرته، فتُناديها سيّدتها إيذاناً بانتهاء الفسحة. كان كلّ شيء يربط بين بلال وعُلاية، الأصول الحبشيّة، واللون الأخضر، والتفاني في الخدمة. ورغم أنّ بلالاً كان قد بلغ من العمر نصيباً، لا ندري بالضبط كَم هو، فإنّه كان يُحلم النفس بضمّ عُلاية إليه، حسب شريعة الله ورسوله التي مكّنت العبيد والموالي من الزواج والطلاق ونكاح ما طاب لهم من النساء، مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ، ولا حَرَجَ. وكان يُمنّي النفس بأنْ يرزقه الله من عُلاية الذرّية التي لم يُحصّلها من ابنة أبي البُكير زوجته الحالية.

كان بلال ينعم بلحظة من لحظات الصفاء مع عُلاية الحبشية لمّا انسحبت من أمامه بسرعة عجيبة وفوجئ باقتراب أبي بكر وخالد بن الوليد يتقاودان نحوه. استقام واقفاً وحيّاهما كالعادة، قائلاً: السلام عليكما، وعمتما صباحاً. وإذ ردّ عليه أبو بكر التحيّة قائلاً: وعليك السلام، يا بلال، نظر إليه خالد نظرة أربكته، وقال له: حيِّ خليفة رسول الله بتحيّة الخليفة. لم يفهم بلال. تساءل بينه وبين نفسه، في ظرف رمشة عين، عن تحيّة الخليفة ما تكون؟ لم يُمهله خالد ولم يُمكّنه من غير ذلك الزمن القصير، فقال له: اخرج في الحال إلى المسجد وأذّن في الناس أذاناً طويلاً يأتوك أنصاراً ومهاجرين ومن كلّ فجّ عميق، فإنّ خليفة رسول الله سيخطب فيهم بعد حين.

ارتبك بلال. قد انقضى زمن الفجر والصبح ولمّا تَحن الظهر، فكيف يؤذّن في الناس خارج أوقات الصلاة؟ كاد يُصرّح بذلك أمام خالد لولا أنْ تجمّدت فيه الكلمات، فاكتفى بالقول: سمعاً وطاعة، وجرى إلى الباب. فقال له خالد: قُل سمعاً وطاعة يا خليفة رسول الله. ولكنّ بلالاً لم يسمع قوله. كان يجري إلى المسجد ليؤذّن في الناس وقد نسي القسم الذي أقسمه والعهد الذي قطعه على نفسه بوقف الأذان بعد رسول الله. وكيف له أنْ لا يفعل ما أمره به أبو بكر، وهو صاحب الفضل عليه ومحرّره ومولاه. ردّد بينه وبين نفسه الجملة التي كان يُردّدها على مسامع الناس إذا ما لاموه على إكثاره في فضل أبي بكر ومدحه: «إنّما أنا حسنة من حسنات أبي بكر[619].» أعجبته الجملة. يا له من

متقوّل حَذِق ماهر! ردّد الجملة وهو يجري، فتشكّلت فيه قوّة جارفة تدفعه إلى التقدّم نحو المسجد والأذان في الناس، وإنْ في غير وقته.

لم يُغادر خالد بنُ الوليد بيت أبي بكر بالسُّنح منذ انتهى إليه عند آخر الليل صُحبة بُريدة بن الحُصيب، بعد أنْ تأكّد أنّ كلّ شيء على ما يُرام في المدينة. وكان خالد قد وضع بيت أبي بكر تحت حراسة مشدّدة أوكلها إلى بعض خاصّته من العسكر الذين يثق فيهم وثوقاً تامّاً، فحيّاه هؤلاء بتحيّة القائد، ورحّبوا به بترحيب القائد، فقالوا له: أهلاً وسهلاً ومرحباً يا حضرة القائد، فردّ التحيّة واستمع إلى تقرير كبيرهم، وشكرهم ودخل.

كان في البيت، إضافة إلى أبي بكر، عُمر وأبو عُبيدة بن الجرّاح ووجوه من الأنصار الذين بايعوا أمس في السقيفة، بشير بن سعد وأسيد بن حضير ومَعن ابن عديّ وعُويم بن ساعدة. قام أبو بكر إلى خالد بن الوليد ورحّب به ترحيباً كثيراً وشكره شكراً جزيلاً وأجلسه إلى جنبه طويلاً. وتعاقب الحاضرون على الكلمة فشكروا خالداً ونوّهوا بأفعاله الجسام. إلاّ عُمر بن الخطّاب، ظلّ صامتاً، فلا رحّب بخالد ولا شكره على ما فعل من أجل تنصيب أبي بكر خليفة. كان عُمر يخاف خالداً. كان يخشى أنْ ينزل خالد منزلة عليّة لدى أبي بكر فيؤثّر فيه تأثيراً بالغاً ويُحوّله عن الطريق التي رسمها عُمر ليتولّى الأمر من بعد أبي بكر.

كان عُمر يعرف خالداً معرفةً جيّدة. وكان خالد يعرف عُمر معرفةً جيّدة. فخالد ابن خال عُمر. وعُمر ابن عمّة خالد. لم يجمع الودّ بينهما أبداً، بل فرّقت بينهما العداوة منذ الصبا، وحُمّلا ذلك طيلة حياتيْهما. وبالرغم من أنّ أصل الخلاف يبدو بسيطاً، فإنّ عواقبه كانت وخيمة. أمّا من حيث السبب فقد روت الكتب: «اصطرع عُمر بن الخطّاب وخالد بن الوليد، وهما غلامان، فكسر خالد ساق عُمر، فعولجت وجبرت، وكان ذلك سبب العداوة بينهما[620].» وأمّا من حيث العواقب فقد روت الكتب أنّ عُمر بن الخطّاب لمّا تولّى الخلافة عزل خالد بن الوليد من إمارة الشام وقيادة العسكر وأمّر أبا عبيدة بن الجرّاح، وشتّان ما بين خالد وأبي عُبيدة، ولكنّ السياسة تجري بما لا يشتهي القانون والعدل وصلاح العمران! وقد مات خالد حسرةً وأسى

رهين الفراش وهو الذي كان يصبو إلى أنْ يموت في ساحة الوغى غازياً في سبيل الله.

وقد روت الأخبار اللاحقة أنّ عُمر كان يسعى إلى إسقاط خالد منذ كان أبو بكر خليفة، فكان يُلبس خالداً شتّى التهم ويُسرع بها إلى أبي بكر يُحرّضه على خالد. ولكنّ أبا بكر لم يستجب لما حاكه عُمر من أحابيل ضدّ خالد. فلمّا صار خليفة فعل ما لم يستطع فعله في خلافة سابقه، عزله دون رجعة. فخالد فيه تقدّم على رأي عُمر، مثلما كان فيه تقدّم على رأي أبي بكر من قبلُ، يفعل الأشياء التي لا يراها عُمر ولا أبو بكر من قبلُ. وكان لا يتورّع، إذا ما دعاه هذا أو ذاك إلى الامتثال والطاعة، في أنْ يُجيبه: «إمّا أنْ تدعني وعملي وإلاّ فشأنك بعملك[621].»

لمّا عزل عُمر خالداً، وثار الناس وآخذوه على ما فعل، ولاموه على غَمْده سيفاً سلّه الله، ونَزْعِ عامل استعمله رسول الله، ووَضْع لواء عقده رسول الله، أجابهم عُمر مُتعلّلاً بأنّ الناس فُتنوا بخالد فخشي أنْ يوكّلوا إليه الأمر[622].

ومن غريب ما جاء في قصّة العلاقة بين الرجلين، أنّ عُمر بن الخطّاب تزوّج أرملة خالد بن الوليد لمّا قُبض، وكأنّ الذي كان بينهما كان سعياً من عُمر إلى أنْ يكون مثل خالد في كلّ شيء وأنْ يملك ما كان يملك. تلك هي الرغبة في الاقتداء، ذاك المرض الذي حدّثناكم عنه سابقاً، وهو ما يجعل الحديث في شأن الرجليْن أعذب وأمتع، ولكنْ، اسمحوا أنْ نوقف الحديث، فهذه الأخبار على علاقة بخلافة عُمر، وهي تاريخ لاحق بالتاريخ الذي نحن بصدده الآن، وهو خلافة أبي بكر، فلا يجب أنْ نَهضمَ الرجل حقّه ونُهملَه ونهتمّ بغيره. اسمحوا إذن، أنْ نعود إلى بيت أبي بكر ونرصد لكم ما تمّ فيه البارحة من أحداث.

كان عُمر بنُ الخطّاب وخالد بنُ الوليد في تلك الجلسة، أحدهما قبالة الآخر، لا يتحدّثان حديثاً مباشرا، بل من خلال وسائط وعبر أصوات الآخرين. وكانا لا ينظر أحدهما إلى الآخر، وكأنّهما يتجاهلان. استقرّ ليلتها الرأي على أنْ ينزل أبو بكر من الغد المدينة، ويخطب من على منبر الرسول، ويبايعه الناس بيعة العامة بعد أنْ بايعوه بيعة الخاصّة في السقيفة. واستقرّ

الرأي كذلك على أنْ يتولّى العسكر تأمين المسجد والتدخّل إذا ما امتنع الناس عن البيعة. كما استقرّ الرأي على أنْ يتولّى خالد بنُ الوليد القيادة العامّة والتنسيق. سكت عُمر على الضيم ليلتها، وهو لا يستطيع أنْ يُعارض جهاراً مثل هذا الأمر، وسيتظر اختلاءه بأبي بكر لينبّهه إلى خطر وجود خالد جنبه.

بعد أن اتُّخذت هذه القرارات، شكر خالد الحضور، وطلب إليهم بودّ ظاهر أنْ يُغادروا البيت حتى يخلوَ أبو بكر للراحة، وهو المُقدم من غد على التنقّل والخطبة وتقبّل البيعة. فنهضوا جميعاً، وسلّموا وودّعوا وخرجوا، إلاّ عُمر ظلّ جالساً مكانه حتى نهض أبو بكر وسار إليه وقال له: ارجعْ إلى بيتك يا عُمر وأصبْ شيئاً من الراحة، فلا خوفَ عليّ الآن وخالد هنا، وعسكره يُحيط بالبيت. عُد إلينا صباحاً مع أبي عبيدة وهؤلاء الصحب المخلصين. فنهض وودّع وخرج وهو يغلي غليان القدر ويلعن خالد بنَ الوليد بينه وبين نفسه. وبات خالد ليلته في بيت أبي بكر، صُحبة أبي بكر، على نفس الحصير. وها هو هذا الصباح على أتمّ أهبة ليقود أبا بكر إلى حيث يجب أنْ يقوده، إلى المدينة والمسجد والخطبة من على منبر الرسول والبيعة العامّة.

ما إنْ أصدر خالد بن الوليد أمره إلى بلال بالإسراع إلى الأذان في الناس وجمعهم، حتى طلب من أبي بكر الدخول على زوجته ابنة خارجة لتعدّه لهذا اليوم المشهود. لم يفهم أبو بكر المقصود. أضاف خالد موضّحاً: يا خليفة رسول الله، إنّك لم تعد من عامّة الناس، وستصعد اليوم المنبر وأنت خليفة، والخلافة لها نواميسها، فلا بدّ أنْ تلبس لها لبوسها، وتتعطّر لها بعطرها، حتى تبدو على مُحيّاك سيماؤها، وأهلُك أدرى بهذا منك، فبنت خارجة من بني الحارث وهم قوم من الأعيان يعرفون الرئاسة والترف والزينة، فاستشرها ترشدك إلى ما فيه الصلاح. وأدار ظهره إلى أبي بكر وخرج. خاف أنْ يستدرجه أبو بكر إلى المزيد من التبرير والتعليل فيقول له ما يجب السكوت عنه. فأبو بكر رجل زاهد في الدنيا، بخيل مع أهله ونفسه، لا يهتمّ بأمر اللباس والأكل، يجلس على التراب والرمل، ويركب من غير سرج أو بردعة، ويحزم رداءه بحبل، ويجهل نواميس القيادة والإمارة والخلافة. وهذا معلوم لدى القاصي والداني، ولكنّ خالداً لا يجب أنْ يقول مثل هذا الكلام أمام أبي بكر، وأبو بكر اليوم خليفة. تمنّى لو لبس أبو بكر الحرير مثله ومثل عبد الرحمان

ابن عوف[623]، وتعطّر كما يتعطّران. ولكنّه كان يعرف أبا بكر معرفة جيّدة، ويعرف أنّه بعيد كلّ البعد عن مثل هذا الأمر، لا تخطر الزينة على باله، ولا يدور بخُلده تحسين هندامه. كذلك أوكل الأمر إلى بنت خارجة، لعلّها تفعل في أبي بكر فعلها فيخرج اليوم على الناس أنيقاً بهيجاً، في مستوى الموكب العظيم الذي يُعدّه له خالد!

خرج خالد بنُ الوليد يتفقّد العسس حول بيت أبي بكر، ويتفقّد عملاءه الذين وضعهم على إعداد الموكب وتجهيز الفرس الذي سيركبه أبو بكر اليوم، وكان ركبه أمس، وحدّثناكم عنه في إبّانه. كان كلّ شيء على ما يُرام. اطمأنّ خالد وركب فرسه وأطلق له العنان في هَملجة، يُقارب بين خُطاه مع الإسراع، حتى أشرف على مراكض الخيل، وهو مكان على بعد نحو نصف ميل من بيت أبي بكر، على الطريق من السُّنح إلى المدينة. شَعُر بالفخر وهو يقف عند مراكض الخيل. يا له من قائد ماهر! مشت الأمور كما خطّط لها واستنبط. ها العسكر كلّه اجتمع بأمره. أخذ مكانه على رأس ألف منهم، ووضع على كلّ ألف قائداً، وأعطى إشارة الانطلاق عائداً إلى بيت أبي بكر.

كان عُمر وأبو عُبيدة وبعض الأعيان من الأنصار قد وصلوا في تلك الأثناء إلى بيت أبي بكر، فخرج إليهم أبو بكر، ووقفوا جميعاً عند الباب ينتظرون الأمر من خالد بالتقدّم، وخالد غائب في تلك اللحظة. تقدّم أبو عُبيدة من أحد العسكر القائم بالحراسة، وسأله عن خالد، فأجابه إنّه، والله، آت في التوّ. وقبل أنْ يعود أبو عبيدة إلى مكانه ظهرت كواكب العسكر تنشر الأغبرة والأتربة وتتقدّم لتقف، كوكبة بعد كوكبة، أمام هؤلاء القوم: «فجاءهم خالد ابن الوليد ومعه ألف رجل، وجاءهم سالم مولى أبي حذيفة ومعه ألف رجل، وجاءهم معاذ بن جبل ومعه ألف رجل، فما زال يجتمع إليهم رجل رجل حتى اجتمع أربعة آلاف رجل، فخرجوا شاهرين بأسيافهم يتقدّمهم عُمر بنُ الخطّاب حتى وقفوا بباب مسجد رسول الله[624]» وترجّلوا وطافوا بالساحة بين الناس.

كان المشهد رائعاً. لم تر السُّنح، مُذ كانت السُّنح، شيئاً كهذا. ولم تعرف الطريق بين السُّنح والمدينة سيلاً من المشاة والفرسان لا ينتهي كهذا الذي

رأت اليوم، وكانت من قبلُ لا ترى إلاّ أبا بكر راجلاً، يسعى وحده في صمت، أو يتبعه بعض أهله، في صمت كذلك. ولم ترِ المدينة، حتى في عهد رسولها، جيشاً بهذا العدد يطوف في سككها، ولا خيلاً بهذه الأعداد تطأ تربتها العطرة وتنبث بالحافر فيها. كانت الجيوش من قبلُ تُعسكر خارج المدينة، في الجرف أو غيره، ولا تدخل المدينة المقدّسة. انتُهكت الحرمات، وجاء الدنس يحكم بأحكامه، وخاف الناس سوء العاقبة.

خرج الناس من المسجد الذي تجمّعوا فيه منذ أذّن فيه بلال بالصلاة. أصابتهم الدهشة من المشهد العظيم والركب الجليل والعسكر المهول. كانوا منذ ساعة قد استغربوا الأذان في غير وقته، ولكنّهم وجدوا له التعلاّت والتبرير، فقالوا: لعلّ بلالاً، وهو لا يعرف العدّ والحساب، قد أخطأ إذ غاب عنه الرسول ولم يُعلمه بحلول وقت الصلاة. وقالوا: لعلّ أبا بكر غيّر مواعيد الصلاة، تماماً كما يُغيّر الحاكم الجديد ما استنّ سابقه من قوانين. وهذا طبيعيّ في كلّ عصر ومصر. أمّا هذا الموكب الجميل من الجيش العرمرم والأعيان والوجوه فلا بدّ أنْ يكون وراءه سرّ عظيم. شَعُر الناس بأنّ شيئاً تغيّر. ظنّوا ذلك من علامات الساعة.

وقد وصف الناس ذلك اليوم المشهود بشتّى الأوصاف وقالوا فيه ما قالوا، وأشاعت الكتب أقوالهم، وقد رصدنا لكم بعض ما شاع. قال قائلٌ: «كان عُمر مُحتجزاً يُهرول بين يديْ أبي بكر ويقول: إنّ الناس قد بايعوا أبا بكر[625].» وقال قائلٌ آخر: «إنّ عُمر احتزم بإزاره وجعل يطوف بالمدينة وينادي: ألا إنّ أبا بكر قد بويع له فهلمّوا إلى البيعة، فينثال الناس يُبايعون، فإذا عرف أنّ جماعة في بيوت مستترون كان يقصدهم في جمع كثير ويكبسهم ويحضرهم المسجد فيُبايعون[626].» وقال قائلٌ ثالث: «وإذا بأبي بكر ومعه عُمر وأبو عُبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم مُحتجزون بالأزر الصنعانيّة، لا يمرّون بأحد إلاّ خبطوه، وقدّموه، فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء ذلك أو أبى[627].»

وتواصلت الأحداث في ظلّ العنف الشديد. فقد ذكر شاهد عيانٍ أنّ «رجلاً من الأنصار وثب فقال: أنا جُذيلها المُحكّك وعُذيقها المُرجّب، فأُخذ ووُطئ في بطنه ودسّوا في فيه التراب[628].» وذكر شاهد آخرُ أنّ «جماعة من

الأعراب قد دخلوا المدينة ليمتاروا منها، فشُغل الناس عنهم بموت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فشهدوا البيعة وحضروا الأمر، فأنفذ إليهم عُمر واستدعاهم وقال لهم: خذوا بالحظّ من المعونة على خليفة رسول الله، واخرجوا إلى الناس واحشروهم ليبايعوا فمن امتنع فاضربوا رأسه وجبينه، والله، لقد رأيتُ الأعراب تحزّموا واتّشحوا بالأزر الصنعانيّة وأخذوا بأيديهم الخشب وخرجوا حتى خبطوا الناس خبطاً وجاؤوا بهم مُكرَهين إلى البيعة. وأمثال ما ذكرنا من الأخبار في قهر الناس على بيعة أبي بكر وحملهم عليها بالاضطرار كثيرة، ولو رُمنا إيرادها لم يتّسع لها الكتاب[629].»

وبعد الطواف بأبي بكر بين الناس في الساحة، «أقبلت الجماعة التي بايعته تزفّه زفّاً إلى مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[630]» ثمّ أخذ عُمر بذراعه وقاده إلى المنبر وأبو عُبيدة بن الجرّاح يتبعهما. وفي المسجد الذي غصّ بالناس، كانت هناك حلقات قد انتصبت، كما انتصبت أمسِ، تتدارس الأمر وتنظر في مستقبل الأيّام وترسم استراتيجيات العمل البنّاء. «فقد جلس عليّ في المسجد واجتمع إليه بنو هاشم ومعهم الزبير بن العوّام، واجتمعت بنو أميّة إلى عُثمان بن عفّان، وبنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمان بن عوف، فكانوا في المسجد كلّهم مُجتمعين لمّا أقبل أبو بكر ومعه عُمر وأبو عُبيدة بن الجرّاح، فقال لهم عُمر: ما لي أراكم مُجتمعين حلقاً شتّى، قوموا فبايعوا أبا بكر، فقد بايعتُه وبايعه الأنصار، فقام عُثمان بنُ عفّان ومن معه من بني أميّة فبايعوه، وقام سعد وعبد الرحمان بنُ عوف ومَن معهما من بني زهرة فبايعوا، وأمّا عليّ والعبّاس بنُ عبد المطّلب ومن معهما من بني هاشم فانصرفوا إلى رحالهم ومعهم الزبير بنُ العوّام، وكانت أمّه صفيّة بنت عبد المطّلب، فكان يعدّ نفسه من بني هاشم[631].»

لم يَكفِ عُمر أنْ يُبايع عُثمان ومَن معه، وسعد وعبد الرحمان بنُ عوف ومَن معهما. كان لا بدّ أنْ يُبايع الناس أجمعين. فاعتلى عُمر المنبر «فتشهّد وأبو بكر صامت لا يتكلم، وقال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى يدبّر أمرنا ويكون آخرنا، فإن يك محمد قد مات فإنّ الله تعالى قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله، فإنْ اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإنّ الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، وثاني

اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوا[632].» ثمّ قال لأبي بكر: «اصعد المنبر. فلم يزل به حتى صعد المنبر[633].» وقد وصف الصحابيّ الجليل أنس بنُ مالك هذا المشهد، فقال: «لقد رأيتُ عُمرَ يُزعج أبا بكر إلى المنبر إزعاجاً[634]» ويدفعه إليه بقوّة ولم يطب له خاطر حتى استقرّ أبو بكر على المنبر.

صعد أبو بكر المنبر وانتظر أنْ يتقدّم الناس إليه زُرافات ووُحداناً، ولكنّ الناس لم يتقدّموا إليه زُرافات ووُحداناً، بل بأعداد قليلة لا تفي بالحاجة. ساءه ذلك وحزّ في نفسه، وهو مَنْ هو في الإسلام وعند النبيّ، رحمه الله. سعى إلى الناس بنفسه، فلعلّ كلام عُمر لم يبلغهم على صحيح وجهه، أو لعلّهم لم يفهموا المقصود من البيعة والخلافة، وهم لم يتعوّدوا مثل هذا الأمر. اسمع: «لمّا أبطأ الناس عن أبى بكر قال: مَن أحقّ بهذا الأمر منّي؟ ألستُ أوّل من صلّى، ألستُ، ألستُ، ألستُ؟ فذكر خصالاً فعلها مع النبى صلّى الله عليه وسلّم[635].» واسمع أيضاً: «لمّا بويع أبو بكر رأى من الناس بعض الانقباض، فقال: يا أيّها الناس ما يمنعكم؟ ألستُ أحقّكم بهذا الأمر؟ ألستُ أوّل من أسلم؟ ألستُ أوّل مَن صلّى مع رسول الله؟ ألستُ صاحبه؟[636]»

رقّ الناس لحال أبي بكر وهو يستجديهم رغم ما هو عليه من المكانة في الإسلام ولدى النبيّ رحمه الله، فقاموا يُبايعونه، فتزايد بهم عدد المبايعين من روّاد المسجد وأهل الصُّفّة. وقد فعلوا ذلك احتراماً لشيوخته وتقديراً للصحبة ومُكافأةً له على تفوّقه على الناس، وكان في كتاب الأوائل هو الأوّل في كلّ شيء، كما صرّح بذلك هو نفسه منذ حين.

5

كان طعم الخلافة لذيذاً ممتعاً، فأطال أبو بكر وعُمر وأبو عُبيدة وصحبهم البقاء بين الناس في المسجد لا يُغادرونه. ولكنّ الخلافة كانت يومئذ أمراً جديداً طارئاً، لا يعرفون بالضبط نوع البيعة الذي تقتضيه، ولم يكن بينهم منظّرون وعلماء في هذا الاختصاص ليفسّروا لهم ما هي على وجه التحديد، ولم تظهر الأحكام السلطانية بَعدُ لإرشادهم إلى ما به تقوم الخلافة ويكون الصلاح. فذهب في ظنّهم، وهم يتحسّسون الطريق يومها، أنّ البيعة لا تكون بيعة نافذة إلاّ بإجماع الناس قاطبة، وإنْ في ظلّ الإكراه والإجبار. وكان أبو بكر أكثرهم رغبة في بيعة عامّة شاملة لا يتخلّف عنها مُتخلّف، فالعُرس عُرسه، وهو لا يُريد أنْ يَغيبَ عنه بعض الناس بهذه التعلّة أو بتلك. وكان يُردّد على أصحابه: «ما كنتُ أحسب أنّ هذه البيعة إلاّ عن رضا جميع المسلمين. إنّ هذه البيعة ليست كبيع الثوب ذي الخلق. إنّ هذه البيعة لا مردود لها[637].»

كان طعم الخلافة لذيذاً ممتعاً، ولكنّ تخلّف بعض الوجوه عن بيعة أبي بكر نغّص عليهم لذّتهم ومتعتهم. وحتى يستقيم لهم الأمر على خير وجه، سَعوْا إلى أولئك المتخلّفين يحملونهم على البيعة ليحصل الإجماع التامّ والرضا الشامل فلا يَطعن طاعن في الخلافة، ولا يُصيب مُتعتهم ولذّتهم الفساد.

لم ينجحوا أمس في فرض البيعة على سعد بن عُبادة، سيّد الخزرج وزعيم الأنصار قاطبة، فبعث إليه أبو بكر اليوم «أنْ أقبل فبايع، فقد بايع الناس وبايع قومك. فقال: أما والله لا أبايع حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي، وأخضب سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي، فلا أفعل وايْمُ والله، لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربّي، وأعلم ما حسابي. فلمّا أُتيَ أبو بكر

بذلك قال له عُمر: لا تدعه حتى يُبايع. فقال له بشير بنُ سعد: إنّه قد لجّ وأبى وليس بمبايعكم حتى يُقتل، وليس بمقتول حتى يُقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه، فليس تركه بضارّ، إنّما هو رجل واحد، فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد واستنصحوه لِما بدا لهم منه[638].»

خافوا أنْ تشتعل نار الحرب بينهم وبين الأنصار، فتركوا سعداً على حاله، وتمّت القطيعة بينه وبينهم، «فكان سعد لا يُصلّي بصلاتهم، ولا يُجمّع معهم بجمعتهم، ويحجّ ولا يفيض بإفاضتهم[639]» وكان «لو يجد عليهم أعواناً لصال بهم، ولو يُبايعه أحد على قتالهم لقاتلهم، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله، وولي عُمر بنُ الخطّاب، فخرج إلى الشام، ولم يُبايع أحداً[640].» خرج إلى الشام خوفاً من بَطش عُمر، ولكنّ عُمر لم يُمهله طويلاً، بل أرسل إليه رجلاً يدعوه إلى البيعة، وأمره أنْ يحتال له ويقتله إنْ أبى البيعة. فلم يُبايع فقتله، وأشاعوا أنّ الجنّ قتلته[641].

ومثلما سَعوْا إلى سعد بن عُبادة سَعوْا إلى غيره من الذين لم يُبايعوا، وعلى رأسهم بنو هاشم ومَنْ لفّ لفّهم ودان لهم، فاصطفّوا صفّاً واحداً وراء عليّ، ورابطوا في بيت فاطمة لا يُغادرونه. تفقّد أبو بكر الناس ونظر في الوجوه فلم ير عليّ بن أبي طالب ولم ير الزبير بن العوّام[642]، ولم ير العبّاس بن عبد المطّلب ولم ير الفضل بن العبّاس. لم ير من بني هاشم ومَن اعتبر نفسه منهم أحداً. لم يعجبه ذلك منهم، فدعاهم إليه، وهدّدهم حيناً، وتودّد إليهم وتقرّب حينا آخر، فأبوا ثمّ اضطُرّوا وبايعوا، إذعاناً للأمر المقضيّ، أو تجنّباً لحدّ السيف المسلّط عليهم، أو أملاً في تحصيل الجاه الموعود به، إلاّ عليّ بن أبي طالب، رفض الإذعان والخضوع ولم يأمل في تحصيل الجاه الموعود به ومعه الجاه الطبيعيّ الذي لا يفنى.

لمّا خرج «عليّ والعبّاس بنُ عبد المطّلب ومن معهما من بني هاشم وانصرفوا إلى بيت فاطمة ومعهم الزبير بن العوّام، ذهب إليهم عُمر في عصابة فيهم أسيد بن حُضير وسلَمة بن أسلم، فقالوا لهم: انطلقوا فبايعوا أبا بكر. فأبوا[643]،» فعادوا إليهم يقولون: «بايعوا أبا بكر فقد بايعه الناس، فوثب الزبير إلى سيفه، فقال عُمر: عليكم بالكلب العقور فاكفونا شرّه. فبادر سلَمة فانتزع السيف من يده فأخذه عُمر فضرب به الأرض فكسره، وأحدقوا بمن

كان هناك من بني هاشم ومضوا بجماعتهم إلى أبي بكر. فلمّا حضروا قالوا: بايعوا أبا بكر فقد بايعه الناس، وأيْمُ والله لئن أبيتم ذلك لنُحاكمُنّكم بالسيف. فلمّا رأى ذلك بنو هاشم أقبل رجل فجعل يُبايع حتى لم يبق ممّن حضر إلاّ عليّ بن أبي طالب، فقالوا له: بايع أبا بكر[644].» فأبى، وقفل راجعاً من حيث أتى. فأعادوا معه الكرّة وقد عقدوا العزم على ألاّ يتركوه حتى يُبايع، خوفاً منه أوّلاً، وتخميناً ثانياً أنّ البيعة لا تكون إلاّ باجتماع الناس قاطبة.

ما إنْ وصل عليّ إلى بيت فاطمة ودخله، وكان جنب المسجد وأقرب البيوت إليه، حتى «أرسل أبو بكر إلى عليّ فدعاه، فأقبل والناس حضور، فسلّم وجلس، ثمّ أقبل على الناس فقال: لِمَ دعوتني؟ فقال له عُمر: دعوناك للبيعة التي قد اجتمع عليها المسلمون[645].» جُنّ جنونه. ثار على عُمر. لماذا أجابه عُمر نيابة عن أبي بكر الذي وجّه إليه السؤال؟ لم يستسغ الجواب ولم يرق له ذلك أبداً. ثمّ ما لعُمر يملأ فاه بلغة المتكلّم الجمع ويُدير بها لسانه، فيقول نحن، مُدمجاً نفسه في أبي بكر، وكأنّ البيعة بيعته أيضاً؟

استشاط عليّ غيظاً. صاح في عُمر: «احلب حلباً لك شطره. والله، ما حرصك على إمارته اليوم إلاّ ليؤمّرك غداً[646]» وأضاف: صدق مَن قال فيك: «إنّك تنطق عن لسان غيرك[647]» يا له مِن خُبث! يا له من هَتك للشرعيّة! يا له من اغتصاب للحقّ الذي أورثه الله آلَ البيت! واسترسل في خطبة طويلة اخترنا لكم منها هذا الذي تأتّى: «إنّما أخذتم هذا الأمر من الأنصار بالحجّة عليهم، والقرابة لأبي بكر، لأنكم زعمتم أنّ محمّداً منكم، فأعطوكم المقادة، وسلّموا إليكم الأمر، وأنا أحتجّ عليكم بالذي احتججتم به على النصارى، نحن أولى بمحمّد حيّاً وميّتاً، لأنّا أهل بيته، وأقرب الخلق إليه، فإنْ كنتم تخافون الله فانصفونا، واعرفوا لنا في هذا الحقّ ما عرفته لكم الأنصار[648].»

استرسل عليّ في تعداد العناصر التي تؤهّله دون غيره للاضطلاع بالإمامة والنهوض بالحكم، وقدّم الحجج على وصيّة النبيّ له بتولّي الأمر من بعده. كان يعرف أنّ في أبي بكر، منذ عرف أبا بكر، ميلاً إلى الشرعيّة والعدل والحقّ، فأراد أنْ يُحرّك فيه الأحاسيس الدفينة ويذكّره بقربه من النبيّ. ولكنّ أبا بكر ظلّ صامتاً لا يُحرّك ساكناً كأنّ الأمر لا يعنيه. فتكلّم عُمر، وتساءل الناس بشأنه هذا السؤال: هلّ نوّبه أبو بكر بصفة رسميّة ليتكلّم عنه، أم تُراه

سعى إلى النيابة من تلقاء نفسه، أم تُراها خطّة مدروسة تمّ بمُقتضاها تقاسم الأدوار؟ قام عُمر إلى عليّ مُتجاهلاً تماماً ما قدّم من شرعية وحجج، وقال له: «إنّك أيّها الرجل لست بمتروك، أو تُبايع كما بايع غيرك[649].»

يا له من احتقار واضح! لم يُناده باسمه، ولم يخصّه بعبارة تليق بمقامه، ولم يذكر فيه خصلة من خصاله. ازداد غيظاً، صاح في عُمر: «إذن لا أقبل منك ولا أبايع مَنْ أنا أحقّ بالبيعة منه[650].» أجابه أبو بكر مُغتاظاً: «إنّي، والله، كنتُ في هذا الأمر قبلك[651].» وبدأ بينهما الجدل في الأولويّات وجميع أنواع السبق، هذا ينسبها إليه والآخر ينسبها إليه، وارتفعت الأصوات بالصراخ. تدخّل أبو عُبيدة بن الجرّاح، كأنّه يسعى إلى أنْ تنفرج الأزمة بين الجماعة ويُخفّف من حدّة الغضب، قال: «والله، يا أبا الحسن، إنّك لحقيق لهذا الأمر لفضلك وسابقتك وقرابتك، غير أنّ الناس قد بايعوا ورضوا بهذا الشيخ، فارضَ بما رضي به المسلمون[652].»

ثارت ثائرة عليّ. لم يعد يعقل. هذا أبو عبيدة الذي كان لا شيءَ قبل الإسلام، فقرّبه النبيّ بالإسلام إليه، وأحاطه بالعطف الكبير، ورفعه المنزلة العليّة وسمّاه أمين الأمّة، يتطاول على ابن عمّ النبيّ من غير حقّ، ويجلده جلداً بكلامه اللاذع الذي ظاهره اعتراف وباطنه نكران. أزبد وأرعد وقال: «يا أبا عُبيدة، أنت أمين هذه الأمّة، فاتّق الله في نفسك، فإنّ هذا اليوم له ما بعده من الأيّام، وليس ينبغي لكم أنْ تُخرجوا سلطان محمّد من داره وقعر بيته، إلى دوركم وقعور بيوتكم، ففي بيوتنا نزل القرآن، ونحن معدن العلم والفقه والدين والسنّة والفرائض، ونحن أعلم بأمور الخلق منكم، فلا تتبعوا الهوى فيكون نصيبكم الأخسّ[653].»

شعُر أبو عُبيدة بما يختلج في عليّ من ألم وأسى وجُرح لمّا يندمل، وأراد أنْ يُهوّن عليه ويدعوه إلى التسليم بالأمر المقضيّ، فقال له: «يا ابن عم، لسنا ندفع قرابتك ولا سابقتك ولا عملك ولا نصرتك، ولكنّك حَدث السنّ، وأبو بكر شيخ من مشايخ قومك، وهو أحمل لثقل هذا الأمر، وقد مضى الأمر بما فيه فسلّم له، فإنْ عمّرك الله يُسلّموا هذا الأمر إليك، ولا يختلف فيك اثنان بعد هذا إلاّ وأنت به خليق وله حقيق، ولا تبعث الفتنة في أوان الفتنة، فقد عرفت ما في قلوب العرب وغيرهم عليك[654].»

ادلهمّت السماء في ناظريْ عليّ. شعر بالإهانة على كلّ مرأى وعلى كلّ مسمع. عيّره أبو عُبيدة بأنّه حَدث السنّ. اعتبره صبيّا لا يصلح للأمر، وهو في عزّ الشباب وعلى أبواب الكهولة. كان له يومئذ ثلاث وثلاثون سنة كاملة، لا تنقص شيئاً، أسنّ اللهو هذه؟ أم هي الجاهليّة عادت في أوضح صورة، تؤهّل الشيوخ لكلّ أمر مهمّ، وتُقصي الشباب كما تُقصي الكهولة؟ وإسلاماه! وامحمّداه!

نظر إلى الناس في المسجد، شعر بالخيانة والغدر، قال كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة ويُكرّر ما قاله منذ حين: «يا معاشر المهاجرين والأنصار، الله الله، لا تنسوا عهد نبيّكم إليكم في أمري، ولا تُخرجوا سلطان محمّد من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن حقّه ومقامه في الناس. فوالله، معاشر الجمع، إنّ الله قضى وحكم ونبيّه أعلم وأنتم تعلمون بأنّا أهل البيت أحقّ بهذا الأمر منكم. أما كان القارئ منكم لكتاب الله الفقيه في دين الله المضطلع بأمر الرعيّة، والله، إنّه لفينا لا فيكم، فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحقّ بُعداً، وتُفسدوا قديمكم بشرّ من حديثكم[655].»

تهامز الناس وتلامزوا. هؤلاء رقّوا لحاله وأولئك شمتوا. كثر اللغط. تشجّع بعضهم وتكلّم: «قال بشير بنُ سعد الأنصاري الذي وطّأ الأرض لأبي بكر، وقالت جماعة من الأنصار: يا أبا الحسن، لو كان هذا الأمر سمعته منك الأنصار، قبل بيعتها لأبي بكر، ما اختلف فيك اثنان[656].» ثمّ عاد بشير بنُ سعد يُكرّر، كأنّه يتملّص من المسؤوليّة ويرميها على عليّ: «يا أبا الحسن، أما والله لو أنّ هذا الكلام سمعه الناس منك قبل البيعة لما اختلف عليك رجلان، ولبايعك الناس كلّهم، غير أنّك جلستَ في منزلك ولم تشهد هذا الأمر، فظنّ الناس أنْ لا حاجة لك فيه، والآن فقد سبقت البيعة لهذا الشيخ، وأنت على رأس أمرك. فقال عليّ: ويحك يا بشير! أفكان يجب أنْ أترك رسول الله في بيته فلم أجنّه إلى حفرته، وأخرج أنازع الناس بالخلافة[657].»

وخرج مُغضباً، وعاد إلى بيت فاطمة.

لم يَرُقْ هذا الأمر للثالوث الجالس في المسجد يتسلّم من الناس مقاليد الحكم بالبيعة والولاء والخبط. كان شيءٌ من نار جهنّم يستعر في جوف أبي

عُبيدة، وهو لا يرى غير شبح النبيّ جاثماً على صدره يُذكّره بما كان من أمره في جاهليّته وفي إسلامه، يُذكّره بأنّه المؤتمن على وصايا النبيّ، وقد خان الأمانة. صمت ولم يتكلّم، كعادة أبي عُبيدة في الظروف الحرجة. وأخذ الغيظ من أبي بكر مأخذاً. شعُر بالعجز عن النيل من عليّ الذي تحدّاه على الملإ ولم يُبايع. واهْمَأكَّ عُمر وارْمَأكَّ واصْمَأكَّ وقد امتلأ غضباً[658]، وقال في نفسه: لا بدّ من إصغار عليّ وإذلاله. لا بدّ له من الإذعان للأمر المقضيّ. قام مرّة أولى وسعى بين يدي أبي بكر، وقال له: ابعث إليه من جديد يرجع ويبايع. لم يأمر أبو بكر بشيء. عاد إلى مكانه وجلس. ثمّ قام مرّة ثانية وسعى بين يديْ أبي بكر وقال له ما كان قال له سابقاً. ولم يفعل أبو بكر شيئاً. ثمّ قام مرّة ثالثة وسعى بين يديْ أبي بكر غاضباً، وقال له ما كان قاله له في المرّة الأولى وفي المرّة الثانية، وأضاف يُخيفه: «أرسل إلى عليّ فليُبايع، فإنّا لسنا في شيء حتّى يُبايع ولو قد بايع أمنّاه وغائلته[659]» وزاد مزهوّاً: «إنّ لك قوّتي مع قوّتك[660]» فلا تخف «وإنّ قوّتي لك مع فضلك[661].»

آتت الجملة السحريّة أُكُلَها. انتهى الأمر إلى غايته. بلغ العددُ كمالَه. ثلاث مرّات ليس غيرُ. كان ذلك كافياً لتحريك أبي بكر وإزعاجه والزجّ به في المعركة، فقال لعُمر: «ائتني به بأعنف العنف[662].» لم يكن عُمر ينتظر شيئاً آخر من أبي بكر غير الإذن له بإذعان عليّ لأمره، وإنْ في ظلّ العنف وحتى أعنف العنف. كان عُمر الشديد في حاجة إلى وقود من هذا القبيل ليسطوَ ويسود. وقد تناقل الرواة ما كان من أمره مع عليّ بشتّى الصيغ، فقال بعضهم: «أتى عُمر بنُ الخطّاب منزل عليّ، وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، فقال: والله، لأحرقنّ عليكم أو لتخرُجُنّ إلى البيعة، فخرج عليه الزبير مُصْلِتاً بالسيف، فعثر فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه[663].» وقال بعضهم: «فجاء عُمر، ومعه قبس، فتلقّته فاطمة على الباب، فقالت فاطمة: يا ابنَ الخطّاب، أتَراكَ مُحرّقاً عليَّ بابي؟ قال: نعم، وذلك أقوى فيما جاء به أبوك[664].» وزاد آخرون تفاصيل كثيرة تفنّنوا في صياغتها للتعبير عن شدّة عُمر وغلظته وما أتاه من عنف لقهر بنت النبيّ وحمل صهره على المبايعة، وها تلك التفاصيل كما سجلها القدامى في أمّهات الكتب:

«قال عُمر لأبي بكر: ما يمنعك أنْ تبعث إليه فيُبايع فإنّه لم يبق أحد إلاّ وقد بايع غيره؟ وكان أبو بكر أرقّ الرجلين وأرفقهما وأدهاهما وأبعدهما غوراً والآخر أفظّهما وأغلظهما وأجفاهما. فقال أبو بكر: مَن نُرسل إليه؟ فقال عُمر: نرسل إليه قنفذاً، وهو رجل فظّ غليظ جاف من الطلقاء أحد بني عديّ بن كعب فأرسله إليه وأرسل معه أعواناً، وانطلق فاستأذن على عليّ عليه السلام فأبى أنْ يأذن لهم. فرجع أصحاب قنفذ إلى أبي بكر وعُمر وهما جالسان في المسجد والناس حولهما، فقالوا: لم يأذن لنا. فقال عُمر: اذهبوا، فإنْ أذن لكم وإلاّ فادخلوا عليه بغير إذن. فانطلقوا فاستأذنوا فقالت فاطمة عليها السلام: أُحرّج عليكم أنْ تدخلوا عليّ بيتي بغير إذن. فرجعوا وثبت قنفذ الملعون، فقالوا: إنّ فاطمة قالت كذا وكذا، فحرّجتنا أنْ ندخل بيتها بغير إذن منها. فغضب عُمر، وقال: ما لنا وللنساء؟ ثمّ أمر أناساً حوله، فحملوا حطباً وحمل عُمر معهم، فجعلوه حول منزل عليّ وفاطمة وابنيهما عليهم السلام. ثمّ نادى عُمر حتى أسمع علياً وفاطمة عليهما السلام: والله، لتَخرُجنَّ يا علي، ولتُبايعنَّ خليفة رسول الله أو لأضرمنَّ عليك بيتك النار. فقالت فاطمة عليهما السلام: يا عُمر، ما لنا ولك؟ فقال: افتحي الباب وإلاّ أحرقنا عليكم بيتكم. فقالت: يا عُمر، أما تتّقي الله، تدخل عليّ بيتي؟ فأبى أن ينصرف. ودعا عُمر بالنار فأضرمها في الباب ثمّ دفعه فدخل، فاستقبلته فاطمة عليهما السلام وصاحت: يا أبتاه، يا رسول الله! فرفع عُمر السيف وهو في غمده، فوجأ به جنبها، فصرخت: يا أبتاه! فرفع الصوت، فضُربت به ذراعُها، فنادت: يا رسول الله، لبئس ما خلفك أبو بكر وعمر! فوثب عليّ عليه السلام فأخذ بتلابيبه، ثمّ نتره فصرعه ووجأ أنفه ورقبته وهمّ بقتله، فذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وما أوصاه به، فقال: والذي كرّم محمّداً بالنبوّة، يا ابن صهّاك، لو لا كتاب من الله سبق وعَهدٌ عَهِده إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعلمتَ أنّك لا تدخل بيتي. فأرسل عُمر يستغيث، فأقبل الناس حتى دخلوا الدار وثار عليّ عليه السلام إلى سيفه. فرجع قُنفذ إلى أبي بكر وهو يتخوّف أنْ يخرج عليّ عليه السلام إليه بسيفه، لِما قد عرف من بأسه وشدّته. فقال أبو بكر لقنفذ: ارجع، فإنْ خرج وإلاّ فاقتحم عليه بيته، فإنْ امتنع فأضرم عليهم بيتهم النار. فانطلق قنفذ الملعون، فاقتحم هو وأصحابه بغير إذن، وثار عليّ

عليه السلام إلى سيفه، فسبقوه إليه، وكاثروه وهم كثيرون، فتناول بعضهم سيوفهم، فكاثروه وضبطوه، وألقوا في عنقه حبلاً. وحالت بينهم وبينه فاطمة عليها السلام عند باب البيت فضربها قنفذ الملعون بالسوط فماتت حين ماتت وإنّ في عضدها كمثل الدملج، من ضربته، لعنه الله، ولعن من بعث به. ثمّ انطُلق بعليّ عليه السلام، يُعْتَلّ عتلاً حتى انتُهيَ به إلى أبي بكر، وعُمر قائم بالسيف على رأسه، وخالد بن الوليد وأبو عُبيدة بن الجرّاح وسالم مولى أبي حذيفة والمُغيرة بن شُعبة وأُسيْد بن حُضير وبشير بن سعد وسائر الناس جلوس حول أبي بكر، عليهم السلاح[665]» ينتظرون الأمر في عليّ لينقضّوا عليه انقضاض الوحوش على فريسة في غاب.

وبيناً هم كذلك إذ فوجئوا بكوكبة من النساء تتقدّم الهوينا نحوهم، وعلى رأسها فاطمة الزهراء، وقد خرجت خلف عليّ لمّا استُخرج من منزله عُنوة، وخرجت معها نساء بني هاشم. ولمّا وصلتهم، قالت: «لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم. تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردّوا لنا حقّاً[666].» ثمّ قالت: خلّوا عن ابن عمّي، فوالذي بعث أبي بالحقّ، إنْ لم تفعلوا نَشرتُ شعري، ووضعتُ قميص رسول الله على رأسي، وصرختُ إلى الله تبارك وتعالى. ورفعت فاطمة يديْها تستعدّ لتُنجز ما وعدت به، فأظلمت المدينة وتقلّعت أسس حيطان مسجد الرسول من أسفلها حتى لو أراد رجل أنْ ينفذ من تحتها لنفذ. ولولا بعض الشرفاء من ذوي الكرامات توسّل إلى فاطمة ألاّ تفعل لحلّ المكروه بالمدينة، ولكان ذلك، والله أعلم، آخر عهد الناس بالحياة الدنيا. رجعت فاطمة عمّا عزمت عليه، ورجعت الحيطان سيرتها الأولى، فغمرت المكان غبرة دخلت في خياشيم الناس وعطّلت الحركة[667].

انطلقت أصوات الشرفاء بالدعاء لفاطمة الزهراء. طلب عليّ من فاطمة أنْ تعود إلى بيتها. عادت فاطمة إلى بيتها. وعادت النساء وراءها. وقال عليّ لمضطهديه هنا: «والله، لو وقع سيفي في يدي لعلمتم أنّكم لن تصلوا إلى هذا أبداً [...] ولو استمكنتُ من الأربعين رجلاً لفرّقتُ جماعتكم، فلعن الله أقواماً بايعوني ثمّ خذلوني [...] فانتهره عُمر، وقال له: بايع. فقال: وإن لم أفعل؟ قال: إذاً نقتلك ذُلاً وصغاراً. قال: إذن تقتلون عبد الله وأخا رسول الله. فقال

أبو بكر: أمّا عبد الله فنعم، وأمّا أخو رسول الله فلا نقرّ لك به. قال: أتجحدون أنّ رسول الله آخى بين نفسه وبيني؟ فأعادوا ذلك عليه ثلاث مرّات[668].»

لم يُخف التهديدُ عليّاً فخاطب الناس قائلاً: «يا معشر المهاجرين والأنصار، أنشدكم بالله، أسمعتم رسول الله يقول يوم غدير خمّ كذا وكذا، وفي غزاة تبوك كذا وكذا؟ فلم يدع شيئاً قاله فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله علانيّةً للعامة إلاّ ذكّرهم إيّاه. قالوا: اللهمّ نعم. فلمّا تخوّف أبو بكر أنْ ينصره الناس وأنْ يمنعوه، بادرهم فقال له: كلّ ما قلته حقّ قد سمعناه بآذاننا وعرفناه ووَعَتْهُ قلوبنا. ولكن قد سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول بعد هذا: إنّا أهل بيت اصطفانا الله وأكرمنا واختار لنا الآخرة على الدنيا، وإنّ الله أبى أنْ يجمع لنا، أهل البيت، النبوّة والخلافة. فقال عليّ عليه السلام: هل أحد من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله شهد هذا معك؟ فقال عُمر: صدق خليفة رسول الله، قد سمعتُه منه كما قال، وقال أبو عُبيدة وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل: صدق، قد سمعنا ذلك من رسول الله صلّى الله عليه وآله[669].»

كانت تلك الضربة القاضية التي أطاحت بعليّ بن أبي طالب. سقط ضحيّة الخيانة العظمى والزور والتقوّل كذباً وبُهتاناً على الرسول والناس، حسب ما أفادت به شيعته. انهار مشلول القوى وهو يسمع من جديد أبا بكر يُردّد: «سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: إنّا أهل بيت اصطفانا الله وأكرمنا واختار لنا الآخرة على الدنيا، وإنّ الله لم يكن ليجمع لنا، أهل البيت، النبوّة والخلافة» ثمّ يسمع عُمر يُضيف مزهوّاً، شماتةً في عليّ وبني هاشم قاطبة: إنّ الناس «كرهوا أنْ يجمعوا لكم النبوّة والخلافة فتبجحوا على قومكم بَجَحاً بَجَحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووُفّقت[670].»

وبيناً كان الناس في هذا الأمر الجلل، والعنف سيّد الموقف، والموت يُخيّم على المجلس، «جاء الحسن بن عليّ إلى أبي بكر وهو على منبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: انزل عن مجلس أبي[671].» كان يومئذ صبيّاً لم يُجاوز ثماني سنين. ضحك الناس في المجلس ووقفوا يصفّقون ويُثنون على الصبيّ. اغتاظ عُمر وخاف أنْ يفلت من يديه القياد فيصبح المجلس سوقاً ودلاّلاً، كما تقولون. أوتي أبو بكر حيلة لينجوَ من السخريّة التي أصبح

محلّها في المجلس. نادى الحسن إليه، «وقال له: صدقتَ إنّه مجلس أبيك، ثمّ أجلسه في حجره، ثمّ بكى[672]» فاستحسن الناس ذلك منه، وشكروه على ما صدر منه قولاً وفعلاً وبكاء، وكاد المجلس يعود سيرته الأولى لولا أنْ قام الحُسين بن عليّ بن أبي طالب، وجرى إلى أبي بكر ووقف أمامه وقال له ما قاله له أخوه منذ حين: «انزل عن مجلس أبي[673].» كان للحُسين يومئذ ستّ سنين لم يُجاوزها. فعاد الناس إلى الضحك والصخب والتصفيق والاحتفاء بالصبيّ، وعُمر يستشيط غيظاً، وأبو بكر يُسرع إلى الحُسين ويدعوه إليه ويضعه على ركبته الأخرى ويرفع صوته بالبكاء. تحرّك عليّ. خاف أنْ يظنّ الناس به الظنون ويُتّهم باطلاً. خاف أنْ يذهب في خاطر أبي بكر أنّه أخرج المسرحيّة، وأعدّ ابنيه لذلك الموقف، ولقّنهما ذلك الكلام. خاف بطش عُمر. قام إلى ابنيه يتوعّدهما ويرفع في وجهيهما العصا ويقول لهذا وذاك: «والله، لأوجعنّك يا عذر[674]» ثمّ قال لأبي بكر معتذراً: «والله، ما هذا عن أمري. فقال أبو بكر: صدقتَ، والله ما اتهمتُك[675].»

تغيّر كلّ شيء. نجح أبو بكر في جعل الناس في صفّه. رقّوا لتلك الدموع التي سكبها مدراراً، وإنْ رأى فيها بعضهم دموعاً من جنس دموع التماسيح التي تستعملها للتمويه، فتظنّها قد دانت وخضعت، وهي تُعدّ للانقضاض الأخير على الفريسة. ولكنّ أبا بكر فاجأهم، وقال: «وُلّيتكم ولستُ بخيركم، أقيلوني أقيلوني. فقال له عُمر بن الخطّاب: انزل عنها يا لكع. إذا كنتَ لا تقوم بحجج قريش لِمَ أقمتَ نفسك هذا المقام؟ والله، لقد هممتُ أنْ أخلعك وأجعلها في سالم مولى أبي حذيفة[676].»

اختلط الحابل بالنابل، كما تقول العرب. ضوضاء في ضوضاء في ضوضاء. وكأنّ مسجد الرسول صار، معاذَ الله، سُوقاً عليها الدلاّلون يجيئون ويذهبون ويصيحون. وكأنّ مسجد الرسول صار، معاذَ الله، مركضاً للخيل عليها الأعراب يُجرونها وينهرونها. وكأنّ مسجد الرسول صار، معاذ الله، ملعباً للكرة الهجين. اختلط الأمر على الرواة، وعسُر عليهم تقصّي الحقائق، ومدّنا بالأخبار البيّنات. فقالوا: بايع عليّ تحت الضغط والإكراه. وقالوا لم يُبايع. وقالوا أشياء أخرى سيأتي البيان فيها في مُقبل الصفحات. نترك الأمر يستريح، لعلّ وعسى!

6

عاد عليّ بن أبي طالب إلى بيت فاطمة الزهراء مقهوراً. ضاعت الإمامة. ضاعت الخلافة. ضاعت الدنيا. عاد إلى قرآنه وقد آلى بيمين على نفسه أنْ لا يرتدي برداء إلاّ لصلاة حتى يؤلّف القرآن ويجمعه كلّه ويكتبه على تنزيله والناسخ والمنسوخ[677]. لعلّ في ذلك الفوز بالآخرة.

وفي البيت كانت فاطمة الزهراء تتألّم، تتلوّى. تنتحب. تبكي. آلمها تنكّرُ الناس لأبيها ولمّا يُوارَ التراب. آلمها خذلان الناس لها ولعليّ، ابن عمّها وبعلها. آلمتها الضربة وقد وجؤوا جنبها. شعرت بالجنين فيها يتلوّى، ولا بدّ أنْ تكون الضربة آلمته أيضاً. كم أحلمت النفس بهذا الجنين ليكون ثالث ثلاثة، فتكمُل به حلقة الحُسن. الحَسن والحُسين والمُحسن. ثلاثة أسماء اختارها أبوها[678] عن حكمة أو إلهام أو وحي، لا تدري بالضبط، ولكنّها فخورة بذلك أشدّ الفخر.

منذ عادت إلى البيت بعد أنْ تبعت عليّاً وقد أخذوه مُقيّد اليدين، مشدود العنق بحبل أسود[679]، وهي رابضة على السرير لا تستطيع حراكاً، ولا تستطيع وقف تيّار الصور التي كانت تتشكّل في داخلها شريطاً من الأصوات لن تمّحيَ من الذاكرة. منذ أخذوه وهي تتنازعها الأفكار، لا يقرّ لها قرار، تبحث عن مَخرج وما عسى تفعل في قابل الأيّام. وُفّقت بعد نزاع كبير مع الأشياء وأضدادها ونظائرها إلى ما هو خير لها والعيال. أسرّت بذلك إلى عليّ ما إنْ دخل عليها حجرتها وجاء إلى السرير يتعهّدها ويسأل عنها.

قالت له، وهو يسألها عن حالها ولا تسمع منه: لا شيء يربطنا الآن بالمدينة يا أبا الحسن. رحل أبي ولا خلافة هنا ولا إمامة. لا شيء الآن يحبسنا هنا. الرحيل الرحيل، يا أبا الحَسن، لم يبق في العمر إلاّ القليل.

صُدم عليّ. فتح فاهُ دَهشةً. لم تترك له فاطمة مجالاً للسؤال عن الرحيل والعمر القليل. قالت له: لا أريد أنْ أجبرك على أمر يا ابن عمّي، ولكنّي أريد أن أنجوَ بابنيَّ من براثن هؤلاء القوم وقد انقلبوا مَخالبَ، وانقلبوا أنياباً. لك أنْ تبقى إذا شئتَ. أمّا أنا فراحلة. ما إنْ يوارى أبو القاسم التراب حتى تجدني شددتُ الرحل إلى فَدَك، هناك بعيداً، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت. صارت مدينة الرسول، يا أبا الحَسن، وكراً للخيانة، فإلى الجحيم وكر الخيانة! لا أريد إرهاقك الآن، يا أبا الحسن. اذهب وأصب شيئاً من الراحة، يا أبا الحَسن، فقد آلموك وأهانوك وعذّبوك، وأنت الآن مرهقٌ تَعِبٌ. اذهب وأصب شيئاً من الراحة، فأنتَ مُقدم على تجهيز الرسول ودفنه، إنْ سمحوا بالتجهيز والدفن. غداً، يا أبا الحسن، أريدك أنْ تُجهّز لنا قافلة تأخذنا إلى فَدَك، أنا والحَسن والحُسين وفضّة النوبية، وأنتَ إنْ رأيتَ ما رأيتُ. هنالك، في تلك الواحة التي خصّني بها أبي، سأقيم لأفرح بابنيَّ، إنْ شاء الله! وأضع مُحسناً، إنْ شاء الله!

هَمْهَمَ عليّ يُريد أنْ يقول شيئاً ولكنّه لم يقل شيئاً. كان يعرف أنّ فاطمة إذا شاءت أمراً كان، ولا رادّ لِما شاءت. تمتم بكلام لا يفهمه غيرها. عرفت أنّه يُلبّي طلبها. أصابتها غبطة لم تعرفها فيها أبداً. شكرت الله على هذه النعمة. وشكرت عليّاً، بينها وبين نفسها طبعاً، ففاطمة لا تُظهر شيئاً أبداً. وفخرت به وقالت في دواخلها: إنّه والله، لزوج حسن.

نادت فاطمة الزهراء فضّة النوبية بصوت خافت لا يكاد يُسمع، ولكنّ فضّة النوبية سمعتها، وجاءت في الحين بين يديها. كانت قريبة من الباب عند اليسار، ترقب سيّدتَها من حيث لا تراها سيّدتُها. كانت تحبّ فاطمة الزهراء، وتخدمها بكلّ جوارحها، وتقول فيها ما يقوله النبيّ: إنّ فاطمة بضعة من محمّد. أسرّت إليها فاطمة أنْ سيري إلى العبّاس عمّي، يأتيني في الحين، أحتاجه في بعض أمري. جرت بالرسالة إلى العبّاس بن عبد المطّلب[680]، عمّ الرسول، وكانت داره إلى جنب المسجد ميزابها لاصق بباب المسجد يصبّ عليه[681]، اقتطعها له الرسول يوم التحق به مهاجراً، لا بهجرة الخلق بل بعدها بمدّة، فكان خاتم المهاجرين في الهجرة[682]. فالعبّاس لم يكن سبّاقاً إلى الإسلام، بل كان من الطبقة الثانية من المهاجرين، لم يشهد بدراً مع الرسول

بل مع المشركين، وأُسِرَ في بدر فيمن أُسِرَ من المشركين، ولم يُسلم إلاّ عقب ذلك[683]. ولكنّ الرسول كان «يثق به في أمره كلّه، ويقول: إنّ العبّاس منّي وأنا منه، وإنّ العبّاس صِنْوُ أبي فمَن آذى العبّاس فقد آذاني[684].» كانت مكانته عند الرسول أمراً عَجباً[685]، لا تضاهيها مكانة أبداً، يخفض له صوته إذا حضر، ويُجلّه إجلال الولد الوالد[686]. وكانت فاطمة مثل أبيها، تحبّ العبّاس وتُجلّه وتُعظّمه وتجعله صِنْوَ أبيها، فرأت أنْ تخبره بالأمر الذي عقدت العزم عليه وتستشيره في أمر فَدَك وخيبر، وهو أدرى منها بهذه الأمور، وله فيها نصيب، إذ هو وارث فيها مثلها.

جاء العبّاسُ فاطمة الزهراء على عجل. ما إنْ بلّغته فضّة النوبية فحوى الرسالة حتى أيقن أنّ بنت ابن أخيه التي كانت عنده بمثابة ابنته قد أصابها من القوم مكروه، فأسرع إليها لا يلوي على شيء.

رفعت فضّة النوبية صوتها وهي تدخل البيت قائلة للعبّاس: تفضّل يا عمّ، حتى تُشعر فاطمة بوصوله. فهمت عليها فاطمة. جمعت أشتات قوّاها وتحاملت على نفسها وجلست على الفراش. أدخلت عليها فضّة النوبية العبّاس. سلّم عليها، وقبّلت جبينه. ثمّ قال: رحم الله ابن أخي، يا فاطمة. تركنا أيتاماً، ذلك أمر الله فينا، لا مردّ له كما تعلمين، ولكنّي أقوم إلى جنبك، أحوطك وأرعاك، فلا تخافي.

شكرت فاطمة الزهراء العبّاس، وأثنت عليه بما هو أهله، ثمّ قالت في إيجاز: لم أعد، يا عمّ، أطيق البقاء هنا. قرّرت، يا عمّ، الرحيل إلى فَدَك، أقيم هناك مع ابنيّ، أحميهما من هؤلاء. لا شيء يُبقيني هنا. فاسمح لي بالرحيل، كما لو كنتَ أبي.

فوجئ العبّاس. لم يكن ينتظر منها هذا الأمر. فكّر وهو في الطريق إليها في أمور قد تكون فاطمة دعته من أجلها، ولكنّه لم يُفكّر في هذا الذي أخبرته به قطّ. كيف خطر لها هذا الخاطر؟ تساءل إنْ لم يكن هذا خيرَ ما يُمكن أنْ يسعى إليه آل البيت بعد أن اغتُصبوا الخلافة وأُذلّوا واضطُهدوا. تساءل إنْ لم يكن قرار فاطمة القاضي بالرحيل إلى فَدَك قراراً أُلهمته إلهاماً من قِبل أبيها، وهي بضعة منه، أو بوحي من السماء، وهي على علاقة بها. تساءل إنْ لم

يكن ذلك هجرةً جديدة كُتبتْ على آل البيت. بدا له أنّ فاطمة أصابت حيث أخطأ هو وأخطأ عليّ وأخطأ بنو هاشم. ففي حين كانوا يجرون وراء سراب ويُصارعون مُغتصبي الخلافة في الخلافة، كانت فاطمة تصبو إلى آفاق أرحب وحياة أفضل. أعجبه الأمر.

لم يُصارح العبّاس فاطمة بما وجد في قرارها من صواب. فقد اعتبر نفسه معنيّاً بفَدَك مثلها، ورأى، بينه وبين نفسه، أنْ يدرس الأمر مليّاً ويشاور فيه الفَضل ابنه وعقيلاً أخاه.

لم يُصارح العبّاس فاطمة بما دار في خُلده. شدّ على يدها وقال يدعوها إلى التريّث: لا تستعجلي الأمر يا فاطمة. نُصبح وننظر. أجابته حازمة: أتريدني، يا عمّاه، أنْ أقضي نحبي تحت إمرة هؤلاء؟ لو أُجبرتُ على ذلك لقضيتُ نحبي غداً. أترضى، يا عمّاه، أنْ أموت قهراً؟

خاف العبّاس. كان يعرف فاطمة معرفةً جيّدة، لا تنطق عن الهوى، ولا يهدأ لها بال حتى تُحقّق رؤاها. جاراها في أمرها ليظلّ على كسب ودّها، وهو لا يُريد مُجافاتها، قال لها: إذا كنتِ رأيتِ ذلك فليكن ذلك، يا بُنيّتي. قبّلت جبينه، وقالت: ما كنتُ أقدم على أمر إلاّ عن مشورتك ورضاك. لقد طلبتُ من أبي الحسن الاستعداد للخروج بمجرّد الانتهاء من تجهيز أبي ودفنه. حرّك رأسه موافقاً، وسلّم وخرج.

عاد العبّاس إلى منزله وفَدَك شغله الشاغل. أحلم النفس أنْ يُصبح سيّد فَدَك. ففَدَك واحة غنّاء فيها النخيل والتين والعنب، تجري من تحتها الأنهار، وتنبع منها العيون نبعاً. وفَدَك لا تُضاهيها قرية في النسيج، اشتهرت في الجزيرة بالفرش المطرّزة وضفير السعف. أحلم النفس أنْ يكون سيّد اليهود الذين اختطّوها وفلحوها وجعلوا منها جنّة على وجه الأرض. رأى نفسه يعود مثلما كان في الجاهلية سيّداً وخير سيّد.

تذكّر العبّاسُ ماضيَه المجيد في مكّة. تذكّر أباه عبد المطّلب وما كان من أمره مع أبرهة. «كان عبد المطّلب أوسمَ الناس وأجملهم وأعظمهم، فلمّا رآه أبرهة أجلّه وأعظمه وأكرمه على أنْ يجلس تحته [...] فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. وقال له: حاجتك؟ فقال: حاجتي أنْ يردّ عليّ

الملك مائتيْ بعير أصابها لي. فقال: أتكلّمني في مائتيْ بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينكَ ودينُ آبائك قد جئتُ لهدمه؟ قال له عبد المطّلب: إنّي أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربّاً سيمنعه[687].» تذكّر كيف ذهب كلام أبيه في الناس مثلاً. أعجبه ذلك منه، ورأى نفسه ابن أبيه في كلّ شيء، ورث عنه وسامته وجماله «فكان أبيض جميلاً بضّا له ضفيرتان، مُعتدل القامة[688]» وورث عنه جرأته في الكلام أيضاً. تذكّر أمّه نُتيلة. يا لها من امرأة! شقّت الطريق في الجاهليّة إلى أمر هامّ ما زال الناس يتنافسون فيه ويتبارون ويتسابقون حتى يوم الناس هذا. كانت أوّل مَن كست البيت الحرير والديباج وأصناف الكسوة. ضحك وهو يتذكّر هذا الأمر، لأنّه كان سبباً في ذلك. فقد ضاع وهو صغير لا يعقل، فنذرت أمّه نذراً، أنْ تكسوَ البيتَ إذا ما وجدته، فوجدته، ففعلت[689]. ثمّ ضحك كثيراً وهو يتذكّر أمراً آخر، ولو مرّ به في تلك الساعة مارّ لاتّهمه ببعض المسّ. تذكّر لمّا أُتيَ إلى أمّه فقيل لها: إنّ آمنة ولدت غُلاماً، فخرجت به أمّه حين أصبح، آخذة بيده، وهو ابن ثلاث سنين لا تزيد. فلمّا دخلا على آمنة، رأى، سرّه ما رأى وارتسم في عقله إلى الأبد. رأى غلاماً ليس كالغلمان ساعة الميلاد. تسمّر في مكانه ينظر إليه وهو يُحرّك رجليه ويَمصعُ بهما في عرصته، فاجتذبته النساء إليه وقلن له: قبّل أخاك[690]. كان ذلك المولود محمداً، نعم محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، ابن أخيه الذي هو اليوم بصدده. فالعبّاس عمّ النبيّ، والنبيّ يناديه يا عمّ وإنْ كان لا يكبره إلاّ بثلاث سنين. وضحك مرّة أخرى وهو يذكر جوابه إلى الناس إذا ما سألوه: مَن أكبر، النبيّ أم أنت؟ كان يُجيبُ: هو أكبر منّي وأنا أسنّ منه[691]. أعجبه هذا الجواب. ورأى نفسه من جديد مثل أبيه في كلّ شيء، حتى في طريقة إجابته عن أسئلة الناس، فمثلما كان أبوه جريئاً بليغاً مع أبرهة كان هو جريئاً بليغاً مع الناس. أعجبه هذا منه وفرح أنْ رأى ابن أخيه غلاماً ساعة الميلاد، ورآه صبيّاً في مكّة، ورآه نبيّاً، ورآه، ورآه.

تذكّر العبّاس نفسه في الجاهليّة. كان رئيساً في قريش[692]، وكان أكثر بني هاشم مالاً[693]، فولي الأمر في بني هاشم[694]، وسقى الحجيج، وجعل ثوباً لعاري بني هاشم، وجفنة لجائعهم ومِقطرة لجاهلهم[695].

يا له من ماض حافل بالجاه! أصابت العبّاس الحسرة على هذا الماضي التليد المجيد. كان وجهاً من وجوه قريش. يا للخزي، يا للعار، بعد العزّ

صار إلى الهوان! ها هو مهاجر من بين المهاجرين، نازل مثلهم ضيفاً على الأنصار، لا جاه له ولا سلطان حتى وإنْ كان أقرب الناس إلى النبيّ واقتطعه داراً وجعل له من خيبر مائتيْ وسقاً تمراً في كلّ سنة. ولكنّ هذا الذي أصابه في الإسلام لا يُساوي شيئاً إذا ما قارنّاه بما أخذ منه يوم أُسر مع المشركين في غزوة بدر. كان يومئذ أكثر الأساري فداءً لأنّه كان رجلاً موسراً، فافتدى نفسه بمائة أوقية من ذهب[696]، وطلب إليه النبيّ أنْ يَفديَ أيضاً عَقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفه عُتبة بن عمرو، ففعل، ودفع ما كان معه، ثمانين أوقية من ذهب وألف دينار، ودفع ما كان أودعه من ذهب ليوم الحاجة عند أمّ الفضل زوجته[697]، وقد أمر النبيّ صحبه ألاّ يذروا له درهماً واحداً، ففعلوا[698].

إنّ العبّاس لا يُنكر ما حباه به الإسلام في الدنيا من مكانة معنويّة مرموقة، فاستسقى به الناس وتبرّكوا بطلعته البهيّة «فسقاهم الله به، وأخصبت الأرض، وطفقوا يتمسّحون بالعبّاس ويقولون له: هنيئاً لك ساقي الحرميْن. وكان الصحابة يعرفون للعبّاس فضله ويقدّمونه ويُشاورونه ويأخذون برأيه. وكفاه شرفاً وفخراً أنّه كان يُعزّى بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا مات ولم يَخْلُف من عَصَباته أقربَ منه[699].» وهو لا يُنكر ما أعدّ له الإسلام في آخرته من منزلة عليّة فجعله في السناء الأعلى من الجنّة، جنب ابن أخيه النبيّ، وجعل له هناك منزلاً بينه وبين إبراهيم[700].

كان العبّاس يعرف كلّ هذا ولا يجحد منه شيئاً، ولكن شتّان بين هذا وما كان عليه أمره في الجاهلية! كان يُحبّ الجاه والسلطان والرئاسة. وقد سعى إلى الإمارة وطلبها من النبيّ لمّا أمّر الناس على الأصقاع التي أسلمت، ولكنّ النبيّ رفض أنْ يُؤمّره. وسعى إلى أنْ يستعمله على الصدقة فأبى عليه ذلك أيضاً. وظلّ بلا سلطان، فلا هوّ أمّره على إمارة ولا هو استعمله على الصدقة[701]. أمّا الآن وقد لاح في الأفق شبح فَدَك فقد أحلم العبّاس النفس بالسلطان. سيكون أميراً على فَدَك ويجمع إليه آل البيت. سيصبح سيّداً في بني هاشم.

7

كان المُغيرة بنُ شُعبة[702] «ضخم القامة، عبل الذراعيْن، بعيد ما بين المنكبيْن، أصهب الشعر جعده، لا يفرقه[703]» وكان من دهاة العرب، آية في الدهاء «يُقال له مُغيرة الرأي، لا يشتجر في صدره أمران إلاّ وجد في أحدهما مَخْرَجاً[704]» وكان ماكراً، آية في المكر «فلو أنّ مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخرج من باب منها إلاّ بالمكر لخرج المُغيرة من أبوابها كلّها[705]» فالتجأ إليه أبو بكر وعُمر وأبو عبيدة واستشاروه في أمر عليّ الذي رفض أنْ يُبايع، وخرج عنهم مُغاضباً، وخافوا أنْ يُحرّض عليهم بني هاشم، فيجتمع إليه بنو هاشم وغيرُ بني هاشم، فتُفلت من بين أيديهم الخلافة.

لم يبخل المُغيرة على الثالوث برأيه، فقال: «الرأي، يا أبا بكر، أنْ تلقوا العبّاس، فتجعلوا له في هذه الإمرة نصيباً، يكون له ولعقبه، وتكون لكم الحجّة على عليّ وبني هاشم، إذا كان العبّاس معكم. فانطلق أبو بكر وعُمر وأبو عُبيدة والمُغيرة حتى دخلوا على العبّاس رضي الله عنه، فحمد اللهَ أبو بكر، وأثنى عليه، ثمّ قال: إنّ الله بعث محمّداً صلّى الله عليه وسلّم نبيّاً، وللمؤمنين وليّاً، فمنّ الله تعالى بمقامه بين أظهرنا، حتى اختار له الله ما عنده، فخلّى على الناس أمرهم، ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم، متّفقين غير مُختلفين، فاختاروني عليهم والياً، ولأمورهم راعياً، وما أخاف بعون الله وَهَناً ولا حيرة ولا جُبناً [...] وما أزال يبلغني عن طاعن يطعن بخلاف ما اجتمعت عليه عامّة المسلمين، ويتّخذكم لجأً، فتكونوا حصنه المنيع، فإمّا دخلتم فيما دخل فيه العامّة، أو دفعتموهم عمّا مالوا إليه. وقد جئناك ونحن نريد أنْ نجعل لك في هذا الأمر نصيباً، يكون لك ولعقبك من بعدك، إذ كنتَ عمّ رسول الله، وإنْ كان الناس قد رأوا مكانك ومكان أصحابك فعدلوا الأمر عنكم. ثمّ قال عُمر:

إنّ رسول الله منّا ومنكم، وإنّا لم نأتكم حاجة منّا إليكم، ولكنّا كرهنا أنْ يكون الطعن منكم فيما اجتمع عليه العامّة[706].»

نظر العبّاس إلى المُغيرة نظرة طويلة. فَهم أنْ جاءه القوم بنصيحة من المُغيرة الداهية. فَهم أنّ أبا بكر وعُمر تكلّما بكلام لُقّناه، وكان المُغيرة هو المُلقّن. عجب من أمر الناس، تغيّروا بين يوم وليلة، تغيّروا بمجرّد رحيل نبيّهم. جاؤوا يشترون ذمّته ببعض شيء ليتخلّى لهم عن أهله، آل البيت وبني هاشم، يُنكّلون بهم ويسومونهم الذلّ والهوان. نظر إليهم شزْراً. نظر إليهم احتقاراً. سكت ولم يُجبهم. طال انتظارهم. قال أبو بكر: تَوحّد الله، يا أبا الفضل. ماذا تقول؟ لم يجد بدّاً من الجواب.

«تكلّم العبّاس، فقال: إنّ الله بعث محمّداً كما وصفتَ، نبيّاً وللمؤمنين وليّاً، فإنْ كنتَ برسول الله طلبتَ هذا الأمر فحقّنا أخذتَ، وإنْ كنتَ بالمؤمنين طلبتَ، فنحن من المؤمنين، ما تقدّمنا في أمرك ولا تشاورنا ولا تآمرنا ولا نُحبّ لك ذلك، إذ كنّا من المؤمنين وكنّا لك من الكارهين. وأمّا قولك: أنْ تجعل لي في هذا الأمر نصيباً، فإن كان هذا الأمر لك خاصّة فأمسك عليك فلسنا مُحتاجين إليك، وإنْ كان حقّ المؤمنين فليس لك أنْ تحكم في حقّهم دونهم، وإنْ كان حقّنا فإنّا لا نرضى منك ببعضه دون بعض. وأمّا قولك، يا عُمر، إنّ رسول الله منّا ومنكم فإنّ رسول الله شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها فنحن أولى به منكم[707].»

حُسم الأمر. تزحزحوا عن أماكنهم وصوّبوا بحو الباب وهمّوا بالخروج. لم ينهض العبّاس ليودّعهم، بل قال لهم وهو جالس وهم وقوف، يُعلن القطيعة بينه وبينهم: إلى الجحيم، أيّها الخونة، انقلبتم علينا واغتصبتم حقّنا ثمّ جئتم ترشونني وتشترون ذمّتي وتُطمعونني بشيء من خلافتكم الفاسدة. ألا، والله، إنّي لأدعو عليكم ربّي ليحكم فيكم بحكمه، وأترك لكم المدينة وأرحل مع فاطمة التي ستهجركم غداً إلى فَدَك حيث تُقيم بعيداً عنكم، في ظلّ ما ترك لها أبوها من ميراث هناك، ولا تتأخّر يا أبا بكر في منحنا ميراثنا من خيبر وغير خيبر وكلّ ما أفاء به الله على محمّد.

نزل هذا الكلام عليهم نزول الصاعقة. داروا على أعقابهم ورجعوا إلى حيث كان العبّاس جالساً. أحاطوا به كأنّهم يُريدون البطش به. خافهم ونادى بأعلى صوته، وكان صيّتاً ماهراً[708]: يا لآل البيت، يا لآل البيت! هرع الفضل ودخل عليهم وقفز إلى جنب أبيه. فقال له أبو بكر: لا تخف عليه منّا يا فضل. لا نُريد به شرّاً. كفانا الله شرّه. ثمّ نظر إلى العبّاس وقال له مُغضباً: أيّ ميراث يا العبّاس؟ لا فَدَك ولا خيبر ولا شيء من ذلك أبداً. اعلم فاطمة أنّ النبيّ صرّح بوضوح الحديث، وأنت لا تجهل ذلك، أنّ الأنبياء لا يُورثون في أهلهم، وأنّ ما تركوه صدقة. وأضاف عُمر حاقداً: اخبرها بذلك في الحين، وكفّ عنّا مُؤامراتك الفاشلة، وإنّا لن نتسامح مع المتآمرين. وأداروا له ظهورهم وخرجوا ولم يتركوا له مجالاً ليُجيب.

ندم العبّاس على ما قاله لهؤلاء النفر. ليته لم يُخبرهم بقرار فاطمة الخروج إلى فَدَك. فضح أمرها أمام أعدائها. خاف أنْ يكيدوا لها ويؤذوها في الطريق إذا ما خرجت إلى فَدَك. أسرع إلى فاطمة يدقّ بابها دقّاً عنيفاً، فخافت فضّة النوبيّة، فجاءت تجري، وقد ظنّت أنّ أتباع أبي بكر وعُمر من الأجلاف والأعراب، عادوا إلى فاطمة. فوجئت بالعبّاس على الباب. ارتبكت. هَمهَمت. لم يُمهلها العبّاس، قال: أدخليني على فاطمة. رفعت صوتها لتسمعها سيّدتُها وتستعدّ للزيارة، وقالت: سمعاً وطاعة، يا أبا الفضل، تفضّل، تفضّل.

دخل العبّاس على فاطمة وهي مُستغربة أمره. فالعبّاس كان عندها منذ حين، ولمّا يمضِ على خروجه زمن طويل، فما الذي أرجعه إليها؟ أوجست خيفة من هذه الزِيارة. وجدت فيها خِفّةً وهِمّةً ومُثولاً، فانتصبت لتسمع. لم يطل انتظارها. أخذ العبّاس يدها بين يديْه، تماماً كما كان يفعل أبوها، وقال متوتّرا يرتعش: يا بُنيّة، ضيّقوا علينا الخناق. حرمونا ميراث محمّد.

لم تفهم عليه فاطمة كلامه. ظنّته يَهذي من حمّى، أو قد أُهْتَرَ من الإرهاق والحزن على ابن أخيه. قالت له بودّ كبير: ماذا جرى يا عمّاه، أنت في حاجة إلى الراحة. قال مكسوراً: الراحة أصابها محمّد يا فاطمة، إذ مات، أمّا نحن فللتعب والظلم الشنيع والاحتقار والذلّ والعار. اضطهدونا يا فاطمة، سلبونا الخلافة، ومثّلوا بنا تمثيلاً، ولم يكفهم ذلك فقاموا يحرموننا الميراث، ميراث

محمّد، يا فاطمة، وقد أردناه السبيل إلى ربط الصلة بيننا وبينه، وتواصل اللحمة إلى الأبد.

استرجع العبّاس أنفاسه، وقد شرب من الشراب الذي أسرعت به إليه فضّة النوبيّة في العُسّ، وقصّ على فاطمة ما كان من أمره وأمر أولئك الرهط الخونة، كما سمّاهم، وقال لها إنّهم جاؤوا يشترون ذمّته ليفرّقوا بينه وبين بقية آل البيت وبني هاشم. وقصّ عليها ردّة فعلهم القاسية لمّا أعلمهم بما عزمت عليه من رحيل إلى فَدَكَ للفوز بنفسها وابنيْها في ظلّ ميراث أبيها. وأعلمها بقرارهم الذي لا يستند إلى شرعيّة إلاّ واهية والقاضي بحرمانها وحرمانه من الميراث. ثمّ شاء أنْ يعتذر لها في نهاية كلامه عن فضح أمر رحيلها لدى هؤلاء، ولكنّه راجع نفسه وفضّل الصمت حتى يرى منها موقفها، وقد لا تنتبه للأمر.

كان وجه فاطمة مرآة عاكسة ترتسم عليها للناظر حياتها ومشاعرها وأحاسيسها وما يختلج فيها. فكان هناك حزنها الأبديّ مُرتسماً لا يمّحي. وكان هناك حبّ طفليْها السرمدي. وكان هناك شيءٌ من خديجة فيه حزم ورصانة وعقل. وكانت هناك ثورة عارمة تُناهض الظلم والاضطهاد في صمت رهيب.

لم تُفكّر فاطمة طويلاً. قالت للعبّاس: قُم بنا إليهم، يا عمّاه. سنُدافع عن حقّنا حتى آخر رمق في الحياة. استمدّ العبّاس من قوّتها قوّة، قال: لنْ نسكت هذه المرّة عن حقّنا، يا فاطمة. هيّا بنا، هيّا.

نادت فاطمة فضّة النوبيّة وطلبت منها أنْ تدعو عليّاً، فخرجت تبحث عنه، فصادفته في بعض الناس وقد شرع بعدُ في تجهيز القافلة لخروج فاطمة، فأسرّت إليه بدعوته إليها، فجاء، وسلّم على عمّه، وأخبرته فاطمة بالأمر، وطلبت إليه أنْ يخرج مع العبّاس إلى أبي بكر في المسجد، وستجهّز حالها وتلحق بهما بسرعة. لم يقل شيئاً. كان يعرف أنْ لا فائدة من الخروج إلى أبي بكر في هذا الشأن أو في غيره، فأبو بكر يأتمر بأمر عُمر، وعُمر لا يحمل لأهل البيت إلاّ البغض والكره. ولكنّه فضّل الصمت حتى لا يُزعج فاطمة، وصوّب

نحو الباب يتبعه العبّاس وقصدا المسجد. ثمّ جهّزت فاطمة نفسها بسرعة، والتحقت بهما في حشدها. يا لها من امرأة رائعة!

«لاثتْ فاطمة خمارَها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لُمَة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم، مشيتها مشية رسول الله، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثمّ أنّت أنّةً أجهش القوم لها بالبكاء، فارتجّ المجلس، ثمّ أمهلت هُنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم[709].»

اتّقدت عينا عُمر ناراً وانتفخ بطنه من الغيظ وانكمش. همز أبا بكر بمرفقه يدفعه إلى الكلام ليقطع على خصومه الكلام، وهو يعرف سبب قدومهم، ولا فائدة في الانتظار. فقد «جاءت فاطمة إلى أبي بكر تطلب ميراثها، وجاء العبّاس بن عبد المطّلب يطلب ميراثه، وجاء معهما عليّ. فقال أبو بكر: قال رسول الله: لا نورث، ما تركناه صدقة، وما كان النبيّ يَعُولُ فعَليَّ. فقال عليّ: ﴿وَرِثَ سُليمانُ داوُودَ[710]﴾ وقال زكرياءُ: ﴿يَرِثُني ويَرِثُ من آلِ يعقوبَ[711]﴾ قال أبو بكر: هو هكذا، وأنتَ والله تعلمُ مثلما أعلم، فقال عليّ: هذا كتاب الله نطق[712].»

سكت عليّ مقهوراً وهو يرى أنّ القرآن الذي معه لم يَعدْ حُجّة على ما يقول. وسكت العبّاس مكسوفاً. ولم تسكت فاطمة. «قالت لأبي بكر: مَن يَرِثُك إذا متَّ؟ قال: ولدي وأهلي! قالت: فما لك ورثتَ النبيّ دوننا؟ فقال: يا بنتَ رسول الله، إنّي، والله، ما ورثتُ أباك أرضاً ولا ذهباً ولا فضّة ولا غلاماً ولا مالاً! قالت: فسَهمُ الله الذي جعله لنا وصافيَتُنا التي بيدك؟ فقال: إنّي سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: إنّما هي طُعمة أطعمنيها الله فإذا متُّ كان بين المسلمين[713].» ثمّ أضاف كأنّه يرفع الجلسة: «أما والله، إنّي سمعت رسول الله يقول: لا نورَثُ ما تركنا فهو صدقة، إنّما يأكل آل محمد في هذا المال، وإنّي والله، لا أدع أمراً رأيتُ رسول الله يصنعه إلاّ صنعته[714].»

لم تسكت فاطمة، بل واصلت الحجاج، وقالت: «أليست فَدك في يديَّ وفيها وكيلي وقد أكلتُ غلّتها ورسول الله صلّى الله عليه وآله حيّ[715]؟» فقال

أبو بكر: «إنّي سمعتُ رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نُورّث ذهباً ولا فضّة ولا داراً ولا عقاراً وإنّما نُورّث الكتاب والحكمة والعلم والنبوّة، وما كان لنا من طُعمة فلوليّ الأمر بعدنا أنْ يحكم فيه بحكمه[716]» فلمّا آل لي الأمر حكمتُ فيه بحُكمي، وجعلتُ ما ترك فيْئاً للمسلمين، استناداً إلى ما قال وما أوصى به. فبعثتُ، لمّا بُويعَ لي، مَنْ أخرج وكيلك مِن فَدك وجعلتُ عليها عاملاً[717]، حتى لا يُقال: مضت البيعة ولم يفعل أبو بكر ما أمره به رسول الله.

ازدادت فاطمة حِقداً على أبي بكر وعُمر. عَجبت من السرعة التي عالجا بها الأمر في شأنها. ما الذي يُحرّك أبا بكر يا تُرى؟ ما الذي يُحرّك عُمر؟ ألم يكفهما اغتصاب الخلافة من عليّ، فقاما يستحوذان على ما ترك أبوها وما خلّف لها؟ تساءلت إنْ لم يكونا يفعلان ذلك ليُشعراها بالذلّ والهوان مثلما أشعرهما أبوها بالذلّ والهوان لمّا خطباها إليه فردّهما خائبيْن خاسريْن. تبسّمت وهي تذكر ما كان من أمر أبيها معهما وقوله لهما لردّهما: إنّي أنتظر بها القضاء[718].

تبسّمت فاطمة وشريط الأحداث يمرّ أمام ناظريْها، والناس في صمت ينظرون إليها وهم يَعجبون. استمدّت من الذكرى قوّة، قالت لأبي بكر: «أفي الله أنْ ترث أباك ولا أرث أبي؟ أما قال رسول الله: المرء يحفظ في وِلْده؟[719].» توقّفت لحظة، ثمّ توجّهت بالخطاب إلى الناس في المجلس: «قالت: أيّها الناس، اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمّد، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً. أيها السلمون، أأُغلبُ على إرثي؟ يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله تَرثُ أباك ولا أرثُ أبي؟ لقد جئتَ شيئاً فريّاً! أفعلى عَمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء أظهركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ[720]﴾، وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكرياء إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ[721]﴾ وقال: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ[722]﴾، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ[723]﴾، وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ[724]﴾، وزعمتم أنْ لا حظوةَ لي، ولا إرثَ من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنْ أهل ملّتيْن لا يتوارثان؟ أوَلستُ أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟

أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟ [...] فبعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ مُنقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم، بين يديّ عذاب شديد، فاعلموا إنّا عاملون، وانتظروا إنّا منتظرون [...] هذا والعهد قريب، والكلْم رحيب، والجُرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يُقبر[725].»

روت الأخبار أنّ أبا بكر بكى يومها بكاء شديداً[726]، وقام يتّهم الناس عامّة وعُمر خاصّة، ويقول: غلّطوني، والله، غلّطوني. ثمّ خطب يقول: «معاشر المهاجرين والأنصار، تعلمون أنّي شاورتكم في ضِياع فَدَك بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلتم: إنّ الأنبياء لا يُورثون، وإنّ هذه أموال يجب أنْ تُضاف إلى مال الفيء، وتُصرف في ثمن الكراع والسلاح، وأبواب الجهاد ومصالح الثغور، فأمضينا رأيكم [...] ثم قال لعُمر: ناشدتُك الله يا عُمر، لما أنْ تركتني من أغاليطك وتربيدك، فوالله، لو همّ ابن أبي طالب بقتلي وقتلك لقتلنا بشماله دون يمينه [...] وقال: والله، لقد استقلتُ منها واستعزلتها عن نفسي[727].» أزبد عُمر وأرعد وخرج مُغضباً ووقف أمام الباب لا يُغادره.

وزادت الأخبار على ذلك أخباراً. فذُكر أنّ فاطمة خلا لها الجوّ بعد خروج عُمر، فكلّمت أبا بكر على حدة، وهي تعرف «أنّه أرقّ من الآخر[728]» فقالت: يا أبا بكر، «لمّا أنزل الله الآية: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا[729]﴾ قال رسول الله: يا جبرئيل، قد عرفتُ المسكين، فمَن ذوو القربى؟ قال: هم أقاربك. فدعاني وحسناً وحُسيناً، فقال: إنّ ربّي أمرني أنْ أعطيكم ما أفاء عليّ، أعطيكم فَدَك. وقال: يا فاطمة، هذا لَكِ ولعقبك بعدك. وقالت: فكلّ ما لم يوجف عليه أصحاب النبيّ بخيل ولا ركاب فهو لرسول الله يضعه حيث يشاء، وفَدَك ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب[730]» ثمّ أضافت تُجرّب فيه الضرب على الوتر الحسّاس، فقالت: «يا أبا بكر، ادّعيتَ مجلس أبي وأنّك خليفته وجلستَ مجلسه، ولو كانت فَدك لك ثمّ استوهبتُها منك لوجب ردّها عليّ. فلمّا أتته وقالت له ذلك، قال: صدقتِ[731]» وأجهش بالبكاء، وقام إلى فاطمة، وقال: «هذه حالي ومالي، هي لك وبين يديك، لا تزوى عنك، ولا ندّخر دونك، وإنّك وأنت سيّدة أمّة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، حكمك نافذ فيما ملكت يداي[732]» ثمّ «دعا بكتاب فكتبه لها بردّ فَدك[733].»

سُرّت فاطمة باسترجاع حقّها المسلوب من غير إثم، وسُرّ الناس في المسجد بإكرام أبي بكر ابنةَ نبيّهم خاتم النبيّين، واعتبروا ذلك عارض فأل، واستشعروا منه خيراً في خلافة أبي بكر. حمد الناس الله وأثنوا عليه، وشكرت فاطمة أبا بكر وخرجت وهي تُحلم النفس برحلتها التي ستكون من غد إلى فَدَك، فتُقدّم إلى عامل أبي بكر كتابه، فيتخلّى لها عن فَدَك.

ظنّ الناس الأمور قد عادت سيرتها الأولى، والحمد لله. ولكنّ الأمور جرت بغير ما يشتهي عُمر، فكان لا بدّ من حلول الكارثة. اسمع تَرَ:

لمّا «كتب لها أبو بكر كتاباً إلى عامله بردّ فَدَك[734]» «خرجت فاطمة والكتاب معها، فلقيها عُمر عند الباب، فقال: يا بنت محمّد، ما هذا الكتاب؟ فقالت: كتاب كتب لي أبو بكر بردّ فَدَك. فقال: هلُمّيه إليّ. فأبت أنْ تدفعه إليه، فلطمها[735]» ثمّ «أخذ منها الكتاب وتفل فيه ومزّقه، وقال: خرف ابن أبي قحافة وظلم، فقالت: ما لك؟ لا أمهلك الله تعالى وقتلك ومزّق بطنك![736]» فأزبد عُمر وأرعد وعضّ على يده اليُسرى، كما تعوّد أنْ يفعل عند الغضب، وعاد إلى فاطمة «فرفسها برجله وكانت حاملة بابن اسمه المُحسن، فأسقطت المُحسن من بطنها[737].»

تغيّر وجه الخلافة الذي بدا للحظة سَمحاً. صار أغبر. حلّت القطيعة بين هذا الشقّ وذاك الشقّ والشقّ الثالث الآخر. خرج بنو هاشم من المسجد. خرج خالد بن الوليد يتفقّد العسكر ويتأكّد من شدّ قبضه على الناس. قام عُمر يخطب: أيّها الناس، لقد بايعتم أبا بكر فصار ببيعتكم خليفة رسول الله، ولا خليفة غيره، ومن ادّعى غير ذلك ثكلته أمّه ونزل به العقاب. أيّها الناس: «إنّ بيعة أبي بكر كانت فَلتة غير أنّ الله وقى شرّها، وليس منكم مَنْ تُقطّع إليه الأعناق مثل أبي بكر، فمَنْ بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين، فإنّه لا بَيعة له هو ولا الذي بايعه تَغِرَّةَ أنْ يُقتلا[738]» وإنّا «نظرنا في أمرنا فوجدنا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد قدّم أبا بكر في الصلاة فرضينا لدنيانا مَنْ رضي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لديننا فقدّمنا أبا بكر[739]» ومَن خالفنا في ذلك فقد كفر. أمّا الآن فقوموا إلى حاجاتكم إذ بايعتم، وإذا صادفتم مُتخلّفاً عن البيعة فوجّهوه إلى المسجد ليُبايع، فإنْ أبى فوجب الإخبار عنه وعدم التستّر. سنظلّ هنا في انتظار كلّ متخلّف لم يُبايع.

تسلّل الناس إلى خارج المسجد في صمت، خوفاً من بطش عُمر. ولمّا ضمّتهم السكك انطلقت أفواههم بالكلام المباح، وبدأ على بركة الله القيل والقال، وخاضوا في أمور الدنيا والدين التي احتوتها الخُطب التي سمعوها منذ حين. وقد استحوذت الصلاة التي أمّ فيها أبو بكر الناس وذكرها عُمر وجعلها حُجّة على أولويّة أبي بكر على أغلب ما خاضوا فيه من أمور، وانقسموا بشأنها فرقاً، هذه من شيعة أبي بكر، وتلك من شيعة عليّ، والأخرى بلا شيعة، على ما يبدو.

قال الناس من شيعة أبي بكر: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال في مرضه الذي قُبض فيه: مُروا أبا بكر يُصلّي بالناس[740]» وأكّد على ذلك مراراً ولم تُثنه ادّعاءات مَن ادّعى أنّ أبا بكر رجل أسيف أوّاه بكّاء لا يُسمع الناسَ صوته[741]، فصلّى أبو بكر بالناس، والحمد لله. وأضافوا: إنّ النبيّ قد أمره بالصلاة بالناس، والنبيّ لا يأمر عن الهوى بل بالوحي والإلهام، فأحرز أبو بكر بذلك شرعيّة خوّلته للقيام في الناس إماماً في دينهم ودنياهم. وحتى لا يتركوا صراخاً لصارخ قالوا: بيناً كان أبو بكر يُصلّي بالناس «خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُهادي بين رجليْن وقدماه تخطّان في الأرض، فلمّا دنا من أبي بكر تأخّر أبو بكر فأشار إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ قُمْ في مقامك، فقعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فصلّى إلى جنب أبي بكر جالساً[742]» وإنّ هذا لهو الدليل القاطع على رضاه عن أبي بكر، ولو لم يكن راضياً لمَا صلّى بصلاته.

وقال الناس من شيعة عليّ: «إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لمّا ثقُل في مرضه دعا عليّاً فوضع رأسه في حجره، وأُغمي عليه، وحضرت الصلاة فأُذّن بها، فخرجت عائشة، فقالت لعُمر: اخرج فصلّ بالناس. فقال: أبوك أولى بها. فقالت: صدقتَ، ولكنّه رجل ليّن، وأكره أنْ يُواثبه القوم، فصلّ أنت. فقال لها عُمر: بل يُصلّي هو وأنا أكفيه إنْ وثب واثب أو تحرّك مُتحرّك، مع أنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله مُغمى عليه لا أراه يُفيق منها، والرجل مشغول به لا يقدر أنْ يُفارقه، يُريد عليّاً عليه السلام، فليبادر بالصلاة قبل أنْ يُفيق، فإنّه إذا أفاق خفتُ أنْ يأمر عليّاً بالصلاة. فخرج أبو بكر ليُصلّي بالناس، فأنكر القوم ذلك، ثمّ ظنّوا أنّه بأمر رسول الله[743]» فصلّوا بصلاته. وأضافوا: إنّ الصلاة

قد اغتصبت من عليّ تماماً كما اغتُصبت الخلافة[744]، وإنّ النبيّ كان عيّن للصلاة عليّاً وجعله وصيّاً وإماماً. وحتى لا يتركوا صراخاً لصارخ قالوا: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: ابعثوا إلى عليّ فادعوه، فقالت عائشة: لو بعثت إلى بكر، وقالت حفصة: لو بعثت إلى عُمر[745]»؛ «فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله حين سمع كلامهما ورأى حرص كلّ واحدة منهما على التنويه بأبيها وافتتانهما بذلك ورسول الله حيّ: اكففن فإنّكنّ صُويحبات يوسف، ثمّ قام مُبادراً خوفاً من تقدّم أحد الرجلين [...] فقام، وإنّه لا يستقلّ على الأرض من الضعف، فأخذ بيده عليّ بن أبي طالب عليه السلام والفضل ابن عبّاس فاعتمدهما ورجلاه تخطّان الأرض من الضعف، فلمّا خرج إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب، فأومأ إليه أنْ تأخّرْ عنه، فتأخّر أبو بكر وقام رسول الله صلّى الله عليه وآله مقامه فكبّر فابتدأ الصلاة التي كان قد ابتدأها أبو بكر ولم يبن على ما مضى من فعاله[746]» ولو كان راضياً عنه لاستبقاه مكانه أو لواصل الصلاة من حيث انتهى أبو بكر.

في ظلّ هذه الأقوال المتضاربة تخاصم الفريقان حدّ التناحر لولا أن تدخّلت الفرقة التي لا شيعة لها بالصّلح بين الفريقين، فترأسها عبد الله بن زمعة، وقال: «لمّا استُعزّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا عنده في نفر من المسلمين، دعاه بلال للصلاة فقال: مُروا مَنْ يُصلّي بالناس[747]» وإنّه، والله، لم يُعيّن شخصاً بعينه، فدعا الراغبُ في أبي بكر أبا بكر، ودعا الراغبُ في عُمر عُمر، ودعا الراغبُ في عليّ عليّاً. وأضاف كأنّه يوقف إلى الأبد النزاع: وهم جميعاً على كلّ حال لهم صُحبة ومن قرابة رسول الله.

كان عبد الله بن زمعة[748] من أشراف قريش، ابن أخت أمّ سلمة زوج النبيّ، فاقترب بفضلها من النبيّ حتى أصبح يأذن على النبيّ، فلا يدخل على النبيّ داخل إلاّ بأمره. وقد حصُل له بفضل هذه الخدمة اطّلاع على الأمور وحظي لدى الناس بالاحترام والتقدير والتبجيل، فاستمع المتخاصمون في الصلاة إلى رأيه بخشوع، وأكبروا فيه تدخّله بالصلح، وأوقفوا ما كان بينهم من صراع لا يؤدّي إلى نتيجة.

8

سَرت الأخبار في الناس سريان الزيت على الماء، وعاشت المدينة يومئذ على صدى الأنباء حول الخلافة المباركة. كان كلّ شيء مُنظّماً مُحكَماً، فجلس أبو بكر خليفة، وجلس عُمر وزيراً مُستشارا نافذاً فاعلاً، وجلس أبو عُبيدة أمين الأمّة شاهداً على حُسن الاختيار وصواب الرأي وجواز دخول الدين في الدولة.

جرى العبيد والموالي والإماء بالأخبار إلى حظيرة النساء، يُخبرون الزوجات بما كان من أمر الخلافة والميراث والصراعات، واختلفت الروايات حسب الولاءات. دخلت بريرة على عائشة وكانت ثابتة الولاء لها[749] وأخبرتها بالتفصيل عن انتصار أبيها في معركة المصير. لم تستطع عائشة كتمان فرحتها فخرجت من بيت حفصة تتبعها حفصة إلى الفناء، وصاحت: فاز أبو بكر، والحمد لله. فاز على الأعداء. فاز بالخلافة. عاش أبو بكر عاش. ولم تستطع حفصة كتمان فرحتها، فصاحت مثل عائشة: عاش عُمر عاش. خرجت إليهما أمّ سلمة غاضبة، وكان سفينة عبدها أو مولاها[750] قد أسرّ إليها بما فاتها من أخبار لم تسمعها من بيتها المجاور للمسجد، بخصوص ما عرض له عليّ وفاطمة من ظلم وإهانة، فابتدرتهما، وهما قُدّام بيت حفصة، وصاحت فيهما: يا لَلخزي، يا لَلعار! أفي حضرة النبيّ المُسجّى تُظهران الفرح والانتشاء بالخلافة الفاسدة؟ يا لَلشّرعيّة المسلوبة، يا لآل البيت!

خرجت الزوجات والنساء المواسيات لهنّ من البيوت وجئن يستطلعن الأمر عن كثب. عجّ المكان بالنساء، ووقف العبيد والموالي والإماء لِلَّصّ متستّرين وراء الأبواب وفي الأركان. استأنفت أمّ سلمة كلامها، قالت: ولِمَ تُظهران الفرح والانتشاء؟ ألنجاح المكيدة التي حكتُماها مع أبويكما لاغتصاب الخلافة أم لوقف الشرعيّة وإقام الظلم والاضطهاد؟ ومَن الأعداء

الذين فاز عليهم أبوك يا عائشة؟ آآل البيت تقصدين؟ أوتعلمين مَن هم آل البيت؟ لقد نزلت فيهم الآيات في بيتي، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا[751]﴾ وعيّنهم رسول الله بالتحديد، فقال: فاطمة وعليّ والحَسن والحُسين، هؤلاء أهل بيتي[752]. وقد أوصى لعليّ بما لا يترك مجالاً للشكّ، فقال: «أوصي مَن آمن بالله وصدّقني بولاية عليّ بن أبي طالب، مَن تولاّه فقد تولاّني، ومَن تولاّني فقد تولّى الله، ومَن أحبّه فقد أحبّني، ومَن أحبّني فقد أحبّ الله عزّ وجلّ[753].»

انطلقت أمّ سلمة في خطبة طويلة تُمجّد آل البيت وتمدح، وكانت ترى نفسها فرداً من آل البيت. لم تترك صراخاً لصارخ. حاولت عائشة أنْ تقطع عليها سيل الكلام ولكنّها لم تنجح، فاضطُرّت إلى السكوت. ولمّا انتهت أمّ سلمة من خُطبتها، انسحبت إلى غرفتها وقد أسمعت حتى النهاية صوتها، وشعرت بينها وبين نفسها بالرضى إذ عبّرت عمّا يختلج في صدرها بكلّ وضوح وموضوعيّة ونزاهة، أو هكذا خُيّل إليها. واستحسنت النساء انسحابها مخافة أنْ تندلع الحرب بينها وبين عائشة، وكانتا كأنّهما لا تدينان بدين واحد، كثيراً ما طغى التوتّر على العلاقة بينهما.

ظلّت عائشة وحفصة أمام باب البيت تحترقان بلظى كلام أمّ سلمة. ثمّ تكلّمت عائشة كأنّها تُنقذ الموقف، فقالت: «لمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ارتدّ في كلّ ناحية من جزيرة العرب مرتدّون عامّة أو خاصّة، واشرأبّت اليهود والنصرانيّة، ولحم النفاق بالمدينة وفيما حولها، وكادوا الدين، وبقي المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة المظلمة، السائبة بالأرض المسبعة، فما اختلف الناس في نقطة إلاّ أصاب أبي بأيّها، وطار بعنائها، ولو حملت الجبال الرواسي ما حمل أبي لهامها[754].»

لم يُؤثّر كلام عائشة في النساء وانسحبن من الفناء، فجرّت عائشة أذيال الخيبة ودخلت بيت حفصة تتبعها حفصة. وانطلقت الأفواه بالكلام المباح في بيوت الزوجات الأرامل وقد تشكّلت فيها الحلقات من جديد. وتناقل العبيد والموالي والإماء أصداء الكلام المباح، باللّصّ على البيوت، وخاصّة بيت زينب الذي ضاق عن استيعاب كلّ النساء المولعات بالأخبار، فبقيت منهن نساء على الباب وخارج البيت، يمددن الأعناق للسماع. ولازمت

عائشة وحفصة بيت حفصة، خائفتيْن وقد اتّهمتا بالتآمر على اغتصاب الخلافة من أهلها. وكانت معهما سودة وامرأتان أو ثلاث من الساعيات إلى اكتساب الحظوة من القائمين الجددِ على الأمر، يُخفّفن عليهما ما حلّ بهما. وفي بيت أمّ سلمة، بيت الرشاد والحكمة وقد تقدّمت السنُّ بأهله، ساد التذكّرُ والتفكّرُ والاعتبار.

صارت أمّ سلمة مدار الحديث في الحلقات جميعا، واستعرضت النساء أخبارها الطوال. وكانت مارية القِبطية أكثر النساء شغفاً بالسؤال عن أمّ سلمة، لجهلها بها جهلاً تامّاً أو كالتامّ. ولم تبخل النساء على مارية، في حلقة زينب التي ضمّتها، بالإجابة عن أسئلتها البريئة التي جاءت على الفطرة، وأحطنها بكلّ عطف، وتبنّينها وقد وجدن فيها الروح الفَكِهَة والمسرّة الجمّة. كانت مارية، والله، سُرَّ مَنْ رأى، آية في كلّ شيء، تدخل الصدور من حيث لا تعلم الصدور، تُقضم قضماً، على لغة العارفين بأمر القيان.

قالت مارية: إنّي والله لوجدتُ أمّ سلمة جميلة جدّاً، على سنّها المتقدّم، فهل هي كذلك يا نساء، أم هل أنا لا أعرف النساء؟ ضحكت النساء احتفاءً بسؤال مارية، ومسحت زينب يدها بيدها وقالت: «كانت أمّ سلمة من حُسنها كأنّها جان، وكانت إذا قامت فأرخت شعرها جلّل جسدها وعقد بطرفيه خلخالها[755].» أعجب هذا الكلام مارية، وإنْ لم تفكّك الصورة الشعرية ولم تفهمها حقّ فهمها، كما يقول علماء اللغة في منّوبة، وقالت: لا فضّ فوك يا زينب! ضحكت النساء وضحكت زينب الراوية، وقالت: «وكانت أمّ سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب[756]» فغارت منها النساء، وخاصّة عائشة التي حزنت حزناً شديداً لما ذكروا لنا من جمالها، فلمّا عرّس بها الرسول ورأتها، رأتها أضعاف ما وُصفت لنا في الحسن والجمال، ولولا حفصة التي هوّنت عليها، وأقنعتها بأنّ أمّ سلمة ليست آية في الجمال كما تراها، بل هي جميلة مثل الجميلات ليس غيرُ، لسقطت صريعةَ غَيرى[757].

ضحكت مارية طويلاً، من أمر عائشة الغَيْرى كثيراً. وضحكت جُويرية لضحك مارية مسرورة سعيدة، وكانت الألفة قد جمعت بينهما منذ الليلة الماضية. تدخّلت جُويرية في الكلام، وهي التي لا تتكلّم إلاّ نادراً، ولم تحظ في الكتب بالأخبار الطوال، وقالت: بالله عليك يا زينب، حدّثي مارية، عن

عكّة العسل، حتى تستمتع بكلامك الحسن، وتزداد نَشوةً، ونزداد بنشوتها فرحاً. استجابت زينب لرغبة جُويرية وكانت مثلها سعيدة للنشوة التي تُصيبها مارية في بيتها، وانطلقت تقصّ ما كان من أمر العكّة، بالتفصيل والتطويل والتشويق، نقلاً عن عائشة نفسها، فاخترنا لكم من ذلك ما تيسّر:

قالت زينب: «عن عائشة، قالت: كان رسول الله يطوف كلّ يوم على نسائه، فيدنو من أهله، فيضع يده، ويقبّل كلّ امرأة من نسائه حتى يأتي على آخرهن، فإذا كان يومها قعد عندها. فكان إذا دخل بيت أمّ سلمة يحتبس عندها، فقلت أنا وحفصة: ما نراه يمكث عندها إلاّ أنّه يخلو معها، للجماع. فبعثنا من يطّلع لنا ما يحبسه عندها، فإذا هو إذا صار إليها أخرجت له عكّة من عسل وفتحت له فمها فيلعق منها لعقاً. فقلنا: نُكرّهه إليه حتى لا يلبث في بيت أمّ سلمة [...] فلمّا دخل عليّ ودنا، قلت: إنّي لأجد منك شيئاً، ما أصبتَ؟ فقال: عسل من بيت أمّ سلمة. فقلت: يا رسول الله، أرى نحله جرس عَرفطاً. ثمّ خرج فدخل على حفصة، فدنا منها، فقالت مثل الذي قلت. فلمّا قالتاه جميعاً اشتدّ عليه، فدخل على أمّ سلمة بعد ذلك فأخرجت له العسل، فقال: أخّريه عنّي، لا حاجة لي فيه. قالت عائشة: فكنت أرى أنْ قد أتينا أمراً عظيماً، منعنا رسول الله شيئاً كان يشتهيه[758].»

انتشت مارية بالخبر الجميل، وانتشت بنشوتها النساء في بيت زينب. ولكنْ اسمحوا أنْ نُفارق هذه الحلقة ولا نُطيل عندها الضيافة، حتى لا تُظنّ بنا الظنون ويُقال فينا بغير حقّ: إنّا فضّلنا بيتاً على بيت، وغلّبنا الفَكه على الجدّ. ولنولّ وجهنا بيتاً آخر، هو بيت أمّ سلمة، لنصيب شيئاً من الحكمة، بإذن الله وعونه.

كان الجوّ في بيت أمّ سلمة تسوده سكينة يصعب تحديدها بالضبط. أكانت خضوعاً للأمر الذي لا مردّ له، أم إعداداً للثورة القادمة؟ وكانت في البيت ساعتئذ، أمّ سلمة بطبيعة الحال، فالبيت بيتها، وأمّ حبيبة إلى يسارها، وميمونة إلى يمينها، وأسماء بنت عُميس قدّامها. وعدد آخر من نساء المسلمين ذوات الميول إلى أمّ سلمة وأمّ حبيبة وميمونة وأسماء بنت عُميس. وكُنّ جميعاً، إذا صدقت الأخبار والتأويل، من شيعة عليّ.

فأمّ سلمة لم يعد يخفى عنكم أمر ميلها مع عليّ، بعد الذي قالته لعائشة وحفصة منذ حين. وكانت، منذ ساعة تقريباً، لمّا وصلها من المسجد ما قاله أبو بكر لفاطمة في حقّ ميراثها وما فعل بها عُمر، تدخّلت وأسمعتهما ما كان معها، «فأطلعت أمّ سلمة رأسها من بابها، وقالت: ألمثل فاطمة يُقال هذا؟ وهي الحوراء بين الإنس، رُبّيت في حجور الأنبياء، وتداولتها أيدي الملائكة، ونمت في المغارس الطاهرات، نشأت خير منشإ، ورُبّيت خير مربإ، أتزعمون أنّ رسول الله حرّم عليها ميراثه ولم يُعلمها؟ فجاءت تطلبه وهي خيرة النسوان، وأمّ سادة الشبّان، وعديلة مريم بنت عمران، وحليلة ليث الأقران[759].»

واصلت أمّ سلمة يومئذ المدح والثناء في خطبة مليئة تناقلها الرواة ودوّنها المدوّنون في الكتب، وقال فيها بعض العلماء: «نظرتُ في جميع الروايات فلم أجد فيها أتمّ شرح وأبلغ في الألزام وأوكد في الحجّة من هذه الرواية[760].» وقد دفعت أمّ سلمة جرّاء ذلك ثمناً باهضاً من بعدُ. فقد غضب عليها أبو بكر وعُمر، وعاملاها مُعاملة سيّئة، وحرماها حقّها من كلّ شيء، من ذلك أنْ «حُرمت أمّ سلمة تلك السنة عطاءها[761].»

أمّا أمّ حبيبة زوج النبي فكانت ابنة أبي سفيان بن حرب، وهو أُمويّ قُرشيّ، ينتمي إلى بني عبد مناف، مثل النبيّ وعليّ. وكان وإنْ تأخّر إسلامه حتى فتح مكّة، على حظوة عند النبيّ، وقد خصّه في فتح مكّة بتلك القولة التي ذهبت في الناس مَثلا: «مَن دخل دار أبي سُفيان فهو آمن[762].» وكان أبو سفيان يُمازح النبيّ في بيت ابنته أمّ حبيبة، فيُسرّ النبيّ ويضحك ويُمازحه[763]. ثمّ إنّ أبا سفيان سعى إلى أنْ يُبايع عليّاً لمّا قُبض النبيّ، ولمّا بايع الناس أبا بكر جاءه يذمّ أبا بكر ويقول: «بايعتم رجلاً من أذلّ قبيلة في قُريش، أما والله، لئن شئت لأضرمنّها عليه من أقطارها ولأملأنّها عليه خيلاً ورجالاً[764]» كما سيأتي البيان على ذلك من بعدُ.

أمّا ميمونة زوج النبيّ فكانت وأخواتها قد تزوّجن جميعاً رجالاً من آل البيت[765]، فتزوّجت ميمونة النبيّ، وتزّوجت أختها سلمى عمّه حمزة، وتزوّجت أختها لُبابة عمّه العبّاس، وتزوّجت أختها أسماء ابن عمّه، جعفر ابن أبي طالب. فكنّ مُخلصات قلباً وقالباً لآل البيت ولا شكّ في ذلك، وكنّ يُفضّلن أنْ تؤول خلافة الرسول إلى عليّ ابن عمّ الرسول لا إلى صاحب من

أصحابه وإنْ كان ثاني اثنين في الغار. وكانت ميمونة إلى هذا كلّه ذات قرابة بأبي سفيان بن حرب، والد أمّ حبيبة المتقدّمة الذكر. فأبو سفيان هو ابن عمّة ميمونة[766]، وأمّ حبيبة بنت ابن عمّتها. فالناس كانوا في تلكم الأيام عشيرة واحدة، والله.

في هذا البيت الخالص الودّ لعليّ، دار الحديث بين النساء في الشؤون التي تهمّ القضيّة التي اعتبرنها عادلة وقمن يُدافعن عنها بكلّ جوارحهنّ ويتّهمن من خالفهنّ بالمروق على الشرعيّة والتآمر على أمن الإسلام. هنا قالت أمّ سلمة منوّهة بفاطمة وعليّ: إنّ فاطمة خير نساء العالمين، وإنّي والله، لأدرى بها من الناس أجمعين، فقد «تزوّجني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفوّض أمر ابنته إليّ، فكنتُ أؤدّبها، وكانت، والله، أأدب منّي وأعرف بالأشياء كلّها، وكيف لا تكون كذلك وهي سلالة الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى أبيها وبعلها وبنيها[767].» ثمّ ختمت ختاماً مسكاً فقالت: «إنّ آل البيت لا يزال حقّهم واجباً على المسلمين إلى يوم القيامة. وقد سمعتُ رسول الله يقول: عليٌّ مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض[768].»

ثمّ انطلقت نساء الحلقة في تفسير كلام أمّ سلمة وتأويله، وأضفن إليه ما كان معهنّ من هذا القبيل، وبسطت أسماء بنت عُميس الحديث في مسألة الصحيفة التي اختطّها القوم في بيت أبي بكر، وتآمروا فيها على حرمان عليّ الخلافة، ووافقتها أمّ سلمة في ذلك، واتّهمت من جديد عائشة وحفصة بالوقوف وراء كتابة الصحيفة الملعونة.

وَقَعَ هذا الأمر وَقْعَ الصاعقة على نساء الحلقة والعبيد والموالي والإماء الذين كانوا يتلصّصون على النساء. وأسرع هؤلاء إلى نقل الخبر إلى خارج البيت بسرعة مُذهلة، ففشى ما كان سرّاً في الخدور، وأصبح رواية معلومة رواها الرواة بشتّى الطرق، وخصّتها الكتب بالفصول والأبواب، وسنخصّكم بما تيسّر منها بعد حين، عندما يتدخّل حذيفة بن الأمان وينقل للناس كلام أسماء بنت عُميس.

تعجّبت نساء الحلقة اللائي لا علم لهنّ بأمر الصحيفة واستغربن ذلك واستنكرنه، وناقشنه مع أمّ سلمة وأسماء، وقلّبنَه مقالبه اللازمة. ولمّا استوفيْن

ما كان معهنّ، رامت نفوسهنّ التخفيف عمّا كان بهنّ من شجن، فتراوين قصص النكاح والعيال وما كان على ذلك المنوال. وقد حفظ الرواة ما جادت به حفيظة أمّ سلمة ليلتئذ من كلام يخصّ حياتها الخاصّة التي كثيراً ما تستّرت عليها، ولكنّ نساء الحلقة ألححن عليها، ولمّا ألححن عليها روت، مثلما يروي الراوية إذا ألحّ عليه سُمّاعه، فأبانت وأفادت.

كانت أمّ سلمة تحت أبي سلمة، بعلها ووالد سَلمة الذي تكنّت به وتكنّى. وكانت من المسلمات الأُوليات، وهاجرت الهجرتيْن كما كان يجب. وقد شاءت الأقدار أنْ يتوفّى الله أبا سلمة بعد شهرين من غزوة أُحد متأثّراً بجرح أصابه فيها. وترمّلت أمّ سلمة. فدخل عليها النبيّ يُعزّيها في أبي سلمة وقال مواسياً: اللهمّ عَزّ حزنها، واجبر مُصيبتها، وأبدلها به خيراً منه، عُقبى حسنة صالحة. ثمّ طلب منها أنْ تتضرّع إلى الله يُبدلها به خيراً منه. أعجبها يومئذ كلام النبيّ ووجدته قد طابق ما أوصاها به أبو سلمة، وما دعا به لها لمّا احتضر، فرفع يديْه متضرّعاً، وقال: إذا متّ فتزوّجي. اللهمّ اخلفني في أهلي بخير! اللهمّ ارزق أمّ سلمة بعدي رجلاً خيراً منّي، لا يُحزنها ولا يؤذيها!

ولمّا مات أبو سلمة بكته أمّ سلمة بكاء شديداً، ولم تتجرّأ على التضرّع إلى الله ليُبدلها به خيراً منه، وقالت في نفسها: مَن هذا الفتى الذي هو خير لي من أبي سلمة؟ وظنّت أنّ ما دعا لها به زوجها الراحل وما دعا لها به النبيّ كان من باب المجاملة والدعاء الصالح الواجب في مثل هذا الظرف. ومع ذلك فإنّ أمّ سلمة لم تيأس من رحمة ربّها، ولبثت ما لبثت تُحلم النفس بتحقّق الدعاء. فلمّا انقضت عدّتها تجرّأت ونطقت بجملة الدعاء السحريّة، اللهمّ أبدلني به خيراً منه. فعل الدعاء فعله الذي لا مردّ له في حياة أمّ سلمة المصون. فجاء أبو بكر يخطبها على نفسها، فردّته. ثمّ جاء عُمر يخطبها على نفسها، فردّته. فبعث إليها رسول الله فقالت: مرحباً برسول الله، لقد أعقبني الله خيراً من أبي سلمة، أعقبني رسول الله.

وقد ذكرت أمّ سلمة في هذا الزواج العجيب نِكاتاً ذهبت في الناس مذهب الفَكَه فتناقلوها خلفاً عن سلف، نكتفي هنا بذكر نكتتيْن منها تمثيلاً لا حصراً:

أمّا النكتة الأولى فحديث دار بين النبيّ وأمّ سلمة يوم كان على بابها وقد انقضت عدّتها من أبي سلمة، فكلّمها، والحجاب مضروب بينه وبينها، فخطب إليها نفسها، على بركة الله ورسوله، فقالت بإيجاز مُعجز: أي رسول الله، وما تريد إليّ؟ إنّ فيّ خلالاً ثلاثاً تمنعني من الزواج: إنّي امرأة قد أدبر منّي سنّي، وإنّي مُصبية، أم أيتام، وإنّي امرأة غيرى، شديدة الغيرة، وأنت تجمع النساء. فأجابها في التوّ، بإيجاز مُعجز أيضاً: أمّا قولك إنّي امرأة مُسنّة فأنا أسنّ منك، ولا يُعاب على المرأة أنْ تتزوّج أسنّ منها، وأمّا قولك إنّي مُصبية، أمّ أيتام، فإنّ كلّهم على الله وعلى رسوله، وأمّا قولك إنّي غيرى شديدة الغيرة فإنّي أدعو الله أنْ يُذهب ذلك عنك. فتزوّجها.

وأمّا النكتة الثانية فأخرجتها أمّ سلمة إخراجاً جميلاً أمام النساء، وتفنّنت في سرد أحداثها، ومطّطتها بما فيه الكفاية، فشوّقت وأفادت وأعجبت. ومُلخّص ذلك أنّ النبيّ لمّا نكحته أمّ سلمة نفسها كان يأتيها، فإذا جاءها أخذت زينب ابنتها ووضعتها في حجرها لترضعها، وكان النبيّ حييّاً كريماً يستحي، فيرجع ولا يمسّها. وفعلت به ذلك مراراً، فكان يرجع ولا يمسّها، حتى آذته وتفطّن إلى ذلك عمّار بن ياسر، وكان أخاها لأمّها، فدخل عليها فانتشطها من حجرها وقال: دعي هذه المقبوحة المشقوحة التي آذيت بها رسول الله. فذهب بها فاسترضعها في قُباء. فدخل النبيّ وجعل يُقلّب بصره في البيت، ويقول: أين زُناب؟ ما فعلتْ زُناب؟ فقالت: جاء عمّار فذهب بها. فبنى رسول الله بأمّ سلمة، ووقع على أهله في غياب زُناب التي حرمته من ذلك دهراً[769].

9

كان حُذيفة بن اليمان[770] مولعاً بالتقاط الأخبار، يقطع في سبيلها الأقطار والأمصار، وإن كانت الهند أو السند. وكان يُلحّ في تحصيلها من عند الرجال والنساء، على حدّ سواء، وإنْ كانوا من ذوي الشحّ بها. وكان الناس يهرعون إلى الجلوس إليه إذا ما جلس في مكان، ويستمتعون بأخبار المحن والفتن التي اختصّ فيها اختصاصاً عظيماً، ويلتذّون بما تفرّد به من أنباء، وخاصّة ما ينقله عن النساء، وبصفة أخصّ عن أسماء بنت عُميس مُخبرته المفضّلة، فروى عنها ما شاء واشتهى.

كان حُذيفة بن اليمان عَيْن النبيّ على الأعداء، ينقل إليه أخبارهم بشأن استعدادهم وتجهّزهم وتحرّكهم. وكان أمين سرّ النبيّ، يُدعى صاحب السرّ، يعرف المنافقين، ولا يعرفهم غيره من الصحابة وإنْ كانوا المقرّبين. أعلمه بهم النبيّ واحداً واحداً، فتكتّم عليهم. ولم تنفع معه محاولات المتطلّعين إلى معرفة أسمائهم فتقرّبوا إليه وتودّدوا، ولا محاولات الذين يخافون أنْ يكونوا منهم. وكان الناس يترصّدونه، فإذا جافى رجلاً، أو لم يجلس إلى رجل، أو لم يحضر جنازة رجل، عدّوه من المنافقين. وكان بعض الخلفاء يحتال له احتيالاً ليعرف إنْ كان في عمّاله منافقاً من المنافقين[771].

كان حُذيفة واقفاً يومئذ عند حائط بني النجّار القديم الذي لا يبعد عن المسجد إلاّ بمقدار مائتيْ ذراع أو تزيد قليلاً، ومعه فتًى من أبناء العجم، مولى لبعض الأنصار، يُقال له مسلم، واقف أمامه يسأله. لمح الناس حُذيفة، وهم خارجون من المسجد بعد أنْ أمرهم عُمر بمغادرته، فهرعوا إليه، يسمعون ما يسأله عنه الفتى وما يُجيبه به. وماهي إلاّ لحظة حتى اجتمع إليه حشد كبير، وكان يُحبّ الحشد الكبير، ويزداد به حماساً وجُرأة، ويُؤتى بالعيون الشاخصة إليه سنداً وقوّة. وقد حصل له ذلك يومئذ، فقام يخطب في الناس خُطبة

طويلة، والناس يستمعون في صمت وإجلال وهيبة، بناءً على ما اكتسب فيهم من شرعيّة جرّاء وصيّة النبيّ: «إذا ما حدّثكم حُذيفة فاسمعوا منه واقبلوا[772]» فأبان وأفاد وتمّ له ما أراد.

وقد جاءت خطبته في ثلاثة أبواب، بعدد العناصر التي تضمّنتها، تصبّ كلّها في واد واحد، تلازمت فيه الشرعيّة المفقودة والخلافة المغصوبة والإمامة المسلوبة. كانت خطبة غرّاء، طويلة بلا حدود، يضيق عن ذكرها بالتمام والكمال هذا الكتاب، فاخترنا لكم منها ما قلّ ودلّ، حتى تكونوا على علم بما حصل، واخترنا لكم منها حلو الحديث ومُرّه، عملاً بقول حُذيفة نفسه: لا يصلح حلو الحديث إلاّ بمرّه[773]، فإن رُمتم بعد هذا المزيد فاطلبوا الخطبة في الكتب التي ندلّكم عليها في الهامش الذي جُعل لمثل هذه الأمور[774].

حدّث حُذيفة قال: كنّا ندخل على رسول الله، قبل أنْ يُفرض الحجاب، متى أردنا ذلك وشئنا، لا يمنع الدخول عنّا إلاّ متى كان عنده دحية بن خليفة الكلبيّ. فأقبلت يوماً على رسول الله لبعض أموري، مُهجّراً رجاء أنْ ألقاه خاليا، ورفعتُ الشملة المُسدلة على الباب، وهممتُ بالدخول، فإذا أنا بدحية قاعد والنبيّ نائم ورأسه في حجر دحية، فقفلت راجعاً. فتلقّاني عليّ بن أبي طالب، فأخبرته بأمري الذي جئت من أجله، وطلبتُ منه العون على قضائه. فرجع بي إلى النبيّ، ورفع الشملة ودخل، وبقيت عند الباب أنتظر. فلمّا سلّم عليّ على دحية سمعتُ دحية يقول: وعليك السلام يا أمير المؤمنين، خُذ رأس أخيك وابن عمّك في حجرك فأنت أولى الناس به. ففعل عليّ وخرج دحية ودخلتُ.

توقّف حُذيفة تشويقاً، ثمّ استأنف الكلام، يُسجّل الأهداف في شبكة الخصوم: تصوّروا يا سادة، الفرحة العارمة التي انتابتني يومئذ، لمّا أفاق النبيّ من غفوته وأخبرنا أنّ دحية الذي رأيناه ليس دحية بن خليفة الكلبيّ بل جبرئيل عليه السلام. فكبّر الناس تكبيراً مسموعاً إجلالاً لجبرئيل ومَن رأى جبرئيل. وواصل حُذيفة قصّته الجميلة، قال: ثمّ قال رسول الله لعليّ: «يا عليّ، سلّمت عليك ملائكة الله وسكّان سماواته بإمرة المؤمنين من قبل أنْ يُسلّم عليك أهل

الأرض. يا عليّ، إنّ جبرئيل عليه السلام فعل ذلك بأمر الله، وقد أوحى إليّ ربّي أنْ أفرض ذلك على الناس، وأنا فاعل ذلك إنْ شاء الله تعالى[775].»

جرى المخبرون بالخبر إلى عُمر في المسجد فجاء يعدو، واجتهد في بذل أقصى ما عنده من العدو، فأهمج[776]، على لغة الفصحاء، حتى وصل إلى حُذيفة وحُذيفة يَخطب، فقال له: «أنتَ رأيتَ جبرئيل وسمعته؟ اتّقِ القول، فقد قلتَ قولاً عظيماً، أو قد خولط بك. فقال حُذيفة: نعم، أنا سمعتُ ذلك ورأيتُه، فأرغم الله مَن رغم[777].» وبدأ بينهما الجدال، وصوّتا تصويتاً عالياً.

خاف الناس أنْ يؤول الموقف إلى شجار بين الرجلَيْن فانسحبوا من تلقاء أنفسهم واختفوا عن الأنظار في منحنيات السكك القريبة. رأى عُمر أنْ لا خوفَ على الخلافة من حُذيفة وقد هجره الناس وبات وحده، فرجع إلى المسجد على عجل، ليكون إلى جنب أبي بكر، فالرجل جديد عهد بالخلافة، وقد يأتي أعمالاً لا تناسب المنصب.

ما أن اختفى عُمر عن الأنظار وابتلعه المسجد حتى عادت الحلقة سيرتها الأولى، وعاد حُذيفة يخطب، وكأنّ شيئاً لم يكن. فحمد الله وأثنى عليه ألفاً وواحدة، ثمّ قال مزهوّاً: وقد حقّق النبيّ ما وعد به يا سادة. فلمّا كان من الغد جلس في نخيل بني النجّار وجمع أربعين نفراً من المهاجرين فيهم أبو بكر وعُمر وأبو عُبيدة بن الجرّاح، وأربعين نفراً من الأنصار، وأمرهم أنْ يُسلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين، فسلّموا جميعاً، بعضهم سلّموا طواعيّة من تلقاء أنفسهم ولم يقولوا شيئا، وبعضهم سلّموا بعد أنْ سألوا: أعن أمر الله ورسوله؟ فأجابهم النبيّ بنعم، فرضخوا للأمر المقضيّ وسلّموا. أخبرني بذلك بُريدة بن الحُصيب الأسلمي الذي كان شاهداً ذلك اليوم من أوّله إلى آخره، وكنتُ عن ذلك اليوم غائباً في مهمّة أوكلها إليّ النبيّ[778]، وبُريدة بن الحُصيب الأسلمي، كما تعلمون ثقة الثقات لا يكذب على النبيّ ولا يرتدّ ارتداد الجاهل. والله شهيد على ما أقول، والله أكبر، والله أكبر، والله أكبر.

توقّف حُذيفة عن الكلام تشويقاً أوّلا، وليُمكّن الناس من التعبير عن تصديقهم بالتكبير ثانياً. ولكنّ الناس سكتوا هذه المرّة ولم يُكبّروا، خوفَ أنْ يُتّهموا بتشيّعهم لعليّ. أمّا بُريدة بن الحُصيب الأسلمي الذي كان مارّاً من هنا

صُدفة منذ برهة وتوقّف يسمع حُذيفة بن اليمان، وكانت بينهما صُحبة، فقد امتعض من قول حُذيفة، وفهم أنّ حُذيفة الذي كان لمحه عند وصوله وأومأ إليه برأسه، لم يذكر شهادته إلاّ ليُقحمه في الخصومة، فلازم الصمت، ونظر إليه الناس، وتساءل العارفون بالسياسة في الحلقة عن ميله، إنْ كان شيعة لعليّ أم شيعة لأبي بكر وعُمر، وهو الذي يُظهر الشيء وضدّه من غير حَرَج، فتراه يُصرّح أنّه يُبغضُ علياً بُغضا ويشكوه إلى النبيّ ويعتبره من الذين أتوا في السابق الإثم[779] ثمّ تراه يُصرّح بأنّ النبيّ أمر الناس بالسلام على عليّ بإمرة المؤمنين[780].

وبيناً كان الناس يتساءلون بشأن بُريدة استأنف حُذيفة الكلام، كأنّه يُنجد بُريدة صاحبه، وشرع يقصّ أحسن القصص، بإدماج النساء في القصص، فانصرف الناس عن بُريدة إلى حُذيفة.

حدّث حُذيفة قال: ومرّت الأيّام وتناسى الناس ذلك اليوم، فإنْ ذكروه قالوا: مُجرّد تسليم أراده النبيّ على ابن عمّه لا يؤول إلى تحصيل. ولكنّ الآيات نزلت على النبيّ تُجدّد العهد لعليّ، «فهبط جبرئيل عليه السلام بأوّل سورة العنكبوت، فقال: يا محمّد اقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[781]﴾ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا جبرئيل، ما هذه الفتنة؟ فقال: يا محمّد، إنّ الله يُقرئك السلام، ويقول: إنّي ما أرسلتُ نبيّاً قبلك إلاّ أمرتُه عند انقضاء أجله أنْ يستخلف على أمّته من بعده مَنْ يقوم مقامه، ويُحيي لهم سُننه وأحكامه [...] وقد دنا يا محمّد مصيرك إلى ربّك وجنّته، وهو يأمرك أنْ تُنصّب لأمّتك من بعدك عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، وتعهد إليه، فهو خليفتك القائم برعيّتك وأمّتك، إنْ أطاعوه وإنْ عصوه، وسيفعلون ذلك، وهي الفتنة التي تلوتُ الآي فيها. وإنّ الله عزّ وجلّ يأمرك أنْ تُعلّمه جميع ما علّمك [...] إنّي اخترتُ من عبادي نبيّاً واخترتُه لك وصيّاً، فدعا رسول الله صلّى الله عليه وآله عليّا عليه السلام يوماً فخلا به يوم ذلك وليلته، واستودعه العلم والحكمة، وكان ذلك في يوم عائشة بنت أبي بكر[782].»

عند ذكر عائشة صاح الناس: الله، الله، ومدّوا الآذان وازدادوا انتباهاً. كانوا يعرفون أنّ عائشة إذا ما حلّت في القصّة زانت القصّة ومكّنت القاصّ من قُدرة خاصّة على القصّ، فأبدع. ولم يخب ظنّهم في ذلك قطّ، وانطلق حُذيفة يروي، فأطال الرواية، وفصّل وعدّد، ومطّط الأحداث إلى ما لا نهاية، وهذا بعض ما قال، تخيّرناه لكم من طول الحكاية حتّى تكونوا على بيّنة.

لمّا خلا النبيّ بعليّ يوماً كاملاً وليلة كاملة، وكان ذلك في يوم عائشة، أخذ عائشة ما يأخذ النساء، غَيرةً على يومها وليلتها، وجاءت النبيّ تطلب حقّها، وتقول: لقد طال استخلاؤك بعليّ، في يومي وليلتي، فأخبرني بربّك، ما سرّ استخلائك بعليّ؟ فأعرض عنها النبيّ. فجرّبت طريقة أخرى، وتودّدت إليه في دَلّ قائلة: لِمَ تعرض عنّي في أمر، لعلّه من السماء، ولعلّ فيه صلاحي؟ أتى الكلام أُكُله ضِعفيْن، فقال النبيّ: والله، إنّه لأمر من السماء، وإنّ لفيه صلاحك وصلاح الناس أجمعين، وإنّك ستعلمينه متى أُذِنَ لي وأخبرتُ به الخلق.

فهمت عائشة أنّها أخذت فيه مأخذاً، فأضافت: يا رسول الله، لِمَ لا تخصّني بالسبق في هذا الأمر، فأعمل به قبل غيري، وأصيب الصلاح منذ يومي؟ استجاب. ومَنْ لا يستجيب لدلّ امرأة ودلالها ودالُولائها، جاءت زوجَها تُريه جَراءةً عليه في تَغنُّج وتَشكُّل كأنّها تُخالفه وما بها خلافٌ؟ لا أحدَ من دون شكّ، وأنتم تعرفون ذلك، وقد يكون حدث لكم مثله، والله أعلم بأسراركم. قال النبيّ لعائشة: «سأخبرك به فاحفظيه إلى أنْ أؤمر بالقيام به في الناس جميعاً، فضمنت له حفظه والإيمان به ورعايته، فقال: إنّ الله تعالى أخبرني أنّ عُمري قد انقضى، وأمرني أنْ أنصّب عليّاً للناس علماً، وأجعله فيهم إماماً، وأستخلفه كما استخلف الأنبياء من قبلي أوصياءهم، فليكن الأمر منك تحت سُويداء قلبك إلى أنْ يأذن الله بالقيام به، فضمنت له ذلك، فلم تلبث أنْ أخبرت به حفصة، وأخبرت كلّ واحدة منهما أباها[783].»

نظر حُذيفة في الناس طويلاً، وقال: إذا ما أردتَ لسرّ أنْ يَفشُوَ فاستَودِعه امرأةً ذاتَ دَلّ. سكت، ثمّ قال: كان النبيّ يُسمّي النساء صواحب يوسف[784]، كما تعلمون، وكان يقول: إنّ كيدهنّ عظيم وإنّ غوايتهنّ لا مردّ لها. فشا السرّ قبل أنْ يؤذن للنبيّ بنشره في الناس. انتشر انتشارَ الزرد على الماء. ذاع ذَيَعانَ

الإشاعات إذا ما دقّ بها التلفون العربي أجراسه. فما أنْ أخبرت عائشة أبا بكر أباها، وأخبرت حفصة عُمر أباها، حتى «اجتمعا وأرسلا إلى جماعة الطلقاء من قريش والمنافقين من الأنصار ومَنْ كان في قلبه الارتداد من العرب في المدينة وما حولها، فخبّراهم بالأمر، فأقبل بعضهم على بعض، وقالوا: إنّ محمّداً يُريد أنْ يجعل هذا الأمر في أهل بيته كسنّة كسرى وقيصر إلى آخر الدهر، ولا والله. [...] ودار الكلام فيما بينهم، وأعادوا الخطاب، وأجالوا الرأي، فاجتمعوا في أمر رسول الله من القتل والاغتيال وإسقاء السمّ على غير وجه، فتعاقدوا وتحالفوا على أنْ ينفروا به ناقته، وكانوا أربعة عشر رجلاً[785].»

نظر الناس بعضهم إلى بعض، ونظروا حواليْهم فقد يكون المُخبرون في بعض الأرجاء يترصّدون حركاتهم ليرفعوا أمرهم إلى ذوي السلطان الأعظم بتهمة الصيد في الماء العكر والتآمر على أمن الخلافة. وواصل حُذيفة القصّة، يُفصّل للناس ويُفسّر كيف سعى القوم إبّان العودة من حجّة الوداع إلى أن يُنجزوا ما عزموا عليه من أمر يقضي بأنْ يُنفروا بالنبيّ ناقته. ازداد حُذيفة حماساً وهو يصل إلى هذا الحدّ من القصّة، ثمّ ازدادت متعته في القصّ حتى بلغت حدّ النشوة، لمّا صار طرفاً فاعلاً في الأحداث. اسمعْ تَرَ:

«قال حُذيفة: وسار رسول الله صلّى الله عليه وآله، باقي يومه وليلته حتى إذا دنا من عَقبة هَرْشَى تقدّمه القوم، فتواروا في ثنيّة العقبة، وقد حملوا معهم دباباً وطرحوا فيها الحصا. فدعاني رسول الله صلّى الله عليه وآله، ودعا عمّار ابن ياسر وأمره أن يسوقها وأنا أقودها، حتى إذا صرنا رأس العقبة، ثار القوم من ورائنا، ودحرجوا الدباب بين قوائم الناقة، فذعرت وكادت أنْ تنفر برسول الله صلّى الله عليه وآله، فصاح بها أن اسكني وليس عليك بأس، فأنطقها الله تعالى بقول عربيّ مبين فصيح، فقالت: والله، يا رسول الله، لا أزلت يداً عن مستقرّ يد، ولا رجلاً عن موضع رجل، وأنت على ظهري. فتقدّم القوم إلى الناقة ليدفعوها، فأقبلتُ أنا وعمّار نضرب وجوههم بأسيافنا، وكانت ليلة مُظلمة فزالوا عنّا، وأيسوا ممّا ظنّوا وقدّروا ودبّروا[786].»

صاح الناس صوتاً واحدا: يا لك من بطل، يا حُذيفة! نجّاك الله، نجّاك! زدنا من أخبار الفتن، زدنا، فأنت أعلم الناس بها، واكشف لنا عن أسماء الخونة حتى نكون على بيّنة. شكرهم حُذيفة شكراً جزيلاً، ولم يخبرهم

بالأسماء، كعادة حُذيفة إذا ما قصّ وروى، فباتوا على الطوى، ومرّ حُذيفة إلى أمر الصحيفة، فقال: لمّا فشلت محاولة القوم في النيل من النبيّ وقتله بإنفار ناقته به ليصفو لهم الجوّ، كتبوا الصحيفة الملعونة وتآمروا فيها على اغتصاب الخلافة من عليّ، «حدّثتني بذلك أسماء بنت عُميس الخثعميّة امرأة أبي بكر، فقالت: إنّ القوم اجتمعوا في منزل أبي بكر فتآمروا في ذلك، وأسماء تسمعهم وتسمع جميع ما يُدبّرونه في ذلك، حتى اجتمع رأيهم على ذلك، فأمروا سعيد بن العاص الأمويّ، فكتب هو الصحيفة، باتفاق منهم، وكانت نُسخة الصحيفة: «بسم الله الرحمان الرحيم، هذا ما اتّفق عليه الملأ من أصحاب محمّد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، من المهاجرين والأنصار، الذين مدحهم الله في كتابه، على لسان نبيّه صلّى الله عليه وآله، اتّفقوا جميعاً، بعد أنْ أجهدوا في رأيهم، وتشاوروا في أمرهم، [...] أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يستخلف أحداً لئلاّ يجري ذلك في بيت واحد فيكون إرثاً [...] فإنْ ادّعى مُدّع من الناس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم استخلف رجلاً بعينه، نصّبه للناس، ونصّ عليه باسمه ونسبه، فقد أبطل في قوله، وأتى بخلاف ما يعرفه أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله، وخالف على جماعة المسلمين. وإنْ ادّعى مُدّع أنّ خلافة رسول الله إرث فقد أحال في قوله [...] وإنْ ادّعى مُدّع أنّه مُستحقّ للخلافة والإمامة بقربه من رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ هي مقصورة عليه وعلى عقبه، فليس له ولا لولده وإنْ دنا من النبيّ نسبه. ثمّ دُفعت الصحيفة إلى أبي عُبيدة بن الجرّاح فوُجّه بها إلى مكّة، ودفنها في الكعبة[787]» على عادة العرب في الجاهليّة، وكانوا إذا ما اتفقوا على أمر ضمّنوه في صحيفة ودفنوها في الكعبة لتبقى شاهدة عليهم فلا غيّروها ولا خالفوها.

وختم حُذيفة كلامه قائلا: وكان من تبعات ذلك «نزول النبيّ منزل أمّ سلمة شهراً كاملاً لا يُفارقها، ولا ينزل منزلاً سواه من منازل أزواجه كما كان يفعل قبل ذلك، فشكت عائشة وحفصة ذلك إلى أبويْهما، فقالا لهما: إنّا لنعلم لِمَ صنع ذلك ولأيّ شيء هو، امضيا إليه فلاطِفاه في الكلام، وخادِعاه عن نفسه، فإنكما تجدانه حييّاً كريماً، فلعلّكما تسلاّن ما في قلبه، وتستخرجان سخيمته. فمضت عائشة وحدها إليه، فأصابته في منزل أمّ سلمة، فقال لها: ما

جاء بك يا حُميراء؟ أظهرت سرّاً أوصيتك بكتمانه، لقد هَلكتِ وأهلكتِ أمّة من الناس[788].»

صاح الناس: اللّهمّ احمنا! اللّهمّ احمنا! اللّهمّ احمنا من شرّ الطلقاء والمنافقين! عمّ الدعاء المدينة. بلغ المسجد في الحين. خرج خالد بنُ الوليد يتثبّت من الأمر، وخرج وراءه حرّاسه المقرّبون شاهرين الأسياف وتقدّموا إلى حلقة المناوئين. انسحب الناس أجمعين إلاّ حُذيفة بن اليمان ظلّ مكانه فعاد خالد من حيث جاء، ولمّا اختفى عن الأنظار عاد الناس إلى حُذيفة يسمعون منه آخر ما قصّ.

تكلّم حُذيفة بسرعة واختصار وقد أوجس خيفة من خالد بن الوليد وهو يعرف ألاعيبه وحيله وقد يكون أوهم بالرجوع واختفى غير بعيد لينقضّ متى شاء. قال حُذيفة: لمّا فشل مشروعهم القاضي بإنفار ناقة النبيّ وقتله، ولم تكفهم الصحيفة الملعونة التي دفنوها في الكعبة، دبّروا قتل عليّ وقد ظنّوا قتله أهون عليهم من قتل النبيّ. ولكنّ عليّاً كان كريماً على الله مثل النبيّ، فنجّاه من كيدهم مثلما نجّى النبيّ، في قصّة عجيبة اختلطت فيها أمور الأرض بأمور السماء، وكانت معجزة من معجزات الله التي جعلها في خدمة النبيّ وآل بيته. وها بعض تفاصيل ذلك، يا سادتي: لمّا قرّ قرارهم قتل عليّ حفروا له في طريقه الذي لا بد له من سلوكه حفيرة طويلة عمّقوها إلى خمسين ذراعا، ثم غطّوها بخصّ رقاق ونثروا فوقها يسيرا من التراب ليقع فيها هو ودابته ويكبسوه فيها بالأحجار حتى يقتلوه. ولكنّ الفرس ألهم الأمر إلهاماً، وأخبر عليّاً بما كان، فأمره بالسير بإذن الله سالماً سويّاً، فسار وقد متّن له الله الأرض وصلّبها فعادت كما كانت. ثمّ كشف الفرس لعليّ وأصحابه عن أسماء المتآمرين عليه واحداً واحداً[789].

وبيناً كان الناس ينتظرون الأسماء ليكون بها تمام المعلومة، انسحب حُذيفة بن اليمان انسحاباً فنّياً وتركهم على مضض، ولم ينتبهوا إلى رجوع خالد إلى المكان يُطوّقهم بالعسكر من وراء.

10

تسارعت الأخبار في هذا اليوم المشهود، فقد مضت ثلاثة أيّام ولا بدّ من الانتهاء من كلّ أمر والشروع في تجهيز النبيّ ودفنه، ولا يُمكن بأيّة حال أنْ يظلّ في البيت مُسجّى أكثر من ذلك الوقت. فالثلاثة نظام ثابت لا يقبل المزيد، يتمّ بمقتضاه الانتهاء إلى الغاية المنشودة، وتنغلق فيه الحلقة على ذاتها، ويحدث الكمال.

جاء أبو سفيان بن حرب[790] من مُهمّة خارج المدينة بعثه فيها النبيّ مُصدّقاً قبل أنْ يُقبض. فلمّا جاء وبلغته الوفاة وقيام أبي بكر بالأمر من بعده، استنكر ذلك[791] وثارت ثائرته، وقصد عليّاً من توّه. دخل على عليّ، وقال له قبل أنْ يُسلّم: «ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قُريش؟ ما لنا ولأبي فصيل؟ والله لئن شئتَ لأملأنّها عليه خيلاً ورجالاً. والله إنّي لأرى عجاجة لا يُطفئها إلاّ دم. يا آل عبد مناف، فيما أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان، أين الأذلاّن، عليّ والعبّاس؟ يا أبا الحسن، ابسط يدك أبايعك[792].»

لم يهتمّ عليّ بن أبي طالب للأمر، ولم يُعر أبا سُفيان بن حرب أيّ اعتبار، بل عيّره بتأخّر إسلامه ولم يُسلم إلاّ تملّقاً ليلة الفتح، ونعته بكونه من المؤلّفة قلوبهم، ثمّ «زجره وقال: إنّك والله، يا أبا سُفيان، ما أردتَ بهذا إلاّ فتنة، وإنّك والله، يا أبا سُفيان، طال ما عاديتَ الإسلامَ وأهله، وبغيتَ الإسلامَ شرّاً، لا حاجة لنا في نصيحتك[793].»

انكسر أبو سفيان انكساراً كبيراً. شعُر بالذلّ، شعُر بالهوان. لم يدر بخُلده يوماً أنْ يتطاول عليه واحد من بني هاشم وهم من بني عبد مناف مثله، وأنْ يكون هذا الواحد ابن أخي العبّاس، ولم يقل العبّاس شيئاً، وهو صديق العبّاس[794]. لم يردّ على عليّ ردّاً مُباشرا، بل تمثّل بشعر المتلمّس وأنشد في الأذلّين، كما سمّاهما، وهو يعني عليّاً والعباس[795]:

ولا يُقيمُ عَلى ضَيْمٍ يُرادُ به
إلّا الأذلّان عَيْرُ الحَيِّ والوتدُ

هذا على الخَسفِ مَعكوسٌ برُمّتهِ
وذا يُشجُّ فلا يَبكي له أحدُ

ولمّا أتمّ أبو سفيان ما أنشد خرج من عند عليّ، وكانت القطيعة بينهما، وبين عشيرتيْهما. كان ذلك آخر عهد للناس بالوئام والانسجام والتناسق بين بني هاشم وبني أميّة من آل عبد مناف، يشهد على ذلك ما رصده التاريخ من صراع شرس بين الشقّين على السلطان الأعظم. ولكنّ هذا التاريخ لاحق بالفترة التي ندوّن لها اليوم، ولا يدخل البتّة في شُغلنا الشاغل، فلنتركه ونعود إلى أمرنا.

كان أبو سفيان في الطريق إلى بيته، بعد الذي كان بينه وبين عليّ. مرّ شريط الأحداث بباله مروراً بطيئاً. ندم على ما أتى وفعل. ما كان عليه أنْ يخصّ عليّاً بالذهاب إليه قبل أنْ يرجع إلى أهله من سَفرٍ مُضنٍ شاقّ. ما كان عليه أنْ يُقدّم له النصيحة ليستردّ حقّه. ما كان عليه أنْ يعرض عليه تجنيد نفسه وعشيرته للذود عنه واسترجاع الخلافة. ودخل في هذيان ضدّ عليّ، ورآه لا شيءَ إذا ما قارنه بنفسه. فأبو سفيان سيّد قريش وشريف مكّة، «وكان تاجراً يُجهّز التجّار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم، وكان يخرج أحياناً بنفسه. وكانت إليه راية الرؤساء التي تُسمّى العُقاب، وإذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس. وكان أفضل قريشاً رأياً في الجاهليّة[796]» قاد حروب قريش ضدّ النبيّ، ولمّا أسلم ولاّه النبيّ صدقات الطائف، وولاّه نجران فقُبض وهو عليها[797]، وهو وإنْ كان من المؤلّفة فقد حسُن إسلامه[798].

أمّا عليّ فلا شيءَ، بالنسبة إليه. لا همّة له أبداً، والله، يتمرّغ في التراب وينام عليه ويطلي به رأسه إذا ما غاضب فاطمة وأغلظت له وطردته، فسمّاه أبوها والناس أبا تراب[799]. وهو إذا ما قدّمه الناس لأمر تأخّر، ولم يُؤمّره النبيّ، ولم يصحبه معه في كلّ أمر، من ذلك أنّه خلّفه مع الصبيان والنساء في غزوة تبوك

ولم يُخرجه معه إليها[800]. وختم هجوه ختاماً مسكاً، فقال: والله، إنّ علياً لا يستحقّ فاطمة.

كان أبو سفيان، والحقّ يُقال، يُحبّ فاطمة حبّاً جمّاً، ويخصّها بالتبجيل والاحترام، حتى قبل إسلامه وهو يُحارب أباها. فكان يدافع عنها إذا ما عرض لها عارض، ويردّ مَن اعتدى عليها أو ظلمها في أمر. وقد رُوي أنّ غُلاماً شجّ فاطمة فنادت يا آل عبد مناف، فخرج أبو سُفيان يشتدّ أوّل الناس[801]. ورُوي أنّ فاطمة عرض لها أبو جهل ولطمها، فاشتكت ذلك إلى أبي سُفيان، فأخذها معه إليه، وأخضعه لها فلطمته[802].

توقّف أبو سفيان بغتة، وهو يصل بالمناجاة إلى حدّ فاطمة. تذكّر النساء، زينة الحياة الدنيا، وزينة الحياة الأخرى إذا صدقت الأنباء. أُلهم شيئاً كالوحي. صَدح صُداحاً وهو وحده: حبستني السياسةُ عن بعض المناسك السمحة. أنستني الولايةُ والصدقاتُ أمرَ النساء. لعن الله السياسة والسياسيّين والناس أجمعين. لم أحظ، منذ أنْ أسلمت، بيوم أخصّ به ذاتي وأجعله لشؤوني الخاصّة.

تذكّر أبو سُفيان أزواج النبيّ. تذكّرهنّ جميعاً ولم ينس منهنّ واحدة. بدأ الفرز والتصنيف والاختيار. هذه سودة عجوز قد أسنّت لم يستكثر النبيّ منها وهجرها، لا تصلح للخدمة. فاستبعدها. وهذه أمّ سلمة، فيها من عزّ الكهولة نصيبٌ، ولكنّها ستلحق قريبا بسودة، ثمّ هي من شيعة عليّ، وهو يكفر الآن بعليّ. فاستبعدها. وكذلك فعل بميمونة، دون سبب واضح. فاستبعدها. وهذه أمّ حبيبة، ابنته، لا تخضع للتصنيف. وهذه زينب، تتبجّح بكون الله زوّجها من النبيّ، وتظنّ نفسها فوق النساء. وهي إلى ذلك صعبة المراس، عنيدة، لا ترضخ لامرئ، مع تقدّم في السنّ. فاستبعدها. وهذه حفصة، يكره أباها عُمر كُرهاً شديداً، ويعتبره من أذلّ الأحياء. فاستبعدها. وهذه جُويريّة، من بني المصطلق، لا يحمل لهم ودّاً كبيراً، وهي عميلة لأهلها كما شاع عنها، ولكنّها في عزّ الشباب. فاستبقاها إلى حين الفرز الأخير. وهذه صفيّة، يهوديّة وهو لا يكره اليهود، وقد عرضت له في بعض أسفاره حكايات مع نساء من بني إسرائيل، وأعجبه ذلك. فاستبقاها إلى حين الفرز الأخير. وهذه عائشة.

إمّـــــ... فتل شاربيه. مسح بلسانه على شفتيّه. استبعد جُويريّة، واستبعد صفيّة. قال مزهوّاً: سأخطب عائشة إلى أبي بكر. وليذهب عليّ إلى الجحيم.

أحلم أبو سفيان النفس بالزواج من عائشة. غداً سيصبح صهر أبي بكر، صهر الخليفة. يا الله! هذه فرصتك يا أبا سُفيان. ستكون كما كنت دائماً، قريباً من السلطان الأعظم. ستكون، والله، السلطان. فأبو بكر من أقلّ قريش حيّاً، ولا عهد له بالسلطان، وسيحتاج أبا سفيان في كلّ أمر، ولن يبخل عليه بمشورة أو نصيحة، وسيقبل منه نصيحته والمشورة، ولن يكون مثل عليّ المستضعف الأذلّ.

شعُر أبو سفيان بالفخر وهو يصل إلى هذا الحدّ. استقام، وكان ربعةً عظيم الهامة[803]، حتّى لا يَظنّ ظانٌّ أنّه هَرِمَ. استحضر عُمره وعدّ السنين، حسب التقريب. ولد قبل الفيل بعشر سنين[804]. فإذا كان النبيّ قد وُلد عام الفيل، وبُعث في عمر النبوّة أي في الأربعين[805]، كان ذلك بعد الفيل بأربعين سنة، وكان عُمر أبي سفيان يومئذ خمسين. فإذا قُبِضَ النبيّ بعد البعثة بعشرين سنة أو ثلاث وعشرين، وكان عمره ستين سنة، أو ثلاث وستّين[806]، كان عُمر أبي سفيان سبعين أو ثلاث وسبعين. استغفر الله العظيم، وقال: الحساب لا يُقابل بعضه. لا بدّ أنّ خطأ تسرّب إلى عدّ المؤرّخين، وهو أصغر من ذلك بكثير. ثمّ هوّن عليه الأمر وقال: وعلى كلّ حال، فإنّ العمر في عُرف العرب لا يدخل في باب الخصال، والرجل يبقى رجلاً ولو في أرذل العُمر. سيتزوّج عائشة وإن فاقها بعقد أو عقدين. وأغلق هذا الباب حتى لا يُظهر الحسابُ أنّه يفوقها بخمسة عقود ونيف، وقال: ثمّ إنّ المرأة يلزمها الستر.

استحمّ أبو سفيان كما يستحمّ الناس في تلك الأيّام، وخضب، وتعطّر، ولبس الحرير، وخرج قاصداً أبا بكر في المسجد، ليكلّمه في عائشة قبل أنْ يُكلّمه فيها غيره، ويُخبره بأنّه يخطبها من بعد قضاء عدّتها، وفق ما جرى بذلك العمل إذ ذاك، وما اقتضته الأعراف والآداب في الجزيرة، والله وليّ التوفيق.

11

إنّ من الناس مَن كفاه اسمُه شُهرةً ولم يحتج إلى أب أو جدّ أو نسب تليد. كذلك كان طلحة، فلا تَذكر له أباً ولا جدّاً ولا عشيرةً ولا عرقاً من العروق. وقد اقترن اسمه باسم آخر لا يقلّ عنه شُهرةً، وهو الزبير، فاجتمعا في كلّ أمر، وكوّنا ثُنائيّاً لا يقبل الانفصال، مثل زينة وعزيزة، أو العجيب والغريب، أو ما قلّ ودلّ، وهلمّ جرّا.

وقد أدّى هذا الجمع الفنّي بين طلحة والزبير إلى الجمع بينهما في شؤون، منها مؤاخاة النبيّ بينهما في مكّة، وتعيينهما في العشرة المبشّرين بالجنّة، وقيامهما فيها جاريْن للنبيّ[807]. ومنها تزوّجهما بنتيْ أبي بكر الصدّيق، فتزوّج الزبير أسماء، وتزوّج طلحة أمّ كلثوم[808]. ومنها ما شاع من أمر اجتماعهما إلى عليّ ونصرته في صراعه ضدّ أبي بكر على الخلافة[809]، ثمّ خيانتهما لعليّ وقيامهما إلى جنب عائشة يُحرّضان الناس على حرب عليّ[810]، وقد ماتا معاً مُحاربيْن في معركة الجمل[811].

وإنّا رغم هذا الجمع الفنّي بين الرجليْن في الأخبار، سنفرّق بينهما فيما يلي من قصّة، فنهتمّ بطلحة من دون الزبير، وقد بان لنا أنّ القصّة هنا لا تستقيم إلاّ به وحدَه، وأنّه سيخدم فيها غرضنا، بإذن الله، فكان لا بدّ من إنصافه وإعطائه حقّه، وهو، والحقّ يُقال، أهل لذلك وأكثر. فقد أسلم ثاني اثنيْن، بعد أبي بكر، وشدّه أخوه بحبل إلى أبي بكر ليمنعهما عن الصلاة، فما راعه إلاّ وهما مُطلقان يُصلّيان، وأبلى يوم أحد بلاء عظيماً، ووقى النبيّ بنفسه، واتّقى عنه النبل بيده، وحمله على ظهره حتى صعد الصخرة[812]، «والنبيّ مكسورة رباعيتاه، مشجوج في وجهه، قد علاه الغَشيُ، وطلحة مُحتمله يرجع به القَهْقَرى، كلّما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه حتى أسنده إلى الشِّعب.

ورجع طلحة يومئذ بخمس وسبعين، أو سبع وثلاثين ضربة، رُبّع فيها جبينه، وقُطع نَساه، وضُربت يده، وشَلّت إصبعُه التي تلي الإبهام[813].»

أثخن العدوّ يومئذ في طلحة. وكان من بعدُ يروي ذلك ويقول: «لقد عُقرتُ يوم أُحد في جميع جسدي حتى في ذكري[814]» واعتبره الناس ميتاً قد بُعث يسعى، حتى قال فيه النبيّ: «مَن سرّه أنْ ينظر إلى رجل يمشي على ظهر الأرض وقد قضى نحبه فليَنظر إلى طلحة؛ ومَن أحبّ أنْ ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فليَنظر إلى طلحة[815].» ولم يبخل عليه النبيّ بمَدح، فسمّاه يوم أُحُد طلحة الخير، ويوم العُمرة طلحة الفيّاض، ويوم حُنين طلحة الجُود[816].

وطلحة، هذا البطل الذي ذاد عن النبيّ ذوداً عظيماً، هو طلحة بن عُبيد الله ابن عُثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرّة بن كعب بن لؤى[817]. فإذا قارنّا بين نسبه ونسب أبي بكر الصدّيق وهو عبد الله بن عُثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرّة بن كعب بن لؤى[818]، وجدنا عبد الله أخاً لعُبيد الله، وخلصنا إلى أنّ عبد الله هذا، الذي هو أبو بكر، كان عمّ طلحة، وتساءلنا عن سبب انتصاب طلحة شيعة لعليّ لا لأبي بكر عمّه، خلال محنة السقيفة، وفهمنا لِمَ صار من بعدُ شيعة لعائشة بنت أبي بكر، وهي ابنة عمّه، كما صرّح بذلك ذات مرّة ولكنّ الناس لم يهتمّوا لأمره، واهتممنا به حتى تكونوا على بيّنة.

وما دام ذكر عائشة قد ورد فلا بأس أنْ نترك طلحة البطل لحاله، ونهتمّ بالإنسان الذي كانه. كان طلحة، حسب أوصاف الكتب، حسن الوجه، دقيق العِرْنين، أبيض يضرب إلى الحمرة، مربوعاً إلى القصر أقرب، رحب الصدر، عريض المنكبيْن، كثير الشعر، ليس بالجعد القَطَط ولا بالسبْط، لا يُغيّر شعره ولا يخضب. وكان يحبّ اللباس الفاخر والزينة، ويلبس الثوب المصبوغ بمِشْق وهو مُحرِم، والحال أنّ أحسن ما يلبسه المُحرِم البياض، ويجعل في يده خاتماً من ذهب فيه ياقوتة حمراء، وهذا مكروه متروك عند غيره[819].

وكان طلحة لمّا قُبض النبيّ، في العقد الرابع من العمر على أقصى تقدير، ولعلّه كان أقلّ بذلك بشيء يسير، كهلاً في عزّ العمر. وكان يُحبّ النساء كما

لا يُحبّ النساء أحد، يُحبّهنّ بشغف وذوق رفيع، وحذق وفنّ، وظرف وأدب جميل، ولم يكن كغيره من الرجال يقضي حاجته ويمرّ. وكانت النساء يرددن له الودّ بالودّ، ويُفضّلنه على غيره، ويرغبن فيه بلا حساب. وقد حدّثت بذلك إحدى النساء، حديثاً جميلاً شيّقاً، قارنت فيه بين طلحة وعُمر والزبير وعليّ، وقد خطبوها جميعاً، فاختارت منهم طلحة لأسباب نخصّكم بشيء منها لتقفوا على حقيقة الرجل في هذا الباب: «خطب عُمر بن الخطّاب أمّ أبان بنت عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فأبته، فقيل لها: ولِمَ؟ قالت: إنْ دخل دخل بيأس، وإنْ خرج خرج بيأس، وقد أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، كأنّه ينظر إلى ربّه بعينه. ثمّ خطبها الزبير بن العوّام، فأبته، فقيل لها: ولِمَ؟ قالت: ليس لزوجته الإشارة في قراملها. ثمّ خطبها عليّ بن أبي طالب، فأبته، فقيل لها: ولِمَ؟ قالت: ليس لزوجته منه إلاّ قضاء حاجته، ويقول كيت وكيت. ثمّ خطبها طلحة، فقالت: زوجي حقّاً، قالوا: كيف ذلك؟ قالت: إنّي غارقة بحلائقه، إنْ دخل دخل ضحّاكاً، وإنْ خرج خرج بسّاماً، إنْ سألتُ أعطى، وإنْ سكتُّ ابتدأ، وإنْ عملتُ شكر، وإنْ أذنبتُ غفر[820].»

وقد بدا لنا طلحة، هذا الذي نحن بصدده، شبيهاً بالنبيّ، يُحاكيه ويُماهيه، ويرغب فيما يرغب فيه، ويميل إلى ما يميل إليه من نسب وحسب، حتى إنّه لتزوّج أربع نساء كنَّ أخوات لأزواج النبيّ. فتزوّج حمنة بنت جحش أخت زينب زوج النبيّ. وتزوّج الفارعة بنت أبي سُفيان أخت أمّ حبيبة زوج النبيّ. وتزوّج رقيّة بنت أبي أميّة أخت أمّ سلمة زوج النبيّ. وتزوّج أم كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة زوج النبيّ[821]. وكأنّي به كان رجلاً طِرْفاً، رغيبَ العين، لا يرى عند غيره شيئاً إلاّ اقتدى به وأحبّ أنْ يكون له[822].

فإذا كان ذلك كذلك، مُكّنّا بما به يكون كشف أمر طلحة الذي أشكل على أصحاب الرأي من رواة ومُخبرين وكتّاب، بشأن امرأة أحبّها، وسعى إليها، وحرمته الآيات منها. وهو أمر أسهبت فيه الشيعة وتستّرت عنه السنّة إلاّ بما قلّ ودلّ، فتتبّعناه لكم عند هذا الشقّ وذاك الشقّ على حدّ السواء، نجمع بينهما ولا نفرّق، ولا نتبنّى مَزعماً على مَزعم، لا شيء يحكمنا غير متعة القصّ دون انحياز. ومَن أراد منكم الانحياز انحاز حيث شاء، واعتمد مصدراً دون

مصدر، ومرجعاً دون مرجع، ونحن نُمكّنه في الكتاب من المصدر والمصدر، والمرجع والمرجع، فإن شاء اختار، والله وليّ التوفيق.

كان الصحابة في الزمن الأوّل يتردّدون على النبيّ في بيته، ويجالسونه ويُحادثونه وهو في نسائه. وكانوا يأكلون في بيته، فإذا أكلوا أطالوا البقاء والحديث. وكان يأكلون في نفس الإناء مع النبيّ وأزواجه، فتلامس أيديهم أيدي أزواجه[823]. وكانوا إذا صادفوه غائباً جلسوا إلى أهله ولا حَرَج، حتى فُرض الحجاب. وكان طلحة مثل الصحابة جميعاً، يفعل فعلهم في ذلك الزمن الأوّل، فيأتي النبيّ في بيته، ويجلس إليه في نسائه، ويُطعم عنده بين نسائه، ويُحدّث عائشة، وهي ابنة عمّه، وكان يُحبّها، والله أعلم.

كان ذلك جائزاً عند العرب في تلك الأيّام، ولا يُثير إلاّ حفيظة المتشدّدين، مثل عُمر بن الخطاب الذي كان أكثرهم تشدّداً، فجاء ذات يوم إلى النبيّ، وقال له: «يا رسول الله، إنّ نساءك يدخل عليهنّ البرّ والفاجر، فلو حجبتهنّ، فأنزل الله آية الحجاب[824]» فأدخل نزولها السرور والغبطة على عُمر، إذ انضافت آية إلى الآيات التي وافق فيها ربّه، وتأكّد الناس مرّة أخرى أنّ الآيات تنزل على لسانه[825]. أمّا الذين كانوا من غير المتشدّدين، ويُجوّزون الدخول على نساء النبيّ، ولا يتحرّجون في الدخول، فقد أصيبوا بنزول آية الحجاب مصيبة كبيرة، وكان طلحة بن عُبيد الله أكثر الناس مُصاباً، وثارت ثائرته، وقال: «أيحجبنا محمّد عن بنات عمّنا، ويتزوّج نساءنا؟ لو قُبض النبيّ لتزوّجتُ عائشة [...] فكلّمها وهو ابن عمّها، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لا تقومنّ هذا المقام بعد يومك هذا. فقال: يا رسول الله، إنّها ابنة عمّي، والله، ما قلت لها مُنكراً، ولا قالت لي. قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: قد عرفت ذلك أنّه ليس أحد أغير من الله، وأنّه ليس أحد أغير منّي. فمضى، فقال: يمنعني من كلام ابنة عمّي! لأتزوّجنّها من بعده[826].»

وقد شاع أمر طلحة مع عائشة عند الصحابة والتابعين والمفسّرين والعلماء من كلّ صنف، وروَوْا الخبر بصيغ مختلفة على عادتهم في رواية الأخبار[827]، وقد ثبت لدينا، بفضل ما روَوْا لنا، أنّ طلحة جعل قوله في عائشة مشروعاً لا يحيد عنه، فلمّا قُبض النبيّ سعى إلى تحقيق مشروعه والزواج من عائشة المصون. ويبدو، والعهدة في ذلك على الأخبار، أنّ طلحة لم يكن وحده

يصبو إلى الزواج من بعض أزواج الرسول، بل شاركه في ذلك صحابة أجلّاء منهم عثمان[828]، وآخرون سيأتي فيهم البيان.

كان طلحة كما أخبرناكم بذلك سابقاً، قد اختار عليّاً شيعة ودخل مع الزبير بيت فاطمة[829]. ولعلّه فعل ما فعل تحت تأثير الزبير ليس غيرُ، وكانا يداً واحدة في كلّ أمر. فالزبير كان ابن صفيّة بنت عبد المطّلب، عمّة النبيّ، يجري في عروقه دم آل البيت، فانحاز بطبيعة الحال إلى عليّ، حتى وإنْ كان متزوّجاً أسماء بنت أبي بكر. أمّا طلحة فكان أبو بكر عمّه، فإنْ فضّل عليه عليّاً فلا بدّ أنْ يكون ذلك بفعل فاعل، والله أعلم. ولكنّ هذا لا أهمّية له في قصّة إسلام النشأة المفقود، فالشخصيات لا يستقيم أمرها إلاّ في ظلّ الرواية، والرواية تختلف باختلاف الرواة، والرواة يدينون بالمذاهب، والمذاهب يختلف بعضها عن بعض، فتختلف الرواية عن الرواية حدّ التناقض، وقد لا يؤول أمرها إلى تحقيق إلاّ في ظلّ التناقض.

ولم يخرج طلحة من بيت عليّ إلاّ لمّا جاء عُمر في ثلّة من أصحابه، وهدّدوا بإحراق البيت على أهله ومَن لاذ به[830]، وأحدقوا بمن كان هناك، ومضوا بجماعتهم مُكرهين إلى أبي بكر، وقالوا لهم: بايعوا أبا بكر فقد بايعه الناس ولئن أبيتم لنحاكمنّكم بالسيف، فبايعوا[831].

بايع طلحة، مُكرهاً كما تقول القصّة، ولعلّه كان كذلك، ولكنّ أمراً خطر بباله وغاب عنه في معمعان هذه الظروف الحالكة وتسارع الأحداث. تذكّر مشروعه القديم القاضي بالزواج من عائشة إنْ قُبض النبيّ. تذكّر ذلك وخفق قلبه بين أضلعه وعلت الغبطة وجهه. يا الله! نسي أمره الذي عاش به دهراً واهتمّ بشؤون السياسة التافهة. قال في نفسه: لا بدّ من تدارك الأمر، والاختلاء بأبي بكر عمّه، وتجديد البيعة له طواعيّة، وتكليمه في عائشة قبل غيره على أمل أنْ يخطبها من بعدُ وفق ما يقتضي العرف وآداب الترمّل.

عاد طلحة إلى بيته بسرعة، ولبس الحرير وتزيّن وقصد أبا بكر في المسجد. وخرجت امرأته حمنة بنت جحش وراءه، وقد فهمت عليه أمره لزلّة زلّها ولم يفطن، وقصدت بيت النبيّ.

12

لعلّكم لا تعرفون صَفوان بن المُعطّل السُلَميّ[832]، ولعلّ اسمه لا يعني لديكم شيئًا كبيراً. ولا حَرَجَ في ذلك، فلا ترموا أنفسكم بالجهل بسببه، ولا تستنقصوا أمركم. فالرجل لم يشتهر بأمر يُذكر إلاّ بمُنكر، فلا هو كان سيفاً إصْليتاً من أسياف الإسلام، ولا هو قاد الغزوات أو السرايا، ولا هو كان له في الإسلام سَبقٌ فبُشّر بجنّة ومن حوله الحور العين، فينعم، ولا هو كان من الرواة المشاهير فحدّث عن النبيّ وأكثر[833].

كان صَفوان بن المُعطّل السُلَميّ صحابيّاً من الدرجة الثانية، وظيفته أنْ يقوم على ساقة الجيش[834]، فإذا سقط من الجيش شيءٌ التقطه وألحقه بهم، وهي في الجيش وظيفة مَن لا وظيفة له. ومع ذلك فقد ارتبط اسمه بالنبيّ وأهله، وكان له عند النبيّ حظوة، ومكّنه من صكوك وامتيازات لم يُمكّن منها غيره، فحرّم على الناس أنْ يقرؤوا بسورة من القرآن قرأ بها، وسمح له أنْ يصلّي الفجر متى استيقظ وكان لا يستيقظ إلاّ والشمس في كبد السماء، وحرّم على امرأته الصوم ليُمكّنه منها وكان رجلاً شابّاً لا يصبر[835].

كان صفوان يفعل في الناس ما شاء، والنبيّ يحميه إذا ما فعل، ويقول: «ما علمتُ عليه إلاّ خيراً؛ ما علمتُ عليه سوءًا؛ دعوا صَفوان فإنّ صَفوان خبيث اللسان طيّب القلب[836].» ولمّا هجاه حسّان بن ثابت قعد له ذات مساء وضربه بالسيف حتى كاد يقتله، وجاء حسّان النبيّ يشكو إليه صَفوان ويطلب القصاص وردّ الاعتبار. ولكنّ النبيّ في هذه الحادثة أظهر تعاطفاً مع صَفوان لا مع حسّان، ولام حسّاناً على هجائه قوماً هداهم الله للإسلام، وطلب منه أنْ يُحسن فيما أصابه[837]، فأصاب الحياء حسّاناً وأوكل أمره إلى النبيّ، فاستوهبه النبيّ الضربة فوهبها له، ولم يُسلّط النبيّ عقاباً على صَفوان ولا حمّله فدية، وجازاه وأهداه حُلّة[838]. وسكت حسّان ورضي فأعطاه النبيّ سيرين أخت

مارية القِبطيّة زوج النبيّ وأمّ ابنه إبراهيم، وأعطاه أرضاً بنخيل[839] تعويضاً له على ضربة صَفوان الذي ظلّ تحت جناح النبيّ.

كان صَفوان بن المُعطّل السُلَميّ، لمّا قُبض النبيّ، شابّاً في عزّ الشباب، مثله مثل عائشة. وكان، كما رأيناه منذ حين، رجلاً لا يطيق الصبر، ففكّر في أنْ ينكح عائشة، وقد ترمّلت، على سنّة الله ورسوله، فيخطبها من أبي بكر وليّ أمرها، ويتزوّجها زواجاً شرعيّاً صالحاً، على مرأى من الناس ومسمع، فلا يتقوّلون فيهما الأقاويل مثلما فعلوا في المرّة الأولى، في تلك القضيّة التي سُمّيت الإفك ولمّا نُحدّثكم عنها.

لبس صَفوان بن المُعطّل السُلَميّ ما تأتّى عنده من لباس يصلح لمثل هذه المناسبات، ولم يكن مثل غيره من الخُطّاب يملك الحرير، وقصد أبا بكر في المسجد، يُكلّمه في عائشة قبل أنْ يُكلّمه فيها غيره، وأرسل أمّه إلى عائشة تُعزّيها في زوجها وتُعلمها برغبته في الزواج منها على سنّة الله ورسوله، وأوصاها أنْ تتوخّى في ذلك الحذر والتستّر حتى لا يفتضح الأمر الآن. كانت أمّ صَفوان قد أدّت واجب العزاء ورجعت من بيت النبيّ منذ زمن غير بعيد، فأظهرت شيئًا من التردّد، فابتسم في وجهها صَفوان، وكان ابنها المدلّل، فكتمت أمرها، وعادت من حيث جاءت. قصدت بيت النبيّ تُعزّي عائشة في زوجها.

بيناً كان صَفوان في الطريق إلى أبي بكر يُحلم النفس بالزواج السعيد ويَضحك بينه وبين نفسه والغبطة تعلو وجهه، رآه أطفال الشِّلّة وكانوا كثيراً ما يجلسون إليه في بعض أركان السكك أو في الفضاء خارج المسجد، فيحدّثهم عن بعض مغامراته، ولم يكن شيخاً له وقار فيجد له منهم هيبةً واحتراماً، بل كان شابّاً وهم أطفال داخلون في الشباب قريباً. وكانوا يُحبّون قَصّه مغامراته وخاصّة ما دخل منها في باب النساء، وهم يستعدّون إذ ذاك لأمر النساء الذي كان في ذلك الزمان يُصيب الناس في سنّ مبكّرة.

ما إنْ لمح أطفال الشِّلّة صَفوان حتى هرعوا إليه يستوقفونه، فتملّص وادّعى أنّه بصدد السير إلى أمر هامّ فلا يجب أنْ يُعطّل. ولكنّهم ألحّوا عليه، وكان فيهم عبد الله بن جعفر فجرى نحوه وجرى معه كلبه وراءه وقفز يتمسّح

بساقيه، فوقف، وكان يُحبّ عبد الله بن جعفر وكلبه، لوجه الله سابقاً، أمّا الآن فقد بدا له أنّه يستطيع التعويل عليه في أمر الزواج الذي عزم أمره عليه. فعبد الله بن جعفر[840] هو ابن جعفر بن أبي طالب، وجعفر هو ابن عمّ النبيّ ومات شهيداً في مؤتة، فزوّج النبيّ أمّه أسماء بنت عُميس من أبي بكر، فصار عبد الله في حجر أبي بكر، واعتبره أبو بكر ابنه وأحبّه وأحبّ كلبه الذي لا يُفارقه وكان يختبئ في البيت تحت سرير أبي بكر نفسه[841].

سلّموا على صَفوان كثيراً، وسألوه قصّة من قصص مُغامراته، فاعتذر من جديد وتدخّل زعيمهم عبد الله بن عبّاس وخلّصه منهم، وقال لهم: هيّا يا شباب، لدينا الآن عمل. فتبعوه جميعاً وجروا وراءه إلاّ عبد الله بن جعفر فقد شدّ صَفوان على يده واستوقفه معه. ولمّا تحرّك صَفوان تحرّك عبد الله إلى جنبه مسروراً سعيداً وكان يُحبّ صَفوان، وجرى الكلب وراءهما سعيداً مسروراً لسرور ربّه عبد الله. وسار ثلاثتهم قاصدين المسجد.

تجاذب صَفوان وعبد الله أطراف الحديث وهما في الطريق، وعبد الله يشعر بالفخر والزّهو لما يجد من صَفوان من اهتمام به وهو لم يُجاوز عشر سنين. استدرج صَفوانُ عبد الله كما تُستدرج الأطفال فحدّث ما شاء أنْ يُحدّث. حدّث عن أبيه جعفر، وصَفوان يقول: رحمه الله، كان خير العباد، ويعيد ذلك ويُكرّر، وعبد الله يزداد فخراً. وحدّث عن النبيّ الذي بايعه وهو ابن سبع سنين[842]، وكان يُردفه والحَسن أو الحُسين أو عبد الله بن عبّاس ويترك عبد الله بن الزبير لا يُردفه[843]. وكان هذا يسرّه كثيراً شماتة في عبد الله بن الزبير. وحدّث عن أمّه أسماء بنت عُميس وقد جاءها خبر شهادة جعفر[844].

ثمّ عاد عبد الله بن جعفر وحدّث من جديد عن كلّ تلك الأشياء وقال كأنّه يُلخّص ليفهم صَفوان: «أنا أحفظ حين دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أمّي ونعى لها أبي، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي، وعيناه تُهْراقان الدموع حتى تَقطُر لحيته، ثمّ قال: اللهمّ إنّ جعفراً قد قدم إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذرّيته بأحسن ما خلفتَ أحداً من عبادك في ذرّيته! إنّ الله جعل لجعفر جناحيْن يطير بهما في الجنّة. وقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأخذ بيدي يمسح على رأسي حتى رقا على المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يُعرف عليه، ثمّ تكلّم فقال: ألا إنّ جَعفراً قد

استشهد، وقد جُعل له جناحان يطير بهما في الجنّة. ثمّ نزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدخل بيته وأدخلني معه، وأمر بطعام فصُنع لأهلي، وأرسل إلى أخي فتغدّينا عنده والله، غداء طيّباً مُباركاً، عمدت سلمى خادمه إلى شعير فطَحنته ثمّ نَسَّفَتْه ثمّ أنضَجته وأدَمَتْه بزيت وجعلت عليه فلفلاً، فتغدّيتُ أنا وأخي معه، فأقمنا ثلاثة أيّام في بيته ندور معه كلّما صار في إحدى نسائه، ثمّ رجعنا إلى بيتنا[845].»

وكاد عبد الله بن جعفر أنْ يسترسل في الذكرى، وصَفوان بن المُعطّل على أحرّ من الجمر ينتظر حديثاً في أبي بكر، وهو لم يُحدّث عن أبي بكر شيئاً، فسأله صَفوان: وأبو بكر، يا عبد الله؟ كيف هو؟ فأجاب عبد الله بسرعة: والله، لا أرى منه إلاّ خيراً. يعتبرني مثل ابنه ويُحبّني ويُحبّ كلبي، ويُلبّي إذا سألتُ. أسعد هذا الجواب صَفوان، ولكنّه أراد أنْ يتأكّد، فسأل: هل يُلبّي كلّ ما تسأله وكلّ ما ترغب فيه؟ فقال: إي والله، نعم.

سُرَّ صَفوان بهذا الجواب الكافي الشافي، وازداد تودّداً إلى عبد الله وشدّا على يده، وقد ظنّه خير سبيل إلى الوصول إلى أبي بكر، وكان يخاف أبا بكر. سيجعل عبد الله بن جعفر رسوله إلى أبي بكر، والله وليّ التوفيق.

13

وصلت أمّ صَفوان إلى بيت النبيّ ونادت بأعلى صوتها، كما تعوّدت أنْ تنادي كلّما همّت بدخول بيت: يا أهل الدار، يا أهل الدار. فخرجت إليها بريرة وقادتها إلى الداخل ولم تسألها عن حاجتها في رجوعها وكانت ودّعتها عند الباب منذ زمن غير بعيد، وتركتها على راحتها كما تقول نساء ذلك الزمن. دخلت أم صَفوان تنوي الاتّجاه مباشرة إلى بيت حفصة حيث تركت عائشة، وتُمنّي النفس بألاّ تجد في البيت كثيراً من النساء حتى تستطيع الاختلاء بعائشة إذا ما خرجت حفصة، ولكنّها فوجئت بالنساء حلقاً خارج البيوت لا داخلها وقد خرجن للاستهواء وكنّ آخر عشيّ.

أسرعت أمّ صَفوان الخطو، وهي تعبر الطريق إلى قدّام بيت حفصة حيث كانت حلقة عائشة. ولكنّ الطريق إلى هناك تمرّ من أمام بيت زينب حيث الحلقة المفضّلة عند النساء، وكانت حمنة بنت جحش أخت زينب في الحلقة، ولم يفتها سعي أمّ صفوان من هناك وإنْ لم ترفع عينيْها عن موقع قدميْها، فابتدرتها بالترحيب وقالت بصوت رفيع: أهلاً يا أمّ صفوان، تفضّلي عندنا، وقد كنتِ من قبلُ في الحلقة الأخرى، تفضّلي فزينب هنا. لم تجد أمّ صَفوان بدّاً من الرضوخ للأمر المقضيّ، وهي تعلم أنّ حمنة لسان شرّ مسلّط على كلّ عِرض، وتحدّثت بالإفك[846] من غير حقّ، وعرضت بالفاحشة لعائشة زوج النبيّ وصَفوان ابنها الذي لا يعرض قطّ لامرأة بسوء.

سلّمت أمّ صَفوان وأرادت مواصلة الطريق ولكنّ حمنة أمسكت بذراعها واضطرّتها إلى الجلوس فجلست وعادت إليها تسألها بصوت يسمعه مَن في الحَوْش الكبير: كيف حال صَفوان، يا أمّ صفوان؟ والله، لم نسمع من أمره شيئاً منذ تلك الفِعلة. أمريض هو أم مسافر؟ أم لعلّه يتستّر عن أمره مع نساء الخلق؟ اشتقنا إلى أخباره ونسينا أمر الإفك أو كدنا، فحدّثينا عنه يا أمّاه!

عاذت أمّ صَفوان بالله من الشيطان الرجيم ونهضت تُريد الباب للخروج. سألت مارية جُويريّة جنبها عن الإفك ما يكون؟ علا الضجيج. صاحت عائشة بصوت صارخ جريء: يا أمّ صَفوان، لا تخرجي ولا تغضبي لامرأة سوء كذّبها الله بالآيات وحدّها الرسول جلداً ولم تستح. ارجعي يا أمّ صَفوان، سأروي ما كان من أمر الإفك، فلا تخجلي.

تسمّرت أمُّ صَفوان في مكانها، وخافت زينب أنْ تُتّهم بالتواطؤ مع حمنة أختها فنهرتها وقالت لها: ألا تستحي؟ وانطلق صوت عائشة يملأ الأرجاء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ[847]﴾ ثمّ قالت: هذا حديث الإفك[848]، أحدّثكم عنه حديث الصدق، فاسمعوه، وانقلوه عنّي: خرج السهم عَليَّ لمّا أقرع بيننا رسول الله للخروج معه في غزوة بني المُصطلق، فخرجتُ معه. كُنت أُحمَلُ في هَودجي وأُنزَلُ فيه دون عناء. كنتُ حديثة السنّ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهْبُلنَ ولم يَغشَهنّ اللحم. حتى إذا فرغ رسول الله من غزوته وقفل راجعاً ودَنَونا من المدينة آذن ليلةً بالرحيل. فقمتُ أقضي حاجتي، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيتُ حاجتي، أقبلتُ إلى رحلي فلمستُ صدري فإذا عِقدٌ لي من جَزْع ظَفار[849]قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عِقدي فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يُرحّلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري، وهم يحسبون أنّي فيه، وبعثوا الجمل وساروا.

ولمّا وجدتُ عِقدي جئتُ منازل الجيش وليس بها منهم داع ولا مُجيب، فتيمّمتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنّهم راجعون إليَّ متى فقدوني، وغلبتني عيني فنمتُ، وما استيقظت إلاّ وقد استشعرتُ حضوراً جنبي، فهببتُ من نومي، فإذا أنا بصَفوان بن المُعطل السُّلَميّ عند منزلي. كان وراء الجيش، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب. خَمّرتُ وجهي بجلبابي، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمتُ إليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، ووالله، ما تكلّمنا بكلمة، حتى أتينا الجيش

في شدّة الحرّ، والشمس في كبد السماء في نحر الظهيرة، فتهامز الناس وتلامزوا وتغامزوا، فويلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ غُمَزَةٍ.

سرى في الناس الخبر: صَفوان بن المُعطّل السُّلَميّ وعائشة بنت أبي بكر زوج النبيّ يأتيان الفاحشة، يأتيان الإفْكَ، يأتيان النَّجْسَ، يأتيان الرِّجْسَ. وتصاعدت الأصوات تُطالب بالقصاص والإطاحة بامرأة عفيفة، فلا نفعت شهادة أسامة بن زيد الذي أثنى عليّ خيراً، ولا شهادة بريرة التي برّأتني رغم ما سلّط عليها عليّ بن أبي طالب من عذاب[850]، ولا حتى اعتراف زينب بأنّها ما علمت إلا خيرا، وهي التي كانت تساميني من أزواج النبيّ، فعصمها الله بالورع[851]. ولكنّ الله، وهو العدل، لم يسكت على ظلم الظالمين، والعُصبة المتحدّثين بالإفك الشنيع، فأنزل فيهم ما أنزل وبرّأني. فأخذ النبيَّ ما كان يأخذه من البُرَحاء حتى إنه ليتحدّرُ منه العرقُ مثلُ الجُمان وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه. فسري عن رسول الله وضحك وقال: يا عائشة، أما والله فقد برأك الله، فلم أقم إليه ولم أشكره، وإنّما قمتُ إلى الله أحمده وأصلّي.

أنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ[852]﴾ وبان أمر تلك العُصبة بما أتوا من الكذب والبهتان والتقوّل في أعراض الناس، فهلك من هلك. وكان الذي تولى كِبَر الإفك عبد الله بن أبيّ بن سلول، كان يُشاعُ ويُتحدَّثُ به عنده فيُقرُّه ويَستمعُه ويَسْتَوْشيه، وحسان ابن ثابت، ومِسطَح بن أثاثة، وحَمنة بنت جحش في ناس آخرين[853]. وقد نالوا عقابهم في الحياة الدنيا بما سلّط عليهم رسول الله من الحدّ جلداً[854]، وسينالهم في الآخرة عقاب الله الذي لا مردّ له، إنْ شاء الله.

وإذا كان عبد الله بن أبيّ بن سلول زعيم المنافقين، لا يحمل الودّ والاحترام للنبيّ وأهله فلا يُرجى منه خيراً ولا نهتمّ لأمره، فإنّ الذي آلم النبيّ وآلمنا حسّان بن ثابت وهو شاعر رسول الله وله عنده الحظوة والمنزلة الرفيعة، ومِسطَح بن أثاثة وهو الذي يُنفق عليه أبو بكر لقرابته وحاجته[855]، وحمنة بنت جحش وهي أخت زينب بنت جحش زوج النبيّ، وأمّها أميمة بنت عبد المطّلب عمّة رسول الله. فلِمَ فعلت ذلك يا تُرى؟ أحميّة لأختها زينب[856]

فطفقت تحارب لها[857]، وهي برّاءة منها؟ أم لغاية أخرى لا نعرفها. وها هي ما زالت تعرض للنساء بلسانها، كما فعلت مع أمّ صَفوان منذ حين.

شَعُرت أمّ صَفوان بالفخر. ها عائشة تدافع عنها بكلّ ما أوتيت من قوّة. لا بدّ أنْ تكون عائشة تحمل لها الودّ، وتحمل لابنها الودّ أيضاً، وهذا من شأنه أنْ يُسهّل عليها المأموريّة التي جاءت من أجلها. توجّهت نحو الحلقة التي كانت عائشة تتكلّم منها، وجلست غير بعيد منها، تنتظر فرصتها. ووقفت حمنة بنت جحش تستعدّ للردّ والغضب باد على وجهها. وضجّت النساء وكثر فيهنّ الهمز واللمز والغمز، وأرادت بعضهنّ الكلام للتعبير عن التضامن أو للتهوين من الأمر والسعي إلى الصلح. وقطعت عائشة على كلّ عازمة عزمها، وعادت إلى الكلام بسرعة، وقالت كأنّها تُنهي الجلسة: والله، يا نساء، إنّ صفوان بن المُعطّل السُّلَمي، الذي قيل فيه ما قيل، واتّهم وإيّايَ بإتيان الفاحشة لهو رجلٌ فاضلٌ، وكان يُقسم ويقول: سبحان الله، فوالله الذي نفسي بيده ما كشفتُ من كَنَف أنثى قطّ. وقد ثبت أنّه رجلٌ حصورٌ لا يأتي النساء[858]، وأنّه رجلٌ خالٌ، فارغٌ من علاقة الحبّ[859].

ضجّ الحوش الكبير. ضحكت النساء ضحكاً مكتوماً. ضحك العبيد والموالي والإماء ضحكاً لا يكاد يَخفى. شعرت أمّ صَفوان بالإهانة والذلّ، وقد رمت عائشة ابنها بالعجز والقصور، فانهارت وانهار مشروع صَفوان في النكاح المباح، ووقفت متردّدة بين أمريْن: أتخرج غضبى فتُعبّر بالانسحاب عن رفضها التامّ لما تفوّهت به عائشة، أم تتجلّد بالصبر وتبقى وتردّ على التهمة الكاذبة، وتعيد لابنها الاعتبار.

ارتفع صوت بلال بالأذان. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. انحبست الأصوات في النساء. هزّهنَّ الصوت الذي لم يَسمعنَه منذ دَهر، أو هكذا خُيّل إليهنّ.

14

أذّن بلال لصلاة العشاء فتوقّف في النساء الهَرجُ والمَرج، وانقطعت بهنّ السبلُ إلى القول والفعل. أذّن بلال لصلاة العشاء فجرت الأمور بغير ما تشتهي الرجال، وسقطت إلى الأبد تلكم المشاريع التي عقدوا العزم على إنجازها، بإذن الله. وقد وقعت أشياء جسيمة قبل ذلك الأذان. ويُمكن أنْ نقول ولا حَرَجَ، إنّ ذلك الأذان جاء نتيجة تلك الأشياء الجسام. وهذا بيان ذلك:

لمّا وصل أبو سُفيان إلى المسجد بعد أنْ تجهّز ولبس وتعطّر، كما أخبرناكم بذلك فيما سبق من قصّة، دخل من توّه المسجد، وصوّب نحو المنبر، ووقف أمام أبي بكر وسلّم. استغرب أبو بكر الأمر، ونظر إلى عُمر، وخاف أنْ يكون أبو سُفيان قد جاء ليُفاوض في الخلافة بعد الذي قاله فيه وتهدّده به ونقله إليه المخبرون بحذافيره: «بايعتم رجلاً من أذلّ قبيلة في قُريش؛ ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قُريش؟؛ ما لنا ولأبي فصيل؟؛ فيما أبو بكر من أموركم؟؛ والله إنّي لأرى عجاجة لا يُطفئها إلاّ دم؛ والله، لأضرمنّها عليه من أقطارها ولأملأنّها عليه خيلاً ورجالاً[860]» ونقلوا إليه كلاماً آخر تفوّه به أبو سُفيان ولم تحفظه الرواة[861] فلا نمدّكم به.

خاف أبو بكر، لمّا نقلوا إليه ما نقلوا، من أنْ يُحرّض أبو سفيان عليه بني هاشم وعبد مناف قاطبة، ونصحه عُمر بأنْ يترك لأبي سُفيان ما كان بين يديه من أمر السّعاية وجمع الصدقات التي مكّنه منها النبيّ، لعلّه يرضى، واتّفقا على أنْ يأتياه من الغد لإعلامه بالأمر. وإذ جاء أبو سُفيان من قِبل نفسه ازداد خوف أبي بكر، ولكنّه أخفى الخوف وأظهر اللامبالاة، بفضل ما أوتي من دهاء لا يكون إلاّ مع الساسة.

لم ينهض أبو بكر لأبي سُفيان ولم يستقبله استقبالاً حارّاً ولم يطلب إليه الجلوس جنبه، بل اكتفى بردّ التحيّة، وإنْ بأحسن منها، على عادة العرب،

وواصل حديثه مع مَن كان جنبه، أظنّه أبا عُبيدة بن الجرّاح. شعُر أبو سُفيان ببرودة الاستقبال ولكنّه تحمّل، فمن أجل عين تُكرم ألف عين. جاء يُكلّمه في عائشة وفي سبيل عائشة يتحمّل الهوان. غداً يصبح أبو سُفيان وأبو بكر صهراً وختناً، وتمتلئ الدنيا حُبوراً بالزواج السعيد.

جلس أبو سُفيان حيث وجد مكاناً فاضياً، غير بعيد عن أبي بكر على كلّ حال، وقال: بلغنا يا أبا بكر ما تمّ من أمر بيعتك في السقيفة، فهنيئاً ومَرحى، مرحى! شكره أبو بكر دون اكتراث كبير، وقد رأى في قول أبي سُفيان تهكّماً لا مُبايعة، وهو لم يضرب على يده كما تتمّ البيعة. وحتى يُشعر أبا سُفيان بالإهانة، نظر إلى عُمر، وقال: «إنّ الله قد هدم بالإسلام بيوتاً، وبيت أبي سُفيان ممّا هَدم، وبنى بالإسلام بيوتاً مهدومة في الجاهلية [...] فقال عُمر: الحمد لله الذي أبدلنا بذلك اليوم خيراً منه[862].» وأضاف أبو بكر: ولكنّنا يا أبا سُفيان، لن نهدم بيتك مرّة أخرى، ولن نحرمك ممّا منحك النبيّ، بل نترك لك ما بين يديك[863]، فقم لنا بالأمر الذي كنتَ تقوم به في عهد النبيّ.

لم يجد أبو سفيان بُدّاً من شكر أبي بكر رغم ما ضمّنه كلامه من تذكير بإطاحة الإسلام ببيته، وفَهِمَ أنّ أبا بكر يشتري صمته بأمر تافه بسيط لا يتعدّى السّعاية والقيام على الصدقات. أراد أنْ يرفض ويردّ التهمة بالتهمة، والاحتقار بالاحتقار، ولكنّ هاتفاً فيه ردّه عن ذلك وزيّن له هذه المهمّة إذ ستسمح له بمخالطة أبي بكر وقضاء حاجته الأكيدة، ففضّل الصمت على الكلام.

لا شيء غير الصمت لدرء الضرّ. لا شيء غير الانتظار. صمت أبو سُفيان ولم يتسرّع، ففي العجلة الندامة كما يُقال، ومنّى النفس بتحسُّن الحال من غد، فيصطحب معه إلى أبي بكر مَن يثق فيه أبو بكر، وله عليه سُلطان، وإنّ غداً لناظره قريب، بإذن الله.

وصل طلحة بن عُبيد الله المسجد في تلك الأثناء فسمّى بسم الله ودخل وأبو بكر يُكلّم أبا سُفيان بذلك الكلام. فلمّا توقّف الجمع عن الكلام أكبّ على كتف عمّه مسلّماً وشدّ على يده مبايعاً عن طواعيّة، وكان قد بايعه من قبلُ مُكرهاً. فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه إذ عاد ابن أخيه إلى الوكر. لم يجد

طلحة مكاناً جنب عمّه الخليفة، فجلس هنالك غير بعيد حيث صادف أبا سُفيان يتزحزح كأنّه يتأهّب للخروج.

جلس طلحة وجعل عينيْه على عمّه ليحرّك رأسه موافقاً إذا ما تكلّم عمّه فيراه فيزداد احتفاءً بابن أخيه. فهم أنْ لا سبيل الآن إلى الاختلاء بأبي بكر فقرّر بينه وبين نفسه ألاّ يُغادر المسجد حتى ينهض عمّه للرجوع إلى السُّنح فيأخذ بذراعه ويسنده في طريقه ويغتنم الفرصة ويعلمه بما عزم عليه من خطبة بنت النسب والحسب التي هي ابنة عمّه، وفي الليل تُقضى الحوائج.

أمّا صَفوان بن المُعطّل السُّلميّ الذي تركناه قادماً على أبي بكر مع عبد الله بن جعفر، فإنّه لم يدخل المسجد لمّا وصل، وفضّل استعمال عبد الله بن جعفر سفيراً إلى أبي بكر، فيتحسّس به الطريق، وقرّر أنْ لا يُكلّم أبا بكر إلاّ إذا عاد إليه عبد الله بالأنباء المُطَمْئنة المُؤاتية لقضاء الحاجات. كان يخاف أنْ يَغضب أبو بكر للأمر فيُخبر به عُمر فيقوم إليه عُمر ويجلده أمام الخلق، كما كان يفعل بأهل الكبائر، بل سيضعّف له العقاب لأنّ عُمر يكرهه كرهاً شديداً.

كانت الألفة بين صَفوان والصبيّ قد ازدادت في الطريق ألفةً. حدّث صَفوانُ عبدَ الله بمغامراته، وكان صانع حكايات ماهراً، وأُعجبَ عبد الله بالمغامرات، وأحلم النفس بإتيان مغامرات مثلها أو خير منها، ووعده صَفوان بأخذه معه ذات مرّة ليأتي النساء معه، وسرّ عبد الله بذلك أيّمَ سرور، وظلّ على أحرّ من الجمر ليكتشف هذا الأمر الذي لم يكتشفه بعدُ.

قال صَفوان بن المُعطّل السُّلميّ لعبد الله بن جعفر وقد بلغا المسجد: يا عبد الله، أريدك أنْ تدخل على أبي بكر وتُعلمه بأنّي أريده في حاجة، أوَتفعل؟ فأجاب عبد الله: إي والله، وعبّر لصَفوان عن سعادته بالقيام بالمهمّة، ورجا الله أنْ يكون أهلا لذلك. سُرّ صَفوان وربت على كتف عبد الله، وقال له: توكّل على الله إذن، وادخل على أبي بكر، وهو أبوك على كلّ حال، وانقل إليه ما طلبتُ منك. وأشار إلى الباب ودفع عبد الله إليه، فنظر إليه، وقال: ولكن أقول له ماذا؟ فقال صَفوان: تقول له إنّي أريده في حاجة، فمتى آتيه؟ فقال عبد الله: وأيّة حاجة؟ فقال صَفوان: هو سرّ بيني وبينه. فقال عبد الله: أخبرني به حتى

أكون على بيّنة، فقد أوصاني أبو بكر، وهو مثل أبي كما تعلم، أنْ لا أتكلّم في أمر أجهله.

حاول صَفوان إقناع عبد الله بالدخول على أبي بكر بكلّ ما أوتي من عزم وما استعمل من حيلة، ولكنّ عبد الله تمنّع وأصرّ على معرفة سبب الدخول على أبي بكر، وكرّر أنّه لا يدخل على أبي بكر إلاّ لسبب معلوم، وأنّ أبا بكر لا يريده أنْ يتكلّم في أمر لا يعرفه. ولمّا آلت الحال إلى ما آلت إليه، أخذ صَفوان المواثيق والعهود على عبد الله، فأقسم عبدُ الله بالذي نفس عبد الله بيده ثلاثاً، وبرحمة أبيه الذي مات في مؤتة شهيداً ثلاثا، بأن لا يُخبر أحداً بما سيُخبره به صَفوان. بعد هذا الذي كان، باح صَفوان مُضطرّاً بسرّه الدفين، ورجا عبدَ الله رجاءً أخيراً، ألاّ يُخبر بذلك أبا بكر بل يكتفي بالقول إنّه يريده في حاجة أكيدة. فأعاد عبد الله على صَفوان، بصوت كالوشوشة: صَفوان يرغب في الزواج من عائشة، وعبد الله يدخل على أبي بكر في المسجد ويُخبره بأنّ صَفوان يُريد مقابلته في حاجة أكيدة، ولا يقول له أكثر من ذلك. فاطمأنّ صَفوان وقد وقف على أنّ عبد الله قد حفظ الدرس بالتمام والكمال.

على ذلك تمّ الاتّفاق.

طلب صَفوان من عبد الله أنْ يتقدّم على بركة الله، ولكنّ عبد الله تسمّر في مكانه وقال: والله، سيتبعني كلبي إذا ما دخلتُ المسجد، فماذا أفعل؟ استغرب صَفوان الأمر، وقال: وما في ذلك؟ قال: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصاوير[864]. قال: ومَنْ أخبرك بذلك؟ فردّ عبد الله بحماس: هذا حديث شريف. فقال صَفوان: أدخلت الكلاب في الحديث الشريف أيضاً؟ ثمّ هبْ أنّ ذلك كذلك فإنّك لن تُقيم في المسجد ولا كلبك، بل ستخرج منه بمجرّد إعلام أبي بكر ويخرج معك كلبك، فتدخل الملائكة راضيةً مرضية ولا حَرَج، فما الضرر في ذلك؟ وأضاف: فإذا كان هذا الكلام حديثاً، كما قلت، فإنّه لا يعني عدم دخول الملائكة بيتاً دخله كلبٌ في المطلق، بل عدم دخولها إليه ساعة وجود الكلب فيه، فإذا خرج دخلت.

أعجب هذا الكلام الصبيَّ وأراد أنْ يُجادل في الكلب والملائكة. ولكنّ أطفال الشلّة وصلوا في تلك اللحظة إلى مكانهم المفضّل أمام المسجد، قُبالة

صَفوان وعبد الله، ووقفوا كما تعوّدوا أنْ يفعلوا، فخاف صَفوان أنْ يلتحق بهم عبد الله ولا يُؤدّي الرسالة، فأسرع إليه، وقال: لا علينا، ادخل أنت وسأحتضن كلبك حتى تعود. وأخذ الكلب بين يديه فدخل عبد الله.

ما وقع من بعدُ كان أمراً عَجباً فاجأ الناس فبُهتُوا، وفات الكتب فلم تُحدّث به، ونتفرّد بذكره لتتمتّعُوا.

دخل الصبيُّ المسجدَ وتوجّه إلى أبي بكر زوج أمّه، وكان أبو بكر يُحبّه ويحتفي به احتفاءً خاصّاً لكونه الصبيّ الوحيد إلى جنبه، بعد أنْ تزوّج أبناؤه من صُلبه، عبد الرحمان وعبد الله وأسماء وعائشة. أكبّ عبد الله على أبي بكر وقبّل جبينه، فشدّ أبو بكر على يده وأجلسه على ركبتيْه، فشعُر بشيء جديد عليه وقد وجد نفسه لأوّل مرّة عند المنبر الذي كان يرى عليه النبيّ ولا يَجرُؤ على الاقتراب منه مثل الحَسن والحُسيْن. وكان يحسد الحَسن والحُسيْن على ما يحظيان به من اقتراب من المنبر الذي كان الأطفال يعتقدون أنّه نقطة الوصل بين الأرض والسماء والاستماع إلى الربّ والملائكة.

بيناً كان عبد الله مُنتشياً بالجلوس عند المنبر وقد نَسيَ ما جاء من أجله، سُمعتْ ضَوضاءُ خارج المسجد وارتفعت أصواتٌ بالصياح ففزع القوم. ولمّا رأوْا ضُمرانَ يجري في المسجد، ورأوْا صَفوانَ يجري وراءه ويصيح به أنْ ارْجِعْ، ارْجِعْ، ورأوْا الأطفال يجرون وراءهما ويضحكون ويُقهقهون، ضحكوا وقهقهوا، إلاّ عُمر بن الخطّاب انتصب واقفاً والدِّرّة[865] في يده، وأزبد وأرعد وتطاير الشرر من عينيْه.

لاذ ضُمران بعبد الله صاحبه وقفز إلى حِجره وأخذ يلحسه ويلحس أبا بكر، وعُمر يُزبد ويُرعد ويتطاير الشرر من عينيْه، وصَفوان تسمّر في مكانه لا يقوى على الحركة، والأطفال دخل بعضهم وبقي بعضهم عند الباب وخارجه، وعبد الله وأبو بكر ينعمان بلحس الكلب ويبتسمان.

صاح عُمر في صَفوان، وكان يكرهه: ماذا يا خبيث؟ أفي مسجد رسول الله الكلاب؟ وهوى عليه بالدِّرّة يضربه حتى تلوّى تحت الضرب، فقال أبو بكر: يا عُمر، هذا الكلب كلب عبد الله ابني، فما دخل صَفوان؟ ثمّ ماذا؟ وهذي الضجّة الكبرى عَلام؟ كلبٌ دخل مسجد، ما في ذلك؟ صاح عُمر: إنّه نَجِسٌ،

والله. تكلّم عبد الله بن عُمر[866] من وراء أبيه، «وكان كثير الاتّباع لآثار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى إنّه ينزل منازله، ويُصلّي في كلّ مكان صلّى فيه، وحتّى إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نزل تحت شجرة فكان ابن عُمر يتعاهدها بالماء لئلاّ تيبس[867]» وكان يُحبّ الكلاب والأشجار، فقال: «كانت الكلابُ تَبولُ وتُقبل وتُدبر في المسجد في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم[868].»

جُنّ جنون عُمر وهو يرى ابنه قد مرق عليه، فأراد أبو بكر أنْ يُهوّن عليه، فقال: هبْ، يا عُمر، أنّ الكلبَ نَجِسٌ، كما ذهبت إلى ذلك، فإنّ كلب الماشية أو الحرث أو الصيد قد اسْتُثنيَ من النَّجَس، وهذا كلب صيد، والله. فقام أبو هُريرة يُؤكّد كلام أبي بكر، وكان من شيعته، فقال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: مَنْ أمسك كلباً فإنّه يَنقصُ كلَّ يوم من عمله قيراطٌ إلاّ كلب غنم أو حرث أو صيد[869]» فأدلى عَديّ بن حاتم بدلوه، وزاد: «سألتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: إذا أرسلتَ كلبَك المُعلَّمَ فقَتلَ فكُل[870]» فوافقه أبو هريرة وعلّق مُضيفاً، عن رسول الله طبعاً: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً[871]» ثم يستعمله ويشرب، ولا حَرَج عليه. وأضاف أعرابيٌّ كان في المسجد: «إذا ولغ الكلب في الإناء يُتوضّأ به[872].»

وتبارى الناس يومئذ في الكلاب. وذكروا الآيات، وذكروا الأحاديث، وذكروا أشعار العرب. وغلب يومئذ أصحابُ الكلب لا أعداؤه، وقاموا إلى أبي بكر، وعبد الله في حجره والكلب في حجر عبد الله، فمسحوا على الكلب وهنّؤوا عبد الله به، وتمنّوا له صيداً مُباركاً في صحبته، وقدّموا له النصائح بشأن تعليمه وتدريبه على شمّ المصيد وتتبّعه ومُخاتلته حتى يصبح به صيّاداً ماهراً، وتطوّع المتطوّعون بالسهر على الكلب والاضطلاع بأمور التعليم والدربة لوجه الله.

وقد أعلمناكم بذلك على الوجه الذي تمّ به الأمر، من غير تعليق ولا تقوّل على الناس إنْ كانوا فعلوا يومئذ ما فعلوا تملّقاً للخليفة الجديد أم انقلبوا، والحمد لله، مُحبّين للكلاب. ونختم الكلام بما ختموا به يومئذ الاجتماع إذ قام فيهم أولئك الذين يحفظون القرآن، فرتّل منهم مُرتّلٌ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا [...] سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا[873]﴾ وفسّر بعد أنْ رتّل، فقال: «ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيّته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنّه يحرسهم. وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار فإنّه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن، وكان كلب صيد[874]» ونظر إلى عبد الله، وقال: ككلبك يا عبد الله، بارك الله لك فيه. فشكره أبو بكر وشكرهم جميعاً إيذاناً برفع الجلسة حتى لا يخوض المتكلّمون في عدد أهل الكهف ثلاثة أم خمسة أم سبعة، فيطول بهم المقام إلى حيث لا أحد يدري.

أنهض أبو بكر عبد الله من حجره، واستقام في جلسته، وأشار إلى بلال الذي كان في الركن الأيمن من المسجد فأتاه فأمره برفع الأذان فامتثل وصعد إلى حيث كان يُؤذّن.

خرج صَفوان ولا شيءَ معه غير آلام الدِّرّة في ظهره، فلا هو قابل أبا بكر وحدّثه بأمره، ولا هو تحصّل على موعد للقائه. جرى عبد الله وراء صَفوان وأمسك بيده ومشى جنبه وقال له بصوت خافت: سأخبر أبا بكر بأمرك متى انتهى من صلاته. ظلّ ضُمران ينظر إلى أبي بكر ويُحرّك ذيله فرحاً ثمّ استدار ولحق بعبد الله.

15

أذّن بلال للصلاة. توقّف كلّ شيء في المسجد إلاّ الصلاة. وخارج المسجد عاد الأطفال إلى حيث كانوا، وتحلّقوا حول عبد الله بن جعفر، واستأنفوا مناسكهم، مناسك الأطفال التي طغى عليها يومئذ الكلب. وجاء المتطفّلون وأحاطوا بهم وتودّدوا إلى عبد الله الذي كان في حجر أبي بكر، فقد تُصيبهم من بركته بركة، وسألوه عن أصل الكلب وفصيلته وعمره وكيفيّة دُربته. وأسعد عبد الله بن جعفر أنْ يكون ضُمران كلبه مدار الحديث، وأنْ يكون هو، بوصفه صاحب الكلب، مدار الحديث أيضاً.

لعلّكم تتساءلون، وأنتم خرّيجو مدارس الجدّ لا الهزل، عن علاقة الكلب بالسقيفة، والكلب حيوان في الدرك الأسفل، أمّا السقيفة فمن علم التاريخ الذي له في العلوم المقام الأوّل. وإنّي لأجزم لكم صادقاً أنّ تساءلكم إذا ما كان لَهُوَ في محلّه، وقد تساءلتُ مثلكم، قبل أنْ أسوق لكم أخبار الكلب، عن علاقته بالسقيفة، والله. فلمّا وجدتُ في الكتب ذكراً لكلب عبد الله بن جعفر الذي كان في حجر أبي بكر، ووجدتُ احتفاءً من أبي بكر بالكلب، حدّثتُكم بما حدّثتْ به الكتب، وإنْ بشيء من الزيادة التي لا تضرّ، حتى تكونوا على بيّنة من الأمر. ثمّ إنّ الحديث في المآتم ذو شجون، يسمح للناس بالتحليق في عوالم الحياة الدنيا فينسوا الموتَ والميّتَ والآخرة. وقد وقفتم على ذلك بأنفسكم في المآتم التي كانت لكم، لا أعادها الله عليكم! ورأيتم مثلي أنّ الناس يغتنمون فرصة الاجتماع في المأتم للحديث في أمورهم الخاصّة وأمور أبنائهم والزواج والتجارة والمال والماشية والحيوان بكلّ أنواعه بما في ذلك الكلاب وخاصّة كلاب الصيد. وهم يفعلون ذلك والحمد لله في كلّ مأتم، حتى لا يُصبح المأتم تأبيناً للناس أجمعين ووقفاً للحياة. وهذا لا يرضاه

الله لعباده، ولا يرضاه عباد الله لأنفسهم. وما دمنا بصدد الكلاب، فاسمحوا بالآتي:

لعلّكم تعرفون مثلي قصّة الشاعر الذي جاء يمدح الملك فقال له على الملإ: أنتَ كالكلب في حفظك للودّ. ولعلّكم سمعتم مثلي أنّ البيئة كانت وراء ذلك، فالشاعر كان بدويّاً فشبّه الملك بالكلب لِما للكلب من قيمة لدى البدو، وهات من ذاك القبيل. وقد عثرتُ في بعض الكتب على أمر، لم يسبق لي أنْ عثرتُ عليه، فأحيطكم به علماً. جاء في بعض الكتب أنّ الشاعر لمّا شبّه الملك بالكلب وصاحت الحاشيةُ من حوله أنْ اضرب عنقه يا مولاي فقد أساء إليك، اختلى به الملك وسأله عن أمره، فقال: يا مولاي، نظرتُ في الرجال من حولي، وأنا منهم، فلم أرَ رجلاً وفيّاً يحفظ الودّ قطّ. ونظرت في النساء من حولي، وامرأتي وجاريّتي منهنّ، فلم أرَ امرأةً وفيّةً تحفظ الودّ قطّ. فعلمتُ يا مولاي، أنّ الكلبَ وحدَه يُخلص الودّ. ثمّ أضاف: هذه الحاشية من حولك، يا مولاي، وهؤلاء أهلك، فجَرّبْ تقفْ على أنّ الودّ لا يكون إلاّ بقدر ما وهبتَ، فإنْ لم تهبْ تحوّل عنك. وجَرّب الكلب إنْ شئتَ تجدْه كما قلتُ. فجرّب الملك الحاشيّة فوجدها كما قال الشاعر. وجرّب أهله، حَرائرَ وجواريَ وإماء، فوجدهنّ كما قال الشاعر. فطَردَ مَنْ طَردَ، وطَلّقَ مَنْ طَلّقَ، وضرب الأعناق من غير حساب. ثمّ اتّخذ كلباً فأخلص له الودّ كما شاء واشتهى. فاتّخذ معه كلاباً أخرى فأخلصت له الودّ كما شاء واشتهى. وأصبحت الكلاب منذ ذلك التاريخ تسكن القصر وعوّضت الأهل والحاشية على أحسن وجه واشتهر أمر الملك.

وكان كلب عبد الله بن جعفر كلباً من هذه الكلاب، فلمّا تركه عبد الله عند صَفوان يحرسه ودخل المسجد، تملّص الكلبُ من صفوان حتى تخلّص من قبضته وجرى يبحث عن سيّده فوجده عند المنبر كما قصصنا عليكم قصّته. وها صَفوان الآن أمام الأطفال والمتطفّلين الذين أحاطوا بهم يقصّ عليهم قصّة خلاص الكلب منه. وها عبد الله يقصّ عليهم قصّة دخول الكلب المسجد وجلوسه في حجره وهو في حجر أبي بكر أبيه بالنيابة. وها ضُمران الكلب عند قدميّ سيّده الصغير، يُحرّك ذيله سروراً، ويرفع رأسه من حين إلى حين كأنّه يُصدّق ما يُقال.

ما كان لي أنْ أزجّ بكم في عالم الكلاب، وأنتم مَنْ أنتم في العلم والمال والجاه والسلطان، لولا أنّ الكلاب تفرّدت بحفظ الودّ وتفتّقت طاقاتها في كلّ أمر، فصادت وحرست البيوت والماشية وللناس فيها مآرب أخرى.

والكلاب أنواع، أهمّها وأبقاها الكلب العربي. وله في كلّ شيء المقام الأوّل، يكون سائباً مثل الأعراب البدو الرحّل، لا يحبّ القيد ويعيش على الكَفاف. لا نسب له ولا حسب. وفي هذا يختلف عن أهله العرب. فبيناً هم لا يطيب لهم مقام، ولا يهدأ لهم بال، إلاّ في ظلّ ضبط سلسلة الآباء والأجداد حتى الوقوف على الثامن منهم بل العاشر أحياناً، جاء الكلب العربي في حِلّ من ذلك، وطاب مقامه وهدأ خاطره. وبيناً هم وضعوا نصب أعينهم العُذرة وضيقوا الخناق بالعسس على النساء ليصفو الدم ولا يختلط الجنس بالجنس، تخلّصت الكلاب من عقد العُذرة وصفاء الدم، وتنكّرت الكلبة للكلب وجاءت الجراء خليطاً كما ترى وتسمع.

أمّا الكلاب السوري فهي كلاب الأصل والفصل. وقد تفنّن الفرنجة في ضبط كل ما تعلّق بالكلاب والمحافظة على الأصول، ووضعوا لها الأنساب وقيّدوها في الكتب، وأهملوا أنسابهم ولم يهتمّوا بالآباء والأجداد. فخالفوا في ذلك العرب. فبيناً كانت العرب تجري لاهثة وراء أنسابها وأهملت كلابها، كانت الفرنجة قد أهملت أنسابها وقامت تجري لاهثة وراء أنساب كلابها. وأظنّكم فهمتم ما أريد، ولا فائدة في أنْ أذكر حكمة الله في خلقه، فأنتم أدرى وأعلم منّي بدقائق الأمور.

وهناك كلب تفرّد بالأوصاف الحسنى، ولم يُشبهه في ذلك كلب، فجاء فريداً من نوعه، وحيداً في جنسه، آية في الرقّة، آية في الجمال، آية في الأناقة. أهيف وامرأته هيفاء. إنّه السلوقي الخالد وهي السلوقية الخالدة. وهو بربريّ قحّ، أصيل إفريقيّة التي هي تونسنا والجزائر والمغرب، ويكره أنْ يُنسب خطأً إلى العرب وإنْ تبنّته العرب، واستغلّه الأمراء منهم في مآربهم التي لا يُحبّذها كثيراً. وقد تنكّروا لأصله وتفنّنوا في نسبته إليهم، فجعلوه من اليمن السعيد، من قرية سَلُوق[875] على وجه التحديد، ومن ثمّة جاء اسمه السّلوقي.

وحتى لا أزعجكم بما لا طاقة لكم به، أختم الكلام في هذا الباب بالقول: إنّ كلب عبد الله بن جعفر كان من فصيلة الكلاب السّلوقيّة الأصيلة، وكان له من العمر لمّا تمّت الأحداث التي نحن بصددها ستّة أشهر، بحيث حان يومئذ زمن دُربته على الصيد. والدربة تتمّ في هذا العمر باستعمال الجرذان، ثمّ إذا ما بلغ الكلب السنة، وهو عمر الكهولة في الكلاب، تبدأ دُربته على الأرانب والغزلان. ومَن أراد منكم التوسّع في هذا الباب قصد دوز في الجنوب وطلب من أهل العلم في هذا الاختصاص فمدّوه بما يحتاجه، والله وليّ التوفيق.

16

أذّن بلال لصلاة العشاء، وأطال الأذان ليُسمع الناس جميعاً، كما شاء أبو بكر وألحّ عليه في ذلك. جاء الناس للصلاة، فرادى وجماعات. جاء المهاجرون وجاءت الأنصار. جاء بنو هاشم لعلّهم يُؤذن لهم بتجهيز النبيّ ودفنه. جاء صَفوان الذي كان مع الكلب. جاء عبد الله بن عبّاس زعيم الأطفال ومعه منهم أفرادٌ. ولم يتخلّف غيرُ سعد بن عبادة الذي أقسم في السقيفة أمسِ ألاّ يُصلّي بصلاة الناس أبداً، وفعل ما قال.

كانت الصلاة الأولى التي جمعت الناس، صَحابةً أشرافاً ورعاعاً وضيوفاً وعابري سبيل، من بعد أنْ قُبض النبيّ. فقد حبست السياسة الناس عن مناسكهم، ومَن أتى مناسكه فقد أتاها من قِبَل نفسه منفرداً أو في عائلته أو في أصحابه، واضطرّ بلال إلى وقف الأذان لمّا رأى غياب الأشراف عنه، وأقسم ألاّ يؤذّن بعد النبيّ لأحد، ثمّ عاد ليُؤذّن لأبي بكر، وقد تقدّم ذكر ذلك بما كفى وأفاد.

كانت الصلاة الأولى التي جمعت الناس من بعد أنْ بويع لأبي بكر، فكانت اعترافاً من الناس، عن قصد وعن غير قصد، بالخلافة لأبي بكر. انساقوا، عن قصد وعن غير قصد، إلى تنصيب أبي بكر إماماً في دينهم مثلما نصّبوه إماماً في دنياهم. شعُر أبو بكر بأنّ كلّ شيء على ما يُرام. لا شيء يمنعه الآن من أنْ يُصلّي بالناس مثلما كان يفعل النبيّ. لا شيء يمنعه الآن من أنْ يخطب في الناس مثلما كان يفعل النبيّ. شعر بأنّه الخليفة ولا خليفة غيره. قال في نفسه: الخُطبة أوّلاً ثمّ تأتي الصلاة، تماماً كما كان يفعل النبيّ.

«قام أبو بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيّها الناس، إنّما أنا مثلكم، وإنّما أنا متّبع ولستُ بمبتدع، ألا وإنّ لي شيطاناً يَعتريني فإذا أتاني فاجتنبوني[876]» وسكت.

سكت أبو بكر بعد الذي قال. أدار الناس في أذهانهم ما علق بها من أمر الشيطان الذي يَعتري أبا بكر ولزوم اجتنابه إذا ما اعتراه، فخافوا أبا بكر وشيطانه، ونظر بعضهم إلى بعض في صمت، كأنّهم يقولون: هذا أبو بكر جديد لا نعرفه.

عاد أبو بكر إلى الكلام، فقال: «أمّا بعد أيّها الناس، لقد نزل القرآنُ وسَنَّ النبيُّ السُّنَنَ، فعَلّمَنا فعَلِمْنا، اعلموا أنّ أكيَس الكيس التقوى، وأنّ أحمقَ الحُمق الفُجور، وأنّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقّه، وأنّ أضعفكم عندي القويّ حتّى آخذ منه الحقّ[877].»

شعر أبو سُفيان أنّه المعنيّ بهذا القول، فتحرّك وتزحزح وتململ ولم يُغادر مكانه. واستأنف أبو بكر كلامه بعد وقفة فنّيّة لا تكون إلاّ مع الخطباء، فقال: أيّها الناس، لقد نزل القرآنُ وسَنَّ النبيُّ السُّنَنَ، فعَلّمَنا فعَلِمْنا، فمَن أحقّ بهذا الأمر منّي؟ ألستُ أوّلَ منْ أسلم؟ ألستُ أوّلَ منْ صلّى؟ ألستُ ثاني اثنَيْن في الغار؟ ألست مَن اختاره النبيّ للصلاة في مرضه الذي قُبض فيه؟ ولم يترك خصلة من الخصال الكثيرة التي فعلها مع النبيّ إلاّ ذكرها[878]. وتوقّف عن الكلام وقفة فنّية أخرى، كما تفعل الخطباء، فشعُر عليّ بن أبي طالب بأنّه يُحقّر من شأنه، وشعُر بنو هاشم بالتطاول عليهم.

واستأنف أبو بكر كلامه وعدّد الأفعال التي أتاها بفضل الحنكة والتدبّر لصالح الأمّة منذ ثلاثة أيّام، فقال: أيّها الناس، لقد نزل القرآنُ وسَنَّ النبيُّ السُّنَنَ، فعَلّمَنا فعَلِمْنا، والحمد لله. أَلَمْ يقل قائل منكم: ما مات محمّد، وإنّما ذهب كما ذهب موسى وسيعود[879]؟ أَلَمْ يقتحم الناس على عائشة بيتها وقالوا: ما مات رسول الله ولكنّه رُفع كما رُفع عيسى وليرجعنّ بعد ثلاثة أيّام[880]؟ أَلَمْ نقل لهم يومئذ: مَن كان يعبد محمّداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت؟ ألم نتلُ عليهم يومئذ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ[881]﴾ ثم تلونا عليهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ[882]﴾ فتلقّاها الناسُ، أو كثيرٌ منهم، حتى قال قائل من الناس: والله لكأنّ الناسَ لم يعلموا أنّ

هذه الآيات أُنزلت فما تسمع بشراً إلاّ تلاها[883]، وحلف رجال من أصحاب رسول الله ما علموا أنّ هاته الآيات نزلت[884]؟

أيّها الناس، اليوم وقد مرّت الأيام الثلاثة، ولا رجعةَ لرسول الله، تبيّن لكم صِدقُ مقولاتي، وكَذبُ مَن لا يعرف الآيات. وإنّا لم نترك سبيلاً منذ أنْ قُبض ليستتبّ الأمن بعد رسول الله، وقد وُفّقتم في اختيار خليفة له ينهض بالأمر، وإذ اخترتموني، ولستُ خيركم، سأتّبع فيكم كتاب الله وسُننَ رسول الله. وإذا قضيتُ خطبتي فقوموا وجهّزوا نبيّكم إلى مثواه الأخير، وهو راض عنكم إذ اخترتم له خليفةً قبل أنْ تواروه التراب.

تنفّس الناس الصّعداء. تبادل عليّ والعبّاس النظر.

واصل أبو بكر الخطبة، بعد وقفة فنّية جديدة لا تكون إلاّ مع الخطباء، فقال: أيّها الناس، لقد نزل القرآنُ وسَنَّ النبيُّ السُّننَ، فعَلّمَنا فعَلِمْنا، ألم يقل إخواننا الأنصار منّا أمير ومنكم أمير، فأجبناهم بأنّ الأئمّة من قريش، وأنّ هذا الأمر لا يكون إلاّ في قريش، وأنّ الإسلام لا يكون عزيزاً إلاّ إذا كانت الإمارة في قريش، وأنّ الناس تَبعٌ لقريش في هذا الشأن، وقد اتّبعنا في ذلك أقوال رسول الله[885]؟

أيّها الناس، لقد نزل القرآنُ وسَنَّ النبيُّ السُّننَ، فعَلّمَنا فعَلِمْنا، ألم يأتِنا إخواننا من آل البيت يُريدون لهم هذا الأمر وقالوا إنّهم لأولى به منّا، فقلنا لهم بكلّ لطف ما كان رسول الله قد قال: لا تجتمع الخلافة والنبوّة في آل البيت[886]، ففهموا عنّا كلامنا، وعادوا إلى جادّة الصواب، فقُضي الأمر، والحمد لله؟

أيّها الناس، لقد نزل القرآنُ وسَنَّ النبيُّ السُّننَ، فعَلّمَنا فعَلِمْنا، ألم تأتنا الورثاء لميراث رسول الله، فقلنا لهم بكلّ لطف ما كان رسول الله قد قال: نحن معشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صَدقة في الناس[887]، ففهموا عنّا كلامنا، وعادوا إلى جادّة الصواب، فقُضي الأمر، والحمد لله؟

أيّها الناس، لقد نزل القرآنُ وسَنّ النبيُّ السُّننَ، فعَلّمنا فعَلِمنا، وها أنا أقول لكم الآن أمراً أختم به مقولاتي، لتعلموا أنّي لا أنطق عن الهَوَى وإنّما عن

علم بالقرآن وسُنّة رسول الله، وهما معي، والحمد لله. لقد بلغني أنّ من الناس رجالاً يسعون إلى نكاح أزواج رسول الله بعد وفاته، وكانوا عقدوا العزم على ذلك، وقالوا: لئن مات رسول الله تزوّجنا نساءه، وذكروا عائشة، وذكروا أمّ سَلمة، وذكروا، وذكروا[888]. وهذا والله لهو الإثم الكبير والعار والجهل بآيات الله التي حرّمت على الناس نكاحَ أزواج رسول الله، وإنْ من بعده، وقد جاء فيها: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا[889]﴾ فأزواج رسول الله، كما جاء في الآية الأخرى، أمّهاتٌ للمؤمنين، ولا زواج للمؤمنين بأمّهاتهم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ[890]﴾ فحرمة أزواجه عليكم، أيّها الناس، كحرمة أمهاتكم عليكم، يُحرم عليكم نكاحهنّ من بعد وفاته كما يُحرم عليكم نكاح أمّهاتكم[891]. وأزواج رسول الله أمّهاتٌ في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، فلا تجوز الخلوة بهنّ[892]. وقد شرّف الله أزواج نبيّه بأن جعلهنّ أمّهات المؤمنين، في وجوب التعظيم والمبرّة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهنّ عنهم بخلاف الأمّهات[893]، وذلك عين الصواب، والله.

بُهت الناسُ، لكأنّ الناسَ لم يعلموا أنّ ما تلا أبو بكر قد أُنزل، وحلف الناسُ أنْ ما علموا أنّ ما تلا أبو بكر قد كان، وتساءلوا كيف تكون أزواج النبيّ أمّهات وهنّ بعضهنّ في عزّ الشباب ولم يُنجبن؟ وتساءلوا لماذا ضُرب عليهنّ الحجاب إذا كنّ أمّهات، ولا حجاب للأمّهات إذا كنّ أمّهات؟

احتار أبو سُفيان كيف علم أبو بكر بنيّته الزواج من عائشة وهو لم يُعلمه بذلك، وخاف أنْ يكون حدّث بذلك بعض أهله ونَسي، وقد أصبح منذ مدّة ينسى بعض ما يقول ويفعل. استعرض شريط الأحداث منذ خروجه من عند عليّ بن أبي طالب حتى قدومه على أبي بكر، ولم يفز بالهفوة. استغرب الأمر، تساءل: أأصبح أبو بكر نبيّاً يُوحى إليه ويُلهم؟

واحتار طلحة بن عُبيد الله في الأمر، فكيف علم أبو بكر بنيّته الزواج من عائشة وهو لم يُحدّثه بذلك، وشكّ في امرأته حمنة بنت جحش التي رآها قد خرجت وراءه، ولعلّها فهمت عليه شيئاً، فأخبرت أبا بكر بذلك، ولكنّه عاد

وراجع نفسه، فلو كان أبو بكر قد علم بأمره لَمَا رحّب به ذلك الترحيب ولَمَا حمد الله على رجوعه إلى الصراط المستقيم. استغرب الأمر، تساءل: أأصبح أبو بكر نبيّاً يُوحى إليه ويُلهم؟

واحتار صَفوان في الأمر نفسه، وخاف أنْ يكون عبد الله بن جعفر قد أسرّ بالأمر إلى أبي بكر في أذنه، ونظر من حوله فلعلّ عُمر راجع إليه بالدِّرّة يضربه ضرباً مُبرّحاً. ثمّ راجع نفسه وهو يرى عُمر ملازماً مكانه لا يتحرّك، ونزّه عبد الله عن ذلك، فما كان له من الوقت ما سمح بإخبار أبي بكر نظراً إلى دخول الكلب إلى المسجد وإحداثه فيه ما أحدث. ثمّ إنّ عبد الله قطع على نفسه عهداً وأقسم بألاّ يُخبر بالأمر أحداً، وصَفوان يُصدّق عبد الله وله ثقة كبيرة فيه، وقد جرّبه من قبلُ. استغرب الأمر، تساءل: أأصبح أبو بكر نبيّاً يُوحى إليه ويُلهم؟

تساءل الناس يومئذ عن الأمر، وكانوا جميعاً قد حدّثتهم أنفسهم بنكاح أزواج الرسول من بعده، ونكاح عائشة على وجه التحديد، فمَن ذا الذي بلغ أمرُه أبا بكر؟ نظر الناس بعضهم في وجوه بعض، لعلّهم يفوزون بالشبهة على مُحيّا أحد منهم، ولم يفوزوا.

وتعطّلت لغة الكلام. لا شيء غير الشكوك هنا.

كان عُمر وحدَه يعرف السرّ. طأطأ رأسه لمّا قال أبو بكر ما قال بشأن نكاح أزواج النبيّ والأمّهات. لم يدر بخلده أنّ أبا بكر يقول على الملإ مثل هذا الأمر، وقد حدّثه به سرّاً. كم كان يودّ الزواج من عائشة ليُصبح صهر الخليفة، فيُلازمه ويبذل له قوّته فيزداد بها قوّة[894]! ثمّ إنّ المرأة يلزمها الستر على فرض الله وسنّة رسوله، وهو خير مَن يستر المرأة. فلِمَ ردّه أبو بكر يا تُرى؟ شكّ في أمر أبي بكر. عاد إلى الأحداث يستجليها. لمّا قُبض النبيّ أسرع إلى أبي بكر وعبّر له عن رغبته في الزواج من عائشة وقد خاف أنْ يخطبها منه غيره قبله. سكت أبو بكر يومئذ، فلا قبل ولا رفض، فظنّ السكوت علامة الرضى، وأحلم النفس بالزواج السعيد ومصاهرة الخليفة. ولكنّ أبا بكر هدم حُلمه منذ حين في خطبته بشأن أزواج الرسول وأمّهات المسلمين ورغبة الناس في

الأمر الحلال. كان أبو بكر يقصده، ولا شكّ في ذلك. لم يقبل الطريقة التي عامله بها أبو بكر. حُمّل غيظاً في أبي بكر. انكشفت له عيوبه.

استعرض بينه وبين نفسه ما كان من أمر أبي بكر معه خلال الأيام الثلاثة الماضية، فلم ير غير تسلّط أبي بكر عليه وسعيه الدائم إلى قمعه والإساءة إليه. كم مرّة زوّر في نفسه مقالة ليردّ بها ادّعاءات الأنصار أو حتى بني هاشم ويُفحم القوم شرّ إفحام ولكنّ أبا بكر عرض له ومنعه من الكلام وقال له: مهلا، ستُكفى المقالة[895]. بدا له ذلك شرّاً أثيماً وقمّة في الإساءة، واستغرب كيف قبل منه كلامه ولم يردّ عليه بما كان يجب أنْ يردّ. واسترسل يرسم لأبي بكر صورة لا أراك الله مكروهاً. اسمعْ تَرَ:

قال عُمر في نفسه يومئذ كلاماً، أسرّه من بعدُ إلى صاحبيْه أبي موسى الأشعري والمُغيرة بن شُعبة فنقلاه عنه ودوّنته الكتب[896]. قال: «كان أبو بكر أعقَّ، كان والله أحسدَ قريش كلّها، والهفاه على ضئيل بني تَيْم بن مُرّة، لقد تقدّمني ظالماً![897]» وحمل على أبي بكر يُعدّد مثالبه ونقائصه وقد أفاق من غفلته ورأى نفسه أولى بالخلافة منه، وندم على مساندته له في سعيه إلى الخلافة، وندم أنْ لم يغتنم الفرصة ويمدّ يده ليبايعه الناس لمّا طلب منهم أبو بكر الاختيار بينه وبين أبي عُبيدة بن الجرّاح. ثمّ راجع نفسه ورأى أنّ ما فعله أبو بكر كان حيلة مُبيّتة، فاستحسن عدم قبوله اقتراحه، وأيقن أنّه أفلت من فخّ نصبه له، وأنّه خيراً فعل، وراح يُمجّد نفسه ويحطّ من شأن أبي بكر، فقال: «إنّ الرجل ماكرني فماكرتُه، وألفاني أحذرَ من قطاة. إنّه لمّا رأى شَغَفَ الناس به، وإقبالهم بوجوههم عليه، أيقن أنّهم لا يُريدون به بديلاً، فأحبّ، لمّا رأى من حرص الناس عليه وميلهم إليه، أنْ يعلم ما عندي، وهل تُنازعني نفسي إليها؟ وأحبَّ أنْ يَبلُوَني بإطماعي فيها، والتعريض لي بها، وقد علم لو قبلتُ ما عرض عليّ، لم يُجب الناس إلى ذلك، فألفاني قائماً على إخمصي مُستوفزاً حَذِراً، ولو أجبتُه إلى قبولها لم يُسلّم الناس لي، واختبأها ضغناً عليَّ في قلبه، ولم آمن غائلته ولو بعد حين، مع ما بدا لي من كراهة الناس لي فرددتها إليه عند ذلك، فلقد رأيتُه التمع وجهه لذلك سروراً[898].»

وبيناً هو كذلك يُزوّر مقالات في التنديد بأبي بكر وأخرى للتنويه بذكائه هو وقوّته وثالثة لتبرير سبب وجوده إلى جنبه وردّه إلى النفع الذي سيعود عليه،

إنْ عاجلاً أو آجلاً، وهو يعلم أنّ أبا بكر عجوز هَرِم على شفى حفرة، رفع أبو بكر يده في الفضاء وسبّابته إلى الناس، وقال: «الصّدقُ أمانة، والكذبُ خيانة، لا يدعُ قومٌ الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قطّ إلاّ عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[899]» فإذا انقضت الصلاة فقوموا أهل النبيّ إلى نبيّكم فقد حان وقت تجهيزه ودفنه، واستعدّوا أيها الناس للخروج غداً مع أسامة بن زيد إلى الحرب التي أرادها رسول الله، وسينادي بذلك في الناس المنادي[900]. اللهمّ قد بلّغتُ فاشهد، ومَن أنذر فقد أعذر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ظلّ أبو بكر واقفاً وسبّابته إلى الناس يظنّ كلّ امرئ أنّها مُوجّهةٌ إليه. صمت الناس ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة. بُهتَ الناس. أهذا أبو بكر البكّاء الرقيق الأوّاه المنيب[901]؟ أهذا أبو بكر الأسيف الذي لا يُسمع الناسَ صوته[902]؟ سبحان الله مُغيّر الأحوال! صار أبو بكر آخر، صار شديداً لا يخاف، صار داهيّةً قد حسب لكلّ شيء حساباً. خامرت الناس الأفكار. خافوا. خامرتهم الشكوك.

وتعطّلت لغة الكلام.

صلّى أبو بكر بالناس وصلّوا وراءه بصلاته، ثمّ سلّم وسلّموا، ثمّ انتشروا في الأرض كلّ إلى حاجته.

17

قد قدّمنا أنّ الناس اشتغلوا ببيعة أبي بكر الصدّيق يوم الاثنين الذي قُبض فيه النبيّ من شهر ربيع الأوّل[903]، ويوم الثلاثاء غداة اليوم الذي قُبض فيه، ولمّا تمهّدت البيعة وتوطّدت وتمّت يوم الأربعاء، غداة غداة اليوم الذي قُبض فيه، صلّى أبو بكر بالناس، وشرعوا بعد ذلك في تجهيز رسول الله[904].

فإذا كان ذلك كذلك وقابل الحسابُ الحسابَ يكون رسول الله «إنّما دُفن بعد وفاته بثلاثة أيّام[905]» فقد «تُوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الاثنين فمكث يوم الاثنين ويوم الثلاثاء حتّى دُفن يوم الأربعاء[906].»

أعرف أنّكم تتخلّصون من موتاكم بالدفن بسرعة فائقة بتِعلّة أنّ راحة الميت لا تكون إلاّ في قبره، ولكم الحقّ في ذلك، فراحة الحيّ رهينة راحة الميّت[907]، ولا أحد يحلو له أنْ يظلّ الميّت في البيت يُذكّره بالموت، مهما يكن الميّت، أباً عزيزاً أو أمّاً أعزّ منه، ابناً بَرّاً أو ابنة بَرّة، صاحباً أو صاحبة، معشوقاً أو معشوقة. وبناءً عليه أعرف أنّكم استغربتم أمر بقاء النبيّ مسجّى من غير دفن ثلاثة أيّام كاملة. ولكن لا تستغربوا ولا تشكّوا، فالمسلمون كانوا يومئذ حديثي عهد بالإسلام، وكانوا أمّة أمّيةً لا تعرف الكتاب، ولا عهد لها بالأنبياء، فلمّا مات النبيّ احتاروا في الأمر، بين قائل مات وقضى نحبه، وقائل ما مات بل ذهب كما ذهب موسى أو رُفع كما رُفع عيسى. وقد بيّنّا لكم فيما سبق من قصّة تلك الأقوال والردّ عليها والشرعيّة التي تستند إليها. ثمّ لا تنسوْا أنّ موت النبيّ أحدث فراغاً ما عرفوا مثله، فكان لا بدّ مِن ملء الفراغ حتي يستمرّ الدين، وتستمرّ الأمّة. وقد استغرق ملء الفراغ ثلاثة أيّام تمّت في ظلّ النقاش والحوار والصراع حتّى تمهّدت البيعة وتوطّدت وتمّت لأبي بكر الصدّيق. ولا يُمكن أنْ يتمّ ذلك إلاّ في هذا الزمن بعينه. فالثلاثة ضروريّة في مخيال الناس لتتحقّق الأمور تحقيقاً تامّاً. ألا ترى الناس يُقسمون ثلاثاً،

ويُطلّقون ثلاثاً، ويُحرّمون ثلاثاً، ويزورون ثلاثاً، ويمنحون الجوار ولا يثأرون ثلاثاً، وهلمّ جرّا، فلا تستغربوا الأمرَ؟

كانت الأيّام الثلاثة بمثابة العصاً السحريّة، جمعت بين الناس ولم تفرّق، وأرضت الفرقاء على اختلافهم، ولبّت حاجاتهم. القائلون إنّه لم يمت بل رُفع وهو عائد بعد ثلاثة أيام، بإذن الله، قضوا ثلاثة أيّام في الانتظار. وأصحاب السياسة فرضوا على الناس بقاء النبيّ فيهم ثلاثة أيّام حتى يُفضّ الصراع، فلمّا فُضّ وثبت الأمر لبعضهم مضت ثلاثة أيّام كاملة. والمغرمون بالرمز وأهل المخيال وجدوا في الثلاثة ضالّتهم وبرهنوا على حسن نظرياتهم.

وإذا لم يكفكم هذا ولم تجدوا في التبريرات التي رصدنا لكم دليلاً على بقاء النبيّ بين أهله ثلاثة أيّام بلا تجهيز ولا دفن، اسمحوا أنْ نضيف إليها تبريراً آخر ذكره بعض كبار العلماء فأفحم به خلق الله ولم يترك فيهم مجالاً للشكّ في هذا الأمر. فقد قال ابن أبي الحديد، وهو، كما تعلمون، مَنْ هو في الإلمام بعلم التاريخ وفهم الصراع بين السنّة والشيعة، إنّ النبيّ إذا «بقي مُسجّى بينهم ثلاثة أيّام بلياليهنّ لا يغسلونه ولا يمسّونه، فيغلب على ظنّي أنّ عليّ بن أبي طالب قد فعله شناعة على أبي بكر وأصحابه، حيث فاته الأمر، واستؤثر عليه به، فأراد أنْ يتركه صلّى الله عليه وآله بحاله لا يُحدث في جهازه أمراً، ليثبت عند الناس أنّ الدنيا شغلتهم عن نبيّهم ثلاثة أيّام حتى آل أمره إلى ما ترونه[908].» فيكون بذلك بقاء النبيّ ثلاثة أيّام بليالهنّ بإيعاز من عليّ لا أبي بكر، والله أعلم.

ومهما يكن الأمر فإنّ التجهيز آت لا محالة، ولله الحمد!

لمّا انقضت الصلاةُ بعد خطبة أبي بكر الطويلة، وانفضّ الناس من حوله إلى حاجاتهم، كان الليلُ قد تقدّم منه شوطٌ كبيرٌ يُضيئه القمر كأجمل ما يكون الضياء. وكان القمر الذي قُدّرَ منازلَ[909] صار ليلتئذ بدراً ساطعاً إذ بلغ الليلة الرابعة عشرة، وهي ليلة تمامه البيضاء التي لا يعرف فيها الاختفاء[910]، فجاء ينشر في المدينة الضياء، ويُعلن انتهاء فسحة الانتظار، فليتوكّل على الله المتوكّلون، وليبدأ تجهيز النبيّ ودفنه، فقد حان وقته. فالزمن هو الزمن ولا مفرّ من الزمن! ومَن ذا الذي يتولّى أمر الزمن غير القمر؟ أليس القمر مقياس

الزمن؟ أليس القمر انعكاساً لحياة الإنسان، يولد ويموت ثمّ يُبعث حيّاً؟ أليس القمر هو الذي يعزف الإيقاع الذي يسير على هديه الزمن[911]؟

في ليلة تمامه جاء القمر يُعلن نهاية اللعبة. كلّ شيء إذا ما تمّ صار إلى نقصان. غداً يغيب عن الليل القمر. غداً يغيب عن الناس محمّد. تلك سنّة الحياة الدنيا والآخرة!

غادر عليٌّ والعبّاسُ والفضلُ وقُثم المسجد من باب الدخول إليه والخروج منه، ولفّوا يمينا إلى بيت النبيّ حيث كان أسامة على باب البيت، ففتح لهم الباب وبكى وقد بلغه أمر أبي بكر بالتجهيز والدفن. دخلوا وصوّبوا نحو البيت حيث النبيّ مُسجّى. سمّوا باسم الله ودخلوا عليه البيت. فوجئوا بأبي بكر عند رأس النبيّ وكان سبقهم إليه ودخل من باب بيت عائشة المؤدّي مباشرة إلى المسجد وكان النبيّ يدخل منه للصلاة ويخرج، ويطلّ منه برأسه في مرضه الذي قُبض فيه، فاستعمله أبو بكر وقد خلف رسول الله في الأمّة.

لا أحدَ دخل على النبيّ منذ اليوم الذي قُبض فيه. غاب عنه عليّ والعبّاس والفضل وبنو هاشم قاطبة بسبب تلك الأمور التي حدّثناكم عنها سابقاً. وغاب عنه أبو بكر بسبب تلك الأمور التي حدّثناكم عنها سابقاً أيضاً. ولم تدخل عليه النساء منذ طلبت منهنّ صفيّة بنتُ عبد المطّلب وأسماء بنتُ عُميس الخروج عنه وقد أكثرن الكلام من حوله، وارتفعت في البيت الحرارة بما لا يطيقه الميّت.

ثمّ إنّ الناس لم يدخلوا على النبيّ كثيراً احتراماً لِما أوصاهم به قبل أنْ يُقبضَ إذ طلب منهم أنْ يخرجوا عنه إذا ما قُبض حتى يسمحوا للملائكة بالصلاة عليه، وقال لهم يومئذ: «إنّ أوّل مَن يُصلّي عليَّ جليسي وخليلي جبريل ثمّ ميكائيل ثمّ اسرافيل ثمّ مَلَك الموت مع جنود كثيرة من الملائكة بأجمعها[912].» وقد عملوا بوصيّته وتركوه مع جليسه وخليله ومَنْ هبَّ ودبَّ من الملائكة، وكانوا يفعلون ذلك في حياته لمّا كان يطلب منهم ألاّ يدخلوا عليه إذا رأوا الشملة مُسدلة على الباب، أو رأوا دحية بن خليفة الكلبيّ عنده، وهو ليس دحية بل جبريل وكان ينزل على صورته[913].

لكلّ تلكم الأسباب، ظلّ النبيّ وحده في البيت ولم يُدفن «حتى اربدّ بطنه[914]» «وتغيّر لونه[915]» ثمّ «ربا قميصُه ورُئِيَ في خنصره انثناءٌ، وعُرف الموت فيه، في أظافره، اخضرّت[916].» وهذه أمور عاديّة بالنسبة إلى ميّت تربّص به أهله ثلاثة أيّام ولم يدفنوه رجاء عودته إليهم[917]، وقد جُعلت لتدلّ على أنّ محمّداً بشرٌ، وهو بوصفه بشراً لا بدّ من دفنه. أمّا فيما عدا ما ذكرنا من تغيّر، فإنّه «لم يُرَ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيءٌ مِمّا يُرى من الميّت[918]» وقد «التمس عليٌّ من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند غسله ما يُلتمس من الميّت، فلم يجد شيئاً[919].»

كان أبو بكر أوّل من دخل على النبيّ هذه الليلة، وكشف عنه، «جاء بعد ثلاث، ولم يجترئ أحدٌ أنْ يكشف عن وجهه الغطاء حتّى اربدّ بطنه، فكشف عن وجهه، وقبّل بين عينيْه، ثمّ قال: بأبي أنتَ وأمّي، طبتَ حيّاً وطبتَ ميّتاً، ثمّ خرج أبو بكر[920]» من حيث دخل، وتولّى أهلُ النبيّ أمرَه، ولا أحد غير أهله، عليّ بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المُطّلب والفضل بن العبّاس وقُثَم بن العبّاس، واستعانوا في ذلك بأسامة بن زيد وشُقران وهما أقرب مواليه إليه.

قام عليٌّ فأغلق الباب دون الناس جميعاً وأرتجه[921]، ثمّ أسند النبيَّ إلى صدره وغسّله، وتولّى العبّاس والفضلُ وقُثم تقليبه له، أمّا أسامة وشُقران فصبّا له الماء عليه[922].

جرى كلّ شيء من بعدُ بسرعة. جرى كلّ شيء في كنف الكتمان والسرّ الذي يكون للأموات. جرى كلّ شيء في ظلّ اختلاط عالم الغيب بعالم الشهادة، ودخول الآخرة في الدنيا، والتقاء السماء بالأرض. كلّما عجزوا في أمر أخذتهم سِنَةٌ من نوم وهتف فيهم هاتف بما يجب في ذلك الأمر. اختلفوا في غسله، يغسلونه وعليه ثيابه أو يجرّدونه من ثيابه كما يفعلون بموتاهم، فنُودِيَ فيهم: «ألا لا تنزعوا القميص، ولا تُجرّدوا رسول الله، ولا تُعَرُّوا نبيّكم[923]» فغسلوه وعليه ثيابه[924]، وعلى يد عليّ خرقةٌ، فيُدخل عليٌّ يده تحت القميص والفضل يُمسك الثوب[925]. وكان عليّ كلّما أخذ عضواً تبعه، كأنّما يُقلّبه معه ثلاثون رجلا[926]. وكان الفضل قد أخذ بحضنه، فثقل عليه، فقال: أرحني أرحني قطعتَ وتيني، إنّي أجد شيئاً يتنزّل عليَّ، اعجل يا عليّ انقطع

ظهري[927]. ثمّ حنّطوه بمسك[928]. ثمّ كفّنوه في حلّة حِبَرَة ثمّ نزعوها بإلهام أو صَوتِ مُنادٍ وكفّنوه في بياض، ثلاثة أثواب بيض سَحوليّة كُرْسُف[929]، عَلى وجه التحديد. ثمّ وضعوه على سريره[930]. ثمّ دوّى الصوتُ في البيت يُعزّي أهل البيت في النبيّ: «جاءت التعزيةُ، يسمعون حسّه ولا يرون شخصه، قال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[931]﴾ إنّ في الله عزاءً من كلّ مُصيبة، وخلفاً من كلّ هالك، ودركاً من كلّ ما فات. فبالله فثقوا، وإيّاهُ فارجوا، إنّما المصابُ مَن حُرم الثوابَ، والسلام عليكم ورحمة الله[932].»

ثمّ كان الصمت.

ها النبيّ على فراشه. ها هم ينظرون بعضهم إلى بعض، ثمّ ينظرون إلى النبيّ على فراشه، ثمّ ينظرون بعضهم إلى بعض، وهكذا دواليك. ها هم لا يدرون ما يفعلون. غسّلوه وكفّنوه وحنّطوه بحنوطه ومدّوه على فراشه، فماذا من بعدُ؟ أين يدفنونه؟ تشجّع قائلٌ منهم، وقال: إنّما يُدفن النبيّ عند المنبر. فتلاه قائلٌ آخر، وقال: إنّما يُدفن حيثُ كان يُصلّي ويَؤمّ الناس. وقال ثالثٌ: إنّما يُدفن عند الجذع الذي كان يُصلّي إليه. وقال رابع: إنّما يُدفن مع أصحابه في البقيع[933]. ولم تُنجدهم السماء هذه المرّة بالنبإ الصواب، فلا سَمعوا صوتاً مُبيناً، ولا أُلهموا إلهاماً لا شكّ فيه.

تناقشوا في الأمر حتى صار نقاشهم صَخباً نفذ إلى المسجد من خلال الباب المؤدّي إليه مُباشرةً مِن بيت عائشة حيث كان أبو بكر غير بعيد يتلصّص، وعُمر معه يترصّد. رفع أبو بكر الشملة من على الباب ودخل، وتبعه عُمر. قال أبو بكر: «عندي ممّا تختلفون فيه علمٌ، سمعتُ رسولَ الله يقول: ما مِن نبيّ يُدفنُ إلاّ حيث قُبض[934]» ثمّ أكّد قوله بأقوال أخرى بما لا يترك مجالاً للشكّ: «سمعتُ خليلي يقول: ما مات نبيٌّ قطُّ في مكان إلاّ دُفن فيه؛ سمعتُ رسول الله يقول: ما دُفن نبيٌّ إلاّ في مكانه الذي قَبضَ الله فيه نفسه، إنّما تُدفن الأجساد حيث تُقبض الأرواح[935]» ثمّ قال كأنّه يختم الكلام ويقطع على الناس الجدال: «سمعتُ من رسول الله شيئاً ما نسيتُه، سمعتُه يقول: لا يُقبض

النبيّ إلاّ في أحبّ الأمكنة إليه، سمعتُه يقول: ما قَبَضَ الله نبيّاً إلاّ في الموضع الذي يُحبّ أنْ يُدفن فيه. ادفنوه حيث قُبض، ادفنوه في موضع فراشه[936].»

لم يترك أبو بكر مجالاً للسؤال. لم يترك مجالاً للجدال. كان حُكمه حُكماً قاطعاً لا استئناف فيه. انحنى بالتحيّة عند الجسد الموات، وكذلك فعل عُمر، وسلّما عليه تسليماً: السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته[937]. ثمّ انطلقا في شيءٍ كالصلاة على الميّت، وختما بهذا الدعاء: «اللهمَّ إنّا نشهد أنْ قد بلّغ ما أنزلَ إليه ونَصح لأمّته وجاهد في سبيل الله حتى أعزّ الله دينَه وتمّت كلماتُه فآمن به وحده لا شريك له، فاجعلنا يا إلهنا ممّن يتبع القولَ الذي أُنزلَ معه، واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا ونعرفه، فإنّه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، لا نبتغي بالإيمان بدلاً ولا نشتري به ثمناً أبداً[938]» ثمّ تقدّم أبو بكر من فراش النبيّ الذي تُوفّي عليه وكان عليه مُسجّي، فخطّ حول فراشه، ثمّ حوّل النبيّ بالفراش ناحيّةً وأمر بالحفر له حيث خطّ[939].

بُهت عليّ وأصابه شيء كالخرس، فلم ينبس ببنت شفة. أومأ العبّاس برأسه موافقاً ولم يُجادل. كان لا بدّ من حفّار للحفر. كانت المدينة تتوفّر على حفّارَيْن اثنيْن ليس غيرُ، هما أبو عُبيدة بن الجرّاح الذي كان يضرح كحفر أهل مكّة، وأبو طلحة زيد بن سهل الذي كان يَلحد كحفر أهل المدينة. لم يختر العبّاس بينهما بل أرسل إلى كليْهما، وقال: اللهمّ خِرْ لرسولك. أمّا الرسول إلى أبي عُبيدة فخاب مسعاه في أبي عُبيدة ولم يجده، ولعلّ ضلوعه في أمر الخلافة وارتقاءه السلّم دَرجاتٍ في ثلاثة أيّام منعاه من الاضطلاع بهذا الذي كان يفعله. أمّا الرسول إلى أبي طلحة فوجد أبا طلحة وجاء به فتولّى الحفر واللحد[940]. كذلك شاءت الصُّدفة!

في جوف الليل تحرّكت المساحي والكرازين[941] في البيت، تحفر الأرض وتُحدث الصريفَ والصوتَ في سكون الليل. هبّ الناس على صَريف المساحي وصوت الكرازين، ولا أحد منهم كان على علم بالأمر غير أولئك النفر ولم يَلِه إلاّ أقاربه. هبّت عائشة، وهبّت أمّ سلمة، وهبّت الزوجات جميعا في البيوت حيث تحلّقن للسمر والنوم منذ المساء. هبّت القبائل في المدينة، بنو غَنْم وبنو لَيْث وعشائر الأنصار على بكرة أبيهم. فهم الناس أنّه الدفن، وأنّه يتمّ في البيت الذي قُبض فيه، وأنّ الليل قد مضى إلاّ أقلّه[942]. أيقن مَنْ شكّ

في موت النبيّ أنّ النبيّ قد مات وها هو يُدفن. قَبِلتْ أمّ سَلمة بالأمر المقضي، وكانت من قبلُ لم تُصدّق بموت النبيّ[943]. وعَلمتْ عائشة بدفن النبيّ وكانت من قبل جاهلة به[944].

صاحت الزوجات في البيوت. كان صَوتُ المساحي عندهنّ نهاية العهد بزوجهنّ النبيّ، وكنّ منذ ثلاثة أيّام قد أنسنَ وجوده على السرير مُسجّى في البيت المجاور. صاح أهل المسجد، وأهل الصُّفّة منهم خاصّة. كان صَوتُ المساحي عندهم نهاية الحظوة بجوار النبيّ وبداية المجهول. صاح الناس في المنازل. ارتجّت المدينة صيحةً واحدةً. كان الفجر قد بدأ ينشر تباشيره، فجاء بلالٌ يُؤذّن. مدّ صوته بالكلمات مدّاً طويلاً، كأنّه لا يُريد أنْ يبلغ في الأذان اسم محمّد وينطق به. ولكنّ التمديد لم ينفعه إلاّ مقداراً محدوداً من الزمن، فبلغ محمّداً رسول الله. فلمّا ذكر محمّداً بكى وانتحب فازداد الناس حُزناً وبكوا وهبّوا جميعاً من كلّ حدب وصوب إلى بيت عائشة. جاءت النساء من البيوت «فكان منهنّ صوتٌ وجَزَعٌ لبعض ما يكون منهنّ، فسمعن هدّةً في البيت ففَرِقْن وسَكَتْنَ[945]» وجاء المصلّون من المسجد، وجاء الناس من ديارهم، وهمّوا بالدخول إلى البيت، وعالجوا الدخول إلى القبر، فغُلق دونهم القبرُ. فيا لها من مُصيبة ما أُصِيب الناس بعدها بمُصيبة إلاّ هانت[946].

«وُضعَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حُفرته وبُنيَ عليه[947].»

أُسدلَ الستار. انتهت اللعبة. لا شيءَ من بعدُ غير الذكرى.

18

لعلّكم تتساءلون عن الدفن الذي تمّ ليلاً إنْ كان تمّ فعلاً كذلك أم هو مُجرّد قصّة تُروى وعنصرٌ من عناصر الزينة جُعل للإثارة وحفزكم على السؤال. وقد تساءلتُ مثلكم عن هذا الدفن، والليل قد بسط جناحه على المدينة، ونظرتُ في الكتب وعلوم الناس في الدفن، فوجدتها، والله، كما حدّثتكم، ونقلتُ لكم ما حدّثني به القوم، «وكلٌّ قد حدّثني بعضَ هذا الحديث، وبعضُ القوم كان أوعى له من بعض، ودخل حديثُ بعضهم في بعض، وحدّث بعضهم ما لم يُحدّث بعضٌ، وقد جمعتُ لكم كلّ الذي حدّثني القوم، وكلٌّ كان ثقةً[948]» والله أعلم.

والدفن ليلاً كان معروفاً عند العرب في الجاهلية والإسلام. فكانوا يدفنون ليلاً إذا بلغ الحرُّ نهاراً ما لا طاقة للإنسان به، أو إذا بقيت الجثّة زمناً لا يقبل الزيادة والتأجيل، أو إذا هلك الهالك أخرَ العَشيّ، أو عُثر على الجثّة في ذلك الزمن، أو إذا أُريد التستّر على الميّت ودفنه من غير الإعلام به. وهناك حالات من غير هذا القبيل، لا تأويل لها ولا تفسير، تمّ فيها الدفن ليلاً من غير تبرير، ممّا يجعل الظاهرة طبيعيّة عادية لا استثناءً أو شذوذاً أو اضطراراً لا مفرّ منه. ثمّ إنّ النبيّ لم يجعل الليل من الأوقات التي يُكره فيها الدفن[949]، وكان يُصلّي على مَنْ يُدفن ليلاً[950]، ولو كان هذا مُنكراً أو حراماً لَمَا صلّى، ولَمَا أباحت المذاهب الإسلاميّة من بعدُ الدفن ليلاً وإنْ فضّلت عليه الدفن في وضح النهار.

وقد ذكرت الأخبار أنّ كثيراً من الوجوه في الإسلام دُفنوا ليلاً، منهم فاطمة الزهراء، بنت النبيّ وزوج عليّ بن طالب[951]، وأبو بكر الصدّيق أوّل خليفة في المسلمين[952]، وعثمان بن عفّان ثالث خليفة في المسلمين[953]، وعائشة

زوج النبيّ وأمّ المؤمنين[954]، وعبد الله بن مسعود الصحابيّ الشهير[955]. وهناك آخرون يضيق عن ذكرهم الكتاب.

فإذا كان ذلك كذلك فلا غَرابةَ في أنْ يكون النبيّ قد دُفن ليلاً، وقد استوفى الأيّام الثلاثة التي ليس بعدها زيادة أو تأجيل، وحصل إجماع الصحابة على الخلافة فبايعوا مَنْ بايعوا ورفضوا مَنْ رفضوا، فليذهبْ محمّد إلى حال سبيله. ثمّ إنّ الليل قد جُعل للستر، وهو يمنع التحرّك والتظاهر والتعبير الصارخ عمّا يعتمل في الصدر، فنام الناس ودُفن النبيّ، ولمّا سمعوا صريف المساحي وجاؤوا للتظاهر أُغلق دونهم القبر كما رأينا منذ حين.

ثمّ إنّ الليل في ثقافة الناس القديمة سابقٌ للنهار، ويتمّ فيه التغيير والانتقال من حال إلى حال، والنهار ثابت أو كالثابت لا تقف فيه على تحوّل كبير. ألا ترى الليل ينتقل من الغَسَق وهو أول الليل ويتدرّج شيئاً فشيئاً إلى الغَلَس والغَبَش وهو آخر ظُلمة الليل ثم ينتهي بتباشير الفجر إيذاناً بعودة الحياة، فيقوم الإنسان يسعى وترعى الماشية وينتشي النبتُ ويتفتّح الزهر ويُؤذّن بلالٌ للصلاة. وإذا صادف الليلُ القَمرَ صار مثلَه مَنازلَ، وانتقل بنوره من ضياء إلى ضياء، وقد صادفه ليلة دُفنَ النبيّ قد اكتمل وصار عُمره أربعة عشر، فكانت ليلة بيضاء، جُعلت لحزم الأمر والانتقال من حال إلى حال، ومن عصر إلى عصر. فما أنْ قُبر النبيّ في تلك الليلة حتّى انبلج الفجر وبدأ أبو بكر يحكم، فكان الليل ستاراً أُسدلَ على مرحلة مضت بلا رِجعة، والفجرُ فَتْحاً لمرحلة قادمة وتدشيناً لعهد جديد.

كان الليل خير زمن لقبر الماضي وانطلاق المستقبل مع تباشير الفجر. كان الدفن ليلاً رمزاً لهذا الأمر، فلا تستغربوا الأمر. أعرف أنّكم تعوّدتم دفن موتاكم بعد صلاة العصر، أو بعد صلاة الظهر وإنْ قليلاً، وما خالف ذلك كان جديداً عليكم. ولكنّ هذا الذي تعوّدتموه جاء من بعدُ، بعد تقنيين الجنائز والصلوات وكلّ العبادات، وهذا لم يحدث إلاّ بعد قرون من زمن إسلام النشأة المفقود. ولكن تلك قصّة أخرى لا تهمّكم في هذا الكتاب، فلنعد بكم إلى ما يهمّكم في الكتاب.

لعلّكم تساءلتم إنْ كان دفن النبيّ قد تمّ فعلاً في بيت عائشة، وإنّه والله لتمّ في بيتها، والعهدة في ذلك على الأخبار التي دوّنتها الكتب في سجلّ تاريخ العرب، ونقلناها لكم بأمانة وصدق ومن غير تحريف. أعرفُ أنّكم لم تتعوّدوا أمراً كهذا الأمر، وأنتم تكرهون أنْ تكون القبورُ في بيوتكم، وتخشَوْن الموتى إذا ظلّوا بينكم، وتخافون الموت، وتهرعون من المقبرة فزعاً إذا جَنّ الليلُ وسُمع الصوتُ، وتقرؤون شيئاً من سورة يس التي حُفِّظْتموها خصّيصاً لمثل هذا الظرف. وأعرفُ أنّكم استغربتم أمر عائشة، كيف قبلت بالعيش عند قبر، وهي في عزّ الشباب، لم تتجاوز ثماني عشرة سنة بالتحديد[956]، وكانت لطيفة حُميراء مُدلّلة. ولم يَكفها ذلك، بل زادت أبا بكر وعُمر دفينيْن في بيتها، وعاشت في مقبرة، ما تبقّى من حياتها، خمسين سنة إلاّ اثنتيْن بالحساب الصافي[957]. ولكنْ، ماذا تُريدون؟ تلك حياتهم، وهم أحرارٌ فيها. ولعلّهم كانوا يختلفون عنّا، فلا كانوا يخافون الموت، ولا يكرهون العيش بين الأموات، ولا يجدون حَرجاً في تقديس الأجداد والأوّلين ووضع الأساطير. أم تُراهم فعلوا ذلك وأداً لعائشة عند قبر النبيّ، فتكون له ملكاً خالصاً، حيّاً وميّتاً، وتُلبّي حاجته في الحياة الآخرة مثلما لبّت حاجته في الحياة الدنيا، فلا يطمع فيها طامع ولا تتفتّح عيناها على غيره؟ لعلّهم كانوا من طينة أخرى، غير طينتنا، فلِمَ السّعيُ إلى التشبّه بهم وردّنا إليهم؟

ويبدو، والله أعلم، أنّ دفن الميّت في بيته أمرٌ لا غرابةَ فيه، إذ كانت العرب إذا استقرّت دفنت موتاها في بيوتهم، فإنْ لم تدفنهم في بيوتهم دفنتهم على مقربة منها، وإذا رحلت دفنتهم في المنازل التي تنزلها، ولا تتحمّل مشقّة العودة بهم إلى مُستقرّها[958]. فكان الميّتُ يُدفن حيث قُبضَ. وقد أكسب أبو بكر هذا العُرفَ العربيّ الجاهليّ شرعيّةً دينيّة قديمة فجذّره في تاريخ الأنبياء إذ جعلهم يُدفنون حيث يُقبضون، وأكسبه شرعيّة إسلاميّة إذ نسج على منوالهم ودفن النبيّ ختنَه وخليلَه حيث قُبضَ، وبرّر ذلك بما أتى من أحاديث نبويّة فشرّع وسنّ القانون، في غياب المعارضة والمعارضين، ولعلّ الناس أجمعين ظنّوا أنّ راحة النبيّ، وقد مرّ على وفاته زمنٌ وتغيّر فيه ما تغيّر، لا تكون إلاّ حيثُ هو، ولا يَنفعُه نَقلُه.

كذلك دُفنَ النبيّ حيثُ قُبض، في بيت عائشة، وتباهت عائشة المصون بالحظوة التي نالتها إذْ دُفنَ النبيّ في بيتها، وكان يُحبّها ويُفضّلها على غيرها من النساء، وينتظر بفارغ الصبر يومها ويستبطئه. فكانت تقول: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليتعذّر في مرضه: أين أنا اليوم، أين أنا غداً؟ استبطاءً ليومي، فلمّا كان يومي قبضه الله بين سحْري ونحْري، ودُفن في بيتي[959]» وقد زادها ذلك زُهُوّاً فانطلقت تروي: «فُضّلتُ على نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعشر: لم ينكح بكراً قطّ غيري، ولم ينكح امرأة أبواها مُهاجران غيري، وأنزل الله عزّ وجلّ براءتي من السماء، وجاءه جبريل بصورتي من السماء في حريرة وقال: تزوّجها فإنّها امرأتك، وكنتُ أغتسل أنا وهو في إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري، وكان يُصلّي وأنا مُعترضة بين يديْه، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيري، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي، ولم يكن ينزل عليه مع أحد من نسائه غيري، وقَبضَ الله نفسه وهو بين سحْري ونحْري، ومات في الليلة التي كان يدور عليّ فيها، ودُفن في بيتي[960].»

فإذا كان هذا كما روت عائشة، كان الدفن في بيتها أمراً طبيعيّاً ولا حَرَجَ، فمكّنها أبو بكر أبوها من الحظوة التي كانت لها عند النبيّ ومَكّن النبيّ منها ميّتاً مثلما مَكّنه منها حيّاً، فشُطر بيت عائشة شَطريْن لا فاصل بينهما[961]، هذا للنبيّ وهذا لعائشة. فكانت تُقيم والنبيّ في نفس البيت، وحدهما لا ثالث بينهما، كما تُقيم الزوجة مع زوجها، وتكشف في بيتها ما كانت تكشف لزوجها، ولمّا دُفن أبوها جنب زوجها دخلت عليهما مَكشوفةً فُضُلاً، ولم يُفسد عليها أمرها غيرُ عُمر الذي دُفن بعد سنين من ذلك التاريخ في بيتها، فأصابها الحياء، ولم تدخل مكشوفةً بعد ذلك أبداً[962].

وقد ازدانت قصّة دَفن النبيّ في بيت عائشة بعناصر الزينة التي تُشرّع لهذا الدفن. وكان أوّل تلك العناصر رؤيا رأتها عائشة، رأت كأنّ ثلاثة أقمار سَقطنَ في حُجرتها، فقصّت على أبي بكر رؤياها فأوّلها لها قائلاً: «ليُدفننَّ في حُجرتك ثلاثةٌ هم خير أهل الأرض. فلمّا توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دُفن في بيتها، فقال لها أبو بكر: هذا أحد أقمارك، وهو خيرها[963]»، فتحقّق يومئذ بعض رؤياها وتحقّق مِن بعدُ بعضها الآخر[964]. كان حُلم عائشة استشرافاً للمُستقبل وقراءةً في سجلّ الأيّام المُقبلة، فهيّأ ذلك للدفن في بيتها.

أمّا عُنصر الزينة الثاني الذي شرّع لدفن النبيّ في بيت عائشة فأقوال النبيّ التي جعلت عائشة زوجه في الجنّة مثلما كانت زوجه في الدنيا، فقال فيما قال: إنّ عائشة زوجي في الجنّة، وإنّي أراها هناك ليُهَوَّن عليّ موتي[965]. فكان دفنُه في بيتها تواصلاً للنعمة التي كانت له بها، تُهوّن عليه موته في بيتها وتصحبه فيه صباحَ مساءَ، وما بينهما، فتتواصل الحياة تحت الأرض كما كانت فوقها. كانت عائشة كالمشدودة إلى قبره يجدها متى شاء. كانت عائشة قربان الناس إلى نبيّهم، أهدوا إليه خير ما عندهم، أهدوا إليه خير ما يحتاجه، فلينعم ويظلّ هناك في الدار الآخرة، ولا يرجع فيفسد عليهم الدنيا التي اختاروا لها أبا بكر خليفة ليواصل البناء.

وقد ارتبطت عائشة في الأحاديث بالموت والآخرة، فكان النبيّ إذا ما كانت ليلتها يخرج من عندها في آخر الليل إلى بَقيع الغَرْقَد حيث موتى المؤمنين في سُبات عميق، فيُسلّم عليهم، ويطلب لهم الغفران، ويُخبرهم باللحاق بهم إنْ شاء الله[966].

كانت عائشة مُقدّسةً من بين المُقدّسات حتى التماهي مع الأموات، لا تصلح إلاّ للنبيّ حيّاً كان أو ميّتاً. ويُمكن أنْ نقول ولا حَرج إنّ النبيّ إذ اختار أنْ يُمرّض في بيت عائشة وقُبض في بيتها، بين سحْرها ونحرها، كما كان يحلو لها أنْ تقول، ودُفن هناك حيث قُبض، في بيتها، قد خصّ عائشة بشيء تفرّدت به من بين النساء، فكأنّه اختارها ألاّ تكون أرملة أبداً، بل زوجة مَيّت حاضر معها مدى عيشها. كذلك لا يقترب منها مُقترب، لِمَا للميّت من حُرمة من جهة، ولاقترانها بالميّت من جهة ثانية، فلا أحد يَجرُؤ ويختلط بامرأة ميّت مُلازم لها في كلّ آن وظرف[967].

شاءت السماء أنْ تكون عائشة خالصة للنبيّ حيّاً وميّتاً، فباء كلّ مَنْ سعى إليها بالفشل. سعى إليها، وهي طفلة، مُطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف وخطبها لابنه جُبير، ووافق أبو بكر وأمّ رومان وسُمّيت لجُبير. ولكنّ جبريل نزل إلى النبيّ بصورتها في حريرة، فأُريَها في المنام مرّتين، وأمر بالزواج منها. فاستلّها أبو بكر من جُبير اضطراراً، وزوّجها النبيّ بالرغم من الحرج الذي كان يجده في أنْ يزوّج ابنته محمّداً وهو أخوه بالنسبة إليه، والمرءُ لا يتزوّج ابنة أخيه[968]. تزوّجها النبيّ وهي بنت ستٍّ وبنى بها وهي بنت تسعٍ وظلّت له

خالصة في حياته وبعد موته، ولم تنفع محاولات فصلها عنه أو الطمع فيها أو الرغبة في الزواج منها إنْ قُبض. رموها بالإفك، كما حدّثناكم سابقاً، للفصل بينها وبينه، فجاءت براءتها من السماء ونزلت فيها الآيات ترمي الذين جاؤوا بالإفك بالشرّ والسوء[969]. وكان الناس يتردّدون على بيتها ويجالسون فيه النبيّ وينظرون إليها عن كثب ويأكلون معها والنبيّ في نفس الإناء وتلامس أيديهم يديْها، فجاءت الآيات تحجبها عنهم[970]. وأحلم كثيرٌ منهم أنفسَهم بالزواج منها إنْ قُبض النبيّ، فجاءت الآيات وجعلتها أمّاً للمؤمنين فحُرّمت على الناس وكذلك الزوجات جميعاً[971].

ثمّ إنّ عائشة بفضل هذه الإحاطة الكريمة بها، من قِبَلِ الأرض والسماء، كانت طيّعةً راضية، كما يُطيع القربان ويرضى[972]، وانساقت بصفة طبيعيّة لتُصبح مِلكاً للنبيّ وحده، وكانت مَزهوّةً بذلك فخوراً، وعدّته خلّة من الخلال التي لم تُعطَها امرأة قطّ[973]. ولمّا جاء من السماء التخيير بين الحياة الدنيا والزينة وبين الله والرسول والدار الآخرة، كانت عائشة جاهزةً لاختيار الله ورسوله والدار الآخرة، وكانت سبّاقةً إلى ذلك، فاقتدت بها الزوجات واخترن ما اختارت عائشة[974].

ها النبيّ في بيت عائشة قد دُفن. وها عائشة في بيتها، عند قبر النبيّ، كأنّها الناقة التي كانت العرب تشدّها عند قبر ربّها إذا ما ذهب ربّها.

كان المسلمون في ذلك الزمن، كما قرّرنا لكم سابقاً، حديثي عهد بالإسلام، ما زالت الجاهلية فيهم، وما زالوا يتذاكرون أخبارهم الماضيّة، ويُؤتون من الأفعال ما كانوا يفعلون من قبلُ. ومن عاداتهم التي رسّختها الكتب جعلهم على قبر الميّت، إذا كان وجهاً من وجوههم واشتهر فيهم بجاه أو سلطان أو كرم، ناقته التي كان يركبها. كانوا يشدّونها إلى قبره شدّاً قويّاً ولا يُطعمونها ولا يسقونها حتى تموت عند قبره جوعاً وعطشاً. وكانوا يُسمّونها البليّة[975] ويفعلون بها ما يفعلون لغاية دينيّة، فيقولون: لا بدّ له من راحلة تنقله يوم البعث والنشر إلى مكان الحشر حيث انطلاق الحياة الأخرى، فإذا لم يكن له ناقة حُشر راجلاً، وفي ذلك تعب الرحلة ومشقّة السفر، ومكان الحشر بعيد لا يُؤتى إلاّ بعد دهر[976]. ومثلما وُضعت الناقة لسفر الميّت والرحلة، وُضعت عائشة لحاجة الميّت والمتعة.

تلك صورة استعرناها من ثقافة الناس القديمة ليس غيرُ، تخدم غرضنا كما ترى، وتجعل من عائشة قربان الإسلام في هذا البيت مثلما كانت البليّة قربان الجاهليّة في المقبرة. ولا تستنكروا الأمر، فإنّ الناس في الجزيرة أشباه الناس في أصقاع الدنيا الكثيرة، يتصوّرون الإنسان ينتقل بالموت إلى حياة أخرى تتطلّب الرحلة والسفر والأكل والشراب والزينة واللباس والحرب والحاجة والمتعة أيضاً. وقد كانت مصر الفرعونيّة مثالاً في هذا كلّه، فأقامت الأهرام لفراعنتها وجهّزتها بالسفن للرحلة، والنساء للمتعة، والعبيد للخدمة، والحليّ والعطور للزينة، واللباس الفاخر والسلاح لبهرج الحفل. لم تكن جزيرة العرب كمصر في العظمة، ولم تبلغ ما بلغته من مَدنية وحضارة، فعبّرت عن الأشياء تعبيراً بدويّاً خالصاً، فجعلت خير ما تملك على ذمّة الميّت العزيز الذي فارقها، امرأة هنا وناقة هناك. وكانت المرأة والناقة تتداخلان في ثقافة العرب حيث ترد أوصاف هذه كأوصاف تلك فيصعب التميز بينهما. وكم من شارح قصيد أو ناقد يتيه في هذه المتاهات، فيظنّ أنّ الشاعرَ يصف الحبيبة التي حُمّل عشقها وهو لا يصف غير ناقته التي لا يرقى شيء إلى مرتبتها. وأنتم، ولا شكّ، قد عشتم شيئاً كهذا الذي حدّثتكم عنه خلال دراستكم الماضية.

هل فكّر أبو بكر، وهو يأمر بدفن النبيّ حيث قُبض، في بيت عائشة، في هذه الأمور التي ذكرناها أم كانت غايته أخرى؟ إنّ الأمور التي ذكرناها أمورٌ جُعلت للرمز، والرمز مُتجذّر في عالم المخيال واللاوعي وينساق إليه الإنسان انسياقاً، لأنّه يُعبّر عمّا تكرّس في الثقافة بإتيان الفعل وتكرّره ونسج الناس بعضهم على منوال بعض فيه، من غير تأمّل أو نظر. وأبو بكر مثل غيره من الناس ابن ثقافة الناس، ينساق إلى ما ينساق إليه الناس، ويأتي الأشياء التي يأتونها. فإنْ لم يُفكّر في هذه الأمور التي ذكرناها قبل إتيانها، وكان ذلك كذلك من غير شكّ، فإنّه بمجرّد إتيانها أصبحت عُرضة للتأويل الذي بيّنّاه لِما لها من علاقة بالثقافة والمخيال واللاوعي والرمز، التي هي عناصر تشترك فيها المجموعة بوصفها مجموعة لا بوصفها أفراداً، كلّ فرد فيها مُستقلّ عن الفرد الآخر. تلك هي الثقافة، ولا مفرّ من دراسة الأشياء وفق منطق الثقافة!

واسمحوا أنْ نُضيف إلى ما تقدّم أمراً آخر، أهمّ وأبقى، والله، يَظهرُ فيه أبو بكر فاعلاً، وخَيرَ فاعل. إنّ دفن النبيّ في بيت عائشة كان قراراً ناتجاً عن دهاء، يخدم غاية في نفس أبي بكر، لم ينتبه الناس إليها، ولعلّهم غُلبوا فيها على أمرهم غَلْباً، وقُهروا قَهْراً. فأبو بكر، مثلما تَملّكَ الخلافة من قِبَلِ نفسه، فأخذَها من أهلها حتى قيل اغتصبها اغتصاباً[977]، تملّك النبيّ وتفرّد به ولم يُشركْ فيه أحداً. وقد حصُل له ذلك بفضل ما استدعى من آيات وأحاديث كانت معه ولم تكن مع غيره. وحصُل له ذلك أيضاً بفضل تأكيده على أمر الصُّحبة والأولويّة في الإسلام والصلاة بالناس بأمر النبيّ. وإنّ المتتبّع للأخبار وإنْ اختلفت إلى حدّ التضارب، لَيقفُ على خيط رابط واحد، يُمسك به أبو بكر وحدَه ولا يُفرّط فيه أبداً. فأبو بكر أعلن موت النبيّ بصفة رسميّة لمّا اختلف الناس في الأمر، رغم أنّه كان آخر الناس دخولاً على النبيّ المسجّى وكان غائباً لمّا قُبض. وأبو بكر ترك النبيّ مُسجّى وراح يُعالج أمر الخلافة ولا أحد تجرّأ ودخل على النبيّ وقرّر تجهيزه ودفنه. وأبو بكر تكلّم على لسان النبيّ المُتوفّى بما تأتّى من آيات وأحاديث ولا أحد فعل ذلك غيره. وأبو بكر شغل الناس عن كلّ المناسك، ولا أحد أتى مَنسكاً وإنْ كان تجهيز النبيّ ودفنه، ولم يشرعوا في ذلك إلاّ بعد أنْ بويع لأبي بكر، وإنْ استغرق ذلك ثلاثة أيّام كاملة. وأبو بكر وحدَه قرّر مكان الدفن. فهذه الأشياء كلّها تدلّ على أنّ أبا بكر تملّك وحدَه محمّداً وإرثه، قرآناً وسنّة وما أفاض الله عليه من فَدَك وخيْبر، ومنع غيره ميراثه، وإنْ كان العبّاس عمّه أو فاطمة ابنته. وهي لعَمري صورة ناطقة بهذا التملّك.

إذا كان ذلك كذلك، فإنّ دفن النبيّ في بيت عائشة، وهي ابنة أبي بكر، نهايةٌ في التملّك بجعل النبيّ متاعاً خاصّاً لا عامّاً. فأبو بكر أخرج النبيَّ من الملكيّة المشتركة إلى الملكيّة الفرديّة. ومَن ذا الذي يَجرُؤ ويدخل على النبيّ في بيت عائشة؟ لو فعل فاعلٌ ذلك لرُميَ بتُهمة الدخول على امرأة حَصَانٍ في بيتها، ضُرب عليها الحجاب وجُعلت أمّاً للمؤمنين، لا تطولها الأبصار ولا يُسمع صوتُها إلاّ من وراء حجاب. وقد برّرت عائشة دفن النبيّ في بيتها بشيء من الذي ذكرنا، فأخبرت أنّ القبر جُعلَ في بيتها خشيةَ أنْ يَحتكّ به الناس فيفتتنوا به ويتّخذوه مَسجداً لو أُبرز لهم في مقبرة أو مَسجد[978].

ويبدو، والله أعلم، أنّ حظر الدخول على النبيّ مقبوراً في بيت عائشة قد شمل الناس أجمعين، بما في ذلك آل البيت وابنته فاطمة على وجه الخصوص. ففاطمة لم تبك أباها عند قبره بل في منزلها أوّلاً، ثمّ في بيت الأحزان من بعدُ، وكان عليّ بناه لها هنالك في البقيع عند المقبرة، لمّا أزعجت أهل المدينة بالعويل والبكاء وأقضّت مضاجعهم وأضرّت بأعمالهم. كانت تخرج كلّ يوم إلى بيت الأحزان فتبكي أباها بين قبور الخلق لا عند قبره[979]، ولو مُكّنت من مكان عند قبره لما بكته هناك بين قبور الآخرين!

كان التستّر على القبر ومنع الناس من الدخول عليه والشكوى لديه والافتتان به أو التظاهر سياسة مدروسة ودهاء عربيّاً أصيلاً، فظلّ النبيّ محظوراً على الخلق. وإنّ اختلاف الناس في وصف قبره لدليل على الجهل بالقبر. ففي حين رآه بعضُهم مُسنّماً، رآه غيره لا مُشرفاً ولا لاطئاً، مبطوحاً ببطحاء العرصة الحمراء، ورآه آخرُ مُسطّحاً عليه الحصباء، ورآه رابعٌ له نَبَتٌ مقدار شبر، ورآه خامسٌ مُستطيلاً مُرتفعاً، وهلمّ جرّا[980].

وظلّ قبر النبيّ مجهولاً ومهجوراً حتى قُبضت عائشة وكلّ أزواج النبيّ، وألحقت البيوت بالمسجد. كان ذلك سنة ثمانٍ وثمانين للهجرة، بعد وفاة النبيّ بأكثر من قرن إلاّ ربع قرن على وجه التحديد، لمّا «أمر الوليد بن عبد الملك بهدم مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهدم بيوت أزواج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإدخالها في المسجد، فأرسل إلى عُمر بن العزيز بكتاب يأمره بإدخال حُجر أزواجِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مسجد رسول الله، وأنْ يشتري ما في مُؤخّره ونواحيه حتى يكون مائتيْ ذراع في مائتيْ ذراع [...] وفي هذه السنة ابتدأ عُمر بن عبد العزيز في بناء المسجد[981].»

بعد إعادة البناء وهدم البيوت وإدخال تُربتها في المسجد خرج قبر النبيّ من الفضاء الخاصّ إلى الفضاء العامّ وصار النبيّ ملكاً مُشاعاً بين الجميع، خاصّةً وعامّةً ورعاعاً من غير تمييز. مع انطلاق هذا العهد الجديد عرف القبر الزيارة والزوّار، وبدأ التمجيد والتقديس، وصاغ المخيال الشعبي القصص، وصار النبيّ في ظرف قرنين من الزمن قصّةً من أساطير الأوّلين التي حاربها القرآن وحاربها النبيّ. ولكن تلك قصّة أخرى حدّثناكم عنها في غير هذا الكتاب، فاطلبوها هناك إنْ شئتم[982]، والله وليّ التوفيق.

19

كان دَفنُ النبيّ بمثابة الإعلان الرسمي عن شغور المنصب. وكان أبو بكر جاهزاً لتولّي المنصب الشاغر. تهيّأ للأمر مدّة ثلاثة أيّام كاملة. حاور وخاصم وغالب فغلبَ وبُويعَ له. تصدّى للطامعين في المنصب من الأنصار. فرّق اجتماع عشائر المهاجرين إلى زعمائها. قضى على تحرّكات أهل البيت وبني هاشم. ردّ المتطلّعين إلى إرث النبيّ. تمّ له ذلك والنبيّ في البيت مُسجّى، وكأنّ الحكم للنبيّ لا له، أو كأنّه يعمل تحت إمرة النبيّ، بفضل ما يتلو من آيات ويروي من أحاديث ويُكرّس من قيم. ولمّا كان جاهزاً أَذِنَ بالدفن، إذ لا حُكمَ له ما دام النبيّ فوق الأرض لا تحتها.

قُبر النبيّ فخلا الجوّ لأبي بكر فقام يحكم. تلك عادة من عادات الناس القديمة، لا يتولّى السلطان الجديد مقاليد الحكم إلاّ إذا تمّ الإعلان الرسميّ عن شغور المنصب، وهذا لا يكون إلاّ بالدفن. وكم من سُلطان مات وخفي موته على الناس، دام ذلك ما دام، حتى يُجهّز للأمر، ويُختار السلطان مكانه، ويُقضى على المعارضة، ويستتبّ الأمن، فيُدفن عندها السلطان الميّت، وينطلق السلطان الجديد في الحكم، وقد نادى المنادي: مات الملك، يحيا الملك[983].

كان أبو بكر خلال الأيّام الثلاثة الماضية حاكماً بالقوّة، فلمّا دُفن النبيّ صار حاكماً بالفعل، وانتقل مِمّا كان يُمكن أنْ يكون إلى ما كان. والمرحلتان متلازمتان، وهما ضروريتان للحُكم. فقد جُعلت المرحلة الأولى لاكتشاف البطل وإكسابه الشرعية تمهيداً للمرحلة الثانية التي يتمّ فيها النهوض بالحكم.

كان أبو بكر الصدّيق عند انطلاق القصّة صحابيّاً من بين الصحابة، لا شيءَ يُؤهّله، أكثر من غيره، للاضطلاع بخلافة النبيّ. فكان لا بدّ من الانتقال به من حالة إلى حالة، من الجهل به إلى المعرفة، من العموم إلى الخصوص، من

الاشتراك إلى التميّز. كان لا بدّ أنْ يُصيب التغييرُ أبا بكر فيُصبح آخر. وقد أصابه التغييرُ على أكثر من وجه. اسمعْ تَرَ:

تُغيّب القصّة أبا بكر زمن احتضار النبيّ وقبضه، فلا هو شاهد عُنف الردى المسلّط عليه وسكرات الموت وابتلاء النبيّ أشدّ البلاء[984]، ولا هو شارك في لَدّه مثل غيره[985]، ولا هو حضره ساعة لفظ آخرَ أنفاسه. كان في ذلك الوقت في صائفه بالسُّنح عند بنت خارجة[986]، حيث الحياة لا الموت، فلم يرتبط بأحوال الميّت أبداً. بل إنّ القصّة تُغالي في ذلك أحياناً فتجعله لا يأتي المدينة إلّا بعد ثلاثة أيّام[987]، وأحياناً تجعله لا يحضر موكب الدفن إطلاقاً[988]. فإذا أبو بكر قائم على أمر الحياة في حين اشتغل غيره بأمر الموت، مثل عليّ بن أبي طالب وبني هاشم[989]. وقد أغرقت القصّة عليّاً في عالم الموت حتى جعلته على أمر تجهيز النبيّ ودفنه ثلاثة أيّام كاملة، وغيّبته بالكلّية من المفاوضة على الخلافة. ومن القصص ما غيّبت الناس زمن احتضار النبيّ ولفظ أنفاسه الأخيرة والصلاة عليه وتجهيزه ودفنه، وجعلت عليّاً وحده يحضر الاحتضار ثمّ يصلّي عليه ويجهّزه ويدفنه. وهي لم تكتف بذلك بل جعلت عليّاً يلتقط روح النبيّ الخارجة من جسده ويمسح بها وجهه[990]، فيزداد التماهي بينه وبين الميّت، ويقوم على أمر الموت، فإنْ لم يقم على أمر الموت قام على أمر القرآن بالجمع[991]، وهي صورة أخرى من صور إبعاده عن أمر الدنيا والخلافة، والزجّ به في عالم الموت والآخرة.

وبيناً غلّقت القصّة الباب على عليّ وجعلته تبعاً لميّت، فتحت الباب على مصراعيْه أمام أبي بكر ليصول صولاته ويجول جولاته ويُبرز أحقّيته بالخلافة، ويكتسب الشرعيّة اللازمة. وقد حصل له ذلك بفضل ما أظهره من معرفة بأمور الدين والأمّة ولم يكن من قبلُ بارزاً فيها، وإنّما كانت تُنسب إلى عليّ. فأبو بكر لم يكن في حياة النبيّ قد اشتهر بعلم أو بلاغة أو قضاء، ولم يكن راوية للحديث ولا مُفسّراً للقرآن ولا عارفاً بالتاريخ ولا سيفاً سلّيطاً على المشركين. وهذه الأمور كانت جميعاً مع عليّ[992]. فلمّا قُبض النبيّ وانشغل عليّ بما انشغل به، بيّن أبو بكر جدارته وانتصب يُفتي في الموت الذي يضرب الأنبياء، والدفن الذي يكون حيث القبض، والخلافة التي لا تكون إلّا في قريش ولا تجتمع مع النبوّة في بيت. كذلك انتقل أبو بكر من حال الجهل إلى

حال العلم، فاستحقّ ما سعى إليه. وحتى لا يترك صُراخاً لصارخ تحدّى القوم أجمعين، وصاح فيهم بأنّه أحقّ بهذا الأمر منهم لسابقته في الصحبة والإسلام والصلاة[993]، وصاح في عليّ بأنّه كان في هذا الأمر قبله[994]، وأمره بالطاعة والانسياق لما انساق له الناس.

وإذ بيّن أبو بكر جدارته في الجدال، وقدرته على الإقناع، ومعرفته بالقرآن والحديث، وقُربه من النبيّ الذي غادر الحياة، قضى بالكلّية على أبي بكر القديم الذي كان رقيقاً أسيفاً أوّاهاً مُنيباً بكّاء[995]، ودشّن للمرحلة الثانية، مرحلة الحكم، وقام يحتفي بأبي بكر الجديد خير احتفاء، فذبح الذبائح لمّا رأى اجتماع جمهور الناس له، وقَسَمَها قسْماً وأرسلها إلى نساء المهاجرين والأنصار لا يستثني واحدة. وقد قبلت النساء عطاءه إلاّ «عجوز من بني عديّ ابن النجّار ردّت عليه قسْمه الذي قسَمه لها، وقالت: أتُراشونني عن ديني؟ أتخافون أنْ أدَعَ ما أنا عليه؟ فوالله لا آخذ منه شيئاً أبداً[996].» كانت من شيعة عليّ، ولا شكّ، فلم تنفع معها الرشوى، فتركوها على أمرها وسكتوا عنها مخافة أنْ تنتشر العدوى، وقاموا يُكرمون بغير حساب كلّ الذين ساهموا في اجتماع الناس لأبي بكر، وخاصّة مَعن بن عديّ وعُويم بن ساعدة اللذيْن وطّآ له الطريق وكانت الأنصار عنّفتهما أشدّ التعنيف[997].

ذلك هو أبو بكر الجديد! ها هو قد وصل، فانتظروه!

20

تناسى الناسُ في المدينة، خلال ثلاثة أيّام ولياليهنّ، نبيّهم المسجّى بالبيت، وتركوه لأهله من النساء والعبيد والموالي والإماء، واهتمّوا بشؤون الخلافة. ولمّا اطمأنّوا على الخلافة واستتبّ لهم الأمرُ عادوا إلى نبيّهم وتعهّدوه بالتجهيز والدفن وواروه التراب. كان ذلك آخر عهدهم بالنبيّ، وانصرفوا إلى حاجاتهم لا يلوون على شيء. أقبلوا على الحياة الدنيا التي حُرموها دهراً. نسوا العسكر الذي جنّدهم النبيّ فيه للخروج إلى حرب الروم حيث كان الموت يترصّدهم. نسوا الجُرف. نسوا أسامة الذي وضعهم النبيّ، رحمه الله، تحت إمرته، وكان غلاماً لا عهد له بالقيادة ولا يصلح للإمارة ولم يكن شريفاً مثلهم. قبروا حرب الروم مع النبيّ، ولله الحمد.

فاجأهم أبو بكر.

خرج المنادي ينادي: «ليتمّ بعث أسامة، ألا لا يبقينّ بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلاّ خرج إلى عسكره بالجرف[998].»

بُهت الناس في المدينة! تسلّحوا بالتعلاّت الكثيرة. تقاعسوا عن الخروج. جاؤوا أبا بكر يقولون: «إنّ هؤلاء جلّ المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أنْ تُفرّق عنك جماعة المسلمين. فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننتُ أنّ السباع تخطفني لأنفذتُ بعثَ أسامة كما أمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته[999].»

أصابهم الدوار! لاذوا بعُمر يتوسّلون به إلى أبي بكر. أرسلوه إليه في مهمّة يقولون: «إنْ أبى إلاّ أنْ نمضي فأبلغه عنّا واطلب إليه أنْ يُولّيَ أمرنا رجلاً أقدمَ سنّاً من أسامة. فخرج عُمر وأتى أبا بكر وقال: إنّ الأنصار أمروني أنْ

أُبلّغك وأنّهم يطلبون إليك أنْ تولّي أمرهم رجلاً أقدمَ سنّاً من أسامة. فوثب أبو بكر وكان جالساً، فأخذ بلحية عُمر فقال له: ثَكلتْك أمُّك وعدمتْك يا ابن الخطّاب، استعمله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتأمرني أنْ أنزعَه. فخرج عُمر إلى الناس، فقالوا له: ما صنعتَ؟ فقال: امضوا، ثَكلتْكم أمّهاتُكم[1000]، فطأطؤوا الرؤوس وخرجوا تحت إمرة أسامة إلى حرب الروم، وقد أيقنوا أنّ أبا بكر قائد، لا يلين ولا يتردّد، يتّبع المنهج الذي خطّه النبيّ ويرسم للناس معالم الطريق إلى السلف الصالح.

دخلت المدينة تحت إمرة أبي بكر ولم تخرج عن سلطانه.

وبيناً كان أبو بكر يُركّز على المدينة سلطانه ويُرتّب أمر العسكر للخروج إلى حرب الروم التي اشتهاها الرسول، كانت الحواضر في الجزيرة قد شقّت الطريق إلى الخروج عن الطاعة وأقامت الأفراح احتفاء بموت النبيّ، وكانت النساء أكثر الناس احتفاء. وقد روت الأخبارُ في ذلك العَجبَ العُجاب بما يفيد هذا الكتاب. روت الأخبار أنّ النساء من بنات الأشراف من كندة وحضرموت، كُنّ يتمنّيْن موت النبيّ ويَتضرّعنَ ويَبتهلنَ لتُرفع عنهنّ الغُمّة بموته إنْ مات، فلمّا مات النبيّ خَضبنَ أيديهنّ بالحنّاء ولبسن أجود الثياب وضربن بالدفوف. وبيناً هنّ كذلك انضمّت إليهنّ الحرائر وبغايا حضرموت وفَعلنَ مثل الذي فَعلنَ، فخضبن ولبسنَ وضربن بالدفوف. وقد بلغ عدد اللواتي اجتمعن إلى أولئك النساء نيفاً وعشرين امرأة، كنّ مُتفرّقات في قرى حضرموت، منهنّ العُمردة وهُنيْدة من الأشراف، ومن غير الأشراف التّيْحاء وأمّ شراحيل وحَبرة وفُريضة ومَلْكة وأسماء ومَلْكة الأخرى وابنة الأودح وأمّ معدان وامرأة من تنعة، شريفة لم تُسمّها الأخبار، وهرّ بنت يامن اليهودية التي كان يُضرب بها المثل في الزنا فيُقال: أزنى من هرّ[1001].

في قرى اليمن السعيد، أقامت النساء، حَرائرَ وقياناً وعَواهرَ، الأفراح، وانطلقت الحناجر بالغناء، تُنشد العِتْق من الإسلام، وتُشيع بين الناس ألاّ خوف وقد مات النبيّ، جراءة منهنّ على الله، واستخفافاً بحقّه وحقّ رسوله. ولَوْلا أبو بكر تصدّى لتخضّبت كلّ نساء المملكة ولبسن وتزيّنّ وضربن بالدفوف وغنّيْن أحسن الغناء. لَوْلا أبو بكر تصدّى لصارت المملكة أنشودة للحياة الدنيا وغاب الزهد والتزمّت والآخرة. لَوْلا أبو بكر تصدّى لمات

الإسلام بموت النبيّ. عرض للنساء وأوقف فيهنّ إلى الأبد الرغبة في الانعتاق من قيد الإسلام. أرسل إليهنّ جُنده من رجال المسلمين، فقطعوا أياديهن التي تخضّبت بالحنّاء وصفّقت وضربت بالدفوف، وجذموا ألسنتهنّ التي تفوّهت بالكلام الذي يُنشد الحرّية، وفي ذلك إساءةٌ إلى الدين وإجرامٌ في حقّ الرسول.

سكتت أصوات النساء إلى أبد الآبدين.

كان ذلك آخر عهد الناس بسعي النساء إلى الانعتاق من رِبْق الإسلام وسُؤدد الرجال. وعادت النساء إلى حظيرة النساء، وخَلُدَ ذكر أبي بكر الصدّيق.

وخَلُدَ ذكر أبي بكر كذلك بفضل الحروب التي خاضها في الأمصار والأقطار وقد شقّت الطريق إلى العصيان بوفاة الرسول. فإذا الأرض قد كفرت وتصرّمت، وإذا كلّ قبيلة إلاّ قريشاً وثقيفاً قد ارتدّت[1002]، وإذا العرب قاطبة قد ارتدّت إلاّ أهل المسجدين[1003]، وإذا النفاق قد نجم واشرأبّت اليهود والنصارى[1004]، وإذا الناس قد امتنعوا عن أداء الزكاة إلى أبي بكر، وإذا الصلاة قد توقّفت في الأحياء[1005].

كان أبو بكر، كعادة أبي بكر في كلّ أمر، جاهزاً لينقضّ على العدوّ حيث كان العدوّ، ويبطش به شرّ بطش: «حلف أبو بكر ليقتلنّ فيهم كلّ قتلة وليقتلنّ في كلّ قبيلة بمَن قتلوا من المسلمين وزيادة[1006]» وأرسل الجند في أرض الله الواسعة يردّ الناس إلى دين الله الذي رآه لا يتمّ إلاّ بأداء الزكاة، فقتّل وسبى وشرّد مَنْ لم يُؤدّها حتى وإنْ قال: لا إله إلاّ الله، ولمّا أنكر الناس عليه ذلك، «قال: والله، لأقاتلنّ مَن فرّق بين الصلاة والزكاة، والله، لو منعوني عَناقاً كانوا يُؤدّونها إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لقاتلتهم على منعها[1007].»

خاض أبو بكر الحروب ضدّ كلّ رافض أنْ يُؤدّي له الزكاة، وتَسمّتْ حُروبُه حُروبَ الردّة إذ اعتُبر الخروج عن أمر الخليفة ارتداداً عن الإسلام ومُروقاً على الدين والله والرسول[1008]، فأدّى الناس الزكاة إلى الخليفة مثلما كانوا يؤدونها إلى الرسول، وإنْ كرهاً، وحكم الخليفة في الناس كأنّه الرسول، وأكثر.

روت الأخبار في غير اقتصاد أنّ هذه الخلافة ذاع صيتها واشتهر أمرها باجتماع أبي بكر وعُمر فيها يداً واحدة، وشكّلا زوجاً لا يقبل الانفصام، فكالا لأهل البيت الكُره كيلاً عظيماً، ومنعا عنهما الزيارة والتعظيم، وشدّدا الخناق على الناس أجمعين، فهابهما الناسُ، وخافوا أنْ يعرضوا لهما، ولم يتجاسروا حتى على ذكر اسميْهما إذا ما أرادوا القدح فيهما أو نقدهما، فاتّخذوا التقيّة في الكلام لبوساً، وأشاروا إليهما في الحديث عنهما بلقبيْن نَبْزاً ولَمْزاً، سُبحان الله كيف وجدوهما، وهما: زُفَر وحَبْتَر. أمّا زُفَر فهو عُمَر لموافقة الوزن، وأمّا حَبْتَر فهو أبو بكر لمشابهته لِحَبْتَر وهو الثعلب في الحيلة والمكر[1009]. ولكن تلك قصّة أخرى، وحلقة جديدة من إسلام النشأة المفقود، سنخصّها بكتاب إذا ما رأيتم في ذلك فائدة. أمّا الآن فاسمحوا أنْ نَختمَ الكلام، وأنْ نَعتذرَ لحضرات الجناب عن طول الكتاب في زمن صارت الكتبُ فيه قراطيس ليس غيرُ، وأنْ نبتهل ونتضرّع إلى آلهة الكتب عسى أنْ تجدوا فيه بعض مُتعة.

الهوامش

1 - يسمّي عزيز العظمة هذا الإسلام الذي غبر *Paléo-Islam*، كان سابقاً للإسلام الذي نعرفُه، وقام على أنقاضه، وقد يكون استقلّ عنه تماماً. انظر:

al-AZMEH, Aziz, *The Emergency of Islam in Late Antiquity: Allah and his people.*

ملاحظة: نكتفي في الهوامش بذكر اسميْ الكاتب والكتاب ونحيل على قائمة المصادر والمراجع التي احتوت بقيّة المعلومات، مثل دار النشر، ومكانه، وسنته.

2 - أرسطوطاليس، فنّ الشعر، ص26.

3 - ويُمكن أنْ نستدلّ على هذا الأمر بالجدل الذي قام بين هشام جعيّط وهالة الوردي حول تاريخيّة هذا الإسلام. وقد اتّهم المؤرّخ الكاتبة بالتزوير والتلفيق والتطاول على التاريخ وعدم الفصل بين ما هو تاريخيّ وما هو قصّة وأسطورة، واتّهمته بسعيه إلى احتكار التاريخ وصدّ الناس عنه في حين أنّ التاريخ أمر مشاع ومُباح للجميع، واعتبرت أنّ ما تكتبه حول الإسلام الأوّل هو تاريخٌ من صُلب التاريخ، ولعنها ولعنته، وانضمّ إليه فريق يقول قوله، وانضمّ إليها فريق يقول قولها. انظر مقال هشام جعيط في جريدة الصباح (تونس) بتاريخ 24 أفريل 2019 وردّ هالة الوردي هناك بتاريخ 27 أفريل 2019. وانظر كذلك المقالات الأخرى المساهمة في الجدل في الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي بعد ذلك التاريخ.

وإنّ الناظر في مؤلّفات هشام جعيّط وهالة الوردي يقف على اندراجهما بالكلّية في الثقافة العربية الإسلامية التي لا تفصل بين ما كان فعلاً وما كان يُمكن أنْ يكون، ولا تستقيم إلاّ في ظلّ الجمع بين الحدث والخبر الذي يُؤطّره ويقوم له سنداً والقصّة التي تخلّده. انظر:

هشام جعيط، **في السيرة النبوية، -1 الوحي والقرآن والنبوّة؛ في السيرة النبوية، -2 تاريخية الدعوة المحمّدية في مكّة**. وانظر كذلك:

DJAÏT, Hichem, *La Grande Discorde.*

OUARDI, Hela, *Les derniers jours de Muhammad* ; *Les Califes maudits,* * *La déchirure.*

4 - وإذ كان إسلام النشأة المفقود لا يقتصر على هذه الأيام الثلاثة المرويّة في هذا الكتاب، بل كان قبلها مدّة «عشرين سنة أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين على حسب الخلاف في مدّة إقامته صلّى الله عليه وسلّم بمكّة بعد البعثة» [جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، م1، ج2، ص39]، وكان بعدها مدّة أربعين سنة أو خمسين، وهي المدّة التي قد تكون استغرقتها الخلافة الراشدة وشيء من الخلافة الأمويّة التي نشأت في ظلّها، فإنّ السقيفة سيتبعها كتاب في ما كان قبلها، وكتاب في ما كان بعدها، فيتشكّل بذلك إسلام النشأة

المفقود ثلاثيّة لا تقبل الانفصال، خضعت لمنظومة فكرية واحدة قوامها المخيال والميث والأسطورة والقصّة الجميلة.

5 - انظر أوصاف هؤلاء الأنبياء وأخبارهم ومراتبهم في السموات السبع، في كتب تفسير القرآن، تفسير سورة الإسراء 17، مثلا في: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص ص12-21؛ الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م8، ص ص3-16. وانظر كذلك: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص ص213-216.

6 - «[...] عن أنس بن مالك قال: لمّا قُبضَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أظلمت المدينة حتّى لم ينظر بعضُنا إلى بعض، وكان أحدنا يبسط يده فلا يراها ولا يُبصرها، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص295، وانظر كذلك: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص274.

7 - «[...] عن سعيد بن المسيّب قال: لمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ارتجّت مكّة، فقال أبو قحافة: ما هذا؟ قالوا: قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قال: فمَن وَليَ أمر الناس بعده؟ قالوا: ابنك. فقال: أرضيَ بنو هاشم وبنو عبد شمس وبنو المغيرة بذلك؟ قالوا: نعم. قال: فإنّه لا مانع لما أعطى الله، ولا مُعطي لما منع»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص272-273. وانظر كذلك: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص228.

8 - «[...] عن عائشة قالت: كنّا نُحدّث أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا يموت»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص218-219.

9 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص252.

10 - «عن الواقدي، عن عبد الحميد بن عمران، عن أبيه، عن أمّه، قالت: كنتُ ممّن دخل على النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو على سرير، فكنّا صفوفاً ندعو ونصلّي، فرأيتُ أزواجه قد وضعن الجلاليب عن رؤوسهنّ يلتدمن في صدورهنّ، ونساء الأنصار يَضربن الوجوه فذُبحتْ حُلوقُهنّ من الصياح»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص252.

11 - **الحجّ 22/ 27**.

12 - الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م9، ص134.

13 - ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص210، في تفسير **الحجّ 22/ 27**.

14 - الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م9، ص134.

15 - «عن أبي ذُؤيب الهُذَليّ قال: حتى إذا كنتُ بالغابة زجرتُ الطائر فأخبرني بوفاته. ونَعَب غرابٌ سانحٌ فنطق مثل ذلك»، عبد الرحمان السهيلي، **الروض الأنُف**، ج7، ص592.

16 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص ص28-29.

17 - ابن تيمية، **أهل الصُّفّة وأحوالهم**، ص18.

18 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص280. ورَتَجَ الباب وأَرْتَجَهُ أغلقَه، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة رتج.

19 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص267.

20 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص75.

21 - «عن عائشة رضي الله عنها وغيرها من الصحابة أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا قُبض وارتفعت الرنّةُ وسَجّى رسولَ الله الملائكةُ، دُهش الناسُ وطاشت عقولهم وأفحموا واختلّوا. فمنهم مَن خُبِلَ، ومنهم مَن أُصْمِتَ، ومنهم مَن أُقْعِدَ إلى أرض. فكان عُمر ممّن خُبِلَ وجعل يصيح ويحلف: والله ما مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، عبد الرحمان السهيلي، **الروض الأُنُف**، ج7، ص585.

22 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص241-242. والمُدَلَّهُ الساهي القلب، الذاهب العقل مِن عشق ونحوه، أو مَن لا يحفظ ما فَعلَ أو ما فُعلَ به. والوَلَهُ الحزن أو ذهاب العقل حُزناً والحيرة والخوف، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادّتيْ: دله، وله.

23 - ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص43.

24 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص271. عادة ما لا يصدّق الناس هلاك الهالك، فيسعون إلى رؤية الميّت للتأكّد. انظر كتاب:
CRUBÉZY, Éric, *Aux origines des rites funéraires : voir, cacher, sacraliser*.

25 - عبد الرحمان السهيلي، **الروض الأُنُف**، ج7، ص591.

26 - «وروى الواقدي بإسناد له أنّ عُثمان رضي الله عنه قال: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يمت، ولكنّه رُفع كما رُفع عيسى ابن مريم»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص242.

27 - «عن عائشة رضي الله عنها وغيرها من الصحابة أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا قُبض وارتفعت الرنّةُ وسَجّى رسولَ الله الملائكةُ، دُهش الناسُ وطاشت عقولهم وأفحموا واختلّوا. فمنهم مَن خُبِلَ، ومنهم مَن أُصْمِتَ، ومنهم مَن أُقْعِدَ إلى أرض [...] وكان ممّن أُخْرِسَ عُثمان بن عفّان حتى جُعلَ يُذهَبُ به ويُجاءُ، ولا يستطيع كلاماً. وكان ممّن أُقعد عليّ رضي الله عنه، فلم يستطع حراكاً. وأمّا عبد الله بن أُنَيْس فأُضنيَ حتى مات كَمداً»، عبد الرحمان السهيلي، **الروض الأُنُف**، ج7، ص585.

28 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص267. والآسِن من الماء الآجنُ، الماء المتغيّر الطعم واللون. أَسِنَ: دخل البئر فأصابته ريحٌ مُنْتِنَة فغُشيَ عليه، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادّة أسن، مادة أجن.

29 - الزّهري، **المغازي النبويّة**، ص133.

30 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص271.

31 - «[...] عن سالم بن عُبيد، وكان من أهل الصُّفّة، أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم لمّا توفّي، وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبيّ قبله، قال عُمر: لا يتكلّم أحد بموته إلاّ ضربته بسيفي هذا»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص227.

32 - الحاشر من أسماء النبيّ: « [...] أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: لي خمسة أسماء، أنا مُحمّد وأحمد، وأنا الماحي يمحو بي الله الكفر، وأنا الحاشرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قَدَمي، وأنا العاقب»؛ «فأمّا حاشر فبُعث مع الساعة نذيراً لكم بين يديْ عَذابٍ شديد»، ابن

سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص105. وانظر كذلك: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج3، ص ص18-25.

33 - مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في فتح قسطنطينية وخروج الدجّال ونزول عيسى ابن مريم، الأحاديث: 2897-2902، ج4، ص ص2221-2227؛ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص ص547-552، ج3، ص ص15، 17، 22، 190-191؛ رجاء بن سلامة، **الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومُسلم**، ص ص75-77؛ وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ص674-683. وانظر كذلك:

CASANOVA, Paul, *Mohammed et la fin du monde*, p. 8 ; *Encyclopédie de l'Islam*, t. 2, pp. 77-78, article : *al-dadjdjâl*, (A. Abel)

34 - «وشمتت اليهود والنصارى بأهل الإسلام، وظهر النفاق في المدينة ممّن كان يُخفيه قبل ذلك»، الواقدي، **كتاب الردّة**، ص28.

35 - «كانت عائشة تقول: لمّا تُوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ارتدّ العرب، واشرأبّت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم حتى جمعهم الله على أبي بكر»، ابن هشام، **السيرة النبوية**، م3، ج6، ص88.

36 - «إنّ رسول الله كان يُخوّفهم بعذاب الدنيا تارة، وهو القتل والاستيلاء عليهم كما حصل في يوم بدر، وتارة بعذاب يوم القيامة، وهو الذي يحصل عند قيام الساعة. ثمّ إنّ القوم لمّا لم يُشاهدوا شيئاً من ذلك احتجّوا بذلك على تكذيبه، وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب، وقالوا له: ائتنا به. ورُوي أنّه لمّا نزل قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر 54/ 1] قال الكفّار فيما بينهم: إنّ هذا يزعم أنّ القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلمّا تأخّرت قالوا: ما نرى شيئاً ممّا تُخوّفنا به، فنزل قوله ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء 21/ 1] فأشفقوا وانتظروا يومها، فلمّا امتدّت الأيام قالوا: يا محمّد ما نرى شيئاً ممّا تُخوّفنا به، فنزل قوله ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل 16/ 1] فوثب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ورفع الناس رؤوسهم، فنزل قوله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل 16/ 1] والحاصل انّه عليه السلام لمّا أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يَروْا شيئاً نسبوه إلى الكذب»، الرازي، **مفاتيح الغيب**، م10، ج19، ص ص173-174 [تفسير سورة **النحل 16**]. وانظر كذلك: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م7، ص ص556-557.

37 - تتفق الروايات على أنّ أبا بكر كان خارج المدينة بالسُّنْح يوم توفّي النبي ولم يشهد موته إنّما جاء بعد ذلك. انظر مثلاً: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص265. ويذهب الطبري في بعض أخباره المنقولة إلى أنّه جاء بعد ثلاثة أيام: «لمّا قُبض النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث ولم يجترئ أحد أن يكشف عن وجهه حتى اربدّ بطنه، فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص443.

38 - «سُنح: بضمّ أوّله وسكون ثانيه وآخره حاء مهملة، إحدى محالّ المدينة، كان بها منزل أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، حين تزوّج مُليكة، وقيل حبيبة بنت خارجة بن زيد بن زهير بن

مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج من الأنصار، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة، وبينها وبين منزل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ميل»، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، م3، ص265.

39 - تذكر الأخبار أنّ أبا بكر الصدّيق ظنّ أنّ النبيّ قد تعافى فاستأذنه في الخروج إلى أهله، ومات النبيّ بعد خروجه: «فلمّا فرغ رسول الله من كلامه، قال له أبو بكر: يا نبيّ الله إنّي أراك قد أصبحتَ بنعمة من الله وفضلٍ كما تُحبّ، واليوم يوم بنت خارجة، أفآتيها؟ قال: نعم. ثمّ دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنح»، ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص71. وانظر كذلك: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص215؛ الواقدي، **كتاب المغازي**، ج3، ص1120.

40 - «[...] عن سالم بن عُبيد وكان من أهل الصُّفّة، قال: لمّا تُوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قام عُمر بسيفه مخترطه، فقال: والله لا أسمع أحداً يقول: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مات إلاّ ضربته بسيفي هذا. قال سالم فقيل لي: اذهب إلى صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فادعه. فذهبتُ فوجدتُ أبا بكر، فأجهشتُ أبكي، فقال: لعلّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تُوفّي؟ فقلت: إنّ عُمر ليقول: لا أسمع أحداً يذكر وفاته إلاّ ضربتُه بسيفي، فأقبل يمشي حتى أتى رسول الله»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص158.

41 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص237.

42 - «أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يُكلّم الناس حتى دخل على عائشة فتيمّم رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وهو مُسجّى، فكشف عن وجهه ثمّ أكبّ عليه وبكى»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص270.

43 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص75.

44 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص268-269.

45 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص268، 270. والآية هناك: آل عمران 3/ 144.

46 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص444.

47 - «فوالله لكأنّ الناس لم يعلموا أنّ هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنّما هي في أفواههم»، ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص ص75-76.

48 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص267.

49 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص238.

50 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص264.

51 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص241-242.

52 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص263-264. والآيات: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ آل عمران 3/ 144؛ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ الزمر 39/ 30؛ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص 28/ 88؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمان 55/ 26-27؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ آل عمران 3/ 185.

53 - «إنّ عُمر بن الخطّاب قال: واللهِ ما هو إلاّ أن سمعتُ أبا بكر يتلوها فعَقِرْتُ وأنا قائم حتى خررتُ إلى الأرض وأيقنتُ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد مات»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص268. وانظر كذلك: ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص76.

54 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص241-242.

55 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص ص31-32.

56 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص32.

57 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص264.

58 - «[...] عن عائشة قالت: وجاء أبو بكر فقال: ما لرسول الله؟ قلت: غُشيَ عليه منذ ساعة. فكشف عن وجهه ووضع فمه بين عينيْه ووضع يده على صدغيْه ثمّ قال: وانبيّاه! واخليلاه! واصفيّاه! قال الله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر 39/ 30]»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص237.

59 - «[...] عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «لَقَدْ نَزَلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ، وَرَضَاعَةُ الْكَبِيرِ عَشْرًا، وَلَقَدْ كَانَ فِي صَحِيفَةٍ تَحْتَ سَرِيرِي، فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَشَاغَلْنَا بِمَوْتِهِ، دَخَلَ دَاجِنٌ فَأَكَلَهَا»، ابن ماجة، **سُنن ابن ماجة**، كتاب النكاح، باب رضاع الكبير، الحديث: 1944، ج1، ص625. وانظر كذلك: ابن قتيبة، **تأويل مختلف الحديث**، ص ص310-311. والداجن الشاة أَلِفتْ البيوت، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة دجن.

60 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص77.

61 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص456.

62 - «فانطلق أبو بكر وعُمر يتقاودان حتى أتَوَاهم»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص444.

63 - ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص28.

64 - يذهب الواقدي إلى أنّ أبا بكر، لمّا قُبض النبيّ، دعا المسلمين إلى النظر وتدبّر الأمر وتعيين خليفة، ولكنّهم رفضوا ذلك وأجّلوه إلى الغداة، فلم تُجاهر الأطراف بالصراع إلاّ غداة موت الرسول: «ثمّ أقبل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه فقال: [...] ألا وإنّ محمّداً عليه السلام قد مضى لسبيله، ولا بدّ لهذا الأمر من قائم يقوم به، فدبّروا، وانظروا، وهاتوا ما عندكم، رحمكم الله. فناداه الناس من كلّ جانب: نُصبح وننظرُ في ذلك إنْ شاء الله، فانصرف الناس يومهم ذلك. فلمّا كان من الغد انحازت طائفة من المهاجرين إلى أبي بكر رضي الله عنه، وانحازت طائفة من الأنصار إلى سعد بن عُبادة الخزرجي، في سقيفة بني ساعدة، وجلس عليّ بن أبي طالب في منزله مغموماً بأمر النبيّ وعنده نفر من بني هاشم، وفيهم الزبير بن العوام، واجتمع المسلمون من جميع جنبات المدينة يسمعون ما يكون من كلام المهاجرين والأنصار»، الواقدي، **كتاب الردّة**، ص ص31-32.

65 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص192.

66 – البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص215–216، 226. والإذْخِر الحشيش الأخضر، وحشيش ذيّب الريح، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة: ذخر.

67 – ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص262.

68 – البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص237.

69 – ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص260.

70 – ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص75.

71 – ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص ص72–73.

72 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص412.

73 – «[...] عن عائشة، قالت: ما رأيتُ امرأةً أحبَّ إليّ أنْ أكون في مِسْلاخِها مِن سَودة بنتِ زَمعة، مِن امرأةٍ فيها حدّةٌ. لَمّا كبرت جعلت يومها مِن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعائشة. قالت: يا رسول الله قد جعلتُ يومي منك لعائشة. فكان رسول الله يقسم لعائشة يومين، يومها ويوم سودة»، مُسلم، **صحيح مُسلم**، كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرّتها، الحديث: 1085، ج2، ص1085.

74 – «فتزوّجها [= سودة] النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ طلّقها تَطليقةً وكانت قد كبرت. فبلغها ذلك فجمعت ثيابَها ثمّ جَلستْ على طريقه الذي يَخرجُ منه إلى الصلاة. فلمّا دنا منها بكت، ثمّ قالت: يا رسول الله هل غمصتَ عليّ في الإسلام؟ فقال: اللهمّ لا. قالت: فإنّي أسألُك لما راجعتني. فراجعها. فقالت له: يا رسول الله يومي لعائشة في رضاك لأنظرَ إلى وجهك، فوالله ما بي ما تُريدُ النساء، ولكنّي أحبُّ أنْ يَبعثَني اللهُ في نسائك يوم القيامة»، ابن حبيب، **كتاب المُحبّر**، ص80.

75 – «[...] عن عائشة قالت: تزوّجني النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأنا بنت ستّ سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج. فوقعت فتمزّق شعري وقد وفت لي جُمَيْمَة، فأتتني أمّي، أمّ رومان، وإنّي لفي أرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت بي فأتيتها، ما أدري ما تُريد منّي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإنّي لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثمّ أخذت شيئاً مِن ماء فمسّت به وجهي ورأسي، ثمّ أدخلتني الدار. فإذا نسوة مِن الأنصار في البيت فقلن على الخير والبركة، وعلى خير طائر. فأسلمتني إليهنّ فأصلحن مِن شأني، فلم يرعني إلاّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضحىً، فأسلمنني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص ص161–162. «**الجُمَيْمَة** تصغير الجُمّة، والجُمّة مجتمع شعر الرأس»، ابن منظور، **لسان العرب**، مادة جمم.

76 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص258–259.

77 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص260.

78 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص258. وانظر: الحاكم النيسابوري، **المُستدرك على الصحيحين**، كتاب المغازي والسرايا، الحديث: 4386، ج3، ص58.

79 – **الكتاب المقدّس**، العهد الجديد، إنجيل متّى 26/ 39، 42.

80 – **الكتاب المقدّس**، العهد الجديد، إنجيل متّى 27/ 46.

81 - انظر: رجاء بن سلامة، **الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومُسلم**، ص ص63-65.

82 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص435-436. والآيتان هناك: **القصص 28/ 83، الزمر 39/ 60**.

83 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص256.

84 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج6، ص54. والآية: **الواقعة 56/ 35**.

85 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص335.

86 - انظر مثلا: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب المناقب، باب صفة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الأحاديث: 3542-3568، ج2، ص ص514-519؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص ص410-425؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج6، ص ص13-18، والشواهد في نصّنا من هذا الأخير.

87 - انظر قصّة مابور ومارية والدلدل، في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص212-216؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص85-90؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص324-326.

88 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص324-325.

89 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص324.

90 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص325.

91 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عبّاس رضي الله عنهما، الحديث: 3756، ج3، ص33؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص365؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج4، ص ص41-42.

92 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص166.

93 - ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص21.

94 - انظر أخبار السقيفة وتخاصم الناس في البيعة في: ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص ص21-28؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص443-450؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص ص113-116؛ سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص577-599؛ ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص ص21-60؛ أبو بكر الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص ص52-98؛ المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص175-412؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص265-274.

95 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص ص56-57.

96 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص614.

97 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص57.

98 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص614.

99 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص614.

100 - «فكان سَعدٌ لمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبعثُ إليه في كلّ يوم جَفْنَةً فيها ثريد بلحْم أو ثريد بلبن أو ثريد بخلّ وزيت أو بسمن، وأكثر ذلك اللحم، فكانت جفنةُ سَعدٍ تدور مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيوت أزواجه»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص614.

101 - «عن قيس بن سعد قال: زارنا النبي صلّى الله عليه وسلّم في منزلنا فقال: السلام عليكم ورحمة الله»، ثمّ رفع يده فقال: اللهمّ اجعل صلواتك ورحمتك على آل سَعد بن عُبادة [...] وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جزى الله عنّا الأنصار خيراً لا سيما عبد الله ابن عمرو ابن حَرام وسَعد بن عُبادة»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص57.

102 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص614؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص57.

103 - «إنّ أمّ سَعد بن عُبادة ماتت والنبيّ عليه السلام، غائب في غزوة دومة الجندل، وكانت في شهر ربيع الأوّل سنةَ خمس من الهجرة، وكان سعد بنُ عُبادة معه في تلك الغزوة, فلمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال له سَعد: إنّ أمّ سَعد ماتت وإنّي أحبّ أنْ تُصلّي عليها، فصلّى عليها وقد أتى لها شهرٌ»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص614.

104 - ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص ص21-22.

105 - ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص22.

106 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص456، ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص22.

107 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص456.

108 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص456.

109 - العدد ثلاثة يرمز إلى الانتهاء إلى غاية وبلوغ الشيء حدّه وانغلاق الحلقة. انظر:
CHEVALIER, Jean & GHEERBRANT, Alain, *Dictionnaire des symboles*, article : *trois*, t. 4, pp 333-338 ; ALLENDY, René, *Le symbolisme des nombres. Essai d'arithmosophie*, chapitre III, la trinité ou le ternaire, p. p. 39-70..

110 ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص28.

111 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص262.

112 - «قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَن الذين قال الله لهم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة 9/ 108] فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نعم المرءُ مِنهُم عُوَيْم بنُ سَاعدة.» الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص447.

113 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص459-460؛ م4، ص7.

114 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص220.

115 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص272.

116 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص273.

117 - ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص22.

118 – ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادة: سقيفة بني ساعدة، م3، ص ص228-229.

119 – البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف، السيرة النبويّة**، ج1، ص59.

120 – البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف، السيرة النبويّة**، ج1، ص59.

121 – انظر حول النُّعرة والعَصبية: ابن خلدون، **المقدّمة**، ص ص128-130.

122 – الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص54.

123 – الكليني، الكافي، روضة الكافي، الحديث: 455، ج8، ص296.

124 – انظر ترجمة أبي بكر الصدّيق في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص169-213؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص ص51-114؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص205-231؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30 كاملا (462 ص)؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج4، ص ص136-141.

125 – انظر ترجمة عُمر بن الخطّاب في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص265-376؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص ص285-446؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص642-678؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج44 كاملا (483 ص)؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج4، ص ص480-482.

126 – انظر ترجمة أبي عُبيدة بن الجرّاح في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص409-415؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص24-26؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص ص435-491؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص ص482-485.

127 – إذا كرّست الثقافة العربية الإسلامية هؤلاء النفر الثلاثة وتغنّت بهم ورفعتهم إلى مراتب الفخر والشرف والعزّة فذلك راجع إلى أنّها كانت ترصد ملامحهم في الإسلام لا في الجاهلية وترسمها وفق متطلّبات التاريخ المجيد الذي يسعى إلى التغنّي بالذين صنعوا ذلك التاريخ من دون الاهتمام بأصولهم في الجاهليّة وانتمائهم إلى العامّة أو الأشراف.

128 – البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص271.

129 – «كان عُمر ينزل في أصل الجبل الذي يُقالُ له اليومَ جبل عُمر، وكان اسم الجبل في الجاهلية العاقر، فنُسبَ إلى عُمر بعد ذلك، وبه كانت منازلُ بني عديّ بن كعب»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص255-256؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص299.

130 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص409.

131 – ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، ج3، ص70.

132 - LAMMENS, Henri, *La « Triumvirat » Aboû Bakr, 'Omar et Aboû 'Obaida*; DJAÏT, Hichem, *La Grande Discorde*, p.51.

133 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص172.

134 - تذكر الأخبار أنّ أبا بكر، يومَ صاحبَ النبيَّ في الهجرة إلى يثرب، كان معه بعيرٌ واحدٌ رَكِبَهُ، فاشترى النبيُّ بعيراً رَكِبَهُ: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص173.

135 - «فلمّا أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية، وكان يُدعى أسد قريش، فشدّهما في حبل واحد ولم يمنعهما بنو تيْم، فلذلك سُمّيَ أبو بكر وطلحة القرينيْن»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص40.

136 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص266.

137 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص266-267.

138 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص298.

139 - «وبلغ أبا بكر رضي الله عنه عن أبي سُفيان صخر بن حرب أمرٌ، فأحضره وأقبل يصيح عليه، وأبو سفيان يتملّقه ويتذلّل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر، فقال لقائده: على مَن يصيح ابني؟ فقال له: على أبي سفيان. فدنا من أبي بكر وقال له: أَعَلى أبي سُفيان تَرفع صوتك يا عتيق الله، وقد كان بالأمس سيّد قريش في الجاهلية؟ لقد تعدّيْتَ طورَك وجُزْتَ مقدارَك. فتبسّم أبو بكر ومَن حضره من المهاجرين والأنصار، وقال له: يا أبتِ، إنّ الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذلّ به آخرين»، المسعودي، **مروج الذهب**، م1، ج2، ص299. وكذلك: «إنّ الله يرفع مَن يشاء بما يشاء، وإنّ عُمرَ ممّن رفعه الإسلام»، الواقدي، **كتاب المغازي**، ج2، ص821.

140 - انظر أخبار عبد المطلب وهاشم وعبد مناف وقصيّ في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص ص66-95؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، م1، ج1، ص ص233-238؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م1، ج2، ص310-312.

141 - ابن حبيب، **كتاب المُحبّر**، ص ص164-167.

142 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص ص81-94؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص8-12.

143 - «وسُمّي هاشماً لأنّه كان يهشم الثريد مع اللحم لقومه في سنيّ المحلّ لمّا كان قومه مُسنتين عجافاً، وقد سنّ لهم الرحلتيْن، رحلتيْ الشتاء والصيف»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م1، ج2، ص ص310-311. انظر ترجمته في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص ص75-81.

144 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص14-19؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م1، ج2، ص312.

145 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص18.

146 - «خرج عُمر مُتقلّد السيف فلقيه رجلٌ من بني زهرة قال: أين تَعْمِدُ يا عُمر؟ فقال: أريد أنْ أقتلَ محمّداً. قال: وكيف تأمنُ في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلتَ محمّداً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص267.

147 - تذكر الأخبار أنّ آمنة بنت وهب، أمّ محمد، كانت من بني عديّ بن النجّار في يثرب، فكانوا لذلك، حسب المؤرّخين، أخواله، انظر مثلاً: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1،

ص 116. وقد يكون هذا الانتماء وراء هجرته إلى يثرب، انظر مثلاً: ابن هشام، **السيرة النبوية**، م1، ج1، ص305.

148 - «[...] عن عائشة زوج النبي صلّى الله عليه وسلّم قالت: خرج أبو بكر يريد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكان له صديقاً في الجاهلية»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص46.

149 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص37.

150 - انظر مثلا فضائل أبي بكر الصدّيق وعليّ بن أبي طالب، في: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين، الأحاديث: 3654-3678، ج3، ص ص7-14، والأحاديث: 3701-3707، ج3، ص ص21-23؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص19-32، ص ص169-213؛ سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص565-599.

151 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص171.

152 - «قال أبو بكر الصدّيق: ألستُ أحقّ الناس بها؟ ألستُ أوّلَ مَنْ أسلمَ؟ ألستُ صاحبَ كذا؟»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص37. وانظر كذلك: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص ص37-38؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص182؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص267.

153 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص210.

154 - **التوبة 9/ 40**.

155 - انظر مثلا تقديم عليّ بن أبي طالب على غيره من الصحابة والطعن في أولوية أبي بكر الصدّيق، في: سُليم الهلالي، كتاب سُليم، ج2، ص ص565-567؛ ابن شهرآشوب، مناقب آل **أبي طالب**، ج2، ص ص7-27؛ الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص50-70.

156 - ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، **التوبة 9/ 40**. تُعتبر هذه الآية عند السنّة الدليل على الصحبة القائمة بين محمد وأبي بكر. ويعتبر المفسّرون أنّ هذه الآية تروي قصّة خروج محمد وأبي بكر مهاجرَيْن من مكّة إلى يثرب/ المدينة، وأنّ الغار هو غار ثور الذي اختفيا فيه، وأنّ صاحبه تعني أبا بكر، وأنّ السكينة نزلت على أبي بكر الصاحب أو محمد النبي. انظر مثلا: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج6، ص ص374-376؛ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص343.

157 - هناك أخبار كثيرة في كتب السيرة والتاريخ تجعل الرهبان والنسّاك والعلماء مِمّنْ قرؤوا الكتب يستشرفون المستقبل ويُبشّرون بمحمّد نبيّاً: «وكانت الأمم تتحدّث بمبعثه وتُخبرُ علماءُ كلّ أمّة منها قومها بذلك»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص45. وهناك أخبار أخرى تُبشّر في نفس الوقت بمحمّد وأبي بكر معاً. فيكتسب بذلك محمدٌ شرعيةً بوصفه نبيّاً، ويكتسب أبو بكر شرعيةً بوصفه خليفة النبيّ، كما هو مُبيّن في الهامش الموالي.

158 - «قال أبو بكر الصدّيق إنّه خرج إلى اليمن قبل أنْ يُبعَثَ النبي صلّى الله عليه وسلّم، فنزلتُ على شيخ من الأزْد عالم قد قرأ الكتب، وعلم من علم الناس كثيراً، فلمّا رآني قال: أحسبُكَ حرَميّاً؟ قال أبو بكر قلت: نعم، أنا من أهل الحجر. قال: وأحسبُكَ قُرشيّاً؟ قال: قلت: نعم، أنا من قُريش. قال: وأحسبُكَ تيْميّاً؟ قال: قلتُ: نعم، أنا من تَيْم بن مُرَّة. أنا عبد الله بن عُثمان، من ولْد كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة. قال: بقيت لي فيك واحدة. قلت: ما هي؟ قال: تكشف عن بطْنك. قلت: لا أفعل أو تُخبرَني لِمَ ذاك؟ قال: أجد في العلم الصحيح الصادق أنّ نبيّاً يُبعَثُ في الحرم، يُعاون على أمره فَتى وكهلٌ، فأمّا الفتى فخوّاض غمرات ودفّاع مُعضلات، وأمّا الكهلُ فأبيضُ نحيفٌ، على بطنه شامةٌ وعلى فَخِذه اليُسرى علامةٌ، وما عليك أنْ تُريَني ما سألتُك، فقد تكاملتْ لي فيك الصفةُ إلاّ ما خَفيَ عَليّ. قال أبو بكر: فكشفتُ له عن بطني فرأى شامةً سوداءَ عند سُرّتي، فقال: أنتَ هو وربِّ الكعبة، وإنّي مُتقدّم إليك في أمر فاحذره. قال أبو بكر: قلت: وما هو؟ قال: إياك والميلَ عن الهدى، وتمسّكْ بالطريقة المُثلى الوسطى، وخَفِ اللهَ فيما خوّلك وأعطاك»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص208.

159 - «[...] خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أشياخ من قريش فلمّا أشرفوا على الراهب هبطوا فحلّوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت [...] فجعل يتخلّلهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: هذا سيّد العالمين، هذا رسول ربّ العالمين، هذا يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخ قريش: ما علمك؟ قال: إنّكم حين أشرفتم من العقبة لم تبق شجرة ولا حجر إلاّ خرّ ساجداً، ولا يسجدون إلاّ لنبيّ، وإنّي أعرفه بخاتم النبوّة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة [...] أنشدكم الله أيّكم وليّه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يُناشده حتى ردّه وبعث معه **أبو بكر رضي الله عنه بلالاً** وزوّده الراهب من الكعك والزيت»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص33-34. وقد وردت هذه القصّة في مصادر أخرى منها: ابن كثير، **البداية والنهاية**، م1، ج2، ص ص347-348، والترمذي، **الجامع الكبير**، كتاب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الحديث: 3620، م6، ص ص14-15. وهي جميعاً تؤكّد على الجملة: **وبعث معه أبو بكر رضي الله عنه بلالاً**، ممّا يجعل أبا بكر فاعلاً إذ قام بإرسال بلالٍ مع محمد وهو طفل، والحال أنّ أبا بكر كان يومها طفلاً يصغُر محمّداً بسنتين حسب المصادر، وأنّ بلالاً كان أصغر منهما أيضاً. انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، م1، ج2، ص348.

160 - «إنّ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه صحب النبيّ وهو ابنُ ثماني عشرة سنة، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ابنُ عشرين، وهما يريدان الشام في تجارة حتى إذا نزلوا منزلاً فيه سدرة قعد النبي صلّى الله عليه وسلّم في ظلّها، ومضى أبو بكر إلى راهب اسمه بحيرى يسأله عن شيء، فقال له: مَن الرجل الذي في ظلّ السدرة؟ فقال: ذلك محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب. فقال له: هذا والله نبيّ، ما استظلّ تحتها بعد عيسى بن مريم إلاّ محمّد، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فلمّا نُبّئَ النبيءُ صلّى الله عليه وسلّم اتّبعه أبو بكر رضي الله عنه»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص199.

161 - انظر: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص207-209.

162 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م3، ص ص206-207.

163 - «لقد آمن أبو بكر بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم زمن بحيرا الراهب حين مرّ به، واختلف فيما بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه، وذلك كلّه قبل أنْ يولد علي، وكان صاحبه وصديقه قبل ذلك»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص ص42-43.

164 - «فلمّا دخل أبو بكر وليس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ ذكرت له خديجةُ وقالت: يا عَتيق اذهب مع مُحمّد إلى ورقة. فلمّا دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخذ بيده أبو بكر فقال: انطلق بنا إلى ورقة. قال: ومن أخبرك؟ قال: خديجة. فانطلقا إليه فقصّا عليه»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص ص14-15.

165 - «فجاءت [خولة بنت حكيم امرأة عُثمان بن مظعون] فدخلتْ بيتَ أبي بكر [...] فقالت: يا أبا بكر أرسلني رسول الله أخطب عليك عائشة، قال: وهل تصلحُ له، إنّما هي ابنةُ أخيه. فرجعت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت له ذلك فقال: ارجعي إليه فقولي له: أنتَ أخي في الإسلام وأنا أخوك، وابنتُك تصلح لي، فأتت أبا بكر فذكرتْ له ذلك [...] فقال لخولة: ادعي لي رسولَ الله، فدعته، فجاء، فأنكحه عائشة، وهي يومها ابنةُ ستّ سنين»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص411-412.

166 - «خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أبي بكر الصدّيق عائشة، فقال أبو بكر: يا رسول الله قد كنتُ وعدتُ بها أو ذكرتها لمطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف لابنه جُبير فدعني حتى أسلّها منهم، ففعل، ثمّ تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكانت بكراً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص58.

167 - «إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: اللهمّ أعزّ الإسلامَ بأحبّ الرجلين إليك، بعُمر بن الخطّاب أو بأبي جهل بن هشام. قال: فكان أحبّهما إليه عُمر بن الخطّاب»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص267.

168 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج44، ص ص26، 27، 29.

169 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص643.

170 - «فلمّا أسلم عُمرُ نزل جبريلُ فقال: يا محمّدُ لقد استبشرَ أهلُ السماء بإسلام عُمر»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص269.

171 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، 289.

172 - «ثمّ إنّ عُمر أسلم فصاروا أربعين، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال 8/ 64]، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص643.

173 - «فما هو إلاّ أنْ أسلمَ عُمر فظهر الإسلام بمكّة»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م3، ص643.

174 - أسلم عُمر «فكبّر المسلمون تكبيرةً سُمعتْ بطُرق مكّة»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص646.

175 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص269-270.

176 - كان عبد الله بن مسعود يقول: «ما زلنا أعزَّةً مُنذُ أسلمَ عُمر [...] كان إسلامُ عُمر فتحاً [...] لقد رأيتُنا وما نستطيعُ أنْ نُصلّيَ بالبيت حتّى أسلمَ عُمر، فلمّا أسلمَ عُمر قاتَلهم حتّى تركونا فصلّينا»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص270.

177 - «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنّ اللهَ جعل الحقَّ على لسان عُمر وقلبه، وهو الفاروقُ فَرقَ به الله بين الحقّ والباطل»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص270.

178 - «الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي. كان من السابقين الأوّلين إلى الإسلام. أسلم قديماً. [...] وكان من المهاجرين الأوّلين. وشهد بدراً ونفله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منها سيفاً. واستعمله على الصدقات. وهو الذي استخفى رسولُ الله في داره، وهي في أصل الصفا، والمسلمون معه بمكّة، لمّا خافوا المشركين. فلم يزالوا بها حتى كملوا أربعين رجلاً، وكان آخرهم إسلاماً عُمر بن الخطّاب، فلمّا كملوا به أربعين، خرجوا»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص74.

179 - «أسلم [الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي] سابعَ سبعة، وكانت داره بمكّة على الصفا، وهي الدارُ التي كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يكون فيها في أوّل الإسلام، وفيها دعا الناسَ إلى الإسلام، وأسلم فيها قومٌ كثيرٌ، وقال ليلةَ الاثنين فيها: اللهمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبّ الرجليْن إليك عُمر بن الخطّاب أو عمرو بن هشام. فجاء عُمر بن الخطّاب من الغد بُكرةً فأسلمَ في دار الأرقم، وخرجوا منها فكبّروا وطافوا البيتَ ظاهرين. ودُعيت دارُ الأرقم دارَ الإسلام. وتصدّق به الأرقم على ولدِه [...] وفي نُسخة صَدقَة الأرقم بداره: [...] هذا ما قضى الأرقمُ في رَبْعه ما حاز الصفا، إنّها مُحرّمةٌ بمكانها من الحرم، لا تُباعُ ولا تورثُ [...] فلم تزل هذه الدار صدقةً قائمة [...] حتى كان زمن أبي جعفر، أمير المؤمنين، فوقعت في نفسه [فاحتال لأحد الورثاء وهو عبد الله بن عثمان بن الأرقم] وكتب إلى عامله بالمدينة أنْ يحبسه ويطرحه في حديد. ثمّ بعث له رجلاً من أهل الكوفة يُقال له شهاب بن عبد ربّ فدخل على عبد الله بن عثمان الحبسَ وهو شيخٌ كبيرٌ ابنُ بضع وثمانين سنة وقد ضجر بالحديد والحبس، فقال له: هل لك أنْ أُخلّصك ممّا أنتَ فيه وتبيعني دار الأرقم؟ فإنّ أمير المؤمنين يريدها. قال: إنّها صدقة، ومعي فيها شركاء إخوتي وغيرهم. فقال: إنّما عليك نفسك، أعطنا حقّك وبرئتَ. وكتب عليه كتابَ شِرى [...] ثمّ تتبّع إخوتَه ففتنتْهم كثرةُ المال فباعوها، فصارت لأبي جعفر، ثمّ صيّرها المهدي للخيزران أمّ موسى وهارون، فبنتها وعُرفت بها»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص242-244. «وتُعرَفُ الدارُ بعد ذلك بالخيزران»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص363.

180 - «ثمّ إنّ رسولَ الله لمّا خاف كُفّارَ قريش اختفى هو ومن معه في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي إلى أنْ أسلمَ عُمرُ فخرجوا»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص26.

181 - «استخفيْنا بالإسلام [...] ما نُصلّي إلاّ في بيت مُغلق، أو شعب خالٍ، يَنظرُ بعضُنا إلى بعض [...] وكان النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابُه إذا وَقّتَ العصرُ تفرّقوا في الشعاب فصلّوا فُرادى ومثنى»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص ص132، 133.

182 - «قال عُمر: دخلتُ في أستار الكعبة في ليلة قرّة، فجاء النبيّ فدخل الحجرَ وعليه تبّان، فصلّى ما شاء الله ثمّ انصرف، فسمعتُ شيئاً لم أسمعْ مثلَه، فخرجتُ، فاتّبعتُه، فقال: مَنْ هذا؟ قلتُ: عُمر. قال: يا عُمرُ ما تدعني ليلاً ولا نهاراً؟ فخشيتُ أنْ يدعوَ عليَّ، فقلتُ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وأنّك رسول الله. فقال: يا عُمر أسرّه. قلتُ: والذي بعثك بالحقّ لأعلننّه كما أعلنتُ الشركَ»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج44، ص29.

183 - «قال عُمر: لمّا أسلمتُ قلتُ: أيّ قريش أنقل للحديث؟ فقيل: جميل بن معمر. فأتيتُه، فقلتُ: يا جميل هل علمتَ أنّي أسلمتُ وبايعتُ مُحمّداً؟ فما راجعني جميل حتى قام يَجرُّ رداءه، وقام على باب المسجد فصرخ بأعلى صوته، وقُريشٌ في أنديتها حول الكعبة: ألا إنّ ابنَ الخطّاب قد صبأ. فقلتُ: كذب، ولكنّي أسلمتُ ودخلتُ في دين محمّد»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص291.

184 - «قال عُمر: لمّا أسلمتُ تذكّرتُ أيّ أهل مكّة أشدّ عداوةً لله ورسوله، فقلتُ: أبو جهل. فأقبلتُ حتى ضربتُ بابَه، فخرجَ إليَّ، ورحّبَ بي، وقال: ما جاء بك يابنَ أخي؟ قلتُ: جئتُ لأخبرَك أنّي قد أسلمتُ واتبعتُ مُحمّداً. فصفق الباب في وجهي وقال: قبّحك الله وقبّحَ ما جئتَ به»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص292.

185 - **الحاقّة 69**/ 40-41.

186 - **الحاقّة 69**/ 42-47

187 - تستعمل النصوص القديمة صبا/ يصبو أو صبأ/ يصبأ بمعنى أسلم: «[...] ما أراك إلاّ قد صبوتَ وتركتَ دينَك الذي أنتَ عليه [...] إنّ ختنَك وأختَك قد صبوا وتركا دينَك الذي أنتَ عليه»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص267-268؛ «قال عُمر: خرجتُ أريدُ مُحمّداً هذا الصابئَ الذي فرق أمرَ قريش، وسفّه أحلامَها، وعاب دينها، وسبّ آلهتَها، وذمّ مَنْ مضى من آبائها [...] فلقيه رجل من بني زهرة، فقال: أين تعمد يا عُمر؟ قال: أريد أنْ أقتل محمّداً. قال: وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة إذا فعلتَ ذلك؟ فقال له عُمر: ما أراك إلاّ قد صبوتَ. فقال له: أفلا أدلّك على أختك وختنك فقد صبأ وتركا دينك الذي أنت عليه؟»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص ص287، 289؛ «فذهبتُ [عُمرُ بنُ الخطّاب] إلى خالي، وكان شريفاً منهم، فقرعتُ البابَ عليه، فقال: مَنْ هذا؟ فقلتُ: ابن الخطّاب. فخرج إليَّ فقلتُ له: أشعرتَ أنّي قد صبوتُ؟ قال: فعلتَ؟ فقلتُ: نعم. قال: لا تفعل. فقلتُ: بلى، قد فعلتُ. قال: لا تفعل. وأجاف الباب دوني وتركني»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص642؛ «صبأ خرج من دين إلى آخر، والصابئون يزعمون أنّهم على دين نوح عليه السلام، وقبلتُهم من مهبّ الشّمال عند مُنتصف النهار»، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة صبأ.

188 - انظر هذه القصص في: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج44، ص ص28، 35.

189 - «وأخرج الترمذي عن ابن عُمر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: إنّ الله جعل الحقّ على لسان عُمر وقلبه. قال ابن عُمر: وما نزل بالناس من أمر إلاّ نزل القرآنُ على نحو ما قال عُمر. وأخرج ابن مردويه عن مُجاهد قال: كان عُمر يرى الرأيَ فينزل به القرآنُ. وأخرج البخاري وغيره عن أنس قال: قال عُمر: وافقتُ ربّي في ثلاث [...] وأخرج ابن

أبي حاتم عن أنس قال: قال عُمر: وافقتُ ربّي أو وافقني ربّي في أربع [...]»، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، النوع العاشر: فيما نزل من القرآن على لسان الصحابة، ج1، ص34.

190 – «[...] عن قَبيصة بن جابر قال: لم أرَ أحداً أقرأَ لكتاب الله، ولا أفقهَ في الدين، ولا أقومَ بحدود الله، ولا أهيبَ في صدور الرجال من عُمر»، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج3، ص652.

191 – «[...] عن أمّ سَلمة أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: في السماء مَلَكان أحدهما يأمر بالشدّة والآخر يأمر باللين، وكلاهما مُصيب، أحدهما جبريل والآخر ميكائيل، ونبيّان أحدهما يأمر بالشدّة والآخر يأمر باللين، وكلّ مُصيب، إبراهيم ونوح، ولي صاحبان أحدهما يأمر بالشدّة والآخر يأمر باللين، وكلّ مُصيب، أبو بكر وعُمر»، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج44، ص61.

192 – «[...] أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلَا أُخْبِرُكُمَا بِمَثَلِكُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَثَلِكُمَا فِي الْأَنْبِيَاءِ، أَمَّا مَثَلُكَ أَنتَ يَا أَبَا بَكْرٍ فِي الْمَلَائِكَةِ كَمَثَلِ مِيكَائِيلَ يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَمَثَلُكَ فِي الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ وَصَنَعُوا بِهِ مَا صَنَعُوا، قَالَ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم 14/ 36] وَمَثَلُكَ يَا عُمَرُ فِي الْمَلَائِكَةِ كَمَثَلِ جِبْرِيلَ يَنْزِلُ بِالشِّدَّةِ وَالْبَأْسِ وَالنِّقْمَةِ على أعداء الله، وَمَثَلُكَ فِي الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ نُوحٍ إذ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح 71/ 26]، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج44، ص61.

193 – ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج44، ص ص6-8.

194 – «[...] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ، فَأُذِنَ لأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا، فَقَالَ: لأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ: هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ. فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا كِلاَهُمَا يَقُولُ تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم مَا لَيْسَ عِنْدَهُ. فَقُلْنَ وَاللَّهِ لاَ نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب 33/ 27-28] قَالَ فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لاَ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ. قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَتَلاَ عَلَيْهَا الآيَةَ، قَالَتْ أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَىَّ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ وَأَسْأَلُكَ أَنْ لاَ تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ. قَالَ: لاَ تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلاَّ أَخْبَرْتُهَا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلاَ مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»، مُسلم بن الحجّاج، صحيح مُسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أنّ تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلاّ بالنيّة، الحديث: 1478، ج3، ص ص1104-1105.

195 – «مات أبو عُبيدة بن الجرّاح بالشام في طاعون عَمَوَاس سنةَ ثمان عشرةَ»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص437.

196 – «سُئلتْ عائشة: يا أمَّ المؤمنين مَنْ كان رسولُ الله مُستخلفاً لو استخلفَ؟ قالت: أبا بكر. ثمّ قيل لها: مَنْ بعد أبي بكر؟ قالت: عُمر. ثمّ قيل لها: مَنْ بعد عُمر؟ قالت: أبا عُبيدةَ بنَ الجَرّاح»؛ «قال عُمر بن الخطّاب: لو أدركتُ أبا عُبيدةَ بنَ الجَرّاح لاستَخْلَفْتُه وما شاورتُ»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص181، 413.

197 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص ص437، 438.

198 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص409؛ ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، ج3، ص70.

199 - LAMMENS, Henri, *La « Triumvirat » Aboû Bakr, 'Omar et Aboû 'Obaida*, p117.

200 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص438.

201 – «فندب رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم المُهاجرين الأوّلين، فانتُدِبَ فيهم أبو بكر وعُمر ابنُ الخطّاب في سُراة من المهاجرين، وأمّر عليهم أبا عُبيدةَ بنَ الجَرّاح، وأمدَّ بهم عمرو ابنَ العاص»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص449. وانظر كذلك: ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص483.

202 – «حدّثنا عبد الله بن شقيق، سألتُ عائشة: مَنْ كان أحبَّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ قالت: أبو بكر، ثمّ عُمر، ثمّ أبو عُبيدة بنُ الجَرّاح»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص484.

203 – «[...] أنّ أهلَ اليمن لمّا قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سألوه أنْ يبعثَ معهم رجُلا يُعلّمهم السّنّةَ والإسلام، فأخذ بيد أبي عُبيدة بن الجرّاح وقال: هذا أمين هذه الأمّة»؛ «[...] عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: ألا إنّ لكلّ أمّة أميناً وإنّ أمينَ هذه الأمّة أبو عُبيدة بنُ الجرّاح»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص411، 412.

204 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص443. وأجْنَأ أشرف كاهله على صدره، جَنَأ عليه أكبَّ؛ والثَّرَمُ انكسار السنّ من أصلِها، أو سنّ من الثنايا والرَّباعيات، أو خاصّ بالثنيّة؛ والثَنِيَّةُ الضرس. والأهتم انكسرت ثَناياهُ مِنْ أصولها، انظر الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، موادّ: جنأ، ثرم، ثني، هتم.

205 – «ونزع الحلقتيْن اللتيْن دخلتا في وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من المِغْفَر يومَ أُحُد، فانْتُزعتْ ثَنيتاه، فحَسّنتا فاه، فقيل: ما رُئِيَ هَتْمٌ قطّ أحسنَ من هَتْم أبي عُبيدة»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص437.

206 – «عن جابر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طعن في خاصرة أبي عُبيدة وقال: إنّ ها هنا خُويْصرةً مُؤمنةً»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص457.

207 – انظر مجموعة من الأخبار في هذا الغرض في: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص ص455–464. وهي تُروى في عُمر وأبي بكر على حدّ السواء، من ذلك: «قال عُمر ابنُ الخطّاب: ما تعرّضتُ للإمارة قطّ أحبُّ أكونَ عليها إلاّ مرّة واحدةً، فإنّ قوماً أتوا النبيّ يشكون عاملَهم، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً، حقّ أمين.

قال عُمر: فتعرّضتُ لهذا لتُدركَني كلمةُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال فأمّر أبا عُبيدةَ وتركني» (ص459)؛ «لمّا فرغ وفد نجران قالوا: يا مُحمّد ابعث معنا رجلاً من أصحابك يقضي بيننا في أموالنا فقد اختلفنا فيها، فإنّكم عندنا رضا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ائتوني العشيّةَ أبعثُ معكم القويّ الأمين. فقال عُمر: فما أحببتُ الإمارةَ إلاّ يومئذ. فرُحتُ مُهجّراً حتّى صلّيتُ خَلفَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أوّل الصفوف، فأرجو أنْ يدعُوَني لها، فلمّا سلّم جعل يربي بطرفه يميناً وشمالاً، وجعلتُ أتطاولُ ليراني، حتى رأى أبا عُبيدةَ بنَ الجرّاح في بعض الصفّ، فقال: تعالَ يا أبا عُبيدةَ، اخرجْ مع هؤلاء، فاقضِ بينهم بالحقّ، فخرج معهم. قال عُمر: فذهب بها أبو عُبيدةَ» (ص ص462-463)؛ «وقدِم علينا وفد نجران فقالوا: يا مُحمّد ابعث لنا مَن يأخذ لكَ الحقَّ ويُعطيناهُ، فقال: والذي بعثني بالحقّ لأرسلنَّ معكم القويَّ الأمينَ. قال أبو بكر الصدّيق: فما تعرّضتُ للإمارة غيرها، فرفعتُ رأسي لأريَه نفسي. فقال: قُم يا أبا عُبيدة. فبعثه معهم» (ص464).

208 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص409. وانظر كذلك: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص444: «انطلق عُثمان بنُ مظعون وعُبيدة بنُ الحارث بنُ المُطّلب وعبدُ الرحمان بنُ عَوف وأبو سَلمة بنُ عبد الأسد وأبو عُبيدة بنُ الجَرّاح حتى أتوْا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فَعَرضَ عليهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا جميعاً في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله دارَ الأرقم وقبل أنْ يَدعوَ فيها.»

209 - «[...] ومضى أبو بكر، فراح بعُثمان وطَلحة بن عُبيد الله والزُّبير بن العَوّام وسَعد بن أبي وقّاص، فأسلموا. وجاء من الغد بعُثمان بن مَظعون وأبي عُبيدة عامر بن الجَرّاح وعبد الرحمان بن عَوف وأبي سَلَمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم، فأسلموا»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص46.

210 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص410.

211 - «جعل أبو أبي عُبيدة بن الجَرّاح ينصبُ الآلهة لأبي عُبيدة يومَ بَدر، وجعلَ أبو عُبيدة يَحيدُ عنه، فلمّا كَثّرَ الجَرّاحُ قَصَدَهُ أبو عُبيدة فقتله، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه هذه الآية حين قتل أباه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة 58/ 22]»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص446.

212 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص437.

213 - انظر قصّة بلال بن رَباح في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص232-239؛ ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م1، ج2، ص ص159-160؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص ص243-245.

214 - انظر قصّة شُقران، صالح بن عديّ، في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص49-50.

215 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص293.

216 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص205.

217 - جاء في الأخبار أنّ بلالا اعتزل الأذان بعد وفاة الرسول، انظر مثلاً: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص236-237.

218 - «كان النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم جالساً مع رجال من قُريش فيهم عُتبة بنُ ربيعة وناسٌ من وجوه قُريشٍ [...] فجاء ابنُ أمّ مكتوم وهو مُشتغل بهم فسأله عن شيء فأعرضَ عنه [...] فجعلَ يسألُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُعرضُ عنه ويَعبسُ في وجهه ويُقبل على الآخرين، وكلّما سأله عبس في وجهه وأعرض عنه، فغيّرَ الله رسولَه فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس **80**/ 1-10]، فلمّا نزلت هذه الآية دعاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأكرمه واستخلفه على المدينة»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص208-209.

219 - «كان بلال يُؤذّنُ ويُقيمُ ابنُ أمّ مكتوم. ورُبّما أذّن ابنُ أمّ مكتوم وأقام بلال [...] كان يُؤذّنُ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بلال بنُ رَباح وابنُ أمّ مكتوم، فكان بلال يُؤذّنُ بليلٍ ويُوقظُ الناسَ، وكان ابنُ أمّ مكتوم يتوخّى الفجرَ فلا يُخطئهُ، فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: إنّ بلالاً يُنادي بليلٍ فكلوا واشرَبوا حتى يُنادي ابنُ أمّ مكتوم»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص207.

220 - «نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال عبدُ الله بنُ أمّ مكتوم: يا ربّ ابتليتني فكيف أصنعُ؟ [...] أي ربّ أنزلْ عُذري، أنزل عُذري [...] وقام إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وشكا ضرارتَه وقال: يا رسولَ الله، فكيفَ بمَن لا يستطيع الجهاد؟ فما انقضى كلامُه حتى غَشيَتْ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم السكينُ، ثمّ سُريَ عنه، فقال: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص208-209. والآية: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، النساء **4**/ 95.

221 - «شُقران غُلامُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان لعبد الرحمان بن عوف، فأعجب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخذه منه بالثمن. وكان عبداً حبشيّاً، وهو صالح بن عديّ، شهد بدراً وهو مملوك فاستعمله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الأسرى ولم يُسهم له [...] وحضر بدراً ثلاثة أعبُد مماليك: غلام لعبد الرحمان بن عوف، وغلام لحاطب بن أبي بَلْتَعَة، وغلام لسعد بن معاذ، فجزاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يُسهم لهم»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص49-50.

222 - «فأخبرت به حفصة عائشة وكانت لا تكتمها شيئاً، إنّما كان أمرُهما واحداً»؛ «عن عائشة: فتواطأتُ أنا وحفصة»؛ «عن عائشة: فذكرتُ ذلك لحفصة، وكنّا يداً واحدةً» البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص55، 57، 63.

223 - «وآوى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليه - والإيواء أنْ يَقسمَ لَهنّ ويُساوي بينهنّ - عائشة وحَفصة وزينب وأمّ سَلَمة، وأرجى - والإرجاء أنْ يأتيَ مَنْ يَشاء منهنّ متى شاء وينزلها إذا شاء - سودة، قبلَ أنْ يَهجرَها، وفيه صفيّة وجُويريّة وأمّ حَبيبة ومَيمونة»، البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ج2، ص85.

224 - «استبّت عائشة وصَفيّة فقال رسول الله لصفيّة: ألا قُلتِ أبي هارون وعمّي موسى؟ وذلك أنّ عائشة فَخرتْ عليها»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص127.

225 - «[...] عن ثبيتة بنت حنظلة عن أمّها أمّ سنان الأسلميّة قالت: لمّا نزلنا المدينة لم ندخل منازلنا حتى دخلنا مع صفيّة منزلها، وسمع بها نساء المهاجرين والأنصار فدخلنَ عليها مُتنكّرات، فرأيتُ أربعاً من أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُتنقّبات، زينب بنت جحش وحَفصة وعائشة وجُوَيرية، فأسمع زينب تقول لجُوَيريّة: يا بنتَ الحارث ما أرى هذه الجارية إلاّ ستغلبنا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالت جُوَيريّة: كلاّ، إنّها من نساء قلّ ما يحظين عند الأزواج»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص126.

226 - «[...] عن أنس بن مالك أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أعتقَ صَفيّة وجعل عتقها صداقها»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص125.

227 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص121.

228 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص121.

229 - «قالت أمّ سلمة: وكانت زينب لرسول الله مُعجبة وكان يستكثر منها، وكانت امرأةً صالحةً صَوّامةً قَوّامةً صُنعاً تَتَصدّقُ بذلك كلّه على المساكين»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص103.

230 - «جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيتَ زيد بنَ حارثة يَطلبه فلم يَجده وتقوم إليه زينب بنتُ جَحش زوجتُه فُضُلاً فأعرض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عنها، فقالت: ليس هو هنا يا رسول الله فادخلْ بأبي أنتَ وأمّي. فأبى رسول الله أنْ يَدخلَ وإنّما عجّلت زينب أنْ تَلبس لمّا قيل لها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الباب فوثبتْ عجلى فأعجبت رسول الله، فولّى وهو يُهمهمُ بشيء لا يَكادُ يُفهَمُ منه إلاّ ربّما أعلنَ: سُبحانَ الله العظيم! سُبحانَ مُصرّف القلوب!»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص101. وامرأةٌ فُضُل متوشّحة في ثوب واحد، الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة فضل.

231 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص ص101-102.

232 - ابن الأثير، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ج2، ص129.

233 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص101.

234 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص103.

235 - «فما استطاع زيدٌ إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم [...] ففارقها زَيدٌ واعتزلها وحلّت، يَعني انقضتْ عدّتُها. فبينا رسول الله جالسٌ يتحدّثُ مع عائشة إلى أنْ أخذتْ رسولَ الله غشيةٌ، فسُرّيَ عنه وهو يبتسمُ وهو يقولُ: مَنْ يذهب إلى زينب يُبشّرها أنّ الله قد زوّجنيها من السماء؟ وتلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ

عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، [الأحزاب 33/ 37-40]، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص102.

236 - «عن أنس بن مالك قال: لَمّا انقضتْ عدّةُ زَينب بنتِ جَحش قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لزيد بن حارثة: ما أجدُ أحداً آمنَ عندي أو أوثقَ في نفسي منك، ائتِ إلى زينب فاخطبها عَليّ. فانطلق زيدٌ فأتاها وهي تُخمّرُ عَجينَها. قال زيد: فلمّا رأيتُها عَظُمتْ في صدري فلم أستطع أنْ أنظرَ إليها حين عرفتُ أنّ رسولَ الله قد ذكرَها، فوَلّيتُها ظهري ونكصتُ على عَقبيّ وقلتُ: يا زينبُ ابشري، إنّ رسولَ الله يَذكرك»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص104.

237 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص102-103.

238 - «إنّ رَجلاً من بني أسد فاخر رجلاً، فقال الأسدي: هل منكم امرأة زوّجها الله من فوق سبع سموات؟ يَعني زَينب بنتَ جَحش»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص103.

239 - «فتكلّم المُنافقون في ذلك وطعنوا فيه، وقالوا: مُحمّدٌ يُحرّمُ نساءَ الولد وقد تزوّجَ امرأةَ ابنه زيد، فأنزل الله جلّ جلاله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب 33/ 40]»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص42.

240 - **الأحزاب 33**/ 37-40

241 - **يوسف 12**/ 3-4.

242 - **يوسف 12**/ 23.

243 - **يوسف 12**/ 24.

244 - «ولم يتزوّج رسول الله بكراً غيرَها، وكان أبا عُذرها، وتزوّجها بمكّة وهي ابنة ستّ ويُقال سبع، وابتنى بها وهي ابنة تسع في شوال سنة إحدى للهجرة، وكانت أحبَّ نسائه إليه»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص38. والعُذْرُ البكارة، وأبو عُذْرها مُفتَضُّها، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة عذر.

245 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص160.

246 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م6، ص ص84-85.

247 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص ص157-158.

248 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص ص157-158.

249 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص86-87.

250 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص87.

251 - «فولدت خَديجة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولدَه كلّهم قبل أنْ ينزلَ عليه الوحي، زَينب وأمّ كلثوم وفاطمة ورُقيّة والقاسم والطاهر والطيب. فأمّا القاسم والطاهر والطيّب فهلكوا قبل الإسلام. وبالقاسم كان يُكنّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وأما بناتُه فأدركن الإسلام، فهاجرن معه واتّبعنَه وآمنَّ به»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص16. وانظر كذلك: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص80-81.

252 - ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، **الكوثر 108**/ 1-3، وانظر تفسير السورة في: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م12، ص ص716-726؛ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص ص560-563.

253 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج3، ص158.

254 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص78؛ العاملي، **الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم**، ج2، ص107.

255 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص131.

256 - «كانت خَديجة بنتُ خُويلد امرأةً تاجرة، ذات شرف ومال، تَستأجرُ الرجالَ في مالها، وتُضاربُهم إيّاه بشيء تَجعلُه لهم. وكانت قُريش قوماً تجّاراً. فلمّا بلغها عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بَعثتْ إليه فعرضتْ عليه أنْ يَخرجَ في مال لها إلى الشام تاجراً، وتُعطيه أفضلَ ما كانت تُعطي غَيرَه من التجّار [...] وكانت خَديجة امرأةً حازمةً شريفةً لبيبة، بعثتْ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت له فيما يَزعمون: يا ابنَ عمّ، إنّي قد رغبتُ فيك لقرابتك وسِطَتِك في قومك وأمانتك وحُسن خُلقك. ثمّ عرضت عليه نفسها. وكانت خَديجةُ يومئذ أوسطَ نساء قريش نَسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالا، كلّ قومها كان حَريصاً على ذلك منها لو يَقدرُ عليه»، ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م1، ج2، ص ص5-7.

257 - العاملي، **الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم**، ج2، ص108.

258 - «إنّ الإجماع من الخاصّ والعامّ، من أهل الآثار ونقلة الأخبار، على أنّه لم يبق من أشراف قريش ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم إلاّ مَن خطب خديجة ورام تزويجها، فامتنعت على جميعهم من ذلك. فلمّا تزوّجها رسول الله غضب عليها نساء قريش وهجرنها، وقلن لها: خطبك أشراف قريش وأمراؤهم فلم تتزوّجي أحداً منهم، وتزوّجت محمّداً، يتيم أبي طالب، فقيراً لا مال له»، أبو القاسم الكافي، **الاستغاثة في بدع الثلاثة**، ص ص114-115.

259 - أبو القاسم الكافي، **الاستغاثة في بدع الثلاثة**، ص ص114-115.

260 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص372.

261 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص36.

262 - ابن حبيب، **المُحبّر**، ص78.

263 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص97.

264 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص97-98.

265 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص398.

266 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص311.

267 - «كان زوجُ بَريرة عَبداً مَملوكاً لبني المُغيرة أسود، يُدعى مُغيثاً، فلمّا أعتقتْ خَيّرَها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فكلّمها رسول الله فيه، فقالتْ: يا رَسولَ الله أشيءٌ واجبٌ عَليَّ؟ قال: لا، إنّما أشفعُ له. قالتْ: فلا حاجةَ لي فيه [...] فكان يَتبعُها في سكك المدينة يُعصّرُ عَينيه عَليْها [...] ودموعه تَتحدّرُ يَترضَاها فأبتْ»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص257-260. وانظر كذلك: ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص39.

268 - انظر صفة عُمر في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص224-226، ومنها: كان «عُمرُ رجلاً أبيضَ، أمهقَ، تعلوه حُمرةٌ، صَلِعَ فاشتدَّ صَلعُه [...] رجلاً ضَخماً، جَسيماً كأنّه من رجال بني سَدوس [...] يَنفخُ ويَفتِلُ شاربَه [...] عليه إزارٌ قَطريّ مرقوع برقعة من أدَم [...] كان في إزاره اثنتا عشرةَ رُقعةً بَعضها من أدَم.»

269 - قال عُمر: «أردتُ أنْ أتكلّمَ وقد زَوّرتُ في نفسي مَقالةً قد أعجبتني، أريدُ أنْ أقدّمَها بين يديْ أبي بَكر، وكُنتُ أداري منه بَعضَ الحَدّ، فقال أبو بكر: على رِسلكَ يا عُمر، فكرهتُ أنْ أغضبَه»، ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص80. وانظر كذلك: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، م2، ص446.

270 - ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص ص19-20.

271 - «فأراد عُمرُ أنْ يَبدأ بالكلام، وقال: خشيتُ أنْ يُقصّرَ أبو بكر عن بعض الكلام. فلمّا تَيسّرَ عُمرُ للكلام، تَجهّز أبو بكر رضي الله عنه وقال له: على رِسلكَ، فستُكفى الكلامَ»، ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص23.

272 - ابن قُتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص23.

273 - قال عُمر: «فتكلّمَ أبو بَكر وهو كان أعلمَ منّي وأوقر. فوالله ما تَركَ من كَلمةٍ أعجبتْني من تَزويري إلاّ قالها في بَديهته، أو مثلَها أو أفضلَ، حتّى سَكتَ»، ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص80.

274 - «أنّ عائشةَ قالتْ: لَمّا استعزّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: مُروا أبا بَكر فليُصلِّ بالناس. قالت: قلتُ: يا نبيَّ الله، إنّ أبا بَكر رجلٌ رقيقٌ، ضَعيفُ الصوت، كَثيرُ البُكاء إذا قَرأ القرآن»، ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص68.

275 - «عن عائشة قالتْ: لَمّا ثَقُلَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم جاء بلال يُؤذنُه بالصلاة، فقال: مُروا أبا بَكر فليُصلِّ بالناس. قالت: فقلتُ: يا رَسولَ الله، إنّ أبا بَكر رجلٌ أسيفٌ وإنّه مَتى يَقمْ مَقامَكَ لا يُسمع الناس»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص179.

276 - انظر ترجمة أمّ أيمن في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص223-226؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص303-304؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص ص399-402.

277 - «قلنا: يا رسول الله، مَن يُصلّي عليك؟ وبكينا وبكى. فقال: مهلا رحمكم الله وجزاكم عن نبيّكم خيراً [...] ضعوني على سريري هذا على شَفَة قبري في بيتي هذا، ثم اخرجوا عنّي

ساعة، فإنّ أوّل مَن يُصلّي عليّ حبيبي وخليلي جبريل ثمّ ميكائيل ثمّ إسرافيل ثمّ مَلَك الموت معه جنوده من الملائكة بأجمعهم»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص257. وانظر كذلك: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص435.

278 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص259.

279 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص276-277.

280 - «كان محمّد بن إسحاق يجلس قريباً من النساء في مؤخّر المسجد، فيُروى عنه أنّه كان يُسامر النساء، فرُفع إلى هشام وهو أمير المدينة، وكانت له شعرة حسنة، فرقق رأسه وضربه أسواطاً ونهاه عن الجلوس هناك، وكان حسن الوجه»، ياقوت الحموي، **مُعجم الأدباء**، ج6، ص ص2419-2420.

281 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، مقدّمة التحقيق، ج1، الصفحة ط.

282 - «قال الأصمعي: كان [حمّاد الراوية] مُتهماً بأنّه يقول الشعر وينحله شُعراءَ العرب. وقال المفضّل الضبّي: رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهبَ رجلٍ ويُدخله في شعره ويُحمَل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء ولا يُميّز الصحيح منها إلاّ عند عالم ناقد، وأين ذلك؟»، ياقوت الحموي، **مُعجم الأدباء**، ج2، ص1204.

283 - انظر كتاب هشام جعيّط:

DJAÏT, Hichem, *La Grande Discorde*.

284 - انظر كتابي هالة الوردي:

OUARDI, Hela, *Les derniers jours de Muhammad* ; *Les Califes maudits*, * *La déchirure*.

285 - انظر ترجمة بُرَيْدة بن الحُصَيْب في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص241-243؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م1، ص ص209-210؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج71، ص ص376-382.

286 - انظر ترجمة سفينة في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص498؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م2، ص259؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص112؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص337-338.

287 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص226.

288 - «أمّ أيمن واسمها بركة، مولاة رسول الله وحاضنته، ورثها من أبيه وخمسة أجمال أوارك وقطعة غنم، فأعتق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمّ أيمن حين تزوّج خديجة بنت خويلد، فتزوّجها عبيد بن زيد من بني الحارث بن الخزرج فولدت له أيمن وبه تكنّتْ[...] وكان زيد بن حارثة مولى خديجة بنت خويلد فوهبته لرسول الله فأعتقه وزوّجه أمّ أيمن فولدت له أسامة»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص223.

289 - أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ج1، ص ص346-347.

290 - انظر ترجمة زيد بن حارثة في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص40-47؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص129-133؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج2، ص ص504-507.

291 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص40؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص107. وأَوْصَفَ ووَصُفَ: بلغ حدّ الخدمة، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة وصف.

292 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص40-41. وفي بعض الروايات بيع في سوق حُباشة. وسوق حُباشة هي سوق من أسواق العرب في الجاهلية، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادّة حُباشة، ج2، ص ص210-211.

293 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص42.

294 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص109.

295 - **الأحزاب 33**/ 40.

296 - «قال الكلبي: وكان زيد يُسمّى زيدَ الحِبّ لأنّه حِبُّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص110.

297 - «عن عائشة: ما بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم زيد بنَ حارثة في جيش قطّ إلاّ أمّره عليه، وإنْ بقي بعده استخلفه على المدينة»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص113.

298 - «[...] عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيتُ رسولَ الله عُرياناً قطُّ، إلاّ مرّة واحدة. جاء زيد بن حارثة من غزوة يستفتحُ، فسمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صوتَه، فقام عُرياناً يجرُّ ثوبَه»، الواقدي، كتاب المغازي، ج3، ص1126.

299 - انظر غزوة مؤتة في: الواقدي، **كتاب المغازي**، ج2، ص ص755-769؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص318-323؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج4، ص ص275-298.

300 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص47.

301 - وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ص341-351.

302 - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، **الأحزاب 33**/36-38. وللاطلاع على تفاصيل قصّة النبيّ وزيد بن حارثة وزينب بنت جحش يمكن الرجوع إلى كتب التفسير وقد عرضت لها جميعاً عند تفسير هذه الآيات المذكورة آنفاً. انظر مثلا: الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، م10، ص ص302-304؛

ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص472. وانظر كذلك: وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ص344-351.

303 - «فزوّجه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم زينب بنتَ جحش، وهي ابنةُ عمّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فطلّقها زيدٌ وخلف عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فتكلّم المنافقون، وطعنوا في ذلك، وقالوا: محمّد يُحرّم نساء الولد وقد تزوّج امرأة ابنه. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب 33/ 40]»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص109.

304 - «[...] عن فقهاء أهل الحجاز أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجع وجعه الذي قُبض فيه في آخر صفر في أيام بقين منه وهو في بيت زينب بنت جحش»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص432.

305 - انظر ترجمة أسامة بن زيد في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص61-72؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص ص79-81؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج1، ص ص46-47؛ ابن عساكر، **أخبار مدينة دمشق**، ج8، ص ص46-83.

306 - «وهو مولى رسول الله من أبويه»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص81.

307 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص110؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج1، ص46؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج8، ص51؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص81.

308 - «عن عائشة قالت: دخل قائفٌ ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم شاهد وأسامة بن زيد وزيد بن حارثة مضطجعان، فقال: هذه الأقدام بعضها من بعض، فسُرَّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم وأعجبه فأخبر به عائشة [...] وكان يعني أنّ زيداً أحمرُ أبيضُ أشقرُ، وكان أسامة بن زيد مثل الليل»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج8، ص53، والقائف مَنْ يعرفُ الآثار، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة قوف.

309 - «عن عائشة قالت: دخل مُجزّز المُدْلجيّ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرأى أسامة وزيداً عليهما قطيفة قد غطّيا رؤوسها وبدت أقدامها، فقال: إنّ هذه الأقدام بعضها من بعض، قالت: فدخل عليّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مسروراً تبرق أساريرُ وجهه، فقال: ألم تَرَيْ أنّ مُجزّزاً أبصر آنفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد فقال: إنّ بعض هذه الأقدام لَمِنْ بعض [...] فسَرَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يُشبهَ أسامة زيداً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص63.

310 - «عن أسامة بن زيد قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأخذني والحسن فيقول: اللهمّ إنّي أحبُّهما فأحبَّهما»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج8، ص47.

311 - وكان النبيّ يقول: «أحبُّ أهلي إليَّ مَنْ أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتُ عليه لأسامة بن زيد»؛ «مَنْ كان يُحبُّ اللهَ ورسولَه فليُحبَّ أسامة»؛ «يا عائشة أحبيه فإنّي أحبّه»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج8، ص ص54، 55، 66.

312 - «[...] عن عطاء بن يسار قال: كان أسامة بن زيد قد أصابه الجُدَريّ أوّل ما قدم المدينة وهو غلام، مُخاطه يسيل على فيه، فتَقْذَرُ به عائشة رضي الله عنها، فدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فطَفِقَ يغسل وجهه ويُقبّله. قالت عائشة: أما والله بعد هذا فلا أقصيه»؛ «[...] عن محمّد بن زيد قال: سقط أسامة فأصاب وجهَه شَجَّةٌ، فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمصّ الدم ويبصقه»؛ «[...] عن يحيى بن جَعْدَة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لفاطمة، وهي تمسح عن وجه أسامة شيئاً، فكأنّها تأذّت به، فاجتذبه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وانتهرها، فقالت: لا أتأذّى به أبداً»، الواقدي، كتاب المغازي، ج3، ص ص1125-1126.

313 - «عن أسامة بن زيد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أفاض من عَرَفَة وهو رديف النبيّ»؛ «عن ابن عبّاس قال: جاءنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ورديفه أسامة بن زيد، فسقيناه من هذا النبيذ فشرب ثمّ قال: أحسنتم فهكذا فاصنعوا»؛ «عن ابن عمر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دخل مكّة يوم الفتح ورديفه أسامة بن زيد فأناخ في ظلّ الكعبة [...] فدخل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبلال وأسامة الكعبة»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص64؛ «عن أسامة بن زيد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ركب على حمار عليه قطيفة وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة، قبل وقعة بدر»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص80.

314 - «قال الكلبي: وكان أسامة يُدعى الرّدفَ لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يردفه كثيراً»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص110.

315 - «[...] إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخّر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة بن زيد ينتظره، فجاء غلامٌ أفطسُ أسودُ فقال أهل اليمن: إنّما حُبسنا من أجل هذا؟ فكفر أهل اليمن من أجل ذا، ردّتهم حين ارتدّوا في زمن أبي بكر إنّما كانت لاستخفافهم بأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص63.

316 - «بيناً رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالس هو وعائشة وأسامة عندهم، إذ نظر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في وجه أسامة فضحك ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لو كان أسامة جارية لكسوتها وحلّيتُها وزيّنتُها حتى أُنفقها»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص62؛ وكان يقول لأسامة: «لو كنتَ جاريةً لأعطيناك مالاً وإبلاً حتى يُرغَبَ فيك»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج8، ص69.

317 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص80.

318 - «قالوا: لم يزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذكر مَقتلَ زيد بن حارثة وجَعفر وأصحابه، ووَجَدَ عليهم وَجْداً شديداً. فلمّا كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صَفَر سنة إحدى عشرة أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الناس بالتهيُّؤ لغزو الروم، وأمرهم بالانكماش في غزوهم [...] فلمّا أصبح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الغد، يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صَفَر، دعا أسامة بنَ زيد فقال: يا أسامة، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتُك على هذا الجيش، فأغر صباحاً على أهل أُبْنَى وحَرِّقْ عليهم، وأسرع السيرَ تسبق الخبر»، الواقدي، **كتاب المغازي**، ج3، ص1117.

319 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص190. وانظر كذلك: البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص115.

320 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص430.

321 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص65.

322 - «فتكلّم قومٌ وقالوا: يستعملُ هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين! فغضب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابةً وعليه قَطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعدُ أيّها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله! وايم والله إن كان للإمارة لَخليقاً وإنّ ابنَه من بعده لَخليقٌ للإمارة وإن كان لَمِنْ أحبّ الناس إليّ، وإنّهما لمَخيلان لكلّ خير، واستوصوا به خيراً فإنّه من خياركم»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص190.

323 - «اجتمع رأيه صلّى الله عليه وسلّم على إخراج جماعة من متقدّمي المهاجرين والأنصار في معسكره حتى لا يبقى في المدينة عند وفاته صلّى الله عليه وسلّم من يختلف في الرئاسة أو يطمح في التقدّم على الناس بالإمارة ويستتبّ الأمر لمن استخلفه من بعده ولا يُنازعه في حقّه منازع»، الشيخ المفيد، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، ج1، ص ص180-181.

324 - «[...] عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر 110/ 1-3] قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نُعيت إليّ نفسي، كأنّي مقبوض في تلك السنة»، الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م12، ص731. وانظر ذلك في غيره من كتب تفسير القرآن عند تفسير سورة النصر 110

325 - «سورة النصر تعدل ربع القرآن [...] عن عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عبّاس: يا ابن عتبة أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قال: صدقتَ [...] عن ابن عمر قال: أنزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله أوسط أيام التشريق فعرف أنّه الوداع فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثمّ قام فخطب الناس فذكر خطبته المشهورة»، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص565.

326 - «[...] عن زيد بن أرقم، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خُمّا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي» مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عليّ بن أبي طالب، الحديث: 2408، ج4، ص1873.

327 - الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص56-57. والآية في النصّ المائدة 5/ 3.

328 - «فخشي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قومه وأهل النفاق والشقاق أنْ يتفرّقوا ويرجعوا إلى الجاهلية لِما عرف من عداوتهم ولِما ينطوي عليه أنفسهم لعليّ من العداوة والبغضاء وسأل جبرئيل أنْ يسأل ربَّه العصمة من الناس وانتظر أنْ يأتيه جبرئيل بالعصمة من الناس عن الله جلّ اسمه، فأخّر ذلك إلى أنْ بلغ مسجد الخيف، فأتاه جبرئيل عليه السلام في مسجد الخيف فأمره بأنْ يَعهَد عهده ويُقيمَ عليّاً علماً للناس يهتدون به، ولم يأته بالعصمة من الله جلّ جلاله»، الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص57. والخَيْف ما انحدر من غلظ الجبلِ وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سُمّي مسجد الخَيْف من مِنًى. والخيف الوادي، ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص412.

329 - الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص57.

330 - الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص57. والآية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة 5/ 67. وقد أثبتناها كما وردت في كتاب الاحتجاج للطبرسي، أي بزيادة - في علي - تخصيصاً لما أنزل.

331 - الزمخشري، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ص353.

332 - الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، م3، ص ص290-291.

333 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م3، ج6، ص179.

334 - الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، ص139.

335 - الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، م6، ج12، ص42.

336 - تتبع ابن كثير هذه الأحاديث في المجامع والتآليف بالنقد والجرح والتعديل والتبرير، وفق المذهب السنّي. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، م3، ج5، ص ص227-233.

337 - *Encyclopédie de l'Islam* 2, t. II, pp. 1015-1017, article : Khumm (L. VECCIA VAGLIERI)

338 - «بلغ مَنْ حجّ مع رسول الله من أهل المدينة وأهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألف الذين أخذ عليهم بيعة هارون فنكثوا واتبعوا العجل والسامري، وكذلك أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله البيعة لعليّ بالخلافة على عدد أصحاب موسى فنكثوا البيعة واتبعوا العجل والسامري، سُنّةً بسُنّة ومثلاً بمثل [...] فأمر رسول الله عندما جاءته العصمة مناديا يُنادي في الناس بالصلاة جامعة ويردّ مَن تقدّم منهم ويحبس من تأخّر وتنحّى عن يمين الطريق إلى جنب مسجد الغدير [...] وكان في الموضع سَلَمات فأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله أنْ يُقَمّ ما تحتهنّ ويُنصب له حجارة كهيئة المنبر ليشرف على الناس [...] فقام رسول الله صلّى الله عليه وآله فوق تلك الأحجار ثمّ حمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: [...]»، الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص ص56-58. وانظر الخطبة كاملة هناك. والسَلَمات الأشجار، والقمّ الكنس، الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادّة سلم، مادّة قمم.

339 - «سُنح: بضمّ أوّله وسكون ثانيه وآخره حاء مهملة، إحدى محالّ المدينة، كان بها منزل أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، حين تزوّج مُليكة، وقيل حبيبة بنت خارجة بن زيد بن زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج من الأنصار، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة، وبينها وبين منزل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ميل»، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادة سُنح، م3، ص265.

340 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، 244.

341 - انظر القصّة في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج2، ص ص189-192؛ الواقدي، **كتاب المغازي**، ج3، ص ص1117-1120.

342 - الشيخ المفيد، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، ج1، ص ص183-184.

343 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص431.

344 - ابن تيمية، **أهل الصُّفّة وأحوالهم**، ص18.

345 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص255.

346 - انظر مثلا: أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ج1، ص ص-337 347: ومنه الأوصاف التالية: «قوم أخلاهم الحقّ من الركون إلى شيء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجرّدين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يُلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال، لم يأسوا على ما فاتهم، ولم يفرحوا بما آتاهم» (ص ص337-338)؛ «استوطنوا الصُّفّة فصفوا من الأكدار، ونقوا من الأغيار، وعصموا من حظوظ النفوس والأبشار» (ص343).

347 - أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ج2، ص ص70-71.

348 - أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ج1، ص ص340-341.

349 - «فإذا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قائم يُقرئ أصحاب الصُّفّة: إنّي رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببتُ أنْ أشاركم فيها»، أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ج1، ص342.

350 - كان يقول: «إنّي أذّنتُ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى قُبض، ثمّ أذّنتُ لأبي بكر حتى قُبض، لأنّه وليّ نعمتي»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، 244.

351 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، 243؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص233-234.

352 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص250.

353 - «ومنهم السيد المتعبّد المتجرّد، بلال بن رباح، عتيق الصدّيق، ذي الفضل والسماح، عَلَم الممتحَنين في الدين والمعذّبين، خازن الرسول الأمين، محمّد سيد المرسلين، السابق الوامق، والمتوكّل الواثق»، أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ج1، ص147. وانظر ترجمته كاملة هناك، ص ص147-151.

354 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص238.

355 - انظر قصّة تعذيب بلال مثلا في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص233-233؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص243؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج1، ص ص209-211.

356 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج1، ص210.

357 - «كان بلال رجلاً آدمَ شديد الأدمة، نحيفاً، طُوالاً، أجْنَأً، له شعرٌ كثيرٌ، خفيف العارضيْن، به شَمَطٌ كثير، لا يُغَيّر»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص238-239. والشَّمَط بياض الرأس يُخالط سوادَه؛ والأجْنَأ أو الأجنى الذي أشرف كاهله على صدره؛ والأدمة شدّة السّمرة، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادّة جنأ، مادّة جنو، مادة أدم.

358 - **النصر 110/** 1-3.

359 - الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م12، ص731، في تفسير سورة النصر.

360 - ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص567، في تفسير سورة النصر.

361 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الجزية والموادعة، باب ما يُحذر من القَدر، الحديث: 3176، ج2، ص ص413-414.

362 - ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، **البقرة 2/** 143؛ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، **الحجّ 22/** 78.

363 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص243.

364 - «[...] عن أبي هُريرة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: بُعثتُ أنا والساعة كهاتيْن، يعني إصبعيْن»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الرقاق، باب قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنا والساعة كهاتين، الحديث: 6505، ج4، ص192.

365 - **المائدة 5/** 3.

366 - «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خطّ الدور فخطّ لبني زهرة في ناحية مؤخّر المسجد فجعل لعبد الله وعتبة ابنيْ مسعود هذه الخطّة عند المسجد»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص150-151.

367 - «[...] عن عبد الله بن مسعود قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعُقبة بن أبي مُعيط فجاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر، وقد فرّا من المشركين، فقالا: يا غلام، هل عندك من لبن تسقينا؟ فقلت: إنّي مؤتمن ولست ساقيَكما. فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: هل عندك من جَذَعَة لم ينزُ عليها الفحل؟ قلت: نعم. فأتيتهما بها، فاعتقلها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومسح الضرع فحَفَّلَ الضرعُ. ثمّ أتاه أبو بكر بصخرة مُتقعرة فاحتلب فيها فشرب وشرب أبو بكر، ثمّ شربتُ، ثمّ قال للضرع: اقْلِصْ فقلص. فأتيتُه بعد ذلك فقلت: علّمني من هذا القول. قال: إنّك غلامٌ مُعلّم. فأخذتُ من فيه سبعين سورة لا يُنازعني فيها أحد [...] وكان عبد الله بن مسعود أوّل مَن أفشى القرآن من في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [...] وكان عبد الله بن مسعود صاحب سواد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعني سرّه، ووِساده، يعني فراشه، وسِواكه ونعليْه وطَهوره [...] وكان عبد الله يستر رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويمشي معه في الأرض وحشاً [...]
وكان عبد الله يُلبس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نعليْه ثمّ يمشي أمامه بالعصا حتى أتى مجلسه نزع عليه نعليْه فأدخلهما في ذراعيْه وأعطاه العصا، فإذا أراد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يقوم ألبسه نعليْه ثمّ مشى بالعصا أمامه حتى يدخل الحُجرة قبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص150-153.

368 - انظر ترجمة صُهيْب بن سنان في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص226-230؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص418-421؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص-209 245.

369 - «وإنّما قيل له الرومي لأنّ الروم سبوه صغيراً، وكان أبوه وعمّه عامليْن لكسرى على الأبُلّة، وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل، فأغارت الروم عليهم فأخذت صُهيْباً وهو صغير، فنشأ بالروم، فصار ألكن»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص418.

370 - «وكان في لسانه عجمة شديدة، وروى زيد بن أسلم عن أبيه، قال: خرجتُ مع عُمر حتى دخل على صُهيْب حائطاً له بالعالية، فلمّا رآه صُهيْب قال: ينّاس، ينّاس، فقال عُمر: ما له، لا أبا له يدعو الناس؟ فقلت: إنّما يدعو غلاماً له اسمه يُحنّس»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص421.

371 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص420.

372 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص236، 233.

373 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص219، 235.

374 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص226، 229، والآية هناك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ **البقرة 2/ 107**.

375 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص222، 223-224. والآيات هناك: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، **الأنعام 6/ 51-54**.

376 - انظر ترجمة حُذيْفة بن اليمان في: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج12، ص ص259-302؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص ص468-470.

377 - انظر القصّة في: المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمّة الأطهار**، كتاب الفتن والمحن، الباب الثالث، ج28، ص ص85-173، وهي قصّة تتعلّق هناك باغتصاب الخلافة من عليّ.

378 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمّة الأطهار**، كتاب الفتن والمحن، الباب الثالث، ج28، ص90.

379 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمّة الأطهار**، كتاب الفتن والمحن، الباب الثالث، ج28، ص ص108-109.

380 - «قال له عُمر بن الخطّاب: يا صُهيْب ما لك تُكنى أبا يحيى وليس لك ولَدٌ، وتقول إنّك من العرب وأنت رجل من الروم؟»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص227؛ «قال عُمر لصُهيْب: يا صُهيبُ، إنّ فيك خصالا ثلاثاً أكرهها لك. قال: وما هي؟ قال: إطعامك الطعام ولا مال لك، واكتناؤك ولا ولد لك، وادعاؤك إلى العرب وفي لسانك لُكنة. أو قال له: ما أراك تبذّر مالك؟ وتكتني باسم نبيّ؟ وتنسب عربيّاً ولسانك أعجميّ؟»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص242.

381 - ينتهي نسب بُريدة بن الحُصيْب ونسب صُهيْب بن سنان إلى أسلم بن أفصى. انظر مثلا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص241، م3، ص226.

382 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص215.

383 - انظر ترجمة صُهيْب بن سنان الرومي في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص226-230؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص418-421؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص-209 245. وانظر ترجمة بُريدةٍ بن الحُصيْب في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص241-243؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، م1، ص ص209-210؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج71، ص ص376-382.

384 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص242.

385 - ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادّة وبرة، ج5، ص359.

386 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص242.

387 - مريم **19**/ 1-5.

388 - انظر تفسير سورة مريم مثلا في: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م8، ص ص301-388.

389 - مريم **19**/ 7-10.

390 - مريم **19**/ 16-26.

391 - «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد علّم بُريْدة بن الحُصيْب ليلتئذ صدراً من سورة مريم. وقدم بُريْدة بن الحُصيْب بعد أنْ مضت بدر وأحد على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة فتعلّم بقيتها، وأقام مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكان من ساكني المدينة. وغزا معه مغازيَه بعد ذلك»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص242.

392 - «فلمّا أنْ أصبح قال بُريْدة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا تدخل المدينة إلاّ معك لواء. فحلّ عمامته ثمّ شدّها برمح ثمّ مشى بين يديه حتى دخل المدينة»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج71، ص ص378-379.

393 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج71، ص379.

394 – «وكانت أسلم أربعمائة، فيها ثلاثون فرساً، ولواءان يحمل أحدهما بُرَيْدة بن الحُصَيْب والآخر ناجية بن الأعجم»، الواقدي، **كتاب المغازي**، ج2، ص ص800، 819. وانظر كذلك:؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص334، 340؛ ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج5، ص66.

395 – انظر ترجمة خالد بن الوليد في: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص ص216–282؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص252–253؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص ص586–589.

396 – «إنّ خالد بنَ الوليد أمَّ الناس بالحيرة فقرأ من سور شتّى، ثمّ التفت إلى الناس حين انصرف فقال: شغلني عن تعلّم القرآن الجهاد [...] لقد منعني كثيراً من القراءة الجهادُ في سبيل الله»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص250.

397 – «قال خالد بن الوليد: ما كان في الأرض ليلة أحبّ إليّ من ليلة شديدة في سريةٍ من المهاجرين أصبّح فيهم العدوّ. وقال: ما ليلة يُهدى إليّ فيها عروس أنا لها محبّ أو أُبشّر فيها بغلام فأحبّ إليّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبّح فيها العدوّ»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص ص249–250.

398 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص259.

399 – الواقدي، **كتاب المغازي**، ج2، ص ص800، 819؛ ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج5، ص66؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص334، 340.

400 – انظر ترجمة أسماء بنت عُميس في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص280–285؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص ص16–17؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص14–15.

401 – «لمّا قدمت أسماء بنت عُميس من أرض الحبشة، قال لها عُمر: يا حبشية، سبقناكم بالهجرة. فقالت: أي لعمري لقد صدقتَ، كنتم مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُطعم جائعكم ويُعلّم جاهلكم وكنّا البُعداء الطُرداء، أما والله لآتينّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلأذكرنّ ذلك له. فأتت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فذكرت ذلك له، فقال: للناس هجرة واحدة ولكم هجرتان [...] هاجرتم إلى أرض الحبشة ونحن مرهونون بمكّة، ثمّ هاجرتم إليّ بعد ذلك»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص281.

402 – «[...] عن أمّ سلمة قالت: فتخوّفنا عليه ذات الجَنْب وثَقُل فلددناه، فوجد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خشونة اللدّ فأفاق فقال: ما صنعتم بي؟ قالوا: لددناك. قال: بماذا؟ قلنا: بالعود الهنديّ وشيء من وَرْس وقطرات زيت، فقال: مَنْ أمركم بهذا؟ قالوا: أسماء بنت عُميس، قال: هذا طبّ أصابته بأرض الحبشة»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص236. وانظر كذلك: ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص66؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص437–438.

403 – «لمّا شُكَّ في موت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال بعضهم: قد مات، وقال بعضهم: لم يمت، وضعت أسماء بنت عُميس يدها بين كتفيه، وقالت: قد تُوفّي رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم، قد رُفع الخاتم من بين كتفيه»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص272. وانظر كذلك: ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص264.

404 - **الكتاب المقدّس، العهد القديم، سفر الخروج**، 34/ 28-29.

405 - **الكتاب المقدّس، العهد الجديد، إنجيل متّى**، 40/ 1.

406 - **الكتاب المقدّس، العهد الجديد، رسالة بطرس الأولى**، 12/ 20.

407 - «وكان رسول الله مُعجَباً بأمّ إبراهيم، كانت بيضاء جميلة، فأنزلها رسول الله في العالية في المال الذي يقال له اليوم مشربة أمّ إبراهيم. وكان رسول الله يختلف إليها هناك وضرب عليها الحجاب، وكان يَطؤها بملك اليمين. فلمّا حملت وضعت هناك [...] وتنافست الأنصار في إبراهيم وأحبّوا أنْ يُفرّغوا مارية للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لما يعلمون من هواه فيها [...] عن عائشة قالت: ما غرتُ على امرأة إلاّ دون ما غرتُ على مارية، وذلك أنّها كانت جميلة من النساء جعدة، وأُعجب بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وكان أنزلها أوّل ما قُدم بها في بيت لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان رسول الله عامّة النهار والليل عندها حتى فرغنا لها فجزعتُ، فحوّلها إلى العالية، فكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشدّ علينا»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص212-213.

408 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص212.

409 - **التحريم 66**/ 1-2.

410 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص212-213.

411 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص422.

412 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص32.

413 - **النساء 4**/ 59.

414 - **الشورى 42**/ 38.

415 - **آل عمران 3**/ 159-160.

416 - الحُباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري من الخزرج، وهو من الصحابة الشعراء وأهل الرأي الذين كان يعتمد الرسول رأيهم في الغزوات، وهو ذو الرأي حسب تسميته في التراجم. انظر ترجمته في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص567-568؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص ص436-437؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج2، ص9.

417 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص35.

418 - انظر ترجمة خُزيمة بن ثابت في: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص610؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص ص357-372.

419 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص ص32-33.

420 - انظر ترجمة ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاري في: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص ص275-276.

421 - **الحشر 58/ 9**.

422 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص ص35-36.

423 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص275.

424 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص267.

425 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص34.

426 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص34.

427 - ابن بكّار، **الأخبار الموفّقيات**، ص469.

428 - **الحشر 58/ 8**:

429 - **التوبة 9/ 119**.

430 - الواقدي، كتاب الردّة، ص36. وانظر كذلك: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص458؛ ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج5، ص81.

431 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص37.

432 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص37.

433 - الزهري، **المغازي النبويّة**، ص142.

434 - الواقدي، كتاب الردّة، ص39. وانظر كذلك: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص457.

435 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص458.

436 - الواقدي، كتاب الردّة، ص ص39-40. وانظر كذلك: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص458.

437 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص458.

438 - انظر ترجمة بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير وهو بشير بن سعد بن ثعلبة في: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص231.

439 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص458.

440 - انظر ترجمة أُسيْد بن حُضير الأنصاري الأوسي في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص603-607؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص ص111-113؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج9، ص ص73-98.

441 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص33.

442 - الواقدي، **كتاب الردّة**، ص33.

443 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص444. وانظر كذلك: ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص268.

444 - ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص23.

445 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص456.

446 – الواقدي، **كتاب الردّة**، ص41.

447 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص457.

448 – الواقدي، **كتاب الردّة**، ص41.

449 – «قال عُمر بنُ الخطّاب: فقال أبو بكر: قد رضيتُ لكم أحد هذيْن الرجليْن أيّهما شئتم. وأخذ بيدي وبيد أبي عُبيدة بن الجرّاح فلم أكره ممّا قال غيرها»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص267.

450 – «وكان عُمر إذا غضب على بعض أهله لم يسكن غضبه حتى يعضّ يده عضاً شديداً. وكان عبد الله بن الزبير كذلك. ولقوّة هذا الخُلق عنده أضمر عبد الله بن عباس في خلافته إبطال القول بالعوْل، وأظهره بعده، فقيل له: هلاّ قلتَ هذا في أيّام عُمر! فقال: هبته، وكان أميراً مَهيباً»، ابن بكّار، **الأخبار المُوفّقيات**، ص480.

451 – الواقدي، **كتاب الردّة**، ص42.

452 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص458.

453 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص458–459.

454 – ابن أبي الحديد، شرح **نهج البلاغة**، ج2، ص40.

455 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص459.

456 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص459. وانظر كذلك: الواقدي، **كتاب الردّة**، ص43.

457 – الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص72.

458 – المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمّة الأطهار**، ج31، ص38. وانظر كذلك: سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص594.

459 – ابن بكّار، **الأخبار المُوفّقيات**، ص ص465–466.

460 – «كان خالد بن الوليد شيعةً لأبي بكر ومن المنحرفين عن عليّ»، ابن بكّار، **الأخبار المُوفّقيات**، ص465.

461 – «وكانت لحارثة بن النعمان منازل قُربَ منازل النبيّ عليه السلام، بالمدينة، فكان كلّما أحدث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أهلاً تحوّل له حارثة بن النعمان عن منزل بعد منزل، حتى قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لقد استحييتُ من حارثة بن النعمان ممّا يتحوّل لنا عن منازله»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص488.

462 – انظر ترجمة سفينة في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص498؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م2، ص259؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص112؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص337–338.

463 – «بركة الحبشيّة، كانت مع أمّ حبيبة بنت أبي سفيان تخدمها هناك، وهي التي شربتْ بول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما جاء في حديث أميمة بنت رُقيقة [...] أنّ النبي صلّى الله

عليه وسلّم كان يبول في قدح من عيدان ويوضع تحت السرير، فجاء ليلة فإذا القدح ليس فيه شيء، فقال لامرأة يُقال لها بركة كانت تخدم أمّ حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة: البول الذي كان في هذا القدح ما فعل؟ قالت: شربتُه يا رسول الله»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص51. وانظر: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص37؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص348.

464 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص223.

465 - «كان من شأن أمّ أيمن أنّها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطّلب والد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكانت من الحبشة»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص400.

466 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص347.

467 - انظر ترجمة خُليسة في: ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص118؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص87؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص348.

468 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص224.

469 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م2، ص258؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص338.

470 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص337.

471 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص259.

472 - لمّا كلّم عليّ بن أبي طالب الناس في حقّه في الخلافة أجابوه: «لو أنّ هذا الكلام سمعه الناس منك قبل البيعة لما اختلف عليك رجلان، ولبايعك الناس كلّهم، غير أنّك جلستَ في منزلك ولم تشهد هذا الأمر، فظنّ الناس ألاّ حاجة لك فيه»، الواقدي، **كتاب الردّة**، ص47.

473 - «اعلم أنّ الشيعة لغةً هم الصَّحبُ والأتباعُ، ويُطلق في عرف الفقهاء والمتكلّمين من الخلف والسلف على أتباع عليّ وبنيه رضي الله عنهم. ومذهبهم جميعاً مُتّفقين عليه أنّ الإمامة ليست من المصالح العامّة التي تُفوَّض إلى نظر الأمّة، ويتعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبيّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمّة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وإنّ عليّاً رضي الله عنه هو الذي عيّنه صلوات الله وسلامه عليه، بنصوص ينقلونها ويُؤوّلونها على مُقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السُّنّة ولا نَقلةُ الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيدٌ عن تأويلاتهم الفاسدة»، ابن خلدون، **المقدّمة**، ص ص196-197.

474 - «فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصائرها كانت سياسة عقليّة، وإذا كانت هذه القوانين مفروضة من الله بشارع يُقرّرها ويشرّعها كانت سياسة دينيّة نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك أنّ الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنّها كلّها عبث وباطل، إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ

عَبَثًا﴾ [المؤمنون 23/ 115] فالمقصود بهم إنّما دينهم المُفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى 42/ 53]»، ابن خلدون، **المقدّمة**، ص190.

475 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص245.

476 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص246.

477 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص246.

478 - «فقال عليّ: يا عمّ، وهل هذا الأمر إلاّ إليك، وهل من أحد يُنازعكم في هذا الأمر»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص246.

479 - ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص48. وكذلك: «فبايع الناس أبا بكر وأتوا به المسجد يُبايعونه، فسمع العبّاس وعلي التكبير في المسجد، ولم يفرغوا من غسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال عليّ: ما هذا؟ قال العبّاس: ما رُؤيَ مثل هذا قطّ. ما قلت لك!»، ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، ج4، ص86. وانظر كذلك: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص246-247.

480 - «[...] عن ابن عبّاس قال: كان بين العبّاس وعلي مُباعدة، فلقي ابن عبّاس عليّاً، فقال: إنْ كان لك في النظر إلى عمّك حاجة فأته، وما أراك تلقاه بعدها. فوَجَمَ لها، وقال: تقدّمني واستأذن. فتقدّمتُ واستأذنتُ له، فأذن فدخل، فاعتنق كلّ واحد منهما صاحبه، وأقبل عليٌّ على يده ورجله يُقبّلهما، ويقول: يا عمُّ ارض عنّي رضي الله عنك. قال: قد رضيتُ عنك. ثمّ قال: يا ابنَ أخي قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل، ورأيت في عاقبتها ما كرهت، وهأنذا أشير عليك برأي رابع، فإن قبلتَه وإلاّ نالك ما نالك ممّا كان قبله. قال: وما ذاك يا عمّي؟ قال: أشرتُ عليك في مرض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ تسأله فإنْ كان الأمر فينا أعطاناه، وإن كان في غيرنا أوصى بنا. فقلتَ: أخشى إنْ منعناها لا يُعطيناها أحد بعده. فمضت تلك. فلمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة، فدعوناك إلى أنْ نُبايعك، وقلتُ لك: ابسط يدك أبايعك ويُبايعك هذا الشيخ، فإنّا إذا بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك أحد من قريش، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب. فقلتَ: لنا بجهاز الرسول صلّى الله عليه وسلّم شُغل، وهذا الأمر ليس نخشى عليه. فلم نلبث أنْ سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة، فقلتَ: ما هذا؟ قلتُ: ما دعوناك إليه فأبيتَ. قلتَ: سبحان الله! أويكون هذا؟ قلتُ: نعم. قلتَ: أفلا يُردّ؟ قلتُ لك: وهل يُردّ مثل هذا قطّ؟ ثمّ أشرتُ عليك حين طُعن عُمر فقلتُ: لا تُدخل نفسك في الشورى، فإنّك إنْ اعتزلتهم قدّموك، وإنْ ساويتهم تقدّموك، فدخلتَ معهم فكان ما رأيت»، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص48.

481 - الكليني، **الكافي، روضة الكافي**، ج8، ص ص107-108. وانظر كذلك: سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص665.

482 - أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ج1، ص ص376-377؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص256.

483 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص256.

484 – ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص ص19–20.

485 – انظر مُجمل هذه الأحاديث في: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأحكام، باب الأمراء من قُريش، الحديثان: 7139، 7140، ج4، ص ص328–329؛ مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقُريش والخلافة في قُريش، الأحاديث: 1818، 1819، 1820، 1822، ج3، ص ص1451–1454، 1823؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص268.

486 – ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج6، ص336.

487 – عبد الرحمان السهيلي، **الروض الأُنُف**، ج7، ص591.

488 – ابن خلدون، **المقدّمة**، ص194.

489 – «[...] عن عائشة أنها دعت أبا هُريرة فقالت له: يا أبا هُريرة ما هذه الأحاديث التي تبلغنا أنّك تُحدّث بها عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هل سمعتَ إلاّ ما سمعنا وهل رأيت إلاّ ما رأينا؟ [...]»، الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحيْن**، الحديث: 6160، ج3، ص582.

490 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص330.

491 – «إنّ أبا هُريرة صحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نحواً من ثلاث سنين، وأكثر الرواية عنه، وعُمّر بعده نحواً من خمسين سنة [...] فلمّا أتى من الرواية عنه ما لم يأته بمثله من صحبه من جلّة اصحابه والسابقين الأوّلين إليه، اتّهموه وأنكروا عليه [...] وكانت عائشة رضي الله عنها أشدّهم إنكاراً عليه، لتطاول الأيّام بها وبه»، ابن قتيبة، **تأويل مختلف الحديث**، ص ص38–39.

492 – ونصّ الحديث كاملا: «[...] عن عائشة أنها دعت أبا هُريرة فقالت له: يا أبا هُريرة ما هذه الأحاديث التي تبلغنا أنّك تُحدّث بها عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هل سمعتَ إلاّ ما سمعنا وهل رأيت إلاّ ما رأينا؟ قال: يا أمّاه إنّه كان يشغلك عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المرآة والمكحلة والتصنّع لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإنّي والله ما كان يشغلني عنه شيء»، الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحيْن**، الحديث: 6160، ج3، ص582.

493 – أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ج1، ص163.

494 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج5، ص101. وأوكى شدّ بالوكاء، والوكاء رباط القربة وغيرها، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادّة وكى.

495 – «وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أبو ذرّ في أمّتي على زهد عيسى ابن مريم»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج5، ص101.

496 – «كان أبو ذرّ النهار أجمع خالياً يتفكّر»؛ «إنّ أبا ذرّ رضي الله تعالى عنه، كان يخدم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، حتى إذا فرغ من خدمته أوى إلى المسجد فكان هو بيته، فاضطجع فيه فدخل عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات ليلة، فوجد أبا ذرّ نائماً مُنجدلاً في

المسجد، فركله برجله حتى استوى جالساً، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ألا أراك نائماً فيه؟ فقال أبو ذرّ: فأين أنام؟ ما لي بيت غيره. فجلس إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»؛ «قال أبو ذرّ رضي الله تعالى عنه: كنتُ من أهل الصُّفّة، فكنّا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [...] فيُؤتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعشائه فنتعشّى معه، فإذا فرغنا قال رسول الله: ناموا في المسجد»، أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج1، ص ص164، 352.

497 - أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج1، ص169.

498 - أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج1، ص165.

499 - الطلاق 65/ 2-3.

500 - أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج1، ص166.

501 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص380، في تفسير الطلاق 65/ 2-3.

502 - الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، م12، ص ص129-130، في تفسير الطلاق 65/ 2-3.

503 - أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج1، ص167.

504 - أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج1، ص166.

505 - «عن ابن عبّاس، قال: لمّا ولدت أمّ إبراهيم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أعتقها ولدها [...] وقال: أيّما أمة ولدت من سيّدها فإنّها حرة إذا مات إلاّ أنْ يعتقها قبل موته»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص215.

506 - ابن الأثير، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ج6، ص57.

507 - النجم 53/ 32

508 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص ص118-119؛ ابن الأثير، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ج6، ص57.

509 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص ص116-117.

510 - «سباها [جُويرية] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم المُريسيع، وهي غزوة بني المصطلق، سنة خمس، وقيل سنة ستّ [...] ثمّ تزوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد زينب بنت جحش جُويرية بنت الحارث»، ابن الأثير، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، م6، ص56-57.

511 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م8، ص120.

512 - «لمّا رجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الحديبية في ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المُقوقس القِبطي صاحب الإسكندرية وكتب معه إليه كتابا يدعوه فيه إلى الاسلام فلما قرأ الكتاب قال خيرا، وأخذ الكتاب فكان مختوما فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم جواب كتابه ولم يسلم وأهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مارية القِبطية وأختها سيرين

وحماره يعفور وبغلته دلدل وكانت بيضاء ولم يك في العرب يومئذ غيرها»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص134.

513 - «وولدته [إبراهيم] في ذي الحجّة سنة ثمان من الهجرة [...] ومات يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر [...] ومات وهو ابن ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر [...] وإنّ له ظئراً تتمّ رضاعته في الجنة، وهو صديق شهيد [...] ولو عاش لكان صدّيقاً نبيّاً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص ص134-144.

514 - «وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنّي لأحبُّ أنْ أتزوّج من الأنصار ولكنّي أكره غيرتهنّ»، البيهقي، **دلائل النبوّة**، السفر السابع، ص288؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص319.

515 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص169، 265. وانظر كذلك:
DJAÏT, Hichem, *La Grande Discorde*, p. 51.

516 - «[...] وعن عائشة قالت: لما ثقُل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيت ميمونة واشتدّ به وجعُه، استأذن نساءه أن يمرّض في بيتي فأذنّ له، فخرج معتمدا على العباس وعلى رجل آخر ورجلاه تخطان في الأرض. قال عُبيد الله فأخبرتُ ابن عباس بما قالت، فقال: فهل تدري من الرجل الآخر الذي لم تُسمّ عائشة؟ قال: قلت لا. قال ابن عبّاس: هو علي بن أبي طالب ولكن عائشة لا تطيب له نفسا بخير»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص232. وانظر كذلك: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب مرض النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ووفاته، الحديث: 4442، ج3، ص183.

517 - انظر ترجمة أمّ رافع، سلمى مولاة النبيّ في: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص147-148؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص227.

518 - « وهي التي غسلت فاطمة مع زوجها عليّ ومع أسماء بنت عُميس»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص147.

519 - «وهي التي كانت تقبل خديجة بنت خويلد بن أسد في ولادتها إذا ولدت من رسول الله، وتعدّ قبل ذلك ما تحتاج إليه، وهي قبلت مارية أمّ إبراهيم بإبراهيم ابن رسول الله وخرجت إلى زوجها أبي رافع فأعلمته أنّ مارية ولدت غلاماً، فجاء أبو رافع فبشّر رسول الله به فوهب رسول الله له غلاماً. وقد شهدت خيبر مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم» ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص227؛ «وكانت قابلة بني فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقابلة إبراهيم ابن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص147.

520 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص102.

521 - انظر باب ذكر عبيده عليه الصلاة والسلام وإمائه وخدمه وكتّابه وأمنائه، في: ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص346-353.

522 - انظر ترجمة ميمونة بنت سعد في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص305؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص274-275.

523 - انظر ترجمة عنقودة في: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، م6، ص ص209-210.

524 - «[...] عن ميمونة مولاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالت: يا رسول الله، افتنا عن بيت المقدس. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلّوا فيه، فإنّ الصلاة فيه كألف صلاة. قالت: أرأيتَ يا رسول الله، مَنْ لم يُطق أنْ يأتيه؟ قال: فإن لم يُطق ذلك فليهد إليه زيتاً يُسرج فيه، فمَنْ أهدى إليه كان كمَنْ صلّى فيه»؛ «[...] أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُئل عن ولد الزنا، فقال: لا خير فيه، نعلان أجاهد فيهما أحبّ إليّ من أن أعتق ولد الزنا»؛ «[...] أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُئل عن رجل قبّل امرأته صائماً، فقال: أفطر»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص274-275.

525 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص275.

526 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص275.

527 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص274.

528 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص148.

529 - الكليني، **الكافي، فروع الكافي**، كتاب النكاح، الحديث: 41، ج5، ص341،.

530 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص192. وانظر كذلك: م1، ص374.

531 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص192-193.

532 - انظر ترجمة فاطمة في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص19-30؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص220-227؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص29-34؛ ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص ص5-58؛ ابن شهرآشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج3، ص ص365-452؛ أحمد الرحماني، **فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى**.

533 - «[...] عن أنس بن مالك قال: ورد عبد الرحمان بن عوف الزهريّ وعثمان بن عفّان إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال له عبد الرحمان: يا رسول الله، تُزوّجني فاطمة ابنتك؟ وقد بذلتُ لها من الصداق مائة ناقة سوداء، زُرق الأعين، مُحمّلة كلّها قباطيّ مصر، وعشرة آلاف دينار. ولم يكن من أصحاب رسول الله أيسر من عبد الرحمان وعثمان. وقال عثمان: وأنا أبذل ذلك، وأنا أقدم من عبد الرحمان إسلاماً. فغضب النبيّ صلى الله عليه وآله من قالتهما، فتناول كفّاً من الحصى فحصب به عبد الرحمان، وقال له: إنّك تهوّل عليك بمالك؟ فتحوّل الحصى درّاً، فقوّمت درّة من تلك الدرر فإذا هي تفي بكلّ ما يملكه عبد الرحمان»، ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص15. «وروى ابن عطية في الإبانة: أنّه خطبها عبد الرحمان بن عوف فلم يجبه. وفي رواية غيره أنه قال: بكذا من المهر، فغضب صلّى الله عليه وسلّم ومدّ يده إلى حصى فرفعها فسبّحت في يده، وجعلها في ذيله، فصارت درّاً ومرجاناً يعرض به جواب المهر»، ابن شهرآشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج3، ص393.

534 - «قد اشتهر في الصحاح بالأسانيد عن أمير المؤمنين عليه السلام، وابن عباس وابن مسعود وجابر الأنصاري وأنس بن مالك والبراء بن عازب وأمّ سلمة، بألفاظ مختلفة ومعان متفقة، أنّ أبا بكر وعُمر خطبا إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فاطمة، مرّة بعد أخرى فردّهما. وروى أحمد في الفضائل عن بُريدة أنّ أبا بكر وعُمر خطبا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاطمة، فقال: إنّها صغيرة»، ابن شهرآشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج3، ص393.

535 - «إنّ أبا بكر خطب فاطمة إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله، فقال: يا أبا بكر إنّي أنتظر بها القضاء. فذكر ذلك أبو بكر لعُمر، فقال له عُمر: ردّك يا أبا بكر. ثمّ إنّ أبا بكر قال لعُمر: اخطب فاطمة إلى النبي صلّى الله عليه وآله. فخطبها، فقال له مثل ما قال لأبي بكر: أنتظر بها القضاء. فجاء عُمر إلى أبي بكر فأخبره، فقال له: ردّك يا عُمر»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص19. وانظر كذلك: البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص20؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص221.

536 - «وروي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: أوحى الله إليّ أنّي زوّجتُ عليّاً فاطمة تحت شجرة طوبى فزوّجه إيّاها، فزوّجتُ عليّاً فاطمة بأمر الله تعالى. وحدّث الغلابي يرفع الحديث برجاله إلى أبي ذرّ، قال: دخلت فاطمة عليها السلام على النبي صلّى الله عليه وآله وقالت: نساء قريش يُعيّرنني أنّ أباك زوّجك من عليّ، وهو فقير، فتبسّم صلّى الله عليه وآله وقال: والله، لقد خطبك منّي أشراف قريش فما أجبتهم إلى ذلك توقّفاً لخبر السماء. فبيناً أنا بمسجدي في النصف من شهر رمضان، إذ هبط عليّ جبريل عليه السلام وقال: إنّ الله تعالى يُقرئك السلام، وقد جمع الكروبيين وحملة العرش تحت شجرة يقال لها طوبى، وأنا الخاطب والله الوليّ، وزوّج فاطمة من عليّ، ثمّ قال للشجرة: انثري، فتناثرت لؤلؤاً رطباً [...] وجعل مهرها نصف الدنيا»، حسين بن عبد الوهاب، **عيون المعجزات**، ص ص58-59. وانظر كذلك: ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص ص15-16؛ ابن شهرآشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج3، ص ص393-400.

537 - «لمّا زوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاطمة أرعدت، فقال: اسكتي، فقد زوّجتك سيّداً في الدنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص362؛ «فزوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليّاً فاطمة، فلمّا بلغ ذلك فاطمة بكتْ. فدخل عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: ما لك تبكين يا فاطمة؟ فوالله، لقد أنكحتُك أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأوّلهم سلماً»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص221.

538 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص20.

539 - «كان في عليّ على فاطمة شدّة، فقالت: والله لأشكونّك إلى رسول الله. فانطلقت وانطلق عليّ بإثرها، فقام حيث يسمع كلامها، فشكت إلى رسول الله غلظ عليّ وشدّته عليها، فقال: يا بُنيّة، اسمعي واستمعي واعقلي، إنّه لا إمرة بامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت. قال عليّ: فكففتُ عمّا كنتُ أصنع، وقلتُ: والله، لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص26.

540 – «قال عليّ لفاطمة ذات يوم: والله، لقد سنوتُ حتى قد اشتكيتُ صدري، وقد جاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه. فقالت: وأنا والله، قد طحنتُ حتى مجلت يداي. فأتت النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال: ما جاء بك يا بُنيّة؟ قالت: جئتُ أسلّم عليك. واستحيت أنْ تسأله ورجعت. فقال عليّ: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتياه جميعاً، فقال عليّ: والله، يا رسول الله، لقد سنوتُ حتى اشتكيتُ صدري، وقالت فاطمة: قد طحنتُ حتى مجلت يداي، وقد أتى الله بسبي وسعة، فأخدمنا. قال: والله، لا أعطيكما وأدع أهل الصُّفّة تطوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكنّي أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص25.

541 – «[...] عن عليّ بن أبي طالب قال: خطبتُ فاطمة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالت مولاة لي: هل علمتَ أنّ فاطمة خُطبت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ قلتُ: لا، قالت: فقد خُطبت، فما يمنعك أنْ تأتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيزوّجك؟ فقلتُ: وعندي شيء أتزوّج به؟ فقالت: إنّك إن جئتَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم زوّجك. فوالله، ما زالت ترجّيني حتى دخلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكانت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم جلالة وهيبة، فلمّا قعدتُ بين يديه أُفحمتُ، فوالله، ما أستطيع أنْ أتكلّم. فقال: ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكتُّ. فقال: لعلّك جئتَ تخطب فاطمة؟ قلتُ: نعم. قال: وهل عندك من شيء تستحلّها به؟ قلتُ: لا والله، يا رسول الله. فقال: ما فعلتَ بالدرع التي سلّحتُهكا؟ قلتُ: عندي، والذي نفس عليّ بيده، إنّها لَحُطَميّة ثمنها أربعمائة درهم. قال: قد زوّجتك فابعث بها، فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص221–222. وانظر في ذلك: البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص31.

542 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص22، 24.

543 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص25؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص31.

544 – «وكان عليّ يقول: ما كان لنا إلاّ إهاب كبش ننام على ناحية منه، وتعجن فاطمة على ناحية»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص31؛ «وقال عليّ: لقد تزوّجتُ فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي ولها خادم غيرها»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص22. والناضح البعير أو الثور أو الحمار الذي يُستقى عليه الماء، ابن منظور، **لسان العرب**، مادة نضح.

545 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص25.

546 – «فلمّا تزوّج عليّ فاطمة قال له النبي صلّى الله عليه وسلّم: اطلب منزلاً. فطلب عليّ منزلاً فأصابه مستأخراً عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قليلاً، فبني بها فيه، فجاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليها فقال: إنّي أريد أن أحوّلك إليّ، فقالت: فكلّم حارثة بن النعمان أنْ يتحوّل عنّي، فقال رسول الله: قد تحوّل حارثة عنّا حتى قد استحييتُ منه. فبلغ ذلك حارثة فتحوّل وجاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله، إنّه بلغني أنّك تحوّل فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أسقب بيوت بني النجار بك، وإنّما أنا ومالي لله ولرسوله، والله يا رسول الله، المال الذي تأخذ منّي أحبّ إليّ من الذي تدع. فقال رسول الله: صدقت.

بارك الله فيك. فحوّلها رسول الله إلى بيت حارثة»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص22-23. وأسْقَبُ أقْربُ، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة سقب.

547 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص27.

548 - «فَدَك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله صلّى الله عليه وسلّم، في سنة سبع صُلحاً. وذلك أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلاّ ثلث، واشتدّ بهم الحصار راسلوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسألونه أنْ يُنزلهم على الجلاء وفعل، وبلغ ذلك أهل فَدَك، فأرسلوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يُصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فهي ممّا لم يُجفْ عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وفيها عين فوّارة ونخيل كثيرة، وهي التي قالت فاطمة رضي الله عنها: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد نحلنيها [...]»، ياقوت الحموي، **مُعجم البلدان**، مادة فدك، م4، ص ص238-240.

549 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص25.

550 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص32. وانظر كذلك: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب فاطمة عليها السلام، الحديث: 3767، ج3، ص35.

551 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص223. وانظر كذلك: مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الحديث: 2449، ج4، ص ص1902-1903.

552 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص32. وانظر كذلك: مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الحديث: 2449، ج4، ص ص1902-1903.

553 - «وتوفّي القاسم ابن رسول الله، فقال وهو في جنازته ونظر إلى جبل من جبال مكّة: يا جبلُ، لو أنّ ما بي بك لهدّك. وكان للقاسم يوم توفّي أربع سنين. ثمّ توفّي عبد الله ابن رسول الله بعد شهر ولم يُفطم، فقالت خديجة: يا رسول الله، لو بقي حتى أفطمه؟ قال: فإنّ فطامه في الجنّة. وسألت خديجة رسول الله، فقالت: فأين أولادي منك؟ قال: في الجنّة. قالت: بغير عمل؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين»، اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص26.

554 - «لمّا توفّيت خديجة جعلت فاطمة تتعلّق برسول الله صلى الله عليه وآله وهي تبكي وتقول: أين أمّي؟ أين أمّي؟ فنزل عليه جبريل فقال: قل لفاطمة إنّ الله تعالى بنى لأمّك بيتاً في الجنّة من قصب لا نصب فيه ولا صخب»، اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص28. وانظر في ذلك: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص84.

555 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م1، ج2، ص ص263-264. وانظر كذلك: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص85.

556 - «وكان أبو جهل بالحِجر في نفر من قريش فيهم عقبة بن أبي معيط، وكان أسفه قريش، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُصلّي فأطال السجود. فقال أبو جهل: أيّكم يأتي جزوراً لبني فلان قد نُحرت اليوم بأسفل مكّة، فيجيء بفرثها فيلقيه على محمّد؟ فانطلق عقبة بن أبي معيط، فأتى بفرثها، فألقاه على ما بين كتفيه ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم ساجد. فجاءت فاطمة عليها الصلاة والسلام، فأماطت ذلك عنه، ثمّ استقبلتهم تشتمهم، فلم يرجعوا إليها شيئاً»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج1، ص141.

557 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م1، ج2، ص264.

558 - «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كنتُ بين شرّ جارين، بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، إنْ كانا ليأتيان بالفروث فيطرحونها في بابي»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج1، ص148.

559 - «وفضل فاطمة عليها السلام مشهور، ومحلّها من الشرف أظهر الأمور، كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يُعظّم شأنها ويرفع مكانها، كان يُكنّيها بأمّ أبيها، ويحلّها من محبّته محلاً لا يُقاربها فيه أحد ولا يُوازيها»، الأربلي، **كشف الغمّة في معرفة الأئمّة**، ج2، ص168؛ «وكانت فاطمة تُكنّى أمّ أبيها»، أبو الفرج الأصفهاني، **مَقاتِل الطالبيين**، ج2، ص46. وانظر كذلك: ابن شهرأشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج3، ص406.

560 - «إنّ الله عزّ وجلّ لمّا شرّف وكرّم أزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله بتكنيتهنّ بأمّهات المؤمنين صرن في معرض أنْ يخطر ببالهنّ أنّهنّ أفضل النساء حتى من بَضعة المصطفى، فاطمة الزهراء عليها السلام، ولأجل ذلك كناها أبوها بأمّ أبيها صوناً لهذه الخواطر والوساوس، يعني يا نساء النبيّ إنْ كنتنّ أمّهات المؤمنين ففاطمة عليها السلام أمّ النبيّ، أمّ المصطفى، أمّ الرسول، أمّ أبيها»، أحمد الرحماني، **فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى**، ص204.

561 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص293.

562 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص36، 34، 38.

563 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج8، ص220.

564 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص292.

565 - ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج9، ص ص192-194.

566 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج8، ص224.

567 - ابن شهرأشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج3، ص381.

568 - «كان رسول الله يُكثر تقبيل فاطمة، فأنكرت عليه بعض نسائه، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّه لمّا عُرج بي إلى السماء أخذ بيدي جبرئيل، فأدخلني الجنّة، فناولني تفّاحة فأكلتها، فتحوّل ذلك نطفة في صُلبي، فلمّا هبطتُ إلى الأرض واقعتُ خديجة فحملت بفاطمة، ففاطمة حوراء إنسية، فكلّما اشتقتُ إلى رائحة الجنّة شممتُ رائحة ابنتي»، ابن شهرأشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج3، ص383.

569 - ابن شهرأشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج3، ص ص380-381.

570 - «[...] عن عائشة قالت: كنت جالسة عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فجاءت فاطمة تمشي كأنّ مشيتها مشية رسول الله، فقال: مرحبا بابنتي. فأجلسها عن يمينه، فأسرّ إليها شيئاً، فبكت، ثمّ أسرّ إليها شيئاً فضحكت. قالت: ما رأيتُ ضحكاً أقرب من بكاء! [...] فلمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سألتها فقالت: قال لي رسول الله: إنّ جبريل كان يأتيني كلّ عام فيُعارضني بالقرآن مرّة، وإنّه أتاني العام فعارضني مرّتين، ولا أظنّ أجلي إلاّ قد حضر، ونعم السلف أنا لك، أنت أسرع أهلي بي لحوقاً. فبكيت لذلك. ثمّ قال: أما ترضين أنْ تكوني سيّدة نساء هذه الأمّة، أو نساء العالمين؟ فضحكتُ»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص28. وانظر كذلك: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، الحديث: 3623، ج2، ص534؛ حسين بن عبد الوهاب، **عيون المعجزات**، ص61.

571 - ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص ص43-44.

572 - - ابن سعد، الطبقات الكبرى، الطبقة الخامسة: **في مَنْ قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهم أحداث الأسنان ولم يغز منهم أحد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد حفظ عامتهم ما حدّثوا به عنه، ومنهم مَنْ أدركه ورآه ولم يُحدّث عنه شيئاً، والمُسمّى مُتمم الصحابة**، 2ج.

573 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م5، ص5.

574 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م5، ص ص31-32.

575 - ابن سعد، **مُتمم الصحابة**، ج2، ص15.

576 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص187.

577 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص365.

578 - البلاذري، **جُمل من أنساب قريش**، ج4، ص ص41، 42.

579 - المُصعب الزبيري، **كتاب نسب قريش**، ص26.

580 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص366.

581 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص263.

582 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص263.

583 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص260.

584 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص440.

585 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص435.

586 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج22، ص473.

587 - إنظر ترجمة أبي رافع في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص73-75؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج5، ص ص106-107.

588 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج22، ص ص506-507.

589 - انظر ترجمة الضحّاك بن قيس في: ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص ص396-397؛ ابن سعد، **متمم الصحابة**، ج2، ص ص196-209؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص431-432.

590 - انظر ترجمة فاطمة بنت قيس في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص273-275؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص230؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص ص296، 306.

591 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص273.

592 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص71-72.

593 - «عن أسامة بن زيد قال: كساني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قِبْطِيّة كثيفة كانت ممّا أهدى دِحية الكلبيّ، فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما لي أراك لا تلبس القِبطيّة؟ قلت: يا رسول الله، كسوتُها امرأتي. فقال صلّى الله عليه وسلّم: مُرها فلتجعل تحتها غِلالة، إنّي أخاف أنْ تَصِفَ حَجم عظامها»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص64-65.

594 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص230.

595 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص431. وانظر كذلك: ابن سعد، **مُتمم الصحابة**، ج2، ص196.

596 - انظر معاني فاطمة الزهراء في: المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج43، ص ص10-19؛ أحمد الرحماني، **فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى**، ص ص177-183.

597 - «فإذا تناهت النخلة في الطول فهي سَحوق؛ فإذا كانت تحمل سنة وسنة لا فهي سَنهاء»، الثعالبي، **فقه اللغة وسرّ العربيّة**، ص313.

598 - سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص580-581.

599 - انظر ترجمة أبي ذرّ الغفاري في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص219-237؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج5، ص ص99-101؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج66، ص ص174-223.

600 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص232، 235؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج5، ص101.

601 - انظر ترجمة سلمان الفارسي في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص75-93؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص265-269؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج21، ص ص373-460.

602 - انظر ترجمة المقداد بن الأسود في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص161-163؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج4، ص ص475-478؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج60، ص ص143-183.

603 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص162.

604 – انظر ترجمة الزبير بن العوام في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص100-113؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص97-100؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج18، ص ص332-438.

605 – سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص669.

606 – سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص668. وأخو تيْم أبو بكر الصدّيق.

607 – «[...] عن ابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس! اشتدّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجعه، فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيّ أنْ يُتنازع، فقالوا: ما شأنه أهَجَرَ؟ استفهموه. فذهبوا يُعيدون عليه، فقال: دعوني، فما أنا فيه خير ممّا تدعونني إليه»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص436.

608 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص436.

609 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص244.

610 – «كان ابن عبّاس يقول: الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبين أنْ يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص244.

611 – سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص665.

612 – سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص580-581.

613 – سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص583-584؛ المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص362، 367.

614 – ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص ص29-30؛ المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص352.

615 – انظر مثلا: الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص70-90؛ سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص577-599؛ المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص85-308.

616 – السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، النوع الثامن عشر، ص58.

617 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص237؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج1، ص217.

618 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص562؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادة سُنح، م3، ص265.

619 – البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج1، ص215.

620 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص267.

621 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص262.

622 – انظر الأخبار في هذا الشأن في: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص ص263-273.

623 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج16، ص269.

624 - الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص79.

625 - الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص73. ومحتجز: احتجز بإزاره شدّه على وسطه، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة حجز.

626 - الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص80.

627 - الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص75.

628 - الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص72.

629 - الشيخ المفيد، **الجَمل**، ص59.

630 - ابن بكّار، **الأخبار الموفّقيات**، ص463.

631 - ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص28؛ الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص72. وكذلك: «واجتمعت بنو هاشم إلى بيت عليّ بن أبي طالب ومعهم الزبير، كان يُعدّ نفسه رجلاً من بني هاشم، كان عليّ يقول: ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى نشأ بنوه فصرفوه عنّا»، الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص61؛ «فكان عليّ يقول: ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى نشأ له عبد الله»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص139.

632 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص450. وكذلك: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، الحديث: 7219، ج4، ص ص346-347.

633 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، الحديث: 7219، ج4، ص ص346-347.

634 - الزهري، **المغازي النبويّة**، ص135؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص287.

635 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص182؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص267.

636 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص ص37-38.

637 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص278.

638 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص459. وفي رواية أخرى: «بعث أبوبكر إلى سعد ابن عبادة: أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: لا والله لا أبايع حتى أرميكم بما في كنانتي وأقاتلكم بمن تبعني من قومي وعشيرتي، فلمّا جاء الخبر إلى أبي بكر، قال بشير بن سعد: يا خليفة رسول الله إنه قد أبى ولجّ وليس بمبايعكم أو يُقتل، ولن يُقتل حتى يُقتل معه ولده وعشيرته، ولن يُقتلوا حتى تُقتل الخزرج، ولن تُقتل الخزرج حتى تُقتل الأوس، فلا تحركوه فقد استقام لكم الأمر فإنه ليس بضاركم، إنما هو رجل وحده ما تُرك، فقبل أبوبكر نصيحة بشير فترك سعداً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص616.

639 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص459.

640 - ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص28.

641 - «إنّ سعد بن عُبادة لم يُبايع أبا بكر، وخرج إلى الشام، فبعث عُمر رجلاً وقال له: ادعه إلى البيعة واحتل له، وإنْ أبى فاستعن بالله عليه. فقدم الرجل الشام، فوجد سعداً في حائط بحوارين، فدعاه إلى البيعة، فقال: لا أبايع قرشيّاً أبداً، قال: فإنّي أقاتلك، قال: وإنْ قاتلتني، قال: أفخارج أنتَ ممّا دخلت فيه الأمّة؟ قال: أمّا من البيعة فإنّي خارج. فرماه بسهم فقتله. وقيل: كان جالساً يبول، فرمته الجنّ فقتلته»، البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ج2، ص272.

642 - ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج30، ص277.

643 - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج1، ص28.

644 - الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص73؛ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج28، ص ص184-185.

645 - الواقدي، كتاب الردّة، ص46.

646 - البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ج2، ص269.

647 - المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج28، ص193.

648 - الواقدي، كتاب الردّة، ص46.

649 - الواقدي، كتاب الردّة، ص46.

650 - الواقدي، كتاب الردّة، ص46.

651 - البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ج10، ص54.

652 - الواقدي، كتاب الردّة، ص46.

653 - الواقدي، كتاب الردّة، ص46.

654 - الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص74.

655 - الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص74.

656 - الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص74.

657 - الواقدي، كتاب الردّة، ص46.

658 - «اهْمَأكَّ الرجل وازْمَأكَّ واصْمَأكَّ إذا امتلأ غضباً»، الثعالبي، فقه اللغة وسرّ العربيّة، ص ص172-173.

659 - الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص82.

660 - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص444.

661 - ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج30، ص274.

662 - «بعث أبو بكر عُمر بن الخطّاب إلى عليّ رضي الله عنهم حين قعد عن بيعته، وقال: ائتني به بأعنف العنف، فلمّا أتاه جرى بينهما كلام، فقال عليّ: احلب حلباً لك شطره. والله، ما حرصك على إمارته اليوم إلاّ ليؤمّرك غداً، وما ننفس على أبي بكر هذا الأمر ولكنّا أنكرنا

تركِكم مشاورتنا وقلنا: إنّ لنا حقّاً لا يجهلونه»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص269.

663 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص443.

664 – البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص268.

665 – سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص584-588؛ الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص82-83. وكذلك: «[...] فأمّا عليّ والعبّاس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عُمر بنَ الخطّاب ليُخرجهم من بيت فاطمة، وقال له: إنْ أبوا فقاتلهم. فأقبل بقبس من نار على أنْ يُضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة، فقالت: يا ابن الخطّاب، أجئتَ لتُحرق دارنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمّة»، ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، ج4، ص87.

666 – ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص30.

667 – «لمّا استُخرج عليّ عليه السلام من منزله خرجت فاطمة صلوات الله عليها خلفه، فما بقيت امرأة هاشميّة إلاّ خرجت معها، فقالت: خلّوا عن ابن عمّي، فوالذي بعث محمّداً أبي، صلّى الله عليه وآله، بالحقّ، إنْ لم تخلوا عنه لأنشرنّ شعري، ولأضعنّ قميص رسول الله، صلّى الله عليه وآله، على رأسي، ولأصرخنَّ إلى الله تبارك وتعالى، فما صالح بأكرم على الله من أبي، ولا الناقة بأكرم منّي، ولا الفصيل بأكرم على الله من ولديَّ. قال سلمان الفارسي، رضي الله عنه: كنتُ قريباً منها، فرأيتُ والله أساس حيطان مسجد رسول الله، صلّى الله عليه وآله، تقلّعت من أسفلها حتى لو أراد رجل أنْ ينفذ من تحتها لنفذ، فدنوتُ منها، فقلتُ: يا سيّدتي ومولاتي، إنّ الله تبارك وتعالى بعث أباك رحمة، فلا تكوني نقمة، فرجعت ورجعت الحيطان حتى سطعت الغبرة من أسفلها، فدخلت في خياشيمنا»، الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص86-87.

668 – سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص588-589؛ الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص83. وانظر بالنسبة إلى مؤاخاة النبيّ بينه وبين عليّ: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص606-607؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج4، ص460.

669 – سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص588-589، 727؛ الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص83-84.

670 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص289. والبَجَح الفرح، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة بجح.

671 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص307. وانظر الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص113.

672 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص307.

673 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، 307.

674 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص307.

675 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص307. وانظر كذلك: الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص113.

676 – الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص79. واللَّكَع اللئيم والعبد والأحمق ومَن لا يتّجه لمنطق ولا غيره، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة لكع.

677 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص338؛ الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص82.

678 – أحمد الرحماني، **فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى**، ص634؛ المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج43، ص ص233–235.

679 – الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص83.

680 – انظر ترجمة العبّاس بن عبد المطّلب في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص5–34؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص ص-273 380؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص60–63.

681 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص322.

682 – «قال رسول الله للعبّاس: اطمئنّ يا عمّ، فإنّك خاتم المهاجرين في الهجرة كما أنا خاتم النبيين في النبوّة»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص296.

683 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص61.

684 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص7، 24، 27.

685 – «[...] عن عائشة قالت: ما رأيتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُكرم أحداً إكرامه العبّاس؛ ما رأيتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُجلّ أحداً ما يُجل العبّاس رضي الله عنه؛ لقد رأيتُ من تعظيم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّه العبّاس أمراً عجباً»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص ص329–330.

686 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص ص334–335: «كان رسول الله يُجلّ العبّاس إجلال الولد الوالد، فضيلة خصّ الله بها العبّاس بن عبد المطّلب»؛ وكان يقول لأصحابه: «إنّ جبريل أمرني إذا حضر العبّاس أنْ أخفض صوتي كما أمركم أنْ تخفضوا أصواتكم عندي.»

687 – ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م1، ج1، ص ص168–169.

688 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص278.

689 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص60.

690 – البلاذري، **جُمل من أنساب قريش**، ج4، ص7؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص ص272–273.

691 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص ص272–273.

692 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص60.

693 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص ص283–284.

694 – ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص32.

695 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص ص274-275. والمِقْطَرة خشبة فيها خروق على قَدْر سَعَة رجل المحبوسين [للفلق]، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة قطر.

696 - «وكان أكثر الأساري يوم بدر فداءً العبّاس بن عبد المطّلب، وذلك لأنّه كان رجلاً موسراً، فافتدى نفسه بمائة أوقية من ذهب»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص289.

697 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص13-15.

698 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص292.

699 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص63.

700 - «[...] عن ابن مسعود قال: رأيتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم انتشل يد العبّاس بن عبد المطّلب، وقال: هذا عمّي صنو أبي وسيّد عمومتي من العرب، وهو معي في السناء الأعلى من الجنّة»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج26، ص321؛ «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنّ الله اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً، ومنزلي ومنزل إبراهيم تُجاهيْن في الجنّة، ومنزل العبّاس بن عبد المطّلب بيننا، مؤمن بين خليليْن»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص63.

701 - «[...] عن عليّ عليه السلام، قال: قلتُ للعباس: سل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يستعملك على الصدقة، فسأله، فقال: ما كنتُ لأستعملك على غُسالة ذنوب الناس [...] وقال العبّاس: يا رسول الله، ألا تُؤمّرني على إمارة؟ فقال: نَفْسٌ تُنجيها خيرٌ من إمارة لا تُحصيها»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص27.

702 - انظر ترجمة المُغيرة بن شُعبة في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص284-286؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج6، ص ص166-168. ومن أخباره: «المُغيرة بن شُعبة الثقفي، أسلم عام الخندق وشهد الحديبية، وكان موصوفاً بالدهاء، قال الشعبيّ: دهاة العرب أربعة، معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمُغيرة بن شُعبة، وزياد. أمّا معاوية بن أبي سفيان فللأناة والحلم، وأمّا عمرو بن العاص فللمعضلات، وأمّا المُغيرة بن شُعبة فللمُبادَهَة، وأمّا زياد فللصغير والكبير [...] قيل: إنّ المُغيرة أحصن ثلاثمائة امرأة في الإسلام، وقيل: ألف امرأة [...] ولاّه عُمر بن الخطّاب البصرة ولم يزل عليها حتى شُهد عليه بالزنا فعزله، ثمّ ولاّه البصرة ولم يزل عليها حتى قُتل عُمر، فأقرّه عُثمان عليها [...] وهو أول من وضع ديوان البصرة، وأوّل من رشى في الإسلام [...] وتوفّي بالكوفة سنة خمسين»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج4، ص ص471-472.

703 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج6، ص166.

704 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص285. وكذلك: «كان من دُهاة العرب، لا يقع في أمر إلاّ وجد له مَخرجاً، ولا يلتبس عليه أمران إلاّ ظهر الرأي في أحدهما»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج6، ص167.

705 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج6، ص167.

706 - ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص ص32-33. وانظر كذلك: سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص574؛ الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص81؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص ص114-116.

707 - سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص ص574-575. وانظر كذلك: ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص33؛ الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص81؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص ص115-116.

708 - مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة بدر، الحديث: 1775، ج3، ص ص1398-1399.

709 - الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص98. واللوْثُ عَصْب العمامة، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة لوث.

710 - **النمل 27**/ 16.

711 - **مريم 19**/ 6.

712 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص315.

713 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص314-315.

714 - «إنّ فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول صلّى الله عليه وسلّم، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فَدَك وسهمه من خيبر. فقال لهما أبو بكر: أما إنّي سمعت رسول الله يقول: لا نورَثُ ما تركنا فهو صدقة، إنّما يأكل آل محمد في هذا المال، وإنّي والله، لا أدع أمراً رأيتُ رسول الله يصنعه إلاّ صنعته»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص448.

715 - سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص677.

716 - الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص104.

717 - «لمّا بويع أبو بكر واستقام له الأمر على جميع المهاجرين والأنصار بعث إلى فَدَك مَنْ أخرج وكيل فاطمة عليها السلام، بنت رسول الله منها، فجاءت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى أبي بكر، ثمّ قالت: لِمَ تمنعني ميراثي من أبي رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأخرجتَ وكيلي من فَدَك، وقد جعلها لي رسول الله صلّى الله عليه وآله بأمر الله تعالى»، الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص90-91.

718 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص19؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص20؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص221.

719 - اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص117.

720 - ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، **النمل 27**/ 16.

721 - ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ

وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، **مريم 19/** 1-6.

722 - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، **الأنفال 8/** 75.

723 - ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، **النساء 4/** 11.

724 - ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، **البقرة 2/** 180.

725 - انظر خطبة فاطمة كاملة في: الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص-97 108، فصل: احتجاج فاطمة الزهراء عليها السلام على القوم لمّا منعوها فَدَك وقولها لهم عند الوفاة بالإمامة. والمقاطع المذكورة في نصّنا منه، ص ص100-104. وانظر كذلك: ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص ص31-40.

726 - اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص172.

727 - الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص96.

728 - الشيخ المُفيد، **الاختصاص**، ص185.

729 - **الإسراء 17/** 26. وانظر تفسير الآية في: الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، تفسير سورة **الإسراء**، م6، ص192: «لمّا نزل قوله ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أعطى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فاطمة فَدَكاً»؛ وكذلك: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص36.

730 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج29، ص ص37-38.

731 - الشيخ المُفيد، **الاختصاص**، ص185.

732 - الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص105.

733 - الشيخ المُفيد، **الاختصاص**، ص185. وكذلك: الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص91.

734 - ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص38.

735 - الشيخ المُفيد، **الاختصاص**، ص185.

736 - ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص38. وانظر كذلك: الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص92.

737 - الشيخ المُفيد، **الاختصاص**، ص185.

738 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص ص79-80.

739 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص183.

740 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أولى بالإمامة، الأحاديث: 678، 679، 682، ج1، ص ص224-226

741 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص224، م3، ص171؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، 439؛ البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحقّ بالإمامة، الحديث: 682، الحديث: 713، ج1، ص ص226، 235.

742 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص439. وانظر كذلك: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص215.

743 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج22، ص ص485-486.

744 - ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج1، ص156.

745 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص439.

746 - الشيخ المفيد، **الإرشاد في معرفة حُجج الله على العباد**، ج1، ص183.

747 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص69؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص ص262، 263.

748 - انظر ترجمة عبد الله بن زمعة في: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص141-142؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج4، ص ص77-78.

749 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص348.

750 - «ويُقال إنّه كان مولى أمّ سلمة زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويقال بل كان عبداً لها، فوهبته لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأعتقه»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص122.

751 - **﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، الأحزاب 33/ 33.**

752 - «[...] عن أمّ سلمة قالت: في بيتي نزلت **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾** فأرسل رسول الله إلى فاطمة وعليّ والحَسن والحُسين، فقال: هؤلاء أهل بيتي. فقلتُ: يا رسول الله، أنا من أهل البيت؟ قال: نعم، إن شاء الله»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص343.

753 - ابن بكّار، **الأخبار الموفّقيات**، ص260.

754 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص315. وانظر كذلك: ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج6، ص336.

755 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج22، ص226.

756 - «وكانت أمّ سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب، وإشارتها على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوم الحُديبية يدلّ على وفور عقلها وصواب رأيها»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص457. والذي أشارت به على النبيّ كان يوم الحديبية بعد إبرام الصلح مع المشركين: «قال الزهريّ: فلمّا فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه: قوموا فانحروا ثمّ احلقوا. فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرّات، فلمّا لم يقم منهم أحد دخل على أمّ سَلمة فذكر لها ما لقي من الناس. فقالت أمّ سَلمة: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرج، ثمّ لا تُكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يُكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه. فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، الحديثان: 2731، 2732، ج2، ص ص282-283. وانظر كذلك: ابن كثير، **البداية والنهاية**، م2، ج4، ص ص200-201.

757 - « [...] عن عائشة قالت: لماّ تزوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمّ سلمة حزنتُ حُزناً شديداً لما ذكروا لنا من جمالها، فتلطّفتُ لها حتى رأيتُها، فرأيتُها والله أضعاف ما وُصفت لي في الحسن والجمال. فذكرت ذلك لحفصة، وكانتا يداً واحدة، فقالت: لا والله، إنْ هذه إلاّ الغيرة، ما هي كما يقولون. فتلطّفت لها حفصة حتى رأتها، فقالت: قد رأيتُها ولا والله، ما هي كما تقولين ولا قريب، وإنّها لجميلة. فرأيتُها بعدُ، فكانت لعمري كما قالت حفصة، ولكنّي كنتُ غيرى»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص94.

758 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص170.

759 - ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص40.

760 - ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص40.

761 - ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص40.

762 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص343. «إنّما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: مَن دخل دار أبي سُفيان فهو آمن، لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا أوذي وهو بمكّة فدخل بيت أبي سفيان أمن، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوم فتح مكّة: مَن دخل دار أبي سُفيان فهو آمن»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج23، ص441.

763 - «كان أبو سفيان بن حرب يُمازح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيت بنته أمّ حبيبة، ويقول: والله، إنْ هو إلاّ أنْ تَركتُك فتركتك العرب، إنْ انتطحت فيك جمّاء ولا ذات قرن، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يضحك، ويقول: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة؟»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص ص343-344.

764 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص271.

765 - «حمزة بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف كانت تحته سلمى بنت عُميس أخت ميمونة لأمّها. والعبّاس بن عبد المطّلب كانت عنده أختها لأبيها وأمّها، وهي لبابة بنت

الحارث، وتُكنى بأمّ الفضل. وجعفر بن أبي طالب كانت عنده أسماء بنت عُميس، أختها لأمّها»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص83.

766 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص392.

767 - ابن رستم الطبري، **دلائل الإمامة**، ص15.

768 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج22، ص223.

769 - انظر ترجمة أمّ سلمة في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص86-96. وقد اقتبسنا في نصّنا هنا جملاً من هناك. وانظر كذلك: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص ص340-343؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج8، ص ص455-458.

770 - انظر ترجمة حُذيفة بن اليمان في: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج12، ص ص259-302؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، 468-470.

771 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص ص468-470؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج12، ص ص272-275؛ المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص99-100.

772 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج12، ص ص271-272.

773 - «قال حُذيفة: خذوا عنّا فإنّا لكم ثقة، ثمّ خذوا عن الذين يأخذون عنّا فإنّهم لكم ثقة، ولا تأخذوا عن الذين يلونهم لأنّهم يأخذون حلو الحديث ويدَعُون مُرّه، ولا يصلح حلوه إلاّ بمرّه»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج12، ص289.

774 - انظر حوار حُذيفة والفتى في: المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص89-112.

775 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص91.

776 - الإهماج أنْ يجتهد في بذل أقصى ما عنده من العدو، الثعالبي، **فقه اللغة وسرّ العربيّة**، ص187.

777 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص91.

778 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص91-93.

779 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص310؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م1، ص243؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج71، ص380.

780 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص93.

781 - **العنكبوت 29**/ 2-4.

782 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص95-96.

783 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص96-97.

784 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أولى بالإمامة، الحديثان: 679، 682، ج1، ص ص225، 226؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص217؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص439.

785 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص97-98.

786 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص99. «وهَرْشَى: ثنيّة في طريق مكّة قريبة من الجحفة يُرى منها البحر، ولها طريقان فكلّ مَنْ سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد»، ياقوت الحموي، **مُعجم البلدان**، مادة هرشى، ج5، ص397. ودِباب ج دَبّة ظرف للبزر والزيت، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة دبب.

787 - انظر نصّ الصحيفة كاملاً في: المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص-102 105.

788 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص ص-106 107.

789 - «فدبروا عليه أن يقتلوه وتقدّموا في أن يحفروا له في طريقه حفيرة طويلة قدر خمسين ذراعا، ثم غطّوها بخصّ رقاق ونثروا فوقها يسيرا من التراب بقدر ما غطّوا به وجوه الخصّ، وكان ذلك على طريق علي الذي لا بد له من سلوكه ليقع هو ودابته في الحفيرة التي قد عمّقوها، وكان ما حوالي المحفور أرض ذات حجارة ودبّروا على أنه إذا وقع مع دابته في ذلك المكان كبسوه بالأحجار حتى يقتلوه. فلما بلغ عليّ عليه السلام قرب المكان لوى فرسه عنقه وأطاله الله فبلغت جحفلته أذنيه وقال: يا أمير المؤمنين قد حفر لك ها هنا ودبّر عليك الحتف وأنت أعلم لا تمرّ فيه. فقال له عليّ عليه السلام: جزاك الله من ناصح خيرا كما تدبّر تدبيري، وإن الله عز وجل لا يخليك من صنعه الجميل. وسار حتى شارف المكان فوقف الفرس خوفا من المرور على المكان، فقال عليّ عليه السلام: سر بإذن الله سالما سويا عجيبا شأنك بديعا أمرك، فتبادرت الدابة فإن الله عز وجل قد متّن الأرض وصلّبها وكأنها لم تكن محفورة وجعلها كسائر الأرض، فلما جاوزها عليّ عليه السلام لوى الفرس عنقه ووضع جحفلته على أذنه ثم قال: ما أكرمك على رب العالمين أجازك على هذا المكان الخاوي. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: جازاك الله بهذه السلامة عن نصيحتك التي نصحتني بها. ثم قلب وجه الدابة إلى ما يلي كفلها والقوم معه بعضهم أمامه وبعضهم خلفه وقال: اكشفوا عن هذا المكان. فكشفوا فإذا هو خاو لا يسير عليه أحد إلا وقع في الحفرة، فأظهر القوم الفزع والتعجب مما رأوا منه. فقال عليّ عليه السلام للقوم: أتدرون من عمل هذا؟ قالوا: لا ندري. قال عليه السلام: لكن فرسي هذا يدري، يا أيها الفرس كيف هذا ومن دبّر هذا؟ فقال الفرس: يا أمير المؤمنين عليه السلام إذا كان الله عز وجل يبرم ما يروم جهال القوم نقضه أو كان ينقض ما يروم جهال الخلق إبرامه فالله هو الغالب والخلق هم الغالبون، فعل هذا يا أمير المؤمنين، فلان وفلان إلى أنْ ذكر العشرة، بمواطأة من أربعة وعشرين هم مع رسول الله في طريقه»، الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص ص51-52.

790 – انظر ترجمة أبي سُفيان بن حرب في: البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج5، ص ص10–19؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج23، ص ص421–474؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص392–393، ج5، ص ص148–149.

791 – «عن أبي هُريرة أنّ أبا سُفيان كان حين قُبض النبيّ صلّى الله عليه وسلّم غائباً، بعث به مُصدّقاً. فلمّا بلغته وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: مَن قام بالأمر بعده؟ قيل: أبو بكر. قال: أبو الفصيل؟ إنّي لأرى فتقاً لا يرتقه إلاّ الدم»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص271.

792 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص449.

793 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص449.

794 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج5، ص148.

795 – الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص449. المتلمّس هو جرير بن عبد المسيح الضبعي، شاعر جاهليّ. انظر ترجمته في: ابن قُتيبة، **الشعر والشعراء**، ج1، ص ص179–184؛ ابن سلاّم الجُمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ج1، ص ص155–156.

796 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج5، ص148.

797 – البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج5، ص12.

798 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج5، ص149.

799 – «إنّ علياً غاضبَ فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد أنْ دخلت عليه، فخرج وهو مُغتاظ، فنام على التراب، فرآه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأيقظه، وجعل يمسح ظهره من التراب، ويقول: يا أبا تُراب»؛ «كان عليّ إذا أسمعته فاطمة رضي الله تعالى عنها وأغلظت له، أكرمها عن أنْ يُجيبها بشيء، ووضع على رأسه تراباً، فرآه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم والتراب على رأسه، فمسحه عنه، وقال: أنت أبو تراب»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص ص345–346.

800 – «غزا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تبوك وخلّف علياً في أهله، فقال بعض الناس: ما منعه من أنْ يُخرجه إلاّ أنّه كره صُحبته»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص348.

801 – ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج23، ص441.

802 – «ولطم أبو جهل فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرأت أبا سفيان فشكت إليه، فرجع معها إليه وقال: الطميه، قبّحه الله، فلطمته، فقال: أدركتم المُنافيّة، يا أبا سُفيان. وأخبرت فاطمة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما كان من أبي جهل ومن أبي سُفيان، فقال: اللهمّ لا تَنسَها لأبي سُفيان»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج5، ص14.

803 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص393.

804 – ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص392.

805 – ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م1، ج1، ص294، ج2، ص65.

806 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص308-309؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص453-454.

807 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص469.

808 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص ص109، 111.

809 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص77؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص443؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج2، ص189.

810 - الشيخ المُفيد، **الجَمل**، ص124.

811 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص110، 111، 223.

812 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص468.

813 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص218. **والنسا عرق من الوَرِك إلى الكَعْب**، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة نسو.

814 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص80.

815 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص ص84، 86؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص218-219.

816 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص468.

817 - انظر ترجمة طلحة بن عُبيد الله في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص214-225؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص467-471؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص ص54-125.

818 - انظر ترجمة أبي بكر الصدّيق في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص169-213؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج10، ص ص51-114؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص205-231.

819 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص ص63-64؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص219-220.

820 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج25، ص97. **والقَرْمِل ما تشدّه المرأة في شعرها**، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة قرمل.

821 - «[...] إنّ طلحة تزوّج أربع نسوة عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخت كلّ منهنّ: أم كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة، وحمنة بنت جحش أخت زينب، والفارعة بنت أبي سُفيان أخت أمّ حبيبة، ورقيّة بنت أبي أمية أخت أمّ سلمة»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص438.

822 - «رَجلٌ طِرْفٌ: الرغيب العين الذي لا يرى شيئاً إلاّ أحبّ أنْ يكون له»، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة طرف. وقد وجدنا أنّ هذا قريب من رغبة الاقتداء التي تبرز عند كثير من الناس، وهي بالفرنسيّة: ***désir mimétique***

823 - «كان هذا في بيت أمّ سلمة، أكلوا ثمّ أطالوا الحديث، فجعل النبيّ يدخل ويخرج ويستحي منهم؛ إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يطعم ومعه بعض أصحابه، ومعهم عائشة، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، فكره ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت آية الحجاب»، الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م10، ص325.

824 - ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص ص483-484. وآية الحجاب هي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، **الأحزاب 33/ 53**. وانظر كذلك: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م10، ص324.

825 - «آية الحجاب فيها أحكام وآداب شرعيّة، وهي ممّا وافق تنزيلها قول عُمر بن الخطّاب، رضي الله عنه كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنّه قال: وافقتُ ربّي عزّ وجلّ في ثلاث. قلتُ: يا رسول الله لو اتخذتَ مقام إبراهيم مُصلّى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [**البقرة 2/ 125**] وقلتُ: يا رسول الله، إنّ نساءك يدخل عليهنّ البرّ والفاجر، فلو حجبتهنّ، فأنزل الله آية الحجاب [**الأحزاب 33/ 53**] وقلتُ لأزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لمَ تتمالأن عليه في الغيرة ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [**التحريم 66/ 5**] فنزلت كذلك»، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص483. وانظر كذلك: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م10، ص326.

826 - السيوطي، **الدرّ المنثور في التفسير المأثور**، ج6، ص ص643-644.

827 - «قيل إنّ بعض الناس، قيل هو طلحة بن عُبيد الله، قال: لئن عشتُ بعد محمّد لأنكحنّ عائشة»، الرازي، **مفاتيح الغيب**، م13، ج25، ص194؛ «عن السدّي أنّ الذي عزم على أنْ يتزوّج بعض نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعده طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه»، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص ص485-486؛ «قال ابن عبّاس: قال رجل من سادات قريش من العشرة لو توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتزوّجت عائشة، وهي بنت عمّي. قال مقاتل: هو طلحة بنُ عُبيد الله»، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، م7، ج14، ص207؛ «عن السدّي رضي الله عنه قال: بلغنا أنّ طلحة بنُ عُبيد الله قال: أيحجبنا محمّد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا، لئن حدث به حدث لنتزوّجنّ نساءه من بعده. وعن قتادة رضي الله عنه قال: قال طلحة بنُ عبيد الله: لو قُبض النبي صلّى الله عليه وسلّم تزوّجتُ عائشة رضي الله عنها»، السيوطي، **الدرّ المنثور في التفسير المأثور**، ج6، ص ص643-644؛ «غضب طلحة فقال: يُحرّم علينا محمّد نساءه، ويتزوّج هو بنسائنا! لئن أمات الله محمّداً لنفعلنّ كذا وكذا، لنركضنّ بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا»، القمّي، **تفسير القمّي**، ج3، ص832؛ «وقد حُكيت أقوال في سبب نزول الآية، منها أنّ رجلاً قال: لو مات محمّد تزوّجتُ عائشة [...] وذكروا رواية عن ابن عبّاس وعن مقاتل أنّه طلحة بن عُبيد الله [...] وأقول: لا شكّ أنّه من موضوعات الذين يطعنون في طلحة بن عُبيد الله»، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج23، ص93.

828 - «إنّه لمّا توفّي أبو سلمة وعبد الله بن حذافة وتزوّج النبيّ صلّى الله عليه وآله امرأتيهما أمّ سلمة وحفصة، قال طلحة وعُثمان: أينكح محمّد نساءنا إذا متنا ولا ننكح نساءه إذا مات؟ والله لو قد مات لقد أجلنا على نسائه بالسهام! وكان طلحة يريد عائشة وعُثمان يريد أمّ سلمة»، المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج31، ص86.

829 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص77؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص443؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج2، ص189.

830 - «أتى عُمر بن الخطّاب منزل عليّ وفيه طلحة والزبير، فقال: والله، لأحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص443.

831 - الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص73.

832 - انظر ترجمة صَفوان بن المُعطّل السُّلَميّ في: ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص ص412-413؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص158-176؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص ص364-365.

833 - «روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حديثَيْن»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص158.

834 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص412. وساقة الجيش مُؤخّره، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة سوق.

835 - «جاءت امرأة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالت: يا رسول الله، إنّ زوجي صَفوان بن المُعطّل يضربني إذا صلّيتُ، ويُفطّرني إذا صُمتُ، ولا يُصلّي الفجر حتى تطلع الشمس. فسأل صفوان، وكان عنده، عمّا قالت، فقال: يا رسول الله، أمّا قولها يضربني إذا صلّيتُ فإنّها تقرأ بسورتي وقد نهيتها عنها، وأمّا قولها يُفطّرني إذا صُمتُ فإنّها تنطلق فتصوم وأنا رجل شابّ لا أصبر، وأمّا قولها إنّي لا أصلّي حتى تطلع الشمس فإنّا أهل بيت قد عُرف لنا ذلك، إنّا لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس. فقال لها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لا تقرئي بسورته، ولا تصومي إلاّ بإذنه، وأمّا أنت يا صفوان، فإذا استيقظت فصَلّ»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص124-125.

836 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص158، 164، 166، 169.

837 - «يا حسّان، أتشوّهتَ على قوم أنْ هداهم الله للإسلام، بقول تنفّستَ عليهم؟ يا حسّان، أحسن فيما أصابك»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص169.

838 - «[...] عن عائشة، قالت: وقعد صَفوان بن المُعطّل لحسّان بن ثابت فضربه بالسيف، فجاء حسّان إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاستعداه على صَفوان، فاستوهبه الضربة فوهبها له [...] وكفن سعد بن عُبادة صَفوان حلّة، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كساه الله من حُلل الجنّة»، ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج3، ص464.

839 - انظر هذه الأخبار في: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج24، ص ص158-169.

840 - انظر ترجمة عبد الله بن جعفر في: ابن سعد، **مُتمّم الصحابة**، ج2، ص ص5-25؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص94-96؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة

دمشق، ج27، ص ص248-298؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج4، ص ص34-36.

841 - «أمر أبو بكر بقتل الكلاب، ولعبد الله بن جعفر كلب تحت سرير أبي بكر، فقال: يا أبتِ، كلبي، فقال: لا تقتلوا كلب ابني [...] وكان أبو بكر قد خلف على أمّه أسماء بنت عُميس بعد جعفر»، ابن سعد، **مُتمّم الصحابة**، ج2، ص15.

842 - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج4، ص36؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج27، ص ص252-253.

843 - «قال عبد الله بن جعفر لعبد الله بن الزبير: أتذكر إذ تلقّينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنا وأنت وعبد الله بن عبّاس؟ قال: نعم، قال: فحملنا وتركك»، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج27، ص260.

844 - ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج27، ص257؛ ابن سعد، **مُتمّم الصحابة**، ج2، ص ص7-8.

845 - ابن سعد، **مُتمّم الصحابة**، ج2، ص ص8-9.

846 - «وكانت حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أمّ المؤمنين زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأمّها أميمة بنت عبد المطّلب عمّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكانت ممّن قال في الإفك على عائشة رضي الله عنها، فعلت ذلك حَميّة لأختها زينب»، ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص69؛ «قالت عائشة: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، الحديث: 4141، ج3، ص126.

847 - **النور 24**/ 11.

848 - انظر حديث الإفك في: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، الحديث: 4141، ج3، ص ص123-126؛ مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول التوبة، الحديث: 2770، ج4، ص ص2129-2137؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص264-270.

849 - «ظَفَار مدينة باليمن قُرب صَنعاء، وهي التي يُنسب إليها الجَزْع الظَّفاريّ، وبها كان مسكن ملوك حمير. وقد قال بعضهم إنّ ظَفَار هي صَنعاء نفسها، ولعلّ هذا كان قديماً»، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادّة ظَفار، م4، ص60. والجزْع الخَرَز [= العقيق] اليمانيّ الصينيّ، فيه سواد وبياض تُشبّه به الأعين، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة جزع.

850 - «فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأمّا أسامة فأثنى عليّ خيراً، ثمّ قال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم منهم إلاّ خيراً، وهذا الكذب والباطل. وأمّا عليّ فإنّه قال: يا رسول الله، إنّ النساء لكثير، وإنّك لقادر أنْ تستخلف، وسل الجارية، فإنّها ستصدقك. فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بريرة ليسألها، فقام إليها عليّ بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً، وقال: اصدقي رسول الله، قالت: والله، ما أعلم إلاّ خيراً، وما كنتُ أعيب على عائشة شيئاً، إلاّ أنّي كنتُ أعجن

عجيني، فآمرها أنْ تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله»، ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م2، ج4، ص ص265-266.

851 - «قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيرا. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع. قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، الحديث: 4141، ج3، ص ص125-126.

852 - النور **24**/ 11.

853 - كثيراً ما تُعيّن الأخبار النفر الذين رموا عائشة بالإفك في هؤلاء: عبد الله بن أبيّ بن سلول ومسطح بن أثاثة وحسّان بن ثابت وحمنة بنت جحش. انظر: مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول التوبة، الحديث: 2770، ج4، ص2137؛ ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م2، ج4، ص ص265، 270؛ ابن كثير، **تفسير القرآن الكريم**، ج3، ص ص260-268.

854 - «وجلد رسول الله حسّان بن ثابت ومِسطح بن أثاثة وعبد الله بن أبيّ بن سلول وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش»، اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص44؛ «ثمّ خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثمّ أمر بمِسطح بن أثاثة وحسّان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممّن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدّهم»، ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م2، ج4، ص267.

855 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م2، ج4، ص268.

856 - «فعلت ذلك حَميّة لأختها زينب»، ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج6، ص69.

857 - «وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، الحديث: 4141، ج3، ص ص125-126.

858 - «قالت عائشة: والله إن الرجل [= صفوان بن المُعطّل] الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله، فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كَنَفِ أنثى قطّ. قالت: ثم قُتل بعد ذلك شهيداً في سبيل الله»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، الحديث: 4141، ج3، ص126؛ مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول التوبة، الحديث: 2770، ج4، ص2137. «وكانت عائشة تقول: لقد سُئل عن ابن المُعطّل فوجدوه رجلاً حصوراً، ما يأتي النساء، ثمّ قُتل بعد ذلك شهيداً»، السهيلي، **الروض الأنف**، ج6، 419. وانظر كذلك: ابن كثير، **السيرة النبويّة**، ج3، ص311. والحَصُور مَنْ لا يأتي النساء ولا يشتهيهنّ ولا يقربهنّ، والمجبوب الذي استؤصلت خصيته، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة حصر، مادة جبب.

859 - **الخالُ** الرجل الفارغ من علاقة الحبّ، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة خيل.

860 - انظر أقوال أبي سُفيان في أبي بكر، في: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص449؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص271؛ ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص ص44-45؛ الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص ص107-109.

861 - «وذكر أنّ أبا سفيان قال شيئاً آخر لم تحفظه الرواة»، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص44؛ الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص108.

862 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج5، ص15.

863 - «إنّ أبا سُفيان قال لمّا قدم المدينة: إنّي لأرى عجاجة لا يُطفئها إلاّ الدم. فكلّم عُمر أبا بكر، فقال: إنّ أبا سُفيان قد قدم، وإنّا لا نأمن شرّه، فدع له ما في يده، فتركه فرضي»، الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص108؛ ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص44.

864 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب اللباس، باب التصاوير، الحديث: 5949، ج4، ص81، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، الحديث: 3225، الحديث: 3227، ج2، ص ص427-428؛ مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير الحيوان وأنّ الملائكة لا يدخلون [...]، الأحاديث: 2104، 2105، 2106، ج3، ص ص1664-1665.

865 - الدِّرَّة التي يُضرب بها، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة درر.

866 - انظر ترجمة عبد الله بن عُمر في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م4، ص ص142-188؛ ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص ص236-241؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج31، ص ص79-204.

867 - ابن الأثير، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج3، ص237.

868 - « [...] عن حمزة بن عبد الله، عن أبيه [= عبد الله بن عُمر] قال: كانت الكلابُ تَبولُ وتُقبل وتُدبر في المسجد في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا يرشّون شيئاً من ذلك»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يُغسَل به شعر الإنسان، الحديث: 174، ج1، ص77.

869 - «[...] عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: مَنْ أمسك كلباً فإنّه يَنقصُ كلَّ يوم من عمله قِيراطٌ إلاّ كلب ماشيّة أو حرث أو صيد»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الحرث والمزارعة، باب اقتناء الكلب للحرث، الحديث: 2323، ج2، ص152.

870 - «[...] عن عَديّ بن حاتم، قال: «سألتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: إذا أرسلتَ كلبَكَ المُعلّمَ فقتل فكُل، وإذا أكل فلا تأكل فإنّه أمسكه لنفسه. قلتُ: أُرسلُ كلبي فأجد معه كلباً آخر، قال: فلا تأكل، فإنّما سمّيتَ على كلبك ولم تُسمّ على كلب آخر»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يُغسَل به شعر الإنسان، الحديث: 175، ج1، ص77.

871 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يُغسَل به شعر الإنسان، الحديث: 172، ج1، ص77.

872 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الوضوء، «باب الماء الذي يُغسل به شَعَرُ الإنسان. وكان عَطاء لا يرى به بأساً أنْ يُتّخذ منها الخيوط والحبال، وسُؤْرِ الكلاب، وممرّها في المسجد. وقال الزُّهريّ: إذا وَلَغَ في إناء ليس له وَضوء غيره يتوضّأ به. وقال سُفيان: هذا الفقه بعينه»، ج1، ص76.

873 - **الكهف 18**/ 18، 22.

874 - ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص75. في تفسير سورة **الكهف**، الآية 18.

875 - «سَلُوق: السّلوقيّة من الدروع منسوبة إلى سَلُوق قرية باليمن، وكذلك الكلاب السّلوقيّة منسوبة إليها [...] سَلُوق: مدينة باللاّن، يُنسب إليها الكلاب السّلوقيّة [...] اللاّن: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب، مجاورون للخَزَر»، ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، مادّة سلوق، ج3، ص242، مادّة اللاّن، ج5، ص8.

876 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص460. وانظر الخطبة كاملة هناك أو في غيره بصيغ مختلفة: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص182-183؛ ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص82.

877 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص183.

878 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص182؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص267؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج30، ص ص37-38.

879 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص75.

880 - «اقتحم الناس على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بيت عائشة ينظرون إليه، فقالوا: كيف يموت وهو شهيد علينا ونحن شهداء على الناس فيموت ولم يظهر على الناس؟ لا والله، ما مات ولكنّه رُفع كما رُفع عيسى ابن مريم، وليرجعنّ، وتوعّدوا مَن قال إنّه مات، ونادوا في حجرة عائشة وعلى الباب: لا تدفنوه فإنّ رسول الله لم يمت»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص271. وانظر كذلك: ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص75؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص242.

881 - **الزمر 39**/ 30-31.

882 - **آل عمران 3**/ 144.

883 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص268، 270.

884 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص444.

885 - انظر الأمراء/ الأئمة من قريش في: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأحكام، باب الأمراء من قُريش، الحديث 7139، الحديث 7140، ج4، ص ص328-329؛ مُسلم، **صحيح مُسلم**، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقُريش والخلافة في قُريش، الأحاديث: 1818، 1819، 1820، 1822، 1823، ج3، ص ص1451-1454؛ «وأمّا النسب القرشيّ فلإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك، واحتجّت قريش على الأنصار لمّا همّوا يومئذ ببيْعة سعد بن عبادة، وقالوا: منّا أمير ومنكم أمير، بقوله صلّى الله عليه وسلّم: الأئمة من قريش»، ابن خلدون، **المقدّمة**، ص194.

886 - سُليم الهلالي، كتاب سُليم، ج2، ص588-589، 727؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص ص83-84؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص289.

887 - البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الفرائض، باب قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا نورّث ما تركنا صدقة، الأحاديث: 6725، 6726، 6727، 6728، 6729، 6730، ج4، ص ص235-237؛ مُسلم بن الحجّاج، صحيح مُسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا نورّث ما تركناه هو صدقة، الأحاديث: 1758، 1759، 1760، 1761، ج3، ص ص1379-1382.

888 - الرازي، مفاتيح الغيب، م13، ج25، ص194؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص ص485-486؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م7، ج14، ص207؛ السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير المأثور، ج6، ص ص643-644؛ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج31، ص86؛ القمّي، تفسير القمّي، ج3، ص832؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج23، ص93.

889 - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، الأحزاب 33/ 53.

890 - ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾، الأحزاب 33/ 6.

891 - الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، م10، ص259، في تفسير الأحزاب 33/ 6.

892 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص451، في تفسير الأحزاب 33/ 6.

893 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م7، ص115، في تفسير الأحزاب 33/ 6.

894 - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص444؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج30، ص274.

895 - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص456؛ ابن قُتيبة، الإمامة والسياسة، ج1، ص23.

896 - انظر ما حدّث به عُمر بن الخطّاب أبا موسى الأشعري والمُغيرة بن شُعبة بشأن أبي بكر في: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج2، ص ص30-34.

897 - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج2، ص32.

898 - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج2، ص34.

899 - ابن هشام، السيرة النبويّة، م3، ج6، ص82.

900 - «نادى منادي أبي بكر من بعد الغد من مُتوفّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لِيَتِمّ بعث أسامة، ألا لا يبقينّ في المدينة أحدٌ من جند أسامة إلاّ خرج إلى عسكره بالجرف»، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص460.

901 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص171، م2، ص224؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص439.

902 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحقّ بالإمامة، الحديثان: 682، 713، ج1، ص ص226، 235.

903 - «أمّا اليوم الذي مات فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلا خلاف بين أهل العلم بالأخبار فيه أنّه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل، غير أنّه اختُلف في أيّ الأثانين كان موته، فعن فقهاء أهل الحجاز، قالوا: قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نصف النهار يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأوّل [...] وقال الواقدي: توفّي يوم الاثنين لثنتيْ عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص460. وذكروا أثانين أخرى من شهر ربيع الأوّل، وذكروا أنّ وفاته كانت يوم الأربعاء، وهو نادر: انظر مجمل ذلك في: ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص275-280؛ ابن قتيبة، **المعارف**، ص165.

904 - «قد قدّمنا أنّهم رضي الله عنهم اشتغلوا ببيعة الصدّيق بقية يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ولمّا تمهّدت البيعة وتوطّدت وتمّت شرعوا بعد ذلك في تجهيز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص280. وانظر: ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص83.

905 - «فلمّا بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [...] وقال بعضهم: إنّما دُفن بعد وفاته بثلاثة أيّام، وقد مضى ذكر بعض قائلي ذلك»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص450؛ «وُلد رسول الله يوم الاثنين، وأوحي إليه يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، ومكث ثلاثة أيّام لا يُدفن يدخل عليه الناس أرسالاً أرسالاً يُصلّون لا يصفّون ولا يؤمّهم عليه أحد»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص292. وانظر هناك نقاش ابن كثير لمسألة الأيام الثلاثة.

906 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص273.

907 - انظر علاقة الناس بالميت والموت في:

THOMAS, Louis-Vincent, *Anthropologie de la mort*; *Rites de mort pour la paix des vivants.*

908 - ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج13، ص ص36-37.

909 - ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، يس **36/ 39**. وتفسير ذلك: «وأمّا القمر فقدّره منازلَ يطلع في أوّل ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثمّ يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثمّ كلّما ارتفع ازداد ضياءً حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثمّ يشرع في النقص حتى يصير كالعرجون القديم [...] والعرب تُسمّي كلّ ثلاث من الشهر باسم باعتبار القمر، فيُسمّون الثلاث الأوّل غُرَر، واللواتي بعدها نُفَل، واللواتي بعدها تُسَع لأنّ أخراهنّ التاسعة، واللواتي بعدها عُشَر لأنّ أولاهنّ العاشرة، واللواتي بعدها البيض لأنّ ضوء القمر فيهنّ إلى آخرهنّ، واللواتي بعدهنّ دُرَع لأنّ أوّلهنّ أسود لتأخّر القمر في أوّلهنّ، وبعدهنّ ثلاث ظُلَم، ثمّ ثلاث حَنادس وثلاث دآدى وثلاث

مَحاقَ لانمحاق القمر أو الشهر فيهنّ»، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص550. وانظر كذلك: الثعالبي، **فقه اللغة وسرّ العربيّة**، ص353.

910 - الليالي البيض في عدّ العرب الشهري هنّ الليالي الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة ويكون ضوء القمر فيهنّ إلى آخرهنّ. انظر الهامش السابق.

911 - انظر الدراسات الخاصّة بالقمر، ومنها:

ELIADE, Mircea, *Traité d'histoire des religions*, pp. 139-164 ; *La lune, mythes et rites.*

912 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص437.

913 - انظر ترجمة دحية بن خليفة الكلبي في: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج17، ص ص201-216؛ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج2، ص6. وانظر كذلك: المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج28، ص91.

914 - «كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث، ولم يجترئ أحدٌ أنْ يكشف عن وجهه الغطاء حتّى اربدّ بطنه، فكشف عن وجهه، وقبّل بين عينيه، ثمّ قال: بأبي أنتَ وأمّي، طبتَ حيّا وطبتَ ميّتاً، ثمّ خرج أبو بكر»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص443.

915 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص244.

916 - «تُرِكَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد وفاته حتى ربا قميصُه ورُئيَ في خنصره انثناءٌ؛ لم يُدفن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى عُرف الموت فيه في أظافره اخضرّت»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص274.

917 - «لمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ائتمر أصحابه، فقالوا: تربّصوا بنبيّكم، لعلّه عُرِجَ به، فتربّصوا به حتى ربا بطنه، فقال أبو بكر: مَنْ كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومَن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص271.

918 - ابن هشام، **السيرة النبويّة**، م3، ج6، ص84؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص451؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص281.

919 - «التمس عليٌّ من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند غسله ما يُلتمسُ من الميّت فلم يجد شيئاً، فقال: بأبي أنت وأمّي طِبتَ حيّاً وميّتاً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص281.

920 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص443.

921 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص278، 280.

922 - «إنّ عليّ بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المُطّلب والفضل بن العبّاس وقُثَم بن العبّاس وأسامة بن زيد وشُقران مولى رسول الله، هم الذين ولوا غسله، فأسنده عليّ بن أبي طالب إلى صدره، وكان العبّاس والفضل وقُثم هم الذين يُقلّبونه معه، وكان أسامة بن زيد وشُقران مولياه هما اللذان يصبّان الماء وعليّ يغسله وقد أسنده إلى صدره»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص451.

923 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص276.

924 - «لمّا أرادوا أنْ يغسلوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اختلفوا فيه، فقالوا: والله، ما ندري، أنجرّد رسول الله من ثيابه كما نُجرّد موتانا أو نغسله وعليه ثيابه؟ فلمّا اختلفوا أُلقيَ عليهم السِّنَةُ حتى ما منهم رجل إلاّ وذقنه في صدره، ثمّ كلّمهم مُتكلّم من ناحية البيت لا يُدرى مَنْ هو أن اغسلوا النبيّ وعليه ثيابه، فغسلوه وعليه قميصه يصبّون عليه الماء والقميص دون أيديهم. فلمّا فُرِغَ من غسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كُفّن في ثلاثة أثواب، ثوبيْن صُحاريّيْن وبُرد حِبَرَة أُدرجَ فيها إدراجاً»، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص451. وانظر كذلك: ابن هشام، السيرة النبويّة، م3، ج6، ص84.

925 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص280.

926 - «قال عليّ: فغسلتُه فما آخذ عضواً إلاّ تبعني؛ فما تناولتُ عضواً كأنّما يُقلّبه معي ثلاثون رجلا، حتى فرغتُ من غسله»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص ص281، 278.

927 - «ووليَ عليٌّ غَسلته والعبّاس يصبُّ الماء والفضلُ مُحتضنه يقول: أرحني أرحني قطعتَ وتيني، إنّي أجد شيئاً يتنزّل عليّ؛ اعجل يا عليّ انقطع ظهري»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص ص280-281. والوَتينُ عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبُه، الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة وتن.

928 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص288.

929 - «إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كُفّنَ في حلّة حِبَرَة ثمّ نُزعت وكُفّن في بياض؛ كُفّنَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ثلاثة أثواب بيض سَحوليّة كُرْسُف ليس فيها قميص ولا عمامة»، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص ص287، 282. وانظر كذلك: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب الثياب البيض للكفن، الحديث: 1264، ج1، ص390. وثوب سَحْل أو مِسْحَل، أو سَحوليّ: ثوب لا يُبرم غزله، ثوب أبيض أو من القُطن، الثوب النقيّ من القُطن؛ الكرسُف: القُطْن، الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة سحل، مادة كرسف.

930 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص288.

931 - آل عمران 3/ 185.

932 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص ص275، 259.

933 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص ص292، 293؛ ابن هشام، السيرة النبويّة، م3، ج6، ص ص85-86؛ البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ج2، ص252؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص452؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م3، ج5، ص ص287-288.

934 - البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ج2، ص252. وكذلك: «إنّ عندي من هذا خبراً وعلماً، سمعتُ رسول الله يقول: ما قُبِضَ نبيٌّ إلاّ دُفن حيث تُوفّي»، ابن كثير، البداية والنهاية، م3، ج5، ص288. وانظر كذلك: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص ص292-293؛ ابن هشام، السيرة النبويّة، م3، ج6، ص ص85-86؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص452.

935 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص293.

936 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص287.

937 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص252.

938 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص290.

939 - «فخطّ حول فراشه ثمّ حُوّل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالفراش ناحيَة، ثمّ حَفر له أبو طلحة ولحد له»، البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص251؛ «رُفعَ فراش رسول الله الذي تُوفّي عليه وحُفر له تحته»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص452.

940 - «لمّا أرادوا أنْ يحفروا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكان أبو عُبيدة بن الجرّاح يضرح كحفر أهل مكّة وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة وكان يلحد، فدعا العبّاس رجليْن فقال لأحدهما اذهب إلى أبي عُبيدة وللآخر اذهب إلى أبي طلحة، اللهمّ خِرْ لرسولك! فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به، فلحد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص452.

941 - الكَرازين ج كَرْزَن أو كَرْزين فأس كبير، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة كرزن.

942 - «شُغل الناس عن دفنه فلم يُدفن حتى كانت العتمة، ولم يَلِه إلاّ أقاربُه، ولقد سَمعتْ بنو غَنْم صريف المساحي حين حُفر لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنّهم لفي بيوتهم [...] وقالت بنو لَيْث: كُنّا نسمع صريف المساحي ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُدفن بالليل [...] وقال شيوخ من الأنصار: سمعنا صوت المساحي آخر الليل»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص304-305.

943 - «إنّ أمّ سَلمة كانت تقول: ما صدّقتُ بموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى سمعتُ بوَقْع الكرازين»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص304.

944 - «عن عائشة أمّ المؤمنين قالت: ما علمنا بدفن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى سمعنا صَوتَ المساحي من جوف الليل»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص452، 455؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص305.

945 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص289.

946 - «عن أمّ سلمة قالت: بيناً نحن مجتمعون نبكي لم ننم ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيوتنا ونحن نتسلّى برؤيته على السرير، إذ سمعنا صوت الكرازين في السحر، فصحنا وصاح أهل المسجد، فارتجّت المدينة صيحةً واحدةً، وأذّن بلالٌ للفجر، فلمّا ذكر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبكى وانتحب، فزادنا حُزناً، وعالج الناس الدخول إلى قبره فغُلق دونهم، فيا لها من مُصيبة ما أُصِبنا بعدها بمُصيبة إلاّ هانت إذا ذكرنا مُصيبتنا به صلّى الله عليه وسلّم»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص291.

947 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص452.

948 - وهي عبارة كثيراً ما ترد في الكتب عند رواية الأخبار المتواترة، انظر مثلاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص264-265؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص186؛

البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، الحديث: 4141، ج3، ص123.

949 - «[...] عن عُقبَةَ بن عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ثلاثُ ساعاتٍ كان رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم ينهانا أن نُصَلِّيَ فيهنّ، وأن نَقْبُرَ فيهنّ موتانا: حين تَطْلُعُ الشَّمْسُ بازغةً حتى ترتفعَ، وحين يقومُ قائمُ الظَّهيرةِ حتى تزولَ، وحين تَضَيَّفُ الشَّمْسُ للغُروب»، مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها، الحديث: 831، ج1، ص ص568-569.

950 - «عن ابن عبّاس قال: مات إنسان كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعوده، فمات بالليل، فدفنوه ليلاً، فلمّا أصبح أخبروه، فقال: ما منعكم أنْ تُعلموني؟ قالوا: كان الليل فكرهنا، وكانت ظُلمةٌ، أنْ نَشُقَّ عليك. فأتى قبره فصلّى عليه»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الجنائز، باب الإذن بالجنازة، الحديث: 1247، وكذلك: باب الدفن بالليل، الحديث: 1340، ج1، ص ص386، 411.

951 - «دُفنت فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليلاً ودفنها عليٌّ»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص29.

952 - «عن عائشة قالت: دخلتُ على أبي بكر رضي الله عنه فقال: في أيّ يوم تُوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ قالت: يوم الاثنين. قال: فأيّ يوم هذا؟ قالت: يوم الاثنين. قال: أرجو فيما بيني وبين الليل. فلم يُتَوَفَّ حتى أمسى من ليلة الثلاثاء، ودفن قبل أنْ يُصبح»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الجنائز، باب موت يوم الاثنين، الحديث: 1387، ج1، ص426. وانظر كذلك باب الدفن بالليل ودُفن أبو بكر رضي الله عنه ليلاً، الحديث: 1340، ج1، ص411؛ «ومات أبو بكر ليلة الثلاثاء ودُفن ليلاً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص201.

953 - «قُتل عُثمان يوم الجمعة [...] ودُفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء في حشّ كوكب بالبقيع»؛ «خرجت نائلة بنت الفُرافِصَة [= زوجة عُثمان] تلك الليلة وقد شقّت جيبها قُبُلاً ودُبُراً ومعها سراج وهي تصيح: وأمير المُؤمنيناه! فقال لها جُبير بن مُطعم: أطفئي السراج لا يُفطن بنا فقد رأيتُ الغُواةَ الذين على الباب، فأطفأت السراج، وانتهوا إلى البقيع»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص ص77، 78.

954 - «ماتت عائشة ليلة سبع عشرة من شهر رمضان بعد الوتر، فأمرت أنْ تُدفن من ليلتها، فاجتمع الناس وحضروا فلم نَرَ ليلةً أكثر ناساً منها، نزل أهل العوالي، فدُفنت بالبقيع [...] حُمل معها جريد ألقوا عليه الخِرَق وغمسوه في زيت وأشعلوا فيها ناراً، فحملوها معها، ورؤيت النساء بالبقيع كأنّه عيد [...] ودفنت ليلاً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص77.

955 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص160.

956 - «عن عائشة قالت: تزوّج بي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا ابنة ستّ سنين، وبنى بي وأنا ابنة تسع سنين، وتوفّي وأنا ابنة ثماني عشرة»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص62.

957 - «تُوفّيت عائشة ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضت من شهر رمضان سنة ثمانٍ وخمسين، ودُفنت من ليلتها بعد الوتر وهي يومئذ بنت ستّ وستّين سنة»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص78.

958 - انظر: جوّاد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج5، ص ص164-165.

959 - البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الحديث: 1389، ج1، ص427.

960 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص63-64.

961 - «لم يكن على بيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حائط، فكان أوّلُ مَن بنى عليه جداراً عُمر بن الخطّاب، وكان جداره قصيراً ثمّ بناه عبد الله بن الزبير بعدُ وزاد فيه»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص294.

962 - «قُسم بيت عائشة باثنيْن، قسم كان فيه القبر، وقسم كان تكون فيه عائشة، فكانت عائشة ربّما دخلت حيث القبر فُضُلاً، فلمّا دُفن عُمر لم تدخله إلاّ وهي جامعة عليها ثيابها [...] كانت عائشة تكشف قناعها حيث دُفن أبوها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلمّا دُفن عُمر تقنّعت فلم تطرح القناع»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص294.

963 - البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص249.

964 - «قالت عائشة لأبي بكر: إنّي رأيتُ في المنام كأنّ ثلاثة أقمار سقطن في حُجرتي، فقال أبو بكر: خير. فلمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدُفن في بيتها، قال لها أبو بكر: هذا أحد أقمارك وهو خيرها [...] ثمّ كان أبو بكر وعُمر دُفنوا جميعاً في بيتها»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص293-294.

965 - «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: عائشة زوجي في الجنّة؛ وقال: لقد رأيتها في الجنّة ليُهوِّن بذلك عليّ موتي، كأنّي أرى كفّيْها»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص66.

966 - «عن عائشة أنّها قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كلّما كانت ليلتها من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يخرجِ من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، واتاكم ما تُوعَدون غداً مُؤجّلون وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهمّ اغفر لأهلِ بَقيع الغَرْقَد»، مُسلم بن الحجّاج، **صحيح مُسلم**، كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، الحديث: 974، ج2، ص ص669-671.

967 - انظر تقاليد بعض الشعوب التي تجعل من الأرملة زوجة لا تُقرب في:
HERTZ, Robert, *Contribution à une étude sur la représentation collective de la mort*, p37.

968 - «خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أبي بكر الصدّيق عائشة، فقال أبو بكر: يا رسول الله، قد كنتُ وعدتُ بها مُطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف لابنه جُبير فدعني حتى أستلّها؛ عن عائشة قالت: وجاءه جبريل بصورتي من السماء في حريرة، وقال: تزوّجها فإنّها امرأتك؛ عن عائشة قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أريتُك في المنام مرّتيْن، أُتيتُ بك في سرقة حرير فأكشفُها فإذا هي أنت، فيُقال: هذه امرأتك، فأقول: إنْ كان من عند الله فيُمضه؛ خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عائشة بنت أبي بكر

وهي صبيّة، فقال أبو بكر: أي رسول الله، أيتزوّج الرجل ابنة أخيه؟ فقال: إنّك أخي في ديني. فزوّجها إيّاه»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص58، 63، 67، 59.

969 - ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، **النور 24/ 11**.

970 - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، **الأحزاب 33/ 53**. وانظر التفسير: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يطعم ومعه بعض أصحابه، ومعهم عائشة، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، فكره ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت آية الحجاب»، الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م10، ص325.

971 - ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾، **الأحزاب 33/ 6**.

972 - انظر: وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ص226-231؛ **القربان في الجاهليّة والإسلام**، ص ص34، 126. وانظر:

GIRARD, René, *la route antique des hommes pervers*, p.p. 42-50 ; *la violence et le sacré*, p.p. 105-134 ; *le bouc émissaire*, p.p. 158-159.

973 - «عن عائشة أنّها قالت: أُعطيتُ خِلالاً ما أُعطيتْها امرأة، ملكني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا بنت سبع سنين، وأتاه المَلَك بصورتي في كفّه فنظر إليها وبنى بي لتسع سنين [...]»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص65.

974 - «عن عائشة قالت: أتاني نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: إنّي سأعرض عليك أمراً، فلا عليك أنْ لا تعجلي به حتى تُشاوري أبويك. فقلتُ: وما هذا الأمر؟ فتلا عليّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۞ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [**الأحزاب 33/ 28-29**] فقلتُ: في أيّ ذلك تأمرني أنْ أشاور أبويّ؟ بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فسُرّ بذلك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأعجبه، وقال: سأعرض على صواحبك ما عرضتُ عليك. فقلتُ: فلا تُخبرهنّ بالذي اخترتُ. فلم يفعل، كان يقول لهنّ كما قال لعائشة، ثمّ يقول: قد اختارت عائشة الله ورسوله والدار الآخرة. قالت عائشة: فقد خيّرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم نَرَ ذلك طَلاقاً»، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م8، ص ص68-69.

975 - «البليّة الناقة يموت ربّها فتُشدُّ عند قبره حتى تموت، كانوا يقولون: صاحبها يُحشر عليها، ومَن لم يفعل ذلك حُشر راجلاً»، الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة بلي. وانظر: جوّاد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج5، ص174.

976 - انظر بحث هذا الطقس في:

ABDESSALEM, Mohamed, *Le thème de la mort dans la poésie arabe*, p.p. 101-104.

977 - المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، الباب الثالث: تمهيد غصب الخلافة وقصّة الصحيفة الملعونة، ج28، ص ص85-174.

978 - «عن عائشة قالت: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مرضه الذي لم يقمْ منه، يقول: لعن الله اليهود والنصارى، اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد. ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنّه خُشيَ أنْ يُتّخذ مسجداً»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الحديث: 1390، ج1، ص427؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص289.

979 - «ثمّ رجعت فاطمة إلى منزلها وأخذت بالبكاء والعويل ليلها ونهارها، وهي لا ترقأ دمعتها ولا تهدأ زفرتها، واجتمع شيوخ أهل المدينة وأقبلوا إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فقالوا له: يا أبا الحسن، إنّ فاطمة عليها السلام تبكي الليل والنهار، فلا أحد منّا يتهنّأ بالليل في فُرشنا، ولا بالنهار لنا قرار على أشغالنا وطلب معايشنا، وإنّا نُخبرك أنْ تسألها إمّا أنْ تبكي ليلاً أو نهاراً. فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام حتى دخل على فاطمة، وهي لا تفيق من البكاء، ولا ينفع فيها العزاء، فلمّا رأته سكنت هنيئة له، فقال لها: يا بنت رسول الله إنّ شيوخ المدينة يسألوني أنْ أسألك إمّا أنْ تبكي أباك ليلاً وإمّا نهاراً. فقالت: [...] فوالله، لا أسكت ليلاً ولا نهاراً أو ألحق بأبي رسول الله. فقال لها عليّ عليه السلام: افعلي يا بنت رسول الله ما بدا لك. ثمّ إنّه بنى لها بيتاً في البقيع نازحاً عن المدينة يُسمّى بيت الأحزان، وكانت إذا أصبحت قدّمت الحسن والحُسين عليهما السلام أمامها، وخرجت إلى البقيع باكية، فلا تزال بين القبور باكية، فإذا جاء الليل أقبل أمير المؤمنين عليه السلام إليها وساقها بين يديْه إلى منزلها. ولم تزل على ذلك إلى أنْ مضى لها بعد موت أبيها سبعة وعشرون يوماً واعتلّت العلّة التي تُوفّيت فيها، فبقيت إلى الأربعين»، المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج43، ص ص177-178.

980 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص293؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص306.

981 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، م5، ص ص222-223. وكذلك: «كان الوليد بن عبد الملك حين ولي الإمارة في سنة ستّ وثمانين قد شرع في بناء جامع دمشق، وكتب إلى نائبه بالمدينة، ابن عمّه عُمر بن العزيز، أنْ يُوسّع في مسجد المدينة فوسّعه حتى من ناحية الشرق فدخلت الحجرة النبويّة فيه»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص294.

982 - انظر: وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**.

983 - انظر مثلاً:

HERTZ, Robert, *Contribution à une étude sur la représentation collective de la mort*, pp. 23, 37-39.

984 - ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج5، ص ص257-259.

985 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م2، ص ص235-236؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، م2، ص ص437-438.

986 - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م2، ص441.

987 - «كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث»، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م2، ص443.

988 - «إنّ أبا بكر وعُمر لم يشهدا دفن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كانا في الأنصار فدُفن قبل أنْ يرجعا»، ابن أبي شيبة، المصنّف، كتاب المغازي، باب ما جاء في خلافة أبي بكر وسيرته في الردّة، الحديث: 38043، ج13، ص469؛ «ولم يحضر دَفنَ رسول الله صلّى الله عليه وآله أكثرُ الناس لِمَا جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة وفات أكثَرهم الصلاةُ عليه لذلك»، الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حُجج الله على العباد، ج1، ص189.

989 - «لولا أنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من بني هاشم اشتغلوا بدفن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبحزنهم عليه فجلسوا في منازلهم، ما طمع فيها مَن طَمعَ»، الواقدي، كتاب الردّة، ص ص45-46.

990 - «ثمّ ثَقُل عليه السلام وحضره الموت وأمير المؤمنين عليه السلام [= علي بن أبي طالب] حاضر عنده. فلمّا قرُب خروج نفسه قال له: ضع رأسي يا عليّ في حجرك، فقد جاء أمر الله عزّ وجلّ، فإذا فاضت نفسي فتناولْها بيدك وامسح بها وجهك، ثمّ وجّهني إلى القبلة وتولَّ أمري وصلّ عليّ أوّل الناس، ولا تفارقني حتى تواريَني في رمسي، واستعن بالله تعالى. فأخذ عليّ رأسه فوضعه في حجره فأُغميَ عليه [...] ثمّ قضى عليه السلام ويد أمير المؤمنين عليه السلام اليُمنى تحت حنكه حتى فاضت نفسه عليه السلام فيها، فرفعها إلى وجهه فمسحه بها، ثمّ وجّهه وغمّضه ومدّ عليه إزاره واشتغل بالنظر في أمره [...] ولم يحضر دَفنَ رسول الله صلّى الله عليه وآله أكثرُ الناس لِمَا جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة وفات أكثَرهم الصلاةُ عليه لذلك»، الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حُجج الله على العباد، ج1، ص ص186، 187، 189.

991 - كان عليّ بن أبي طالب يحتجّ على خصومه بقيامه بتجهيز النبيّ ودفنه وجمعه القرآن لمّا كانوا يُفاوضون في أمر الخلافة: «قال: كنتُ عزمتُ ألاّ أخرج من منزلي حتى أجمع القرآن؛ حلفتُ أن لا أرتدي بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم برداء ولا أخرج من منزلي حتى أجمع القرآن كما أُنزل»، البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ج2، ص ص268، 271. وانظر كذلك: سُليم الهلالي، كتاب سُليم، ج2، ص665.

992 - سُليم الهلالي، كتاب سُليم، ج2، ص699.

993 - ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج30، ص ص37-38؛ ابن الأثير، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ج3، ص210

994 - البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ج10، ص ص54، 56.

995 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، م2، ص224، م3، ص171؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، 439؛ البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحقّ بالإمامة، الحديثان: 682، 713، ج1، ص ص226، 235.

996 - ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، م3، ص182؛ البلاذري، **جُمل من أنساب الأشراف**، ج2، ص261؛ ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج2، ص53؛ الجوهري، **السقيفة وفَدَك**، ص66.

997 - ابن بكّار، **الأخبار الموفّقيات**، ص ص469-470.

998 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص460.

999 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص461.

1000 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص ص461، 462.

1001 - «كان بحضرموت ستّ نسوة من كندة وحضرموت يتمنّين موت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخضبن أيديهنّ بالحنّاء وضربن بالدفوف. فخرج إليهنّ بغايا حضرموت، ففعلن كفعلهنّ. وكان اللواتي اجتمعن إلى الستّ النسوة نيفاً وعشرين امرأة، فكنّ مُتفرّقات في قرى حضرموت [...] منهنّ العُمردة بنت معدى كرب، وهُنيْدة بنت أبي شمر، فهاتان من الأشراف، ومَنْ تأشّب إليهنّ: التّيحاء الحضرميّة وهي أمّ سيف بن معدى كرب، وأمّ شراحيل بنت عفير وهي جدّة عبد الرحمان بن هارون بن الأرحوب، وحَبرة بنت شريح من الأرحوب، وفُريضة جدّة أبي الجُليْح من حضرموت، ومَلْكة بنت أماناة بن قيس بن الحارث بن شيبان بن العاتِك من كندة، ومَلْكة بنت قيس بن شراحيل، كندية، وابنة الأودح بن أبي كرب، كندية، وامرأة من تنعة شريفة ما سُمّيت، وهرّ بنت يامن اليهودية التي كان يُضرب بها المثل في الزنا فيُقال: أزنى من هرّ، وكان لها أخ قيْن يُقال له مَوْرَق، وأمّ معدان»، ابن حبيب، **المحبّر**، ص ص184-185. وتأشّب إليهنّ اجتمع إليهنّ. وقَيْن عبدٌ. الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، مادة أشب، مادة قين.

1002 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص475.

1003 - المسعودي، مروج الذهب، م1، ج2، ص301.

1004 - «وقد ارتدّت العرب إمّا عامّة وإمّا خاصّة في كلّ قبيلة، ونجم النفاق، واشرأبّت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم وقلّتهم وكثرة عدوّهم»، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص461.

1005 - «لمّا مات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عظم الخطب واشتدّ الحال ونجم النفاق بالمدينة، وارتدّ مَن ارتدّ من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون عن أداء الزكاة إلى الصدّيق، ولم يبقَ للجمعة مقام في بلد سوى مكّة والمدينة»، ابن كثير، **البداية والنهاية**، م3، ج6، ص335.

1006 - الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص478.

1007 - «لمّا تُوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر مَن كفر من العرب، فقال عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه: كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أُمرتُ أنْ أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فمن قالها عَصمَ منّي مالَه ونفسَه إلاّ بحقّه، وحسابُه على الله»، البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، الحديثان: 1399، 1400، ج1، ص ص431-432.

1008 - علي عبد الرازق، **الإسلام وأصول الحكم**، ص109.

1009 - «كانت امرأة من الأنصار تُدعى حسرة، تغشى آل محمّد وتحنّ، وإنّ زُفَر وحَبْتَر لقياها ذات يوم، فقالا: أين تذهبين، يا حسرة؟ فقالت: أذهب إلى آل محمّد فأقضي من حقّهم، وأحدث بهم عهداً، فقالا: ويلك، إنّه ليس لهم حقّ، إنّما كان هذا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله. فانصرفت حسرة. بيان: زُفَر وحَبْتَر عُمر وصاحبه، والأوّل لموافقة الوزن، والثاني لمشابهته لحَبْتَر وهو الثعلب في الحيلة والمكر»، المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمّة الأطهار**، ج22، ص223، ج37، ص119. وانظر كذلك: سُليم الهلالي، **كتاب سُليم**، ج2، ص600.

«قد أوردنا في كلّ باب من هذا الكتاب طرفاً من الأخبار بحسب ما احتملته الحال، ولم نستقص ما جاء في كلّ معنى منه كراهيةَ الانتشار في القول ومخافةَ الإملال به والإضجار. فلا ينبغي أنْ ينسبنا أحدٌ فيما تركناه من ذلك إلى الإهمال ولا يحملَه على عدم العلم منّا به أو السهو عنه والإغفال»

الشيخ المُفيد، **الإرشاد في معرفة حُجج الله على العباد**، ج2، ص388

«فهذا القدر كافٍ، ولو رُمنا شرح أحواله على الاستقصاء لكان عدّة مجلّدات، وفي هذا كفاية للمذاكرة والتبرك فلا نطول فيه، والسلام»

ابن الأثير، **أُسد الغابة**، ج1، ص42



المصادر والمراجع المذكورة في الهوامش

1 - النصوص المؤسّسة

* القرآن الكريم، كُتب وضُبط على ما يوافق رواية حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي لقراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي التابعي عن أبي عبد الرحمان عبد الله بن حبيب السُّلَمي عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي بن كعب عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، د. ت.

* الكتاب المقدّس، كتب العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، 1998.
* الكتاب المقدّس، الإنجيل للقديس لوقا، دار المعارف، القاهرة، 1993.
* الكتاب المقدّس، الإنجيل للقديس متى، دار المعارف، القاهرة، 1989.
* الكتاب المقدّس، الإنجيل للقديس يوحنّا، دار المعارف، القاهرة، 1996.

2 - المصادر والمراجع باللغة العربية

* ابن أبي الحديد، عزّ الدين أبو حامد بن أبي الحديد المدائني المعتزلي [ت 656هـ]، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، 10م، 20ج، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، 1378هـ/ 1959م.
* ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمّد بن إبراهيم بن أبي شيبة [ت 235هـ]، **المصنّف**، تحقيق حمد بن عبد الله الجمعة ومحمّد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرُّشد، الرياض، 1425هـ/ 2004م.
* ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير [ت 630هـ]، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، 6ج، دار الفكر، بيروت، 1390هـ/ 1970م.
* ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير [ت 630هـ]، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، 11م، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1407هـ/ 1987م.
* ابن بكّار، الزبير بن بكّار [ت 256هـ]، **الأخبار الموفّقيات**، تحقيق سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، 1416هـ/ 1996م.
* ابن تيمية، تقيّ الدين أحمد بن تيميّة [ت 728 هـ]، **أهل الصُّفّة وأحوالهم**، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1410هـ/ 1990م.
* ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب [ت 254هـ]، **كتاب المُحبّر**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

* ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني [ت 852هـ]، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق خيري سعيد، 8ج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت.
* ابن خلدون، وليّ الدين عبد الرحمان بن محمّد بن خلدون الحضرميّ [ت 808هـ]، **المقدّمة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
* ابن رستم الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري [ق 4هـ]، **دلائل الإمامة**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1408هـ/ 1988م.
* ابن سعد، محمّد بن سعد بن منيع البصري الزهريّ [ت 230هـ]، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، 1435هـ/ 2014م، 9م [المجلّد التاسع فهارس].
* ابن سعد، محمّد بن سعد بن منيع البصري الزهريّ [ت 230هـ]، **الطبقات الكبرى، متمّم الصحابة، الطبقة الخامسة في مَنْ قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهم أحداث الأسنان ولم يغز منهم أحد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد حفظ عامتهم ما حدّثوا به عنه، ومنهم مَنْ أدركه ورآه ولم يُحدّث عنه شيئاً**، 2ج، مكتبة الصدّيق، الطائف، 1414هـ/ 1993م. [سلسلة الناقص من طبقات ابن سعد]
* ابن سلاّم الجُمحي، محمّد بن سلاّم الجُمحي [ت231هـ]، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق محمود محمّد شاكر، دار المدني، جدّة، دت.
* ابن شهرآشوب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني [ت 588هـ]، **مناقب آل أبي طالب**، 4ج، دار الأضواء، بيروت، 1412هـ/ 1991م.
* ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، 15 م، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
* ابن عبد ربّه، شهاب الدين أحمد بن محمّد المعروف بابن عبد ربّه الأندلسي [ت 328هـ]، **العقد الفريد**، 7م، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1990.
* ابن عبد الوهاب، حسين بن عبد الوهاب [ق 5هـ]، **عيون المعجزات**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1403هـ/ 1983م.
* ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر [ت 571هـ]، **تاريخ مدينة دمشق**، 80ج، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/ 2000م.
* ابن قُتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة الدّينوري [ت 276هـ]، **الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء**، تحقيق علي شيري، 2ج، دار الأضواء، بيروت، 1410هـ/ 1990م.
* ابن قُتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة الدّينوري [ت 276هـ]، **تأويل مختلف الحديث**، دار الجيل، بيروت، 1411/ 1991.
* ابن قُتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة الدّينوري [ت 276هـ]، **الشعر والشعراء**، تحقيق أحمد محمّد شاكر، 2ج، دار المعارف، القاهرة، 1982.
* ابن قُتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة الدّينوري [ت 276هـ]، **المعارف**، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، 1981.
* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عُمر بن كثير القرشي [ت 774هـ]، **تفسير القرآن العظيم**، 4ج، دار الجيل، بيروت، 1990.
* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عُمر بن كثير القرشي [ت 774هـ]، **البداية والنهاية**، 7م، 14ج [+ مجلد ثامن للفهارس]، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988-1993.

* ابن ماجة، الحافظ أبو عبد الله محمّد بن يزيد القزويني [ت 275هـ]، **سنن ابن ماجة**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، 2 ج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
* ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم بن منظور الإفريقي المصري [ت 711هـ]، **لسان العرب**، 10 م، 20 ج، بولاق، المطبعة الأميرية، 1300-1307هـ.
* ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام [ت 213هـ]، **السيرة النبوية**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، 3 م، 6 ج، دار الجليل، بيروت، 1991.
* أبو القاسم الكافي، على بن أحمد المعروف بأبي القاسم الكافي [ت 352هـ]، **الاستغاثة في بدع الثلاثة**، 1 م، 2 ج، مؤسسة الأعلمي، طهران، 1373هـ.
* أبو نعيم الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني [ت 430هـ]، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، 11 ج، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الفكر، بيروت، 1416هـ/ 1996م.
* الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي [ت 692هـ]، **كشف الغمّة في معرفة الأئمّة**، 4 ج، المجمع العالمي لأهل البيت، بيروت، 1433هـ/ 2012م.
* أرسطوطاليس، **فنّ الشعر**، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقّق نصوصه عبد الرحمان بَدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973.
* الأصفهاني، أبو الفرج الأصفهاني [ت 356هـ]، **مَقاتِل الطالبيين**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، 1368هـ/ 1949م.
* البخاري، عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري [ت 256هـ]، **الجامع الصحيح**، ترقيم وتبويب محمّد فؤاد عبد الباقي، 4 ج، المطبعة السلفية، القاهرة، 1400هـ.
* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري [ت 279هـ]، **جُمل من أنساب الأشراف**، 13 ج، تحقيق سهيل زكّار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، 1996.
* بن سلامة، رجاء، **الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومُسْلم**، دار الجنوب للنشر، تونس، 1997.
* البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحُسين البيهقي [ت 458هـ]، **دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، وثّق أصوله وخرّج حديثه وعلّق عليه عبد المُعطي قلعجي، السفر السابع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.
* الترمذي، الحافظ أبو عيسى محمّد بن عيسى الترمذي [ت 279هـ]، **الجامع الكبير**، 6 ج، تحقيق بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
* الثعالبي، أبو منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري، **فقه اللغة وسرّ العربيّة**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
* جعيّط، هشام، **في السيرة النبوية، -1 الوحي والقرآن والنبوّة**، دار الطليعة، بيروت، 1999.
* جعيّط، هشام، **في السيرة النبوية، -2 تاريخية الدعوة المحمّدية في مكّة**، دار الطليعة، بيروت، 2007.
* الجوهري، أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري(ت 323هـ)، **السقيفة وفَدَك**، تحقيق باسم مجيد الساعدي، العتبة الحسينية المقدّسة، كربلاء، 1432هـ/ 2011م.
* الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الحاكم النيسابوري [ت 405هـ]، **المستدرك على الصحيحيْن**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، 5 ج، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1422هـ/ 2002م.

* الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الرازي [ت 604هـ]، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، 16م، 32ج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ/ 1991م.
* الرحماني، أحمد الرحماني الهمداني، فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى، مؤسسة البدر للتحقيق والنشر، طهران، 1410هـ.
* الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي [ت 538هـ]، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 4ج، دار المعرفة، بيروت، دت.
* الزّهري، محمّد بن مسلم بن عُبيد الله بن شهاب الزّهري، المغازي النبويّة، دار الفكر، بيروت، 1401هـ/ 1981م.
* السعفي، وحيد، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، تبر الزمان، تونس، 2001.
* السعفي، وحيد، القربان في الجاهليّة والإسلام، تبر الزمان، تونس، 2003.
* سُليم الهلالي، سُليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي [ت 76هـ]، كتاب سُليم بن قيس الهلالي، تحقيق محمّد باقر الأنصاري الزنجاني الخوئيني، 3ج، نشر الهادي، قُم، 1415هـ/ 1995م.
* السُّهيلي، عبد الرحمان السُّهيلي [ت 581هـ]، الروض الأُنُف في شرح السيرة النبويّة لابن هشام، تحقيق عبد الرحمان الوكيل، 7ج، دار الكتب الإسلامية، 1387هـ/ 1967م.
* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي [ت 911هـ]، الإتقان في علوم القرآن، 1م، 2ج، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د. ت.، [وبهامشه إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني].
* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي [ت 911هـ]، الدرّ المنثور في التفسير المأثور، 8ج، دار الفكر، بيروت، 1433هـ/ 2011م.
* الشيخ المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقّب بالشيخ المفيد [ت 413هـ]، الاختصاص، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، د. ت.
* الشيخ المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقّب بالشيخ المفيد [ت 413هـ]، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، 2ج، مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، 1429هـ/ 2008م.
* الشيخ المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقّب بالشيخ المفيد [ت 413هـ]، الجَمل أو النصرة في حرب البصرة، المكتبة الحيدرية، النجف، 1403هـ/ 1983م.
* الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي [ت 548هـ]، مجمع البيان في تفسير القرآن، 10م، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/ 1997م.
* الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي [ت 620هـ]، الاحتجاج، 1م، 2ج، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1403هـ/ 1983م.
* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري [ت 310هـ]، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، 8ج، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1983.
* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، [ت 310هـ]، تفسير الطبري المسمّى جامع البيان في تأويل القرآن، 12 م، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
* العاملي، جعفر مُرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، 8ج، دار الهادي/ دار السيرة، بيروت، 1415هـ/ 1995م.

* عبد الرازق، علي عبد الرازق، **الإسلام وأصول الحكم**، دار الجنوب للنشر، سلسلة معالم الحداثة، تونس، 1996.

* علي، جوّاد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، 10م، منشورات الشريف الرضيّ، بغداد، 1380هـ.

* الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي [ت 817هـ]، **القاموس المحيط**، 4ج، دار الجيل/ المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د. ت. ومنه نسخة مرتّبة على ترتيب أوائل الحروف عنوانها: **ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**، ترتيب الطاهر أحمد الزاوي، 4ج، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1980.

* القرطبي، أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي [ت 671هـ]، **الجامع لأحكام القرآن**، 10م، 20ج، [+ مجلد فهارس]، دار الفكر، بيروت، 1414-1416هـ/ 1993-1995م.

* القمّي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمّي [ق 3هـ]، **تفسير القمّي**، 3ج، مؤسّسة الإمام المهدي، قم، 1435هـ.

* الكليني، محمّد بن يعقوب الكليني [ت 329هـ]، **الكافي**، 8ج، منشورات الفجر، بيروت، 1428هـ/ 2007م. [**أصول الكافي**: ج1 - ج2، **فروع الكافي**: ج3 - ج7، **روضة الكافي**: ج8]

* المجلسي، محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار: كتاب الفتن والمحن** (ج28 - ج34)، **تاريخ محمّد** (ج15 - 22)، **تاريخ الزهراء**(ج43)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن عليّ المسعودي [ت 346هـ]، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، 2م، 4ج، دار الأندلس، بيروت، 1404هـ/ 1984م.

* مُسلم بن الحجّاج، أبو الحُسين مُسلم بن الحجّاج بن مُسلم القُشيْري النَّيسابوري [ت 261هـ]، **صحيح مُسلم**، تحقيق وترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، 5ج، دار إحياء الكتب العربية/ دار الحديث، القاهرة، 1412هـ/ 1991م.

* المُصعب الزبيري، أبو عبد الله المُصعب بن عبد الله بن المُصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام المعروف بالمُصعب الزبيري [ت 236هـ]، **كتاب نسب قريش**، نشر إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1982.

* الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري [ت 468هـ]، **أسباب النزول**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1991.

* الواقدي، محمد بن عمر بن واقد [ت 207هـ]، **كتاب الردّة**، تحقيق يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1410هـ/ 1990م.

* الواقدي، محمد بن عمر بن واقد [ت 207هـ]، **كتاب المغازي**، تحقيق مارسدن جونس Marsden Jones، 3 ج، عالم الكتب، بيروت، 1404هـ/ 1984م.

* ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق إحسان عبّاس، 7ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993.

* ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، 5م، دار صادر، بيروت، 1397هـ/ 1977م.

* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري [ت 292هـ]، تاريخ اليعقوبي، 3ج، المكتبة الحيدرية، النجف، 1384هـ/ 1964م.

3 - المراجع بغير اللغة العربية

* ABDESSALEM, Mohamed, *Le thème de la mort dans la poésie arabe des origines à la fin du IIIè/IXè siècle*, Publications de l'Université de Tunis, Tunis, 1977.
* ALLENDY, René, *Le symbolisme des nombres. Essai d'arithmosophie*, Chacornac Frères, Paris, 1948.
* Al-AZMEH, Aziz, *The Emergency of Islam in Late Antiquity: Allah and his people*, Cambridge University Press, 2014.
* CASANOVA, Paul, *Mohammed et la fin du monde. Etude critique sur l'Islam primitif*, Librairie Paul Geuthner, Paris, 1911.
* CHEVALIER, Jean & GHEERBRANT, Alain, *Dictionnaire des symboles*, 4 vol., Seghers, Paris, 1973-1974.
* CRUBÉZY, Éric, *Aux origines des rites funéraires : voir, cacher, sacraliser*, Odile Jacob, Paris, 2019.
* DJAÏT, Hichem, *La Grande Discorde*, Cérès Éditions, Tunis, 2006.
* ELIADE Mircea, *Traité d'histoire des religions*. Payot, Paris, 1991.
* *Encyclopédie de l'Islam(*E.I.), 2ème édition, E. J. Brill, Leiden, G.-P. Maisonneuve & Larose, Paris, 1975-2005.
* GIRARD, René, *la route antique des hommes pervers*, Grasset, Le Livre de Poche, Paris, 1985.
* GIRARD, René, *La violence et le sacré*, Grasset, Le Livre de Poche, Paris, 1980.
* GIRARD, René, *Le bouc émissaire*, Grasset, Le Livre de Poche, Paris, 1982.
* HERTZ, Robert, *Sociologie religieuse et folklore, Contribution à une étude sur la représentation collective de la mort*, PUF, Paris, 1970. Édition électronique réalisée par Gemma Paquet, Collection Les Classiques des Sciences Sociales, Chicoutimi, Quebec, 2003.
* *La lune, mythes et rites*, ouvrage collectif, Seuil, Coll. Sources orientales, vol. 5, Paris, 1962.
* LAMMENS, Henri, *La «Triumvirat» Aboû Bakr, 'Omar et Aboû 'Obaida*, Mélange de la Faculté de l'Université St Joseph de Beyrouth, vol IV, 1910, pp. 113-144.
* OUARDI, Hela, *Les Califes maudits, * La déchirure*, Albin Michel, Paris, 2019.
* OUARDI, Hela, *Les derniers jours de Muhammad*, Albin Michel, Paris, 2016.
* THOMAS, Louis-Vincent, *Anthropologie de la mort*, Payot, Paris, 1979.
* THOMAS, Louis-Vincent, *Rites de mort pour la paix des vivants*, Fayard, Paris, 1985.
* VON FRANZ, Marie-Louise, *Nombre et temps, psychologie des profondeurs et physique moderne*, La Fontaine de Pierre, Paris, 1998.

فهرس الموضوعات

